(فهرست الجزء الاول من كتاب المصابيح المنيره فى تواريخ القرون الاخيره)

الفصل الثانى

صحيفه

الكلام

صحيفه

بيان الخطأ والصواب الواقع فى هذا الكتاب

خطا	صواب	صحيفه	سطر
السوسيه	السويسه	١٥	٢٣
الذين زالا	اللذين زالا	٨٩	١٣
البحث	البحث	١١٦	١٧
كانت مجصورة	كانت محصورة	٢٨٤	٢٢
لما يحاوز	لما تجاوز	٣٤٥	١٧
والسؤدد	والسودد	٤٥٦	٢١
وهوجاث	وهوجاثى	٥٤٦	٢١
تطر الحكم	الحكم بعينه	٥٤٩	٥
ولم يمنع	ولما لم يمنع	٥٥١	٢٥
الايوازنتها	لايوازنتها	٥٩٥	١٧

كتاب المصابيح المنيرة
فى تواريخ القرون الاخيرة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اذا استهل لسان القلم فى الطروس * وزفت اليها من ابكار المعانى عروس * وتأرخت فى مزهر رياضها سيرتها * وتخلدت فى لجة بحارها دررها * حق علينا ان نضرع اولا لذى الجلال بالحمد * ونخضع له بالاستغفار مما وقع من سهو وعمد * ثم نصلى ونسلم على من نطق القرءآن بسيرته وسودده * وشيد به الدين وقوم اعوجاج اوده * وعلى آله واصحابه * وانصاره واحزابه * ما اعتنى بالتاريخ لبيب * واقتطف ثمار المعانى نجيب * وبعد فيقول راجى رحمة الجليل * حنفى هند بن اسماعيل * قد استيقظ المجد من غفلته * وبزغ هلاله بعد غيبته * وانتشر ضوءه فى الآفاق * حتى استوى على السبع الطباق * وخص من البرية من خص * فنهضت مبادرا الى انتهاز الفرص * وثنيت عنان مطيتى اليه * ووقفت ممتثلا بين يديه * فقبل منى

شكايتي * ودرأ عني لهفتي * واحلني بمدرسة الالسن التي انشأها صاحب السعادة * ومعدن السماح والسيادة * غرة جباه اهل العصر * من يفتخر به على الفخر * مقلد نحورنا بقلائد اسدائه ورفده * ومحمل نفوسنا مالا نطيق القيام بواجب شكره وحمده * من لبى لسان الدهر لدعوته * وانقاد لاوامره وسطوته * حلية جيد الامرآء الكرام * وواسطة نظام عقد الاماجد الفخام * من لهيبته الاسود تحاشى * افندينا الحاج محمد على باشا * لازال يطاء هامة العز والمجد * ويرقى ذروة المفاخر والسعد * فلبثت تحت يد مدير اشغالها * وناسج حلة جمالها * ذى الاخلاق الحميدة * والمآثر العديدة * المولى الاجل * والغيث المنهل * الذى فضله اشهر من ان يذكر * وجميل صفاته لا يحصى ولا يحصر * من هو لانواع الكمالات جامع * العلامة السيد رفاعة افندى بدوى رافع * فبذل فى تربيتى كغيرى جهده * الى ان بلغ كلنا اشده * وتعلمنا من اللغة الفرنساوية والعربية ما يغنى اللبيب * ويقنع به ان شاء الله تعالى الحاذق الاريب * ويرفع به حجاب الجهل * ويداس به فى وعر الكلام والسهل * فلما علم منى غاية الاجتهاد * امدنى من رعايته باجل امداد * وامرنى ان اترجم من الفرنساوية الى العربية * كتابا من اجل الكتب الافرنجية * للمؤلف الشهير راغون * يتضمن حوادث ما تأخر من القرون * لعموم نفعه فى المدارس * وانطوائه على كثير من المحاسن والنفائس * فتلقيت امره بالطاعة * ولم اتأخر عنه ساعة * وشمرت عن ساعد الجد * رغما عن انف الحاسد والضد * واتيت فى تعريبه بعبارات تعذب حلاوتها لدى الذوق السليم * وتشهد لقائلها بين الانام بحسن التربية والتعليم * مع اعتمادى عليه فى حل مشكلاته * وكشف غوامضه ومعضلاته * فجاء بحمد الله مهذب المبانى * محرر الالفاظ والمعانى * وجعلته اتحافا لحضرة الذات الفائقة فى جميع العلوم * الرائقة فى فهم المنطوق والمفهوم * التى عادت ادارتها على جميع المدارس بالنفع العام * وشهد بكمالها فى جنسها الخاص

والعام * نادرة الايام * واعجوبة الاعوام * حضرة مدير المدارس المصرية * ومفتش المهمات الحربية * ميراللوا ادهم بيك افندى * حفظه مولاه المعيد المبدى * وحيث تم هذا التعريب الغريب * بعون القريب المجيب * الذى يعم ان شاء الله تعالى نفعه * واستحسن عند ارباب المجلس طبعه * سميته المصابيح المنيرة * فى تواريخ القرون الاخيرة * وما توفيقى الا بالله * فى مبدء امرى ومنتهاه *

(مقدمة)

فى ذكر حالة بلاد اوروبا على وجه اجمالى (سنة ١٤٥٣) من الميلاد الموافقة لسنة ٨٥٧ من الهجرة النبوية وهى السنة التى فتح فيها السلطان محمد الثانى ابن السلطان مراد الثانى مدينة القسطنطينية

(الكلام على الدولة العثمانية)

قد فتحت هذه الدولة كثيرا من البلاد وكان سلاطينها اذ ذاك بمكان من المهارة والشجاعة ففى اثناء القرن الخامس عشر فتحوا ايالة بروسا وجميع الاقاليم اليونانية القديمة من بلاد اناطولى ماعدا مملكة طرابوزان وفتحوا ايضا من بلاد اوروبا بحيجزيرة القرم و رومللى ومملكة مقدونيا وبلغاريا وبلاد تساليا وبلاد اليونان الاصلية وجزائر من مورة ثم فتحوا مدينة القسطنطينية وكانت اذ ذاك جمهورية المماليك العسكرية حاكمة من اسيا على بلاد الشام ومن افريقة على بلاد مصر وكان بعض ملوك العرب حاكما ايضا على بلاد المغرب ثم دخلت هذه البلاد كلها تحت حكومة الدولة العثمانية بالتوالى والتدريج وبالجملة فلم يزل الدهر مسالما لهذه الدولة الفاتحة حتى ظهر تمرلنك فتعطلت حينئذ فتوحاتها بنصراته وبما وقع اذ ذاك من الفشل والفتن بين اولاد السلطان بايزيد ابن السلطان مراد الاول بعد موت ابيهم ومكثت على ذلك قليلا ثم عادت الى ظفرها الاول

بكثرة الفتوحات فى عهد السلطان مراد الثانى ابن السلطان محمد الاول والسلطان محمد الثانى ابن السلطان مراد الثانى حيث كان لسلاطين تلك الدولة مزية على ملوك النصارى وهى انتظام جيوشهم العديدة ووجاق الانكشارية الذى لم يكن له نظير فى الشجاعة والتربية العسكرية وصار يخشى على بلاد الفرنج من تلك الدولة حيث لم يكن لاهل الافرنجية من يذب عنهم غير شجعان ملوك المجار والارناؤط وعساكر البنادقة البحريين والابطال المتحزبين لنصر دين النصرانية من جزيرة رودس وغيرة البابات واجتهادهم فكان من الواجب عليهم حينئذ ان ينضموا الى بعضهم ليتقووا على قتال العثمانيين الا انهم لم يعملوا بما ابداه لهم البابات فى هذا المعنى من الحث والتحريض عليه مع انهم كانوا قبل ذلك لا يأمرون بشئ الا وتحصل المبادرة بامتثاله واجرائه لكن لما كانت الدول الافرنجية لم يزل وقوع الفتن القديمة باقيا بينهم الى ذلك الوقت لم يصغوا لقولهم فى هذا الشأن وكانت البغضة بينهم اشد من الخوف والرعب الذى لحقهم من الدولة العثمانية وكان ذلك معينا لها على تمكين سلطنتها وبقائها الى الآن

(الكلام على مملكة المجار)

لا يخفى ان هذه المملكة بعد أن كانت فى القرن الثانى عشر منظومة فى سلك الممالك القوية الشوكة من بلاد اوروبا هوت عن علو درجتها الى الحضيض واضمحلت فيها الشوكة الملوكية واتسعت دائرة مزايا المنيات اى اعيان اللاهيين والبارونات اى الاشراف ومنشأ ذلك وقوع الخلل فى حكومتها حيث صار الحل والعقد بايدى الرعية فكانوا يقلدون بالمنصب الملوكى من شاؤا وممن حظى به ألبيرت الثانى النمساوى سنة ١٤٣٧ من الميلاد ثم ابنه لادسلاس البوستوم اى الذى ولد بعد موت ابيه وكان استيلاؤه عليها سنة ١٤٤٠ ميلادية

وكانت اقاليم بشناق والسرب والافلاق والبغدان اذ ذاك تحت حكم

ملوك المجار فكانوا يأخذون منهم الخراج ويبعثون اليهم حكاما من طرفهم مطلق التصرف يقال لهم هسبودار ويقال لهم ايضا ووودة غير ان الحكمة الالهية اقتضت أن تقع هذه الاقاليم فى حكومة الدولة العثمانية ولم يعقهم عن تعجيل فتحها الا البطل يوحنا هونياد وكان نائبا على مملكة المجار مدة قصور لادسلاس المذكور وعاقهم بعده ابنه الشهم ماسياس كروان الذى كان يغير عليه النمساويون تارة ويهجم عليه الترك اخرى وهو يظفر بهم فكانت المجار فى ايامه فى اعلى درجات العز والسودد بانتصارها على اعدائها الا ان ذلك زال عنها بفراغ اجله

(الكلام على مملكة چه ويقال لها بالافرنجية بوهيمه)

هذه الولاية لم تنتظم فى سلك الممالك الا فى اواخر القرن الثانى عشر وكانت تابعة لايمبراطورية المانيا وكان الايمبراطور يولى عليها ملكا من طرفه يكون بذلك احد السبعة المنتخبين بالمانيا اى الذين لهم حق انتخاب ايمبراطور النمسا ويكون له ايضا بديوان الايمبراطور وظيفة شريفة ولم يكن ملوكها مطلقى التصرف على الرعايا لانه حين لبس التاج يؤخذ عليهم العهد والميثاق ان لا يتجاوزوا الحد فى الاحكام ولانه كان لهذه المملكة ديوان يسمى ديوان السنت كان له الكلمة العليا بالمملكة ولا يتغير ابدا ولما كان ينعقد فيها من مشاور الدييت الاهلية التى كان يحضرها جم غفير من الاشراف المتسلحين ليثبتوا مزاياهم وخصوصياتهم اما بالقوانين او بالقوة وكان لا يقلد بالمنصب الملوكى عادة الاقرب وارث للملك لكن كان ذلك لا يستدعى نسخ قانون الانتخاب الذى هو الاصل بل كان موقوفا حتى يوجد ما يقتضيه فيجرى عليه العمل فقد حصل (سنة ١٤٥٣) من الميلاد ان لادسلاس النمساوى كان يحكم تلك المملكة وكان قاصرا وكان الولى عليه جرجس بودبراد فلما مات لادسلاس بعد ذلك بخمس سنين ولم يعقب ذرية انتخب الهوسيتيون جرجس المذكور ملكا عليها وهم اصحاب حناهوس الذى

كان

كان من اعظم احبار جمعية براغة وحكمت عليه مشورة قونستنسة سنة ١٤١٥ من الميلاد بالحرق لخروجه عن دين الكنيسة الرومانية وكان ديوان رومة دائما في حيرة وقلق من هؤلاء الخوارج كما كان كذلك من العثمانية حتى ان البابات لخوفهم من غيرتهم الدينية وحميتهم التي كانت تزداد دائما بعثوا لمقاتلتهم طائفة من العساكر التي اعدتها مملكة المجار للذب عنها وحماية دين النصرانية

(الكلام على الامبراطورية الجرمانية)

كان رجوع كرسي الامبراطورية لعائلة الاستروسيا سنة ١٤٣٧ من الميلاد فاستوت عليه على ممر العصور وكر الدهور ثم ان الامبراطور كرلوس الرابع صدر عنه سنة ١٣٥٦ من الميلاد امر اشتهر بفرمان الذهب يتضمن حصر عدد المنتخبين للامبراطور في سبعة اشخاص وهم مطارنة مينسة وكولونيا وتريوه وملك جه والقونتة الحاكم على حكومة نهر الرين ودوق سكس وملتزم براندبورغة وجعل محل الانتخاب مدينة فرنكفورت واما مكان تقليد الامبراطور بالامبراطورية ولبسه تاجها فهو مدينة اكسيلاشيبلا وكان هؤلاء المنتخبون وحياقا مخصوصا في مشاور الديت اي مجالس العموم التي تعقد في شأن المصالح العامة وكان ارباب هذه المشاور ولاة الممالك والدول والامراء وكبار القسوس ورسل العمالات الموكلين عن الاهالي وكان من خصوصياتها ان تبت الامر في شأن الصلح والحرب والمعاهدات وتقنن القوانين وترتب المحاكم وتفصل دعاوى الامراء سواء كانت متعلقة بالمعاملات او الجنايات وتجمع محصولات الالتزامات الكبيرة وتجري قانون الكنيسة الجرمانيقية المتعلق بضبطها وربطها وتمنع التصرف في اراضي الامبراطورية ببيع اوغيره وكان لولاة الممالك رخصة في ان يفعلوا في ادارة داخل بلادهم ماشاؤا من غير استئذان الامبراطور وانما كان له عليهم حق الولاية والسيادة العليا وله ان يتحف من شاء بلقب او منصب ولكن لاحق له في تعيين من يخلفه على الامبراطورية

حيث ان هذا المنصب يلزم لصاحبه الانفراد بالكلمة العليا والسطوة التامة من غير مشارك وليس هو كذلك وللايمبراطور ايضا الحق فى معافاة من شاء من العوايد المقررة على الرعية وفى ضرب النقود وعقد مشاور الديت والرياسة فيها والتصرف فى الالتزامات الصغيرة المحلولة باقطاعها لمن يحب ويختار وبالجملة فمن حقوق الايمبراطرة التافهة التى لا طائل تحتها اختصاصهم بالابتداء فى الدعاء لهم فى الكنائس واحتفالات القسوس والرهبان وكان ضعف الايمبراطرة سببا فى دوام الخلل فى ايمبراطورية المانيا فان المنتخبين والامراء والبيكزادات والمدائن الحرة والفلاحين وجميع طوائف الدولة على اختلافهم كانت لا تنقطع من بينهم الغيرة والعداوة اصلا فكانوا دائما يحارب بعضهم بعضا وطالما صدرت اوامر الايمبراطور فى شأن الصلح وابطال العداوة والخصام العام ولم تجد شيأ وكذلك القسوس نشروا ما كانوا يسمونه هدنة الله لاجل هذا الغرض فلم تثمر بل تعود هؤلاء الجماعة على العصيان والخروج عن الطاعة حتى صار الخروج كانه غريزة فيهم فكان لا يؤثر فيهم انذار الشرائع الالهية ولا قصاص القوانين البشرية فمن ثم جعل الايمبراطور ونسلاس سنة ١٣٨٧ ميلادية ممالك الايمبراطورية على اربع حكومات تسمى دوائر وجعل على كل دائرة رئيسا يلقب مديرا منوطا بمنع وقوع ما يوجب الخلل فى دائرته ثم بطل هذا التقسيم بموته فجدده بعده كل من الايمبراطور سيجسموند والايمبراطور ألبيرت الثانى ونشأ عن ذلك ثمرات جليلة ومنافع جزيلة واما الايمبراطور فريدريق الثالث البارد وهو خليفة ألبيرت المذكور فلم يقدر على اجراء ذلك بل وقع فى مدته التى هى ثلاث وخمسون سنة (اعنى من سنة ١٤٤٠ الى سنة ١٤٩٣ من الميلاد ببلاد المانيا) جميع ما وقع فى الاحقاب الخالية من المصائب والحوادث الناشئة عن اختلال الادارة وعدم الضبط والربط فكأن ايامه لم تكن الا فترة طويلة اى كأن الايمبراطورية خالية عن صاحبها

وقد

وقد اختل نظام دول الجمعية الجرمانية بوقوع الفتن الداخلية فيها وفساد قوانينها فكان ذلك من سعد بلاد اوروبا اذ لولا ذلك لاستولت الجمعية المذكورة على تلك البلاد وبلغت ما كان قائما باذهان ايمبراطرتها من الدعاوى العريضة التي اثبتها لهم علماء الاحكام الذين كانوا بخدمة الايمبراطور حيث افهموهم ان لهم الحق في الحكم على جميع البلاد لانهم خلفاء القياصرة فكان بمقتضى اقوال هؤلاء العلماء لا يجوز الاستقلال والحرية للدول التي كانت تحت حكم الايمبراطورية وانفصلت عنها ولا للدول التي كانت تابعة لها ثم قامت بنفسها فلذا كان الايمبراطرة يتعللون بعلل مختلفة في دعواهم حق الولاء على مملكة له والمجار ومعظم بلاد ايطاليا وجميع الاقاليم التي كانت سابقا مكونة لمملكتي ارلس وبرغونيا بل وعلى مملكتي دانيمارقه واسوج ولكن لم تبلغ هذه الجمعية ما كانت تأمله في هذا المعنى ولم يتيسر لها ان تعمل على مقتضى دعاويها العريضة لانها لم يكن لها هيبة ولا صولة على مجاوريها لعدم اتفاق كلمة اربابها ووقوع الفشل والشقاق بينهم وضعف شوكة ايمبراطورها فلم ينتج عن تلك الدعاوى الا تقييدها في السجلات الالمانية وذلك ان الايمبراطور فريدريق الثالث لم يمكنه ابدا ان يبلغ ما كان يتطلبه من حق الولاء على مملكتي چه والمجار اللتين كانتا مع الايمبراطور سلفه ألبيرت وكان جديرا بادارتها وانما كان دائما يتطلب ذلك ولا يجدى طلبه شيأ وان كانت ايضا مدعاة الاستحقاق لمن قبله من الايمبراطرة فانه بعد موت لادسلاس تولى على هاتين المملكتين اثنان من الابطال المقاتلين كانا خصمين لفريدريق المذكور وكان لهما النصرة عليه لكن قد جرت المقادير الازلية بان هاتين المملكتين يدخلان على تداول الايام تحت حكومة عائلة هذا الايمبراطور الشديد الطمع

(الكلام على مملكة البروسة)

قد حصل في اوائل القرن الثالث عشر ان الطائفة التوتونيقية وهي فرقة

من النصارى الجرمانية كانت تحارب لاجل نصرة الدين القاثوليقى وذلك لانها لما امتنعت عن التوجه مع عموم نصارى الملل الافرنجية فى الغزوة الصليبية مع الاسلام لاخذ مدينة القدس لكونها رأت ان فخر هذا الحرب هين بالنسبة اليها بحثت فى شمال بلاد اوربا عما به تتسع دائرة شوكتها وعظم ولايتها فتغلبت على بلاد البروسة الشرقية بعد قتال شديد طالت مدته وسفكت فيه دماء كثيرة وادخلوا فيها دين النصرانية بعد ان كانت تعبد الاوثان ثم تغلبوا على كثير مما جاورهم من الاراضى والبلاد لما انه كان ينضم اليهم دائما قبائل من النصارى ويدخل تحت اعلامهم جموع من ابطال الملتزمين والاعيان وكذلك كان يعينهم طائفة البرنجليو اى السلحدارية او حملة السيوف من اقليم ليبونيا ولما كانت هذه الطائفة لاقدرة لها على القيام بنفسها دخلت تحت حكومتهم فكانوا يولون عليها رؤساء منهم وفى ابتداء القرن الخامس عشر صار لهم فى جهة الشمال مملكة واسعة مهابة كانت تشتمل على ولاية البروسة وبورانيا و دنتزيقة و مرشة الجديدة و ساموجيته و كورلنده و ليبونيا و استونيا فلما عظمت فتوحات الاسلام وصار يخشى من المسلمين على دين النصرانية كان يظن انهم هم الذين يقومون بنصرة الدين الا انه حين فتح السلطان محمد الثانى مدينة القسطنطينية قامت بلاد البروسة وبلاد بورانيا على التوتونيقية لشدة ظلمهم وجورهم فاستعان اهل البروسة وبورانيا باهل مملكة له فاعانوهم وادخلوهم تحت حمايتهم لا شفقة عليهم بل لما رأوا فى ذلك من المصلحة لانفسهم وترتب على تلك الحماية حروب عظيمة سفكت الدماء على تداول الايام

(الكلام على مملكة له)

لما تولى الجاجليون وهم دوقات لوثيانيا على كرسى مملكة له وقعت المحبة والالفة بين اللوثيانيين واللاهيين وتناسوا البغضة التى كانت بينهم وصاروا جميعا دولة واحدة تحت حكم ملك واحد فاجحف ذلك بطائفة

التوتونيقية

التوتونيقية التي ضعفت فيما بعد بعزم هاتين الامتين اللتين كانت بينهما وبينها منافسة بسبب فخارها وعظم شأنها وانما لم يظهر اعليها من مبدء الامر لما كان بينهما اذذاك من الفشل والشقاق فان شوكة الجاجلين التي حدثت عن قريب لولم تضربها المنافسة التي كانت واقعة ايضا بين اللاهيين واللوثيانيين لاختلاف لغتهما وكذلك فساد القوانين اللاهية لكانت مخوفة على من عداها من الامم ومع ان الاستيلاء على كرسي المملكة لم يكن في ذلك الوقت انتخابيا وكان امرآء العائلة الجاجلية يعتقدون ان لهم الحق في الحكومة شرعا وانها وراثية لهم كان اذا خلا الكرسي لا يتولى احد منهم الا بعد ان تنتخبه الاشراف ويستقر رأيهم عليه وكان لهم زيادة على هذه المزية العظيمة مزية اخرى وهي ان لهم الحق دون غيرهم في تعيين من ينوب عنهم في مشاور الدييت وانتخاب الحكام وفي وضع القوانين وكان لهم الحق ايضا في جميع المزايا التشريفية والمناصب دينية كانت او دنيوية وبالجملة فكانت جميع المزايا والخصوصيات مقصورة عليهم واما الاهالي والفلاحون فكانوا مكلفين بالمغارم والجرائم وغيرها مما يضرب عادة على اهل البلد وكان قانون هذه الدولة شبيها بالحكومة الدمقراطية اي جمهورية الاشراف من حيث استوآء الاشراف في الحقوق وعدم التفاضل بينهم وكانت المملكة مع اختلال حكومتها وتشاحن الامتين المؤلفة منهما دولتها تعد في عهد الجاجلين من ممالك الشمال القوية الشوكة الجليلة السطوة وكان في التزاماتها ثلاثة اقاليم التزامية تقيها من اغارات الدولة العثمانية وكانت لها بمنزلة الحصون المتينة وهي اقاليم الافلاق والبغدان والاردل ولما انضم اليها مملكة لوثيانيا وقسم من البروسة قويت شوكتها ونازعت دولة الاستروسيا الايمبراطورية في مملكتي المجار وچه وبعثت اليها ملوكا من طرفها وحيث ان هذه المملكة كانت قوية في ذاتها صاحبة شوكة في نفسها فاقوى الاسباب في ازدياد قوتها وبأسها هو ضعف ما جاورها من الممالك وذلك لان طائفة التوتونيقية كانت مبغوضة عند رعاياها لظلمها وشدة عسفها

فاستعانوا عليها باللاهيين كما سبق واما بلاد الاستروسيا فكانت كبلاد المانيا فى اختلال الحكومة وقيام الفتن وكثرة الهرج واما بلاد الروسيا فلم تكن فى ذلك الوقت الامتبربرة خشنية خالية عن التمدن والتمصر فانظر كيف انعكس الحال بعد ذلك حيث ان طائفة التوتونيقية اضمحلت بالكلية وآل امرها الى ان قام مقامها مملكة البروسة وبلاد الاستروسيا انتظمت حكومتها واضيف اليها عدة اقاليم وبلاد الروسيا خرجت من حيز الخشونة الى التمدن والرفاهية وصارت كل واحدة من تلك الممالك شوكة قوية يخشى باسها وصولتها واما مملكة له فآل امرها الى زوال ملكها حتى صارت فريسة لمجاوريها من الممالك التى من طبعها الحرص والطمع وما ذهبت دولتها الا لكونها بقيت على حالة واحدة لم تنتقل من حالة الى اخرى احسن منها حسبما اقتضته قوانينها المتنوعة المختلة بخلاف غيرها من الممالك فهى آخذة دائما فى اسباب التمدن وقوة الشوكة والبأس

(الكلام على دولة الروسيا)

كان ينبغى لدولة الروسيا ان تتأثر فى قديم الزمان بما حل بالاروام من المصائب والنكبات لموافقتها لهم فى العقائد والمناسك الدينية وأن يكون لها همة فى المحاماة عنهم والانتصار لهم الا ان هذه الدولة التى ظهرت الآن على الدولة العثمانية كانت سابقا عرضة لاغارات سلاطين التتار فكان لا يمكنها ان تلتفت لما دهمها من المصائب ولا تسعى الا فيما فيه انقاذها من ربقة الاسر واستعباد هؤلاء السلاطين فقد اشتغل دوقات الموسقو الكبار قبل الشروع فى محاربة الاجانب بتحصيل ما كان به استقلالهم وحريتهم واعادة ما كان لدولتهم من البلاد التى لم يبق معهم منها الا القليل لان معظمها كان تغلب عليه تتار مدينتى ازدراهان و قزان وجمهوريتا نوغورود وبسكوف وهما من ارباب التجارة وكذلك امارات اتوير و ويريا وريازان

الكلام

(الكلام على دانيمارقة واسوج ونروج)

اعلم ان الطوائف المتبربرة من اهل الشمال لما انكفت عن النزول بالبلاد الجنوبية واقامت في اطراف بحر بلطق اضطرمت بينهم نيران الحرب والقتال واظهروا في ذلك من الشهامة والحمية ما شربوا به قديما جنوب اوروبا واستمروا على ذلك عدة قرون لم يذوقوا فيها طعم الراحة الا في ايام الملكة مرغريطة فانها جمعت تحت حكومتها الممالك الثلاثة المذكورة آنفا بمقتضى المشارطة الشهيرة التي وقع الاتفاق عليها في قلعة كلمار (سنة ١٣٩٧) مسيحية غيران اجتماع هذه الممالك تحت حكم ملك واحد منتخب قل أن يدوم لما كان بين اهلها من الغيرة من بعضهم ومحافظة كل على قوانينه وشرائعه ومشوراته الخصوصية فمن ثم نقضت المشارطة المتقدمة (سنة ١٤٤٨) ميلادية وان كانت الملكة مرغريطة قد بذلت وسعها في ابقائها واستمرار الاتحاد بين هذه الممالك وقد ترتب على ما بقي بعد موتها من الدعاوى والمشاجرات حروب استغرقت قرنا كاملا ولكن قبل ان تقع هذه المشاجرات المتولدة من نفس القوانين المرتبة لتداركها ومنعها بين اسوج و نروج و دانيمارقة يعني وقت اتحاد هذه الامم الثلاثة مع بعضها كانوا اعظم الامم تباعدا عن التداخل في حروب الامم الجنوبية ولم تكن ثم امة خالية الغرض مثلهم بدليل ان الايمبراطور فريدريق الثالث لما دعا كرستيان الاول ملك اسوج الى اعانته على محاربة الدولة العثمانية اعتذر اليه بصعوبة السفر واخطاره وقال له حيث اني مشغول بقمع اعدائنا الافلنديين و اللابونيين عبدة الاوثان وجبرهم على الدخول في دين النصرانية ساغ لي ان اتخلف عن قتال العثمانية

(الكلام على جزائر ايقوسيا وانكلتره وارلنده)

كان اهل ايقوسيا و الانكليز يعتذرون ايضا عن تخلفهم عن قتال العثمانية ببعد البلاد وشطط العباد ولم يلحقهم تأثر من الفتن والاهوال المشرقية فكانوا في جزائرهم القاصية لا يبالون بما يقع لغيرهم من النصارى

ولا يتفكرون فى شأن تلك الاخطار الحالة بغيرهم لاشتغالهم بمصالح بلادهم الداخلية الضرورية فاما مملكة ايقوسيا فان ملكها ياكس الثانى بعد ما لحقه من المشاق ووقوع الفتن فى دولته مدة قصوره كان لا يتفكر اذ ذاك الا فيما به اصلاح مملكته وتنظيمها وكان مقتفيا اثر والده الملك ياكس الاول الذى هو اول من نسخ حكومة الملتزمين بتلك البلاد فمن ثم شمر عن ساعد الجد والاجتهاد فى اصلاح حكومته بوضع قوانين على غاية من الضبط والاحكام وحمل ديوان البرلمان اى مشورة وكلا الاهالى على اقرارها ووضع الصحة عليها

واما مملكة انكلتره فان ملكها هنرى الخامس الذى انتصر فى واقعة ازنكورت مات وترك ولده هنرى السادس فى المهد فورث عنه مملكتين ضاعت منه احداهما وهى مملكة ارلندة واهمل فى ادارة الاخرى وهى انكلتره وفى ايامه اضرمت طائفة الابورقيين نيران الحروب الداخلية لما انها كانت على غاية من الطمع والحرص فمكثت تلك الحروب ثلاثين سنة وكان ديوان البرلمان فى عهد هنرى الرابع وهنرى الخامس ضعيف الشوكة خليا عن القوة ونفوذ الكلمة لاستبداد هذين الملكين بالرأى وصعوبة قوانينهما فاخذ فى مدة قصور هذا الملك يسترجع ما كان له من الشوكة الا انه عما قليل زال عنه ما اجتهد فى تحصيله ومكث خاليا عن السطوة قرنا كاملا بعد أن كان عليه مدار التحزب والتعصب مدة حرب الوردتين (البيضاء والحمراء وهما كناية عن رئيسى العصب اللذين كان لاحدهما على سيفه صورة وردة حمراء وللآخر صورة وردة بيضاء)

واما جزيرة ارلنده فانها كانت تحت حكومة ملوك انكلتره وكان حكمهم عليها غير مستقر بل كان عرضة للزوال لما انهم كانوا يسلكون فى حكومتها مسلك القسوة الخشنية حتى تولد عنها عداوة لا زالت باقية الاثر الى الآن

(الكلام على مملكة فرانسا)

كان قبل ذلك ابطال هذه المملكة العظيمة من انصار دين النصرانية وكان لهم
شهرة عظيمة في الحروب التي وقعت مع المسلمين ببلاد افريقة و اوربا
وآسيا قبل حلول المصائب بمملكتهم في ايام كرلوس السادس حيث كان
قائدهم في تلك الحروب الامير دوبربون او يوحنا ميور و يوسيكوت
فلهذا لحق الفرنساوية من الاسف والحزن على فتوحات الاسلام ما لا مزيد
عليه غير انهم لما تخلصوا مما دهمهم من الاهوال وسوء الحال وظهروا على ذلك
بوجه عجيب اثروا التمتع بالامن والراحة في مملكتهم تحت حكم كرلوس السابع
الذي كان حسن التدبير والادارة على محاربة الاسلام وذلك ان هذا الملك
بعد أن انقذ تلك المملكة من ايدي الانكليز شرع في تقويم اودها واصلاح
شأنها وازالة ما لحق حكومتها من الخلل وجدد بها وجاقا من العساكر المستمرة
فكان بذلك قدوة لمن بعده من الملوك حيث سلكوا على منواله ولم يحتاجوا الى
وجاق الملتزمين العسكري اي الى طلب العساكر من الامرآء الملتزمين حكم
السابق وضرب على الرعية برضا مشورة وكلاء المملكة مغرما مستمرا يصرف
في مصالح هؤلاء العساكر وما يحتاجون اليه من اللوازم والمهمات وكان كلما
ازدادت خصايص الملك وقويت شوكته يغتاظ كبار الاشراف والامرآء
الملتزمين ويلحقهم من ذلك غيرة شديدة وكان بجنوب المملكة ملتزمون اصحاب
شوكة وصولة وهم فواكس و ألبريت و ارمنياق وكانوا لبعدهم عن
تخت المملكة لم يزالوا يظهرون الحرية والاستقلال وكان يفوقهم في الشوكة
دوق ابريطانيا ودوق برغونيا حتى كأنهما ليسا من كبار الرعية
الفرنساوية بل كأنهما اجنبيان وكانوا جميعا مصممين على انهم لا ينزلون
عما بقي لهم من المزايا والخصوصيات القوية الا بالحرب والقتال وقد حصل منهم
ذلك الحرب مع الملك وكانت له النصرة عليهم

(الكلام على بلاد السوسية)

كان اهل هذه المملكة في مبدء الامر تحت حكم دوق استرسيا اي ولاية نمج
ثم تخلصوا منه واستبدوا بانفسهم بعد مقاتلة شديدة ومحاربة طويلة وقعت بين

الفريقين وكانت نصرات السويسيين عليه عظيمة وربما يقال ان عملياتها تضاهي عمليات نصرات اليونان في قديم الزمان وصار لهم في اثناء القرن الخامس عشر دولة مستقلة حرة وان كانت لم تزل في الصورة تحت حكم الايمبراطورية وسميت جمهوريتهم بالمعاهدة السويسية وكانت هذه المعاهدة في مبدء الامر مؤلفة من اقسام ثلاثة وهي قسم اورى وقسم اشويتز وقسم اونتروالد ثم اتسعت دائرتها لما انضم اليها قسم مدن لوسرنة (سنة ١٣٣٢) من الميلاد وقسم زوريخ (سنة ١٣٥١) ميلادية وقسما غلارس وزوغ (سنة ١٣٥٢) ميلادية وقسم برنة (سنة ١٣٥٣) ميلادية وكان لكل واحد من هذه الاقسام ادارة مخصوصة على حسب ماتقتضيه الاحوال والاماكن ولم يترتب على اختلافهم في الحكومة مضرة لتأكد تلك المعاهدة وبنائها على الاتحاد في العوايد والاخلاق والمصالح وكان السويسيون اذذاك اعظم عساكر بلاد اوروبا وكان المشاة منهم مشهورين بانه لايمكن الظهور عليهم في القتال ولا غلبتهم في ميدان الحرب والنزال وما كان اسعد الخلف واوفر حظهم لولم يحملهم الطمع والحرص على ان يخرجوا من بلادهم ويتجاوزوا جبالهم ويسفكوا دماءهم في الحروب الاجنبية باستيجارهم عند الامم مع ان سلفهم مكثوا قبل ذلك قرنا كاملا لم تسفك من دمائهم قطرة الا لتحصيل استقلال جمهوريتهم واثبات حريتها

(الكلام على بلاد ايطاليا)

كان مما يتمنى لعلو شأن تلك البلاد وقيام حظها أن يكون لها من الشوكة والصولة ماتقدر به على منع ماجاورها من الممالك عن التعدى والاغارة عليها حيث كانت تلك الممالك تجعلها غرضا لسهام اطماعها وميدانا لحروبها التي سفكت فيها دماء كثيرة لكنها كانت منقسمة الى عدة دول (جمهوريات وممالك اوامارات) وكانت كل دولة منها لاقدرة لها في حد ذاتها على القيام بقمع العدو ومنعه عن التعدى ولم تكن تسلك في التدبير مسلكا حسنا بحيث تجتمع هذه

الدول

الدول المذكورة عند الحاجة ووقوع الخطر وتحارب العدو العام لها

فاما جمهورية البنادقة فكانت في الدرجة الاولى بين مدائن ايطاليا وقد حسن تدبيرها وانتظمت حكومتها منذ تمزقت الايمبراطورية الافرنجية واستحالت الى جمهوريات ارستقراطية اى تحت حكومة الاشراف (سنة ١٢٩٩ ميلادية) وكانت كلمتها متحدة ومشروعاتها متوالية وجميع افعالها متحدة الغرض فمن ثم حازت في مدة يسيرة اى (من سنة ١٣٨٨ الى سنة ١٤٥٢) ميلادية بالشراء وبالتغلب مدينة تريوزه ومدينة ويسنسه ومدينة ورونة وبسانو وفلتره وبلنو وبادوه وبرسيه وبرغامه وكريمونه وكانت ترسانتها دائما مستوفية للمواد والادوات اللازمة ولها عدة كبيرة من الدونمات ودائرة تجاراتها واسعة وكان لهم اماكن عديدة ملحقة ببلادهم في عدة جزائر من بلاد المشرق وسواحل مورة وكان نزولهم بها مستدعيا لغرض بوليتيقي زيادة على غرضهم الديني وهو محاربة الدولة العثمانية ولكنها كانت تقدم رجلا وتؤخر اخرى في التشبث بتلك المحاربة الخطرة وكانت تتخلف عن ذلك القتال الذي لابد من وقوعه عاجلا او آجلا وتؤخره بالمراسلات والمداولات

ولم تزل شوكة ايمبراطرة المانيا تضعف وتضمحل ببلاد ايطاليا حتى انحصرت بالنسبة اليها في مجرد التقليد بالمنصب الملوكي وحق الولاية والسيادة في تقليد ملتزمي اللنبردية بل انه بعد موت فيليبش ماريا الذي كان آخر دوقات عائلة وسقنتي لم يمكن للايمبراطور فريدريق الثالث اجراء تلك الخصوصيات الواهية فقد اتفق ان رجلا من اخلاط العساكر يقال له اسفورس ساعده القدر وتغلب على كرسي دوقة ميلان من غير أن يطلب هذا المنصب من الايمبراطور وينتظر امره في ذلك وكان من ملحقات تلك الدوقية وقتئذ مدينتا برمة وبلزنسة

واما عائلة اسطه فكانت حاكمة يومئذ على دوقتي فرارة ومودينة وهي عائلة شهيرة بلغت شهرتها مبلغا يتخلد به ذكرها ويبقى به على ممر الايام

فخرها والفضل فى ذلك للشاعر لاريوسط والشاعر لوتاس وقد خرج بها امرآء مشاهير امتازوا بالفضل والمعارف

واما عائلة سابوه فمازالت ترتقى بالبطئ شيأ فشيأ حتى وصلت الى الشوكة الملوكية فصار امرآؤها ملوكا على اقاليم سابوة وبيمونة ونيسة بعد أن كانوا قونتات على موريينه

واما اهل جنويرة فلم يكونوا فى ذلك الوقت على الحالة التى كانوا عليها حين انتصروا على اهل بيزة ومكثوا زمنا طويلا فى الخصام مع البنادقة بل كان ظهور اهل البنادقة عليهم فى الحرب الذى وقع بينهم فى اواخر القرن الرابع عشر وفتح الدولة العثمانية مدينة القسطنطينية بعد ذلك سببا فى انحطاطهم وتلاشى شوكتهم بالكلية لاسيما وكانت حكومتهم جمهورية دمقراطية اى اهلية متجاوزة الحد فى ترك الحل والعقد للاهالى وكانت دائما توجب بينهم الشقاق والفتن وكان يترآى من حالهم أنه لا يلايمهم حرية ولا استبعاد ولكنهم فى (سنة ١٣٩٦) ميلادية باعوا حريتهم بالراحة حيث دخلوا اولا تحت حكم ملوك فرانسا ثم دخلوا فى حكومة مركيزات منتفرات وحكومة دوقات ميلان

واما مدينة فلورنسة فانها صارت جمهورية فى اواخر القرن الثانى عشر تاسيا بمدآئن طسكانة وعما قليل بلغت مبلغا عظيما فى الغنى والثروة بسبب تجاراتها وفبريقاتها وادخلت تحت طاعتها مدآئن ارزو و بستوة و سيانة بل ومدينة بيزة واغلب المدآئن الحرة من دوقية طسكانة ماعدا مدينة لوقة وقد وقع لها ماوقع لمدينة جنويرة مما نشأ عن الحكومة الدمقراطية من الفتن والشقاق وقد بحثت فى اغتنام الفرص البوليتيقية عما تستعين به على اجرآء الحكومة الدمقراطية على وجه الثبات والدوام فلم تجد لذلك سبيلا ثم ظهر فيها عائلة شهيرة احلت بها الامن والارتياح وجلبت اليها السعد والفلاح وذلك ان كوم دومديس اخذ بزمام دولتها (سنة ١٤٣٤) ميلادية وكان مطلق التصرف فى احكامه مع انه لم يكن له من الرسوم

التشريفية

التشريفية لقب يمتازبه ولا علامة تدل على درجته ومنصبه وانما ارتقى الى تلك الدرجة العظيمة بمحض استقامته وما انطوى عليه من الخصال الحميدة وسعيه فيما يعود على وطنه بالنفع والفخار فصارت هذه المدينة في ايامه وفي ايام حفيده مركزا للتمدن والادب وجديرة بان يتخذها وطنا افاضل العلماء الذين هاجروا من بلاد القسطنطينية واليونان حين فتحها آل عثمان

واما البابات فقد مكثوا زمنا طويلا وليس لهم بمدينة رومة الاحكومة موقتة غير ثابتة ومحصورة في حدود ضيقة مع انهم كانوا يحكمون على جميع ملوك بلاد الافرنج ويعزلون من شاؤا من ملوكهم فلما نقل كرسي البابات من مدينة رومة الى مدينة اوينيون ولحق اهل هذه المدينة بذلك ما لحقهم من الضرر ووقع التفاقم والفشل في الكنيسة القاثوليقية والاعتزالات النصرانية حيث ظهر عدة بابات كل يدعي انه احق بالرتبة البابية دون غيره حمل ذلك اهل رومة على الاقلاع عن العصيان والرجوع الى الطاعة حتى ان من تولى من البابات بعد انتهاء ما كان في الكنيسة القاثوليقية من النزاع والاختلاف وجدهم على غاية من الانقياد والطاعة ومن (سنة ١٤٤٧) الى (سنة ١٤٥٥) تولى البابية نيقولا الخامس وكان بمكان من المهارة والثبات في ادارة المصالح وكان محبوبا عند كافة الناس فحصن قلعة سنتانج ليكون واثقا بطاعة الرومانيين ويامن غدرهم وخيانتهم ثم ان البابات وان كانوا على غاية من الامن والراحة في داخل بلادهم كان لهم في خارجها سببان عظيمان يوجبان لهم القلق والحيرة احدهما ان الاوامر الصادرة عن المشورة القسيسية التي انعقدت في باله واقرها كل من مملكتي فرانسا والنمسا كانت سببا في تقليل مزاياهم وحصرها في حدود ضيقة وثانيهما انهم بوصف كونهم اباء للنصارى كانوا يتضررون من سرعة تقدم الفتوحات الاسلامية وقد وقع في مدينة رومة ضجة عظيمة لما بلغهم فتح المسلمين للقسطنطينية فعند ذلك اخذ البابات في اشاعة هذا الخطب الجسيم الذي دهمهم في سائر البلاد الفرنجية وبثوه بين ابناء النصرانية طامعين في تحريضهم

على قتال الدولة العثمانية والانتقام منها فخاب سعيهم فى هذا الامر الممدوح لهم

واما مدينة نابلى فكان يحكمها اذذاك ألفونس الخامس ملك اراغونة وميسليا اى صقلية وكان ذلك بوصية الملكة حانة الثانية له بالملك بعدها ومن المعلوم انه كان اعظم ملوك عصره فقد كان جديرا بان يكون اسوة فى الفضائل الجليلة والصفات الجميلة وكان ينتصر لعلماء الادب ويلحظهم بعين عنايته ويدخلهم فى كنفه وحمايته وجدد بمملكة السيسليتين اى نابلى وصقلية مبانى فاخرة واماكن زاهرة وادخل فى دواوينه من انواع الرفاهية المستحسنة ما علت به دولته ذرى الفخار وحلت به اوج الاعتبار وحازت من السودد ما لم يسبق لها من عهد الامبراطور فريدريق الثانى غير ان ذلك كله زال بزوال ألفونس المذكور حيث وقع النزاع بعده بين عائلة انجو الملوكية فى شأن مملكتى نابلى وايطاليا فلما انتقل الحق فيهما للفرنساوية صارتا عرضة لاغارات الاجانب قبل انتهاء القرن

هكذا كانت حالة بلاد ايطاليا وقت فتح القسطنطينية وكانت تلك البلاد ممزقة الى عدة دول صغيرة اغلبها متباين فى الاغراض والمصالح وكانت عساكرها دائما مستأجرين اخلاطا واوباشا فلذا لم يكن لها قدرة على مقاومة عدوهم لضعفهم وقوته لكن كان يجبر خلل ذلك ما كان بها من العلوم والفنون فكانت المعارف تستر مثالبها وتدفع معايبها نعم لم يستطع ملوكها الاخذ بناصر حكماء اليونان الذين التجأوا اليهم الا انهم احسنوا معاملتهم واكرموا نزلهم

(الكلام على بلاد اسبانيا)*

كانت هذه البلاد فى ذلك الوقت تكاد تكون منعزلة عن بلاد اوربا وكانت منقسمة الى عدة ممالك وهى قسطيلة ونواره واراغونة

فاما مملكة قسطيلة فكان يحكمها هنرى الرابع وكان لضعفه وقبح سلوكه مستخفا به عند الرعية محتقرا لديهم فمن ثم قاموا عليه وخرجوا عن طاعته

وترتب

وترتب على ذلك وقوع الخلل العظيم في الحكومة

واما مملكة نوار فكان يحكمها الامير دون كرلوس لكونها استحقاقه وكان والده يوحنا الارغوني يفتات عليه ويسيء معاملته مع انه الاحق بالولاء عليها شرعا ومازال والده يسلك معه مسلك الجور والتعدي لشدة طمعه وحرصه حتى حمله على مبارزته ومقاتلته لاجل اثبات حقه

واما مملكة اراغونة فكان ملكها الفونس الخامس الذي شهرته في تاريخ ايطاليا اتم منها في تاريخ اسبانيا لكثرة ماوقع منه في بلاد ايطاليا من الحوادث والوقائع فلذا كان يوثر الاقامة بمملكة نابلي التي تغلب عليها بشهامته وشجاعته على غيرها من ممالكه التي كان مفوضا امر حكومتها لاخيه يوحنا الثاني الذي ورثه بعد موته وكان اذ ذاك من تعلقات هذه المملكة اقليما قتالونيا وبلنسية

وفي جميع الممالك الاسبانيولية كانت دائرة الشوكة الملوكية لها حد تقف عنده وكانت ارادة الملك مقيدة وذلك لان الجمعيات الاهلية هي التي كانت تضرب على الناس المغارم والجرائم وكان لها دخل في وضع القوانين والشرائع فكان اغلب ارباب مشورة القرطس بقسطيلة من رسل العمالات او المدائن الذين هم وكلاء الاهالي واما الاشراف في هذه المشورة فكانوا اقلا قليلا ولعل سبب ذلك ان الجمهورية الارستقراطية صاحبة الشجاعة تعتمد على احزابها الحربية اكثر من اعتمادها على اصحاب الاحكام الشرعية التي جعلتها لها قوانين الحكومة لمجرد مصادمة القوة المطلقة التصرف واما مشورة القرطس باراغونة فكانت تتركب من اربع طوائف الاولى طائفة القسوس الثانية طائفة البارونات (ويقال لها ريكوس امبروا) الثالثة طائفة الشوالية اي الامراء الثانوية (ويقال لها الانفنزونة) الرابعة طائفة رسل المدن الملوكية واما ايالة قتالونيا وايالة بلنسية فكان لكل منهما مشورة خصوصية

هذا ولم تكن حكومات تلك الممالك ملائمة لما تقتضيه قوانينها وما كان يسلكه

الرعية اذ ذاك من طرق الاحتراس من تعدى الملوك عليهم كان سببا فى زيادة الفتن والخلل حتى تمزقت بذلك مملكة اسبانيا وانحط قدرها حتى ضعفت اذ ذاك عن اخراج آخر خلفاء الاسلام بها واستمر على سرير ملكه بالاندلس الخصبة لكن لما اخرجت غرناطة من حكم الاسلام بعد اجتماع مملكتى اراغونة وقسطيلة بمدة يسيرة اخذت تلك المملكة فى اسباب التقدم وعلو الشان .

(الكلام على مملكة البرتغال)

كانت هذه المملكة فى مبدء امرها خاملة لا ظهور لها ومكثت على ذلك مدة طويلة ثم اخذ اهلها فى مشروعات عظيمة واغراض جسيمة وسافروا اسفارا بحرية خطرة حتى تعجب منهم الفرنج غاية العجب فقد طافوا جميع سواحل افريقة وكان ذلك بهمة الامير دون هنرى وعنايته وصار لهم شهرة عظيمة بالاستكشافات البحرية التى فتحت طريقا جديدا للملاحين ولا زال لهم سطوة وباس من جبل اطلس بافريقية الى شواطئ نهر الهند والكنك ببلاد الهند حتى اوقعوا الرعب والخوف فى قلوب المسلمين الذين بتلك الجهات وان كانت مملكتهم صغيرة

(الدور الاول)

فى الكلام على ما حصل من حين فتح السلطان محمد الثانى مدينة القسطنطينية الى ظهور لوتير الذى جدد النسخ فى دين النصرانية وذلك (من سنة ١٤٥٣ الى سنة ١٥١٧) من الميلاد وهى تقريبا من السنين الهجرية من (سنة ٨٥٧ الى سنة ٩٢٣) وفيه تسعة ابواب

(الباب الاول)

فى الكلام على الدولة العثمانية من (سنة ١٣٠٠ الى سنة ١٥٢٠) من الميلاد وذلك تقريبا من (سنة ٧٠٠ الى سنة ٩٢٧) من الهجرة

اعلم انه بعد ان خلا كرسى خوارزم من آخر سلاطينها الذى قهره جنكيزخان سلطان المغول وتغلب على مملكته فى اوائل القرن الثالث

عشر من الميلاد دخل بعض من كان مستخدما عند ذلك السلطان من رؤساء الاقوام التركمانية فى خدمة علاء الدين السلجوقى سلطان قونية وكان من جملتهم سليمان شاه وكان اميرا على نيره وهى مدينة قريبة من بحر الخزر وعلى قبيلة التتار الاغوزية وبعد موته نزل ولده الامير ارطغل مدينة سرغونة التى على شواطئ نهر سكارية ونزل معه من التركمان اربعمائة بيت او عشيرة حكمها اثنتين وخمسين سنة وكان تحت حكم سلاطين قونية ولما مات خلفه عليها ولده الامير عثمان (سنة ٦٩٦) من الهجرة ثم اقام دعائم الدولة العثمانية واسسها ببلاد اناطولى (سنة ١٣٠٠) من الميلاد الموافقة (لسنة ٧٠٠) من الهجرة على ما بقى من آثار الدولة السلجوقية التى اندرست (سنة ١٢٩٤) من الميلاد الموافقة تقريبا (لسنة ٦٩٤) من الهجرة وبعد اندراس تلك الدولة ودمار سلاطينها صار الامراء الذين كانوا تحت حكومتها مستقلين بانفسهم وتقاسموا ممالك ساداتهم فكان نصيب الامير عثمان منها جزأ من مملكة بورسا وجميع البلاد التى كانت حوالى جبل اولمبة باناطولى ولما كانت حصته مجاورة لدولة الروم حملته الغيرة الدنية والحمية الاسلامية على غزو الروم امتثالا لما جاء به القرآن الشريف فى شأن ذلك من الامر بالجهاد فغزا فى ٢٧ من شهر يولية (سنة ١٢٩٩) من الميلاد المقابلة لسنة ٦٩٩) من الهجرة تقريبا مدينة ازنكميد ولم يزل يشن الغارة على بلاد الافرنج فى كل عام حتى قضى ايامه وانتهت دولته وذلك من (سنة ١٢٩٩ الى سنة ١٣٢٦) الموافقة لسنة ٧٢٥ هجرية وهى السنة التى انتقل فيها الى دار البقاء وتولى بعده ولده اورخان وفتح مدينة بورسا وجعلها مقر سلطنته ودار اقامته وكانت جيوش السلطان عثمان الغازى مؤلفة من فرسان التركمان وكان لا معرفة لهم بالضبط والربط العسكرى وكانوا غير محكمين ولم يكن عندهم انتظام حال القتال فرأى السلطان اورخان أن الاليق ترتيب عساكر ذات تربية جهادية تعرف الضبط والربط العسكرى فجدد وجاق الانكشارية ثم وسع دائرة هذا الوجاق ابنه السلطان مراد

الاول ثم اتم نظامه واحسن ترتيبه السلطان مراد الثانى ابن السلطان محمد الاول وقد فتح هذا السلطان قلاعا كثيرة وغزا غزوات شهيرة فقد فتح مدينة ازنكميد (سنة ١٣٢٧) من الميلاد الموافقة (لسنة ٧٢٨ من الهجرة) تقريبا وفتح مدينة ازنيك (سنة ١٣٣٣) ميلادية (وسنة ٧٣٤) هجرية تقريبا وتمم فتوح ايالة بورسا ولم يزل حتى وصل الى شاطئ خليج القسطنطينية وبوغاز كاليبولى ثم ان الحروب الداخلية التى وقعت ببلاد الاروام (من سنة ١٣٤١ الى سنة ١٣٤٧) من الميلاد وذلك من (سنة ٧٤٢ الى سنة ٧٤٨) من الهجرة تقريبا مدة قصور الايمبراطور يوحنا باليولوغ ترتب عليها دخول الدولة العثمانية بلاد اوربا وكان يظهر من حال سلفه الايمبراطور أندرونيق القديم انه يريد ذلك حيث اهمل فى حفظ سفنه ووجه ترتب ذلك على الحروب المذكورة هو ان يوحنا كنتا كوزين الذى كان نائبا على المملكة مدة قصور الايمبراطور يوحنا باليولوغ لما رأى نفسه عرضة لقتال عصبة متحزبة ذات شوكة ولانه مبغوض عند الرعية استعان عليهم بالعثمانية فامدوه ونصروه عند نزولهم ببلاد اوربا غير ان دخولهم تلك البلاد عجل بتدمير ما بقى من الدولة الرومانية ثم فى (سنة ١٣٥٩) ميلادية المقابلة (لسنة ٧٦١) هجرية تقريبا اجتاز الامير سليمان بيك ابن السلطان اورخان بوغاز كاليبولى وفتح مدينة كاليبولى وهى من جزيرة كاليبولى المتصلة بالبر ثم اخترمته المنية فى عنفوان شبابه (سنة ١٣٦٠) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٧٦٢) هجرية تقريبا ولم يمكث بعده والده السلطان اورخان الامدة يسيرة بل توفى فى تلك السنة بعينها

وقد خلفه ولده الثانى السلطان مراد الاول فسلك مسلك ابيه فى الفتوحات واشهر اول سنى حكمه بفتح مدينة ادرنة ثم فتح اقليمى السرب والبلغار (سنة ١٣٦٥) ميلادية وذلك فى نحو (سنة ٧٦٧) هجرية وفى نحو (سنة ١٣٨١) ميلادية اى نحو (سنة ٧٨٣) هجرية كان ببلاد

آناطولى

اناطولى غدة من امراء الاتراك لم تزل باقية على الاستقلال والحرية لم تدخل تحت تبعية احد لجبرت على الاذعان له والدخول تحت حكمه ونزل له امير كرميان عن مدينة كوتاهية وهي تحت مملكة افريجيا الكبرى وفي (سنة ١٣٨٦) ميلادية اى نحو (سنة ٧٨٨) هجرية ادخل تحت حكومته معظم مملكتي مقدونيا وبلاد الارناؤط ثم في (سنة ١٣٨٩) ميلادية اى نحو (سنة ٧٩٢) هجرية تحزب عليه السرب والافلاق والمجار والدلماسيون والبلغار قاصدين بذلك تعطيل فتوحاته وعدم تقدمها وكان قائدهم لزارة قرال السرب فشتت السلطان شملهم وفرق جموعهم وانتصر عليهم في سهل كاشاو غيرانه في اثناء جولانه في ميدان الحرب وثب عليه من بين القتلى عسكرى من البلغار كان نائما خديعة فقتله انتقاما منه للنصارى في نظير هزيمته اياهم وقد اشتهر هذا السلطان بتوسيع دائرة وجاق الانكشارية وتكميل ترتيبه ونظامه كما اشتهر بالفتوحات وجدد ايضا وجاق الاسباهية وقسم جزأ من الاراضي التي فتحها الى تيمارات اى الى رزق سلطانية صغيرة وانعم بمنافعها على العساكر الجهادية ووضع عليهم اسم تيمارى اهل تيمار اى مرتزقة واباح لهم الانتفاع بها مدة الصلح على ان يبادروا زمن الحرب بالتجهز وحمل السلاح بدون تراخ ومهلة

ثم تولى السلطنة بعده السلطان بايزيد الاول الملقب يلدرم اى البرق وادخل تحت حكومته الممالك التركية المستقلة التي ببلاد اناطولى باستيلائه على ملوك الطوائف وهم امراء ايدن وساروخان كرميان والقرمان مع ان اميرى كرميان والقرمان كان لهما قدرة على ان يجهزا جيشا يبلغ اربعين الف مقاتل ثم تمم فتح ايالات روملي ومقدونيا والبلغار ولما كان يشق على العثمانية اذذاك التواصل من اسيا الى اوربا وكان ذلك ايضا خطرا عليهم جدد هذا السلطان بمدينة كاليبولى دونمة لاجل محافظة بوغاز كليبولى ولمنع ما يبعثه اللاطينيون من المدد والاعانة الى القسطنطينية ولما رأى نفسه ذا شوكة عظيمة وصولة جسيمة رأى

ان لقب اميرا لمجعول عليه قبل ذلك لا يليق بمقامه وعلو شانه فطلب من خليفة مصر اذذاك (وهو المتوكل بن المعتضد) الذى كان منقاد الاوامر المماليك حيث كانوا هم ارباب الحل والعقد ان يلقبه بلقب آخر فارسل اليه الخليفة المذكور (سنة ١٣٩٤) ميلادية اى نحو (سنة ٧٩٧) هجرية بطاقة تتضمن تلقيبه بسلطان هكذا نقل عن بعض مؤرخى ذلك العصر من العرب وبه يرد على المؤرخ خندمير فى زعمه ان عثمان الغازى مؤسس الدولة العثمانية تلقب بلقب سلطان بمدينة قرى حصار (سنة ١٣٠٠) من الميلاد اى فى نحو (سنة ٧٠٠) من الهجرة انتهى ولاجل ان يظهر بايزيد انه جدير بهذا اللقب الجديد شن الغارة على بلاد المجار وهزم فى وقعة نيكيبولى التى كانت فى ٢٨ من شهر سبطمبر (سنة ١٣٩٦) ميلادية اى فى نحو (سنة ٧٩٩) هجرية جيشا من النصارى كان عدده مائة الف ثم طلب من الامبراطور منويل باليولوغ ان يسلم له القسطنطينية وشرع فى حصار هذه المدينة الا انه لخوفه من اجتماع النصارى مع بعضهم وتحزبهم لقتاله هادن الاروام عشر سنين على ان يدفعوا له كل سنة ثلاثين الف ايكو (ريال تقريبا) وان يجعل فى القسطنطينية قاضيا من قضاة الاسلام وان يبنى بها مسجدا للمسلمين فلم يمكث على تلك الهدنة زمنا طويلا بل حاصر المدينة المذكورة مرة ثانية حتى اشرف على فتحها لكن صده عن تتميم ذلك توجهه الى بلاد آسيا لملاقاة السلطان تيمورلنك ملك تتار المغول حين بلغه انه اغار على بلاده وتغلب على بعضها

وكانت ولادة تيمورلنك المذكور (سنة ١٣٣٦) ميلادية ونحو (سنة ٧٣٧) هجرية بقرية من قرى ماوراء النهر وكانت هذه القرية من بلاد كش التى كان اباؤه يتوارثون حكمها من سالف الزمان وكان من صغره يلوح على وجهه سمة الشجاعة والميل الى الحروب فقد حارب وهو ابن اثنتى عشرة سنة وشرع وهو ابن خمس وعشرين سنة فى انقاذ وطنه من ايدى خانات كشغار الذين استعانوا فى الاستيلاء عليه بجيش من القلموق وهم الكلماكية

وبعد ان خلصه من هؤلاء الظلمة الطاغين عقد مشورة وتولى فيها السلطنة عليه في شهر مارث (سنة ١٣٧٠) من الميلاد الموافق لشهر رمضان (سنة ٧٧١) من الهجرة وكانت نهاية ممالكه اذذاك نهر جيحون فتجاوز هذا الحد وتعداه وفي ظرف ثلاثين سنة تغلب على ماوراء هذا النهر من بلاد خوارزم وقندهار وعجمستان وكشغار والقبجاق والهندستان ثم ركب نهر الكنك وتوجه الى نهر الفرات واجتازه (سنة ١٤٠٠) من الميلاد الموافقة (لسنة ٨٣٠) من الهجرة وافزع بلاد الشام بنهب حلب ودمشق وخرب مدينة بغداد في (سنة ١٤٠١) ميلادية الموافقة (سنة ٨٠٣) من الهجرة وقتل من اهلها تسعين الفا ثم اغار على الدولة العثمانية (سنة ١٤٠٢) ميلادية فهزم عساكرها في ثمانية وعشرين من شهر يولية من السنة المذكورة المقابل للتاسع والعشرين من ذي القعدة (سنة ٨٠٤) من الهجرة وكانت وقعة مهولة سفك فيها كثير من الدماء وكانت بقرب مدينة انجورة وكانت النصرة فيها للسلطان تيمورلنك حيث اسر السلطان بايزيد وسجنه في قفص حديد على ما قاله مورخو الترك والافرنج ولم ينبه عليه مورخو العجم ولم يلبث على ذلك الامدة قليلة ثم اخترمته المنية في التاسع من شهر مارث (سنة ١٤٠٣) ميلادية الموافق للرابع عشر من شهر شعبان (سنة ٨٠٥) هجرية وكان موته خيرا له من الحياة بهذه المثابة ولم يعش تيمورلنك بعده الا سنتين فانه لما تعسر عليه لعدم السفن عبور بوغازي القسطنطينية وكاليبولي اللذين كان عساكر العثمانية والاروام يحافظونهما مع الاتحاد واتفاق الكلمة توجه الى مدينة سمرقند التي هي مقر سلطنته لينشر بها اعلام عزه ونصره فلم يلبث بها الا قليلا ثم حملته شدة الطمع التي لم تزل قائمة به وان كان قد بلغ من العمر سبعين سنة على ان يتوجه الى ارض الصين بقصد التغلب عليها وضمها الى ممالكه فجاءه الموت قريبا من مدينة اوترارة ببلاد تركستان في غرة شهر ابريل (سنة ١٤٠٥) ميلادية وذلك في غاية شهر رمضان (سنة ٨٠٧) هجرية وكان له من العمر وقتئذ

احدى وسبعون سنة

ثم انه بعد انتهاء وقعة انجورة وامساك السلطان تيمورلنك عن القتال عاد ملوك الطوائف الى ممالكهم التي كان نزعها منهم السلطان بايزيد وزاد اضطراب الدولة العثمانية بما وقع من المشاجرة والمنازعة بين بناء بايزيد فاما ولده الامير عيسى فاستولى على جميع البلاد القريبة من انجورة وسينوب والبحر الاسود واما الامير محمد فانه قتل اخاه عيسى المذكور واستولى على اقاليمه واما اخوهما سليمان الاول فان عثمانية بلاد اوربا البسوه تاج السلطنة فانهمك على الملاهي والشهوات وكان اخوه الامير موسى چلبي ينتظر فرصة ينتهزها للفتك به فانقض عليه وهو في نومه وسكره وقتله (سنة ١٤١٠) ميلادية الموافقة (سنة ٨١٣) من الهجرة ثم اقتسم السلطنة مع اخيه السلطان محمد الاول وفي (سنة ١٤١٢) من الميلاد الموافقة (لسنة ٨١٥) من الهجرة انتصر على الايمبراطور سيجوسمند نصرة عظيمة قريبا من مدينة سمندرية ولم يظفر مثل هذا الظفر في واقعة بينه وبين اخيه السلطان محمد الاول حيث انتصر عليه (سنة ٨١٦) من الهجرة فولى هاربا فتبعه فارس من عساكر السلطان محمد المذكور وضرب عنقه وحضر برأسه الى اخيه فانعم عليه بمنصب الصدارة العظمى واستبد بالسلطنة بتمامها بعد انقراض اخوته عن آخرهم فشرع في تمهيد الصلح مع الممالك الاجنبية بان رد الى منويل ايمبراطور الروم جميع ما اخذه العثمانية منه من قلاع البحر الاسود وبحر مرمرة وايالة تساليا ثم انه في (سنة ١٤١٨) ميلادية الموافقة (لسنة ٨٢٠) هجرية ظهر شخص دعي (وهو بدر الدين بن سماوية) وادعى السلطنة وجمع جمعا عظيما لخلع السلطان محمد زاعما انه هو الامير مصطفى ابن السلطان بايزيد الذي قتل في واقعة انجورة فادعى انه هو وانه لم يقتل بل طلب لنفسه النجاة بالفرار وكان في الواقع له شبه بالامير المذكور في صورته وتقاطيعه فحين بلغ السلطان ذلك لزمه ان يسكن هذه الفتنة فارسل لقتاله عسكرا

فهزمه

فهزمه وحاصره بمدينة سالونيكي من مدن الروم ثم بعث الى الايمبراطور مانويل يطلب منه ان يسلمه فيه فابى ذلك لانه رآه بمنزلة الرهينة التي يجب عليه حفظها والتزم انه لا يخرجه من السجن مدة حياة السلطان ولما تولى السلطان مراد الثاني ابن السلطان محمد الاول في (سنة ٨٢٤) من الهجرة بادر الايمبراطور مانويل باخراج بدر الدين من جزيرة لمنوس وكان قد نفاه بها فاشتهر امره ببلاد الافرنج وجمع جيشا جرارا وقدم به لمقاتلة السلطان مراد فهزمه هذا السلطان وقتله اشنع قتلة وبذلك خمدت نيران الفتن والحروب الداخلية واعاد السلطان مراد المنصور لدولته ما كان لها من الرونق والبهجة

وكان قد لحقه حنق شديد من الايمبراطور منويل على ما وقع منه فعزم في (سنة ١٤٢٢) ميلادية الموافقة (لسنة ٨٢٥) هجرية على ان ينتقم منه فحاصر مدينة القسطنطينية وكان معه من العساكر مائتا الف فقاومتهم هذه المدينة لانها كانت منيعة واسوارها حصينة فتركها السلطان وتوجه الى بلاد آسيا لاجل تسكين الفتنة التي اضرم نارها الاروام بتلك البلاد ومع ذلك فمن يومئذ صارت تلك المدينة تابعة لحكومته وبعد موت الايمبراطور مانويل اذن السلطان لخليفته حنا باليولوغ أن يستولي على القسطنطينية وضرب عليه جزية كل سنة ثلاثمائة الف اسبر (نصف فضة) وشرط عليه ان يتخلى عن جميع البلاد الاضواحي تلك المدينة المذكورة فبذلك استولى السلطان مراد على جميع القلاع التي كانت باقية للروم على البحر الاسود وعلى سواحل روملي ومملكتي مقدونيا وتساليا بل وفتح جميع الحصون والقلاع التي في داخل برزخ قورنتة ومازال يفتح البلاد والقلاع حتى وصل الى داخل مورة ولم يعقه عن التقدم في الفتوحات الا اثنان من ابطال النصارى وهما حنا هونياد كروان واسكندر بيك

وكان هونياد المذكور لا يعرف اصله ولا حسبه ونسبه معرفة يقينية وانما ارتقى

الى درجة رياسة عساكر المجار بمحض معارفه وكان يلقب عند العثمانيين بقاطع الطريق وهو لقب يشعر ببغضهم له ورعبهم منه وكان ذا شوكة ونفوذ كلمة حتى انه ولى على مملكة المجار لادسلاس ملك له (سنة ١٤٤٠) من الميلاد اى فى نحو (سنة ٨٤٤) من الهجرة فكافاه هذا الملك على هذا الصنيع بكونه ولاه ويوود بلاد الاردل وقد انتصر كل منهما فى (سنة ١٤٤٢) و (سنة ١٤٤٣) ميلادية اى فى نحو (سنة ٨٤٦) و(سنة ٨٤٧) هجرية انتصارات عظيمة على الدولة العثمانية حتى طلب السلطان مراد منهما عقد هدنة مدتها عشر سنوات فلما اجيب لمطلوبه وسر بذلك غاية السرور حيث صارت به مملكته فى امن وهدو وكان قد لحقه النصب والتعب من تحمل اعباء السلطنة خلعها على ولده السلطان محمد الثانى (سنة ١٤٤٣) من الميلاد وذلك فى نحو (سنة ٨٤٧) من الهجرة وانقطع للعبادة فى تكية مانيسة وانتظم فى سلك الدراويش فعند ذلك انتهز النصارى الفرصة فى فسخ الهدنة بتحريض ملك القرمان لهم على ذلك ووعدهم بالمساعدة فجبر السلطان مراد على ان يخرج من التكية ويعود الى المملكة حيث رآها عرضة للاخطار ورآى من اهلها الميل الى رجوعه فقصد الاعدآو وسار اليهم بجيش جرار يبلغ ستين الفا وكان امامه رمح موضوع فى اعلاه ورقة الهدنة التى فسخها اعداؤه وكان تلاقى الجمعين فى ١٠ من شهر نومبر (سنة ١٤٤٤) من الميلاد اى نحو (سنة ٨٤٨) هجرية بمدينة الورن على سواحل البحر الاسود فقاومهم عساكر النصارى مدة مستطيلة مع انهم كانوا على الثلث من عساكر العثمانية الاان حمية لادسلاس الخالية عن التبصر والاحتراس حملته على اقتحام الصفوف فقتل فى المعركة فعند ذلك انهزم عساكر النصارى وولوا الادبار وركنوا الى الفرار فاخذ هونياد قائد الجيوش بجمعهم فلم يمكنه ذلك لما داخلهم من الفزع والرعب بموت ملكهم فلما تعذر عليه ذلك خرج من الميدان الذى كان فيه من قتلى العساكر المجارية ماينيف على عشرة الاف ثم تولى على المجار بعد لادسلاس المذكور

الملك

الملك لادسلاس دوستروتسيا وكان قاصرا فتولى هونياد سرعسكر الجيوش الجارية ونائبا عنه في المملكة وقد ظهر في مدة نيابته التي هي اثنتا عشرة سنة مايدل على انه كان بمكان من السياسة الملكية والرياسة العسكرية

ثم ان السلطان مرادا بعد ان انتصر على النصارى في واقعة الورن المذكورة خلع السلطنة ثانيا على ابنه السلطان محمد الثاني وعاد الى التكية وتزيا بزي اهلها فلم يقره الانكشارية على خلعه السلطنة ولا على تركه الجهاد فجبر على العود الى السلطنة وقيادة الجنود وتدبير الدولة ووجه جنوده حينئذ نحو بلاد الارناؤط

وكان حنا كنريو حاكما بالوراثة على خط صغير من بلاد الارناؤط بين الجبال وبحر البنادقة فعقد الصلح مع السلطان والتزم ان ينقاد لاحكامه ويدفع له الجزية واستوثق منه السلطان على ذلك باخذ اولاده الاربعة رهينة عنده فاختلط منهم ثلاثة بمماليك السلطان حتى صاروا لا يمتازون منهم واما الرابع وهو المسمى جرجى وكان اصغرهم فانه استحق انعام السلطان بسبب انتصاره ثلاث مرات متوالية على رجل تتارى واثنين من الفرس طلبوا من فرسان السرايا المبارزة في حومة الميدان فبرز اليهم جرجى المذكور وهزمهم فلقبه حينئذ اقرانه بلقب اسكندر بيك ولما مات ابوه (سنة ١٤٣٢) من الميلاد اى في نحو (سنة ٨٣٦) من الهجرة صارت بلاد الارناؤط ايالة من ايالات الدولة العثمانية واتحفه السلطان في مقابلتها بمنصب الصنجقية وجعله اميرا على خمسة آلاف من العساكر ووعده بالمناصب العالية في الدولة فوفى بخدمته مع غاية الاعتناء وسلك في الحروب التي وقعت من السلطان ببلاد اوربا وآسيا ما اوجب له الشرف والفخار واستحق به مزيد الاعتبار غير ان ما لحق عائلته من الهوان والمذلة وما لحقه من الاسر والاسترقاق وما حل ببلده من التغلب عليها اثر فيه كل التأثير حتى حصل له الندم والاسف على مقاتلته مدة طويلة لنصر الاسلام ثم ارتد عن دين الاسلام

بعد ان نشأ فيه ورجع الى دين آبائه واجداده وقضى ايامه فى الذب عن دين النصرانية ثم فى (سنة ١٤٤٣) ميلادية المقابلة لنحو (سنة ٨٤٧) هجرية ذهب الى مدينة كروية قاعدة امارة اسلافه وحرض اهلها على المدافعة عن الدين والوطن فانتخبه اهل الحل والعقد منهم ليكون قائد الجيوش فى محاربة العثمانية وشاع ذكره فى البلاد وانتشر صيته بين العباد حتى اقبل عليه ابطال الفرنساوية وشجعان النمساوية ودخلوا تحت اعلامه وكان جيشه مؤلفا من ثمانية آلاف من الفرسان وسبعة آلاف من المشاة ومع قلة عساكره بهذه المثابة مكث ثلاثا وعشرين سنة وهو يقاوم عساكر الدولة العثمانية فى ايام السلطان مراد الثانى وولده السلطان محمد الثانى اللذين كان كل منهما ذا سطوة عجيبة وصولة غريبة ولهما الفتوحات الجمة والغزوات المهمة وقد اغار عليه السلطان مراد الثانى غير مرة ولم يظفر به فمن ذلك محاصرته اياه فى مدينة كروية وربما كان ما لحقه فيها من الاسف والحزن على عدم ظفره به سببا فى موته فى التاسع من شهر فبرية (سنة ١٤٥١) من الميلاد الموافق للسابع من شهر محرم (سنة ٨٥٥) من الهجرة وقد اوصى قبل موته ابنه السلطان محمدا الثانى ولى عهده بان يوجه جنوده نحو مدينة القسطنطينية فكان ذلك باعثا له على فتح هذه المدينة لاسيما وكان له ولوع شديد بالفتوحات وكان على القسطنطينية يومئذ قسطنطين دراغازيس ابن الامبراطور منويل وهو الذى خلف يوحنا باليولوغ (سنة ١٤٤٨) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٥٢) من الهجرة وكان على الهمة شريف النفس سلك فى مبدء الامر مسلك التدبير والحزم لا مسلك الشجاعة والعزم فانه لما بلغه ان السلطان محمدا شرع فى بناء قلعة على بوغاز القسطنطينية لم يعارضه فى ذلك وانما بعث له مرتين سفراء ينبهه على ان بناء هذه القلعة يؤذن بالحرب مؤملا بذلك رجوع السلطان عن القتال لكونه رأى انه دونه فى القوة والصولة وقد ابدى فى سفارته الاخيرة ما يؤذن بشجاعته العسكرية وتسليمه للقضاء والقدر كما تقتضيه الديانة النصرانية ونصها

ان كانت

ان كانت المواثيق والعهود والطاعة لا تحملك على عقد الصلح بيننا فعليك بالاغارة التي لا ترضي الله تعالى وقد فوضت امري الى الله فان هداك وعطف قلبك كان ذلك غاية المنى وان قضى لك بفتح القسطنطينية فلاراد لقضائه وقدره والا فلا ازال ادافع عنها الى آخر قطرة من دمي

وكان السلطان قد صمم على الجهاد كل التصميم فاخذ يجند الجنود ويجمع العساكر ويتأهب للقتال بخلاف قسطنطين فكان يطلب المدد والاعانة من ملل اوروبا ويعدهم كاسلافه بضم الكنيسة الرومية الى الكنيسة الرومانية فحضر اليه في القسطنطينية حبر من طرف البابا ومعه بعض عساكر لتكون له الرياسة فيما يعقد من المجالس في شأن ضم هاتين الكنيستين الى بعضهما وقدم اليه ايضا الفان من الجنويز وخمسمائة او ستمائة من البنادقة لاجل المدافعة عن القسطنطينية والحامل لهم على ذلك في الحقيقة انما هو حماية المخازن التجارية التي لجمهوريتهم بهذه المدينة وجاء بعدهم جماعة من اخلاط القتالونيين لم يحملهم على ذلك الا مجرد ميلهم للشهرة والافتخار واقتحام الاخطار ثم ان الفرنج لا يلامون على قلة العساكر التي بعثوها لحماية القسطنطينية لان الاروام لم يكن لهم اهتمام بهذا الحرب لكراهتهم لضم الكنيستين الى بعضهما ووقعت البغضة في قلوبهم لقسطنطين وتخلوا عنه لانه هو الذي دبر هذا الامر فكان بعضهم لاجل ان لا يكون للاطينيين عليه فضل ومنة يقول ان الله قد تعلقت ارادته بنجاة امته من اعدائهم واعتمدوا على فن العرافة والاوهام والبدع فلم يسعوا فيما تكون به نجاتهم بل طمعوا ان يكون لهم من الله تعالى خوارق عادات تنقذهم وبعضهم حملته الحمية الدينية على ان يزعم ان الايمبراطورية لابد من سقوطها ودمارها واستند في الاخبار بالمغيبات الى انتقام الله تعالى في نظير ضم الكنيستين وقال ان طلب النجاة من هذا الخطب يعد من الالحاد والكفر ووافقهم على هذا الجنون اعظم وزراء الايمبراطورية وهو الدوق نوتاراس فانه قال باعلا صوته لأن ارى في القسطنطينية تاج السلطان محمد احب

الى من ان ارى بها اكليل البابا او قلنسوة الكردينال وبالجملة فكان عقيدتهم تغيرت بالاوهام الفاسدة كذلك قصرت بهم الشجاعة وفترت منهم الهمة وتخلى فريق من اهل المدينة عن حمايتها حتى لم يبق فيهم من يذب عنها الا اربعة آلاف وتسعمائة وسبعون من العساكر الرومانية وقد حصر عدد من كان بها من المحافظين والمقاتلين فكانت عدتهم ثمانية آلاف او تسعة آلاف ما بين اروام ولاطينيين وفيهم انحصر رجاء القسطنطينية وقواها

فاقبل عليهم السلطان محمد ومعه جيش جرار نحو مائتين وستين الفا وكان معه اسطول بحري محتوية على ثلثمائة سفينة فنصب اعلامه امام القسطنطينية في السادس من شهر ابريل (سنة ١٤٥٣) من الميلاد المقابل لنحو (سنة ٨٥٧) من الهجرة ثم هجم عليها مرارا وهي تقاومه وقد كان يمكن للامبراطور قسطنطين بعد المقاومة أن ينقذ نفسه وحريته لو قبل ما عرضه عليه السلطان من الشروط المورثة للمعرة والذل التي اشترطها في شأن تسليم المدينة لكنه آثر القتل في المعركة على قبول تلك الشروط فعند ذلك عين السلطان للهجوم على المدينة بجميع العساكر اليوم التاسع والعشرين من شهر مايه من السنة المذكورة وفي عشية ذلك اليوم جمع قسطنطين جميع اصحابه من الاروام وخطبهم بخطابة مشوبة بالحزن والاسف كانما هو يرثي انقراض الدولة الرومانية بالمراثي وصار يحرضهم فيها على القتال لعله يحيي في قلوبهم رجاء النصر مع انه لم يكن في قلبه منه الا شيء واما جندا ولكن لم يجد ذلك شيأ وانما اصغوا الى كلامه مع غاية الصمت ولم يتفوهوا بشيء مسلمين لقضاء الله وقدره وصار يعانق بعضهم بعضا بقصد الوداع ويبكون ثم ذهبوا الى الاسوار يتوقعون الموت وقد ذهب قسطنطين الى كنيسة آية صوفية ليتلقى فيها تقديس التقرب ويكون بذلك مستعدا للموت في المعركة شهيدا مطهرا من درن المعاصي والجبن فلما كان اليوم الموعود الذي كانت عاقبته شؤما على ابناء النصرانية هجمت العساكر العثمانية على القسطنطينية هجوما به تم العلاج وحصل الفوز بالفتح وكان قسطنطين قائما في المعركة بوظائف

سرعسكر حيث كانت تصدر عنه الاوامر اللازمة فى شأن الحرب و يقاتل
كآحاد العساكر واستمر على ذلك مدة طويلة ثم غاب عن الابصار وذلك انه بعد
أن بذل غاية جهده فى الحرب بلا ثمرة ايس من الظفر وايقن بالقتل وتجرد من
اسلحته المذهبة تجنبا لما يفضى به الامر من اسره والقبض عليه والقى بنفسه
بين صفوف الانكشارية فقتلوه ولم يعرفوه وبموته لم تقم للاروام قائمة ولم تصدر
عنهم مقاومة فاغتنم جنود الاسلام المدينة ونهبوها واسروا اهلها وكان
اعظم ما حل بها من المصائب ضياع الكتب التى كانت بكتبخانتها فان ذلك
مما يحزن الخالف حزنا عظيما ويقال ان عدد ما فقد منها مائة وعشرون الف
كتاب بخط اليد ولكن كان ببلاد ايطاليا مقدار عظيم من الكتب النفيسة
فى امن فبقى للخلف وعما قليل اخترع فن الطباعة بعض صنائعية النمساوية
وحسب هذا الاستكشاف العظيم من الفخر انه به تخلد الكتب على مدى
الازمان ولا تغيرها صروف الحدثان

ثم ان العثمانية اخرجوا جميع الاروام من القسطنطينية فى قليل من
الساعات ولما عزم السلطان على ان يجعل هذه المدينة دار اقامته ومقر
سلطنته رخص لكل من اراد الرجوع اليها من الاروام ان يبقى على
دينه وعقيدته رغبة فى عمارها لكن لما كان ذلك غير كاف فى تحصيل
مرامه امر بجمع عشرة آلاف بيت من الايالات مختلفة وامرهم بالتوجه
اليها واتخاذها وطنا وولى على الاروام بطريقا واعطاه بنفسه عصا
البطرقية وخاتمها حسبما جرت به عادة قياصرة القسطنطينية قديما
وقسم ما فى المدينة من الكنائس بين النصارى والمسلمين فبقى منها على حاله
ما بقى واتخذ البعض مساجد وجعل لكل من الفريقين حدودا لا يتعداها
واستمر الحال على ذلك ستين سنة حتى ظهر السلطان سليم الاول فسخه
وابطل ما كان للنصارى من المزايا والخصايص

ثم ان السلطان محمدا الثانى اصلح حصون القسطنطينية ورممها وشيد
حصار كليبولى على مصب البوغاز احتراسا من اغارات البنادقة

وممالك الافرنج المغربية

وبعد فتحه للقسطنطينية طمع فى الاستيلاء على جزيرة رودس التى هى موطن طائفه سنت يوحنا قائلا انها من اعمال القسطنطينية فهدد اهلها وطلب الجزية منهم فاجابه رئيسهم يوحنا دولستين بقوله ان ابطال هذه الطائفة المستوطنين بتلك الجزيرة لم يتملكوها الا باعانة الله تعالى وشجاعتهم لا بعناية احد من الملوك وتاهب للذب عنها الا انه عرض للسلطان ماشغله عن محاربته

وذلك ان البابا كالكستوس الثالث كان حينئذ يحث ملوك النصارى على التحزب على العثمانية ويحرضهم على قتالهم فلما بلغ السلطان ذلك بادر بالتوجه الى مدينة بلغرادة ومعه مائة وخمسون الفا فحاصرها (سنة ١٤٥٦) من الميلاد اى فى نحو (سنة ٨٦١) من الهجرة واشتغل بقتالها من جهة البر وكان قد حاصرها من جهة نهر طونة بمائتى سفينة من السفن الحربية فكانت تمنع ما يأتى من المدد والاعانة عن الوصول اليها وحل بهذه المدينة التى كانت حصنا منيعا لبلاد المجار وحرزا حصينا لشوكة دين النصرانية من الخطر ما اورث حنا قابستران احد رهبان سنت فرنسيس غيرة شديدة فاخذته الحمية عليها وصار يعظ ابناء النصرانية ويحرضهم على الذب عنها حتى استمال بقارع وعظه اربعين الفا من العساكر النمساوية واتى بهم الى يوحنا هونياد سرعسكر الجيوش المجارية فشتت بواسطة هذه الاعانة سفن العثمانية ودخل فى مدينة بلغرادة واما السلطان محمد الثانى فانه مكث يكرر الاغارة عليها اربعين يوما من غير طائل وقتل فى تلك المدة كثير من عساكره ثم انهزم فى آخر هجوم وقتل من عساكره فيه ما ينيف على عشرين الفا ورجع الى مملكته مع من بقى من جيشه الكثير العدد وكان هونياد قد اصابه جرح بليغ فمات به فى اثناء نصرته بعد أن هزم عساكر الاسلام واجلاهم عن بلاده

وكانت غزوة بلغرادة هذه سببا فى تعليق فتوحات السلطان وتعطيلها برهة

يسيرة

يسيرة لكنه عما قليل عاد لما كان عليه من توالى الفتوحات فانه فتح دوقية اثينا (سنة ١٤٥٦) من الميلاد وكان المستولى عليها من (سنة ١٣٦٤) ميلادية المقابلة لنحو (سنة ٧٦٦) هجرية عائلة من فلورنسة وكانت هذه الدوقية مشتملة زيادة على مدينة اثينا التى هى دار اقامة الدوق على مدائن طيوة وميغارة وقورنثة وبلاتيا وذلك غير قاعدتها وفى (سنة ١٤٥٨) من الميلاد اعنى فى نحو (سنة ٨٦٣) من الهجرة فتح اقليم السرب الذى كان انتزعه السلطان مراد الثانى من قرالات هذا الاقليم (سنة ١٤٢٧) ميلادية اى فى نحو (سنة ٨٣١) هجرية ورده اليهم (سنة ١٤٤٢) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٤٦) من الهجرة وقد حصلت اذ ذاك مشاجرة بين الملك نومة والملك دمتريوس باليولوغ وهو اخو اخر ايمبراطرة الروم فى شأن مملكة مورة التى كانت تحت حكمهما وكانا يدفعان للسلطان الجزية عنها فهزم نومة دمتريوس فطلب الاعانة من السلطان محمد الثانى وزوجه ابنته فلبى دعوته واسعفه بالاعانة فوقع الرعب فى قلب نومة فهرب من المملكة واما السلطان فلم يراع حقوق ختنه بل حمله الطمع على نفيه فى دبر من الادبار واستولى على مملكة مورة بتمامها ماعدا بعض قلاع كان سلمها نومة قبل هروبه للبابا والبنادقة

وكان حين تغلب اللاطينيون على مدينة القسطنطينية (سنة ١٢٠٤) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٦٠١) من الهجرة قد بقى بايدى عدة من ملوك الاروام بعض بلاد من الدولة الرومية المشرقية لم يسلبها اللاطينيون منهم وصار لهم على شواطئ البحر الاسود دولة صغيرة سموها بايمبراطورية طرابزون وكان صاحب الايمبراطورية وقت فتح مدينة القسطنطينية الايمبراطور داود قومنين فدمرها السلطان محمد الثانى وبذلك محيت آثار دولة الاروام وفتح معها امارتى كريزونة وسينوب (سنة ١٤٦١) من الميلاد اى فى نحو (سنة ٨٦٦) من الهجرة واتى بالايمبراطور داود

اسيرا الى القسطنطينية وقتله اشنع قتلة حيث اتهمه بان له مراسلات خفية مع ملك العجم وكان له ثمانية اولاد فامر السلطان بقتلهم ايضا

وفى (سنة ١٤٦٢) ميلادية اى نحو (سنة ٨٦٧) هجرية فتح السلطان جزيرة لسبوسة وفى السنة التى بعدها ادخل تحت طاعته اقليم بوسنه وشن الغارة على ولايات الافلاق والبغدان والصقالبة

وكان السلطان قد عقد مع البنادقة (سنة ١٤٥٤) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٥٩) من الهجرة مشارطة صلح على مراعاة حقوق الجوار ثم نقضت فى شهر مايه (سنة ١٤٦٣) ميلادية اى نحو (سنة ٨٦٨) هجرية وذلك ان البنادقة لما تغلبوا على مورة حصنوا برزخ قورنثة ثم افضى بهم الجبن الى التخلى عنه (سنة ١٤٦٤) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٦٩) من الهجرة لما قدم عليهم جيش من العثمانية وضاعت منهم جميع فتوحاتهم وكان قد اعانهم مسياس كروان ملك المجار عدة سنوات وكان من حلفائهم فكان يغير على بلاد الافلاق والخروات والاردل لكنه فى (سنة ١٤٦٨) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٧٣) من الهجرة اشتغل عن محاربة العثمانية بشن الغارة على مملكة چه ومكث فى هذا الحرب عشر سنين مع انه لم يكن من باب السياسة ولا من قبيل الحزم والكياسة

وقبل أن ينفصل ملك المجار عن البنادقة ويشتغل بتلك الواقعة كان قدمات كل من البابا بيس الثانى واسكندر بيك فحرم البنادقة من اعانتهما كما حرموا من اعانة ملك المجار المذكور وذلك ان هذا البابا اعتراه بمدينة انقونة مرض على حين غفلة وقت أن كان متوجها بجيش من عساكر النصرانية لمقاتلة الاسلام فمات به فى ١٤ من شهر اوغسطس (سنة ١٤٦٤) من الميلاد واما اسكندر بيك فكان لم تزل له النصرة على العثمانية ورضى بعقد المشارطة معهم (سنة ١٤٦١) ميلادية لكن

لما حرضه البابا المتقدم عليهم فسخ المشارطة واخذ في قتالهم (سنة ١٤٦٣) من الميلاد وهزم وقتل كثيرا من رؤساء عساكر الدولة العثمانية بل جبر السلطان محمدا على الكف عن القتال فازداد بذلك شرفا وفخرا عند ابناء النصرانية ولما عجز العثمانية عن الظفر به اضمروا اله الغدر فنجا من كيدهم ثم اصابته حمى شديدة مات بها في مدينة اليسو من مدن البنادقة وكان قد عقد فيها مشورة لاجل المفاوضة في شأن المصالح العامة وكان ذلك في (سنة ١٤٦٦) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٧١) من الهجرة وبعد موته دخلت مدن بلاد الارناؤط وحصونهم تحت حكم العثمانية ماعدا تختها

ومع انه لم يكن للبنادقة نصير ولا ظهير استمروا على الحرب لكن كانت نصراتهم فيه قليلة وهي انهم في (سنة ١٤٦٥) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٧٠) من الهجرة حرقوا مدينة مزتره وهي اسبرطة الجديدة ونهبوا مدينة اثينا (سنة ١٤٦٦) ميلادية ونهبوا (سنة ١٤٦٩) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٧٤) من الهجرة مدينة اينو التي على خليج سارونيق المعروف الآن بخليج اثينا فعند ذلك امر السلطان محمد الثاني خطباء مساجد القسطنطينية وغيرها من مساجد الدول الاسلامية أن يخبروا الناس ان مقصده محق دين النصرانية ومحو اثره بالكلية وفي (سنة ١٤٧٠) ميلادية اي في نحو (سنة ٨٧٥) هجرية هجم على جزيرة اغريوز وكانت من اعمال البنادقة بدونمة كبيرة تشتمل على جنود عظيمة ففتح تختها عنوة بعد أن هجم عليه اربع مرات قتل فيها اناس كثيرون وذبح عساكره اهلها عن آخرهم واما البنادقة فخربوا (سنة ١٤٧٢) من الميلاد اي نحو (سنة ٨٧٧) من الهجرة بلاد كارية وجزيرة استنكوى وايونية واعانهم الكردينال اولوبية كرافة قبودان سفن البابا سقسطوس الرابع على حرق مدينة اطاليا ومدينة ازمير واما العثمانية فخربوا حينئذ بلاد الارناؤط ولم يزل الباشا والي اقليم البشناق سائرا في اقليم فريولة حتى صار بينه وبين مدينة اودينة

ثلاثة اميال

وفى (سنة ١٤٧١) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٧٦) من الهجرة انحط رأى مشورة الديتة بمدينة راتسبونة على انه يلزم تجهيز المواد الحربية لاجل قتال العثمانية فلم يجهز منها الايمبراطور فريدريق الثالث ملك النمسا شيأ ولا اخذ فى تعاطى اسباب ذلك بل كان البابا بولص الثانى اسعد منه حيث تداخل فى هذا الشان براسلاته مع اوزن حسن التتارى الذى اخذ مملكة العجم (سنة ١٤٦٨) من الميلاد من حفدة السلطان تيمورلنك واسس فيها الدولة المسماة بالشاة البيضاء ومن المعلوم ان العجم من الشيعة الخوارج وهم اعداء اهل السنة وذلك كاف فى محاربتهم للدولة العثمانية وزيادة على ذلك كان اوزن حسن المذكور صهرا لدوادقومين الذى هو آخر ايمبراطرة طرابزون وهو الذى عامله السلطان محمد الثانى اسوء المعاملة فمن ثم انضم اوزن المذكور الى البابا واغار على بلاد الارمن وبلاد الكرج لكن هزمه السلطان بمدينة قراحصار التى على نهر ليكوس (سنة ١٤٧٣) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٧٨) من الهجرة

وفى (سنة ١٤٧٤) ميلادية اى نحو (سنة ٨٧٩) هجرية هزم اسطفان ويوود البغدان جيشا من العساكر العثمانية قريبا من مدينة راقوين وفى هذه السنة انهزم سليمان بكلربيك رومانية رئيس عساكر العثمانية تجاه مدينة اسكودارى وفى السنة التى بعدها انهزم ايضا تجاه مدينة ليبنته واما احمد باشا قبودان العثمانية فاتلف نزلات الجنويزيين التى بمدينة كفا وكانت تلك المدينة قد دخلت فى حكم جمهورية جنويزة منذ قرنين ونزل بها كثير من الاهالى بقصد الاستيطان وكثرت بها الاموال حتى صارت تعادل مدينة جنويزة فكانت سوقا لجميع محصولات الشمال والمشرق وبواسطتها كان يأتى الى بلاد الافرنج اقمشة العجم وبهارات الهند ومحصولات معادن جبال الجركس

والجراكسة

الجرك والجراكسة وغيرهما او بخروجها عن حكم الجنويزيين فقدوا حكومتهم على البحر الاسود وضاع منهم منبع ثروتهم وغناهم
وقد هزم العثمانيون البنادقة على شواطئ نهر ايزونزو فى (سنة ١٤٧٧) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٨٢) من الهجرة وما زالوا يخربون بلاد ايطاليا حتى وصلوا الى مدينة بياوه وفى (سنة ١٤٧٨) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٨٣) من الهجرة حصل التسليم فى مدينة كرويه وبذلك تم لآل عثمان فتح بلاد الارناؤط وقد خرج من تلك البلاد حينئذ عائلة كستريو الذين كانوا يحكمونها ونزلوا بمملكة نابلى والتجأوا الى ملكها فاعطاهم اراضى والتزامات وصاهرهم وهرب ايضا قبيلة من الارناؤط اذن لها بالنزول فى اقليم كلابرة ولم تزل الى الآن باقية على لغتها واخلاقها وعوايدها الاصلية
ثم ان السلطان عقد الصلح مع البنادقة (سنة ١٤٧٩) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٨٤) من الهجرة ليتفرغ لتجهيز تجريدة ليرسلها لقتال جزيرة رودس فبعث اليها (سنة ١٤٨٠) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٨٥) من الهجرة دونانمة فيها من العساكر مائة الف مقاتل يقودهم ميسطش باشا الذى هو من العائلة البليالوغية الايمبراطورية وكان اسلامه بعد فتح السلطان محمد الثانى مدينة القسطنطينية فحاصر تلك الجزيرة ثلاثة اشهر ثم ارتحل عنها لما رآه من قوة الرئيس الاعظم اوبسون وشدة ثباته
وقد كان السلطان محمد الثانى لا تكل همته ولا تفتر قوته فجمع فى (سنة ١٤٨١) ميلادية المقابلة لنحو (سنة ٨٨٦) هجرية لاجل تسامى ذكر هذه الغزوة التى لم ينجح فيها باعتباره ان يحصل من الفوز بالنصرة جيشين عظيمين اعد احدهما لقتال جزيرة قبرص باوربا تحت قيادة احد وزرائه وقاد الثانى بنفسه ووجهه الى قتال ملك العجم فبينما كانت آماله متعلقة بتلك الفتوحات اذ فجأه الموت بمدينة ازنيكميد فى الثالث من شهر مايه او الثانى من شهر يوليه الموافق لليوم الخامس من جمادى الاولى من

السنة المذكورة اعنى (سنة ٨٨٦) من الهجرة وقد بالغ مؤرخو العثمانيين في مدحه حتى لقبوه اعظم سلطان من سلاطين الدنيا وقالوا انه فتح سلطنتين عظيمتين واثنتي عشرة مملكة ومأتي مدينة وقد اخطأ المؤرخون في الحساب وانما المحقق انه لا تذكر مهارته في الجهاد وان كان دون تيمورلنك واسكندر بمراحل من حيث وسائله ومشروعاته فانه وان كانت جيوشه دائما اكثر عددا من جيوش اعدائه الا ان فتوحاته لم تجتز نهر الفرات ولا البحر الادرياتيقي وهو بحر البنادقة وقد عاقه عن التقدم في الفتوحات كل من هونياد واسكندر بيك وامراء جزيرة رودس وملك العجم

وقد اعقب ولدين يسمى اكبرهما بايزيد وهو الثاني من هذا الاسم والآخر يقال له جم ولما قصد ولده بايزيد حج بيت الله الحرام قبل ان يدخل القسطنطينية ويجلس على سرير الملك حيث كان له الحق في السلطنة لكونه ولي العهد لاسيما وكان والده قد عينه لها قبل موته انتهز اخوه جم هذه الفرصة وتطلب السلطنة وانضمت اليه جنود آسيا ولكن هزمه الصدر الاعظم احمد باشا قريبا من مدينة بورسا ففر هاربا والتجأ عند قايتباي سلطان مصر فسعى هذا السلطان في الصلح بينه وبين اخيه فلم يجد سعيه نفعا فعند ذلك خرج جم من بلاده وقصد قرمان اوغلي حاكم اقليم بقرمانستان فتجارى هذا الحاكم على رفع اعلام العصيان والخروج عن طاعة السلطان بايزيد بعد أن تحزب مع عدة امراء لا يعبأ بهم من امراء الاسلام فهزمهم السلطان بايزيد قريبا من جبل طوروس فصار حينئذ الامير جم لسوء حظه يتنقل من بلدة الى اخرى حذرا من ان يفتك به اخوه فلما احس من اصحابه انهم يريدون القبض عليه وضاقت عليه الارض بما رحبت ركب زورق صيد وتوجه نحو جزيرة رودس فتلقاه امراؤها وحيوه تحية الملوك وامتنعوا من التسليم فيه لاخيه بايزيد وبعثوه الى احدى اماراتهم باقليم پروونسة والتزم رتبيهم اوبسون لاجل منع وقوع الحرب بينه وبين السلطان بايزيد هو وجميع الامراء

ان

ان لا يسلموا الامير جم الملك من الملوك نصرانيا كان او مسلما خوفا من أن يتخذه ذلك الملك حجة للحرب مع الدولة العثمانية والتزم بايزيد ان يدفع كل سنة مبلغا قدره خمسة وثلاثون الفا من الدوقات لهؤلاء الامرآء فلحق الصدر الاعظم احمد باشا حنق شديد حين رآى ان الدولة العثمانية قد صارت خراجية لهؤلاء الامرآء النصارى ولم يقدر على كظم غيظه ولم يقه نعمه فى الخدامة من غضب السلطان بايزيد حيث فهم من تشكيه انه يعيره بالضعف فامر بخنقه سرا

وبعد ذلك بمدة يسيرة هجم على مصر وكانت فى ايدى المماليك ولكن لا يعلم هل الحامل له على ذلك عدم وجود حرب يشغل فيه الانكشارية فعمل ذلك ليشغلهم او الانتقام من السلطان قايتباى لكونه آوى اخاه عنده

وقد كان فتح الاسلام لبلاد مصر واخذها من اليونان فى اثناء القرن السابع من الميلاد وذلك فى الثانى من المحرم (سنة ٢١) من الهجرة وكانت قبل ذلك اقليما من ممالك الروم ثم انفصلت عنها فى زمن الخلفاء العباسية وصارت كرسيا برأسه اولها خلافة مخصوصة اتسعت دآئرتها وعظمت شوكتها فى ايام الدولة الفاطمية فكان لها الفخر بذلك وبعد انقراض هذه الدولة التى كانت تفتخر بكونها من نسل السيدة فاطمة بضعة المصطفى صلى الله عليه وسلم خلفتها فى القرن الثانى عشر (سنة ١١٧١) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٥٥٧) من الهجرة الدولة الايوبية التى اسسها السلطان صلاح الدين ابن نجم الدين ايوب وقد منع السلطان نجم الدين صالح احد خلفاء السلطان الاعظم صلاح الدين ايوب اهل مصر من حمل السلاح وجدد وجاقا كبيرا من العساكر جمعه من المماليك الذين كانوا يجلبون اليه من بلاد التتار والجركس وكان لا يدخل فيه الا المماليك او الاجانب ولا يدخله احد من الاهالى وهذا هو اصل دولة المماليك بمصر الا انهم محقوا كرسى سلطنتها مع انه كان الواجب عليهم تقويته والذب عنه حيث قتلوا (سنة ١٢٥٠) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٦٤٨) هجرية السلطان

المعظم توران شاه خليفة السلطان نجم الدين وتغلبوا على مملكة مصر وصنعوا حكومة جمهورية عسكرية كانت رياستها لمن ينتخبونه منهم واول من حكمها منهم السلطان المعز عز الدين ايبك وتولاها بعده كثير من ذريته كان ينصبهم الجمهور ويعزلهم متى شاء وقد مكثت دولة المماليك ثلاثة قرون في البهجة والرونق مع ما وقع في تلك المدة من الفتن والمحن والاضطراب واتسعت حكومتهم في افريقة وآسيا حتى صارت من صحارى برقة الى شواطى نهر الفرات ومع انهم كانوا ارباب شوكة وقوة لم يكن مزاج سياستهم يصلح الا لحفظ ممالكهم دون فتح بلاد جديدة واما ما وقع بينهم وبين العثمانيين من الحروب فلم يكونوا هم البادئين بها

هذا وكان السبب في وقوع الحرب بين السلطان بايزيد والسلطان قايتباى مشاجرة وقعت بين الامير اليادوليته تابع السلطان بايزيد اى خراجى له وبين حاكم اقليم الجركس تابع السلطان قايتباى اى خراجى له وذلك ان حاكم الجركس لما هجم على الامير اليادوليته المذكور وكان حاكما على اردفستان طلب هذا الامير الاعانة من السلطان بايزيد حيث كان من اتباعه فاجابه لذلك وتوجه لقتال المماليك فهزموه على جبل امان الموجود بقرمافستان فعاد الى بلاده ثم قصد بلاد اوربا فساعده الدهر حيث تغلب منها في (سنة ١٤٨٦) الى (سنة ١٤٨٩) من الميلاد المسيحى من (سنة ٨٩١) الى (سنة ٨٩٥) من الهجرة تقريبا على اقليم البغدان واقليم بشناق واقليم خروات وفي (سنة ١٤٨٦) اعان مغاربة غرناطة بالاندلس الاسبانيولين النصارى حيث هزم قبطان باشا الدولة العثمانية دونمة من دونمات النصارى ونهب سواحل اسبانيا وايطاليا

وكان موت اخيه الامير جم مسموما بمدينة ترابلنة (سنة ١٤٩٥) ميلادية و (سنة ٩٠١) هجرية تقريبا احب اليه وانفع من نيل نصرة عظيمة وكيفية موته انه حين سلمه رئيس ابطال رودس المسمى اوبسون للباباة

ابنوسان

اينوسان الثامن حجزه بعد موت هذا البابا البابا اسكندر السادس
بقلعة سنتانج وصار يستلم من اخيه كل سنة قدرا معلوما في نظير وضعه
في السجن ثم سلمه البابا للملك كرلوس الثامن وكان لعدم حزمه وتدبيره
قد عزم على محاربة القسطنطينية ففرح بقبضه على جم ليتخذه حجة
في هذا الحرب ويجعله باسمه الاان السلطان بايزيد جعل للبابا اسكندر
السادس ثلثمائة الف بندقي على ان يريح اخاه من نكد الحياة فلم يبق بعد ذلك
الا قليلا ومات مسموما وبموته انقطعت حجة كرلوس المذكور
وفي (سنة ١٤٩٩) ميلادية الموافقة تقريبا لسنة (٩٠٥) هجرية
اشهر السلطان بايزيد الحرب مع البنادقة وكان تعطيل التجارة
وصعوبتها سببا في نقض الصلح وايقاع الحرب دائما بينهم وبين السلطان وذلك
انه بعد أن هزم العثمانيون القبطان انطون غريماني حاصروا مدينة
اينة بختي وفتحوها في مدة قليلة ثم فتحوا (سنة ١٥٠٠) من الميلاد
اي في نحو (سنة ٩٠٦) من الهجرة مدينتي مدون وقورون وتوجهوا
(سنة ١٥٠١) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٩٠٧) هجرية الى نهر
طونة لقتال لادسلاس ملك جه والمجار حيث كان يشغلهم
لمساعدة البنادقة هذا وحصل للسلطان بايزيد حيرة وضيق شديد
مما فعله اسماعيل شاه ملك العجم (سنة ١٥٠٢) من الميلاد اي في نحو
(سنة ٩٠٨) من الهجرة واشتدت حيرته باعانة احدى الدونمات
الاسبانيولية للبنادقة على التغلب على جزيرتي ايجينة وكفالونيا
وكانت تلك الحوادث سببا في عقد الصلح (سنة ١٥٠٣) ميلادية الموافقة
لسنة (٩٠٩) هجرية تقريبا بين السلطان بايزيد والبنادقة وقد حافظ
كل على شروطه الى (سنة ١٥٣٧) من الميلاد اعني نحو (سنة ٩٤٤)
من الهجرة وبموجب هذا الصلح صار البنادقة يتجرون على البحر الاسود
بلا معارضة ورخص لهم في ارسال قنصل منهم الى القسطنطينية لكن
نزعت من ايديهم مدائن قورون ومدون واينة بختي

ولم تزل الدولة العثمانية فى صلح مع الممالك المجاورة لها فى ايام بايزيد الا انها كانت لا تخلو عن فتن ومشاجرات داخلية وذلك ان السلطان كان له خمسة اولاد وهم احمد وقورقد وسليم وجهان ومحمد فاما الاثنان الاخيران فخرجا عن طاعته فامر بخنق احدهما وسم الآخر وكان قد جعل ولاية العهد للامير احمد لانه كان اكبر اولاده الا انه كان مولعا بالعزلة وكان يتراءى عليه عدم الميل الى الحرب فلذا كانت تبغضه الانكشارية بخلاف الامير سليم فكانوا يميلون اليه حتى انهم بعثوا يحيونه تحية السلاطين وهو بمدينة طرابزون ودعوه الى السلطنة فاجتار بوغاز القسطنطينية (سنة ١٥١١) ميلادية اى نحو (سنة ٩١٧) هجرية ومعه عشرون الفا قاصدا قتال ابيه فخاب سعيه لان الانكشارية الذين دعوه لم يزالوا على الانقياد للسلطان فهزمه والده بمدينة تورلو فالتجأ عند ذلك بارض القرم لكنه لم يلبث على هذه الحالة زمنا طويلا لان احزابه من الانكشارية الحوا عليه بعد قليل أن يعود للقتال ثانيا ودخل تحت اعلامه جميع الجنود التى قاتلته فى المدة الاولى فلما لم يمكن لوالده أن يقاومه عهد اليه بالسلطنة وخلع نفسه منها وطلب منه أن ياذن له فى الذهاب الى مدينة أدرنة ليقيم بها

فلما جلس السلطان سليم على سرير السلطنة بالقسطنطينية ذهب لزيارة ابيه وعرض عليه أن يقيم بتلك المدينة فاجابه والده بقوله يابنى ان الغمد لا يسع سيفين ثم ارتحل الى المدينة التى اختار الاقامة بها ومازال معه السلطان سليم حتى وصل الى مكان معلوم فعند ذلك جثا على ركبتيه وساله الدعاء لكن لما علم منه التوانى فى السير وقع منه فى نفسه شئ فامر بسمه واجرى امره فورا واتى بابيه ميتا الى القسطنطينية ودفن بها وكان يوما مشهودا

ولما كان من طبع كل من احمد وقورقد الخوف والوجل كان السلطان سليم لا يخشى بأسهما فى شئ الا انه كان يهاب الحقوق الثابتة لهما لكونهما من نخذ السلطنة وكان يقول من اراد أن يحكم مع الراحة فليقطع علائق الخوف فاثبت لنفسه السلطنة واكذها بقتل اخويه وكان لاخيه احمد ولدان فالتجاء

احدهما الى بلاد العجم والآخر الى بلاد مصر فطلبهما السلطان من ملكى هذه البلاد فأبيا فجر ذلك الى ايقاع الحرب مع كل منهما وابتدأ بالاغارة على بلاد العجم

وذلك أن الشيخ حيدر الذى هو من ذرية الامام على كرم الله وجهه اتبعه عند ظهوره كثير من الناس ببلاد المشرق لزهده فى الدنيا واخباره بالمغيبات فمن ثم لقب بالصوفى وادعى انه مسخر ومقيض لاحداث النسخ فى الدين فقبض عليه رستم ملك العجم وقتله لانه رآى انه ربما ينشأ عن ابتداعه بعض مفاسد بالمملكة وبعد قتله اخذ اصحابه اصغر اولاده المسمى اسماعيل وذهبوا به الى اقليم جيلان فنشأ فيه على منوال والده فلما بلغ اشده جمع عددا عظيما من اصحابه وتوجه الى اعدآئه ليأخذ بثار ابيه وينشر مذهبه فتغلب (سنة ١٥٠١) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٩٠٧) من الهجرة وهو ابن اربع عشرة سنة على بلاد طوروس حيث نزعها من الوند رابع خليفة من خلفاء اوزن حسن وفتح بلاد العجم على التدريج واسس فيها دولة الصوفية وصار يحكم على سلطنة متسعة تشتمل على بلاد العجم الاصلية وعلى بلاد ادربيجان وجزيرة ابن عمر والشام وبعض ارمانستان حتى اغار عليه السلطان سليم (سنة ١٥١٤) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٩١٤) من الهجرة وكانت قوة الجيوش العثمانية فى هذه الواقعة بكثرتها وضبطها وربطها ومدافعها وشهرة انكشاريتها بخلاف العجم فكانت عدتهم مائة الف فارس وكان يحميهم من كيد اعدائهم اتساع صحراواتهم التى لا يمكن الوصول الى بلادهم بدونها فدخل السلطان سليم اولا بلاد الارمن ثم التقى مع العجم تحت اسوار مدينة طوروس فى سهل شلديران فانهزم العجم لكثرة العثمانية ومع نصرة العثمانية قتل منهم اربعون الفا حتى عدوا اليوم الذى انتصروا فيه من الايام المشؤومة وغنموا غنيمة عظيمة ولم يتوغل السلطان سليم فى بلاد العجم زيادة على ذلك بل بادر بالعود الى دولته لما حل بجنوده من المخمصة والمجاعة فى وسط تلك الصحارى مع وجود الذهب والفضة والجواهر

النفيسة عندهم بكثرة

ثم ان السلطان بعد ذلك بسنة أباد الياد وليت حاكم ارمنستان وعائلته عن آخرهم لكونه فى مبدء حربه مع العجم خانه ثم اراد ان يشن الغارة على بلاد العجم ثانيا فعاقه عن ذلك تخلف الانكشارية عن الانقياد لامره لكن جبر مافاته باخذه لديار بكر بدون قتال (سنة ١٥١٦) ميلادية و (سنة ٩٢٢) هجرية تقريبا وذلك ان اهالى هذه الولاية لما كانوا من اهل السنة واعداء للشيعة خرجوا عن طاعة الملك اسماعيل صوفى ودخلوا تحت طاعة العثمانية على ان يدفعوا الخراج فقط ويكون لهم الحق فى انتخاب حاكمهم

ثم اغار السلطان على المماليك وكان معه مائة وخمسون الفا وكان قصده الانتقام من السلطان الغورى فى نظير كونه آوى اليه احد اولاد الشاه زاده احمد فانهزم الغورى فى سهول حلب حين خانه اثنان من رؤساء عساكره بفرارهما الى السلطان سليم ويقال ان سبب موته مالحقه من الجهد والمشقة وشدة الحنق بعد أن قتل بيده اربعين من اعدائه من غير أن يصاب بجرح فحينئذ فتحت ابواب حلب ودمشق لهذا السلطان المنصور (سنة ١٥١٧) من الميلاد اى فى نحو (سنة ٩٢٣) من الهجرة وحصلت واقعة اخرى بددفيها السلطان شمل المماليك قريبا من مدينة غزة فتجمعوا على البعد من القاهرة بستة اميال واظهروا من الشجاعة امورا غريبة وقاتلوا بقوة وشهامة تحت قيادة السلطان طومان باى الذى تولى بعد الغورى ومع ذلك فلم ينجحوا وما زال السلطان يكر عليهم حتى ادخلهم المدينة فدافعوا عنها حق المدافعة فلما قل عددهم ولوا هاربين حتى سلطانهم طومان باى خانه التجأ عند شيخ من العرب فخانه واخبر به السلطان فاحضره وامر بشنقه على باب من ابواب القاهرة (وهو المسمى باب زويلة وفى ذلك يقول ابن اياس

شنقوه قهرا فوق باب زويلة ✱ ولقد اذاقوه الوبال الاكبرا

يارب فاغفر عن عظائم جرمه ✱ واجعل جنان الخلد فيه له قرى)

وجميع

وجميع من بقي من المماليك ماعدا من فر منهم الى صحارى الصعيد احضرهم الاهالى بين يدى السلطان لاعتقادهم ان الله تعالى قيضه لانقاذهم من استعباد المماليك فامر بقتل عشرين الفا منهم من ذبح ومنهم من القى فى النيل وفى اليوم الثانى دخل القاهرة فى موكب عظيم وكان بمصر وقت استيلاء السلطان سليم عليها خليفة من الخلفاء العباسية كانت اقامته المماليك لكنه اضعف شوكته كان كانه خيال على سرير الخلافة فسلم للسلطان مفاتيح الكعبة والراية النبوية التى نقلت بعد الخلفاء الاربعة الى خلفاء دمشق ثم الى خلفاء بغداد حتى وصلت الى خلفاء مصر وذهب الخليفة المتقدم مع السلطان سليم الى مدينة القسطنطينية ولبث بها بقية عمره وكانت نفقته على الخزينة العثمانية

وبعد أن فتح السلطان بلاد مصر ارسلت قبائل العرب وشريف مكة يبايعونه على الطاعة والدخول تحت حكمه وبينما كان يتأهب لغزوات جديدة فى بلاد العجم وجزيرة رودس بعد رجوعه من بلاد مصر ادركه الموت فى اثناء ذلك (سنة ١٥٢٠) من الميلاد اى فى نحو (سنة ٩٢٧) من الهجرة

(الباب الثانى)
وفيه ثلاثة فصول
(الفصل الاول)

في الكلام على مملكة المجاروجه والاستروسيا وهى بج بلاد النمسا من (سنة ١٤٣٧) الى (سنة ١٥١٩) ميلادية اى من (سنة ٨٤١) الى (سنة ٩٢٥) هجرية تقريبا)

اعلم انه بعد موت الامبراطور سجسموند الاول (سنة ١٤٣٧) من الميلاد انتخب صهره ألبيرت الثانى دوق الاستروسيا ملكا على بلاد المجار (فى شهر دقمبر (سنة ١٤٣٧) وعلى الرومانيين (فى شهر مارث (سنة ١٤٣٨) ميلادية المقابلة لنحو (٨٤٢) هجرية وعلى مملكة جه

(في شهر مايه (سنة ١٤٣٨) ثم مات (سنة ١٤٣٩) ميلادية اعني (سنة ٨٤٣) هجرية تقريبا وبعد وفاته بمدة قليلة وضعت زوجته المسماة اليزابيطة ولدا يسمى لادسلاس لو بوستوم (ومعنى لو بوستوم المولود بعد موت ابيه) نخلف اباه على بلاد المجار وكان نائبه فيها ووصيه اولادسلاس ملك له وخلفه ايضا على مملكة چه وكان نائبه فيها جرجس بودبراد فتغلب اولادسلاس (سنة ١٤٤٢) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٨٤٦) هجرية على مملكة المجار وحرم منها الموصى هو عليه وحارب العثمانيين فقتل في واقعة مدينة الورنة (سنة ١٤٤٤) من الميلاد اى (سنة ٨٤٨) من الهجرة تقريبا فعند ذلك بايع المجار لادسلاس ثانيا واقيم حنا هونياد نائبا عنه في حكومة مملكتهم

وانتخب فردريق الثالث دوق النيمسا الذي هو من نسل اوستيري ايمبراطورا على بلاد النيمسا (سنة ١٤٤٠) من الميلاد اعني (سنة ٨٤٤) من الهجرة تقريبا وكان وصيا على الشاب لادسلاس وحجبه في ديوانه رغما عن اهل الاستروسيا وچه والمجار فاجمع اكابر الملل الثلاثة المذكورة واعيانهم على ان يأخذوا ملكهم من الايمبراطور وجبر فردريق على تسليمه لهم (سنة ١٤٥٢) ميلادية اى نحو (سنة ٨٥٧) هجرية لكنه لم يسلم في تاج سنت اسطفان وكان قد تغلب عليه قبل ذلك وسلم لادسلاس لخاله قونتة دوسلي وجعل نائبا عنه في دوقية الاستروسيا واقر كل من حنا هونياد وجرجس بودو براد على نيابة بلاد المجار وچه وفي ايام لادسلاس المذكور اغار السلطان محمد الثاني بعد فتح القسطنطينية على مدينة بلغرادة وهي بوغاز بلاد المجار ففر لادسلاس هاربا وكذلك قونتة دوسلي الى مدينة ىج كرى الايمبراطورية خوفا من الوقوع في الخطر وصار هونياد مطمح نظر العثمانية (راجع تاريخ الدولة العثمانية في الباب الاول) وكانت نجاة تلك المدينة من العثمانية على يديه لكنه مات عقب ذلك لما اصابه من الجراحات واعقب ولدين وهما لادسلاس وماتياس

فقاسى

فقاسى البكرى منهما اهوالا مية شنيعة (سنة ١٤٥٧) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٦٢) من الهجرة ولم يحترمه قاتلو ملصنع ابيه وما حازه من الفخر والنصر وذلك ان الملك لما استلم حكومة بلاد المجار لقونتة دوسلى وكان بينه وبين حناهونياد والد لادسلاس المذكور عداوة اغتاظ من ذلك بعض اعيان المجار لاسيما ولدا حناهونياد المذكور الذى تقلد بهذا المنصب من قبل ولما كان الديوان بمدينة بلغرادة التقى لادسلاس بهادم قونتة دوسلى من غير قصد ووقع بينهما القتال فاصاب القونتة جرح افضى به الى الهلاك هذا وكان ينبغى العفو عن القاتل وهو لادسلاس ابن حناهونياد لكون والده انقذ بلاد المجار من المشاق والاخطار لاسيما والمقتول هو المتعدى لكن لم يعف الملك عنه بل ضرب عنقه ولم تمض تلك السنة حتى مات الملك المذكور ولم يعقب ذرية فانتخب ماتياس قروان بن حناهونياد الثانى ملكا على بلاد المجار (سنة ١٤٥٨) ميلادية اعنى (سنة ٨٦٣) هجرية تقريبا وانتخب بودبراد ملكا على بلاد جه وقسمت الاقاليم النمساوية التى خلفها الملك لادسلاس المتوفى بين الامبراطور فردريق الثالث واخيه ألبيرت وابن عمه سجسموند الذى هو من ذرية نمساوية تيرول فكان نصيب الامبراطور بلاد الاستروسيا الواطية ونصيب ألبيرت بلاد الاستروسيا العالية ونصيب سجسموند اقليم قارنثيا وجعلوا مدينة بج دار اقامتهم وقد ترتب على هذه القسمة التى لم تكن على مرام الامبراطور فردريق ولا اخيه ألبيرت حرب وقع بينهما ومكث عدة اعوام فحاصر ألبيرت اخاه فردريق بمدينة بج وانقذه من المحاصرة جرجس بودبراد ولم يلبث ألبيرت الا يسيرا حتى مات (سنة ١٤٦٣) من الميلاد اعنى نحو (سنة ٨٦٨) من الهجرة فصار الامبراطور مستقلا بحكم بلاد النمسا بتمامها بعد موت اخيه

واول شئ وقع من الملك ماتياس قروان عند استيلائه على مملكة المجار

هو ارساله الى الايمبراطور فردريق يطلب منه تاج مملكة سنت اسطفان ويهدده بالحرب اذا لم يجبه لذلك فلم يجبه احتقارا له لصغر سنه بل عزم على خلعه عن ملكه لكن لم يكن ذلك فى وسعه وفى (سنة ١٤٦٤) ميلادية اى فى نحو (سنة ٨٦٩) هجرية عقد مشارطة بينه وبين ماتياس المذكور وبموجبها تخلى عن تاج سنت اسطفان وابقى لنفسه مدة حياته لقب ملك المجار وشرط أن يكون لذريته حق التولى على هذه المملكة اذا مات ماتياس ولم يعقب ذرية

ولما اتهم يودبراد ملك چه بحماية الهوسيت والمدافعة عنهم حث عليه الملك ماتياس كل من البابا بولص الثانى والايمبراطور فردريق وحرضاه عليه فاغار على مملكته (سنة ١٤٦٨) ميلادية اى نحو (سنة ٨٧٣) هجرية وتغلب على مدينة مراوية واخذ تاج مملكة چه وبعد موت يودبراد (سنة ١٤٧١) من الميلاد اعنى نحو (سنة ٨٧٦) من الهجرة اقامت مجالس چه مقامه لادسلاس بن قازمير الرابع ملك له وولته على المملكة ومع ذلك فلم يرجع ماتياس عن مأربه بل حارب لادسلاس المذكور ومكث الحرب بينهما زمنا طويلا ثم انعقدت بينهما مشارطة بمدينة اولمتز (سنة ١٤٧٨) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٨٣) من الهجرة واستقر الرأى فيها على ان كلا منهما يلقب بملك چه لكن حكومة المملكة تكون للملك لادسلاس وكذلك حق الانتخاب واما ماتياس فيختص بالاقاليم الثلاثة المنضمة الى مملكة چه وهى لوزاق ومراوية وسليزيا فان مات ماتياس قبل لادسلاس رجعت هذه الاقاليم الى الملك لادسلاس وكان الامر كذلك فقد مات ماتياس قبله (سنة ١٤٩٠) ميلادية اى نحو (سنة ٨٩٦) هجرية من غير أن يعقب ذرية ورجعت الاقاليم الثلاثة الى لادسلاس

ثم ان ماتياس بعد محاربته مع ملك چه شرع فى حرب آخر مع الايمبراطور فردريق وذلك ان هذا الايمبراطور لما امتنع عن ان يزوجه بنته ويعينه

على

على العثمانية اغتناظ من ذلك ودخل الاستروسيا وعقد مع الايمبراطور مشارطة نقضت بعد مدة قليلة حيث تغلب على مدينة بج (سنة ١٤٨٥) من الميلاد اى نحو (سنة ٨٩٠) من الهجرة ولم يزل مستوليا عليها حتى اخترمته المنية (سنة ١٤٩٠) من الميلاد وفى هذا الوقت تملك مكسيمليان ملك الرومانيين وابن فردريق الثالث على بلاد الاستروسيا ثانيا لكن تعذر عليه التغلب على مملكة المجار فان ارباب دواوينها بايعوا ملك چه وهو لادسلاس حفيد الملك ألبيرت الثانى على الطاعة والانقياد وجعلوه ملكا على ممالكهم فقاتله عند ذلك مكسيمليان ووقع بينهما حرب فقد فيه كل منهما كثيرا من العساكر ثم آل الامر الى المشارطة التى انعقدت بمدينة برسبورغ (سنة ١٤٩١) ميلادية اعنى (سنة ٨٩٧) هجرية تقريبا وبموجبها اقر ملك الرومانيين الملك لادسلاس على بلاد المجار وانحط الرأى على أن هذه المملكة تكون له بعد انقراض ذرية لادسلاس عن آخرها

ثم مات الايمبراطور فردريق (سنة ١٤٩٣) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٩٩) من الهجرة وخلفه مكسيمليان فاضاف هذا الايمبراطور بتزوجه لمريم البرغونية (سنة ١٤٧٧) ميلادية اى نحو (سنة ٨٨٢) هجرية سبعة عشر اقليما الى التزامات عائلة النمساوية وكان الدهر مقبلا عليه فى تجديد سعوده وقيام حظه فقد ورث (سنة ١٤٩٧) ميلادية اعنى (سنة ٩٠٣) هجرية تقريبا عائلة تيرول وكان ذلك بعد موت الارشدوق سجسموند وجمع تحت يده من ذلك الوقت مخلفات النمساوية بتمامها

هذا وقد شرع مكسيمليان فى الحرب مع السويسة متعللا بان الجمهورية السويسية امتنعت أن تقرحكم ديوان الايمبراطورية وأن تنقاد لقوانين المعاهدة الجرمانية مع انها كانت عضوا منها والواقع انه لم يكن قصده بالحرب معهم الا مجرد الاجتهاد فى التغلب على الالتزامات القديمة التى تنسب لعائلة

هسبورغ فالتقى معهم فى حومة الميدان ثمانى مرات فى سنة واحدة وكانت النصرة للسويسة فى كل مرة فحزن مكسيمليان لكثرة هذه المصائب المتواترة ورضى بتوسط لودويق لومورس دوق ميلان فى الصلح بينه وبينهم وعقد مع السويسة مشارطة صلح كان مضمونها انهم اقروا حقوقه فى وادى پرتيغاو وهو وادخصب من بلاد الغريزونة واما الايمبراطور فعافاهم من ان تقام دعاويهم فى ديوان الايمبراطورية ومن جميع المغارم التى فرضها عليهم قبل ذلك فبمقتضى هذه المشارطة سد باب المشاجرات الطويلة بين السويسة وامرآء عائلة النمسا وثبت للجمهورية السويسية استقلالها وحريتها

وقد اكتسب الايمبراطور مكسيمليان (سنة ١٥٠٠) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٩٠٦) من الهجرة بعض اقاليم اتسعت بها دائرة دولته بعد موت ليونارد آخر قونتة من قونتات غوريتز وذلك انه بموجب القرابة ولحمة النسب بين هؤلاء القونتات وامرآء عائلة النمسا وقع فى نصيب مكسيمليان بعد موت القونتة المتقدم جميع مدن مديرتى غوريتز وغراديسقة واراضيهما فاضافها الى دولة الوراثية ببلاد المانيا

وفى (سنة ١٥٠٣) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٩٠٩) من الهجرة افتتحت تركة عظيمة ببلاد المانيا بعد موت جرجى آخر دوقات باويرة وهو من نسل لندسهوت فتطلب الايمبراطور مكسيمليان سهما منها فنال (سنة ١٥٠٥) ميلادية اعنى نحو (سنة ٩١١) هجرية مدينة كوفستان ومدينة غيرولدسيق ومدينة كيتزبوله ومدينة راتنبرغ ومدينة نوبورغ على نهر اين وقونتية كيرشبورغ باقليم سوابة والتزام ويسنهورن ولندغراوية دى الساس

وفى (سنة ١٥١٥) من الميلاد المقابلة (لسنة ٩٢١) من الهجرة تقريبا شمر الايمبراطور مكسيمليان عن ساعد الجد والاجتهاد فى تكثير عشيرته

باجتماعه

باجتماعه فى مدينة بج مع لادسلاس ملك مملكتى چه والمجار وذلك ان هذا الملك خطب من الايمبراطور بنت بنته وهى الاميرة ماورية لابنه الامير لويز فاجابه لذلك ودخل بها الامير المذكور فى (سنة ١٥٢١) ميلادية اعنى نحو (سنة ٩٢٨) هجرية وخطب مكسيمليان حانة اخت الامير لويز لاحد ولديه كرلوس وفردينند فاجابه الملك لادسلاس الى ذلك وكانت من نصيب فردينند فدخل بها بعد ذلك فكانت عواقب هذا الارتباط سعيدة الان مكسيمليان اخترمته المنية قبل أن يحظى بها (سنة ١٥١٩) ميلادية اى نحو (سنة ٩٢٥) هجرية

(الفصل الثانى)

فى الكلام على الايمبراطورية النيمساوية من (سنة ١٤٣٧) الى (سنة ١٥١٩) من الميلاد

اعلم انه بعد موت الايمبراطور سجسموند (سنة ١٤٣٧) من الميلاد دخلت الايمبراطورية ثانيا تحت يد العائلة النمساوية وانتخب عند ذلك ألبيرت الثانى صهر الايمبراطور سجسموند وملك چه والمجار ملكا على الرومانيين (سنة ١٤٣٨) ميلادية فاحكم ترتيب مصالح بلاد المانيا فى جمعية عقدت بمدينة نورمبرغ فى تلك السنة فنسخ عدة مظالم كانت فى ادارة الاحكام واضعف شوكة محاكم وستفاليه التى تحكم فى المصالح المهمة وعرض على ارباب الجمعية انه يريد ان يقسم الدولة الى عدة دوائر اواخطاط وان يجعل فى كل خط مديرا منوطا باقامة الصلح والهدء بين الاهالى ومنعهم عن الحروب فعاقه عن اجراء هذا الامر النافع عدة موانع اعظمها ما كان بين الطوائف من الشقاق والغيرة وعدم اتفاق الكلمة وبعد أن بذلت جهدها مشورة مينسة (سنة ١٤٣٩) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٤٣) من الهجرة فى ايقاع الصلح بين البابا اوجين الرابع وجمعية قسوس بالة ولم يجد سعيها شيأ تاست بالفرنساوية وقبلت من هذه الجمعية ما كان يصدر عنها من الاوامر من حيث كونها قانونا للكهنة

فى شأن ما للبابا من المرتبات السنوية والوعود والحقوق والاحتياطية وترتيب الانتخابات القسيسية العامة ثم مات الامبراطور ألبيرت المذكور فى تلك السنة فى اليوم السابع عشر من شهر اوقطوبر فى رجوعه من غزو العثمانية حين اغاروا على مملكة المجار فتأسف عليه الناس اسفا شديدا لما ظهر مدة حكمه القصيرة من الحكمة وحسن التدبير والمهارة والنشاط وكان موته نكبة عظيمة على رعاياه فقد حلت بهم بعده مصائب كثيرة واهوال شديدة لما وقع بينهم من الفتن والحروب الداخلية واختلت بعد موته حكومة بلاد المانيا بعد أن كانت فى ايامه آخذة فى الانتظام وبالجملة فكان موته مصيبة على بلاد الافرنج بتمامها حيث كانت تراه حصنا حصينا يحميهم من المسلمين بشوكته وحسن تدبيره وادارته

وبعد موته انعقدت مشورة الانتخاب فانحط رأى اربابها اولا على لندغراودوهيس المسمى لويز الثالث لوباسفيك اى محب الصلح فانتخبوه ايمبراطورا وعرضوا عليه ذلك فامتنع عن هذا المنصب فانحط رأيهم بعد ذلك على انتخاب الامير فردريق النمساوى وهو من نسل استيريا (راجع ما تقدم فى شأن ادعاء فردريق المذكور تاج مملكتى چه والمجار) وزاد الناس اسفا وحزنا على فقد الايمبراطور ألبيرت عدم صلاحية هذا الايمبراطور للولاية على الايمبراطورية حيث لم يكن فيه قدرة على سياستها وحسن ادارتها

وعاقه عن التوجه الى مدينة اكسيلاشبيلا لاخذ التاج الايمبراطورى ما كان بينه وبين اخيه ألبيرت من المشاجرات ولم يتوجه اليها الا بعد انتخابه بعامين اعنى (سنة ١٤٤٢) ميلادية فلما لبس فى تلك المدينة التاج الايمبراطورى نزل بمدينة فرنكفورت وحضر مشورتها وحاول كل المحاولة فى احياء القوانين التى رتبها سلفه الايمبراطور ألبيرت وازالة التعصبات الداخلية والحروب المدنية وتقسيم بلاد المانيا الى دوائر او اخطاط فلم يمكنه ذلك وخاب سعيه وظهر ضعفه ايضا حين التقى مع دوق برغونيا المسمى

فيليپش

فيليبس الطيب حيث قبل الرشوة من هذا الدوق وتخلى له عن جميع الدعاوى العريضة التى كانت للايمبراطرة فى شان دوقيتى برابان ولمبورغه وقونتيات هولندة وزيلنده وهنيوت والتزام فريز

ولقلة تدبيره لم يمكنه ان يثبت مزية الكنيسة الجرمانيـة على الكنيسة الروميـة فانه لما كان يريد ان يلبس التاج بمدينة رومة حمله ذلك على ابقاء الصلح بين البابا اوجين الرابع ودواوين المانيا التى قبلت قوانين جمعية قسوس باله فنال فى نظير ذلك بعض حقوق من الفريقين و بناء على ذلك انعقـدت بينهم مشارطة (سـنة ١٤٤٦) ميلادية اعنى نحو (سـنة ٨٥٠) هجرية بمشورة فرنكفورت ثم مات البابا اوجين الرابع وتولى بعده البابا نيقولاس الخامس ولم يزل الايمبراطور فردريق يميل الى الصلح مع البابا فلذلك عقـد مشورة بمدينة اسفنبورغ (سـنة ١٤٤٨) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٥٢) من الهجرة وامر فيها بلاد المانيا بتمامها ان تنقاد لحكم البابا الجديد و بدل قانون الكهنة الذى رتب فى مشورة مينسه بالقانون الجرمانى الذى اقره فى مشورة اسفنبورغ و بموجبه ثبت حق الانتخاب القسيسى ونسخ الوعد بالعفو وما اشبهه واقيم مقام المرتبات السنوية التى كانت للبابات على الاملاك مغرم دائم لا يبطل ابدا ورتب فى ذلك القانون الصور التى فيها يكون للبابات او جمعيـة الرهبان الحق فى اعطاء الرزق لمن شاؤا ثم عرض هذا القانون على البابا نيقولاس الخامس فاستصوبه واقره

ثم نزل الايمبراطور فردريق الثالث بلاد ايطاليا (سـنة ١٤٥٢) من الميلاد اعنى (سـنة ٨٥٦) من الهجرة تقريبا ولبس بها التاج الايمبراطورى وقلده البابا نيقولاس الخامس اولا مملكة اللنبردية و بعد ذلك بثلاثة ايام قلده منصب الايمبراطورية مع شعائر التقليد الجارية عندهم ثم صدر عنه وهو راجع الى بلاده (سنة ١٤٥٣) ميلادية اى نحو (سنة ٨٥٧) هجرية امر بجعل دوقية الاستروسيا ارشدوقية

وبعد ذلك بمدة يسيرة الزمته ملتزمو مملكتي چه والمجار بان يسلم لهم ملكهم الشاب المسمى لادسلاس البوستوم وكان الايمبراطور المذكور قد حجزه عنده في الديوان منذ مدة طويلة مدعيا انه وصي عليه وكانوا قبل ذلك طلبوا منه ارساله اليهم مرارا فلم يجبهم فلما مات هذا الامير الشاب (سنة ١٤٥٧) ميلادية اي نحو (سنة ٨٦٢) هجرية ادعى الايمبراطور فردريق ان له حق الولاية على مملكتي چه والمجار فخاب سعيه ولم يبلغ مقصوده وآثر عليه اهل المملكتين جرجي بودبراد وماسياس كروان فما كان اضر هذا الامر عليه واتعبه ولم يخصه من مخلفات الامير لادسلاس بتمامها الا ثلث ارشدوقة الاستروسيا وقسم الثلثان الباقيان بين اخيه البيرت وابن اخيه سجسموند قونتة تيرول

ثم ان هذا الايمبراطور اخذ يوسع دائرة مملكته بلا طائل واهمل في تدبير مصالحها وحسن ادارتها فكانت بلاد المانيا خالية عن الترتيب وحسن الانتظام حيث كان حضوره بها نادرا وكأن ذلك منه كان عن عمد حتى ان ارباب الانتخاب لما سئمت نفوسهم من ذلك عرضوا عليه (سنة ١٤٥٦) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٦١) من الهجرة شكواهم من دعته وبطالته وعدم اشتغاله بتدبير الدولة وادارتها فلم تجد شكواهم نفعا بل استمر على ما كان عليه فشرع في (سنة ١٤٦١) ميلادية اعني نحو (سنة ٨٦٦) هجرية المنتخب البلاتيني وهو فردريق المنصور في عزله وكان الايمبراطور رقد اوقع البغضة والكراهة بينه وبين هذا المنتخب لسوء تدبيره وعدم كياسته فلما بلغه ذلك فزع فزعا شديدا واستمال اليه منتخب سكس وتودد الى البابا بيس الثاني واتحد معه غاية الاتحاد وكان بين هذا البابا وقتئذ ومطران ميانسة المسمى ثيري ديمسبورغ احد اعداء الايمبراطور المهولين مشاجرات شتى ومنازعات شديدة افضت بالمطران المذكور الى العزل واقيم مقامه ادولف دوناسو فعند ذلك اشتد حنق هذا المطران وحمله الغضب على ان ينضم الى المنتخب البلاتيني ونشرا

معا اعلام العصيان والحرب المدني في زمان ادولف بقرية سكنهيم (سنة ١٤٦٢) من الميلاد المقابلة (لسنة ٨٦٧) من الهجرة تقريبا لكنه بقي على منصبه بموجب المشارطة التي انعقدت بمدينة فرنكفورت (سنة ١٤٦٣) ميلادية اعني نحو (سنة ٨٦٨) هجرية والتزم ان يرضى خصمه بامور جسيمة

وفي اثناء هذه المشاجرة ببلاد المانيا كان الايمبراطور فردريق مشتغلا في دوله الوراثية بالحرب مع اخيه البيرت ومع اهل بج لكونهم خرجوا عن طاعته فلما حاصره هؤلاء الاعداء في تخت الايمبراطورية انقذه جرجي بودبراد وبعد ذلك بقليل خمدت نيران الفتن ببلاد الاستروسيا حين مات ألبيرت وانتهت المشاجرات والمجادلات في الايمبراطورية بعد عقد مشارطة فرنكفورت

وبعد ذلك بسنة اعني (سنة ١٤٦٤) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٦٩) من الهجرة مات منتخب سكس المسمى فردريق الطيب حليف الايمبراطور فردريق واعقب ولدين احدهما يسمى ارنيست والآخر يسمى البيرت فاما ارنيست فخلف اباه على اقليم طورنجه وانتخابية سكس وهو ابو العائلة الارنيسية التي مكثت في انتخابية سكس الى (سنة ١٥٤٨) ميلادية ونحو (سنة ٩٥٥) هجرية وعن هذه العائلة خرجت ذرية ويمار وغوطه وكوبورغ ومينونجان وهادبورغوزان واما اخوه آلبيرت فخصه من مخلفات ابيه اقليم مسنية وهو ابو العائلة الالبيرتية التي تقلدت انتخابية سكس (سنة ١٥٤٨) ومكثت حاكمة على مملكة له من (سنة ١٦٩٧) الى (سنة ١٧٦٣) ميلادية اي من نحو (سنة ١١٠٩) الى (سنة ١١٧٧) هجرية

وبعد أن انتهى الحرب الداخلي من المملكة تيسر للايمبراطور ان ينجز اغراضه في شأن الصلح العام فشرع في اجرآء ما دبره سلفه الايمبراطور ألبيرت الثاني من تقسيم الايمبراطورية الى اربع دوائر وانعقدت لذلك عدة مشاور لم تبت

فى هذا المعنى شيأ لنفورها من عدم اعتناء الطوائف بذلك او مما كان بينهم من البغضة والخصومة واضطربت آرآء تلك المشاور ايضا فى شأن اشهار الحرب مع الدولة العثمانية ولم يترتب على المد اولات ثمرة وذلك ان البابات منذ فتح العثمانية مدينة القسطنطينية كانوا يبذلون غاية جهدهم فى حث النصارى على قتال العثمانيين من غير طائل الا انه تجدد فى المشاور الجرمانية بعض حمية دينية سريعة الزوال نشأت عن وعظ كل من البابا نيقولاس الخامس والبابا قالسط الثالث والبابا پيس الثانى بل وعما ابداه هذا البابا الاخير حيث مات فى الحرب مع المسلمين حين توجه الى قتالهم بنفسه فى فرقة من الجنود ثم انه فى (سنة ١٤٦٧) من الميلاد الموافقة لنحو سنة (٨٧٢) من الهجرة عرض البابا بولص الثالث على الجمعية التى انعقدت بمدينة نورمبرغ ان مرامه التوجه لقتال الدولة العثمانية فاجابته لذلك لكنه عطل اجرآء هذا الامر بما حدث من الفتن والشقاق عن اساءته وقساوته فى مقاتلة الهوستيين وحكمه بالكفر على الامير جرجى پودبراد حيث اتهم بانه يساعد الهوستيين ويذب عنهم فلما توغل المسلمون فى بلاد الافرنج حتى وصلوا الى اقليمى خروات وكرنيوله وقع الرعب والفزع فى قلوب النصارى وانعقد لهذا الغرض مشورتان احداهما بمدينة راتسبونه والاخرى بمدينة اغسبورغ (سنة ١٤٧١) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٧٦) من الهجرة وانحط الرأى فيهما على ارسال عشرة آلاف مقاتل الى الاقاليم النمساوية لحفظها من اغارة المسلمين لكن لم يقع بينهم اتفاق على كيفية جمع هذا الجيش ولم تحصل ثمرة عن الاوامر التى صدرت فى هذا الشأن كما هو العادة

وفى اثناء ما كان الامبراطور فردريق الضعيف الشوكة عاجزا عن حفظ اقاليمه بنفسه او بجبر بلاد المانيا على حمل السلاح للذب عنها ظهر امير ذو شوكة طلب منه ان يلقبه بلقب ملك وذلك ان كرلوس لوتمرير (اى الجسور) حاكم اقاليم برغونيا والفرنشقونته واروآزه وفلندره وعدة اقاليم اخر كان يطمع فى لبس التاج الملوكى و يكون ملكا على هذه الاقاليم فتذاكر فى هذا الشان

مع الايمبراطور فردريق فلما كان هذا الايمبراطور يريد ان يزوج ولده مكسمليان بنت هذا الامير التى ترث بعده دوقية برغونيا جنح الى تلقيب كرلوس المذكور بلقب ملك وتنظم اقاليمه فى سلك الممالك ثم اجتمعا بمدينة تريوة واعد الدوق كرلوس جميع ما يلزم للبس التاج الملوكى من المواد والتجهيزات وبينما هو كذلك اذ عدل الايمبراطور عن نيته الاولى خوفا ان تضر به شوكة هذا الدوق فيكون كالباحث عن حتفه بظلفه وذلك لان كرلوس هذا كان يطمع فى ان يكون زيادة عن لقب الملك نائب الايمبراطورية فى الاقاليم المتعاهدة على شاطئ نهر الرين فكان الايمبراطور يخشى انه ربما حمله الطمع الذى كان يتجدد كل يوم على منازعته فى منصب الايمبراطورية فارتحل من مدينة تريوة فى الوقت المعين الذى يؤمل فيه كرلوس المنصب الملوكى وتركه بهذه المدينة كاسف البال سيء الحال وكان ذلك (سنة ١٤٧٣) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٧٨) من الهجرة فلما كان العام القابل انتهز كرلوس فرصة فى الانتقام منه وذلك ان اشراف كولونيا قاموا (سنة ١٤٧٤) ميلادية اعنى نحو (سنة ٨٧٩) هجرية على المنتخب روبيرت لانه قصد ان يضم الى التزامات المطرانية جميع الاملاك التى فرط فيها اسلافه فانعقدت لعزله جمعية من الكهنة واستقر الرأى فيها على خلعه واقامة هرمان لندغراو دهيس مقامه حيث جعلوه مدير الانتخابية فاستغاث روبيرت عند ذلك بدوق برغونيا وكان الايمبراطور والدولة يعينان هرمان الذى قلدوه المنصب فكان ذلك باعثا للدوق برغونيا على اعانة روبيرت لاسيما وكان يطمع فى بعض اقاليم جهة نهر الرين يوسع بها ارضه وبلاده فمكث محاصر المدينة نوس التى كان بها هرمان سنة كاملة فلما نفدت رجاله وخزائنه وهدده جيش من جيوش الايمبراطور وهجم عليه السويس حيث اغاروا على اقليم الفرنشقونتة ضاقت به السبل ولم يجد طريقا للنجاة لكنه بادر بالرشوة للايمبراطور فبذل اليه مائتى الف ريال ووعده ان يزوج بنته الاميرة مارية البرغونية لابنه الارشدوق مكسمليان فسمح الايمبراطور عند

ذلك بالصلح (سنة ١٤٧٥) ميلادية اى نحو (سنة ٨٨٠) هجرية
وكان الواسطة فى ذلك نائبا من طرف البابا سقسطس الرابع وفوض الامر
فى تلك القضية للبابا المذكور وهو الذى بت الحكم فيها
ومع ذلك فلم يزل دوق برغونيا يميل الى الانتقام من السويسيين فى نظير
جرأتهم وهجومهم عليه حتى افضى به ذلك الى محاربتهم فهزموه ثلاث مرات
ثم قتلوه تحت اسوار مدينة نسى (راجع حكم لويز الحادى عشر) وقصة
موته مخلدة الذكر شهيرة لاسيما ما ترتب عليها من الحوادث والوقائع العظيمة وذلك
ان بنته مارية التى ورثت اقاليمه المتسعة لم تقبل احدا من الامراء الذين خطبوها
الا الارشدوق مكسمليان ابن الامبراطور فردريق فآثرته عليهم جميعا فنشأ
عن هذا الزواج وقوع العداوة والبغضا بين عشيرة فرانسا الملوكية وعشيرة
النمسا الامبراطورية مدة طويلة فانه اعقب الزواج المذكور حرب بين الارشدوق
مكسمليان والملك لويز الحادى عشر الذى كان يطلب جزأ من مخلفات
دوق برغونيا ومكث الحرب بينهما اربعة اعوام ولم يشتهر من وقائعه
الا واقعة غنغانة وكانت (سنة ١٤٧٩) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة
٨٨٤) من الهجرة وكانت النصرة فيها بالمساوية على الفرنساوية وفى اثناء
ذلك اختطفت المنية الاميرة مارية فى عنفوان شبابها وبموتها صارت
حكومة الارشدوق على الرعايا لا ثبات لها لانهم كانوا يرونه اجنبيا منهم
فان طوائف اقليم فلندرة لما سئمت نفوسهم وادركهم التعب من هذا الحرب
الذى ليس لهم فيه مصلحة ولا كبير جدوى تشارطوا مع الملك لويز
الحادى عشر قهرا عن الارشدوق المذكور واستقر الرأى فى هذه المشارطة
التى انعقدت بين الفريقين (سنة ١٤٨٢) ميلادية اى نحو (سنة ٨٨٧)
هجرية على ان الامير كرلوس بن لويز الحادى عشر يتزوج بالاميرة
مرغريطة بنت مكسمليان وسلمها اهل الديوان لملك فرنسا ليقوم
بتربيتها فى ديوانه حتى تبلغ اشدها ثم يزوجها بابنه كرلوس كل ذلك ولم يمكن
الارشدوق مكسمليان أن يعاقب اهل الاقليم على ما صنعوه معه وينفذ امره

عليهم

عليهم لان اباه لم يكن فى وسعه ان يرسل له امدادا يعينه على ذلك لانه كان يومئذ مشغولا بالحرب مع متياس كروان ملك المجار وكان حربا مشؤما عليه وفى (سنة ١٤٨٦) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٨٩١) هجرية لقبت جمعية افرنكفورت مكسمليان بملك الرومانيين ومع ذلك فازالوا باقين على عصيانهم حتى انهم فى (سنة ١٤٨٨) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٩٤) من الهجرة تعللوا عليه بانه افتات على مزاياهم وخصايصهم وانه لازال يقدم النمساويين عليهم فى المراتب والمناصب ويفضلهم عليهم وقاموا عليه ونشروا اعلام الخروج والعصيان وقبضوا عليه وسجنوه بمدينة بروجه وضيقوا عليه فلبث فى السجن عدة اشهر ولم يخلصه منه الا جيش من النمساويين عينته الدولة لانقاذه وعقاب هؤلاء العصاة وكان قائده الايمبراطور والده بنفسه

وحين كان الارشدوق مكسمليان مجردا عن الشوكة والصولة باقليم افلندرة كان والده الايمبراطور فردريق ايضا مبتذلا ببلاد المانيا وهجم عليه فى دوله التى ورثها عن ابائه امير من الامراء المجاورين له لا تنكر همته فى الحرب اخرجه من تخت الايمبراطورية فعند ذلك القى زمام السلطنة وصار زمامها عرضة لمن يقبض عليه

ولما كثر الظلم من عدة من الامرآء واخذوا فى التنغيص على الرعايا وتعكيرهم فى اثناء اختلال الحكومة تصدى امرآء اقاليم سوابة ان يتعاهدوا مع بعض ويتعصبوا لذلك فعقدوا مشارطة بمدينة ايسلنجان (سنة ١٤٨٨) ميلادية ودخل فى معاهدتهم مرغراودى براندبورغه (وهم من نسل انسباخ وباريث) وكذلك منتخب مينسة ودوقات باويرة (وهم من فرع مونيخ) ومازالت تلك المعاهدة مؤيدة منصورة الى سنة (١٥٣٣) من الميلاد ونحو (سنة ٩٤٠) من الهجرة

وفى (سنة ١٤٩٣) ميلادية اى نحو (سنة ٨٩٩) هجرية مات الايمبراطور فردريق الثالث بمدينة لنتز ومع انه كان مستضعفا سخيف العقل فقد فعل ما كان به فخر عشيرته وسوددها وهو ما عقده من المشارطات

وتزويج ولده بمارية البرغونية وان كان حين فعله لذلك لم يخطر بباله ما ترتب عليه من النتائج والثمرات وخلفه على سرير الايمبراطورية ابنه مكسمليان الاول وقد مكث مكسمليان هذا اعزب بعد وفاة زوجته مارية البرغونية وكان متغلبا على ارثها فكان حينئذ يضم اليه دوقية ابرطانيا وذلك ان اميرة هذا الاقليم العظيم التى كانت شابة كانت قد اوشكت ان تسمح له بنفسها ودواها لولا حانة دى فرنسا فانها سعت فى منع ذلك بحزمها وسياستها وابطلته وذلك انها زوجت تلك الاميرة لابنها كرلوس الثامن وحرمت منها مكسمليان وصارت بهذا الزواج ملكة فرنسا وبعد ذلك فعل كرلوس المذكور مع الايمبراطور ما سلاه على غمه الذى نشأ له من خيبة آماله وعدم بلوغ مرامه حيث تخلى له فى المشارطة التى انعقدت بمدينة سنليس عن اقليمى ارتوازة والفرنشقونتة اللذين تغلب عليهما ابوه لويز الحادى عشر قبله وفى العام القابل وهو (سنة ١٤٩٤) من الميلاد المقابلة (لسنة ٩٠٠) من الهجرة تقريبا تزوج الايمبراطور مكسمليان بنت اخى لودويق المفرس دوق ميلان ويقال لها بلانشة مارية فتعجب الناس من ايقاع تلك الرابطة بين وارث الايمبراطرة اعنى مكسمليان وعائلة ليست عريقة فى الحسب والنسب وانما ساعدها الدهر فظهرت وصارت فى حيز الاعتبار وكان مؤسسها من الابطال وكانت له الرياسة على جماعة من المخاطرين الباحثين عن الاخطار فى جميع الاقطار لنيل الاوطار الا ان هذا الايمبراطور اكتسب فى ذلك الزواج مهرا جسيما وبواسطته سهل عليه ان يجعل لنفسه مدخلا فى مصالح بلاد ايطاليا فظهرت المصلحة والسياسة على الحسب والنسب حيث راعى الايمبراطور مصلحته فى هذا الشان ولم يلتفت الى عراقة الاصل وسيأتى ما يفيد ان مكسمليان جعل لنفسه مدخلا فى الحوادث العظيمة التى حصلت ببلاد ايطاليا مدة ولايته على الايمبراطورية (راجع تاريخ كرلوس الثامن ولويز الثانى عشر والملك فرنسيس الاول) ولانذكر هنا الا الحوادث المهمة التى وقعت فى المدة السابقة بداخل الايمبراطورية فنقول

لما انضم الايمبراطور مكسمليان (سنة ١٤٩٥) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٩٠١) من الهجرة الى العصبة التي تحزبت على كرلوس الثامن لاجل اخراجه من بلاد ايطاليا طلب امدادا من جمعية ورمس فامتنعت الدواوين عن أن تشتغل بمصالح الاجانب قبل أن يحصل الهدء والامن العام في الايمبراطورية وقبل أن ترتب محكمة عليا تعاقب من يسعى في التعكير واثارة الفتنة وتدارك ذلك فترتب لهذا الغرض قانون مشهور صار معدودا ببلاد المانيا زمنا طويلا من جملة قوانينها الاصلية وكان يمنع الحروب الداخلية والخارجية ويعاقب من ارتكب ذلك من الامرآء بدفع مغرم قدره ٢٠٠٠ مرك من الذهب (المرك رطل صغير) ونفيه من الايمبراطورية

ثم اشتغلت تلك الجمعية بترتيب محكمة ثابتة على الدوام لاجل فصل الخصومات والغرض من ترتيبها التحقق من اجرآء القانون المتقدم وكانت هذه المحكمة تسمى بالديوان الايمبراطوري وكان اعضاؤها في مبدء الامر مؤلفين من قاض كبير منتخب من ارباب الدواوين ومن ستة عشر مشيرا اومساعد القاضي منهم ثمانية من طائفة الشوالرية وهم الامرآء والثمانية الاخر من علماء الاحكام او المرخصين فيها وجعل حق انتخابهم للايمبراطور يختارهم ممن تعرضهم عليه الدواوين من هؤلاء العلماء واستقر الرأى على انهم لا يعزلون ابدا وجعل محل هذا الديوان بمدينة افرنكفورت ثم نقل بالتوالى الى مدينة ورمس ثم الى مدينة نوزانبرغ والى مدينة اغسبورغ وراتسبونة وايسلنجان ومدينة اسبيره (سنة ١٥٢٧) ميلادية ونحو (سنة ٩٣٤) هجرية ثم نقل الى وتزلار (سنة ١٦٩٨) من الميلاد الموافقة (سنة ١١١٠) من الهجرة وقد وقع في اربابه التغيير والتبديل كما وقع في محله

وفي (سنة ١٩٠٠) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩٠٦) من الهجرة جددت جمعية اغسبورغ جميع القوانين التي صدر عليها القرار في جمعية ورمس واستصوبت ايضا ما عزم عليه قبل ذلك عدة من الايمبراطرة ولم يقدروا على تنجيزه من تقسيم الايمبراطورية الالمانية الى دوائر او عمالات وان يوضع

فى كل دائرة منها جماعة منوطون بايقاع الهدء والامن بين الرعية فلم يكن فى القسمة العامة التى حصلت وقتئذ الاستدوائر وهى باويرة وفرنقونيا وسكس والرين وسوابة ووستفالية لان اقليمى استروسيا وبرغونيا لم يكن لهما دخل فيها عند ذلك وكذلك بلاد المنتخبين حيث امتنع منتخبوها من ادخالها فى تلك القسمة

وقد اضطربت افكار جمعية ورمس فى شأن تجديد مشورة نيابة تقوم بتدبير الدولة مدة انعقاد الجمعيات وغيبة ملك الرومانيين فناقض فى ذلك الايمبراطور مكسمليان حتى ابطله لما داخله منه من الشك والوسوسة لكنه لما فتحت المذاكرة فى شأنه ثانيا فى جمعية اغسبورغ وحصلت المناقضة فيه مع الشدة والحماسة جبر الايمبراطور على اقراره والتسليم فيه لارباب الجمعية فجعلوا لتلك المشورة الجديدة شوكة تضاهى شوكة جمعيات العموم وجعلت دار اقامتها بمدينة نورانبرغ ومع ذلك فقد حصل فى ترتيبها موانع شتى حتى انه لم تطل مدتها وانما تكلمنا عليها هنا ليفهم ما كانت تبذله الجمعيات من المجهودات فى منع جور الايمبراطرة النمساوية والتحفظ من شوكتهم واطماعهم الفاحشة

ومما يدل على ذلك ايضا ما حصل فى جمعية جلنهوزان (سنة ١٥٠٢) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٩٠٨) هجرية حيث تعاهد المنتخبون فيها مع بعضهم وسموها بالمعاهدة الانتخابية والتزم كل منهم باعانة صاحبه ودوام محبته وأن يمده بما يقدر عليه واتفقوا جميعا على تدبير المصالح العامة وان يكونوا على قلب رجل واحد وان يجتمعوا كل سنة بقصد اثبات مزاياهم وخصايصهم ومنع الايمبراطور عن الافتيات عليهم

وفى ذلك الوقت كانت عائلة النمسا ترتقى الى اوج العظم والفخار على وجه السرعة حتى ثبتت لها الولاية على الايمبراطورية فضمت البلاد الواطية الى التزاماتها الوراثية وبزواج مكسمليان بالاميرة حانة صارت تلك العائلة تؤمل أن تستولى على قسطيلة واراغونة وحظى مكسمليان (سنة ١٥٠٠)

من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩٠٦) من الهجرة بارث قونتات غوريتز واتسعت دائرة ملكه ايضا بموت جرجس لوريش اى الغنى (سنة ١٥٠٣) ميلادية اى نحو (سنة ٩٠٩) هجرية وهو آخر دوقات باويرة من عائلة لندسهوت وذلك ان جرجس المذكور لم يعقب ذكرا يرثه فاوصى بالوراثة الى روبيرت وهو قونتة من القونتات البلاتينية الحاكمين على الاقاليم الموضوعة على نهر الرين وكان متزوجا بايليزابيطة دى باويرة بنت روبيرت المتوفى ولم يكن له ذرية سواها ومع ذلك فان ارثه كله ماعدا اراضيه المعافاة من الخراج كان حقه ان يكون لعميه ألبيرت وولفقنغ اللذين هما من عائلة مونيخ فلذا حكم الايمبراطور لهما فى جمعية انعقدت بمدينة اغسبورغ فلم يقبل روبيرت هذا الحكم وعمد الى السلاح قاصدا الحرب فهزمه الايمبراطور ونفاه من المملكة وطرد والده ايضا وكان منتخبا بلاتينيا ومات روبيرت بعد أن هزمه الايمبراطور وكذلك زوجته ايليزابيطة واعقب ولدين فى المهد فصار احدهما ينازع فى شأن ارثهما مدة ولم ينجح ثم عاد الى طاعة الايمبراطور واستقر الرأى فى جمعية انعقدت بمدينة كولونيا (سنة ١٥٠٥) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩١١) من الهجرة على ان يعطى لولدى روبيرت البلاد التى بين نهرى طونة وناس ومدينة نوبورغ والاراضى المعافاة من الخراج والالتزام ومابقى من ارث روبيرت اعطى لعائلة مونيخ واخذ الايمبراطور عدة مدائن والتزامات جسيمة ليعوض بها ما خسره فى الحروب والمشاجرات التى وقعت بينه وبينهم (راجع الفصل السابق فى تاريخ الاستروسيا)

ثم ان الايمبراطور مكسمليان لما اقر ترتيب الديوان الايمبراطورى الذى رتبته جمعية وورمس المنعقدة (سنة ١٤٩٥) ميلادية اعنى نحو (سنة ٩٠١) هجرية واستصوبه شرط ان هذا الديوان لايزاحمه فى شوكته الخصوصية ولا حكومته الملوكية وصار من يومئذ يناقض هذا الديوان الجديد حيث جعل له عديلا يعارضه فى مشروعاته لايبلغ درجته فى الاستقلال وهذا هو اصل

احداث المشورة المسماة الاوليقية اوالعمومية (سنة ١٥٠١) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٩٠٧) من الهجرة وكان غرض الايمبراطور من ترتيبها أن تجرى الامور الايمبراطورية الخاصة به فى دولة الوراثية و بذلك اتسعت دآئرة شوكته واخذ يزيد فى قوة تلك المشورة التى احدثها حتى رخص لها أن تقضى كثيرا من الدعاوى التى حقها أن تقام امام ارباب الديوان الايمبراطورى الذى هو قبلها فى الترتيب وتاسى به فى ذلك خلفاؤه من الايمبراطرة وطالما ناقضتهم الدواوين مناقضة شديدة ولكن لم يجد ذلك نفعا لمزيد حرص الايمبراطرة وتشديدهم فبذلك اثبتت المشورة الاوليقية دعاويها بل زادت فيها حتى حازت كثيرا من المزايا والخصايص الجسيمة وصار لها حكم كان الديوان الايمبراطورى تارة يناقضها فيه واخرى لا يناقضها بل لا يكون له دخل فيه اصلا

و بالجملة فقد مكث هذا الديوان مدة طويلة وجوده كالعدم حيث كان لا يمكن لاربابه تحصيل المؤونة ولا تنفيذ احكامهم فلما انعقدت مشورة مدينة تريوة (سنة ١٥١٢) ميلادية اعنى نحو (سنة ٩١٨) هجرية اقرت بعض قوانين فى هذا المعنى وتممت ترتيب الدوآئر واضافت اربع دوآئر الى الستة التى ترتبت قبل ذلك (سنة ١٥٠٠) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩٠٦) من الهجرة احداها دآئرة الاستروسيا وكانت مركبة من الاقاليم الاوستروسية النمساوية والثانية دآئرة برغونيا وكانت مركبة من البلاد الواطية والفرنشقونتة الثالثة دآئرة الرين الاسفل وكانت مركبة من دول المنتخبين الثلاثة القسيسية والمنتخب البلاتينى وهو الذى تكون دوله على نهر الرين والرابعة دآئرة سكس العليا وكانت مركبة من انتخابيتى سكس وبراندبورغ واما مملكتا چه والبروسة فامتنعتا عن الدخول فى عداد الدوآئر

وقد حصل (سنة ١٥١٩) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٩٢٧) من الهجرة انه لما اصيب البابا يولس الثانى بداء عضال عزم الايمبراطور

مكسمليان الذى كان لا تفوته فرصة فى توسيع دائرة ملكه على ان يلبس تاج البابا و يجمع بين البابوية والايمبراطورية فارسل الى بلاد ايطاليا راهبا نمساويا ليستميل اليه الكردينالات ففى اثناء ذلك عوفى البابا المتقدم من مرضه على حين غفلة فخابت آمال مكسمليان وفسد عليه ما كان دبره فى ذلك لكن كان تدبيره فى شأن مملكتى چه والمجار اتم واعدل حيث مهد وراثتهما الغير المحققة لعائلته (سنة ١٥١٥) ميلادية اى نحو (سنة ٩٢١) هجرية بزواجين (راجع الفصل السابق) وعمادل على تبصره وحزمه ما حصل بعد ذلك من الحوادث ولولا دسائس كل من البابا وملك فرانسا لبلغ مرامه من انتخاب حفيده كرلوس النمساوى ملكا على الرومانيين والواقع ان كرلوس المذكور كان لابد أن يخلفه على سرير الايمبراطورية وقد حصل ذلك فانه خلفه بعد موته (سنة ١٥١٩) من الميلاد المقابلة لسنة ٩٢٥ او ٩٢٦ من الهجرة تقريبا ثم ان هذا الامير الذى اطرى فى مدحه المؤرخون الذين كانوا فى خدمته وذمه بعض المؤلفين من المتأخرين لم يكن اهلا لجميع ما قاله فيه المادحون ولا مستحقا لما ذمه به القادحون وانما لا ينكر انه لولا اشتغال فكرته دائما وحميته فى تنجيز ما يهجس بخاطره لما ورط نفسه فى كثير من المشروعات التى لم يكن فى وسعه القيام بها فان ايراداته كانت قليلة لا تفى بمآربه لاسيما وكان دأبه البذل والاسراف من غير تبصر ولا حسن تدبير حتى افضى به ذلك الى الفاقة والفقر حيث صار لا قدرة له على تحصيل مطلوبه لكن كانت له خصال حميدة ومكارم اخلاق فكان من طبعه كرم النفس وسخاء الكف وفعل عدة امور نافعة فمثل هذه الصفات تمنعنا من نظمه فى سلك الامراء المحتقرين وكانت فصاحته جبلية فلذا كان يتكلم مع السهولة باغلب اللغات الجارية فى بلاد الافرنج وكان يميل طبعا الى العلوم والآداب ويعين اهلها بحمايته لهم واشتغاله بها بنفسه وحسن ترتيب ادارة دولة الوراثية وابقى فيها الانتظام والعدل والهدء والامن وقد ظهرت شجاعته فى الملاعب التى كانوا يتسابقون فيها وفى الغزوات والحروب وتغيرت فى ايامه حالة الجنود

والعساكر ببلاد المانيا واخذت صورة جديدة وتم بهمته وجاق طوبجية المحاصرات وصناعة اسلحة النار وترقى حديد اسلحة المدافعة وهو اول من ابطل العساكر التى كانت تجمع من طرف الملتزمين حيث كانوا لا يعرفون ضبطا ولا ربطا ولا يمكثون فى العسكرية زمنا طويلا واقام بدلا عنهم فى الدول النمساوية وجاقا مستمرا من المشاة وجعل عليه قانونا على غاية من الدقة فى الضبط والربط وقلدهم بنوع جديد من طوال الرماح اخترعوه اذ ذاك فعما قليل صار هذا الوجاق يعادل عساكر السويسة المشاة فى الصيت والشهرة وسمى بالمزرابجية ثم احدث بعده وجاق من راقية الفرسان فصار هو ووجاق المشاة هما اللذان عليهما مدار قوة الايمبراطورية النمساوية ثم ان مشاور الايمبراطورية منذ جلس ألبيرت الثانى على كرسى الايمبراطورية الى أن مات مكسمليان الاول اشتغلت بالمفاوضة فى امرين احدهما ازالة خلل الحكومة من بلاد المانيا وثانيهما اعدام شوكة الايمبراطرة او ايقافها عند حد لا تتجاوزه وقد نجحت فى الامر الاول حيث رتبت قوانين عادلة واجرت الضبط والربط فى الدواير حتى صارت فى سكون واطمئنان وكذلك فى الامر الثانى فانها حصرت الشوكة الايمبراطورية زيادة على ما كانت عليه من قبل غير انه حصل اذ ذاك مساعدة مقتضيات احوال ازدادت بها التزامات عائلة النمسا الايمبراطورية وبذلك صار الايمبراطرة بالنظر لشوكتهم من حيث كونهم ايمبراطرة اعلى درجة من سائر اعضاء الجمعية الجرمانية ولم يعبأوا فى اغلب الاحوال بالقوانين التى وضعت لحصر شوكتهم وتقليل مزاياهم

(الفصل الثالث)

(فى الكلام على بلاد السويسة)

من (سنة ١٣٠٨) الى (سنة ١٥١٣) ميلادية اى من (سنة ٧٠٨) الى (سنة ٩١٩) هجرية تقريبا

كانت معاهدة السويسة القديمة منقسمة فى اوائل القرن الرابع عشر الى دول عديدة قسيسية وعامية وكان يحكم مدينة بالة اسقف من الاساقفة وكان يحكم

مدينة

مدينة سنت غالة رئيس من رؤساء الرهبان واما هبسبورغ وتوغنبورغ وسبوة وغيرها فكان يحكمها قونتات واما مدن زوريخ وسولورة وبرنة وعدة مدن اخرى فكانت من المدآئن الحرة الامبراطورية واما بلاد اورى وشويتز واوندرواالد التى كانت تابعة للامبراطورية بدون واسطة فكان يحكمها اولا تها الخصوصية وكانت تسمى اخطاطا ولما جلس رودولف دوهبسبورغ على سرير الامبراطورية ابقى مزايا السويسة على ماهى عليه لم ينقص منها شيأ بل زاد عليها اشياء كثيرة بخلاف الامبراطور ألبرت الاول فانه عزم على توسيع دائرة حكمه فى بلادهم فكان له بها املاك جسيمة لانه كان قونتة على اقاليم هبسبورغ وكيبورغة وبادة وكان له عمال ظلمة فى اخطاط أورى وشويتز واوندرواالد وكان الغرض من ظلمهم بتلك الاخطاط حمل اهلها على الاعتراف للامبراطور بالحكومة المطلقة فكان ذلك حاملا للسويسة على التعاهدوا لتحزب مع بعضهم وذلك ان ثلاثة من ابطالهم شرعوا فى انقاذ وطنهم من تلك الحكومة المطلقة احدهم ورنيراستوفاشير وكان من خط شويتز ومن يومئذ صار له صيت وشهرة عند الملة السويسية والثانى والتيرفورست وكان من خط اورى والثالث آرنولدو وملشتال وكان من خط اوندرواالد فاجتمعوا فى سهل فى ارض غورتلى وهو سهل منقطع فى اطراف خطى اورى واندرواالد وحضر مع كل واحد منهم عشرة من اصحابه واصدقائه واشهدوا الله تعالى وجميع الاحبار من النصارى انهم ليسوا متعدّين وانما قصدهم انقاذ وطنهم من ربقة الاسر والاستعباد وشرعوا فى اوائل شهر ينوية (سنة ١٣٠٨) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٧٠٨) من الهجرة فى تنجيز ما عزموا عليه فحاصروا عمال الامبراطور فى قلاعهم ثم نقلوهم الى خارج بلادهم بعد أن اقسموا انهم لايدخلونها ثانيا ولم يؤذوهم فى شئ ثم هدموا قلاع هؤلاء الظلمة ومبانيهم واسوارهم وبعد انتهاء هذه الفتنة التى لم تضر بالراحة وامن العباد عقد الابطال الثلاثة المذكورون مشارطة تعاهدوا فيها على أن يمكثوا على التحزب عشر سنوات بقصد اثبات حريتهم

ومزاياهم من غير أن يتعدوا فى ذلك على حقوق الايمبراطورية ولا ما يدعيه الملتزمون من القسوس او العوام وكان الغرض الاصلى من هذه المعاهدة التعصب على دولة الاستروسيا لكن لم يسع اربابها فى انقاذ بلاد السويسة من حكومة الدولة الايمبراطورية الجرمانية

ثم ان المتعاهدين انتصروا بمدينة مورغرتان (فى ١٥ نومبر سنة ١٣١٥) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٧١٥) هجرية نصرة عظيمة على عشرين الفا من النمساوية مع انهم كانوا لا يزيدون عن الف وثلثمائة فانتعشت بها قلوبهم وتقوت هممهم وجددوا المعاهدة بينهم بمدينة برونان (فى الثامن من شهر دغبر) وجعلوها مستمرة لا تنفسخ ابدا وكان تجديدها اصلا فى اتساع دائرة المعاهدة السويسية وعما قليل انتظم فى سلكها عدة من الاخطاط والمدائن فدخل فيها قسم لوسرنة سنة (١٣٣٢) ميلادية المقابلة لنحو سنة (٧٣٣) هجرية وقسم زوريخ (سنة ١٣٥١) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٧٥٢) هجرية وقسما غلارس وزوغ (سنة ١٣٥٢) من الميلاد المقابلة لنحو سنة (٧٥٣) من الهجرة وقسم برنة سنة (١٣٥٤) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٧٥٤) هجرية فبذلك صارت عدة الاخطاط ثمانية وهى الثمانية القديمة التى مكثت المعاهدة السويسية محصورة فيها مدة قرن وثمان وعشرين سنة

وكانت العداوة بين السويسية وعائلة الاستروسيا قديمة من حين نشأتهم وظهورهم ومكث القتال بينهم مدة ثمانين سنة وانما تخلل تلك المدة ايقاف الحرب مرارا عديدة بما وقع بينهم من المهادنات والمشارطات ثم انتهى الامر بين الفريقين بالحرب الذى اضطرمت ناره (سنة ١٣٨٦) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٧٨٨) هجرية وتأكد استقلال السويسة بالنصرة التى ظفروا بها على النمساوية فى وقعات سمباخ الشهيرة (وكانت فى ٩ يونية سنة ١٣٨٦) وفى وقعات نوفل التى حصلت (فى ٨ ابريل سنة ١٣٨٨) ميلادية اى نحو سنة (٧٩١) هجرية) ثم ان المصالحة

او الهدنة التي انعقدت بمدينة بج وهي ويانة في السنة المذكورة وكانت مدتها سبع سنوات ثم تجددت مرتين كان اجلها في المرة الاولى عشر سنين وفي الثانية خمسين سنة دلت على ان عائلة الاستروسيا قد أيست من التغلب عليهم وادخالهم تحت الطاعة والانقياد وفي اثناء القرن الخامس عشر وقع بين ارباب المعاهدة اختلاف يسير نشأ عن الحرب الداخلي الذي كان منشأه تطلب كل من خط زوريخ وشويتز لوراثة آخر قونتة من قونتات توغمبرغ (من سنة ١٤٣٦ الى سنة ١٤٤٦) ميلادية (اى من سنة ٨٤٠ الى سنة ٨٥٠ من الهجرة تقريبا) الا ان هذا الاختلاف لم تطل مدته بل تجددت المعاهدة بينهم بما حازوه من النصرات على كرلوس لوتمرير اى المجازف دوق برغونيا وذلك ان الارشدوق سيجسموند النمساوى لما باع لكرلوس المذكور (سنة ١٤٦٩) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٧٤) من الهجرة قونتية فيرية واقليم ألساس بشرط أن يستردهما منه ثانيا بالثمن متى قدر على ذلك جعل كرلوس بطرس دوهاجنباج نائبا عنه فيهما فأساء المعاملة مع اهالى النمسا وتعدى على ما جاوره من البلاد خصوصا دولة السويسة فتشكوا منه الى الدوق الذى ولاه فلم يأخذ بناصرهم فاتفقوا مع بعض دول من الايمبراطورية وتركوا في مدينة بالة المبلغ الذي انحط عليه الرأى لتخليص الالتزامات المرهونة واقاموا عليها سيجسموند بمحض القوة والقهر ثم اقاموا دعوى دوهاجنباج وحكموا عليه بالقتل وضربوا عنقه بمدينة بربزاخ (سنة ١٤٧٤) ميلادية اى (سنة ٨٧٩) هجرية تقريبا فعند ذلك هدد دوق برغونيا السويسة واوعدهم بالعذاب ثم سار لقتالهم في مائة الف مقاتل فهزموه والبسوه ثوب الخزى والمذلة ثم مات بعد ذلك ولم يأخذ بثاره (راجع تاريخ لويز الحادى عشر)

فحاز السويسة بهذه النصرة فخرا عظيما في بلاد الافرنج وصاروا اعظم الدول بحث عن معاهدتهم خصوصا مملكة فرانسا ففي (سنة ١٤٥٣) ميلادية المقابلة (لسنة ٨٥٧) هجرية عقد الملك كرلوس السابع مع الاخطاط

العثمانية مشارطة ودخل فى معاهدتهم ثم جددها لويز الحادى عشر (سنة ١٤٧٤) ميلادية وبمقتضاها جدد (سنة ١٤٨٠) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٨٨٥) من الهجرة جيشا منهم يبلغ ستة آلاف وكان هذا الجيش اول الجنود المنتظمة التى حدثت فى هذه الملة وخدمت الدولة الفرنساوية برضاء المعاهدة السويسية

ثم ان دول المعاهدة السويسية لما انضم اليها فى سنة (١٤٨١) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٨٨٦) هجرية مدينتا فريبورغ وسولوة ازدادت قوتها وصارت تستنكف ان تكون تابعة للايمبراطورية الجرمانية بوصف كونها عضوا من مملكة أرلس القديمة ولما رأت ان لها قدرة على انقاذ نفسها من حكمها لم تجب داعى الجمعيات التى انعقدت فى مدينة ورمس (سنة ١٤٩٥) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٩٠١) من الهجرة ولا داعى جمعية لنداو المنعقدة (سنة ١٤٩٦) ميلادية اى نحو (سنة ٩٠٢) هجرية فى شأن ما استقر رأيها عليه من امداد الايمبراطور واعانته على الفرنساوية والعثمانية وابت تلك المعاهدة أن تقوم بما يخصها من ذلك الامداد الذى امرت به الجمعيات المذكورة

ولما تحزب فى اثناء ذلك الغريزيون مع السويسة (سنة ١٤٩٨) ميلادية اعنى نحو (سنة ٩٠٤) هجرية ليكون ذلك حماية لهم من التيروليين انتهز الايمبراطور مكسمليان هذه الفرصة واغار على اخطاط المعاهدة (سنة ١٤٩٩) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩٠٥) هجرية وكان معه الامداد الذى امدته به عصبة سوابة فهزمه السويسة ولحقه منهم من المصائب والنكبات ما جبره على طلب الصلح فانعقدت المصالحة بينه وبينهم بمدينة باله ومع هذا النجاح كانوا يرغبون فى الصلح فلذا اقتصروا على نيل بعض مزايا ولم يتعرضوا فى المشارطة لذكر الاستقلال الذى كان حقه أن يكون ثمرة نصراتهم ولكنهم صاروا من يومئذ كأنه قد ثبت استبدادهم واستقلالهم ومكثوا امدة يطلبون من الايمبراطور أن يميزهم بمعافاتهم من الجرائم والمغارم

ثم

ثم ان مدينتي باله وشفوزه اللتين كانتا تابعتين للامبراطورية بدون واسطة انتهزا فرصة من هذه الحوادث وطلباس السويسة الدخول في معاهدتهم وكان دخولهما فيها (سنة ١٥٠١) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩٠٧) من الهجرة ثم دخلت بعدهما مدينة ابانزيله (سنة ١٥١٣) ميلادية اى نحو (سنة ٩١٩) هجرية وكانت آخر خط من اخطاط المعاهدة وبها تمت عدة الاخطاط ثلاثة عشر

ولما صارت المعاهدة السويسية ذات قوة وشوكة تخشى بأسها الدول كان يمكنها وقتئذ أن تتمتع بالامن والراحة الاان شدة الطمع حملت السويسة على الخروج من اوطانهم والتشبث بالحروب التى حصلت خلف جبال ألبه فتدنست فضائلهم وزال فخارهم بعد أن كانوا الى ذالك الوقت على غاية من الاستقامة والخصال الحميدة (وان اردت الاطلاع على دخول السويسة في حروب ايطاليا فراجع حكم كرلوس الثامن ولويز الثانى عشر وفرنسيس الاول)

الباب الثالث

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الاول

في الكلام على مملكتى البروسة وله (من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٥٢٣ ميلادية اى من سنة ٧٨٤ الى سنة ٩٣٠ هجرية تقريبا)

لما مات لويز الاكبر ملك مملكتى البروسة وله (سنة ١٣٨٢) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٧٨٤) من الهجرة قلد اللاهيون ابنته المسماة هدويجة منصب الملوكية عليهم وتزوجها دوق بلاد ليثونيا الاكبر المسمى ياجلون وكان قصده بزواجها أن يضم بلاده الى مملكة له ويرفض عبادة الاوثان والاصنام ويتمسك بدين النصرانية الذى كان عليه كافة رعيته فلما تنصر هذا الدوق سمى عند التعميد اولاديسلاس ولبس تاج مملكة له في مدينة قراقو (سنة ١٣٨٦) ميلادية اى (سنة ٧٧٠) هجرية

تقريبا فبذلك اجتمعت مملكتا له وليثونيا وصارتا تحت حكومة ملك واحد بعد أن كانتا متعاديتين منذ مدة طويلة ومع ذلك فلم تزل مملكة ليثونيا محكومة بدوقاتها الخصوصية واستمروا على ما كانوا عليه نحو قرنين وان كانوا منقادين لدولة له وممتثلين لاوامرها وتابعين لها

ولما مات ياجلون المذكور (سنة ١٤٣٤) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٣٨) من الهجرة خلفه ولده اولادسلاس السادس ثم قتل (سنة ١٤٤٤) ميلادية اى نحو (سنة ٨٤٨) هجرية فى واقعة الورن خلفه اخوه كازمير الرابع

وفى ايام كازمير المذكور تحزبت طائفة الاشراف ومدن البروسيا وبوميزانيا على حكومة الطائفة الشوالرية التوتونية لما كان فيها من العسف والجور وطلبوا حماية مملكة له فاجيبوا الى ذلك بعد مبايعة كازمير وكان ذلك (سنة ١٤٥٤) من الميلاد اعنى (سنة ٨٥٩) من الهجرة تقريبا فترتب على ذلك حرب عظيم طالت مدته وسفكت فيه دماء كثيرة وانتهى بصلح تورنا الذى انعقد (سنة ١٤٦٦) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٨٧١) هجرية بين الملك كازمير الرابع ولويز ايرلش هوزين امير تلك الطائفة وكانت النصرة لمملكة له واستولت بهذا الصلح على عدة مدن واراض وهى كولم وماريتبورغ وايلبانجين وتورنا ودنتزيغ وميخالووة وبوميرليا وجميع الاقاليم التى هى الآن فى حكم بروسيا الملوكية وماعدا ذلك من مملكة البروسيا بقى لتلك الطائفة لكن على وجه انه من التزامات مملكة له وصار تخت الطائفة المذكورة مدينة كونسبرغ ومازالت كذلك حتى ظهرت عائلة برندبورغ وجردت هذه الطائفة عن جميع ماتملكه فى البروسيا

وفى السنة التى بعدها اى (سنة ١٤٦٧) من الميلاد المقابلة (لسنة ٨٧٢) من الهجرة اراد كازمير ان يضرب على عموم الاهالى مغرما على وجه لا يخل بالعدالة والانتظام لاقتضاء مصلحة الدولة ذلك فجمع لهذا الغرض مشورة

وكلا

وكلاء الاهالى من جميع اقاليم مملكته وكان ذلك اول جمعية انعقدت بهذه المثابة في تلك المملكة وكانت هذه الكيفية التى يعرف بها آراء الاهالى بالوقوف على آراء وكلائهم الذين هم لسان حالهم مجهولة للامم السالفة ثم انتشرت في ظرف القرنين السابقين باغلب ممالك اوروبا فدخلت في مملكة قسطيلة ببلاد اسبانيا (سنة ١١٨٨) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٥٨٤) من الهجرة وفي مملكة الانكليز (سنة ١٢٦٥) ميلادية اعنى نحو (سنة ٦٦٤) هجرية وفي بلاد النمسا (سنة ١٢٩٢) ميلادية الموافقة لسنة ٦٩٢) هجرية تقريبا وفي فرانسا (سنة ١٣٠٣) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٤٢٥) من الهجرة وفي ايقوسيا (سنة ١٣٠٦) ميلادية اى نحو (سنة ٤٢٨) هجرية وفي مملكة له (سنة ١٤٦٧) من الميلاد كما ذكر الان اللاهيين لما ادخلوا هذه الكيفية عندهم لم يسلكوا فيها على سنن غيرهم من الملل وذلك من وجهين احدهما انهم لم يتركوا فيها ما كان عندهم من الحقوق الثابتة والعوايد الجارية وهو مدخلية طائفة الاشراف في تلك الجمعية * ثانيهما ان الاهالى لما كانوا لم يزالوا باقين على الاستعباد والرق ولم يعثروا على الحرية والاعتاق لم يكن لهم رأى في تلك المشورة ولا وكلاء ومن وقت انعقاد الجمعية الاولى بمملكة له تكاثرت المصالح وتتابعت في جميع الاوقات فادى ذلك الى تجديد المغارم وترتب عليه أن صارت هذه المشورة تنعقد كل سنة في اوقات معلومة وعما قليل صار وكلاء العامة المرخصون ايضا من طرف الاشراف لهم الحق في النيابة عنهم في جميع ما يظهر عن الشوكة التشريعية من الاحكام والقوانين واما اتفاق كلمة العموم الذى يجب أن يعتبر قانونا اصليا للدولة وأن يكون عليه مدارها فقد صار لا يلتفت اليه حق الالتفات ولا ينظر اليه الا بعين الاحتقار حيث صار كل واحد من هؤلاء الوكلاء (وكانت عدتهم اربعمائة) يدعى لنفسه الحق في الحكومة ويتصدى لمنع ما يتجدد من الاحكام والقوانين كما فعل محامو الامة الرومانية الذين قلدتهم الحكومة لمنع الظلم عنها وكانت عدتهم قليلة

ثم ان كازمير الرابع انتهت مدة ولايته الطويلة (سنة ١٤٩٢) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٩٨) من الهجرة وكانت ايامه فاخرة ممدوحة فكان ولده البكري المسمى اولادسلاس قد تولى بالتعاقب على مملكتي چه والمجار (راجع الفصل الاول من الباب الثاني) وتولى اخوه حنا ألبرطة على مملكة له مكان ابيه وبايع اهل ليثونيا اسكندر وهو الاخ الثالث وملكوه عليهم

ثم مات حنا ألبرطة المذكور بعد أن حارب مع ويوود الافلاق اى امير تلك البلاد حروبا سفك فيها دماء كثيرة وحارب العثمانية الذين هم حامون لهذا الامير وكان موته (سنة ١٥٠١) ميلادية اعني (سنة ٩٠٧) هجرية تقريبا وكان اذ ذاك آخذا في التأهب لقتال طائفة الشوالرية التوتونية التي رفضت مبايعته وكان مرام اعيان المملكة وقتئذ ضم ليثونيا الى مملكة له واتفقت كلمة الجمهور على ذلك رعاية للدوق الاكبر وهو اسكندر ورضي هو بتلك الجمعية واقترحها وانحط الرأي على ان اهل ليثونيا يحافظون في محاكمهم على الطريقة المعتادة في الاقضية والاحكام ويكونون كاللاهيين في الحقوق والمزايا

وكان اسكندر يحب العلماء وارباب الفنون ويغمرهم باحسانه ويجزل لهم العطاء فسعى الخشنيون من اللاهيين في منع هذه الانعامات لكونهم رأوها من باب التبذير والاسراف فوضعوا قانونا سموه قانون اسكندر يتضمن منع الملوك عن التصرف في ايرادات المملكة بدون رضاء ارباب المشورة

ولما قصد التتار مملكة له ذهب اسكندر بنفسه الى معسكر جيشه مع انه كان مصابا بداء الفالج وكان قد ولى قيادة العساكر جلنسكي حاكم ليثونيا وشاهد نصرة اللاهيين ثم قضى نحبه بعد ذلك بيسير وهو يحمد الله تعالى ويشكره وكان موته (سنة ١٥٠٦) من الميلاد الموافقة (لسنة ٩١٢) من الهجرة تقريبا

واستقر بعد موته رأى اللاهيين على انتخاب اخيه سجسموند الاول ملكا على له وليثونيا فوجد المملكة يانعة مزهرة وذلك ان معظم غابات سرمانيا

كان قد تنظف وصار يصلح للزراعة في عهد سلفيه وكانت مملكة له تنقل حبوبها ومحصولاتها الى البلاد الاجنبية فعاد ذلك عليها بالغنى والثروة غيران استعباد الفلاحين كان مانعا من تقدم الحرف والصنائع وذلك ان المواد الاولية التي لاغنى للنوع البشرى عنها كانت تنقل الى البلاد الاجنبية عوضا عن استعمالها في المملكة وكانت التجارة مقصورة على اليهود فكان اهل المملكة يشترون من الاجانب مايحتاجونه من امور الزينة والرفاهية فلما تولى سيجسموند اخذ يتفكر ويبحث عما به اصلاح مملكته وتقويم اودها لكن لسوء حظه طرأ له حرب منعه من ذلك

وذلك ان جلنسكى داخله الغرور والكبر لنصرته على التتار فاراد أن يستقل بحكومة ليثونيا وفوض امر هذه القضية لمشورة السنت ثم قتل خصمه وهو سيجسموند والتجأ عند الروس وحرضهم على محاربة وطنه فتغلب القيصر بازيل بخيانة جلنسكى من بلاد اللاهية على مدينتي سمولنسكو وبايسكوف غيرانه هزم في واقعة عظيمة (سنة ١٥١٤) ميلادية الموافقة (لسنة ٩٢٠) هجرية تقريبا على شواطى اورشا ومكث هذا الحرب تسع سنوات ولما كان لهذا القيصر النصرة في اغلب الغزوات عقد مع اللاهيين هدنة (سنة ١٥٢٣) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩٣٠) من الهجرة (ومابقى بعد ذلك من مدة حكم سيجسموند فهو منشأ الحوادث اللوثريانية فليراجع ذلك في الدور الآتي)

الفصل الثاني

في الكلام على مملكة الروسيا من (سنة ١٤٦٢ الى سنة ١٥٣٤) ميلادية اى من (سنة ٨٦٧ الى سنة ٩٤١) هجرية تقريبا

كانت مملكة الروسيا منقادة للتتار مستعبدة لهم مدة طويلة ثم تغير حالها بالكلية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر باستيلائها على عدة حكومات وجمهوريات وذلك ان خانة هوردة الكبرى (محلها الآن بلاد الروسيا) لحقها الاضمحلال والضعف بما وقع فيها من الشقاق والتنافر والحروب الداخلية التي

ترتبت على ذلك فعظم شان كبار دوقات الروسيا الذين كانوا يدفعون الخراج لتلك الحكومة وقويت شوكتهم حيث انضم اليهم عدة امارات خصوصية كانت تحت حكومة الروسيا الشمالية منذ مدة مستطيلة

ثم ان ايوان الثالث واسيل ويتش وهو ابن بازيل الثالث وولى عهده اخذ بزمام الدوقية الكبرى (سنة ١٤٦٢) من الميلاد وله من العمر ثلاث وعشرون سنة فاقبل عليه الدهر وسالمته الايام فانتهز الفرصة من ذلك وسعى فيما به تمكين حكومته وثباتها فى داخل المملكة واحترامها وخشية بأسها فى الخارج وذلك انه بعد عدة غزوات تغلب على نوغرودة الكبرى وكانت جمهورية قوية الشوكة لها معاهدة قديمة مع المدن الانسياتيقية (التجارية) وكانت تظهر الاستقلال اظهارا كليا حتى انها لافراطها فى التعاظم ومبالغتها فى التفاخر اقترحت عبارة تنوه بميلها الى الظهور والتعالى وصارت متداولة عندها كالمثل وهى من ذا الذى يتجاسر على معارضة الله ونوغرودة الكبرى وقد ادخلها ايوان المذكور تحت الطاعة (سنة ١٤٧١) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٨٣) من الهجرة تقريبا ثم خرجت عن طاعته (سنة ١٤٧٨) ميلادية اى نحو (سنة ٨٨٣) هجرية فلحق حكومتها حينئذ من الظلم والعسف مالا مزيد عليه حيث فقدت قضاءها ومزاياها واراضيها فعند ذلك اخذ اهلها وثروتها فى النقصان تدريجا حتى انه فى اقل من قرن اضمحلت بالكلية وصارت لا تعد من المدائن العظيمة

وكانت جمهورية پسكوف التجارية تضاهى الجمهورية السابقة وربما قيل لها نوغرودة الصغرى وقد أمنت ما لحق عديلتها من سوء الحظ والنكبة بمبادرتها الى الانقياد والطاعة ومكثت فيها صورة الحكومة الاهلية مدة من الزمن

ثم ان ايوان الثالث المذكور هو اول من ابطل من حكام الروسيا ما كان جاريا عندهم من القانون الموجب للمذلة حيث كان يوجب على الدوقات الكبار أن يذهبوا الى مقابلة سفراء خان هوردة التى كانت تلقب هوردة الذهب (هوردة الكبرى) مشاة على اقدامهم وابطل ايضا ما كان معتادا فى الديوان

لاقامة هؤلاء التتار بل ورفض حكومتهم بالكلية حيث امتنع من دفع الجزية التى كان يدفعها اسلافه من الدوقات الى خانات التتار منذ عدة قرون وذلك انه فى (سنة ١٤٨٠) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٨٥) من الهجرة بعث اليه احمدخان وكلاء من طرفه ومعهم كتاب مختوم بالختام الملوكى يطلب منه الجزية فوطئ الكتاب باقدامه وقتل جميع السفراء الا واحدا رده الى سيده فكبر ذلك على الخان واشتد غيظه وعزم على الانتقام من ايوان فى نظير هذه الاساءة المورثة للمعرة والفضيحة فشن الغارة على الروسيا ومازال يفتح تلك البلاد حتى وصل الى شواطئ اوغرا فقبض عليه الروس فيها ثم هرب من غير أن يحاربهم ثانيا فلحقه التتار الشيبانية والنوغية فى المحل الذى التجأ اليه وقتله اميرهم وبموته طفئت بهجة هورده الكبرى ولم يبق من سلطنة قبجاق ذات الشوكة الا بعض قبائل وهى قازان وازدراهان وسبير والقرم وصار لايوان الثالث مهابة عظيمة عند هؤلاء التتار لاسيما تتار قازان فانه فى (سنة ١٤٧٨) ميلادية اى نحو (سنة ٨٨٣) هجرية دخل مملكة قازان وفعل مع خانها ما الجأه الى طلب الصلح ثم هزمه (سنة ١٤٨٢) من الميلاد اعنى (سنة ٨٨٧) من الهجرة تقريبا ولم يرجع عنه حتى الزمه بدفع الخراج وفى (سنة ١٤٨٦) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٩١ اوسنة ٨٩٢) من الهجرة دخل مملكة قازان جيش من الجيوش الروسية قاصدا تختها فخرج منه الخان وقاتلهم على شواطئ سوياغا فكانت الهزيمة عليه وقبض عليه العدو واستولى على تخت المملكة ومن يومئذ صارت قازان تابعة للروسيا وصار الدوق الاعظم يولى عليها حكاما من طرفه

وفى (سنة ١٤٨٥) من الميلاد المقابلة (لسنة ٨٩٠) من الهجرة تقريبا انضم الى دوقية الموسقو الكبرى اقطاعات توير وويريا وروستوف وياروسلاف ودخل تحت طاعتها (سنة ١٤٨٩) ميلادية اعنى نحو (سنة ٨٩٥) هجرية جمهورية وياتكه وبلدة ارسيك واتقادالى

حكومتها ايضا بلدة نوغريس (سنة ١٤٩٩) من الميلاد اى نحو (سنة ٩٠٥) من الهجرة فتمت بذلك وحدة الحكومة الروسية فى عهد ايوان الثالث بمعنى انه صار يحكمها امير واحد

ثم مات هذا الامير (سنة ١٥٠٥) ميلادية الموافقة لنحو (سنة ٩١١) هجرية بعد أن مهد فى الروسيا ما اسس به لركان عظمها وفخارها وقد اكتسب شهرة عظيمة بما بذله من المجهودات فى جلب التمدن الى بلاده وبحزمه فى السياسة داخل المملكة وخارجها وبما صدر عنه من الفتوحات * وبقدر ما كان عليه من الخوف من دولة خانة هوردة الكبرى وقعت الالفة والمحبة بينه وبين تتار القرم وفى (سنة ١٤٩٦) ميلادية اى نحو (سنة ٩٠٢) هجرية قبل أن يحارب الاسوج عقد المعاهدة مع الدانيمارقة وكذلك قبل ان يظهر على ممالكتى ليونيا وليثونيا دبر امر المعاهدة مع مكسمليان ومثياس قوروين فجدد مع الثانى علائق المخالطة والاتحاد لانه كان قائما بحماية العلوم والمعارف فى ممالكه فبعث اليه (سنة ١٤٨٢) من الميلاد المقابلة (لسنة ٨٨٧) من الهجرة تقريبا رسالة يطلب منه جماعة من صناع المدافع والطوبجية والمهندسين والبنائين والصاغة والالغمجية وجلب ايضا الى البلاد الموسقوبية ارباب حرف وصنائع من الاروام والطليانيين وانشأ فى دار ملكه مبانى وعمارات لطيفة منها الكنيسة المسماة كنيسة اسومبيسيون وحصن كريملين الذى هو قصر عظيم واحدث فى سائر مواضع ادارته نظاما جديدا وجعل عساكره على حالة منتظمة مستحسنة وهو اول من جعل الالتزامات لاولاد البونيارد (وهم ذرية قدماء الفاتحين) من الموسقو وشرط عليهم أن يأتى كل منهم زمن الحرب بطائفة من العساكر على حسب جسامة الالتزام وعدمها وزاد فى ايراد المملكة بغنائمه فى الفتوحات وبما جدده من الطرق فى ضرب المغارم وباستخراج معادن بكورة وتوسيع دائرة التجارة ورتب فى مدائنه الضبط والربط والتربية السياسية ووضع فى الطرق البوسطة والبريد فكان يرى بها ارباب السياحة خيولا بعلوفاتها وكانوا لا يدفعون لها

اجرة

اجرة اذا كانت اوراق الطريق التى معهم متضمنة لذلك وقد اطلع على الترتيبات القديمة المتعلقة بالقضية ببلاد الروسيا واحكامها وجمعها كلها فى قانون نامة امر بنشره (سنة ١٤٩٧) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩٠٣) من الهجرة وقصارى امره انه انشأ حصن ايوان غرود (سنة ١٤٩٢) ميلادية اى نحو (سنة ٨٩٨) هجرية فى المحال التى بنيت فيها مدينة بترسبورغ وبذلك تمت المشابهة بينه وبين بطرس الاول

وتولى على المملكة بعده ابنه بازيل الرابع

وقد سبق ان الامير جلنسكى لما اراد الاستقلال بالحكومة واقيمت دعواه فى مشورة السنت بمملكة له التجأ الى الروسيا (سنة ١٥٠٨) من الميلاد الموافقة (لسنة ٩١٤) من الهجرة تقريبا وحرض بازيل الرابع على محاربة له (راجع الفصل الثانى من هذا الباب) وقد انتهى هذا الحرب الذى كانت النصرة فيه للروس فى اغلب المواطن (سنة ١٥٢٣) ميلادية اى نحو (سنة ٩٣٠) هجرية وبعد ذلك بمدة أدخل بازيل المذكور تحت طاعته تتار قازان وكانوا قد تحزبوا على مملكة الروسيا ثم اخترمته المنية (سنة ١٥٣٤) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩٤١) من الهجرة وفى ايامه اتسعت مملكة الروسيا حيث انضمت امارة ريزان الى الاقاليم الموسقوبية (سنة ١٥١٧) ميلادية اى نحو (سنة ٩٢٣) هجرية

الفصل الثالث

فى الكلام على دانيمارقة وأسوج ونرويج من (سنة ١٣٨٩ الى سنة ١٥١٣) من الميلاد اى (من سنة ٧٩٢ الى سنة ٩١٩) من الهجرة تقريبا

كانت مملكة أسوج بتمامها (سنة ١٣٨٩) من الميلاد تحت حكم مرغريطة الشهيرة باسم سيميراميس بلاد الشمال تشبيها لها بملكة الشهيرة بين الشهيرة وكانت ملكة على دانيمرقة ونرويج فلما ارادت ان تجمع

الممالك الثلاث ويجعلها حكومة واحدة عقدت لذلك (سنة ١٣٩٧) ميلادية اي نحو (سنة ٨٠٠) هجرية مشورة وكلاء اقاليم هذه الممالك بمدينة كلمار وعينت فيها ابن ابن اختها المسمى اريق بن ورانسلاس دوق پوميرانيا للخلافة عنها وعقدت له البيعة والبسته التاج الملوكي ووضع ارباب هذا المجلس القرار على الحجة التي تتضمن الامر بجمع الممالك المذكورة على الدوام من غير نقض ولا فسخ وأن يتولى عليها ملك واحد ينتخب بمقتضى آراء ارباب مشورة السنت ومشورة وكلاء اهالي تلك الممالك وان لا يقع الانتخاب من غير ذرية هذا الملك ما دامت باقية لم تنقرض وانه يلزم مع ذلك ان كل مملكة منها تحافظ على قوانينها ومشورتها وتشريعها الخاص بها

ثم ان اجتماع هذه الممالك وان كان ببادئ الرأي يتراآى انه منشأ للقوة والتمكن الا انه في الواقع ونفس الامر بخلاف ذلك فان مثل هذا الاتحاد لا يمكن أن يكون مجلبة للقوة والعظم لان تلك الممالك الثلاثة متباينة المصالح والاغراض تباينا كليا لما كان بينها من الغيرة والحسد لبعضها واختلاف قوانينها وشرائعها وعوايدها من قديم الزمان

ثم خلع اريق البوميراني عن الملك (سنة ١٤٣٩) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٤٣) من الهجرة وكانت ايامه مشحونة بالفتن والتقلبات وتولى بعده على الممالك الثلاث بالتعاقب كرستف الباوروي وهو ابن اخت كاترينة وحنا دوق باويرة ثم مات ولم يعقب ذرية (سنة ١٤٤٨) ميلادية اي نحو (سنة ٨٥٢) هجرية وبموته انقرضت ذرية ولدمار الثالث ابي الملكة مرغريطة وانحلت عرى الاجتماع وذلك ان الاسوج ولوا على مملكتهم كرلوس كانتسونبوند وكان مارشال المملكة وسمي من يومئذ كرلوس الثامن وانتخب اعيان الدانيمرقة كرستيان الاول ابن تيرى قونتة اولدنبورغه ولم يعبأوا بامتناع ادولف دوق سلويسويق هولستين وشرطوا ان مملكة دانيمرقة تكون من الآن فصاعدا انتخابية وحرة وان الملك لا يسوغ له أن يتصدى لحرب او يقدم على مشروع مهم او يضرب مغرما ونحو ذلك الا برضاء

ارباب

ارباب مشورة السنت واستحسانها وبعد ذلك بمدة يسيرة بايع اهل نرويج الملك كرستيان المذكور وكان اجتماع المملكتين اعني دانيرقة ونرويج باقتضاء رأى مشورة السنت بكلتاها تين المملكتين
واما انتخاب الاسوج لكرلوس كانتسونبد فكان على خلاف مرام الاساقفة الذين كانوا يميلون الى حزب الدانيرقة وينقادون اليه فلم يفعل معهم كرلوس ماتكون به استمالتهم اليه ونفعهم له بل ظن ان له من الشوكة مايكفي في قمعهم فشرع فيما يكون به اذلالهم وخفض مقامهم حيث امر باتفاقه مع مشورة السنت ان يبحث عن جميع مزايا التاج وحقوقه والاراضي الملوكية التي اختلسها الاساقفة وافتاتوا عليها وأن لايعطى لهم شئ من الان فصاعدا ولا يراعى جانبهم فحنق هؤلاء الاحبار من ذلك حنقا شديدا وبعثوا سرا الى كرستيان الاول يحرضونه على الحضور بمملكة اسوج ليعيد الممالك الثلاثة الى الاجتماع كما حصل قبل ذلك بمدينة كلمار فلما علم مطران مدينة أوبسالة أن جيش الدانيرقة قريب الوصول منهم عقد بتلك المدينة مجلسا عاما من الكهنة وحكم على الملك في القداس العام بالكفر والحرمان ووضع على محراب الكنيسة جميع حلل الكهنة واقسم انه لا يأخذها الا اذا طرد كرلوس من المملكة ثم ذهب هو والاحبار وانضموا جميعا الى الدانيرقة فترتب على الحرب الخارجي والداخلي دمار اسوج وخرابها وكان كرلوس لعدم حزمه وتبصره قد تغلب في اثناء الاحوال الصعبة على مزايا الاشراف بعد اقتيائه على مزايا القسوس فتخلى عنه عدة من كبار دولته وقصارى امره انه لما هزمه مطران اوبساله وتبعه الى مدينة استخلم ولم يكن معه من العساكر والذخائر مايقدر به على المحاصرة تخلى عن المملكة (سنة ١٤٥٧) ميلادية اى نحو (سنة ٨٦٢) هجرية وذهب الى مدينة دنتزيق ووصل الملك كرستيان الى اسوج وبويع بالحكومة وعاد اجتماع الممالك كالسابق ومكث كذلك مدة وقدمات ادولف (سنة ١٤٥٩) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٦٤) من الهجرة وكان دوقا على سلويسويق وقونتة على هولستين وعم الملك

كرستيان . ولم يعقب ذرية وكانت دوقية سلويسويق من التزامات دانيرقة من غير معارضة ولا منازعة فهى من حقوق تاجها تعود اليه عند خلو كرسيها واما قونتية هولستين فتطلبها عائلة شومبورغة وانبتت انها من ذكور ذرية قونتات هولستين الاول بخلاف كرستيان واخوته فانهم وان كانوا من ادنى الاقارب للدوق الآخر اعنى ادولف الا انهم من سلالة الاناث لكن رأى ارباب مشورة الاقليمين ان الاوفق بمصالحهم ان يكون الاقليمان للملك كرستيان فعقدوا لذلك جمعية بمدينة ريبين (سنة ١٥٦٠) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٦٥) من الهجرة وانتخبوه دوقا على سلويسويق وقونتة على هولستين وأبقوا لانفسهم مزايا عظيمة واخذوا عليه ميثاقا أن يحترمها ولا يتعدى عليها واعطى عائلة شومبورغة مايقابل حقهم فى هولستين

ثم ان كرلوس كانتسونبد فى مدة نفيه كان ينتظر فرصة للعود الى المملكة فلاحت له فرصة فى هذا الشان (سنة ١٤٦٤) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٦٩) من الهجرة وذلك ان الاسوج اشمأزت نفوسهم من حكومة كرستيان الاول فطردوا الجيوش الدانيرقية فرجع كرلوس الثامن اعنى كانتسونبد المذكور الى مملكة اسوج ثم خلع عنها ثانيا (سنة ١٤٦٥) ميلادية اى نحو (سنة ٨٧٠) هجرية ثم تولى عليها ثالثا (سنة ١٤٦٨) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٧٣) من الهجرة ومكث يحكمها حتى مات (سنة ١٤٧٠) ميلادية اعنى نحو (سنة ٨٧٥) هجرية وكانت ايامه منغصة دائما باغارات ملك دانيرقة وبما كان يقع فى المملكة من الفتن والمشاجرات الداخلية

ولم يترتب على موته ثمرة لكرستيان وذلك لان كرلوس الثامن قبل موته جعل ولى عهده على المملكة ابن اخيه المسمى استنون ستور الاول وكان ارباب السنت قد انتخبوا هذا الامير مدبرا لمصالحها ولم تكن هذه الوظيفة لازمة بل كان يمكن انفكاكها وكانت تعتبر كأنها مجرد وكالة على المملكة مدة خلو

الكرسى

الكريي فلم يمكن لكرستيان ان يبطل هذا الانتخاب ذهب الى مملكة اسوج (سنة ١٤٧١) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٧٦) من الهجرة قائدا جيشا فلم ينجح ثم في آخر الامر قطع اطماعه في شأن تلك المملكة التي طالما فتحها اناس وضاعت منهم

وفي (سنة ١٤٧٤) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٧٩) من الهجرة قصد مدينة رومة لاجل زيارة الكنيسة واذن له البابا سكيست الرابع ان يجدد مدرسة للعلوم في بلاده فانشأها بمدينة كوبنهاغ (سنة ١٤٧٩) ميلادية اعني نحو (سنة ٨٨٤) هجرية وجعل لها مرتبات عظيمة وفي مدة حكمه اي (سنة ١٤٥٦) من الميلاد المقابلة (لسنة ٨٦١) من الهجرة تقريبا انعقدت اول مشارطة للمعاهدة والمحالفة بين مملكتي دانيرقة وفرنسا

وقد اخترمته المنية (سنة ١٤٨١) من الهجرة وبمجرد موته بايع الدانيرقة اخاه حنا الثاني وانتخبه النرويج ملكا عليهم (سنة ١٤٨٣) ميلادية اي نحو (سنة ٨٨٨) هجرية الا انه جبر على ان ينزل لاخيه فردريق عن دوقيتي سلويسويق وهولستين التزاماله

وفي (سنة ١٤٨٣) من الميلاد عقد حنا المذكور مع ارباب مشورة اسوج جمعية لاجل المفاوضة في شأن اعادة الاجتماع القديم اعني اجتماع الممالك الثلاثة غير ان هذا الاجتماع لم يحصل الا في (سنة ١٤٩٧) ميلادية اعني نحو (سنة ٩٠٣) هجرية وكان السبب في تأخره الى ذلك الوقت دسائس استنون ستور وشوكته وقد عزله في تلك السنة ارباب مشورة استخلم عن منصب التدبير فعند ذلك اغار حنا الثاني مع جيش جرار على مملكة اسوج وكان استنون يطمع في البقاء بهامع احزابه لكن لما حصر بمدينة استخلم تشارط مع حنا المذكور وترك له حنا حكومة اقليم فنلندة ولم يمكث على النصرة طويلا فان استنون شن الغارة على الدانيرقة (سنة ١٥٠١) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩٠٧) من الهجرة وطردهم من اسوج

ثم مات (سنة ١٥٠٣) ميلادية اعنى نحو (سنة ٩٠٩) هجرية
وولت مشاور الاقاليم بعده ايسونت نيلسون ستور
فتعلل حنا على الاسوج مدعيا انهم اساؤا الادب مع ملكهم الاصلى
وخرجوا عن طاعته وامر ارباب مشورة دانيمرقة ان يحكموا عليهم
بما يستصوبونه من العقوبات لكنه خرج من ذلك بلا طائل وكان ذلك
(سنة ١٥٠٥) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٩١١) من الهجرة
فالح فى هذا المعنى على الايمبراطور مكسمليان الاول فهددهم وتوعدهم
بالانتقام ان لم يطيعوا ملكهم وكان ذلك منه من باب الظلم فلم يجد نفعا وزيادة على
ذلك انضم اليهم عدة مدن من المدن الانسياتيقية اى التجارية وهى مدينة
لوبك وويزمار وروستوق واسترالسند ودنتزيق لكنها فيما بعد تصالحت
مع حنا (سنة ١٥١٢) ميلادية اى نحو (سنة ٩١٨) هجرية
وفى هذه السنة مات ايسونت نيلسون ستور وترك المملكة على ما كانت
عليه فى ايامه من الفتن والشقاق فارادت طائفة الاشراف أن تولى بعده
استون ستور الثانى ابن استون ستور الاول مدبر المملكة وارادت طائفة
الاساقفة والدانيمرقة ان يولوا ايريق ترول وكان اميرا محترما لكبر سنه
ومعارفه ومناصبه لكن وقع الانتخاب على استون ستور وشرط على حزبه
اى طائفة الاشراف ان يكون غسطاوه ترول بن ايريق المذكور حاكما
على مطرانية اوبسالة
وفى (سنة ١٥١٣) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٩١٩) من الهجرة مات
حنا الثانى ولم يؤخذ بناصر حزبه فى هذا الانتخاب وخلفه ولده كرستيان
الثانى

الباب الرابع

وفيه فصلان

الفصل الاول

فى الكلام على مملكة انكلترة من (سنة ١٤٢٢) الى سنة ١٥٠٩)

من

من الميلاد اى من (سنة ٨٢٦) الى نحو (سنة ٩١٥) من الهجرة

اعلم ان موت الملك هنرى الخامس الذى اختطفته المنية فى ريعان شبابه ولم يترك وارثا لمملكته الا طفلا فى المهد (سنة ١٤٢٢) ميلادية وقسمة نيابة المملكة بين الدوق بيدفوردة والدوق غلوستر فحكم احدهما اقاليم فرانسا الانكليزية وثانيهما انكلترة مدة قصور هنرى السادس ابن اخيهما وسطوات لاهير ودونواس وريشمونت وارسالية جاندارك الغريبة ومشارطة آراس التى تجرد بموجبها دوق برغونيا عن مصالحه فى البلاد الاجنبية وموت الدوق بيدفوردة الذى كان من اعيان الرؤساء وكبارهم وكان بمفرده له استعداد على مساواة انكلترة لفرانسا فى ثروتها التى تجددت فيها منذ مدة يسيرة وما حصل من الدسائس والمنافسة التى ترتب عليها التفاقم والشقاق بين المشورة وديوان هنرى كل ذلك اضر بنجاح الحروب الانكليزية وعاد به للجيوش الفرنساوية ما كان لهم سابقا من الصولة والنجاح الذين زالا عنهم مدة الفتن التى كانت واقعة بمملكتهم وصارت مملكة انكلترة تتنازل فى كل يوم عن بعض ما لها من الفتوحات فى الممالك الاجنبية

وقد اثار وزراء هنرى السادس غضب الاهالى حيث انتخبوا لهذا الامير القاصر زوجة من فرانسا وهى مرغريطة دى انجو بنت رينة ملك صقلية وبلاد القدس ودوق انجو ومينة وبار وكانت من ذوات الحسن والجمال وكان ابوها مع هذه الالقاب الفاخرة على غاية من الفاقة والفقر فانه لم يكن له من منصب الملوكية على صقلية وبلاد القدس الا مجرد الاسم وكان كل من دوقيتى انجو ومينة تحت حكم الانكليز منذ مدة مستطيلة واما ما كان له من الاراضى فى دوقية بار فكان التزام الدوق برغونيا فلذلك لم يدفع فى صداق بنته شيأ وانما نزل للانكليز فى مقابلة ذلك عن دوقيتى انجو ومينة (سنة ١٤٤٥) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٤٩) من الهجرة وقد اقر هذه الخسارة اغلب ارباب مشورة هنرى ورضوا بها مؤملين ان مرغريطة التى هى من اقارب كرلوس السابع الادنين تكون بهذا النكاح كالرهينة وتكون

رابطة بين المملكتين بحيث ينقطع من بينهما عرق العداوة ويكونان دائما في الصلح والهدء وقد خاب املهم في ذلك حيث لم تطل مدة ما املوه بل زال بما جدده كرلوس السابع من المشروعات والفتوحات

وكان الدوق غلوسستر قد تعرض لهذا النكاح وابى أن يقره فحنقت مرغريطة من ذلك حنقا شديدا وانضمت الى جماعة من اعدائه كانوا مغيظين منه ايضا وقبضت عليه متعللة بانه وقعت منه خيانة في حقها ورفعت دعواها الى مشورة البرلومان في اليوم الذي عين لحضوره بين ايدي اربابها لاقامة تلك الدعوى رأوه ميتا في السجن (سنة ١٤٤٧) ميلادية اي نحو (سنة ٨٥١) هجرية ولم ير في جسمه اثر يدل على الغدر به ومع ذلك نسب موته الى مرغريطة وكان ذلك سببا في غضب الاهالي عليها وعلى الملك لانهم كانوا يحبون هذا الدوق العظيم محبة شديدة

وبموت غلوسستر هذا والدوق بيدفوردة فقدت عائلة لنكسترة محاميها العظيمين ولم يبق في المملكة بعدهما الا ملك ضعيف وملكة اجنبية وديوان لا اتفاق بين اربابه وليس لهم كلمة نافذة حتى يقمعوا الامة ويسكنوا غضبها فكان ذلك فرصة لعائلة ايورقة في احياء حقوقها التي جردتها عنها العائلة الحاكمة منذ مدة مستطيلة غرورا بانتصاراتها واقبال الدهر عليها

وفي (سنة ١٣٧٧) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٧٧٩) من الهجرة خلف الملك ايدوارد الثالث حفيده ريشارد الثاني وهو ابن الشهير البرنس نوار اي الامير الاسود وفي (سنة ١٣٩٩) ميلادية اي نحو (سنة ٨٠٢) هجرية مات حنادوغونتة دوق لنكسترة الذي هو رابع اولاد ايدوارد المذكور واحد اعمام ريشارد الثاني واعقب ولدا يقال له هنري وهو دوق هرفورد وكان وقتئذ مطرودا من المملكة فطلب وراثة ابيه وتولى دوقا على لنكسترة فنازعه ريشارد وافتات عليه وسلب منه تلك الدوقية فسافر الى اقليم ايورقة ومعه حزب قوي وجمع هنالك جيشا وحمل مشورة البرلومان على خلع ريشارد وتقلد بالمنصب

الملوكي

الملوك وسمى نفسه هنرى الرابع ولاجل أن يبطل حقوق عائلة كلارنسة التى لها الحق فى التقدم عليه فى الارث حسبما يقتضيه قانون الوراثة عول على الحقوق التى كان يزعم انه ورثها عن امه المسماة بلانشة دولنكسترة وهى اصغر حفدة ايدوارد الملقب بالاحدب الذى كان قونتة لنكسترة وقد تواتر عند الاهالى ان هذا الامير هو ابن هنرى الثالث البكرى ولكن اخوه ايدوارد الاول الذى ولد عقبه منعه من ارث تاج المملكة ابشاعته وقبح منظره ثم ان عائلة كلارنسة التى افتات هنرى الرابع على حقوقها الثابتة بلامناقضة هى من ذرية ليونيل دوق كلارنسة وهو الاخ الاكبر للدوق حنادوغونتة السابق فلما تزوج ايدوارد مرتيمر فلبينة بنت ليونيل هذا ولد لهما روجير مرتيمر وهو الذى حكمت مشورة البرلومان بمقتضى حجة شرعية انه وارث المملكة وولى عهدها وكان ذلك (سنة ١٣٨٦) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٧٨٨) من الهجرة وكان لروجير مرتيمر بنت يقال لها حانة مرتيمر فتزوجها ريشارد دوق ايورقة ابن ايدوارد دولنغلى اخى حنادوغونتة وكان ايدوارد اصغر منه وبهذا الزواج كانت حانة المذكورة سببا فى نقل حقوق ليونيل الى عائلة ايورقة حيث اتت من ريشارد دوق ايورقة بولد سمى باسم ابيه ثم حصل فى الحكومة اختلال وضعف بسبب قسوتها على الاهالى فانتهز هذا الولد تلك الفرصة وعزم على خلع هنرى السادس عن المملكة وكانت علامة اعلام ريشارد صورة وردة بيضاء وعلامة اعلام هنرى صورة وردة حمراء وبها لقب الفريقان الذان خربا انكلترة لما قام بهما من الحمية الغضبية وكان ريشارد قد حرض الناس واوقع فى اذهانهم ما صاروا به مستعدين لتلك الفتن التى كان يضمرها قبل ذلك

وقد تأسف الاهالى كثيرا على ما فقدوه فى هذه الواقعة من الاقاليم التى كانت لهم فى خارج مملكتهم زيادة على اسفهم على ما بذلوه من الاموال فى هذا الحرب الذى كان مع الفرنساوية ونسبوا ذلك الى مرغريطة حيث كان يظهر من

حالها انها دائما تميل الى مصلحة فرانسا وطنها وكان لهذه الاميرة الكلمة النافذة على زوجها وعلى المملكة لسداد رأيها وفطنتها وجسارتها فلما غضب منها حزب ابورقة وسموا منها اهانوها فى مبدء الامر بطردهم لوزيرها الاعظم المسمى سيفولك وذلك انهم حرضوا الاقاليم والبلاد على اتهامه بخيانة كبيرة فبادر الملك بنفيه من المملكة مدة خمس سنوات فرارا من الحكم عليه بعقوبة اشد من ذلك لكن قبض عليه اعداؤه فى البحر وضربوا عنقه لمزيد تغيرهم وحنقهم عليه

ومع ذلك فمازالت الفتن تتجدد وتنمو بالمملكة فكان يحصل فيها القيام والتقلب من سائر الجهات وينسب ذلك الى دوق ابورقة ويتهم بانه هو السبب فى ايقاظ الفتنة من ارلنده فعوقب على ذلك بالنفى لكن مع بقاء شرفه وتلقبه بالحاكم مع ان السبب فى قيام الاهالى وحركتهم انما هو افتراء حنا كاده وهو رجل من العساكر ذو جسارة دخل فى خدمة ريشارد دوق ابورقة وذلك انه ادعى ان حنا مرتيمر ابنه مع انه من عائلة كلارنسة وقتل فى اوائل حكم هذا الملك من غير أن يثبت عليه موجب شرعى يقتضى قتله فاجتمع تحت لواء هذا الكاذب عشرون الفا من قوتنية كانتة وسار بهم الى مدينة لندرة فلما دنا من تلك المدينة هرب اهل الديوان فدخلها ورمى عنق الخازندار المسمى لوردساى غيرانه عسر عليه ابقاء الضبط والربط فى عساكره فان اهل البلد ضجروا من افعالهم واضرارهم بهم فشهروا السلاح وقاتلوهم فلم يظفر احد الفريقين بالآخر ولم يترتب على القتال ثمرة وانما فترت به هم المتحزبين فرضوا بالمتاركة مدة وتخلوا جميعا عن حنا كادة وجعلوا لمن يقتله جعلا قدره الف مرك (نوع من المعاملة القديمة) فاستحق هذا الجعل اسكندرايدين احد الركبدارية فعند ذلك بادر ريشارد بالعود الى انكلترة مع انه كان يتراآى عليه انه عدو لعموم الناس وصمم على تنجيز ما كان عزم عليه اولا فشن الغارة (سنة ١٤٥٢) ميلادية اى نحو (سنة ٨٥٦) هجرية لكن كان كل من الفريقين

يتردد

يتردد في الاقدام على هذا الحرب الداخلي بل ظهران ريشارد رغب عن هذا المشروع وذهب الى اراضيه لكن حصل في (سنة ١٤٥٤) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٦٠) من الهجرة ان هنرى اعتراه مرض زاد به انحراف مزاجه الطبيعي فانتهز ريشارد هذه الفرصة وعاد الى ما كان يطمع في تحصيله وبلغ امنيته حيث لقبوه برئيس المملكة ومحاميها وخص له في عقد مشورة البرلمان وحلها متى شاء ثم قبض على دوق سومرسته الذى خلف الامير سيفولك في الوزارة واجرى الاحكام باسم هنرى السادس فلما عوفي هنرى المذكور من مرض جسمه وضعف عقله رأى انه لم يبق له شئ من الحكم والشوكة وكانت مرغريطة قد لحقها بسبب ذلك من الحنق والغيظ ما لا مزيد عليه فحرضته على أن يسعى في استرجاع ما فقده من الشوكة والتزمت أن تعضده وتمده بعساكرها واسلحتها فخلع ريشارد عن منصب الادارة فعند ذلك اظهر العصيان وجمع احزابه وامل النجاح في هذا المشروع لما كان عنده من الفطنة والذكاء والحزم والشجاعة ولانه كان بينه وبين قونتة ويستمورلندة التئام واتحاد حيث تزوج بنته وكانت عشيرة هذا القونتة اعظم عشائر المملكة شوكة وثروة ولما كان له من نفوذ الكلمة بين طائفة الاشراف ولكونه كان معولا على كثير من اعيان المملكة لاسيما قونتة سالسبورى وابنه قونتة ورويق وكان هذا القونتة لجزيل عطائه وكثرة انعامه وافراطه في البذل معتبرا كانه من الآلهة فكل ذلك قوى رجاء ريشارد في بلوغه امنيته وقد تحقق رجاؤه في مدينة سنت البان حيث التقى الجمعان (سنة ١٤٥٥) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٦٠ من الهجرة) وقتل في الواقعة دوق سومرستة وجرح الملك واسر وكانت النصرة لريشارد ولكنه احسن معاملة الملك ونظر اليه بعين الاحترام واخذ بزمام المملكة كلها وتلقب بحامي المملكة ثم ان مرغريطة شرعت (سنة ١٤٥٩) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٦٤ من الهجرة) في الذب والمحاماة عن حقوق التاج الملوكي فاضرمت نيران الحرب ثانيا فهزم قونتة ورويق الملك هنرى في مدينة نورثامبتون

(سنة ١٤٦٠ ميلادية) اي نحو (سنة ٨٦٥ هجرية) واما الملك المذكور ثانيا في هذه الواقعة ولم يرض ريشارد أن يجلس على سرير المملكة كما كان يومل بما تقتضيه حقوق النصرة وحدها بل عرض على ارباب مشورة البير أن يتولى الملك بذلك وبماله من الحقوق في الالقاب التي بها له أن يتقلد للملكة ورخص لهم أن يقضوا بما يرونه بين الغالب والمغلوب فحكموا بان عائلة ايورقة هي التي لها الحق بموجب الاصول والقوانين في اخذ التاج ولكن حيث ان هنرى السادس قام باعباء الملك ثمانيا وثلاثين سنة فالاصوب أن يستمر على المملكة حتى يموت ويكون ريشارد في هذه المدة ولى عهده ويباشر الاحكام ولا يكتفي في انهاء هذه القضية بمجرد صدور خلاصة بذلك بل لابد من اجراء العمل به ثم ان مرغريطة ذي انجو بعد هذه الواقعة المسماة واقعة نورثمبتون ذهبت الى قونتة دورهامة واخذت معها ابنها ايدوارد امير غالة وكان صغيرا وأبت أن تقر ما حكم به مجلس البرلمان حيث تجردت به عائلة هنرى السادس عن الحكم وجمعت جيشا يبلغ عشرين الف فسار ريشارد لمقابلتها ولم يكن معه من العساكر الا خمسة آلاف واغا خاطر في هذه المرة ولم يتبصر اما لشدة حقده عليها او لاستخفافه بها فانهزم وقتل بمدينة واكفيلدة (سنة ١٤٦٠ من الميلاد) الموافقة لنحو (سنة ٨٦٥ من الهجرة) ووقع في ايدى الحزب الغالب ثاني اولاده وهو قونتة روتلنده وكان عمره يومئذ اثنتي عشرة سنة فقتله صبرا البارون كليفورد وقتل كذلك في هذه الواقعة قونتة سالسبورى وعدة من اعيان المملكة صبرا حسبما اقتضته القوانين الحربية وغرزت مرغريطة رأس ريشارد في قلعة ايورقة ووضعت عليه تاجا من الورق

ثم ان مرغريطة بعد هذه النصرة الفاخرة قسمت جيشها وبعثت منه جزأ تحت قيادة القونتة بمبروكة ليشن الغارة على ايدوارد بن ريشارد البكرى وولى عهده فكانت النصرة لايدوارد بموضع في قونتية هرفوردة يقال له كرواد ومرتمير وهلك من عساكر بمبروكة نحو اربعة آلاف ولم ينج

الا

الا بالفرار ولكن سجن ابوه المسمى سيرأوون تودور وقتل بامر ايدوارد من غير أن تقام له دعوى وكان في مبدء امره من آحاد الاهالي ثم تزوج بارملة هنري الخامس فبذلك كان لعائلته الحق في الحكم على مملكة انكلترة وقد صار القتل عادة خشنية بين الفريقين حتى جعلوا اخذ الثار من جملة الحقوق المرعية

ومع ذلك فكانت مرغريطة قد تقدمت جهة لندرة فخرج اليها القونتة ورويق من المدينة قاصدا محاربتها وعادت سهول سنت البان ميدانا للحروب الداخلية ثاني مرة وذلك في شهر فبراير (سنة ١٤٦١ من الميلاد) المقابلة لنحو (٨٦٦ من الهجرة) وكانت عاقبة هذه الواقعة انهزام الاورقيين وخلاص هنري السادس

فبذلك كانت نصرة تلك الملكة قليلة الجدوى فان ايدوارد لما تقدم بجنوده القوية في داخل البلاد ذهبت مرغريطة الى بلاد الشمال ودخل هذا الامير في تخت المملكة وتلقاه فيها الاهالي بالتهليل والفرح وكان جامعا للخصال الحميدة التي تستميل اليه القلوب فكان مع صغر سنه لطيفا شجاعا بشوشا فعزم على أن ينتهز الفرصة من ذلك ويأخذ بزمام الملك فجمع عساكره والاهالي في سهل سنت جان وبين لهم القابلية التي يستحق بها المنصب الملوكي فصاحوا جميعا انهم رضوا به ملكا على انكلترة واقر ذلك اكابر الكهنة والاشراف واعيان الاهالي وصار هذا الملك الجديد يعرف في مدينة لندرة باسم ايدوارد الرابع وكان ذلك في الثالث من شهر مارث (سنة ١٤٦١ ميلادية)

الكلام على ايدوارد الرابع

ثم ان حزب مرغريطة لم يزل على شدته وقوته فان هذه الملكة الشديدة الباس جمعت في الاقاليم الشمالية جيشا جرارا يبلغ سبعين الفا فقصدها ايدوارد ووروبق ومعهما اربعون الفا والتقى الجمعان قريبا من مدينة تووتون ووقعت بينهما مقاتلة شديدة حتى كان لا يؤذن فيها باعطاء امان للمهزوم وانهزم اللنكسترية (وهم حزب مرغريطة) بعد أن قاوموا مقاومة شديدة وتركوا

فى ميدان الحرب من طائفتهم ما ينيف على ستة وثلاثين الفا ما بين قتيل وجريح فلما لم يبق لمرغريطة وهنرى السادس بانكلترة ملجأ ولا ظهير فرّا هاربين الى ايقوسيا وكانت هذه المملكة وقتئذ كانكلترة تقريبا فى الفتن والاضطراب حيث كان يتنازع نيابتها كل من الملكة الارملة حانة دوغلدرة والقونتة دوغلاس مدة قصور ياكس الثالث فكانت هذه المشاجرات الداخلية مانعة لمرغريطة أن تنال الا مواعيد كاذبة وتوددا ظاهريا

واما ايدوارد فعاد الى لندرة مع غاية السكون والهدء وجمع بها مشورة البرلمان فانتخبته على طبق الاصول والقوانين وصدقت بانتخابه على الانتخاب الاول الذى صدر من العساكر والاهالى وحكمت بان هنرى الرابع دخيل لا حق له فى الحكومة وكذا عائلته وان حكومتهم محض اختلاس وان جميع ما صدر من الاحكام عن دواوين البرلمان الكاذبة التى كانت فى ايامهم باطل وامرت بنفى هنرى ومرغريطة وابنهما ايدوارد الصغير امير غالة وضبط اموالهم وجرى مثل ذلك ايضا على عدة من اعيان الدولة ومشاهيرها لانهم كانوا إمناء لذلك الامير الذى كان ارباب تلك المشورة قد اذعنوا له جميعا حتى الملك نفسه اعنى ايدوارد

وفى مدة ما كان ايدوارد الرابع مشتغلا بتمكين سرير الملك وتثبيته بالقهر والغلبة كانت مرغريطة التى لا تكل ولا تمل تسعى فى خلعه ولما لم يمكنها أن تحمل اهل ايقوسيا على أن يشهروا اسلحتهم لمعاونتها والاخذ بناصرها ذهبت تطلب ذلك من لويز الحادى عشر ملك فرانسا وخليفة كرلوس السابع وكان يومئذ مشغولا بقمع اعيان مملكته فلم يرض أن يشغل نفسه بالحروب الاجنبية وانما نالت منه مبلغا قدره عشرون الف ايكو (ريال) جهزت به القين من العساكر المتسلحة والتزمت أن ترد له فى نظير ذلك مدينة كالس ثم قصدت انكلترة وتولت بنفسها رياسة هذا الجيش الصغير الذى تزايد عما قليل بطائفة انضمت اليه من الايقوسيين الرحالة النزالة وباحزاب الوردة الحمراء وقد لزمها فى هذه الواقعة أن تقاوم العدو مع المواظبة وفرط التجلد

على

على مادهمهما من الشدة والضنك مع عدم النجاح فان اللورد مونتاغ اخا القونتية ورويق هزمهما فى مدينة هدغليور عند الصدمة الاولى وتمت له بعد ذلك النصرة التى انتهت بها الامر بمدينة اكسهام (سنة ١٤٦٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٦٩ من الهجرة) وقبض فى تلك الواقعة على الدوق دوسومرستة وقتل وكذلك عدة من الاعيان ووضع جميع من لم يقتل فى الحرب على الخوازيق واقسم ايدوارد يومئذ أن لا يدع من اعدائه احدا بل يدمرهم عن آخرهم

وفى اثناء تلك المصائب كانت الناس متشوقة غاية التشوق الى الوقوف على مايؤول اليه امر العائلة الملوكية فان الملكة كانت دائما مضطربة الحال مع علو همتها فى الشدائد وهزمها العدو مع ثباتها على الحزبية حيث فرت مع ولدها وقصدت اجمة تبحث فيها عن ملجأ تاوى اليه فانقض اللصوص عليها ليلا واخذوا ما كان معها من الالماس والجواهر التى كانت بقايا سعادتها وشعار عزها وبمجرد خلوصها منهم اصيبت بما هو افظع من ذلك فانه مع ما لحقها من الم الجوع والتعب والمشقة والرعب اقبل عليها وهى سائرة رجل من قطاع الطريق مجرد اسيفه فلما رأت انه لا مفر لها منه اقبلت عليه والقى فى روعها أن قالت له تقدم الى يا حبيبى فها هو ابن ملككم قد وكلت امره اليك وعرضت عليه الامير الصغير الذى كان بين يديها فلما رأى تلك الملكة وما هى عليه من المهابة والجلال وما آل اليه امرها من سوء الحال وسمع صوتها وحنينها على ولدها اخذته الرافة عليها ورحم تضرعها وسكن روعها ثم سافرت الى فرانسا واما هنرى السادس فقبض عليه فى قونتية لنكسترة ووضع فى سجن لندرة واذاقوه فيها من النكال والاضرار ما الامزيد عليه قاصدين اتلافه واهلاكه

ثم ان سجن هنرى هذا وخروج مرغريطة من المملكة وما حل بمشاهير الحامين لحزب لنكسترة من العذاب وضبط الاموال وما انعقد من المشارطات مع اغلب ملوك اوروبا كل ذلك ترتب عليه ثبات ايدوارد على الملك وتمكنه من الحكومة غير انه قام به مطمع خال عن الكياسة والتبصر

فتعكر به ما كان فيه من الراحة والهدء وترتب عليه مصائب جديدة
وذلك ان ياكلينة دولكسنبرغ دوقة بيدفورد لم تنظر الى مقامها
ولم تعتبر علو شانها فتزوجت بعد وفاة زوجها برجل من آحاد الناس يقال له
سير ريشارد ويدويل وصنعت لها افراح العرس ثانيا فجاءت منه ببنت تسمى
ايليزابيتة وكان من امر هذه البنت انه تغير بختها من الشقاء الى السعادة حيث
عوضت زوجا خيرا من زوجها وحظيت بملك بعد رجل من آحاد الناس
فانه بعد أن قتل زوجها المسمى سير يوحنا غري في الغزوة الثانية من واقعة
سنت ألبان وصارت ارملة وضبط على اموال زوجها لانه كان من حزب
اللنكستريه ذهبت الى ابيها في مدينة غرافتون بقونتية نورثمبتون
فاتفق ان ايدوارد كان هناك للصيد والقنص وذهب لزيارة دوقة بيدفورد
فانتهزت بنتها ايليزابيتة هذه الفرصة العظيمة وخرت على اقدام هذا الملك
وبثت اليه شكواها ودموعها تنحدر وتضرعت اليه أن ينظر بعين الرافة
والعناية الى اولادها الذين لسوء حظهم حرموا من ميراث ابيهم فرثى لحال هذه
الارملة الباكية الحزينة السيئة الحظ ذات الحسن والجمال وتمكن حبها من
قلبه وسعى في استمالتها اليه ولم يجد ذلك نفعا ثم آل الامر الى تزوجه بها
ومن يومئذ انتقل ما كان لعائلة نويل ولرئيسها ورويق من الشوكة ونفوذ
الكلمة الى عائلة ويدويل وحصل الاغداق بالعطايا الجزيلة والمنح الجليلة على
اقارب ايليزابيته وعشيرتها ولقب ولدها بلقب لورد ريوير وقلد منصبي
الخازندارية والسرعسكرية وترتب على زواج اخي هذه الملكة الجديدة واخواتها
أن صار لهم شهرة عظيمة وثروة جسيمة وتزوج ابنها المسمى سير توما سغرى
وهو من اولاد زوجها الاول ببنت الدوق دواكستير ووارثته وهي بنت اخت
الملك وكان اللورد مونتاغ يطلبها لنفسه فعد زواجها بتوما سغرى المذكور
فضيحة ومعرة على عشيرة نويل بتمامها وحنق بجميع كبار الدولة واعيانها مما
حازته عشيرة ويدويل على حين غفلة من السودد والشرف واغتاظوا من ذلك
فكانهم تقاسموا الغيظ مع ورويق فبذلك صار لهذا الرئيس المهاب حزب
ذوشوكة

ذوشوكة كان من جملته احد اخوة الملك وهو الامير جرجى دوك كلارنسة حمله
على ذلك الحنق والغيظ وقد بلغ منه الغضب مبلغا افضى به الى الاضطراب
وعدم القرار فكان اشد اهل الدولة غيظا الماصار للملكة وعشيرتها من الشوكة
والعظم فاناطه وروبق بمصالحه وزوجه ابنته البكرية وواعده ميراثا
عظيما

فترتب على ذلك عصبة مهولة فى داخل المملكة وبحث ايدوارد فى خارجها
عن يساعده ويشد عضده فتعاهد مع دوق ابريطانيا وكرلوس لوتمرير اى
الجسور دوق برغونيا الذى تزوج باخته مرغريطة دى ايورقة (سنة ١٤٦٨)
من الميلاد (الموافقة لسنة ٨٧٣ من الهجرة تقريبا) فكانت هذه
المعاهدة ملجأ له ووقاية من مشروعات لويز الحادى عشر لامن الفتن
الداخلية وقد ظهر العصيان والتعصب فى عدة اقاليم وكان اقوى العصب
عصبة قونتية لنكولن حيث جمع بها روبيرت ولس جيشا يبلغ ثلاثين
الفا فبدد ايدوارد شمل هذه العصبة واستغفر رئيسها من ذنب التعصب
وهو على الخازوق وذلك (سنة ١٤٧٠ من الميلاد) (المقابلة لنحو
سنة ٨٧٥ من الهجرة) وكان وروبق قد تعصب فى اثناء ذلك على الملك
ايضا لكن تلاشى امره بانهزام الولس (وهم حزب روبيرت) وتخلى عنه عدة
من كبار الدولة الذين كان يؤمل منهم الاعانة والمساعدة ففرهاربا هو وصهره دوق
كلارنسة الى فرانسا ليلتجيا بها ثم اصلح لويز الحادى عشر بينه وبين مرغريطة
حيث دعت الضرورة الى ذلك فان كلا قرب من صاحبه (حيث اجتمعا فى مملكة
واحدة) وكان كل منهما مولعا بالانتقام واخذ الثار وكانا سواء فى الشقاء
والسعادة وانحط الرأى من الجانبين على اعادة هنرى السادس الى سرير الملك
وان وروبق يباشر مصالح الدولة مع دوق كلارنسة مدة قصور امير غالة
وهو ابن هنرى وأن يتزوج هذا الامير القاصر حانة ثانية بنات القونتة
وروبق فان لم يلد اذكرا اعطى التاج لدوق كلارنسة دون ايدوارد الرابع
وعشيرته

ثم ان ورويق توجه مع دوق كليرنسة وطائفة من العساكر الى مدينة درمون واجتمع تحت اعلامه فى اقرب وقت ستون الفا واكثر لما كان عنده من البشاشة التى ازدادت بما لحقه من النكبة وسوء الحظ ولما قام باحزاب الوردة الحمراء من الغيرة ولغيظ الاهالى ورغبتهم فى تغيير الدولة فلاقى ايدوارد قريبا من مدينة نوتنغام فتخلى عن ايدوارد اصحابه فلم يبق الا بالمبادرة الى الفرار فذهب الى قوتنية نورفولك فاذا هو بسفن متهيئة للسفر فركب سفينة منها وقصد مملكة الفلمنك ومعه جماعة من كبار غلمانه

واما ورويق الذى انتهت له يومئذ الرياسة فانه بادر بالمسير الى لندرة وكان ذلك بعد قدومه باحد عشر يوما فتلقاه بها الاهالى مع الابتهاج والحماسة وسموه مولى الملوك وذلك انه اخرج هنرى من السجن واجلسه على سرير الملك ثانيا وعقد لذلك مشورة البرلمان بمدينة ويستمنستير فاقرت هذه المشورة ماوقع عليه الاتفاق بينه وبين مرغريطة وبويع هنرى بالملك مبايعة صحيحة جارية على مقتضى الاصول والقوانين غير انه لما كان ظاهر حاله يقضى بعدم لياقته لهذا المنصب انيب عنه دوق كليرنسة وورويق حتى يبلغ ابنه ايدوارد اشده فان لم يعقب هذا الامير القاصر ذكرا كان تاج المملكة لعشيرة كليرنسة والغيت جميع الاوامر التى كانت صدرت عن الدولة المعزولة حسبما اقتضاه هذا التقلب والتغير وبالجملة فقد صدرت عدة اوامر بها حصل انتقام الفئة الغالبة من الفئة المغلوبة

وكانت مرغريطة اذ ذاك بفرنسا تنتظر مايترتب على هذه الاغارة فلما بلغها ما حصل من النجاح والظفر بادرت بالتجهز الى العود الى بلادها ولكن حصلت لمور عاقتها عن السفر فلم ترجع الى بلاد الانكليز الا لتنظر ماوقع فيها يومئذ من الانقلاب والتغير وذلك ان ايدوارد لما ذهب الى مملكة الفلمنك كما سبق وامده فيها دوق برغونيا بدونما صغيرة وجزء من الاموال اخذ يسعى فى استرجاع التاج وكان اخوه دوق كليرنسة يبغض اللنكسترية فتصالح معه سرا ووعده الاعانة والمساعدة فسافر ايدوارد الى مدينة راونسپور

فى قوتنية

في قونتية ايورقة ومعه الفان من العساكر فعند ذلك انضم اليه احزابه فعما قليل صار معه جيش عظيم فقصد ورويق محاربته لكن سلك ايدوارد مسلك المحاولة حتى لا يقابله وتقدم الى لندرة على حين غفلة ودخلها من غير أن يتصدى لمقاومة ورويق فصار هنرى في قبضته وكان ذلك آخر نكبة لهذا الملك السيء الحظ الذى كان دائما عرضة لصروف الدهر وغوائله

ومع ذلك رجع ورويق على عقبه هو ودوق اكلارنسة ومركى دومونتاغ واقام قريبا من تخت المملكة بموضع يقال له برنيت وكانت مرغريطة قد قاربت القدوم بعساكرها فعزم ورويق أن يسبقها الى الحرب ليحوز فخر النصرة وحده فتهيأ للحرب (سنة ١٤٧١) من الميلاد الموافقة لنحو (سنة ٨٧٦ من الهجرة) ولم يثبطه عنها تخلى دوق اكلارنسة عنه وانضمامه الى اخيه مع اثنى عشر الفا ولم يعبأ بما عرضه هذان الاميران في شأن الصلح فحصل العناد والمقاومة من الجانبين ومكث امر النصرة غير محقق لاحد منهما مدة طويلة ثم قتل ورويق في المعركة فحقت الهزيمة على اصحابه فاوقع ايدوارد فيهم القتل والفتك واما مرغريطة فخرجت من فرانسا في يوم الوقعة هى وولدها وطائفة من عساكر الفرنساوية فلما وصلت الى مدينة ويموت بلغها اسر زوجها وما حل بحزبه من النكبات والمصائب فاكثرت البكاء والعويل وزال ما كان عندها من الثبات والتجلد فاخذ بعض اصحابها ذوى البأس الذين تثق بهم يشجعها ويسليها على مصابها فلما قدمت تقوى بحضورها الانكتيرية لكن خابت آمالهم في واقعة توكسبورة حيث انهزم جيشهم وتبدد شملهم وقبض على مرغريطة وابنها وعرضوهما على ايدوارد فلما تمثلا بين يديه سال الامير الصغير مع التعنيف والتوبيخ كيف تجاسرت على القدوم الى انكلترة وظهرت بها فاجابه مع الانفة والشمم الناشيء عن شرف نفسه قائلا انما دخلت التزامات والدى لانتقم ممن اساء الادب في حقه وفي حقى فاغتاظ ايدوارد من جسارته ولطمه على خده فطن دوق

اكلارنسة ودوق اغلوستر وآخران من اعيان الدولة أن هذه الفعلة علامة على ارادة قتله فبادروا الى هذا الامير الصغير المجرد عن السلاح وطعنوه باسلحتهم فجرح جرحا شديدا ووضعوا مرغريطة فى السجن الذى مات فيه هنرى السادس بعد طعنه بيسير فشاع على السنة العامة انه هلك باستيلاء الحزن عليه ولكن الظاهر انه مات قتيلا بخنجر دوق اغلوستر اويسعيه

ثم ان ايدوارد بعد تلك الاهوال القاسية والافعال الخشنية عاد الى ما كان عليه من الترفه والتنعم وترك الحرص والطمع وانهمك على اللهو واللعب اربع سنوات ولم يستيقظ من هذه الغفلة حتى لاحت له امارات فتوح جديد ومشروع كبير وذلك انه تعاهد فى (سنة ١٤٧٥) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٨٠ من الهجرة) مع دوقى برغونيا وابريطانيا على لويز الحادى عشر ملك فرانسا (راجع تاريخ لويز المذكور) والذى حمله على تلك المعاهدة اعترافه لصهره دوق برغونيا بما وفى له به من الخدم ورغبته فى الانتقام من ذلك الملك فى نظير اعانته لحزب اللنكسترية ومايعود عليه من المنفعة فى شغل رعاياه الذين كانوا اذ ذاك فى اضطراب وحركة بهذا الحرب الاجنبى فذلك هو الباعث له على المعاهدة المذكورة ولم يكن مطمح نظر هؤلاء المتعاهدين الا تمزيق مملكة فرانسا واضعاف شوكتها فسار ايدوارد الى مدينة كالس واخذ معه جيشا لكن لما لم يأت له ما كان ينتظره من المدد والاعانة من معاهديه اصغى الى ما عرضه عليه لويز الحادى عشر ووقعت بينهما مداولات ومفاوضات ترتب عليها مشارطة بيكنبى والتزم فيها ملك فرانسا أن يدفع الى ايدوارد فى كل سنة خمسين الف ايكو (قطعة من الذهب) وافتدى مرغريطة بمثل هذا المبلغ فعاشت الى (سنة ١٤٨٢) من الميلاد المقابلة لنحو (سنة ٨٨٧ من الهجرة) وهى متقاعدة وانقضى اجلها وهى فى الهدء والسكون بعد أن كانت فى التعكير والاضطراب

ثم رجع ايدوارد الى مملكته وعاد الى ما كان عليه من الانهماك على

الشهوات

الشهوات وارتكاب الافعال الخشنية فلذا كان دائما يامر بعقوبات شنيعة وافعال فظيعة وكان من اعظم بغيه وطغيانه في تلك الافعال التي دنست اواخر ايامه قتل دوق اكلارنسة فلحق هذا الدوق ما يلحق في العادة من يخون وطنه وذلك ان ايدوارد لما رأى منه ما رأى كان لا يثق به ولا تطمئن نفسه اليه مع أن رجوعه الى حزب اورقة كان سببا في نصرة هذا الحزب وظفره وكانت الدولة تخشى بأسه لاضراره وعدم رزانته * وترتب على توقد ذهنه وذكاء عقله أن تجدد له اعداء ارباب شوكة منهم اخوه دوق اغلوستر وكان هذا الدوق اعني اغلوستر الذي اتهم بقتل هنري السادس واميرغالة يطمع في الجلوس على سرير المملكة وكان يلزم لتنجيز هذا الغرض أن يسعى في تدمير حزب اورقة بعد تدمير حزب اللنكسترية لحرض الملك اولا بخيانته واثار غضبه على اخيه دوق اكلارنسة فقبض عليه واحضر في المجلس العالي فتكلم بكلمات فضولية استحق بها القتل وان لم يكن فيها ما يشعر بالعصيان والخروج عن الطاعة ولحضور الملك في هذا المجلس لم يبد احد من اربابه رأيه في هذه القضية فاجتمع كل من مشورة الكومون اى وكلاء الاهالي ومشورة البير اى الاعيان على الضلال وسلوك سبيل التعسف وعدم الانصاف حيث اجمعوا على قتل هذا الدوق ولم يراعوا خاطره في شيء الا كونهم وكلوا اليه اختيار كيفية لهذه العقوبة فاختار أن يغمس في برميل من نبيذ كريد ففعلوا معه كما اختار وكان ذلك (سنة ١٤٧٨) ميلادية) (اى نحو سنة ٨٨٣ هجرية) هذا وما زال اغلوستر يسعى في تحصيل غرضه بارتكاب المآثم بعضها وراء بعض فانه بعد أن انقذ ايدوارد بقتل اخيه دوق اكلارنسة بسنوات انقذ نفسه من هذا الملك على ما قيل بسمه اياه (سنة ١٤٨٣ من الميلاد) (اى سنة ٨٨٨ من الهجرة تقريبا) واعقب ايدوارد ولدين قاصرين وهما ايدوارد الخامس ولي عهده وريشارد دوق اورقة واوصى عليهما عند وفاته اغلوستر المذكور وجعله نائب المملكة فكانا بذلك تحت قبضته وعرضة للقتل منه اذا

هو غضب عليهما

الكلام على ايدوارد الخامس

كان هذا الملك القاصر حين موت ابيه فى قلعة لودلوف مع خاله قونتة
ريور وكانت هذه القلعة على ثغر بلاد الغالة ولما كانت الملكة والدة ايدوارد
تخشى ضياع حريتها او عمرها (لما كانت تعهده فى اغلوستر من الطمع
وخبث الطوية) طلبت من اخيها ريور انه لا يأتى بولدها الا ومعه فرقة
من العساكر ولكن ابطل اغلوستر نائب المملكة هذا الامر الذى به نجاة هذا
الملك الصغير متعللا بعلل باطلة و متحيلا بحيل عاطلة فاخذ ريور فى السفر
ومعه جماعة تكفى فى ابهة منصبه الملوكى لا فى امنه واطمئنانه فتلقاه اغلوستر
فى مبدء الامر بالبشر والترحيب واظهر له من المحبة ما لا مزيد عليه ثم قبض
عليه من الغد وذهبوا به الى قلعة بونتوفركت ووضعوه فيها مع ابن اخته
سير ريشارد غرى وصار ايدوارد الصغير فى قبضة اغلوستر بخلاف اخيه
ريشارد فلم يقع فى قبضته فان الملكة لما بلغها سجن اخيها ريور ذهبت
ومعها بناتها وابنها ريشارد دوق ايورقة والتجأت بمحل يسمى ويستمنستر
فكان ذلك فرصة لاغلوستر فى عرضه للمشورة ابطال المزايا القسيسية
وعدم اقرارها وكان كل من مطران ايورقة ومطران كنتوربيرى
يريد بقاء تلك المزايا القديمة واستمرارها ومع ذلك كانا لا يتهمان اغلوستر
بشئ من الاغراض الناشئة عن الخيانة ويستبعدان ذلك عليه فوعدا الملكة
باسترجاع ما اخذه بطريق القهر والغلبة جازمين بذلك فوافقتهما على ما ابدياه
لها بعد المجادلة الشديدة وسلمت اليهما ولدها واشفقت من فراقه فاخذت
تعانقه واحشاؤها تتلظى ودموعها تنحدر حتى كأنها تودعه وداعا لا رجعة
بعده وفى اثناء ذلك عين المجلس العالى اغلوستر محامى المملكة ولم ينتظر
اقرار مشورة البرلمان لذلك فكان اول ما فعله فى حكمه الجديد قتله
قونتة دى ريور وسير ريشارد غرى فى السجن وكان قد رأى انه لا يقدم
على هذه الخطيئة بنفسه الا بعد استشارة اثنين من المجلس العالى تكون كلمتهما

نافذة

نافذة وامرهما مبرما وهما دوق بوكنغام واللورد هستانغ وانه لا ينجز ذلك الا برضاهما واقرارهما فحكما على هذين الرئيسين بالقتل من غير موجب يقتضيه وانما ذلك لما حازته عائلتهما من الشرف والسودد على حين غفلة فصارت بذلك مبغوضة عند الاشراف الاخر حتى ان بوكنغام عزم على تدميرها والفتك بها مغتراً بما ابداه له اغلوستر من الآمال والاطماع فوثق بها وعوّل عليها واما اللورد هستانغ فانه كان بينه وبين الملك الاخير (ايدوارد) من المحبة والاتحاد ما لا مزيد عليه ولم يزل كذلك مع اولاده فلما ايس اغلوستر من تحويله عن ذلك عزم على الفتك به ولما كان اليوم الذي قتل فيه ريور وابن اخته بمدينة بونتفركتة عقد اغلوستر مشورة في السجن فلم يحترس هستانغ بل ذهب كغيره من ارباب المجلس آمنا مطمئنا فلما اخذ القوم مجالسهم سألهم اغلوستر على وجه يشعر بالتهديد والارهاب قائلا ما عقوبة اناس تعصبوا على قتلي فاجاب هستانغ يعاقبون عقاب الخائنين وهو القتل فقال ان ارباب الخيانة هم بانة سهورة ساحرة الملكة ارملة اخي وكذلك عشيقته وكل من يشاركهما في ذلك فانظروا ما صنعوه معي من السحر وكشف عن احد ذراعيه فاذا هو رفيع عن الآخر جداً ويابس مع انه لا يجهل احد أن ذلك الخلل به من صغره فصاروا ينتظرون مع الحيرة ما تكون عاقبة هذا الامر الغريب لاسيما اللورد هستانغ فانه كان بينه وبين هذه الساحرة غاية الارتباط والاتحاد منذ مات ايدوارد الرابع فقال لا محيص عن عقابهم باشد العقاب ان ثبت عليهم ذلك فصاح اغلوستر كيف تجاسرت على الشك في ذلك وانت اولهم وخيانتك ثابتة واقسم له بماري بولص أن لا يتناول من الغداء شيأ الا اذا احضر اليه رأسه ودعا اتباعه الى محل المشورة فقبضوا على هستانغ وسحبوه وضربوا عنقه ثم امر بالقبض على بانة سهورة لئلا يقال انه ترك هذه الدعاوى لكونها كاذبة وسئلت عن الايذاء بالسحر الذي اتهمها به ولم يكن هنالك من البراهين ما يقضي بصحة ما ادعى به عليها مع ما كان عليه اهل ذلك العصر من الاوهام الفاسدة واخذ

الاشياء قضية مسلمة فلذا لم يمكن لارباب المجلس أن يحكموا عليها بانها ساحرة وانما حكمت عليها جمعية قسيسية لزناها أن تعترف على رؤس الاشهاد بذنبها وتتوب منه وتطلب العفو وكان لهذه المرأة التى غرها ايدوارد واستمال قلبها واخذ عقلها كلمة نافذة ونفع عظيم فعزلها ارباب المجلس وسلبوها جميع ما اكتسبته من عشيقها من الانعامات الجزيلة التى اورثته المعرة والفضيحة فقضت ايامها فى غاية الفاقة وشدة الضنك

وبعد موت هستانغ خلع اغلوستر جلباب الحياء وتطلب على رؤس الاشهاد الاستيلاء على المملكة فطعن اولا فى صحة نكاح ايدوارد الرابع فان من المعلوم عند الخاص والعام ان ايدوارد هذا قبل أن يتزوج ايليزابيطة غرى كان يعشق ايليونورة تلبوت بنت القونتة هروسبورى ثم عقد عليها سرا فى غير المحاكم واما الدوق اكلارنسة فانه وان اعقب ولدين لهما الحق فى الاستيلاء على الحكومة الا انه صدرت خلاصة باهدار دمه فصار لا حق لولديه فى ذلك وحيث سقط حق الفرعين الاولين من عائلة ابورقة تعين الدوق اغلوستر لوراثة الحكومة لكن لما كان يتعذر اثبات كون النكاح المتقدم وقع سرا بما يفيد اليقين والقطع وتعذر ايضا جعل السبب فى حرمان ولدى اكلارنسة وسقوط حقهما من الاسباب المعتبرة والاصول المقررة تجاوز اغلوستر الحد فى هذا المعنى وارتكب امورا شنيعة حيث امر اصحابه أن يشيعوا بين الناس أن كلا من ايدوارد الرابع والدوق اكلارنسة متخلق من ماء فاسد فنسبهما غير صحيح ويقضى بذلك انهما ممن سعى فى هلاك نفسه بارتكاب الذنوب والجرائم وان الدوق اغلوستر هو الذى اختص من بين اخوته بصحة النسب وانه من نسل عائلة ابورقة حقيقة بما حواه من تقاطيع الذات وسائر الصفات فقد خاض بذلك فى عرض امه وقذفها وهو لا يدرى ان ذلك تدنيس لعرضه ومذمة فى حقه مع انها كانت موجودة وقتئذ وكانت من خيار النساء ثم تجاسر على الاعلان بصحة هذا القذف الفظيع فى حق امه واشهاره فى المجلس العام حيث رشا بعض خطباء

المشورة لاجل هذا الغرض الذميم الناشئ عن خبث طويته فبنى هذا الخطيب المسمى دوقطورشاو على هذه القاعدة وهى شرط الارث صحة النسب وطعن فى نسب اخوى اغلوستر محامى المملكة وهتك حرمتهما بالخوض فى اعراضهما واعلى قدر هذا الامير بالمدح والثناء واثبت انه المستحق للوراثة حقيقة وانه مطمح انظار الرعية ومحط آمالهم وكان ينتظر من الاهالى الذين شهدوا هذه الخطبة أن يعلنوا بالاجابة ويصيحوا بقولهم حيى الله الملك ريشارد (اعنى اغلوستر لانه سمى بذلك حين تولى الحكومة) الا انهم لزموا الصمت وعبسوا وقطبوا وجوههم فعاد ذلك على اغلوستر ومادحه بالخجل والخزى فلما لم ينجحوا فى هذه الطريقة سلكوا طريقا آخر اوضح من الاول ومقطوعا بنجاحه وذلك انهم سعوا فى كيفية ينتخبون بها جمعية من الاهالى فجمع شيخ مدينة لندرة وهو اخو الخطيب المتقدم عدة من الاهالى وقام فيهم خطيبا الدوق بوكنغام ومال فى خطبته الى اغلوستر مراعيا مصلحته حيث اكثر مدحه والثناء عليه وسأل الحاضرين هلا تريدون أن يتملك عليكم هذا الامير العظيم فسكتوا جميعا وفى آخر الامر حرض اتباع اغلوستر وبوكنغام جماعة من رعاع الصناعية واغروهم على الاجابة فاجابوا وقد غلبتهم الورطة بقولهم حيى الله الملك ريشارد ولكن بصوت ضعيف فعند ذلك بادر بوكنغام الى اغلوستر واخبره أن الرعية رضوه ملكا عليهم فادركته من ذلك الدهشة والحيرة ثم غلب على نفسه وظهر للجمعية وعاهدهم على الامانة فى الاحكام وحرضهم على التأسى به فبايعوه وحلفوا انهم لا يرضون سواه وفوض الامر اليهم وزال ما كان عنده من الريبة فى شأنهم واعترف لهم انه يجب عليه تنفيذ آراء الاهالى فالبسوه التاج الملوكى ولقبوه ريشارد الثالث

الكلام على ريشارد الثالث

ولما جلس ريشارد الثالث على سرير الملك بعث الى براكانبورى حاكم السجن يأمره بقتل الاميرين الصغيرين الموضوعين فى السجن تحت ذمامه فابى

تنفيذ امره فسعى ياكس تيريل وكان من شرار الناس فى تنفيذ هذا الامر
القطيع الناشئ عن الحمية وشدة الغضب فصدر الامر لبرا كانبورى أن يسلم
لياكس مفاتيح السجن ليلة واحدة فدخل ياكس ومعه رجلان من امثاله
المحل الذى فيه الاميران وكانا وقتئذ فى شدة النوم فتقدم اليهما هؤلاء
الجلادون ووضعوا الوسائد على روسهما فاتا خنقا ودفنوهما بمحل هنالك محفور
تحت سلم المحل الذى كانا به وكان عليه احجار كثيرة

ثم ان ريشارد الثالث لم تطل مدة ولايته فى الهدء والراحة ولم يتهنا على كرسى
المملكة الذى لم يستول عليه الا بعد ارتكاب خطايا وماتم عظيمة وذلك انه قلد
الدوق بوكنغام الذى كان اقوى الوسايط فى استيلائه على الملك رياسة عساكره
ومنحه المناصب العظيمة وبذل له الاموال الجسيمة واعتقد بذلك انه اكتسب
امانته وصدقه ولكن كان بوكنغام لا يعرف القناعة فسئم منه الملك ولم يمكنه
من مرامه وكان ذا كبر وعناد فسعى فى اساءة الملك فعزم على اثارة الفتنة وكان
حزب اللانكسترية قد انتعشت آمالهم بموت ولدى ايدوارد الرابع ميتة
فظيعة وبغض عموم الناس لقاتلهما وكانت عائلة بوكنغام تجنح الى هذا
الحزب فعزم بوكنغام على اعلاء شأن الحزب ورفع درجته وكان حنا دوق
سومرستة الاول حفيد حنا دوغونتة لم يعقب الا بنتا تسمى مرغريطة
وهو وان كان من فرع متخلق من ماء فاسد الا ان ديوان البرلمان وهو ديوان
الملة حكم بصحة نسبه فتزوج هذه الاميرة ايدموند قونتة ريشموند وهو
ابن سيراووين تودور وامه كاترينة الفرنساوية ارملة هنرى الخامس
فلم تلد مرغريطة منه الا غلاما يسمى هنرى دوريشموند وهو الاحق
بوراثة حقوق عائلة اللانكسترية الصحيحة النسب عند انقراضها لكونه اقرب
الناس اليها وكان من امر هنرى المذكور انه فر الى ابريطانيا فى عهد
ايدوارد الرابع فبعث غير مرة يطلبه فلم يحضر وكان الاسقف ايلى قد سجنته
الدولة وقد اناط ريشارد بحراسته بوكنغام فاستمال الاسقف المذكور
بوكنغام وحمله على ان يشمل هنرى دوريشموند بنظره وينظر اليه بعين

عنايته لاجل خلع المغتصب للمملكة عن الكرسي (اعني ريشارد) وبين له في
هذا المعنى طريقا محققة يتوصل بها الى هذا الغرض وهي أن يجمع الطائفتين
المتخاصمتين بتزويج هنري رشموند ايليزابيطة بنت ايدوارد الرابع البكرية
فتجتمع بذلك حقوق الفريقين التي كانت منذ مدة مديدة منشأ لما حل بانكلترة
من المصائب والنكبات ومع الاتفاق على هذا الزواج لم تلتفت الملكة الارملة
الى ما كان عندها سابقا من الحنق والغيظ بل اغضت عنه والتفتت الى ما حدث
بعد ذلك من سببها والخوض في عرضها وعزمت على الانتقام ممن ارتكب ذلك
ودبرت في هذا المعنى طريقا املت به انها تأخذ بثار اخيها واولادها الثلاثة
فبعثت الى ريشموند مبلغا من الاموال يجند به جنودا من العساكر الاجنبية
فوصل خبر هذه العصبة سرا الى رؤساء الفريقين في جميع اقاليم انكلترة
ولكن تلك العصبة الكبيرة وان بذل اربابها وسعهم في اخفائها وبالغوا في كتمانها
لم تمكث على ذلك مدة طويلة بحيث لا يطلع عليها ريشارد فانه كان بمكان من
الحزم والتبصر فلذا بالتفحص عن امرها وصل اليه خبرها فبادر بالاخذ في
اسباب الاحتراس والتحصن مما يلزم للذب والمدافعة واما بوكنغام فانه
عما قليل جند جنودا في بلاد غالة الا ان توالي الامطار الغزيرة جدا منعه
عن اللحوق بجنوده الآخرين ففزع من ذلك اهل غالة وفترت همهم فتخلوا
عنه فلما رأى ذلك منهم هرب عند رجل كان سابقا من خدم عائلته فوقعوا على
خبره ووجد هنالك وقبض عليه واحضر بين يدي الملك فامر بضرب عنقه فورا
من غير تثبت على ما هو عادة اهل ذلك العصر من الخشونة ويبوسة الطبع وكان
القونتة دي ريشموند قد خرج من مدينة سنت مالو مسافرا ومعه خمسة
آلاف من العساكر ليقابل بوكنغام فهبت عليه ريح عاصفة فلم يصل الى
سواحل بلاد الانكليز الا وقد تبدد شمله وتفرقت جموعه فرجع الى
ابريطانيا

فلم يترتب على هذه المجهودات التي لا طائل تحتها ما كان يقصد منها من اضرار
ريشارد بل كانت سببا في ثباته وتمكنه فلذا عقد مشورة البرلمان التي كان

يخشى بأسها الى ذالك الوقت فسلمت لهذا المفتات المغتصب وبايعته قهرا عنها وتركت الملكة الارملة ما كانت عليه من تلقاء نفسها وسكن غضبها غرورا بما ابداه لها ريشارد من المواثيق والعهود ولكونها ايست من بلوغ امنيتها تركت محلها وتجاسرت على الذهاب الى هذا الطاغية والاقامة تحت قبضته وزيادة على ذلك واعدته بانها تزوجه ايليزابيطة مخطوبة ريشموند مع انه كان متهما بانه سم زوجته الاولى ولم تلتفت ايضا الى كون هذا الرجل الخبيث الفعل هو الذى قتل اولادها الثلاثة فكان ينتظر ورود الاذن من رومة بهذا النكاح ولا زال منتظرا لذلك حتى حصل تغير عظيم اختل به نظام سائر الاشياء على حين غفلة

وذلك أن ريشموند لم يأمن على نفسه فى ابريطانيا لكون احد وزرائها المفسدين المسمى بطرس لنديس اراد أن يقبض عليه ويبعثه الى ريشارد فسافر ريشموند الى ديوان فرنسا ونال من حانة دوبوزو نائبة تلك المملكة بعض اعانات فلما خرج من مدينة ارفلور الاومعه نحو الالفين من العساكر ورسا على مينا ميلفورد فى امارة غالة فجهزله احزابه بها جنودا وعما قليل التقى الجمعان (سنة ١٤٨٥ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٨٩٠ من الهجرة) فى ضيعة بوسوورثة قريبا من ليبستر وكانت عساكر هنرى ريشموند تبلغ ستة آلاف وعساكر ريشارد كانوا ضعفهم تقريبا وفى مبدء القتال انضم الى صف ريشموند الخائن اللورد استنلى وكان اميرا على فرقة عظيمة من عساكر الطاغية ريشارد وكان ريشارد المذكور جسورا فلبأسه لم يعول الا على رأيه فاقتحم الاخطار واخترق الصفوف المحشودة حتى صار بمرأى من عدوه فكر عليه وحمل حملة عظيمة قاصدا بت الامر له او عليه فهجم عليه جم غفير من عساكر ريشموند واشتد عليه الامر فهلك بعد أن ابدى من القوة والشجاعة ما يبهر العقول وانقضت ايامه التى كانت كلها شؤما وشرا بتلك العاقبة التى انتظم بها فى سلك الابطال * وفحول الرجال * وبهذه الوقعة انقطعت مشاجرة الوردتين اى الحزبين وبموته انقرضت دولة

بلانتا

بلاسنا غونيت وبويع القونتة دي ريشموند بالملك ولقب بهنري السابع وابتدأت ولاية العائلة التودورية

الكلام على هنري السابع

ثم ان هنري السابع بعد هذه النصرة المسماة نصرة بوسوورثة ذهب الى لندرة ولبس بها تاج الملك في ٣٠ من شهر اوقطوبر واقرته مشورة البرلمان وصدقت على انه مستحق لحقوق التاج الملوكي وعاقبت بالنفي عدة من اكابر الدولة الذين كانوا في عهد ريشارد الثالث رعاية لخاطره لانهم كانوا مبغضين له وفي سنة (١٤٨٦) ميلادية (المقابلة لنحو سنة ٨٩١ او ٨٩٢ هجرية) تزوج هنري ايليزابيطة التي هي من عائلة ايورقة وكان تأخر هذا الزواج الذي اوجبته السياسة قبل ذلك الى هذا الوقت لبغض هنري المذكور لتلك العائلة التي هي عدوة عائلته وفي هذه السنة جمع اللورد لوويل وهو احد الامراء الذين نفتهم مشورة البرلمان جيشا جرارا يبلغ نحو اربعة آلاف نفس في قونتية وورسستر غير أنه عجز عن الاستمرار على هذا المشروع فانه لما رأى فرقة من جيوش الملك قد دنت منه التجأ الى اقليم افلندرة فادخلته مرغريطة دي ايورقة في حماها وجعلته تحت كنفها وهي اخت ايدوارد الرابع ودوقة برغونيا الارملة

ثم حصلت عصبة اخرى على هنري المذكور كانت اشد خطرا من الاولى وسببها ان هذا الملك كان يخشى من قونتة ورويق وهو الشاب ايدوارد ابن دوق اكلارنسة السيء الحظ لما كان له من الحق في المملكة فسجنه في برج لندرة فشاع على السنة الناس أن قونتة ورويق هرب فترتب على هذه الاشاعة الكاذبة أن ظهر في مظهره بعض المزورين الذين يدعون لانفسهم القضايا ويسهل تصديقها وقت الفتن والشرور والتعصبات ويسر بها المغرض ويأخذها العامة قضية مسلمة وذلك ان شابا يقال له لمبيرت سمنيل ابن خباز كان صغيرا لم يبلغ من العمر الاخمس عشرة سنة فاغراه قسيس من اقليم اوكسفورد يسمى سيمون على أن يتزيا بزي قونتة ورويق مدعيا انه هو والظاهر ان

ارباب هذه العصبة الذين كانوا من اهل الخمول كان يدير عصبتهم فى السر اناس اولو شوكة وان الملكة الارملة هى التى كان عليها مدار تلك العصبة وكان قد حصل لها غيظ مما كانت عليه بنتها من سوء العشرة مع زوجها ومن كون احزاب ايورقة تجردوا عن مناصبهم وحكم عليهم بالنفى وتأثرت من ذلك حسبما اقتضته الشفقة على بنتها والمحبة لحزبها فعزمت على خلع صهرها عن المملكة

فبعثوا فى مبدء الامر سمنيل الى ارلندة وهو اقليم تابع لايورقة وكان هنرى السابع لم يعزل احدا من حكام هذا الاقليم وضباطه الذين قلدهم اسلافه فولى اهل ارلندة هذا الشاب الذى يدعى انه قونتة وروبق وسموه ايدوارد السادس وألبسوه تاج الملك فى دوبلين لما كان لهم من مزيد الرغبة فى هذا الامر الجديد الآتى على وفق مرامهم فانزعج من ذلك هنرى السابع وسجن الملكة الارملة وضبط على اموالها فقضت باقى ايامها فى الاسر والفاقة وبين للانكليز خطأهم حيث اظهر لهم قونتة وروبق الحقيق ومع ذلك استمر اهل ارلندة على الخطا والعصيان وانضم اليهم يوحنا قونتة لنكولن وهو ابن اخت ايدوارد الرابع وريشارد الثالث وامدتهم دوقة برغونيا بالفين من قدماء عساكر المانيا فشن الغارة سمنيل بهذا المدد فى انكلتره (سنة ١٤٨٧) من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٩٣ من الهجرة) فخفقت الهزيمة على جيشه فى مدينة ستوكة من قونتية نوتنغام وكان يقوده قونتة لنكولن فقتل وقبض على سمنيل لكن لم يأمر هنرى السابع بقتله بل استبقى عليه وجعله من جملة خدم المطبخ فى سرايته وبعد ذلك بقليل اناطه بخدمة اشرف من ذلك لما رآه فيه من الاستقامة وحسن السلوك فجعله بازدار (اى يقوم بخدمة طيور الصيد وتعليمها)

الكلام على ما حصل من سنة ١٤٨٨ الى سنة ١٤٩١ ميلادية (اى من سنة ٨٩٤ الى سنة ٨٩٧ هجرية تقريبا)

كانت دوقية ابريطانيا حينئذ مطمح انظار اهل اوروبا وذلك ان دوقها

فرنسوا

فرنسوا اخترمته المنية بعد وقعة سنت أوبين بمدة يسيرة (راجع تاريخ كرلوس الثامن) واعقب بنتا تسمى حانة خلفته على هذه الدوقية فطمع فى زواجها الارشدوق مكسيمليان لغناها وثروتها بهذه الوراثة وادعى الفرنساوية أن لهم حقوقا قديمة فى تلك الدوقية فلم يمكن لاعدائهم أن يتباعدوا عن هذه المشاجرة فتعصب هنرى السابع مع مكسيمليان وفردنند القاثوليقى وبعث للابريطانيين بعض امدادات الا أن حانة دوبوجو وصية الدوقة حانة منعتهم عن ادراك هذا المرام بعساكرها وسياستها وكانت مدخلية سياستها فى ذلك اقوى واعظم وكان قد بلغ مكسيمليان أن حانة دوقة ابريطانيا عزمت على أن تتزوج بكرلوس الثامن وتقاسمه فى ملكه فوكل وكيلا فى العقد عليها وتزوجها

الكلام على ماحصل فى سنة ١٤٩٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٩٨ من الهجرة)

وكانت اعانة هنرى السابع للابريطانيين فى هذا المعنى ضعيفة فلام نفسه على هذا الخطا واراد أن يتدارك ذلك ويجبر مافات والاولى أن يقال ان ذلك منه كان بحسب الظاهر فقط فانه اشهر الحرب مع الفرنساوية قاصدا ان ديوان البرلمان الانكليزى يساعده بمبلغ من الاموال فكان فى الحقيقة الباعث على ذلك الغرض اقوى من قصد قتال كرلوس الثامن فنزل بمدينة كالس ومعه من المشاة خمسة وعشرون الفا ومن الخيالة الف وستمائة وقاتل عدة مرات ثم سعى فى الصلح وانعقدت بين الفريقين مشارطة ايتابلس وبها التزم كرلوس أن يدفع لهنرى ماتأخر من مرتبات ايدوارد الرابع ويدفع كل سنة له ولخلفائه من بعده خمسة وعشرين الف ريال

وبعد هذا الحرب القصير المحمود العاقبة تنغص عيش هنرى السابع وتكدر هدوءه وراحته بما اوقعته دوقة برغونيا من الدسائس والفتن حيث اشاعت ان ريشارد دوايورق واخاه ايدوارد لم يقتلا فى برج لندرة واتت برجل يقال له بركنس وربك وادعت انه ريشارد وكان ابوه يهوديا ثم تنصر

واصله من مدينة طورناى واقام بانكلترة فى ايام ملكها الاخير وكان
بركنس مهذب الاخلاق حسن الطباع حلو اللسان ومثل هذه الاوصاف
تغتر بها العامة وتحملهم على تصديقه بدون توقف فجعلته تلك الدوقة آلة فى
تحصيل اغراضها فبعثته اولا الى ارلندة خفية ثم الى ديوان فرانسا وكان
الحرب وقتئذ قد حان اشهاره بين الفرنساوية والانكليز فتلقى كرلوس الثامن
ريشارد الادعائى بالترحيب والاكرام وابى أن يسلمه لهنرى السابع وقت
انعقاد الصلح بينهما فذهب حينئذ بركنس الى فلندرة واعلنت دوقة
برغونيا انه ابن اخيها واعترفت بذلك على رؤس الاشهاد فسعى هنرى السابع
فيما يقف به على نسب هذا المدعى حتى عرفه وافشى ذلك فى انكلترة ومع ذلك
اتبع بركنس جماعات صدقوا على ذلك لما رأوه فى ذلك من المصلحة لهم
اولكونهم امعة يأخذون الاشياء قضية مسلمة بل انضم الى هذه العصبة عدة من
امراء الملتزمين ثم قبض على بعض افراد ممن كانت تهمتهم بهذا التعصب اقوى
من غيرهم سنة ١٤٩٤ ميلادية (اى نحو سنة ٩٠٠ هجرية) وقتلوا على
المشنقة وفى سنة ١٤٩٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٠١ من الهجرة)
قصد بركنس قونتية كنت وشن الغارة عليها فدافعه اهلها وعاد الى فلندرة
ثم اغار ايضا على ارلندة فلم ينجح كالاغارة الاولى فذهب الى ايقوسيا
فتلقاه ياكس الرابع بالترحيب والاكرام ولاقاه احسن ملاقاة وقبله واحسن
مثواه وزوجه بنت قونتة هونتلى وكانت من ذوات رحمه واقرب الناس اليه
وجند له الجنود وشن الغارة معه على انكلترة واعلن له بالولاية فى جميع الاماكن
التى دخل فيها سنة ١٤٩٦ ميلادية (اى سنة ٩٠٢ هجرية تقريبا)
ولم يترتب على ذلك ثمرة فان ياكس المذكور تخلى عنه وطرده من مملكته
سنة ١٤٩٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٠٣ من الهجرة) ليحظى
بالصلح من هنرى السابع فعند ذلك هام بركنس على وجهه فى بلاد فرنسا
ثم فى ارلندة ثم نزل بقونتية كورنواليس فبعد أن انضم اهلها اليه وصاروا
من حزبه لقب نفسه ريشارد الرابع ملك انكلترة وكان هذا اول لقب تلقب به

وصار

وصار رئيسا على سبعة آلاف مقاتل كلهم مصممون على الاخذ بناصره ومستعدون لتنفيذ غرضه وكان هنرى قد توجه اليه بنفسه لاجل مقاتلته فلما دنا منه دل جبنه وخوفه على دناءته وخسة اصله حيث لم يمكنه أن يحمل على سيده بل فرّ هاربا الى دير بوليو فوقعت المذاكرة في شان اخراجه من هذا الدير فرضى أن يسلم فى نفسه بشرط أن لا يقتل فوضع فى السجن ثم هرب وقبض عليه ثانيا وبعث الى البرج فوقعت المراسلات بينه وبين قونتة ورويق وكان اسيرا مثله فاغراه القونتة المذكور على الهروب فظهر امرهما وصار بركنس بذلك غير اهل للصفح والعفو فحكم عليه بما يستحقه وهو القتل سنة ١٤٩٩ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٠٥ من الهجرة) وفى هذه السنة اراد شخص يقال له ويلفورد كان ابوه اسكافا أن يظهر بمظهر قونتة ورويق فتزيا بزيه وادعى انه هو فترتب على هذا الادعاء الجديد قتل هذا القونتة السيء الحظ وهو آخر عائلة بلانتاغونيت وبقتله تمكنت ولاية العائلة التودورية على المملكة وترتب على هذه القسوة السياسية انقطاع عرق الفتن والتحزبات وصارت ايام ريشارد فى هدء تام لا يشوبها تنغيص ولا تعكير حتى مات وقد كانت قبل مشحونة بالاضطراب والفتن الى ذلك الوقت

ثم انه فى سنة ١٥٠١ وسنة ١٥٠٢ من الميلاد (اى فى سنة ٩٠٧ وسنة ٩٠٨ من الهجرة تقريبا) حصل عقدا نكاح نشأ عنهما حوادث عظيمة اولهما كان لارتور امير غالة على كاترينة دى اراغون وهى رابعة بنات فردينند وايلزابيلة ثم مات عنها بعد ستة اشهر فاكره على تزوجها اخوه الذى تولى بعده على غالة (وسمى من وقتئذ بهنرى الثامن) ثم فسخ هذا النكاح فكانت عواقب ذلك سيئة وثانيهما كان ليا كس الرابع ملك ايقوسيا على مرغريطة بكر هنرى السابع فكان ما توارثه عنها ذريتهما من الحقوق سببا فى استيلاء العائلة الستوارتية على سرير مملكة انكلترة

وكان هنرى السابع ذا دراية بفن الحرب فكان دائما ينجح فى غزواته ومع ذلك فكثيرا ما ظهر منه الميل الى الصلح اما لغرض سياسى او لانه كان يألف

السلم بالطبع فكان مذهبه حسن المعاشرة والاتفاق مع من جاوره من الملوك فقل أن ترى فى ايامه مايعكر الصلح مع الاجانب وقد تدارك بنباهته ما كان يتجدد دائما فى مملكته من الفتن والتحزبات حتى اوقفها اوقطع عرقها بقوة بأسه وردجماح الانكليز بلجام العدل والقوانين وكان من جملة القوانين النافعة التى حدثت فى ايامه قانون يأمر بتتبع القاتل فى ظرف سنة وزيادة يوم اذا طلب الملك ذلك وكانوا اولا لايتتبعونه الابعد مضى هذه المدة فكان يترتب على ذلك عدم العقوبة لان اولياء المقتول واصحابه كانوا يصطلحون مع القاتل ومما حدث فى ايامه ايضا انهم دبروا طرقا ترتب عليها أن دعاوى الفقراء صارت تفصل مجانا ووضعوا قانونا للمعاقبة على الاختطاف والسبى وضيقوا دائرة حقوق الالتجاء (يعنى أن الانسان بعد أن كان له الحق فى الالتجاء الى من شاء ضيقوا عليه وحصروا ذلك الحق فى امور قليلة) ومنعوا الحكام الملقبين بلقب شريف أن يحكموا بالغرامة على المدعى عليه بدون حضوره فى مجلس الحكم فبطل العمل بالقوانين القديمة وابيح للاشراف بيع اراضيهم فكانت فائدة ذلك نقص اموالهم وزيادة املاك الاهالى وقد سعى هنرى السابع فى توسيع دائرة التجارة والصناعة والملاحة فقد ارسل سنة ١٤٨٩ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٩٥ من الهجرة) سبستيان كابوت البنادقى المقيم بمدينة برستول الى جهة الغرب بقصد الاستكشاف والبحث عن ولايات جديدة فاستكشف جزيرة التيرنوب اى الارض الجديدة وتتبع سواحل فلوريدة وكانت ارسالية اوروبا الاولى سببا فى الوصول الى الارض القارة من امريقة واستمر بعض تجار مدينة برستول على ما كان عليه كابوت وكانت نتيجة هذه السياحات استكشافات هينة لم يعقبها استيطان بالدنيا الجديدة الا انها كانت سببا فى ولع الملة بالارساليات الى المحال البعيدة وكفى بذلك فخرا لهنرى السابع فانه يمكن أن يعتبر بذلك أنه مؤسس بحرية الانكليز

ولكن كان فى هذا الامير عيب تدنست به فضائله المبتهجة حيث افضى به بخله

وتسلطن الشهوات عليه الى ظلم الرعية فانه سلب الاموال الميرية وحازها لنفسه فصار في خزائنه اموال جسيمة حملته على الاستبداد بالحكم من غير أن يستعين في ذلك بديوان البرلمان وكان اذا اتفق في بعض الاحيان انه جمع ارباب المجلس العالى ووكلاء الاهالى الذين هم ارباب ديوان البرلمان فانما ذلك لمصلحة ظاهرية باطنها طلب الاموال وجمعها والحامل له على ذلك فرط حرصه وحبه للمال حبا جما وبالجملة فكان لا يخشى تعصب هذه الجمعيات عليه لان قدماء اهل هذا الديوان الذين كانوا مدافعون عن حريتهم تلاشى ما كان فيهم من الحمية بما سفك من الدماء في حرب الوردتين ولم يمكن لاحد من اللورد اى الملتزمين ولا من الاهالى أن يرفع الشكوى في شأن ماوقع من هنرى من الاختلاس والسلب وانما في اواخر ايامه حين دنت وفاته ندم على ما فرط منه حيث لا ينفع الندم (وكان موته في الثانى والعشرين من شهر ابريل سنة ١٥٠٩ ميلادية) (وذلك في سنة ٩١٥ هجرية تقريبا) ولحقه خوف وفزع عظيم من الخزائن التي جمعها بدون حق يسوغ له ذلك فاوصى بصرف جزء منها في الصدقات واعمال البر وأن يرد الباقى لاربابه فلم تنفذ وصيته في الامر الثانى بل ترك لمن تولى بعده وهو هنرى الثامن مبلغا جسيما قدره مليون وثمانمائة الف جنيه فسلك فيه مسلك التبذير والاسراف حيث صرفه في المواسم والحظوظ والانعامات التي لم تصادف محلا

الفصل الثانى

في الكلام على ايقوسيا (من سنة ١٤٢٤ الى سنة ١٥١٣ من الميلاد) (وذلك من سنة ٨٢٨ الى سنة ٩١٩ من الهجرة تقريبا)

اعلم ان انكلترة كان لا يمضى عليها قرن الا ويقع فيها فتنة عظيمة تفضى بها الى التقلب والاضطراب الا انها تكون وقتية يعقبها الانتظام والصلح برهة من الزمان واما ايقوسيا فكان لا يوجد فيها تعاقب الفتنة والهدء كانكلترة بل كانت دائما مختلة الحكومة وكان منشأ ذلك الاختلال حكومة الاشراف المتجاوزة الحد في الشوكة واطلاق التصرف فكان كبار الملتزمين بمنزلة الملوك في اراضيهم

وكانت الحروب تكاد أن لا تنقطع من بينهم بل ربما حاربوا الملك نفسه فانه لما كان ايراده قليلا وليس عنده عساكر منتظمة كانت حكومته مضطربة لا ثبات لها وزيادة على هذا الخلل كانت القوانين غير معمول بها فكان ذلك مسببا فى حدوث العادة الخشنة المسماة بشدة البغضاء وهى انهم كانوا اذا اساء الانسان آخر اوقتله فان اقارب المتعدّى عليه ينتقمون من اى انسان وجدوه من عشيرة المتعدّى من غير التفات الى كون من وقع فى ايديهم له دخل فيما يعاقبونه عليه اولا دخل له فينشأ عن هذا التعدّى الثانى قصاص آخر وهكذا فبذلك صارت العداوة ومحبة الانتقام امرا متوارثا فى العشائر من جيل الى جيل

ثم ان القونتيات الوسطى من هذه المملكة واراضيها المنخفضة وان كانت العوائد فيها لا تبلغ فى الخشونة ما تبلغ فى غيرها الا سيما وبها دار اقامة الملك فشوكته فيها اقوى واحكامه نافذة فيها اكثر من غيرها الا انها كانت محلا للفتن والعداوات الباطنية والمصائب العمومية وكذلك ثغورها واراضيها المرتفعة اى جبالها كانت بها الحكومة فى اشدّ الاختلال وعدم الانتظام وكان هذان القسمان العظيمان (وهما الثغور والجبال) لم يزالا على غاية من التبربر والخشونة فكان اهل الجبال المسمون هجلندرس وهم اقوام يسكنون الهجلندس اى سلسلة الجبال المستطيلة المحتوية على الجزء الاعظم من ايقوسيا الشمالية يمتازون عمن عداهم من تلك الملة باخلاق وملابس ولغة تخصهم فكانوا يتكلمون باللغة الغايلية ولم يزالوا يتكلمون بها الى الآن وهذه اللغة لا يعرفها اهل الاراضى المنخفضة (المسماة لولندس) الذين لغتهم بينها وبين لغة الانكليز اختلاف قليل ثم ان هؤلاء الاقوام كانوا منقسمين الى كلانس اى قبائل كل قبيلة منها تسمى باسم رئيس قديم يعتقد اهلها انه ابو القبيلة بتمامها فقبيلة مال دونلد ومال جريجور مثلا معناه بنو دونلد وبنو جريجور وكان من دأب هذه القبائل انهم يتقاتلون مع بعضهم كثيرا مع الافراط فى ذلك غالبا وزيادة على ذلك كانوا دائما يتحاربون مع اهل الاراضى المنخفضة لكراهتهم اياهم

حميين لهم باسم سكسونية لانهم كانوا تغلبوا على السهول الخصبة التى كانت تنسب لقدماء القلتية وكان عدة من رؤساء هؤلاء الجبليين يدعون لانفسهم جميع المزايا التى تكون للملوك المستقلة وكان اقواهم شوكة يلقب بقونتة روس اى امير الجزائر ولا مانع أن يقال عنه انه حاكم مطلق التصرف على جزائر هبريدة

وكانت الثغور مثل الجبال فى الشقاق وعدم الهدء حيث كان بين اهل هذا الجزء من ايقوسيا المتصل بانكلترة واهل تلك الجبال مشابهة قوية فكانوا مثلهم منقسمين الى قبائل كل قبيلة يحكمها رئيس يخصها وكانت معيشتهم غالبا مما يسلبونه من انكلترة او القونتيات التى فى وسط ايقوسيا وكانوا لا يقومون بواجب القوانين والحكومة الملوكية من الاحترام والاذعان بل كانوا يتنذلون ذلك ولا يعبأون به وقد استمرت ايقوسيا فى ايام الاستوارية على هذه الحالة السيئة لعدة اسباب وهى طمع عائلة الدوغلاسية ذات الشوكة القوية وما كان فى العائلة الحاكمة من الشقاق والتفاقم وكثرة من تولى من القاصرين على المملكة مع ما كان موجودا اذ ذاك من القوانين العادلة التى وضعها ديوان البرلمان لاجل ازالة الخلل اونقصه

وذلك انه لما مات روبيرت الثالث سنة ١٤٠٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٠٩ من الهجرة) كان ولده ياكس الاول مأسورا عند الانكليز ولم يزل فى الاسر مدة ثمان عشرة سنة بعد موت ابيه فكان على ايقوسيا فى هذه المدة حكام بطريق النيابة فتسلطن فيها الاختلال وعدم الانتظام فلما خلص من اسره وعاد الى مملكته سنة ١٤٢٤ ميلادية (اى نحو سنة ٨٢٨ هجرية) شرع فى امر صعب وهو منع النهب والسلب والخلل من بلاده واعادة الامن والاطمئنان والشوكة الملوكية وكانت قد تلاشت بقوة شوكة الاشراف وفعل بحزمه وقوته عدة امور استمال بها قلوب رعيته حتى ركنوا اليه ووثقوا به فخطى من ديوان البرلمان بخلاصة تتضمن أن كل من اخذ فى مدة الحكومات الثلاث الاخيرة ارضا من الالتزامات الملوكية يجب عليه أن يثبت

حقه فيها واعقب هذه الخلاصة التي خشي منها الاشراف على التزاماتهم خلاصة اخرى اضرت بشوكتهم حيث تضمنت أن جميع التعصبات التي اكسبت الاشراف قوة الشوكة على الملك بحيث صار يخشى بأسهم وصولتهم مخالفة للاصول والقوانين فلما تقوّى قلبه بهذا النجاح تجاسر على ما هو اعظم من ذلك حيث امر بفصل دعاوى عدة من الملتزمين وكبار البارونات فثبت أنهم مذنبون وحكم عليهم بالقتل فقتلوا فلحق الاشراف من ذلك فزع شديد وادركهم الرعب من مقاصد هذا الملك فغدروا به وقتلوه سنة ١٤٣٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٤١ من الهجرة)

ولم يكن لولده ياكس الثاني يومئذ من العمر الا ست سنوات فتولى ادارة المملكة مدة قصوره القنجليير كركتون وفي هذه المدة ادخل في ذهنه ما كان عليه والده من اساءة الاشراف واضرارهم ولكن ما كان يريد تنجيزه ياكس الاول على التدريج بطرق صحيحة موافقة للقوانين اخذ كل منهما في تنفيذه بطرق خشنية قاسية وذلك أن غليوم السادس قونتة دوغلاس انتهز فرصة صغر الملك فرفض مبايعته وادعى لنفسه جميع مزايا المنصب الملوكي مظهرا الاستقلال على رؤس الاشهاد فتحيل عليه كركتون حتى حضر الى الديوان ومعه اخوه داود فامر بقتلهما بعد اقامة الدعوى على وجه الهزؤ والسخرية (وكان قتلهما سنة ١٤٤٠ ميلادية) (اى نحو سنة ٨٤٤ هجرية) فلم يكن لهذه الخيانة ثمرة الا بغض كركتون وكراهته عند الناس ولم تنقص شيأ من شوكة الدوغلاسية ولم يكن للملك دخل مع وزيره في سفك دمهما بل بذل جهده في منع القتل عنهما بالترجي والبكاء فلم ينفع ولما بلغ رشده امسك زمام المملكة بنفسه واظهر في مبدء امره الميل للدوغلاسية فجعل القونتة غليوم السابع نائب المملكة لكنه عما قليل فزع من جسارة هذا الملتزم وطمعه الفاحش بتجرده عن هذا المنصب العظيم فتجارى غليوم على حمل السلاح وحرّض على الملك نصف مملكة ايقوسيا تقريبا بتحزبه مع قونتة كروفورد وقونتة روس وبعض بارونات آخرين الا أن غروره اوقعه

في مثل

في مثل ما وقع فيه سلفه غليوم السادس وذلك انه وثق بوعد الملك الذي كان يظهر من حاله الميل الى الصلح وبورقة الامان المختومة بالختم الملوكي فخاطر بنفسه وذهب اليه في قلعة استرلنغ فالح عليه ياكس الثاني أن ينفصل عن عصبة المخالفين فابى وصمم على الامتناع وما كفاه ذلك حتى تكلم مع الملك بكلام لا يليق فعند ذلك بلغ الغضب من الملك منتهاه وصاح قائلا ياميلورد اقسم بالله ان لم تقطع عرق العصبة فهالك الذي يقطعها وطعنه بالخنجر في صدره (سنة ١٤٥٢ من الميلاد) (اى نحو سنة ٨٥٦ من الهجرة)

فعند ذلك رفع ياكس دودوغلاس خليفة القونتة المقتول غدرا اعلام العصيان على الملك واعانه على ذلك جم غفير من البارونات ارباب الشوكة فلحق ياكس الثاني من ذلك حيرة عظيمة وصار لا يدري هل يقاتل هذه العصبة او يترك سرير الملك لخصمه ويهرب الى فرانسا فسكن روعه مطران سنت اندريه حيث قال له ان العصبة التي تخشاها مؤلفة من عدة اصول مختلفة وانه ان شق استئصالها بطريق القوة والقهر امكن حلها بالحيلة والسياسة فعند ذلك اناط الملك جماعة بتدبير هذا الغرض سرا فتحيلوا حتى تقربوا من البارونات المتعصبين واثاروا غيرتهم نحو العائلة الدوغلاسية واغروهم عليها لطمعها وانفتها وقووا شرهم وحرصهم حيث اطمعوهم في نيل التزامات كثيرة المحصول واموال ومناصب يكافئهم بها الملك اذا رجعوا اليه وانضموا الى حزبه فاغتر بعض الملتزمين بهذه المواعيد وبعضهم كان متباعدا عن القونتة دوغلاس لما لحقهم منه من المضرة او لتلون طبعه وعدم ثباته على حالة واحدة فدخلوا في حزب الملك وتخلى عن القونتة حزبه واحتقروه فبحث في انكلترة عن ملجا يلتجيء اليه وضبط على املاكه الكثيرة ووزعت على اللوردية اى الملتزمين الذين كان لهم دخل في نكبته ووقع معظم تلك الاملاك المضبوطة في نصيب قونتة أنغوس فازدادت بها التزاماته لانه انضم الى حزب الملك مع انه من أقارب قونتة دوغلاس

فلما انحطت العائلة الدوغلاسية التي هي اهول عائلة في المملكة راى ياكس الثاني انه بذلك كاد أن يكون مطلق التصرف فحمل ديوان البرلمان على وضع قوانين تعود بالنفع على المنصب الملوكي فكان منها قانون حكم ببطلان ما خرج وما يخرج من الالتزامات الملوكية ببيع اوغيره ورخص للملك أن يسترد متى اراد جميع الاراضي التي خرجت منها بدون اقامة دعوى واوجب على من بيده منها شئ أن يرده الى الملك حتى ما حازوه من محصولاتها ومنها قانون آخر وسع دائرة القضاء في محاكم الملك وحكم بانه من الآن فصاعدا لا حق لشخص في فصل دعوى باراضيه الااذا رضى ديوان البرلمان بذلك وقانون ثالث حكم ببطلان جميع ما اعطى من الوظائف الوراثية منذ مات الملك الاخير وبمنعها في المستقبل وقد نفذ ياكس الثاني هذا الامر المضر بالشوكة الارستوقراطية وعمل به مع القوة العظيمة والاقتدار التام حتى انقضى اجله (سنة ١٤٦٠ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٦٥ من الهجرة) وكان سبب موته أن مدفعا انكسر بجانبه فانفصلت منه قطعة فاصابته وكان ذلك في محاصرة روكسبورغ ولو طالت حياة هذا الملك لكانت ايقوسيا بحسب الظن القوى اول مملكة في اوربا بطل فيها المذهب الالتزامي واضمحلت قوته لانه كان بمكان من البراعة والشجاعة التي توصله الى ادراك غرضه وبلوغ مقصوده.

ولما تولى ياكس الثالث بذل من الهمة والمبادرة في خفض شوكة الملتزمين ما بذله في ذلك ابوه وجده من قبله لكنه لم يكن مثلهما في الاستعداد والمهارة حيث سلك في السياسة مسلكا بعيدا عن الصواب اذ كان مقتضى السياسة أن يبقى للاعيان اول رتبة في ديوانه ويوقع في قلوبهم مهابته واجلاله باظهار الثبات وقوة الجنان لكنه آثر على ذلك طردهم من مجلسه وركن الى اناس اخساء كان يشتغل معهم في قصره المسمى استرلنغ بفن هندسة الابنية والموسيقى وغير ذلك من الفنون التي كانت اذ ذاك قليلة الاعتبار فاغتاظ الملتزمون من نفوذ كلمة هولاء الاخساء المستحدثين الذين كان مشاهيرهم ما بين

بناء

بناء وخياط وصانع اقفال وموسيقى ومعلم الضرب بالسلاح وغضبوا من كبرهم وتعاليهم وظهر الغيظ عليهم وعرفه الناس منهم بتحزبهم مع بعضهم وبما اسروه من الدسائس بينهم وبين انكلترة وغير ذلك من الطرق الموذنة بوقوع الحرب الداخلى حتى دخل فى حزبهم اخوا الملك وهما اسكندر دوق ألبانيا ويوحنا قونتة مار لكن قبض عليهما ياكس قبل قيام العصبة ويقال انه امر بقتل اخيه يوحنا غدرا وسجن اسكندر فى حصن ايدمبورغ فتحيل حتى فر منه الى فرانسا وفى (سنة ١٤٨٢ من الميلاد) (اى نحو سنة ٨٨٧ من الهجرة) عقد ياكس مع ايدوارد ملك انكلترة مشارطة تلقب فيها بملك ايقوسيا والتزم لايدوارد بالمبايعة وأن يكون من عماله اذا هو وفى له بوسائط تمكن هذا اللقب وثباته واتى به الى ايقوسيا دوق اغلوسستر يقود جيشا جرارا ثم ان ياكس خشى على المملكة من اغارة الاجانب فالجأه ذلك الى الاستعانة بالبارونات الذين كان يزدريهم ويحتقرهم فخرجوا باتباعهم وانضموا الى عسكره لكن كانت بغيتهم فى مدافعة العدو عن بلادهم دون املهم فى جبر ما لحقهم من الاساءة والمنقصة ومعاقبة ارباب الدولة المحتقرين الذين كانت وقاحتهم عليهم لا تطاق فادركوا هذا الامل فى المعسكر قريبا من لودير حيث نجزوا اغراضهم مع غاية المبادرة والقوة التى تقتضيها اعمال الحرب والقتال وذلك انهم دخلوا ديوان الملك بالقهر والغلبة وقبضوا على ندمائه وخاصته وخنقوهم فورا فلما رأى ياكس أن الجيش صار لا يليق الوثوق به ولا الاعتماد عليه لعدم طاعته وانقياده اليه صرفه وذهب الى حصن ايدمبورغ فدخله وغلق عليه ابوابه وقصارى امره انه اصطلح مع اخيه دوق ألبانيا ورد له املاكه ومناصبه ثم سلبها منه بعد ذلك بقليل لخروجه عن الطاعة ثانيا واخذ هو ووزراؤه فى اغاظة الملتزمين فاساؤا معاملتهم مرة ثانية واعدوا حرسا مستمرا لحفظ الملك وكان هذا الاحتراس لم يكف فى هذا المعنى فوضعوا قانونا يمنع الدخول بالسلاح فى السراية الملوكية فترتب على هذا القانون منع الدنو من الملك رأسا حيث كان وضعه فى زمن لا يحضر فيه الاشراف عنده الا مع

الاحتفال باتباعهم الكثيرين المتسلحين وازداد تولع ياكس بالخلوة وانهمك على الدعة والبطالة والرفاهية وفوض امر الحكم لاخصائه وقصارى الامر أن ارباب الشوكة من الاشراف عزموا على الانتقام منه فى نظير مافرط منه فى حقهم من الاساآت العديدة فامروا عليهم اكبر اولاده وهو دوق روتزاى بالقهر او باستمالته الى ذلك وكان عمره وقتئذ خمس عشرة سنة واظهروا له بدون محاولة أن مرامهم خلع ابيه عن المملكة فلما استشعر ياكس بهذا الخطر خرج من خلوته وقصد هؤلاء العصاة فانهزم فى واقعة بنوكبورن (سنة ١٤٨٨ ميلادية) (المقابلة لنحو سنة ٨٩٤ هجرية) وادركوه فى الهزيمة فقتلوه

ثم لما رأوا انهم صاروا بقتلهم لياكس عرضة لغضب الناس عليهم وخافوا من الحرمان الذى حكم به البابا على المتعصبين سلكوا فى نصرتهم هذه مسلك اللين والملاطفة ولحقهم من قتل الملك هول وفزع شديد فرأوا ان هذا الذنب الذى ارتكبوه فى حق الاب يكفر بالانقياد والصداقة للابن فاجلسوه فى الحال على سرير الملك وبادر اهل المملكة الى مبايعته

وفى ايام هذا الملك وهو ياكس الرابع كادت تمحى العداوة القديمة بينه وبين الاشراف وقد كان يظهر أنها متوارثة فقد ابقى لهم من الجلالة والرونق ما كان له دخل فى زينة ديوانه وبهجة مجلسه ولم يكن يخشى بأسهم فى شئ بل كان يرى شوكتهم معضدة لمنصبه وعرف بائتمانه لهم ووثوقه بهم كيف يستميلهم اليه ويكتسب مودتهم وقامت له على ذلك ادلة فى حربه مع انكلترة (سنة ١٥١٣ ميلادية) (المقابلة لنحو سنة ٩١٩ هجرية) لاعانة لويز الثانى عشر ملك فرانسا وذلك أن رعيته خرجوا معه وحملوا الاسلحة مع فرط الحمية والحماسة باذلين مهجهم دونه ليحوز الفخار وعلو المقدار ومع أن الحامل له على تلك الغزوة انما كان مجرد شجاعته وميله بالطبع الى الحرب من غير التفات الى مصلحة المملكة ثم ان ياكس هذا لم يعزم اصلا على اضرار الارستوقراطية فى شئ لكنهم اصيبوا فى ايامه بنكبة عظيمة حيث حصلت حادثة على حين غفلة

كانت اضر عليهم مما لحقهم على عهد اسلافه من المكاره التى كانوا يضمرونها لهم وذلك أن هؤلاء الابطال فى واقعة فلودن (سنة ١٥١٣ من الميلاد) التى كانت مشؤومة عليهم كما كانت خالية عن الحزم والتبصر آثروا الهلاك على ترك ملكهم والتخلى عنه لصدق محبتهم له فان اثنى عشر من القونتات وثلاثة عشر من اللوردية وكثيرا من البارونات قتلوا فى تلك الواقعة بجانب ملكهم الذى كان وقتئذ فى غمرات الموت وقد مكث اشراف ايقوسيا مدة طويلة وهم يتأثرون من هذه النكبة ويتوجعون منها غاية التوجع فلو تولى اذذاك على المملكة ملك بلغ رشده لانتفع مما كان قائما بهم من الضعف وخمود الهمة وحظى من ذلك بفوائد جمة لكن لم يكن لياكس الخامس حين خلف اباه عليها من العمر الا سنة واحدة

وكان ياكس الرابع قد تزوج مرغريطة دى انكلترة بنت هنرى السابع وبهذا النكاح انتقل تاج انكلترة الى عائلة ستورات

الباب الرابع
فى الكلام على فرانسا

الفصل الاول
من ولادة لويز الحادى عشر الى استيلائه على المملكة

ولد لويز الحادى عشر بن كرلوس السابع ومارية دى انجو سنة ١٤٢٣ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٢٧ من الهجرة) وكانت ولادته فى زمن مشؤوم على فرانسا حيث كان الانكليز متغلبين على نصفها ويسمون كرلوس السابع المسيء الحظ وينتقصون مقامه ويسمونه ملك برجس استهزاء به فكانت اوائل سن هذا الدوفين (اعنى لويز) اوقات ضنك وشدة (والدوفين لقب لولى العهد من اولاد ملوك فرانسا) لكن لما بلغ فى العمر مبلغا يقدر معه على حمل السلاح اخذت فرانسا فى الانتعاش والخروج من حيز الخراب الى العمار حتى اشرفت على الخلاص من ايدى الاجانب باعانة عجيبة صدرت من اميرة كانت بمكان من الشجاعة فقبض عليها الانكليز واذاقوها العذاب

الاليم ثم قتلوها فهم بذلك فى المعرة والفضيحة الى الابد وكان للويز دخل فى تلك الاعانة لشجاعته وقوة جنانه فقاتل فى محاصرة مونتيرو التى دخل فيها ابوه كرلوس السابع متأخرا ومع تأخره كانت مدخليته فيها سببا فى ازدياد فخار سلطنته ورونق حكومته ولم يكن قبل ذلك يباشر ما يوجب فخارها بل كان يقتصر على مجرد النظر والمعاينة وبعد هذه المحاصرة حضر الامير لويز فى جمعية برجس التى وضعت قانونا يخص المواد القسيسية ثم ابطله لويز بعد ذلك بمدة وقد ابدى فى صغره ما يدل على انه بالطبع يحب الرفعة ويميل الى المعالى فانه بمجرد بلوغه من العمر سبع عشرة سنة اراد التشبث بالحكم وأن يعين الوزراء لابيه وقت الانتخاب وفى سنة ١٤٤٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٤٤ من الهجرة) دخل فى عصبة عقدها عدة امراء من العائلة الملوكية وجم غفير من المتزمين وكان الغرض منها الزام كرلوس السابع بطرد اعيان المشيرين فخرج لويز من الديوان وقامت العصبة ووقع الحرب بين الفريقين ويعرف بحرب براغرية اشارة الى انه وقع فيه من القساوة والفظاعة ما وقع فى حرب الهوسية بمدينة براغة الذى كان اذ ذاك قريب عهد وكان يخشى من حصوله فى فرنسا وكان الانكليز الى ذلك الوقت لم يطردوا من المملكة الفرنساوية بالكلية بل كان لهم بها بقية فلولا المبادرة بابطال هذه العصبة لامكن أن تعود اليهم قوتهم التى كانوا فقدوها منذ عشر سنين وقد زين الملك نصرته على المتحزبين بالاغضاء والحلم فعفا عنهم جميعا وصفح صفحا جميلا

ولم تزل الحروب بين الفرنساوية والانكليز الى سنة ١٤٤٤ ميلادية (اى نحو سنة ٨٤٨ هجريه) ثم وقعت الهدنة بين الدولتين عقب العرض فى شأن زواج هنرى السادس بمرغريطة دى انجو ثم ان كرلوس السابع اراد أن لا يترك عساكره فى الدعة والبطالة وأن يخفف عن رعيته ما كان عليهم من مؤن هؤلاء العساكر ومصاريفهم فشغلهم خارج مملكته فاخذ منهم جملة وسار بها الى صهره رينة دى انجو ملك نابلى وسيسليا ولم يكن له فيهما الا مجرد

هذا

هذا اللقب وكان ايضا قونتة على پرونسة ودوقا على لورينة وكان وقتئذ يحارب اهل متز واخذ الامير لويز من بقى من العساكر وسار بهم لاعانة الايمبراطور فردريق وسيجسموند دوق النمسا على اهل السويسة لانهم بعد أن خرجوا من حكم امراء النمسا ارادوا التغلب على التزاماتهم وكان جيش لويز اربعة عشر الفا من الفرنساوية وثمانية آلاف من الانكليز وكانت الهدنة قد جمعتهم تحت راية واحدة لحقت الهزيمة على اهل السويسة فى سهل بوتلين فطلبوا الصلح وكان فى نفس لويز شئ من الايمبراطور فتذاكر مع اهل الاخطاط السويسية وواعدهم أن لا يكون للفرنساوية دخل بين السويسة وعائلة النمسا

ولما عاد لويز الى فرانسا اراد ثانيا أن يكون له دخل فى ادارة مصالح المملكة لحزب عصبة على الوزراء فامره الملك بالخروج من الديوان وأن يذهب الى اقليم دوفينة فمكث هنالك عدة سنوات (من سنة ١٤٤٧ الى سنة ١٤٥٦ من الميلاد) (اى من سنة ٨٥١ الى سنة ٨٦١ من الهجرة تقريبا)

ومع ذلك صار الملك فى قلق عظيم من غيبة ولده عنه هذه المدة الطويلة وصار يلاطفه ويحسن معاملته مدة مدافعته للانكليز خشية أن ينضم الى العدو وحذرا أن يعظم الشقاق بينه وبينه لكن لما ترتب على نصرتى فورمينى وكستليون انقاذ نورمنديا وغيانة من ايدى الاجانب وكانتا الى ذلك الوقت فى ضنك عظيم من ذل التبعية وفقد الانكليز فتوحاتهم التى خلف البحر واضطرمت بينهم نيران الفتن الداخلية العائدة على فرانسا بالمنفعة من حيث الهدء والراحة سلك كرلوس فى معاملة ابنه مسلك التشديد والقساوة حيث صار من وقتئذ لا يخشى شيأ ولا يخاف عدوا فارسل يطلبه الى الديوان فابى وتكرر منه الامتناع فامر كبانس قونتة ضامرتين أن يتوجه اليه ويقبض عليه فلم ينتظره لويز بل فر الى مدينة بروكسيله ببلاد فيليبش لبون دوق برغونيا فقابله فيليبش مع البشاشة والترحيب واظهر له من المودة ما لا مزيد عليه حتى قال له انى لا امنعك التصرف فى نفسى ومالى كيف شئت

فأناوماملكت يدى معك على ماتريد من خير اوشر فاوالى من توالى واعادى من تعادى ماعدا الملك سيدى وولى امرى (وكان ذلك سنة ١٤٥٦ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٨٦١ من الهجرة) بل سعى فى ايقاع الصلح بينه وبين ابيه فارسل للملك فى هذا الشان غير مرة لكن لم يترتب على ذلك ثمرة لما أن لويز كانت نفسه تأبى الانقياد والامتثال بالكلية وكان دائما يشكى من الوزراء فاثر النفى على ديوان ليس له فيه حكم ولانفوذ كلمة ومكث فى جنيب وهى مدينة صغيرة من اقليم برابنت عينها له الدوق المذكور لتكون دار اقامته فاقام بها خمس سنوات ولم يعد الى فرانسا الابعد وفاة ابيه سنة ١٤٦١ من الميلاد (المقابلة تقريبا السنة ٨٦٦ من الهجرة) وذلك أن كرلوس السابع تراكمت عليه احزان منزلية تتعلق بعائلته وعشيرته فافضت به الى الضنا والسقم حتى تغيرت صحته وتنغصت معيشته وملت نفسه الحياة وصار حزين القلب عابس الوجه ومات وهو فى اشد الكرب الذى تتمزق بمثله قلوب الآباء من عقوق ابنائهم وكان سبب ذلك أنهم اوقعوا فى ذهنه أن ابنه يريد سمه فافضى به هذا الامر الفظيع الى اليأس والقنوط خصوصا وكان قبل ذلك قد ضعف عقله وتشوش ذهنه وترك الطعام حتى مات جوعا

وينبغى أن تنتظم هذا الملك فى سلك الاخيار من ملوك فرانسا وان كانت سيرته تذم بكونه مكث زمنا طويلا لايقاوم شدائد الدهر وصروفه وبانهماكه على التنعم والترفه حين كان انقاذ دولته وشرف منصبه يدعوانه الى التعب واقتحام الاخطار فكان مقيما فى ديوانه على الدعة والبطالة عاكفا على الحظوظ والملاذ فى وقت كان الواجب عليه فيه أن يكون فى وسط العراضى لايبرح عن عساكره وكان اذا ابلغه عدم النجاح فى واقعة من الوقائع صادفه ذلك الخبر غالبا وهو مشتغل بتهيئة موسم اوعيد من الاعياد فانظر كما قال بعض ابطال الشوالرية (متهكما) هل هنالك حظ يفقد فيه الانسان مملكته اعظم من ذلك وبالجملة فكان لاينهض لمقاومة المصائب حين كانت ملازمة له لاتنفك عنه لكن لما اخذ الدهر يتبسم له ويسالمه انتقل على حين غفلة من حال الى حال

وضاهى

وضاهى فى النشاط والشجاعه دنواس وريشموند وهما من اعظم رؤساء العساكر اعانا على انقاذ الدولة اكثر من غيرهما بعد بطلة ووكولرس ذات الهمة والبطاش فطرد الانكليز الى جزيرتهم واخذت فرانسا فى الاستراحة تحت حكم ملك منصور ذى شوكة وحسنت ادارتها وصلح امرها فكان ذلك جابرا لما كان بها منذ ستين سنة من الاختلال والمصائب وكان سبب هذا الاختلال أنه من حين اهملت قوانين الملك كرلوس الخامس التى كان الغرض منها الضبط والربط والتربية العسكرية وصارت نسيا منسيا صار العساكر لعدم تعيين ماهياتهم مصيبة على الملة فى السلم والحرب فكانوا يعيشون على مقتضى اهوائهم واغراضهم فى المدن والقرى التى كانت تعينها الدولة لاقامتهم وعظمت وطاءتهم بالسلب والنهب حتى كأن شرف محاماة الوطن جعل لهم الحق فى ذلك فجبر كرلوس السابع هذا الخلل بوضعه على الناس مغرما مستمرا ينفق بمصاريف هؤلاء العساكر ومؤنهم وانشا خمس عشرة فرقة عسكرية منتظمة كل فرقة منها ستمائة خيال وانشأ ايضا فرقة اخرى تحتوى على اربعة آلاف من الرماة او المشاة وكانت هذه الفرق لا تفارق اللواء اصلا وكان لهم ماهيات معينة وجعل عليهم الملك رؤساء ابطالا ارباب حزم وعزم لهم خبرة بامور الحرب وليسوا من كبار الملتزمين ولا من صغارهم وبالجملة فجعل على كل قرية فى زمن الحرب عسكريا من الرماة معافى من المغرم السابق

وكانت القوانين فى اثناء هذا الاختلال الذى مكث فى الحكومة زمنا طويلا قد فقدت قوتها وتلاشى امرها فكان الاعيان لا يعبأون بها بل تجاسروا على احتقارها وطرحها فى زوايا الاهمال وكانت مزية ارباب الشوكة عدم العقوبة فارهب الملك ارباب الجنايات والجرائم وازعجهم بعقوبات مهولة كانت عبرة لغيرهم فحكم على لوبنارد وبوربون بالموت فوضع فى زكيبة والقى فى النهر وحكم على ملتزم اسبارة فحز رأسه وحكم ايضا على دوق ألنسون بالموت لكونه اتهم بمراسلات الانكليز ثم عفا عنه نظرا لكونه من العائلة

الملوكية لكنه سجنه فى قلعة لوكس واتهم ايضا قونتة درمنيالك بالزناء بمحارمه فخاف من اجراء العقوبة عليه فبادر بالهروب من المملكة وضبطت امواله للميرى

ولا يخفى ان المبادرة الى تنجيز المصالح هى من منابع العدل وثمراته فقد نشر كرلوس فى المملكة اوامر تتضمن عدم التطويل فى فصل الدعاوى لان المذهب الالتزامى كان قد ابطل سلطنة شرلمانيا ونسخ اتحاد قوانينه العظيمة (ومعنى اتحادها انها كانت واحدة فى جميع اجزاء المملكة) فصار لكل اقليم من اقاليم فرانسا عوايد مخصوصة فامر كرلوس بتدوينها لتكون للحكام قاعدة ثابتة يعملون بمقتضاها وتمنع ما يترتب على الضلال او الجهالة من المضار والامور السيئة ولكن اشهر قوانين كرلوس السابع هو القانون القسيسى الذى مكث مدة طويلة وهو مألوف للكنيسة الغلية ومحبوب لديها وسنبسط الكلام عليه عند ذكر حكومة خليفته

(الفصل الثانى)

من تولية لويز الحادى عشر الى مشارطات كونفلان وسنتمور (اى من سنة ١٤٦١ الى سنة ١٤٦٥ من الميلاد) (الموافق ذلك لنحو سنة ٨٦٦ الى سنة ٨٧٠ من الهجرة)

لما مات كرلوس السابع ذهب بمجرد موته الدوق فيليبش لبون واعيان باروناته بلويز الحادى عشر الى فرانسا وصاحبه فيليبش الى مدينة رمس التى تتوج فيها ومسح مسحة الملوك وفى اثناء هذا الاحتفال خر هذا الدوق على اقدام الملك الجديد وتضرع اليه أن يعفو عن جميع من فرطت منهم الاساءة فى حقه فاجابه الى ذلك واستثنى منهم سبعة اشخاص لم يسمهم بل اضمر انه لا يقتصر فى الانتقام على هذا العدد القليل ثم بايعه الدوق فيليبش على الاراضى التى كان قد اخذها من اراضى التاج الملوكى وسار معه الى مدينة باريس فبادر لويز بشفاء غليله من عدوه ونبذ ما ابداه اليه فيليبش من النصائح وسلوك منهج الحلم والرأفة فعزل

القنجليير جنو ينال دزرسين وعدة من ارباب ديوان البرلمان ونفي الاميرال اي قپودان باشا ورئيس الحجاب ومارشالات فرانسا وعزل ايضا اغلب ضباط ابيه واقام بدلهم الضباط الذين صاحبوه الى بلاد الدوفينة وفلندرة وكان يكره القونتة ضامرتين كراهة شديدة لكونه رضي في عهد كرلوس السابع بأمورية خطرة وهي محاربة ولي عهد المملكة (اي لويز) فاقيمت دعوى هذا القونتة وحكم عليه ديوان البرلمان بالقتل لكونهم رأوا أن ما فعله جناية في حق الملك ولكن سامحه لويز وعافاه من القتل وضبط على امواله الجانب الميري ووضعه في سجن بستيلة فقر ضامرتين في مبدء الحرب المسمى حرب المصلحة العامة ولاجل أن يظهر لويز بغضته وكراهته لابيه عفا عن المذنبين الذين كان والده كرلوس السابع قد عاقبهم على جناياتهم حسبما اقتضاه عدله وانصافه فاطلق دوق ألنسون من السجن واعاد قونتة ارمنياك الى منصبه

وكان كرلوس السابع يسلك مع رعيته مسلك الرأفة والملاطفة فلم يضرب عليهم مغارم الا لاجل مصاريف الجلاوزة ولوازمهم وكانت ايرادات الالتزام الملوكي العادية تقوم بمصاريف الملك المعتادة ولاقتصاد كرلوس وتوفيره وجد في الخزينة بعده ٢٥٠٠٠٠٠ فرنك فضيعها لويز في اسرع وقت لان الاموال عنده كانت من اعظم الطرق والوسائل في تنجيز اغراضه السياسية الفاسدة ثم سعى في تحصيل غيرها فضرب على الامة مغارم جديدة كانت سببا في قيام عدة مدن عليه لكنه اطفأ هذه الفتنة بالعقوبات الشديدة

فكانت مبادي حكمه اهانة الاعيان وظلم الرعية وكان دوق برغونيا قد ادرك ما ترتب على سلوك هذا الملك من العواقب السيئة ولم يعمل لويز بنصائحه ومع ذلك كان يظهر له من شعار الثناء والشكر ما لا يحصى ويعلن بذلك على رؤس الاشهاد فكان يقول للناس ان عمي فيليبش له الفضل علي في انقاذ مهجتي من الهلاك فهو سبب حياتي ولما استأذنه هذا الامير في الانصراف انعم لويز على ابنه قونتة كارولة اوكارولس بحكومة

نورمنديا ورتب له معاشا ٣٦٠٠٠ فرنك ولكن كان جل قصده بابداء هذه العلامات الدالة على المودة والمحبة المباهاة والافتخار لا الصداقة وهو وان كان يراعى خاطر هذا الدوق المهول الذى هو احد عماله و يلاطفه ويحسن معاملته الا أنه كان يزعم أنه سيأتى يوم لا يخشاه فيه ولا يستثنيه من عموم التبعية التى كان يريد أن يدخل فيها سائر اعيان مملكته وحيث انه كان منذ قليل قد عاين ما كان يقع من هؤلاء الاعيان من الفتن والتعكيرات وكان له دخل فيها عزم على رد جماحهم ومنعهم من ارتكاب مثل ذلك وصمم على ادخال فيليبش تحت الشوكة الملوكية بحيث تناله احكامه فكانت هذه العزيمة من جملة الاسباب التى حملت لويز على أن يأذن للبابا فى ابطال البرجماتيكة اى القانون القسيسى

وكان هذا القانون الشهير الذى كان مبناه خلاصات مجمع باله قد نشره كرلوس السابع فى مدينة برغس سنة ١٤٣٨ ميلادية (اى نحو سنة ٨٤٢ هجرية) وكان من احكام هذا القانون أن كل مجمع عمومى انعقد بطريق النيابة عن الكنيسة الكبرى له شوكة دينية تفضل شوكة البابا ومنها تقرير حرية الانتخاب القسيسى (بمعنى أن الوظائف الدينية والمناصب القسيسية تكون بالانتخاب من غير توقف على البابا) فمنع البابا حق التقليد على الاسقفيات والاقطاعات وامر أن كل كنيسة تنتخب اسقفها وكل دير ينتخب رئيسه ومنها ابطال الريزروة (وهى خصايص كانت للبابا) والغراس اكسبكتاتيوة (وهى الانعامات المنتظرة بأن ينعم البابا على انسان ببعض اقطاعات قبل موت صاحبها لكن لا يحوزها و ينتفع بها الا بعد موت واضع اليد عليها) والأنات (وهى عوايد كانت للبابا على اقطاعات كبيرة مخصوصة فى نظير فرمانات الاسقفيات والاديار ومقدارها ايراد سنة من محصول تلك الاقطاعات) ومنها أن الدعاوى لا ترفع الى ديوان رومة الا فى صور مخصوصة ومنها غير ذلك وقيد هذا القانون فى سجل ديوان البرلمان وعملت به كنيسة الملة مع غاية الفرح والمسرة لكن كان البابات يجعلونه من الخدش والافتيات

على

على حقوق منصبهم ويعدونه عدوا يلزم بذل الجهد في اهلاكه ولما كان الكردينال اينياس سيلويوس بكولوميني كاتب سر مجمع باله كان يبذل وسعه مع الغيرة التامة في حماية ما يكون به اضرار شوكة البابات من الاصول والقواعد لكنه ندم بعد ذلك وصار يدافع مع الحمية عن مصالح ديوان رومة وتصارى الامر أنه لما ارتقى الى منصب البابا وسمي باسم پيه الثاني عزم على أن يشهر حكمه بابطال هذا القانون وجعل وسيلته في تحصيل هذا الغرض مهارة يوحنا يوفريدى وطمعه وكان اذ ذاك اسقف اراس وكان يطلب منصب الكردينالية متوسلا في تحصيله بدوق برغونيا وملك فرانسا فكتب له البابا پيه الثاني انه ان حمل لويز الحادي عشر على ابطال القانون المذكور كافأه على ذلك بهذا المنصب الروماني من غير احتياج الى الاستعانة باحد من الامراء ثم جعله نائبا من طرفه عند الملك لويز فصار بالتدريج امين سر هذا الملك وكان مما وقع بينهما من الحديث والسمر أن يوفريدى استحسن ما عزم عليه لويز من اهانة اعيان المملكة واذلالهم وأبدى انه لا وسيلة الى تنجيز هذا الغرض الا ابطال القانون القسيسي اذ ببطلانه يخرج عن حزب الاشراف كثير من الاشراقات الذين انتسبوا اليهم بما كان لهم من نفوذ الكلمة في الانتخاب القسيسي فانه بمجرد جعل الانتخاب المذكور موقوفا على وصية الملك به للبابا الذي لا ريب انه يعمل بتلك الوصية ينضم هؤلاء الاشراقات الى الملك دون غيره وقد انضم الى ما ابداه له يوفريدى في هذا المعنى من المقتضيات الآتية على وفق مرامه من نسخ جميع ما صنعه ابوه وابطاله بالكلية طمعه في كونه يحصل لعائلة انجو مملكة نابلي التي كان ألفونس دي أراغون افتات عليها وسلبها من رينة دي انجو (راجع تاريخ ايطاليا) ثم تولى عليها بعده فرديننده وكان متخلفا من مائه بدون نكاح صحيح والذي ولاه عليها هو البابا پيه الثاني فطلبها لويز الحادي عشر ليوحنا دوق كلابرة بن رينة وبعث الاسقف يوفريدى الى البابا واوصاه انه لا يبت امرا بدون هذا الشرط وهو رد تلك

المملكة ليوحنا المذكور وقد اغتر لويز بما ابداه اليه يوفريدى من البراهين الصورية حيث افهمه أن المبادرة بابطال القانون القسيسى هى ما يلزمه بذله فى شراء منصب الملك على نابلى ليوحنا امير انجو ويكون ذلك مستندا فى ايثاره بها على غيره واغتر ايضا بمخادعة البابا له فى كتاب اكثر له فيه من المدح والثناء على ابطال القانون قبل وقوعه فالتزم لويز بابطاله التزاما لا يمكن الرجوع فيه ولما صار لا يمكنه الاحجام عما التزم به وسلم للبابا المذكور نسخة القانون الاصلية ارسل له فى نظير ذلك سيفا مباركا فكان هذا السيف بمفرده هو ثمرة تلك الخسارة التى تأثرت منها الملة الفرنساوية والكنيسة الغلية حيث لم يتعرض البابا للعائلة انجو بالكلية ولم يتنوه فى شأنها بشئ اصلا فارسل اليه لويز ارساليتين يترجيانه فى تقليد تلك العائلة بحكومة مملكة نابلى فلم يترتب على ذلك ثمرة

فعند ذلك بلغ الغيظ من لويز منتهاه وعزم على اعادة القانون واجراء العمل عليه ثانيا خصوصا وقد كان بطلانه محرضا للقسوس وديوان البرلمان على مراجعة الملك فى هذا الامر ولومه على ذلك لكنه خشى أن يشتهر عند الناس بالطيش والخفة فامتنع من اعادته جهرة على رؤس الاشهاد وانما امر ارباب ديوان البرلمان سرًّا بالعمل عليه الا فيما يخص مزايا البابا المسماة ريزروة وغراس اكسبكتاتيوة وبالجملة فقد مكث هذا القانون الشهير اكثر من نصف قرن وهو مضطرب لا يثبت على حالة واحدة واستمر كذلك حتى بطل فى ايام فرنسيس الاول ترجيحا لجانب المصالح السياسية المتعلقة بالامور الدنيوية وايثارا لها عليه وقام مقامه الكونكوردات (وهى معاهدة وقع عليها الاتفاق بين البابا ليون العاشر والملك فرنسيس فى شأن التقليد بالاقطاعات الكردينالية بمملكة فرانسا)

ولما انقضت هذه المداولات والتدبيرات وسافر لويز الى طورس سنة ١٤٦٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٦٧ من الهجرة) ليفصل فيها مع فرنسيس الثانى دوق ابريطانيا دعاوى كان فيها مشاجرة

ونزاع

ونزاع وان بقي بتها الى وقت آخر سافر بعد ذلك الى بلاد نوار السفلى ليعقد مع يوحنا الثاني ملك اراغون شروطا على ما كان يطلبه منه هذا الملك من المدد والاعانة لاجل قمع القتالونية لكونهم خرجوا عن طاعته (راجع تاريخ اسبانيا) فوقع الاتفاق بينهما على أن لويز يعطيه الفا ومائة رمح وأن يوحنا يدفع اليه ثمنها ثلثمائة الف من نقود الذهب بعد ادخال القتالونية تحت الطاعة واعطاه قونتيتي روسيليون وسردانية رهنا على هذا المبلغ

وكانت انكلترة اذ ذاك في غاية الضنك والضيق مما كان واقعا فيها من المخاصمة بين عشيرتي ايورقة ولنكسترة (راجع حرب الوردتين) فان مرغريطة دى انجو التي كانت لا تكل ولا تمل بعد أن انهزمت في انكلترة ولحقها الضجر والسآمة في ايقوسيا ذهبت الى فرانسا وبذلت جهدها في استمالة لويز الحادى عشر الى حزب هنرى السادس فلم تنل منه عشرين الف ريال على سبيل السلف الابشق الانفس ومثل هذا الاسعاف لا يليق بامثالهما من عظماء الملوك فجمعت بهذا المبلغ فرقة من العساكر تبلغ الفين واجتازت البحر ثانيا بهذا الجيش الصغير وجمعت اللنكسترية وعقدت الحرب في اكزام لتنظر بختها في هذه الواقعة فكانت كغيرها من الوقائع على خلاف مرامها حيث حكم عليها ثانيا بالقتل فهربت ومكثت تنتظر من الدهر والفرص ما ضن به الملوك عليها من الاسعافات والوسايط

وفي مدة ما كان لويز الحادى عشر لا يلتفت لما حل بمرغريطة من المصائب كان متيقظا لملاحظة ما في اسبانيا من الفتن والتعكيرات لانه كان يؤمل انها تعود عليه بالنفع اكثر من الشقاق الواقع في انكلترة وذلك أن ملك اراغون بعد أن عاقب القتالونية على عصيانهم اراد أن يحارب بالعساكر الفرنساوية هنرى الرابع ملك قسطيلة لانه اعان القتالونية على العصيان فامتنع لويز من نقض المعاهدة القديمة التي كانت بين الفرنساوية واهل قسطيلة وطلب أن يكون واسطة في انهاء المشاجرة

وقطع النزاع من بين الملكين (راجع تاريخ اسبانيا) فانعقدت بينهما فى مدينة بيونة مشارطة بها نزل هنرى عن جميع دعاويه فى نوار وقشالونيا على أن يدفع له يوحنا خمسين الفا من نقود الذهب وطلب يوحنا مدينة استلا واراضيها فحكم بها لويز لهنرى ومع ذلك لم ينل لنفسه اقليم بسكاية الذى كان قد طلبه ثانيا من جدته العليا وهى ماريه دى اسبانيا وكان له به مدخلية ومصلحة فى تلك المشاجرات وبعد هذه المشارطة التى لم تكن على مرام عاقديها وانفسخت بعد قليل من الزمن ذهب كل من لويز وهنرى الى ثغور مملكته ليستمرا على المداولة فى شأن هذه المشارطة فلم يشعرا الا وقد وصلا الى سواحل نهر بيداسوة وكانت هيئة احدهما الساذجية الخالية عن الزينة والرفاهية تباين هيئة الآخر فى رونقها وبهجتها قال كومينة ان لويز الحادى عشر كان لا يعتنى بامر الملابس ولا بالزينة وتحسين الهيئة بل كان يلبس ادنى الملابس انتهى وقد ظهر فى هذه المرة لابسا كسوة من الجوخ الغليظ وعلى رأسه برنيطة قديمة ليس بها من انواع الزينة الا تمثال من الرصاص على صورة نوتردام (اى السيدة مريم) وكذلك كان جلساؤه وخاصته فكانوا امثاله لا يتنافسون فى شأن الملابس الفاخرة وانما كانوا على هيئة عسكرية بخلاف هنرى الرابع فانه اقبل فى ارباب ديوانه مع الابتهاج والابهة الملوكية فتلاقى الملكان ولم تطل بينهما مدة الاجتماع بل تفرقا غير مسرورين من بعضهما وشربت رعية كل منهما مشرب راعيها فصارت كلتا الامتين تحتقر الاخرى هذا والظاهر أن هذه المقابلة لم تكن منشأ لما وقع بين الفرنساوية والاسبانيول من العداوة التى مكثت بينهما مدة قرنين ولا مبدأ لزمن تلك العداوة وان قال بذلك الجمهور اذ لا ينبغى بناء الحوادث المهمة على اصول باطلة متى امكن حملها على اسباب عظيمة مقبولة فان هذه العداوة لم تقع بين هاتين الملتين الا حين ضم الملك فرديننداند القاثوليقى الى حكومته مملكتى اراغون وقسطيلة فمن يومئذ زالت محبة اسبانيا لفرانسا حين صارت اسبانيا توازيها وتعادلها

وكان

وكان كل من الملك وقونتة كاروله يكره الآخر بالطبع وظهرت كراهتهما لبعضهما حين كان الملك مقيما في فلندرة ولما جلس على سرير الملك ظهر منه أنه ظفر بهذه الكراهة الطبيعية وغلبها حيث اراد ابقاء المعروف وحفظ الجميل مع هذا القونتة فقلده حكومة نورمنديا وكان يمكن اعتبار هذا الانعام علامة على المحبة او الصلح لولا ماوقع من هذا القونتة البرغوني فيما بعد من غضبه من الملك لكونه بعث اليه دوق ابريطانيا معاونا له في الحكومة فنزل من وقتئذ عن هذا المنصب وتركه ازدراء به واحتقارا وتمكنت منه كراهة الملك وصار لا يبحث الاعما يؤذيه و يضره مدعيا أنه اساءه وقد اتفق أنه كاد يتعاطى السم فاتهم لويز الحادي عشر بأن هذه الخطيئة انما كانت بسببه واغرائه وازدادت تلك الكراهة التي نشأت عنها هذه التهمة الفاحشة بما بذله هذا القونتة من المجهودات العديمة الجدوى في منع رد المدن التي على نهر السوم عملا بمقتضى مشارطة اراس وذلك أن دوق برغونيا كان قد انتهز فرصة ماحل بكرلوس السابع من الضيق والضنك فحمله بمقتضى هذه المشارطة التي انعقدت سنة ١٤٣٥ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٤٩ من الهجرة) على أن ينزل له عن عدة مدن بعضها على شاطئ نهر السوم من منبعه الى البحر المحيط كمدينة سنت كنتين و كوربيا و اميانس و ابويله وغيرها وكان من جملة شروط تلك المشارطة أنه يمكن فداؤها باربعمائة الف من نقود الذهب فطلب لويز الحادي عشر هذه المدن على أن يدفع هذا المبلغ المتفق عليه وكان لا يظن أنه يحصل في ذلك توقف ولا معارضة فأبى ذلك قونتة كاروله (وهو ابن فيليش لبون دوق برغونيا) وعارض في اجراء المشارطة المذكورة معارضة كلية غير أن انطوان دوكوروا وكان ممن يثق بهم فيليش لبون كان مع لويز الحادي عشر سرا فابدى لهذا القونتة ماظاهره النصيحة والاستقامة وباطنه الغش والخداع حتى حمله على العدول عن نقض تلك المشارطة الشهيرة ونجح في مقصوده

ولما تفرغ الملك الى مشاجراته مع دوق ابريطانيا ولم يكن هناك مايشغله عنها اخذ ثانيا فى تجديد المداولة فى هذا المعنى بعد أن كانت قد تعطلت سابقا فبعث كل منهما وكلاء الى طورس وكان اهم المواد التى انعقدت لاجلها المذاكرة (سنة ١٤٦٤ ميلادية) (اى نحو سنة ٨٦٩ هجرية) هو ما كان يدعيه الملك لنفسه ويزعم أنه من حقه من مبايعة هذا الدوق له وما كان يدعيه الدوق المذكور من التلقب بلقب دوق بعون الله وكذلك حق الريغال (وهو كناية عن كون الحاكم يأخذ محصولات الاسقفيات والاديار الخالية عن الرئيس ويجهز فى نظير ذلك مدة خلوها ما يلزم لاقطاعاتها من الادوات واللوازم) ولكن اراد فرنسيس الثانى (وهو دوق ابريطانيا المذكور) أن يسلك فى ذلك مسلك التأنى والتراخى فذهب اليه لويز الحادى عشر على حين غفلة فلم يشعر فرنسيس الا والعساكر الفرنساوية على ثغور ابريطانيا فمنعه لويز من وضع السكة باسمه ومن قبول مبايعة القسوس والاحبار واستعمال الحقوق الالتزامية المتنوعة التى تؤدى الى الخدش فى المزايا الملوكية فامتثل لذلك قهرا عنه ولكن لما جزع من ذل التبعية التى ألزمه بها الملك ولم تطق نفسه ذلك تجهز واستعد للتخلص منها فبعث سرا ارسلا يحرضون من كان من العمال متضررا من لويز الحادى عشر وخائفا من اطلاق تصرفه على القيام والخروج عن الطاعة فلما بلغ الملك هذه الدسائس عزم على معاقبتهم لكنه اراد أن يظهر فى ذلك بمظهر العدالة اكثر من مظهر الغيظ وهوى النفس فجمع فى طورس (فى شهر دقبر سنة ١٤٦٤ من الميلاد) جمعية كانت مؤلفة من ملك سيسيليا ودوقات بيرى و اورليان و بربون و نيور واعيان ملتزمى المملكة واظهر أنه يريد جعلهم حكما بينه وبين دوق ابريطانيا فاظهروا له ايضا أنهم يلومون هذا الدوق على ماوقع منه وانهم مستعدون لبذل مهجهم واموالهم فى خدمته واعانته على هذا العامل العاصى فلما بلغ فرنسيس الثانى ما اضمره الملك سعى فى تدارك هذه الفتنة حتى تمكن من نكاية الملك مع السهولة وصار يلاهيه ويشاغله

بمداولاته

بمداولات خداعية وهو مع ذلك مستمر على ما كان عليه من دس الدسائس والقاء الفتن وأبدى مالا مزيد عليه من النشاط والهمة لاجل تكثير اعداء لويز ولم يأل جهدا فى كونه يلقى فى اذهان الاعيان أن مقصد الملك استعبادهم واذلال الاشراف وأنه يعامل بالسلب والنهب كل ذى شوكة وشجاعة اراد معارضته فى اطلاق تصرفه وقوة شوكته التى اتسعت دائرتها حتى كادت تعم سائر الاشياء فنشر بين الناس وفسر لهم بعض كلمات من فلتات لسان الملك وان كانت عادته كتمان ما فى ضميره فمن ذلك ما حكى عنه أنه قال ان دوق اربطانيا ليس له الى الآن شوكة كافية وان دوق برغونيا ليس الا من آحاد الرعية وانى لاعرف كيف اقمع عاملى فرانسا الكبيرين اوعمالها الثلاثة الكبار واذيقهم ذل التبعية انتهى وكانت افعاله تؤيد هذه العبارة المنقولة عنه فانه منذ جلس على سرير الملك اخذ فيما يدل على كراهته للملتزمين والاعيان وأنه يريد اضعاف شوكتهم حيث عزل وزراء ابيه وابطل ما كان للملتزمين من نفوذ الكلمة فى الانتخابات القسيسية بابطاله للابرجاتيكة اى القانون القسيسى وجرّد قونتة كارولة عما كان له من الحظوة والقبول لديه مع انتقاصه وسبه وصدرت عنه اوامر تمنع جميع الاشراف من أن يكون لهم حق فى الصيد والقنص وقصر ذلك على نفسه وآثر بمجالسته ومنادمته اصاغر الناس ورعاعهم على اكابرهم واعيانهم فعما قليل تعصبت عليه عصبة انضم فيها الى دوق اربطانيا وقونتة كاروله دوقات بربون و ألنسون و نيور و كلابرة وقونتة ارمنياك وقونتة دونواس و سيرد البيرت (اى ملتزم مدينة ألبيرت) واعظم رؤساء المملكة مثل ضامرتين الذى فرّ من سجن بولى و مارشال لوهياك وكثير من الملتزمين الا أن دوق برغونيا (فيليبش لبون) كره أن يعكر بهذه الفتنة ايام هرمه وشيخوخته وراحة اقاليمه و بلاده فكان ذلك بمفرده سببا فى تعطيل هيجان تلك العصبة وعدم اضطرام نارها ولكن لوهنه بالكبر والهرم غلب عليه الحاح ولده (قونتة كاروله) فاجابه لما طلب وكف

عن المعارضة فعند ذلك قامت الحرب على ساقها
وقد ادخل المتعصبون فى زمرتهم اخا الملك (وهو كرلوس دوق بيرى)
وواعدوه بتزوج ماريه دى برغونيا بنت قونتة كاروله ولم يكن له بنت
سواها وأفهموه أنهم يجعلونه رئيسا على العصبة لانها تقوى باسمه و يشتد
بأسها بانسبتها اليه وكان كرلوس المذكور قد منحه الله تعالى من الوجاهة
والمحاسن الظاهرية مايدهش ابصار الرعية الا أنه كان ضعيفا مجردا عن الحزم
والتبصر حتى كأنه لم يخلق الا للموافقة على الخروج والقيام وليكون آلة
للمتعصبين فكان من امره أن ليسكون وكان عينا للدوق فرنسيس الثانى
يتجسس له الاخبار سلك معه مسلك المخادعة والتحيل حتى استماله الى الدخول
فى العصبة فهرب من الديوان وذهب الى ابريطانيا ونشر فيها اعلاما يتضمن
القدح فى الملك وكان هروبه علامة على الخروج والعصيان حيث قام المتظلمون
واظهروا العصيان وتستروا فى قيامهم بامر مقبول حيث سموا انفسهم عصبة
المصلحة العامة حتى لاتظهر مطامعهم واغراضهم ولم يكن للملك حليف
الا فرنسيس سفورس دوق ميلان وكان الملك قد نزل له فى السنة
الماضية عن جنويزة فأمده فرنسيس ببعض عساكر وكان يتراآى
من هذه العصبة المهولة أنها تقصم ظهره لكنه شمر عن ساعد الجد والاجتهاد
فى الحزم والنشاط فقاوم هولها ومانع خطرها حيث تمكن من المدن بوضع
المحافظين الماهرين ولم يعول على الاشراف فعما قليل جعل تلك المدن على حالة
بحيث يمكنها المدافعة عن نفسها الاسيما كرسى المملكة بل اراد بعضها أن يتحصن
وتكون مصاريف التحصين على طرفه وسلك الملك فى احتراساته مسلك التدبر
والحزم حتى صارت اقاليمه الامينة آمنة مطمئنة ثم سار بجيشه الى اقليم بيرى
وكان للعصاة فيه قوى عظيمة فظفر عدة مرات لكنه جبر على عدم الاستمرار
على ذلك حين بلغه أن دوقى بيرى و ابريطانيا اقلعا فى نهر لوار بجيش
جرار وأن قونتة كاروله متوجه ايضا ومعه ثلاثون الفا من العساكر
وأن هؤلاء الامراء قد عزموا على الاجتماع أمام مدينة باريس فارتحل

الملك

الملك عن اقليم بيرى وقصد كرسى المملكة وكان يحث السير و يقطع مراحل عظيمة كى يمنع البرغونيين والابريطانيين عن الاجتماع وكان قونتة كاروله قد وصل الى اسوار باريس ووعد اهلها بابطال المغارم اذا هم فتحوا له ابوابها فامتنعوا من ذلك فصمم على فتحها عنوة فقاوموا اسلحته ودافعوها كما دافعوا وعده بالرد وعدم القبول فوجد الملك فى تلك المدافعة العظيمة فسحة يأتى فيها اليهم لينقذهم من هذا الخطب فلما بلغ قونتة كاروله أن الملك قادم سار الى قتاله حتى وصل الى مونتلهيرى فوقعت بينهما هنالك وقعة لم يثبت بها الامر (فى الخامس من شهر يوليه سنة ١٤٦٥ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٨٧٠ من الهجرة) بل أعقبها أمر غريب وهو هروب الجيشين وذلك اما لكون عساكر الفريقين نسوا فن الحرب من طول مكثهم فى الهدء والراحة منذ طردوا الانكليز واجلوهم عن بلادهم واما لما شاع على الالسنة من موت قائدى هذين الجيشين حيث اوقعت تلك الاشاعة فى قلوب الفريقين رعبا دهمهم على حين غفلة بلا مقتض ولا موجب ثم ان الملك رجع بعد ذلك الى باريس وذهب منها الى نورمنديا ليجند فيها الجنود والعساكر وكان قد استمال اهل باريس اليه بالكلية واستولى على قلوبهم بتنزله لهم ومراعاة خواطرهم حيث كان فى مدة اقامته بها يدنى بعضهم اليه و يجلسه معه على المائدة وابطل اغلب المغارم وضم الى مشورة الدولة ستة من الاعيان وستة من ديوان مجلس البرلمان (مجلس وكلاء الملة) وستة من مجمع العلماء فلما ارتحل عنها الى نورمنديا حوصرت فى غيبته ثانيا وامتنع اهلها ايضا من فتح ابوابها ولم يلتفتوا الى التهديد بهجوم عساكر العدو دفعة واحدة واخذ مدينتهم عنوة ولم يكترثوا بذلك

فكان ثباتهم فى هذه المرة سببا فى حفظ المملكة للويز الحادى عشر وطالما كان هذا الملك يقول انه منذ استولى الامراء على باريس (بمحاصرتهم لها) لم يبق لى وسيلة الا الذهاب الى السويسة او ميلان ولكنه عما قليل عاد الى حماية هذا التخت ومعه اثنا عشر الفا من العساكر فكانت له

النصرة فى اغلب المصادمات التى ازدادت واشتدت من حين رجوعه ومع ذلك فكان جل تعويله فى انهاء الحرب على سياسته دون اسلحته فانه كان يقاتل ويسعى فى الصلح فى آن واحد وكانت العصبة يومئذ فى تفاقم وشقاق لما كان واقعا بين اربابها من المنافسة السرية والغيرة التى هى عادة من آفات التعصبات والتحزبات فلخشيتهم من أن عصبتهم عما قليل تنحل ويبطل امرها على وجه يورثهم الخزى والمعرة قبلوا من الملك ما عرضه عليهم فى شأن الصلح فاقام كل من الطرفين وكلاء واخذوا فى المداولات والمذاكرات ومن وقتئذ ظهر أن المصلحة العامة ليست الا مصلحة خصوصية ومكثت المناقشة والمشاحنة بين الفريقين مدة طويلة ثم عقد الملك مشارطتين كل على حدتها احداهما مشارطة كونفلانس وكانت مع قونتة كاروله وحده (فى الخامس من شهر اوقطوبر) والثانية مشارطة سنتمور وكانت مع غيره من الامراء المتعصبين (فى التاسع والعشرين من الشهر المذكور) ونزل الملك للقونتة فى المشارطة الاولى عن مدن نهر السوم على أن له الرجوع فيها اذا افتداها منه بمأتى الف ايكو من الذهب (وهو نوع من النقود) ونزل له ايضا لكن بدون شرط عن قونتيات غينس و بولونيا و پيرونة ومونت ديديير وسمح لاخيه فى الثانية اعنى مشارطة سنتمور باقليم نورمنديا على سبيل الاقطاع وانعم على غيره من المتعصبين بانعامات مختلفة قلة وكثرة من اموال واراض فكان ما ناله قونتة سنت پولس نديم قونتة كاروله هو أن تقلد بسيف الكونيتابل (وهو كناية عن امارة الجيوش) ورتب له الملك معاشا يبلغ ستة وثلاثين الف فرنك ثم تكلموا فى شأن المصلحة العامة على وجه مبهم وعقدوا لاجلها بمدينة باريس مجلسا كان اعضاؤه ستة وثلاثين من الاعيان وكان ذلك فى سنة ١٤٦٦ ميلادية (اى سنة ٨٧١ من الهجرة تقريبا) متعللين بأن ذلك من الاعتناء بشأنها والاهتمام بامرها غير أنهم لم يتوانوا فى ذلك امرا وحاشا أن يتصدوا لاحداث اصلاح فى المملكة يعود على الاهالى بالنفع والتخفيف بل لم يزد الرعية الا مذلة ومقتا ليشفوا بذلك

غليل

غليل اطماع حماتهم الصوريين وانصارهم الظاهريين فلذا التفتوا الى الواقع وسموهم عصبة المضرة العامة لا عصبة المصلحة العامة

(الفصل الثالث)

من مشارطتى كونفلانس و سنمور الى موت دوق غيانة (اى من سنة ١٤٦٥ الى سنة ١٤٧٢ من الميلاد) (الموافق ذلك لنحو سنة ٨٧٠ الى سنة ٨٧٧ من الهجرة)

وقد ترتب على هذا الصلح الاخير نقصان ايرادات التاج وزيادة تكاليف المملكة فقد بلغت مرتبات المعاش فى سنة ١٤٦٥ ميلادية ١٠٨٥٦٤ فرنكا وفى سنة ١٤٦٦ ٢٦٦٩٠٠ فرنك وزيادة على ذلك ترتب على نزول الملك لامراء العصبة عن البلاد السابقة أن فرنسا صارت من وقتئذ مفتوحة من سائر الجهات وعرضة لاغارات البرغونيين والابريطانيين والانكليز وذلك أنه بنزوله عن نورمنديا لدوق بيرى لم يبق من ثغور المملكة الامدينة باريس تقريبا هذا ولم يكن لويز الحادى عشر وضع القرار على هذه المشارطة الصعبة عن طيب نفس وخلوص نية وانما قصد بوضع امضائه عليها ايقاع التفاقم والشقاق بين ارباب العصبة فانه من وقتئذ كان عازما على فسخها وعدم العمل بها فكان ينتظر فرصة لهذا الغرض حتى وقع بين دوق ابريطانيا ودوق نورمنديا الجديد نزاع واضطراب فتحققت بذلك الفرصة التى كان ينتظرها فعند ذلك دخل اقليم نورمنديا وحاصر مدينة روان بجيش من عساكره وكان وقتئذ يخادع دوق ابريطانيا باظهار المودة ودلائل المحبة وباقراره على عدة مزايا وخصايص مهمة فلم يمكن لاخى الملك (وكانوا قد اخذوا اذ ذاك فى تلقيبه بلقب مسيو ومعناه السيد) أن يجاب الى ماطلبه من دوق كاروله من المدد والاعانة لان هذا الدوق يومئذ كان مشغولا بمحاربة مدينتى دينت و لياجة وكانتا قد خرجتا عن طاعته فرغب المسيو فى الصلح مع دوق ابريطانيا ولكن كان الوقت قد فات فلم يحمل هذا الدوق السلاح من اجله بل اكتفى بايوائه فى بلاده فاسرع

لويز الحادى عشر فى تتميم فتح اقليم نورمنديا فانضم هذا الاقليم العظيم ثانيا الى اراضى التاج بعد أن انفصل عنها بعدة اسابيع
ومع ذلك كان لويز فى قلق من جهة اخيه فكان يرى أن مكثه فى قبضة اعداء المملكة بمثابة آلة مهيأة للاستعمال على الدوام وعما قليل حدثت اسباب اخرى اوجبت قلقه وغمه وذلك أن فيليش لبون دوق برغونيا مات فى الخامس عشر من شهر يونية سنة ١٤٦٧ ميلادية (الموافقة لنحو سنة ٨٧٢ هجرية) بعد أن حكم خمسين سنة وخلفه دوق كاروله الذى اشتهر باسم كرلوس المجازف اوالمهول وكان من طبعه التلون وعدم الثبات فمن ثم انقطع امل لويز فى دوام الصلح واستمراره ومثل هذين الاميرين القويين اللذين كان كل منهما يغار من صاحبه منذ مدة مديدة لا بد وأن يكون عندهما اسباب توجب العداوة والشقاق بينهما وقد عزم لويز على أن ينيط وكلاء المملكة بتعيين اقطاع لاخيه اذا قل ماهنالك أن فى ذلك قطعا لما عسى الاعداء أن يتعللوا به من تغرب المسيو وكونه عرضة للضنك والضيق وكانت جمعية طورس التى انعقدت سنة ١٤٦٨ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٧٣ من الهجرة) منقادة لاوامر الملك وممتثلة لأحكامه وكانت ايضا تراعى مصلحة المملكة فلذا اعلنت بأن اقليم نورمنديا ينضم الى اراضى التاج ولا ينتقل عنها وأن للملك أن يستند الى ترتيب كرلوس الخامس فى تعيينه لابناء ملوك فرنسا اقطاعات من الاراضى يبلغ ايرادها ١٢٠٠٠ فرنك لكن حيث انه عرض على اخيه كرلوس أن يرتب له مايبلغ ايراده ٦٠٠٠٠ فرنك تترجاه أن يعقد لذلك بندا ينبه فيه على أن ترتيب هذا المقدار لاعبرة به لئلا يتعود بذلك ابناء الملوك على اقطاعات تنفد بها ايرادات الدولة وكان دوق اربيطانيا قد استولى بطريق النيابة عن المسيو على بعض حصون من نورمنديا فليم على هذه الفعلة وعد ذلك منه ذنبا عظيما فبناء على ذلك اشارت الجمعية المذكورة على لويز بأنه متى تجاسر هذان الاميران على التعدى ثانيا فله أن يخاصمهما ويحاكمهما فكان ذلك الاعلان الذى كان باغراء الملك

وحث

وحث الجمعية عليه دليلا على أن الصلح صار قريب الانفساخ والنقض ولم يعبأ بذلك دوق ابريطانيا ولم يداخله منه خوف ولا رعب بل فعل ما يوجب الفسخ بتعديه غير مرة واستعد لذلك بعقده مع الانكليز مشارطة تتعلق بالتجارة والتعصب على فرانسا بحيث يكونون معه على الفرنساوية فى الاغارة والمدافعة وفى هذا الوقت تزوج دوق برغونيا بمرغريطة دى يورقه اخت ملك انكلترة فتأكدت بذلك روابط المحالفة بين اعداء لويز الحادى عشر وظهر أن هذا الملك صار يخشى عليه من مشروعات عصبة جديدة الا أن الضرورة اقتضت أن ايدوارد الرابع لا يفارق بلاده لانها اذ ذاك كانت مضطربة بفتن وتعكيرات خطرة وكان اهل لياجة لم يزالوا على خروجهم عن طاعة دوق برغونيا فكان مشتغلا بقتالهم وقمعهم فشن الملك الغارة على وجه السرعة حتى ازعج دوق ابريطانيا وحمله ذلك على طلب المفاوضة فى شأن الصلح فانعقدت المصالحة بين الفريقين ووضع الدوق المذكور القرار عليها فى مدينة أنسينيس وكانت شروطها الاصلية أن ترتيب اقطاع كرلوس دوق فرنسا يكون لاجله سنة وأن الملك يدفع لهذا الامير فى ظرف تلك المدة معاشا يبلغ ٦٠٠٠٠ فرنك فلم يرض كرلوس بهذه المشارطة واستمر على الاقامة بابريطانيا ولما بلغ الدوق كرلوس أن الملك لويز الحادى عشر اغار على اقليم ابريطانيا عقد المهادنة مع اهل لياجة ليسير الى قتال الملك فدعاه لوتير الى التأسى بدوق ابريطانيا وأن ينهى المشاجرة بالمشارطة فوقعت المفاوضة بينهما لكن كانت على سبيل التراخى فكان رأى القونتة دوضامرتين وكان قد صار له الحظوة عند الملك ثانيا أن يقطع النزاع ويبت الامر بالهجوم على معسكر العدو ولكن اشار الكردينال بالو على لويز الحادى عشر أن يستمر على المذاكرة ويعرض للدوق فى شأن المقابلة والاجتماع ببعضهما ليتفاوضا فى هذا الامر بانفسهما وكان هذا الكردينال قد ارتقى بدسائسه الى درجة الاعتبار حتى اختلس ركون لويز اليه وحظى منه بالوثوق والتعويل عليه وكان لويز الحادى عشر يعتقد فى نفسه أنه بمكان

من السياسة والتدبير وكان لا يريد أن ما ينتظره من المفاوضة يكون عرضة لخطر الاسلحة وقدافهمه بالو أن ثمرة هذه المفاوضة انما تكون له لا للجانب الآخر وأن دوق برغونيا لا قدرة له على معادلته فى جودة القريحة وحسن التدبير فتعين لمقابلتهما مدينة پيرونة وكانت تحت حكم كرلوس فاخذ الملك تذكرة طريق وذهب الى تلك المدينة ومعه قليل من الحرس وفوّض قيادة جيشه للقونتة دوضامرتين وكان قد ارسل الى اهل لياجة رسلا من طرفه يحرّضونهم على فسخ المهادنة ان اغار دوق برغونيا على فرنسا فأمرهم حينئذ بتأخير هذه المأمورية ولكن كان قد فات اوان ذلك فانه بمجرّد دخوله فى المدينة المذكورة شاع بين الناس أن جواسيس فرنساوية حرّضوا اهل لياجة على القيام والخروج عن الطاعة فاغاروا على مدينة تونغرس فعند ذلك استولى الغضب على الدوق وصار يهدّد الملك باموره هائلة ووضع عليه حرسا يراقبونه اتم المراقبة ومكث على ذلك ثلاثة ايام فى قلعة پيرونة حتى صار فى غاية الضيق والقلق حيث تذكر أن يوحنا سنبور سفك دمه فى قنطرة مونتيرو وكان ينظر أمامه البرج الشهير الذى كان هربيرت قونتة ورمندواس فى سابق الزمان سجن فيه كرلوس لوسانبل ثم قتله فلما تواردت عليه هذه الافكار السيئة لام نفسه على قلة حزمه وسوء تدبيره لكنه لم يدع نفسه عرضة للخطر بل استمال اليه من كان له كلمة نافذة عند الدوق ببذل الاموال اليهم على وجه لطيف مستحسن وكان من جملتهم الشهير فيليبش دوكومينة فألانوا شدّة كرلوس وسكنوا حميته وغضبه بمراجعته فى هذا الشان والاولى أن يقال بملاطفته واستمالته فانقذ لويز نفسه وحرّيته بمشارطة اورثته المعرّة والفضيحة فان جميع مواد مشارطتى اراس و كونفلانس اعيدت فى مشارطة پيرونة وانحط الرأى فيها على أن كرلوس اخا الملك يرد دوقية نورمنديا ويأخذ بدلها على سبيل الاقطاع اقليمى برى و شمبانيا وقصارى الامر أنه شرط فيها على لويز الحادى عشر أن يصاحب الدوق فى قتال اهل لياجة ويشهد تدميرهم وابادتهم وكانت مدينة لياجة مشهورة بالميل

الى

الى الاستقلال اكثر من غيرها من مدن بلجيكة و فلندرة الكبيرة
التى كانت متعاظمة ومتعالية لكثرة اهلها وثروتها فلذا كانت غير منقادة لزمام
الشوكة الملوكية وكان لويزدوبربون اسقف هذه المدينة ينسب من قبل امه
الى عائلة برغونيا وكان ابن اخى فيليبش لبون وكان لفيليبش الفضل
عليه فى استيلائه على كرسى الاسقفية وكان اهل لياجة الخارجون
عن الطاعة قد طردوه من مدينتهم فالتجأ الى عمه واستعان به عليهم فكان ذلك
منشأ للحرب بين اهل لياجة ودوقاتهم وهنالك امور اخرى كانت سببا فى غيظ
امراء برغونيا منها أن اهل لياجة انضموا فى حرب المصلحة العامة
الى لويز الحادى عشر وخربوا اقليم هينوت ومن يومئذ صار
الفرنساوية يحرضونهم على القيام والخروج عن الطاعة لكن لما ترتب على
مشارطة بيرونة أن من كان يعينهم الى ذلك الوقت شهروا عليهم السلاح لم يبق
لهم الاقوى انفسهم فبعد أن قاوموا العدو مع اليأس والقنوط ادركهم التلف
والخيبة فى القتال حيث لم يستوف فيه مقدار الفريقين بل كان فريق العدو اكثر
عددا فاخذت مدينتهم عنوة وصار اهلها جميعا ما بين قتيل وغريق من غير
التفات الى كبر او صغر وذكورة او انوثة واعقب ذلك حرق المدينة فلما شفى الدوق
غليله بهذا الانتقام خلى سبيل الملك فلما عاد الى مملكته ذهب الى حصن أمبوازة
ايدارى هنالك ما لحقه من الخزى والخجل ويقال انه لم يمر فى ذهابه بباريس
خشية أن يسخر به اهلها ولم يعتن المؤرخون بأن يذكروا فى كتبهم ماوقع
من لويز من معاقبة الطيور الناطقة على فضولها حيث علموها من لؤمهم
أن تلهج باسم بيرونة وتكرر هذه الكلمة وكان حين ذهابه لقتال اهل لياجة
قد كتب الى القونتة دوضامرتين يأمره بصرف العساكر وتسريحهم
وشدد عليه فى ذلك غير أن هذا القونتة رأى أن هذا الامر انما هو باملاء دوق
برغونيا ولقد اصاب فى ذلك فتجاسر على الغاء هذا الامر وعدم العمل
بمقتضاه فابقى الجيش تحت لوائه ولعل هذا الثبات هو الذى انقذ الملك فشكره
لويز على صدقه فى خدمته وكافأه على عدم امتثال امره واما الكردينال

بالو الذى كان سببا فى ذهابه الى بيرونة فصار لا يأمنه الملك ولا يثق به وأبت نفسه أن تسامحه على ما وقع منه من حمله له على هذا الامر الذى كانت عاقبته الخزى والخجل ظانا أن هذا الكردينال كان بينه و بين دوق برغونيا مراسلات سرية وقد تحقق ظنه فيما بعد حيث عثر على خيانته وذلك أن مشارطة بيرونة كان من جملة موادها كما سبق أن اخا الملك يأخذ على سبيل الاقطاع اقليمى برى و شمبانيا لكن رأى الملك أن هذين الاقليمين قريبان جدا من برغونيا فعرض على اخيه أن يأخذ بدلهما اقليم غيانة وكان رضاؤه بذلك مستقربا الا أن بالو خشى أن هذا الامر يجر الى حرمانه من المنافع التى تصل بمقتضى اهواء الامراء وشهواتهم الى خاصتهم الذين يسلكون معهم مسلكا يدل على أنه لا بد للامراء منهم فكتب لدوق برغونيا يحثه على منع وقوع الصلح بين الاخوين ولكن ظهرت خيانته فبعثه الملك الى حصن طورس (سنة ١٤٦٩ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٨٧٤ من الهجرة) وانعقدت جمعية لتحقيق هذه الدعوى الا أنهم لم يحكموا عليه بالقتل مراعاة لوظيفته الدينية وعملا بمراجعات ديوان رومة فى هذا المعنى وانما سجنوه فى قفص من الحديد ومكث فى هذا السجن الشديد اثنتى عشرة سنة ثم خلى سبيله وحظى بحريته بل و ببعض اقطاعاته

وقد حصل فى السنة التى قبل سنة الحكم على هذا الكردينال أن بعض الناس عوقب باشد مما عوقب به بالو مع احتمال أنه دونه فى الذنب وذلك أن كرلوس دوميلون وكان من عشيرة شهيرة قديمة نال الحظوة عند الملك بملحه ولطائفه وكان حاكما على باريس ومتقلدا انيابة المملكة فى مدة حرب المصلحة العامة فلما حوصرت باريس سلك مسلكا اوقع التهمة فى حقه فارتاب منه الملك وجرده عن مناصبه وكان فى أيام حظوته قد نال معظم اموال القونتة دوضامرتين التى ضبطت لجانب الميرى الا أن هذا القونتة لما عادت له حظوته لم يرفق بعدوه هذا لشقوته وسوء حظه بل عزم على اهلاك هذا النديم القديم فطلب تحقيق هذه الدعوى فكان ما اتهم به كرلوس دوميلون من التهم

التى

التى تقوّت بدلائل وقرائن جديدة اصلا لتهم اخرى اعظم منها فانحط الرأى على أنه مرتكب ذنب الخيانة وحكم عليه بالقتل فجرعوه كأس الردى بطعناتهم وهو يقسم على براءته من هذا الذنب

وفى مدة ما كان الحبر المذكور (اى الكردينال بالو) مصفدا بالسلاسل والاغلال لتكفير ما ارتكبه فى حق محاميه من كفران النعمة وفى حق ملكه من الغدر والخيانة اصطلح الملك مع اخيه ووقع بينهما الاتفاق والالتئام واخذ المسيو اقليم غيانة على سبيل الاقطاع وكان اذ ذاك ولى عهد المملكة وذلك أن الملك لما كان الى ذلك الوقت لا ذرية له من الذكور قصد أن يمنح اخاه منصبا يلايم حسبه ونسبه وكانت ماريه دى برغونيا بنت الدوق كرلوس المجازف الذى لم يكن له من الذرية سواها اغنى وارثة فى بلاد اوروبا الا أن اباها كان لا يميل الى مصاهرة احد ايا ما كان فكان يخشى من المصاهرة كما كان لويز الحادى عشر يخشى أن اخاه يصاهر هذا الدوق حيث كان من دأب اخيه التحزب والتعصب والتلوّن والغيرة فلذا خطب من هنرى الرابع ملك قسطيلة اخته الاميرة ايزابيلة لدوق غيانة (وهو اخوه المذكور) لكن كانت هذه الاميرة قد واعدت فرديننددى اراغون بزواجها مواعدة اكيدة فبادرت بوفاء وعدها وتزوجته سرا

وكان لويز الحادى عشر قد ارتحل الى اقليم غيانة لغرضين احدهما أن يستتر مع ملك قسطيلة على المفاوضة فى شأن زواج اخيه على وجه بحيث تكون المسافة بينهما قريبة وثانيهما عقاب عدة من الملتزمين كانوا لبعدهم عنه يظهرون الاستقلال ويظلمون اهل بلادهم وكان اقواهم شوكة واعظمهم ذنبا قونتة ارمنيالك وذلك أنه كان ممن دخل فى حزب المصلحة العامة مع أن لويز كان قد اعاده الى رتبته بعد أن حكم عليه فى ايام كرلوس السابع بالعزل عن منصبه وكان له كغيره من سائر المتعصبين نصيب فى المزايا المقررة فى مشارطة سنت مور الا أنه كان لا يتمالك نفسه بحيث يجبرها على أن تعيش فى الهدء والراحة وتجنى ثمار منصبه الذى كان من اعلى مناصب المملكة

واعظمها فوجه اسلحته نحو الاهالى بعد أن كان يوجهها نحو الملك وكان عنده دائما الف وخمسمائة من عساكر العسس فكان ينقض بهم على اقليم لنغدوق حتى خرّبه وظلم اهله فلم يدع فيه مظلمة حتى ارتكبها ولا اساءة الا فعلها فلما دنا منه الجيش المبعوث لقتاله تحت قيادة دوضامرتين فرّ هاربا الى اسبانيا فانحط راى مجلس البرلمان (مجلس وكلاء الملة) على أنه مذنب فى حق الحضرة الملوكية وصدر من اربابه الحكم بالقبض عليه وضبط امواله لجانب الميرى وحكموا بمثل ذلك ايضا على دوق نيمور لمشاركته له فى العصيان والتعدّى الا أن دوضامرتين تشفع له عند الملك فصفح عنه وسامحه

وفى هذه السنة نجز لويز الحادى عشر ما كان قد عزم عليه منذ مدّة طويلة وهو احداث طائفة من الشوالية وجعلها تنسب الى استاذ مخصوص وهو القدّيس ميخاييل وكانت طائفة النجمة التى رتبها منهم قبل ذلك الملك يوحنا كثيرة العدد من مبدأ امرها كثرة بالغة ثم سقطت من اوج الاعتبار الى حضيض الاحتقار واما هذه الطائفة الجديدة فلم تكن مؤلفة الا من ستة وثلاثين رجلا من الشوالية وتعاهدوا جميعا حسبما كانت تقتضيه قوانينهم على أن ينقادوا لرئيس الطائفة الذى يشترط فيه دائما أن يكون ملكا على فرانسا وأن لا يعقدوا بدون رضاه ما يكون فيه ارتباط ايا كان بينهم وبين الامراء الاجانب اوغيرهم ثم ارسل الملك ترتيب قوانينها الى دوق ابريطانيا فردّه ولم يقبله متعللا بأن هذه القوانين المرتبة لتلك الطائفة تحتوى على عدّة شروط لا تلايم مزايا منصبه فحنق عليه لويز واستعد لمعاقبته فتدارك الدوق هذه المصيبة بوضع امضائه على مشارطة انغرس التى التزم فيها برفض كل معاهدة تعود بالضرر على هذه المملكة وراحتها الا أن امراء تلك البلاد لخبث طويتهم كانوا يتلاعبون بالعهود والمواثيق فان هذا الدوق حين كان يبايع الملك بمدينة انغرس كان يجدّد مع دوق برغونيا مشارطة قديمة فى شأن التعصب على فرانسا اغارة ومدافعة

وقد رضى كل من لويز الحادى عشر وكرلوس المجازف أن يبقيا على السلم

والصلح

والصلح غير أن كراهتهما لبعضهما لم تنقص بمشارطة بيرونة بل كانت هذه المشارطة سببا في ازديادها فان الملك كان لا يتذكر اساءة هذا العامل له واهانته اياه الالحقه الخزي والخجل وكان كرلوس يتأسف على كونه اقتصر على اهانته واذلاله وقد مكثت هذه العداوة مدة وهي كامنة لا يظهر لها اثر حسبما كانت تقتضيه المشارطات الاخيرة ثم ظهرت باختلافهما في المدخلية فيما يتعلق بانكلترة من الشقاق والتفاقم فكان لويز الحادي عشر ينتصر لحزب اللنكسترية وكرلوس ينتصر لحزب ايورقة نعم وان كان اختلاف مجهوداتهما في هذه المادة الاجنبية يدل على الحقد والعداوة الا أن ذلك لم يشف غليلهما ولم يبلغ به كل منهما امانيه في صاحبه وكان ما يبثه كل في شأن الآخر من الشكوى التي كانت تتزايد وتتجدد بتجدد الايام وما يبديه من التظلم فيما يخص مصلحته يقتضي انهما عما قليل يشهران السلاح على بعضهما رعاية من كل المصلحة نفسه وانتقاما من عدوه فمن ثم عقد الملك بمدينة طورس قبل أن يعلن بفسخ الصلح جمعية كبيرة مؤلفة من الامراء وكبار الضباط والاعيان على اختلاف درجاتهم (سنة ١٤٧٠ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٨٧٥ من الهجرة) فحكمت ببطلان مشارطة بيرونة لكونها انما انعقدت بطريق الاجبار والاكراه واعلنت بأن دوق برغونيا مرتكب ذنب خيانة الذات الملوكية وأن هذا الذنب ثابت عليه وبعثت الى مجلس البرلمان بباريس الذي كان قائما مقام مجلس امراء الدولة الآن لاجل تحقيق هذه الدعوى فارسل هذا المجلس رسولا من رسله الى الدوق المذكور يطلبه الى الحضور في يوم معين الى مدينة غند وكانت اذذاك دار اقامته فحنق كرلوس من ذلك حنقا شديدا وشد وثاق رسول المجلس ووضعه في السلاسل والاغلال عدة ايام ثم خلى سبيله ولم يجبه بجواب فكان ذلك سببا في اشهار الحرب وكان قد مضى من فصل الشتاء مدة فظن كرلوس أن الملك لا يشن الغارة عليه قبل فصل الربيع لكن بادر لويز بتسيير الجيوش اليه طامعا في الظفر بعدوه سريعا ظنا منه أن القونتة سنت بولس يكون واسطة له في مراسلات اناس من بلاد خصمه

وايقاع الفتن والدسائس بينهم لان هذا الملتزم وان كان من عمال دوق برغونيا ومن اقاربه الا انه كان قد دخل فى خدمة الملك منذ انعقدت مشارطة سنت مور التى بموجبها تقلد بسيف الكونيتابل اى امارة الجيوش ولما كان من عشيرة لوكسمبرغ الايمبراطورية وكان بمكان من الحرص والطمع ويرى أن شرف حسبه ونسبه يسوغ له ذلك كان له رغبة شديدة فى الارتقاء الى درجة الامراء المستقلين والانتظام فى سلك الحكام القائمين بانفسهم فكان ينتظر فرصة ينتهزها فى تحصيل مرغوبه ويحقق بها تلك الامانى العالية وكان فى اثناء ذلك يراعى خاطر كل من سيديه القديم والحديث بدون أن يشعر احدهما بمراعاته للآخر وكان يبدى لكل منهما مايؤذن بفضله واهميته بحيث يوقع فى ذهنه أنه لايستغنى عنه مع أنه فى الواقع ونفس الامر مخادع ومدلس ولايبحث الاعن مصلحة نفسه وكان دوق غيانة من وقت المفاوضة مع ملك قسطيلة قد انقطعت آماله من ولاية العهد لكون اخيه لويز الحادى عشر رزق بولد من صلبه يرث سرير الملك بعده فاحتاج الى مصاهرة عظيمة تجبر ماضاع منه وهو وراثة تاج الملك بعد اخيه وكان لاتتم امنيته فى هذا المعنى الابزواج ماريه دى برغونيا (بنت كرلوس المجازف) الا أن سياسة اخيه لويز الحادى عشر المبنية على ظنونه ووساوسه منعته من تطلب هذا الزواج واما مواعدة الدوق له بذلك سرّا فانما هى بحسب الظاهر فقط والا فهو مصرّ على عدم الوفاء بها وانما جعل ذلك وسيلة لحمله على العصيان والخروج عن طاعة الملك ثانيا فاراد سنت بولس أن يسعى فى تزويجه بها قهرا عن ابيها وعن الملك متوهما أن دوق غيانة يكافئه على هذا الصنيع بترقيته واعلاء مقامه فاشار عليه أن ينضم الى اخيه فى حربه مع ابيها دوق برغونيا ثم يسعى فى الصلح بينهما ويخطب تلك الاميرة لنفسه هذا ما اقتضاه رأى دوق غيانة وامير الجيوش فى هذا الشأن وكان ذلك حين شرع الفريقان فى الاغارة وكان اول مابدئ به من ذلك هو تسليم مدينة سنت كنتين حيث فتحت ابوابها لامير الجيوش سنت بولس وكذلك تسليم مدينة اميانس بعد أن تشارطت

مع

مع القونتة دوضامرتين فى هذا الشان واما دوق برغونيا فحضر بجيش كان قد جمعه مع العجلة ولم يكن مستكملا لما يلزم من الادوات والذخائر ونزل به بين معظم الجيش الملوكى والمحافظين الذين كانوا بهاتين المدينتين فاجتنب لويز ما يجر الى وقعة عامة (اى قتال الفريقين بجميع العساكر) وانما اعتنى بالتضييق على عدوه واجاعته فعما قليل صار فى غاية الضنك والضيق وكان وهو فى هذه الحالة السيئة تأتيه الاخبار والمراسلات السرية من معسكر الملك فكان يكتب له المسيو دوق غيانة ما معناه لا يهمك شئ فان لك اصحابا واحبابا وكان سنت پولس يبعث له نصائح ويشير عليه أن يزوج بنته لدوق غيانة فعرف أن ذلك من باب الدسيسة والتدليس واطلع الملك على ما عرفه فى هذا الشان وطلب منه المهادنة (سنة ١٤٧١ ميلادية) (اى نحو سنة ٨٧٦ هجرية) فعقداها على ثلاثة اشهر ووضع كل امضاءه عليها وحقدا على امير الجيوش لتلاعبه بهما رغبة فى نيل مطامعه وعزما على معاقبته عاجلا او آجلا فى نظير هذه الجسارة والوقاحة

ثم ان اعداء الملك اشتغلوا فى مدة الهدنة بعقد عصبة جديدة وذلك أن ايدوارد الرابع وكرلوس المجازف ونيقولاس دوق لورينة ودوق اريطانيا عزموا فيما بينهم على أن يغيروا على المملكة من سائر جهاتها وواعدهم دوق غيانة بالانضمام اليهم والدخول فى حزبهم فاتفق أن احد الاجلة الذين كان لويز الحادى عشر دائما يجعلهم فى الدواوين الاجنبية بلغه خبر تلك العصبة فاخبر الملك بهذا الامر الخطر الذى يخشى عليه منه فعند ذلك اخذ لويز على عادته فى المفاوضات والمذاكرات كى يستعين بذلك على تسكين غضب المتعصبين او ايقاع التفاقم والشقاق بينهم وأعانه على ذلك عروض حادثة لم تكن تخطر بباله حيث تأخر بها هيجان المتحزبين واضطرام نيران عصبتهم

(الفصل الرابع)

من موت دوق غيانة الى موت كرلوس المجازف (من سنة ١٤٧٢ الى سنة ١٤٧٧ من الميلاد) (اى من سنة ٨٧٧ الى سنة ٨٨٢

من الهجرة تقريبا)

كان ديوان دوق غيانة على صغره وقلة اربابه واقعا فيه اضطراب واختلاف لمنافسة كانت بين عشيقة هذا الدوق الملقبة لدام دى مونتسورو (ومعناه سيدة مدينة مونتسورو) ووزيره المسمى لسكون الذى تخلى عن دوق اربطانيا ودخل فى خدمة كرلوس دوفرانسا (اعنى دوق غيانة المذكور الملقب ايضا بالمسيو) وذلك أن هذا الوزير الذى كان يسوس سيده ويدبر امره كان اقصى مرامه أن يزوجه بوارثة برغونيا واما لدام دى مونتسورو فكانت تبذل غاية جهدها فيما يكون به منع هذه المصاهرة التى كانت تخشاها وتشفق منها ومنع تخلى عشيقها عن اخيه لانه اذا تزوج هذه الاميرة كافأ اباها دوق برغونيا على هذا الصنيع بالتخلى عن الملك ولكن ظهر عليها لسكون وظفر بمرامه دونها فان جميع بلاد غيانة صار يسمع فيها قرقعة السلاح وفى اثناء ذلك شاع أن لدام دى مونتسورو حضرتها الوفاة وأن دوق غيانة لحقه مرض يخشى عليه منه فظن الناس أن ذلك بوضع السم فى خوخة اعدت لاهلاكهما وأن الذى ارتكب هذه الخطيئة هو يوحنا دوورسوا رئيس سنت جان دنجيلى ووكيل من المنوطين باطعمة الدوق يقال له هنرى دولاروش (وكان ذلك سنة ١٤٧٢ من الميلاد (اى نحو سنة ٨٧٧ من الهجرة) واستمر الناس على هذا الظن وعلى كل فقد قبض عليهما لسكون كما يقبض على المذنبين وذهب بهما الى اقليم اربطانيا ليعاقبهما على هذا الذنب الذى اتهمهما به وبعث الملك الى هذا الاقليم وكلاء من طرفه لتحقيق هذه الدعوى فاخذوا فى البحث عنها فبينما هم كذلك اذ شاع أن رئيس دير سنت جان دنجيلى خنق نفسه فى السجن واما هنرى دولاروش فانقطعت ذكراه من هذا الوقت ولم يعرف ما حصل له وسواء كان يوحنا المذكور هو الذى عاقب نفسه على هذه الخطيئة او بادر بقتله وقتل شريكه فى التهمة من ارتكب هذا الذنب فى الواقع ونفس الامر حتى لا تظهر جنايتهم وينكشف امرهم فقد ترتب على ابهام هذا الامر وعدم

الوقوف

الوقوف على الحقيقة في هذا الشان أن اتسعت دائرة الظن وربما جر ذلك ايضا الى كثرة الوشي والنميمة في هذا المعنى فمن الناس من قال ان لسكون هو الذى اخترع تهيئة الخوخة على الوجه المذكور ليتخلص من شر خصمه وهي لدام دي مونتسورو التي كان يكرهها كراهة شديدة ولم يكن يخطر بباله أن الدوق يقاسمها في تعاطي هذه الثمرة المسمومة ومنهم من تجاسر ونسب الى الملك قتل اخيه مستندين في ذلك الى أن قتله ينقذ الملك مما هو قائم به من القلق والوسواس ويعود اليه بذلك اقليم عظيم وقد اتهمه بذلك دوق برغونيا واشاعه في مناشيره ومكاتباته ولا مانع أن الملك لم يرتكب هذا الذنب وان عاد عليه بالمنفعة ومن المعلوم أن تهمة العدو لا تعد من الادلة الاقناعية ولا تنتظم في سلك الشهادات المقبولة المرضية خصوصا وقد كان هذا العدو في حنق شديد من الملك فهو حائد عن طريق الانصاف والعدالة حتى ان الملك استغرق المدة الطويلة التي احتضر فيها اخوه دوق غيانة وهو يداهن دوق برغونيا ويخادعه بالمفاوضات والمذاكرات ثم فسخ ذلك وانكره حين خرجت روح المسيو وعاد اقليم غيانة الى حكومة الملك فعند ذلك استولى الغضب على كرلوس حتى عمي عن طرق الرشاد وصار لا يراعي في اموره احدا فنشر اعلاما اتهم فيه لويز الحادي عشر بأنه قتل اخاه بالسم والشعوذة والسحر والعزائم التي يستخدم بها الجن وسماه بالقاتل وبالجاني في حق المنصب الملوكي والامراء والمصلحة العامة وبالخائن وقاتل ابيه والوثني ودعا جميع ملوك ابناء النصرانية الى أن ينضموا الى بعضهم ويجمعوا قواهم وعساكرهم على هذا الملك الذي هو عدو النوع الانساني وكان ما تدل عليه هذه التهم من الكراهة يؤذن بوقوع حرب مهول فقد دخل هذا الدوق اقليم بيكارديا وفتك به قتلا وتحريقا ولما تغلب على مدينة نسلة خنق حكمدارها وذبح اغلب اهلها وقطع ايدي الباقي ثم اوقد فيها النار وصار ينظر اليها وهي تحترق مع السكون والهدء الذي يصدر مثله من كل قاس متبربر وقال ان ذلك هو ما تثمره شجرة الحرب ومع ذلك صدته مدينة بويس وغلبت على حميته وشدة غيظه

وذلك انه اغار على تلك المدينة اغارة عامة بجميع عساكره فوقع الرعب والفزع في قلوب اهلها المحاصرين فاخذوا في الهروب من سائر الجهات فغرس لواءه في الشرم (وهو انشقاق الحائط من ضرب المدافع) وكان هناك امرأة ذات بطش وشجاعة يقال لها حانة هاشيتة فتجاسرت على قلعه وتأسى بها في الشجاعة غيرها من نساء المدينة ودافعن العدو فكافأهن الملك على ذلك بترتيب زياح سنوى يتقدمن فيه على الرجال (والزياح نوع من الاحتفالات الدينية) فلما ظفر النساء بكرلوس في هذه المدينة ذهب الى بلاد كوكس وانتقم من اهلها في نظير ذلك فاخذ مدينة أو ومدينة سنت ويليرى ثم ادركته الخيبة والخذلان أمام مدينتى دييبة وروان فعاد الى بيكارديا وذهب الى مدينة ايبويلة وقبل الهدنة التى عرضها عليه الملك

وقد عادت هذه الهدنة بالمنفعة على لويز الحادى عشر حيث استعان بها على معاقبة اميرين من المذنبين احدهما دوق ألنسون وكان من امره انه سجن في حصن لوشس على عهد كرلوس السابع ثم اطلقه لويز الحادى عشر ومع ذلك كانت له حمية شديدة في الحث على التحزب لعصبة المصلحة العامة حتى انه باع نفسه من يومئذ لدوق برغونيا (يعنى انه قبل الرشوة وانضم اليه سرا) فقبض عليه بامر الملك وحكم عليه مجلس البرلمان بالقتل فغير الملك هذا الحكم بالسجن الدائم فمكث في السجن سنتين ثم مات فيه وثانيهما قونتة ارمنياك وكانت ذنوبه متوالية حتى كأن ايام حياته كلها ليست الا ذنوبا متسلسلة متعاقبة وكان من امره أنه تجاسر على العود الى فرانسا واستولى بطريق الخيانة على مدينة لكتورة فحوصر فيها وقتل حين نهبها (سنة ١٤٧٣ من الميلاد المقابلة لنحو سنة ٨٧٨ من الهجرة)

وقد استرجع يوحنا الثانى ملك اراغون اقليمى روسليون وسردانيا حين كان الملك لويز الحادى عشر مشتغلا بالحرب مع دوق برغونيا فوجه اليه لويز سنة ١٤٧٣ من الميلاد جيشا فوضع الحصار على

مدينة برپنيان فعندذلك عرض يوحنا الثانى على الملك انه اذالم يدفع له بعدسنة ۳۰۰۰۰۰ ريال سلم له فى الاقليمين المذكورين اللذين كانت المنازعة من اجلهما فهما بمنزلة الضامن لاداءهذا المبلغ والانابا عنه فى التوفية فقبل منه ماعرضه وانصرف الفرنساوية فلما مضى الاجل ولم يف ملك اراغون بماوعدبعث لويز سنة ۱٤٧٥ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ۸۸۰ من الهجرة) جيشا آخر استولى على هذين الاقليمين

ولاجرم أن كرلوس المجازف لولا اشتغاله بتنجيزاغراضه المتعلقة بتوسيع حكومته جهة ألمانيا لنغص على لويز الحادى عشر فى فتوحاته وكدر عليه فى مشروعاته .

هذا وكان ادولف دوق غويلدرة قدوضع اباه وهو الدوق ارنول فى السجن منذعدة سنوات وكان قدتظلم من ولده وبث شكواه غيرمرة الى كل من البابا سكيسته الرابع والايمبراطور فردريق الثالث على عقوق هذا الولد وجفوته وعدم انسانيته ومروءته ففوضا فصل هذه الخصومة والحكم فيها الى كرلوس المجازف دوق برغونيا فمال اولا الى جانب ادولف ورأى خاطره حيث حكم له بدوقية غويلدرة وقونتية زوتفان ولم يترك لابيه الامدينة غراوة اوجراوة ومرتباسنويا يبلغ ستة آلاف فرنك فحمله هذا الحكم على جحد صنيع كرلوس وابى أن يقرهذه القسمة واعلن أنه يؤثر على وضع الامضاء والقرار عليها أن يلقى اباه فى بئر ثم يلحقه فيها فغضب كرلوس من جوابه وسجنه فى حصن كورتريه واشترى بلاد أرنول باثنين وتسعين الف فلورين (والفلورين نحو عشرة قروش) قاصدا قطع طماعية ادولف فيها وأنه لايؤمل رجوعها اليه وبعدذلك بخمس سنوات مات ارنول وحرم هذا الولد العاق من الوراثة وقرر بيع اراضيه والتزاماته التى ضمها كرلوس (سنة ۱٤٧۳) الى بلاده المتسعة الموروثة له عن ابيه حتى قل أن يعادله فى الشوكة امير بحيث لم يكن ينقص عن الملوك الالقب الملك وكان لايمكنه حيازة هذا اللقب من غيرأن يكون ذلك حاملا لغيره من الامراء على التظلم والتشكى

وكان ايضا لا بد له فى ذلك من السعى فى قطع العلاقة الالتزامية التى تقتضى تبعيته لملك فرانسا فسعى فيما يكون به نيل ذلك اللقب من ايمبراطور كان فى الواقع ونفس الامر دونه فى الشوكة والصولة الا أنه لعلو منصبه وعظم منزلته عند الناس كان له رونق ومزايا ابهج واعلى مما لغيره من سائر الملوك فان ايمبراطرة ألمانيا من حيث كونهم خلفاء القياصرة كانوا يزعمون أن لهم الحق فى التصرف فى التيجان الملوكية وهم وان كانوا لضعفهم لا قدرة لهم على نزعها من الملوك الا أنهم لكبرهم كانوا لم يزالوا يزعمون أن لهم مزية الباسها لمن ارادوا تقليده بالمنصب الملوكى فمن ثم وعد الايمبراطور فردريق الثالث كرلوس المجازف أن يلقبه بلقب الملك على أن يزوج بنته مارية دى بورغونيا لابنه مكسيمليان وذهب كل منهما الى مدينة تريوة ليدبرا امر هذه المصلحة الجسيمة فانعقد لذلك مجلس بتلك المدينة وطلب فيه كرلوس من فردريق أن يلقبه بلقب الملك ولقب وكيل عموم الايمبراطورية وطلب منه فردريق أنه قبل كل شئ يزوج بنته وارثة برغونيا لابنه مكسيمليان فلم يرض كل منهما أن يلتزم بما طلب منه قبل صاحبه فافترقا وكل منهما يظهر للآخر من علامات المحبة ودلائل الالفة مالم يتوار به عدم انشراح صدورهما من بعضهما مواراة تامة

ولما كان كرلوس مصمما على تنجيز مقاصده جهة ألمانيا وكان يخشى أن الملك لويز يسعى فى تعطيلها ومنعه عن تنجيزها اراد أن يسلط عليه عدوا يمكنه أن يشغله فى فرانسا فعقد مع ايدوارد الرابع ملك انكلترة معاهدة على أن يكونا معا فى الاغارة والمدافعة واتفقا بموجبها على أن يخلعا لويز الحادى عشر عن مملكته وأن ملك انكلترة بعد فتحها ينزل لدوق برغونيا عن اقليم شمبانيا ودوقية بار وقونتية نورس ومدن نهر السوم وأن كرلوس يكون مطلق التصرف فى حكمها والتزما لدوق ابريطانيا باقليم بواتو اذا هو انضم اليهما ودخل معهما فى المعاهدة والتزما ايضا للكونيتابل اى امير الجيوش بالزيادة فى التزاماته وتوسيعها اذا هو سلم مدينة

سنت كنتين وكان قد استولى عليها في السنة الماضية متعللا بأنه يمنع دوق برغونيا من التغلب عليه وان كان غرضه بذلك في الواقع ونفس الامر انما هو الاستبداد والاستقلال وكانا ايضا معولين في ذلك على يوحنا الثاني ملك اراغون لما كان بينه وبين لويز من المشاجرة في شأن اقليمي روسليون وسردانيا فلما بلغ الملك امر هذه العصبة سعى في محالفة السويسة ليستعين بهم على معارضة خصمه ومقاومته

وكان سيجسموند دوق النمسا قد رهن عند دوق برغونيا قونتية فريتة فجعل عليها كرلوس حاكما من طرفه يقال له هاچنباك وكان بمكان من الحرص والقسوة حتى بلغ من حرصه وتولعه بسلب الاموال أن امتدت مطامعه الى السويسة المجاورين لحكومته فتظلم من ذلك اهل اخطاط تلك البلاد وتشكوا منه الى دوق برغونيا فلم يلتفت الى شكواهم فرأى لويز الحادي عشر أن هذا الدوق ينظر الى تلك الجمهورية السويسية بعين الاحتقار وأنه ليس لها عنده ادنى اعتبار ورأى ايضا أن استمالتهم والتودد اليهم اهم مما كان يراه هذا الامير في شأنهم فسعى فيما يحرضهم على قتال برغونيا ويستميلهم الى مملكة فرانسا وأنهى ما كان بينهم وبين دوق النمسا من المشاجرات القديمة واقرضه مائة الف فلورين ليفتك بها قونتية فريتة التي كانت مرهونة عند دوق برغونيا وعقد في هذا الوقت مع الاقاليم السويسية معاهدة كانت نموذجا لغيرها من المعاهدات التي حصلت بعد ذلك والتزم فيها بأن يدفع للسويسة مرتبا سنويا قدره عشرون الف فلورين من نقود بلاد نهر الرين ودخل في هذه المعاهدة عدة مدن منها مدينة استراسبورغ ومدينة كلمار ومدينة اسكاستان ومدينة ملهوزان وعادا هالي قونتية فريتة الى حاكمهم الاول (وهو سيجسموند) وقبض على هاچنباك وارسل الى مدينة بريزاك وقتل فيها صبرا بضرب عنقه وشن اهل السويسة الغارة على برغونيا

ثم ان دوق برغونيا حصل له على شواطئ نهر الرين عائق عاقه عن تنجيز

مقاصده حيث شرع فى مشروع لم يسلك فيه مسلك الحزم والتبصر فخابت به
جميع آماله وذلك أن منتخب كولونيا وهو روبيرت دوق باويرة كان
وقتئذ يقاتل كهنة بلاده واشراف حكومته الانتخابية فدعا كرلوس
لاسعافه واعانته وكان كرلوس المذكور شديد التولع بالحرب والقتال
فقاد من عساكره جيشا جرارا وذهب به الى مدينة نويتس ووضع عليها
الحصار فعند ذلك غلق ابوابها لندغراوهيسة اى حاكم هيسة المسمى عند
عصبة العصاة مدبر الحكومة الانتخابية وقاوم مقاومة عظيمة واقام
كرلوس فى المحاصرة عشرة اشهر فاضر ذلك بجيشه ضررا كبيرا ثم اضطر
الى الانصراف وكان قد ارسل له فى اثناء تلك المدة دوق لورينة المسمى
رينة الثانى يدعوه الى الحرب والقتال

وذلك أن يوحنادى انجو دوق لورينة اخترمته المنية سنة ١٤٧٠
من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٧٥ من الهجرة) فخلفه على الدوقية
ولده نيقولاس فحكمها ثلاث سنين ثم لحق بابيه ولم يعقب من يرثها بعده وكان
مقتضى اصول الوراثة أن هذا الميراث يؤول الى جده الملك رينة الذى كان
قد نزل سابقا عن هذه الدوقية ابيوحنادى انجو الا أن هذا الملك كان قد طعن
فى السن وبلغ حد الهرم فخشى ارباب دوقية لورينة أنه بموته تحصل فترة
اخرى تخلو فيها دوقيتهم عن الحاكم فعزموا على انتخاب حاكم تطول مدته حرصا
على بقاء الامن والهدء بها وكان لهذا الملك الهرم بنت يقال لها يولندة
وهى بكرية فتزوجها قونتة ووديمونت فولدت له ولدا سمى رينة باسم
جده فكان هذا الصبى مطمح نظر اهل لورينة حيث نشأ بينهم وتربى بين
اظهرهم فنزلت له امه عن ميراث نيقولاس لتثبته له وتقرره ولم تبق لنفسها
الا لقب النيابة والقيام بحكم الدوقية حتى يبلغ اشده فلما رأى دوق برغونيا
أن مقتضيات الاحوال تساعده سعى فى التغلب على لورينة (سنة ١٤٧٣
من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٨٧٨ من الهجرة) فاختطف هذا الدوق
الصغير ثم دنا من ثغور دوقيته (يعنى لورينة) فعند ذلك التجأت امه الى لويز

الحادى عشر واستعانت به على دوق برغونيا وكان كرلوس وقتئذ يطلب من الايمبراطور فردريق الثالث أن يجعل دوقية برغونيا مملكة فقبض لويز الحادى عشر على أمير المانى من اقارب هذا الايمبراطور وعلق فكه من الاسر على فك دوق لورينة فاطلق رينة وخلى سبيله وفى (سنة ١٤٧٥) ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٠ هجرية) حمله الحقد وتحريض ملك فرنسا على دعاء دوق برغونيا الى القتال وكان كرلوس وقتئذ مهتما بغزوة خطرة (وهى التى حاصر فيها مدينة نويتس كما سبق قريبا) ودخل رينة مدينة لوكسمبرغ فاغتاظ هذا الدوق ذو الكبر والانفة من جسارة هذا الصبى كيف اهاج غضبه واثار غيظه حتى كأنه يتشفى فيه ويظهر الشماتة به على نكبته فلم يتفكر الا فى الانتقام منه غير ملتفت الى ماوقع عليه الاتفاق بينه وبين ملك انكلتره

ومع ذلك جمع ايدوارد الرابع ملك الانكليز جيوشا عظيمة وبعث الى لويز الحادى عشر يلزمه بالتخلى عن مملكة فرنسا وردها اليه فتلقى لويز هذه الرسالة المزرية به مع غاية الهدء والسكون من غير أن يظهر عليه ادنى تأثر من ذلك وابدى أنه يميل الى الصلح بدون أن يتراأى عليه اثر خوف من الحرب واستمال الرسول بالهدايا ليراعى جانبه ويسعى فى مصلحته واخبره امناء سره أن جميع ارباب مشورة ايدوارد لا يستحسنون نقض الصلح مع فرنسا وأن الامير هوارد والامير استنالى المصاحبين له فى هذه الغزوة ولهما عنده نفوذ كلمة وقبول رأى كلاهما من الحزب الذى يميل الى الصلح * ثم ان ما حصل فى الارض القارة (يعنى اوربا) كان سببا فى ميل ايدوارد الى الصلح وذلك أن هذا الملك لما خرج من البحر على مدينة كاليس انتظر هنالك قدوم دوق برغونيا بجيوشه لينضما الى بعضهما ويتوجها جميعا لقتال لويز الحادى عشر فقدم عليه الدوق المذكور وليس معه الا بقايا واهية من جيش انهزم وساء حاله فتعجب ملك الانكليز من ذلك غاية العجب واخذ يلومه ويعنفه فاراد كرلوس أن يسكن غضبه ويخمد نيران

غيظه فوعده بأنه عما قليل يسلم له مدينة سنت كنتين وكان لكرلوس بها مراسلات ومكاتبات مع الكونيتابل سنت بولس فوثق ايدوارد بوعده ووجه سرية من العساكر الى هذه المدينة لاجل اخذها فلما رأى سنت بولس تلك السرية الانكليزية امر اهل المدينة بضرب النار عليها فانصرف الانكليز وقد اشتد غضبهم من دوق برغونيا حيث تركهم دفعة واحدة وذهب لقتال دوق لورينة فلما خابت آمال ايدوارد اصغى الى ماعرضه عليه لويز الحادى عشر فى شأن الصلح وعضد ذلك كل من الامير هوارد والامير استنالى حيث حسناله ما عرضه عليه ملك فرنسا وكان لويز قد اغدق عليهما بالهدايا والانعامات فقبل ايدوارد ذلك وانعقدت بين الملكين مشارطة فى مدينة بكينيى قريبا من مدينة اميانس التزم فيها لويز أنه يدفع لايدوارد كل سنة خمسين الف ريال ووقع الاتفاق بينهما ايضا فى مشارطتين اخريين انعقد كل منهما على حدته على فك مرغريطة دى أنجو وانقاذها من الاسر بدفع فدية عظيمة وعلى أن الدوفين كرلوس بن لويز يتزوج ايليزابيطة بنت ايدوارد وبعد هذه المشارطات وقعت الالفة والمحبة بين هذين الملكين وابدى لويز للانكليز من الائتمان والوثوق ما لامزيد عليه حيث فتح لهم ابواب مدينة اميانس ومكثوا فيها اربعة ايام وهو قائم بمؤنهم ومصاريفهم على ما ينبغى وجعل لوزرآء ايدوارد مرتبات تبلغ ستة عشر الف ريال وادركه الفرح والمسرة حيث انقذ نفسه من خطر كان اشد عليه من الاخطار التى كابدها منذ تحزبت عليه عصبة المصلحة العامة بدون أن يسل سيفا او يزاول طعنا وضربا

وكان الكونيتابل سنت بولس يظن ان الحرب بين الملكين تطول مدته وأن ذلك يعود عليه بالمنفعة فبذل وسعه فيما يكون به منع الصلح بينهما فلما بلغه أن الصلح قد انعقد بينهما وانهما امضياه ووضعا القرار عليه مع اجتهاده فى دس الدسائس وسلوكه مسلك المخادعة والمداهنة ليوقع الاضطراب والاختلاف

فى

في المفاوضة المنعقدة في هذا المعنى لم يستطع أن يكتم حنقه ويوارى غيظه فكتب الى ايدوارد وهو في ثورة الغضب وهيجانه كتابا سلك فيه مسلك الوقاحة والمسبة حيث جعله جبانا مخدوش العرض وملكا مسكينا وبعث في هذا الوقت الى لويز يهنيه على المشارطة والصلح واطرى له في امانته وصداقته وترجاه أن يختبر ذلك منه بأن يأذن له في شن الغارة على الانكليز مع دوق برغونيا فاجابه الملك بأنه لا يريد فسخ الصلح بينه وبين ايدوارد لكونه اصطلح معه عن طيب نفس وخلوص طوية وانما ينتظر منه خدمة اخرى غير ذلك وانه فيما تثاقل عليه من الامر محتاج الى رأس عظيم كرأسه فعما قليل ادرك سنت بولس معنى هذا الكلام المبهم المشتمل على ايهام قسوة لويز وصعوبته فقد انعقد بعد ذلك بقليل في مدينة سلورة مهادنة بين الملك ودوق برغونيا كانت مدتها تسع سنين على أن رأس الكونيتابل هو الكفيل والضامن للهدنة (بمعنى أنها لا تتم الا بجز راسه) حيث قرر دوق برغونيا في تلك المشارطة أن لويز ولوكسمبرغ كونيتابل فرنسا (وهو سنت بولس) خائن موقع للفتن والتعكير في الدولة والتزم بأنه لا يقبله ولا يعفو عنه ابدا وأنه يبذل جهده في القبض عليه فاما أن ينتقم منه بعد ذلك بنفسه او يسلمه للملك فلما علم سنت بولس أن لويز الحادي عشر قد عزم على اهلاكه وأنه قادم الى مدينة سنت كنتين يقود عشرين ألفا من العساكر التجأ الى مدينة مونس وكان حاكمها من اصدقائه فبعث الملك بعد أن استولى على مدينة سنت كنتين الى دوق برغونيا يلزمه باحضار الكونيتابل وتسليمه اليه حيث انه ملتجئ في بلاده فتوقف الدوق اولا عن الايفاء بوعده اما لشفقته عليه ورأفته به او لكونه عاد الى محبته والركون اليه لكونه من قدماء خدمه او لحيائه وخجله من التسليم في رجل تضرع اليه ونزل بحماه لكنه لما كان عازما على التغلب على لورينة ورأى أنه ان لم يوافقه الملك على ذلك شق عليه ادراك هذا الغرض وتعسر عليه نيل مرامه ترك التوقف وسلمه في سنت بولس بعد أن اخذ منه مكاتيب مختومة بالختم الملوكي تتضمن اقراره على

بما قصده فى شأن اقليم لورينة واستحسان اغراضه فى ذلك ثم ذهبوا بالكونيتابل الى سجن بستيلة وكانت خيانته ثابتة معلومة فحكم عليه مجلس البرلمان بأنه مرتكب ذنب خيانة الذات الملوكية وحزراسه أمام بيت الحكم وقبل صعوده على الآلة المعدة للقتل حل من عنقه حجرا زعم أن فيه خاصية فعالة تضاد السم واعطاه لراهب من رهبان سنت فرنسيس واوصاه أن يسلمه الى حفيده فلم تنفذ هذه الوصية وذلك لان لويز الحادى عشر كان من اهل الاوهام الفاسدة يصدق كل ما قيل فاعتقد صحة ما قاله سنت بولس وابقى هذا الحجر لنفسه كانه اعظم اسلاب الكونيتابل وانفسها واستولى على ما كان له من الالتزامات فى فرنسا ونزل لدوق برغونيا عن مدينتى هام وسنت كنتين وترك له خزائن هذا الامير السيء الحظ

وحين كان لويز الحادى عشر يشفى غليله بالانتقام من سنت بولس كان كرلوس دوق برغونيا لم يزل يتتبع مطامعه فى شأن اقليم لورينة بدون معارض ولا ممانع فطرد منه الشاب رينة وتغلب على مدينة ننسى قاعدة هذا الاقليم ثم اخذته نشأة الظفر والنجاح فعزم على اعظم مقصد واجل مشروع حيث حذا حذو انيبال (جنرال القرطاجيين) فاراد مثله أن يجتاز جبال ألبة ويضع القوانين على ايطاليا ويصير فيها حاكما مطلق التصرف ثم يعود الى بروفنسة وكان لويز الحادى عشر حينئذ ينغص فيها على الملك رينة ويفعل معه ما يوجب القلق والتعكير حتى حمله ذلك على قصد تبنى كرلوس ثم ينتقل من بروفنسة الى اقليم دوفينة ويضم قواه الى قوى عائلة سابوة ويحاصر لويز الحادى عشر من جميع الجهات غير أن جمهورية صغيرة كان يحتقرها ولا يعباء بها (وهى جمهورية السويسة) افسدت عليه هذه المقاصد وخيبت آماله فيما عزم عليه من فتح تلك البلاد وذلك أن تاجرا من تجار السويسة مر بأراضي قونتة رومونت وكان من حلفاء دوق برغونيا فخرج عليه ضباط هذا القونتة ونهبوا ما معه متعللين بأنه لم يدفع العوايد فلما بلغ ذلك اهل السويسة عزموا على الانتقام

لصاحبهم

لصاحبهم فقاتلوا القونتة واخذوا جزأ من اراضيه فطلب الاعانة من دوق برغونيا وكان كرلوس شديد الحقد عليهم من قبل فاجابه الى ذلك وانضم اليه مع الرغبة الشديدة فادرك اهل السويسة من الفزع والرعب ما لا مزيد عليه وطلبوا الاعانة من الملك لويز الحادى عشر والزموه بموجب المشارطة المنعقدة بينه وبينهم أن يمدهم بالرجال والاموال حتى تنقضى مدة الحرب فتحير الملك من ذلك وعرض على الاحبار هذه المسئلة المتعلقة بذمته وسألهم هل يسوغ بمقتضى المشارطة المنعقدة بينه وبين كرلوس أن يأذن لامير او ملتزم اولاى جهة من الجهات بمحاربة دوق برغونيا او اضراره او يقرّ من ذكر او يعينه على ذلك من غير أن يستوجب غضب الله تعالى ولا تبرأ ذمته واذا قلتم بالاعانة فما غايتها فاجابوا بما صورته يسوغ اقرار من اراد قتال دوق برغونيا من الامراء وتركهم يفعلون معه ماشاؤا نظرا الى ما سلكه هذا الدوق فى حق الملك والمملكة ويكفى فى الخروج من العهدة عدم اعانتهم ومساعدتهم انتهى فاخذ لويز الحادى عشر بفتواهم ولم يبعث لاهل السويسة بالمدد والاعانة فلما رأوا أنهم صاروا لا ظهير لهم ولا نصير اخذوا فى اسباب استعطاف دوق برغونيا واستمالته اليهم وعرضوا عليه أنهم يجبرون ما وقع منهم فى حقه من الخلل والمضار وينقضون ما بينهم وبين الامراء من المعاهدات حتى معاهدة فرانسا ويمدونه بستة آلاف من عساكرهم ثم بينوا له خمولة اراضيهم وفاقة اهلها وقالوا له جميع اموالنا لا تعادل اعنة خيلك ولا مهاميز خيالتك فلم يقبل كرلوس منهم صرفا ولا عدلا ولم يؤثر فيه كلامهم شيأ لكنه ندم بعد ذلك حيث لا ينفعه الندم وذلك أنه حمل عليهم فى مضايق اغرنسون فلم يمكن للخيالة أن ينتشروا ويجولوا فيها فانهزم هزيمة فاحشة وغنم الغالبون اثقاله ومدافعه وصحاف مائدته وما كان معه من الاموال فلم يعرف السويسية بجهلهم وبقاءهم على اصل الفطرة قيمة هذه الغنيمة الثمينة بل اعتقدوا أن هذه الصحاف المتخذة من الفضة مصنوعة من القصدير وباعوها بثمن بخس حتى ان احدهم وجد

بحجر الماس من اعظم الماس الدوق فباعه لبعض القسوس بفلورين من الذهب ثم باعه ذلك القسيس بثلاثة فرنكات ومن يومئذ صار هذا الحجر ثانى احجار التاج الالماسية

وكان الملك رينة الهرم حليفا وقتئذ لدوق برغونيا فرأى أن النكبة التى لحقت حليفه ستلحقه ايضا وذلك أنه كان قد اغضب ابن اخته وهو الملك لويز الحادى عشر بحمله لحفيده الدوق نيقولاس على أن يعدل عن زواج حانة دى فرانسا وكان قد وعد بزواجها وأن يسعى فى زواج مارية دى بورغونيا فاراد لويز أن ينتقم منه على هذه المنقصة فتغلب على اقليم انجو وشغل دوقية بار بعد موت نيقولاس متعللا بأنه يريد التوجه لاعانة رينة وديمونت على الدوق كرلوس ثم طلب من خاله المذكور نصف التزامات عشيرة انجو بوصف كونه ابن مارية اخته ووارثها متظلما من كون هذا الامير (يعنى رينة) حاز جميع ميراث عشيرته واستبد به دون مارية مع أن لها الحق فى مقاسمته فيه وطلب منه ايضا مأتى الف ريال كان قد اخذها حفيده نيقولاس فى مهر حانة دى فرانسا التى عدل عن زواجها وخمسين الف ريال كان قد التزم بها لايدوارد ملك الانكليز فى فداء الملكة مرغريطة وطلب ايضا ريع هذه المبالغ وقصارى الامر أنه طلب منه أن يتخلى له بالكلية عن جميع املاكه واراضيه حتى يكون موفيا بالمبالغ المذكورة وأنه يجعل له فى نظير ذلك مرتبا سنويا يبلغ ستين الف فرنك مدة حياته فعند ذلك حمله الحنق والغيظ على أن ينضم الى كرلوس دوق برغونيا ويدخل فى حزبه ووعده بأنه يتبناه وينزل له عن جميع اقاليمه ويملكها له حتى فى مدة حياته ولكن هزيمة اغرنسون افسدت ذلك كله فان الملك لويز الحادى عشر استشار مجلس البرلمان فى شأن سلوك الملك رينة واحواله وسألهم ماذا يصنع معه فاخذوا فى المفاوضة فى هذه المادة ومكثوا على ذلك مدة طويلة ثم انحط رأيهم على أن العدل والانصاف يقتضيان أن يقبض على رينة ملك سيسيليا ويحضر بين ايديهم لاجل الحكم

عليه

عليه ولكن رأوا أن الاليق أن يحضر الى الديوان بنفسه مراعاة لقرابته من الملك ونظرا الى شيخوخته وكبر سنه والى امور اخرى تقتضى ذلك والا عوقب بالنفى من المملكة وبسجنه وضبط امواله ونحو ذلك من العقوبات فلما صار لا يمكنه الاعتماد على حماية دوق برغونيا سعى فى الصلح مع الملك ورد له لوين اقليم انجو بشرط أن ينضم الى اقاليم التاج بعد موته

فهكذا فقد دوق برغونيا بهزيمته فى واقعة اغرنسون معاهدة رينة وانقطعت اطماعه فى ميراثه الجسيم وترتب عليها تراكم الاحزان عليه حتى اختفى عن الابصار ولازم الخلوة ليوارى ما لحقه من الخزى والمعرة وافضت به شدة الحزن الى ضعفه واعتراه السقم والمرض الا أن حدته وشدة غضبه غلبت على مرضه وحزنه حتى صار لا يرغب فى الحياة الا لاجل الانتقام من اعدائه وصدرت عنه الاوامر وهو فى الخلوة الى ولاة اقاليمه أن يبعثوا اليه عساكر جديدة فعما قليل اجتمع عنده من العساكر جيش يبلغ خمسة وعشرين الفا فحاصر به مدينة مورات وهى على بحيرة تسمى باسمها ثم اغار عليها ثلاث مرات فى ظرف خمسة عشر يوما ولم تجد اغاراته نفعا وبينما هو كذلك اذ بلغه أن السويسية قدموا لقتاله مع رينة ووديمونت فحملته شدة التولع بالقتال على المبادرة بالذهاب لمقابلتهم ولم يتفكر أنهما اكثر عددا من عساكره فكانت الغلبة لهم عليه فى هذه المرة ايضا وهلك من اصحابه فى هذه الواقعة الشهيرة اشجع رجاله واشهر باروناته ولم ينج هو الا بشق الانفس وترك فى محل المعركة ثمانية عشر الفا من اهل برغونيا فاورثته هذه النكبة ثانيا من الحنق والعبوس ما لا مزيد عليه فاعتزل الناس بالكلية ولازم الخلوة مدة شهرين واستولى عليه اليأس والقنوط وتمكنت منه شدة الغضب حتى ظهر ذلك على وجهه وترك تعهد نفسه حتى طالت لحيته واظافره ولم يغير ثيابه التى كانت عليه فعند ذلك انتهز رينة ووديمونت فرصة هذا الاختلال والبطالة واخذ فى اسباب استرجاع بلاد لورينة فحث الناس على ما يقتضيه صغر سنه وسوء حظه من الميل اليه والاخذ بناصره وتقوى رعاياه من اهل لورينة

بحضوره لديهم وطردوا من سائر الجهات محافظي البورغونيين ودخل مقر حكومته منصورا مؤيدا مع الاحتفال والموكب فلما بلغ دوق برغونيا خبر هذه الحركة استيقظ من غفلته وجمع عاجلا كل من وجده من العساكر في اقاليمه التي اضمحلت وضعفت قواها وسار الى مدينة نسى وحاصرها لكن لما كانت الاحزان متراكمة عليه وكان دائما في غم شديد وضيق صدر لازم خيمته واناط بادارة عمليات الحصار قونتة كانبو باسو وهو رجل من ايطاليا اكتسب الحظوة عند كرلوس والوثوق به مع أنه كان لا يتفكر الا في خيانته والغدر به واما رينة فانه بعد أن حصن هذه المدينة وجعلها على حالة بحيث يمكنها المقاومة والمدافعة ذهب يبحث في السويسة وألمانيا عن مدد يستعين به على عدوه ثم رجع يقدم نحو عشرين الف مقاتل وكان الجيش البرغوني دون عساكر رينة في العدد وزيادة على ذلك لحقه الضعف بتخلي كانبو باسو عنه وكذلك رئيسان آخران من ايطاليا تخليا عنه وانتقلوا جميعا بعساكرهم الى معسكر رينة فلم يقبلهم عساكر السويسة وألمانيا لخيانتهم وغدرهم بصاحبهم وألزموا رينة بطردهم غير أن هؤلاء الخائنين لم تأخذهم الحيرة والورطة من ذلك بل نزلوا في محطة جيدة الوضع لقطع الطريق على عساكر برغونيا فكان كل من وقع في ايديهم لا يتخلص منهم الا بالفداء وبتخليهم عن كرلوس لم يبق معه من العساكر الا نحو الفي مقاتل فاشاروا عليه أن يذهب تحت اسوار مدينة پونت اموسون ليتحصن هناك وينتظر قدوم جيوش جديدة فقال لا افر من صبي ولو رماني الدهر في اسوء الحالات ثم انه في الخامس من شهر ينوية سنة ١٤٧٧ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٢ من الهجرة) خرج من بين المتاريس وتوجه نحو العدو فالتحم القتال بين الفريقين مع شدة البرد وكثرة الثلج النازل اذذاك فعما قليل ضعفت قوى البرغونيين لقلتهم وكثرة عدوهم وقتل الدوق كرلوس بعد أن ابدى من الشجاعة العجب العجاب ووجدوه ميتا في مجرى مياه كادت تنجمد من شدة البرد حيث عثر فيها جواده فسقط فيها ولم يقطعوا بأنه

هو

هو وانما كان ذلك بمجرد الظن والتخمين وصنع له دوق لورينة جنازة عظيمة ودنا من نعشه وذرفت عيناه بالدموع ورش عليه الماء المقدس وقال مامعناه تولى الله روحك يا ابن العم فانك قد جلبت لنا مصائب كثيرة وانزلت بنا هموما غزيرة قال مؤرخ لويز الحادى عشر مات كرلوس آخر دوقات برغونيا وله من العمر اربع واربعون سنة ولم يكن فيه من الاوصاف الجميلة الا الشجاعة التى هى من الاوصاف العسكرية فانه كان طماعا مخاطرا خاليا عن الرأى وحسن السلوك عدوا للصلح والهدء سفاكا للدماء خرب بيته بالمشروعات الخالية عن الحزم والتدبير واوقع رعاياه فى المصائب والنكبات فجوزى بمثل ذلك وكان جديرا بالوقوع فى المهالك

(الفصل الخامس)

فيما حصل من الحوادث من موت كرلوس المجازف الى موت لويز الحادى عشر (من سنة ١٤٧٧ الى سنة ١٤٨٣ من الميلاد) (اى من سنة ٨٨٢ الى سنة ٨٨٨ من الهجرة تقريبا)

لما لم يعقب كرلوس دوق برغونيا من الذكور من يرث بلاده بل انحصرت وراثته فى بنته مارية ذى برغونيا اقتضى الحال أن يعود جزء من بلاده الى التزامات تاج فرانسا حسبما تقتضيه قوانين الالتزام فارسل لويز الحادى عشر الى سائر الجهات مدبرين وعساكر لاجل هذا الغرض وكانت برغونيا الاصلية من الالتزامات التى لا يرثها الا الذكور خاصة فلذا انقادت الى الملك بدون معارضة وانقاد اليه ايضا اغلب مدن بيكارديا بعضها بالاكراه والاجبار وبعضها بالطوع والاختيار واما اقليم فلندرة واقليم ارتواس فكانا من حزب الاميرة مارية وكان ثم واسطة سهلة ينقطع بها النزاع والمشاجرة وهى جمع الحقوق من الطرفين بزواج الدوفين لتلك الاميرة الا أنه كان اذ ذاك لم يبلغ من العمر الا سبع سنوات تقريبا واما مارية فكان عمرها نحو عشرين سنة فهو وان امكن عقد النكاح فى مشارطة تنعقد بين الفريقين الا أن اختلافهما فى السن بهذه المشابة منع من تنجيز هذا الغرض

لطول المدة ولو امهلوا ماريه في هذا الوقت الذى كانت فيه متحيرة خائفة وعرضة لقبض العدو عليها بدون ظهير ولا نصير وأبقوا لها فسحة من الزمن تؤكد فيها ما كان قد اشرف على الانحلال من الروابط والعلاقات التى كانت بين اقاليم حكومتها وتمكن فيها شوكتها لامكن أن يترتب على ذلك أنها بعد أن يسكن روعها تصير فى حالة بحيث يسهل عليها اخلاف المواعيد التى جبرت عليها وتصير متمكنة من اختيار زوج آخر غير الدوفين ولا شك أن الذى منع لويز من قصد زواجها لابنه قصدا حقيقيا والسعى فى ذلك على سبيل الجد هو ما قام به من الخوف والحيرة فى هذا المعنى حسبما اقتضاه الانصاف والعدالة لا أن كراهته للعائلة البرغونية افضت به الى عدم التبصر والحزم فكانت هى المانع له من ذلك ومع هذا اظهر الرغبة الكلية فى زواج تلك الدوقة لابنه قصدا لامنها واطمئنانها فقد قال لقنجليير برغونيا المسمى هوغونيت والملتزم دامبركورت حين حضرا عنده وعرضا عليه زواج سيدتهما لابنه ملتمسين ذلك بدون خداع ولا محاولة انى لا ارغب فى تزويج الدوفين بمارية الا أنى اريد الاستيلاء على الاقاليم التى تعود الى التاج الملوكى بمقتضى الاصول وأن احوزها بوضع اليد عليها وكذلك الاقاليم الاخرى لكن على سبيل الوديعة حتى تبلغ الاميرة رشدها وتبايعنى فلما رأى هذان السفيران أن الملك يقود جيشا جرارا انحط رأيهما على أن يسلم له فى اقليم ارتواس ويجعل تحت رعايته وادارته وأنه يبقى تحت يده على سبيل الملكية اذا هى امتنعت من مبايعته او تزوجت باحد من اعداء فرانسا واما اهل مدينة أراس فاظهروا المخالفة والعناد واصروا على بقائهم مع الدوقة على الامانة والصداقة ولم يفتحوا ابواب مدينتهم الابعد محاصرة طويلة وبعد أن ظفر بهم الملك نفاهم الى اقاليم مختلفة وعمر مدينة الفرنساوية بالاهل والسكان وسماها فرنسية الا أن هذا الاسم اهمل ولم تتداوله الالسنة

وفى هذا الوقت حصلت حادثة محزنة فى اقليم فلندرة وذلك أن مدينة غند كانت حينئذ من اقوى مدائن اوروبا العامرة وكان اهلها الذين عادت

عليهم التجارة بالغنى والمنفعة فداورثتهم الثروة خشونة وكبرا واكسبهم تجاوز الحد في الحرية والتعود على العصيان غلظة وقسوة شديدة وكان قد تصدى لقمعهم امراء العائلة البرغونية الحربيون المطلقو التصرف فردعوهم ولم يدخلوهم تحت الطاعة وانما عوقبوا على العصيان معاقبة شديدة ولكن لم ينقطع عرق ذلك بالكلية فلذا عادوا الى الوقاحة حين حكمتهم امرأة (هى الاميرة مارية) وسرت حميتهم وهيجانهم الى جمعيات فلندرة التي اجتمعت في مدينتهم مع الهرج والاضطراب وقتلوا الحكام الذين كان نصبهم الدوق الاخير (يعني كرلوس) وجعلوا مارية تحت قبضتهم وحجرهم وزعموا أنهم الاوصياء عليها ورتبوا لها مشورة من الاعيان ومنعوها أن تستبد برأيها في شيء دونهم وحبسوها في سرايتها ولكنهم لما رأوا أن لويز الحادي عشر لم يقتصر على اخذ اقليم ارتواس بل بعث فرقا عسكرية الى اقليمي برابنت وهينوت جزعوا من كون فتوحات هذا الملك آخذة في القرب من اقاليمهم ولم يتأثروا من تمزيقه لاقاليم مارية وتفريقه لاجزاء حكومتها فارسلوا اليه سفراء يذكرونه بالمهادنة التي انعقدت سابقا بينه وبين كرلوس وطلبوا منه الصلح واخفوا عن الاميرة امر تلك السفارة وكان مع هوغونيت ودامبركورت حين ذهبا الى لويز كتاب من طرف مارية كالسند عليها يتضمن التفويض الى هذين الاميرين وأنها معتمدة عليهما وواثقة بهما وترجت فيه الملك أن لا يتذاكر فيما يخصها الا معهما وكان قد بلغ لويز ماوقع في فلندرة من الفتن والتعكيرات فلم يحث الا عن اثارتها واضرام نارها ولما حضر الى ديوانه سفراء غند ارتاب مما معهم من الاوامر واطلعهم على الاوامر التي قدمها اليه هوغونيت ودامبركورت بل واعطاهم كتاب الاميرة وماذاك الا لانه كان يحتقر اصول الشرف والمروءة ولا يسلك مسالك الاستقامة والانسانية حتى بلغ منه ذلك ما حمله على هذه الفعلة الذميمة فعند ذلك رجع سفراء غند وهم يتشكون من الخيانة ويقولون ان هوغونيت ودامبركورت قد جبرا الاميرة على أن ارسلت للويز

الحادى عشر) مكاتيب تفوض فيها اليهما دون غيرهما وانهما تجاوزا الحد فى ائتمانها لهما وتشارطا سرًا مع اعداء الدوقية فقبض عليهما لهذه التهمة وعينوا لهما قضاة اناطوهم بالبحث عن ذنوبهما ثم حكموا عليهما بالموت فضربت اعناقهما ولم يلتفتوا لتضرع اميرتهم الصغيرة ولم يرثوا لحالها ولا لبكائها ونحيبها وكانت قد فرت من حرسها وذهبت تهرول الى الساحة العمومية وطلبت من الجلادين القاسية قلوبهم أن لا يقتلوا هذين الوزيرين الامينين

ثم ذهبوا بها الى سرايتها وهى فى حكم الاموات لكونها قد اغمى عليها من رؤية هذا الامر الهائل ولم تفق من سكرة الموت الا لتتجرع ثانيا غصص المذلة والاهانة حيث ابعدوا عنها خدمها وضيقوا على احبابها وقصارى الامر أن الغندية عزموا على تزويجها فاختاروا لها بعلا يقال له أدولف دوغو يلدرة وبئسما اختاروا فان هذا الرجل كان مكروها لجميع الناس وكان والدها كرلوس المجازف قد سجنه فى حصن كورترية فاخرجوه من السجن ولكنهم ارادوا أن يفعل بعض خدم مهمة حتى يكون بها مستحقا لما اعدّوه له من الشرف فكان ذلك سببا فى انقاذ مارية من هذا الزواج وذلك أن لويز الحادى عشر كان قد تغلب على مدينة طورنية فجعل الغندية ادولف قائدهم وذهبوا معه لاسترجاع هذه المدينة فحقت عليهم الهزيمة وقتل قائدهم فى المعركة واورثتهم تلك الهزيمة الصغار والمذلة حيث ارغمت انوفهم وزال بها كبرهم وعتوّهم وتخلصت مارية من جرهم وظلمهم واسترجعت شوكتها وحريتها الا أن لويز كان لم يزل يتغلب على بلادها فاستولى على اقليم الفرنشقونتة وكانت فتوحاته آخذة فى الزيادة جهة فلندرة فكانت مارية كل يوم فى فزع جديد من ذلك وكان لا بد لها من ظهير يأخذ بناصرها ويدافع عنها هذا الملك ويحميها من رعيتها خشية أن يوقظوا الفتنة ويضرموا نار العصيان فاختارت من بين الامراء الذين كانوا يرغبون فى زواجها الامير مكسميليان بن فردريق الثالث ايمبراطور النمسا

فلما بلغ لويز أنها اختارت هـذا الاميرادرك أنه اخطأ فيما فعله معها خطأ عظيما حيث حملها ذلك على الالتجاء الى الاجانب فاراد أن يتدارك مافات ويجبر هـذا الخلل فسعى جهده في زواجها الابنه بعد أن كان يحاول في ذلك ولا يرضى به ولم يجد سعيه نفعا بل حرم من هـذا الزواج الذى كان يعود عليه بالمنافع العظيمة وتزوجها مكسمليان وكان اشهار نكاحه في العشرين من شهر اغسطوس سنة ١٤٧٧ من الميلاد

فلما لم يمكن للملك تعطيل عرس مارية ومكسمليان ولا تأخيره اراد أن ينغص عليهما ويجعل مسرتهما نكدا فدخل اقليم فلندرة ونجح فيه غير مرة فارسل اليه مكسمليان سفراء يشون اليه الشكوى من اغاراته ثم انعقـدت بينهما هـدنة ببعض اشهر لينأهبا فيها للحرب واكد لويز الحادى عشر مابينه وبين السويسية ودوق لورينة من عهود المحالفة ومواثيق المعاهدة وتحقق من تخلى مملكتى انكلترة واراغون وعدم انضمامها لاحد من الفريقين وقبل أن يشرع في الحرب مع مكسمليان طلب اقامة دعوى على كرلوس المجازف ورفع ذلك الى مجلس البير (مجلس امراء الدولة) فلم يترتب على هـذه الدعوى الذميمة التى لا ثمرة لها الا ازدياد العداوة والبغضاء بينه وبين مكسمليان فوقع بينهما القتال مع الحقد الشديد ولحق الارشدوق مكسمليان في غزوتى سنة ١٤٧٧ وسنة ١٤٧٨ من الميلاد بعض نكبات اساءته ثم كانت له النصرة في غزوة سنة ١٤٧٩ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٤ هجرية) وذلك أنه بعد أن تغلب على اقليم ارتواس بجيش جرار من الالمان والبرابنسون حاصر مدينة تروانة فلما قدم مارشال الكوردة لاعانة هذه المدينـة سار مكسمليان لمقاتلته فوقع القتال بينهما (في الرابع والعشرين من شهر اغسطوس) وهى واقعة غنغاتة التى كانت النصرة فيها للنمساوية بعد كثير من المصادمات والمحاربات ولكن مع بذلهم فيها اعلى الاثمان واغلاها لم يربحوا فيها شيأ بل رفع الارشدوق الحصار عن مدينة تروانة ومكث الحرب

بين الفريقين عدة سنوات بدون ثمرة فكان القتال تارة يتعلق بعقد الهدنة وتارة يشتد بفسخها فكنت تراهم يلقون اسلحتهم ثم يعودون الى حملها فى مسافات قصيرة من الزمن وكانوا فى خلال تلك المدة يشتغلون بالمفاوضات او بالدسائس ثم عرضت حادثة على حين غفلة تغير بها الحال بالكلية وذلك أن مارية زوجة الارشدوق مكسيمليان كانت ذات يوم فى اكناف مدينة بروچس للصيد والقنص فسقطت من فوق جوادها سقطة شديدة ترتب عليها حمى قوية افضت بها الى الهلاك بعد ستة اسابيع فى الخامس والعشرين من شهر مارث سنة ١٤٨٢ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٧ من الهجرة) ولها من العمر خمس وعشرون سنة واعقبت ولدين احدهما الامير فيليبش الذى تزوج فيما بعد بجانة دى قسطيلة فكان هذا الزواج سببا فى اخذ العائلة النيمساوية لمملكة اسبانيا وثانيهما الاميرة مرغريطة وبموت مارية فقد مكسيمليان كل شئ كان له بزواجها فان الغندية امتنعوا من طاعته وابوا الانقياد لامير اجنبى منهم واستولوا على فيليبش ومرغريطة وابطلوا كفالة ابيهما لهما وجعلوها لانفسهم وقصارى الامر أنهم الزموا مكسيمليان بالصلح مع الملك لويز الحادى عشر فافتتحت المداولات فى هذا المعنى بمدينة اراس وتشارط اهل غندة مع لويز الذى كان يسميهم سادات غندة مشارطة راعوا فيها جانبه بدون أن يستشيروا فى ذلك الارشدوق مكسيمليان حيث اتفقوا فيها على زواج مرغريطة بنت مارية بالدوفين ابن الملك لويز مع أنه كان خاطبا ايليزابيطة الانكليزية وجعلوا صداقها اقليمى الفرنشقونتة وارتواس ووضعوا القرار من غير توقف على انضمام دوقية برغونيا الى بلاد التاج وانى بمرغريطة الى فرانسا ولكن اقتضى الحال أنها لا تحكم فى هذه المملكة فان كرلوس الثامن ارسلها الى ابيها فيما بعد ليتزوج حانة دى ابريطانيا .

ولم يكن الملك متفرغا بالكلية للحرب مع مكسيمليان بل كان مشتغلا ايضا

بامر باكس دوأرمنياك دوق تيمور وذلك أن هذا الدوق بعد أن عفا عنه
الملك عدة مرات عاد الى تعصباته مع اعداء الدولة الفرنساوية فقبض عليه الملك
سنة ١٤٧٥ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٠ من الهجرة) وحبسه
في سجن بستيلة ولم يخرج من سجنه الا بعد سنتين للقتل وتقاسم امواله
في حياته القضاة الذين كانوا منوطين بفصل دعواه وكان له من الاولاد ثلاثة
صبيان فافضت القسوة وشدة الغضب بلويز الى قتلهم قبل ابيهم ولولا ذلك
لكان اسفه على ترك هؤلاء الاولاد يكابدون مشاق الفاقة والفقر اشد عليه من
القتل حيث انهم مع سوء حظهم من عائلة شهيرة وعشيرة جليلة خطيرة ولكن
امر بهم لويز فصعد بهم الجلادون على الآلة المعدة للقتل وضربت اعناقهم
ثم الحق بهم ابوهم وسال دمه على رؤسهم
وبعد ذلك باربع سنوات (سنة ١٤٨١ ميلاديه) (اعنى نحو سنة ٨٨٦
هجريه) حصلت حادثة اخرى كانت دون السابقة في العدالة والانصاف من
حيث مبدؤها وفي الشؤم والاجحاف من حيث غايتها لانها انما نشأت من كراهة
الملك وطمع خاصته وذلك أن رينة دي ألنسون قونتة برشة كان
قد اعتزل الديوان وعاش بعيدا عن الدولة منذ حكمت على ابيه بالعقاب فوشى به
بعض خاصة الملك طمعا منهم في الاستيلاء على ما بيده من الاملاك والاموال
قائلين ان اعتزاله عن الديوان ليس من باب الخوف وسداد الرأى وانما هو اعتزال
تعصب وتحزب وادعوا عليه دعاوى سلبوا بها جزأ من التزاماته فنشكى من ذلك
وتظلم ولكنهم سلكوا في حقه مسالك الوشي والنميمة وبالغوا في التظلم الصادر
منه حتى أخرجوه من حيز العدالة الى حيز الاعتساف فغضب الملك من ذلك
وصار يهدده ويرهبه فلما داخله الخوف والرعب اختار ملجأ ليأمن فيه على
نفسه مع أن هذا الملجأ كان يقوى شبهة الملك فيه وذلك أنه كتب الى دوق
ابريطانيا كتابا يترجاه أن ينزله بمحل من بلاده فعثر على هذا الكتاب وقبض
عليه في اثناء هروبه واولوا ما وقع منه من الاحتراس والفزع على خلاف
قصده وحملوا ذلك على ما يقضي بحتفه فعين الملك قضاة لفصل هذه الدعوى

فلم يتجاسروا على أن يقضوا فى شأنه بشئ بأن يحكموا عليه اوله بل سلكوا معه مسلك المعروف والعدالة على وجه يقضى بدناءة انفسهم وخوفهم من سطوة الشوكة الملوكية حيث فوضوا امره الى الملك فكان فصل دعواه بهذه المثابة التى لم يتبين بها الامر سببا فى تولى الملك امره والحكم فى شأنه فاستولى الملك على حصونه واقتضى حلمه وعدله أن يسلب اموال هذا الرجل البرئ و يتركه يتمتع بالعيش والحياة

وقد استولى الملك فى هذا الزمن على ما هو اعظم من ذلك واهم وذلك أن الملك رينة مات سنة ١٤٨٠ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٥ من الهجرة) فانضم بموته اقليم انجو الى اراضى التاج وورث عنه اقليم بروونسة ابن اخيه قونتة مينة وكان آخر عائلته من الذكور الا أن هذا القونتة لم يتمتع بالاقليم المذكور زمنا طويلا بل مات سنة ١٤٨١ من الميلاد ولم يعقب ذرية واوصى به للملك مع ما كان لعائلة انجو من الحقوق فى مملكة نابلى فاستولى الملك على اقليم بروونسة فورا وظهر له أن فتح المملكة الاجنبية (يعنى مملكة نابلى) عديم الجدوى مع ما فيه من الخطر ولو لم يمنعه سداد رأيه عن التصدى لهذا المشروع لمنعه عنه كبر سنه وضعف بنيته

ثم ان الملك صار يعتريه داء السكتة بكثرة حتى ضعفت قواه فكان هذا المرض الذى اصابه فى غير اوانه ينذره بالاقلاع عن الاطماع الواسعة والتنحى عن المقاصد العالية لكنه وان فقد الطمع فى الفتوحات الا أنه لم يفقد الطمع فى طاعته والانقياد اليه بل استمر يطمع فى ذلك حتى انقضى اجله فكان يظهر من حاله أن غيرته على حكومته تنمو وتزداد كلما كانت تلك الحكومة تقرب من الضياع وتشرف على الخروج من تحت يده فانه كان يلزم رعاياه أن يطيعوه فى جميع الاشياء وأن يأخذوا اوامره قضية مسلمة فكانوا لا يتجاسرون على تأويلها وحملها على خلاف ظاهرها وكان كلما اخذت صحته فى التناقص يظهر أن فيه كفاءة للقيام باعباء الحكومة و يبدى فى ذلك ما لا مزيد عليه من النشاط والاجتهاد

حتى

حتى كأن المصالح العادية لا تكفي في اشغاله بل هي دون همته واجتهاده فقد طاف سنة ١٤٨١ من الميلاد عدة اقاليم وذهب الى اقليم نورمنديا بصدد الاطلاع على معسكر هنالك كان فيه من العساكر عشرة آلاف مقاتل وكان يحاول أن يوقع في اذهان الناس أن له مقاصد عظيمة واغراضا جسيمة وانه قادر على تنفيذها لكن لما كان مرضه يزداد كل يوم زيادة بينة بحيث لا يمكن معه النقلة والاسفار والاقدام على تنجيز الاغراض الكبيرة رأى أن الاوفق بحاله ان يعتزل الناس و يختفي عن ابصار الرعية حتى لا ينظروا سقمه ولا يروا ضعفه فلازم قصره المسمى باسم بليسيليز تورس وسلك مع رعيته مسلك الظلم والاجحاف وهو مختف عن ابصارهم ونشر في الخلاء ما لا يعد ولا يحصى من الآلات المسماة شوس تراب (وهي آلة من الحديد ذات اسنان اربعة) لمنع وصول الخيالة اليه وضرب على سرايته والاولى أن يقال على سجنه سورا من الحديد والشبكات المختلفة الانواع واقام عليها حرسا عظيما على غاية من التيقظ والملاحظة ووضع هنالك ما صارت به هيئة ذلك المحل مخوفة مفزعة فكل ذلك كان يمنع الناس عن الدنو منه والوصول اليه ومكث في هذا القصر وهو دائما مشغول الذمة قلق السريرة بحيث صار لا يبرح عن محاسبة نفسه ولومها وتعنيفها وتواردت عليه الوساوس والافكار وسوء الظن حتى صار لا يهنأ له عيش ولا تطيب له حياة وكان يموت كل يوم من خوف الموت وكان لا يظهر على احد من الناس بل كان متنفيا عن الابصار ولم يكن معه في القصر انيس الا رجل او رجلان من الرعاع لم تكن سيرتهما في الناس جيدة وكان اذا خرج في بعض الاحيان وظهر بين الناس لملاقاة الاجنبية والمفاوضة معهم او للتشريفات التي كان يأمر بها يظهر بالمظهر الملوكي مع رسوم الابهة وشعار الفخار التي كان يحتقرها ولا يعوّل عليها حين كان يرى أن عظمه ذاتي لا بالتشبث بمثل تلك الامور وكان يجلب من البلاد الاجنبية كلابا وخيولا وحيوانات يندر وجودها بمملكة فرانسا ليكون دائما في اذهان الاجانب لا يبرح عن افكارهم فاذا حضرت اليه تلك الحيوانات لم ينظر اليها بعين الاعتناء

لكونها عنده ليست عظيم شئ وكان كل يوم يغير خدمه و يعزل قدماء ضباطه عملا بما تقتضيه اهواؤه وتسوله له نفسه ور بما سلك فى افعاله مسلك الظلم واطلاق التصرف ليظهر لارباب ديوانه انه لم يزل على قوة شوكته ونفوذ كلمته لم ينقص من ذلك شيأ الا أنه فى مدة ارهابه للناس وايقاعه فى قلوبهم الخوف والرعب كان ايضا يخاف من طبيبه يوحنا كوتيير وكان من ارباب الشره والوقاحة فكان لعلمه بأنه لا يستغنى عنه وأنه لابد منه لهذا الملك المطلق التصرف اكثر من غيره يستحسن أن يسلك معه مسلك الانفة والشمم وكان لويز يرى أن نفسه بيد هذا الطبيب وأن حياته تحت قبضته وتصرفه فكان لا يجسر على أن يمنع عنه شيأ اولا يجيبه فى امر ما فقيما دون ثمانية اشهر اخذ منه تسعين الف ريال وعدة التزامات عظيمة ثم ان الملك فى اثناء ما كان يبديه من المجهودات والسعى فى حفظ مهجته وما بقى من آثار شوكته تذكر خليفته ووارثه (وهو ولده) وكان لارتيابه منه وسوء ظنه فيه بعثه الى مدينة انبوازة ليتربى فيها وينشأ هنالك على الجهالة والعزلة عن الناس فلما احس أن اجله قد دنا احب أن ينظره قبل موته فارتحل الى تلك المدينة سنة ١٤٨٢ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٧ من الهجرة) وكتب له وصية بين له فيها ما يجب عليه فى حق الله تعالى وفى حق الرعية وحثه على أن يسلك فى احكامه مسلك الرفق والعدل وأن لا يحذو حذوه فى الحكم ومثل هذا الاعتراف وان كان فى غيره وانه يعد من الامور المحمودة وكثيرا ما حمل قرب الاجل وخوف الموت غيره من الملوك على مثل هذا الاعتراف ثم انه عاهد الدوفين على أن يعمل بتلك الوصية ولا يعدل عنها ابدا

ومع ما بذله من المجهودات فى ازالة الموت من فكره كان فى بعض الاحيان يشتد به الحال ويتخيل الموت كأنه حاضر أمامه فكأنه كان يريد بذلك التعود على استحضاره وتفكره دائما حتى انه رسم بنفسه صورة قبره وابعاده وزينته وزخارفه ولكن هذه الامور الدالة على ثباته كان يقضى بخلافها سلوكه واحواله فانه كان يطلب من جميع الجهات ادوية لدائه وادعية لبرئه وشفائه وحصن نفسه

بالرقاء والتمائم وصار يجزل العطاء لاهل الكنيسة وكان القديس فرنسيس دوبواس وقتئذ قد اراد العزلة عن الناس رغبة في الخمول وعدم الشهرة حتى لا يطلع احد على فضائله فاختلى في صومعة حقيرة لا يعتنى بها فوقع فيما فرّ منه حيث كان فراره من الشهرة سببا في البحث عنه فانه كان مشهورا عندهم بالبركة والصلاح في بلاد ايطاليا و فرانسا فاحضره لويز من كلابرة طامعا في الشفاء ببركة دعائه حتى انه بمجرد وصوله اليه خرّ على اقدامه وترجاه أن يمنحه فسحة الاجل وطول العمر فاقامه فرنسيس وافهمه مع التواضع والخضوع أن حياة العباد وآجالهم انما هي بيد الله سبحانه وتعالى دون غيره واخذ يسليه ويذكر له ما يستطيب به الموت ويرغبه فيه حتى لا ينفر منه ويجزع ثم لما قارب الوفاة واخبروه أنه لم يبق لدائه دواء دبر حكومة الدولة واوصى أن بنته البكرية المسماة حانة دوفرانسا دام دوبوجو هي الوصية بعده على ابنه كرلوس الثامن وبعد أن تمم امر الوصايا طلب الاسرار المقدسة (حسبما تقتضيه ديانتهم) وتلقاها مع الثبات والتسليم ثم فارق الحياة وعمره ستون سنة في الثلاثين من شهر اغسطوس سنة ١٤٨٣ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٨ من الهجرة) ومات وهو يكرر هذه الكلمات ياسيدتي دام دوامبرون اعينيني وصار ايضا يفتتح مديح الرحمات الآلهية ويلهج بذلك حتى فارق الدنيا وكان هذا الملك يبغض عصابة الاشراف فكان يؤثر عليهم في مجالسه ومنادمته اناسا اخساء الاصل مثل حلاقه اوليويير لودام فانه ولاه قونتة على مولان وكذلك يوفريدي وهو ابن تاجر من لكسيلة و بالو وهو ابن طحان من بواتو وكان يخالط اولاد البلد ويزورهم ويسألهم عن مصالحهم واشغالهم ويمادعاهم في بعض الاحيان الى الاكل معه على المائدة وقيد اسمه مع اسماء اهل الفنون والصنائع وكان اذا لامه احد على عدم مراعاة حقوق منصبه وشعار رتبته يقول متى سار الكبر الى مكان تبعه الخزي والخسران ومع ذلك لم يكن محبا للرعية فانه انما كان يرقي العامة الى الرتب العالية لبغضه للاعيان لا لمحبته للامة

وقد ذكر بعض مؤلفى المتأخرين أن لويز الحادى عشر كان قوى الرأس ضعيف العقل فاسد القلب نعم انه كان دائما يشتغل بالمقاصد العالية ويسلك طريق الدسائس الدقيقة المتقنة التى كان يبتدعها ويدبر امرها ويحاول تنجيز ما اضمره من خفض الاشراف واذلالهم وجعل فرانسا منقادة لحكومة كانت بمكان من الثبات والتمكن والقسوة والصعوبة ولكن كان له هفوات شنيعة وزلات فظيعة (فكان عنده عدة منجمين ماهياتهم على طرفه) وكانت له اوهام باطلة وعقائد غريبة عاطلة وكانت ديانته فاسدة خالية عن الحكمة والآداب حيث كان يعتقد أن خطاياه كلها تكفر بامور كان يدقق فيها مع أنها لا ثمرة لها كالادعية التى كان يبذل فيها الاموال وانعاماته على الكنائس وكان لا يحلف يمينا الا حنث فيها قصدا بدون توقف ماعدا اليمين التى يحلفها على صليب سنت لو

وقد كان المأمول من هذا الملك حسن الاستقامة وعلو الهمة فانه مارس العلوم والمعارف وانشأ مجامع علوم فى والنسة وبرجس ونقل مجمع دولة الى بيزنسون وكان له معرفة باللسان اللاطينى وكان محاميا للعلوم والآداب وكان يكرم العلماء واهل الطباعة ويحسن ملاقاتهم وكان اول من اخترع هذا الفن (اعنى فن الطباعة) الذى انتشرت به العلوم والمعارف البشرية هو يوحنا غوتمبرغ من اهل ميانسة سنة ١٤٤٠ من الميلاد (اى نحو سنة ٨٤٤ من الهجرة) ثم نقله الى باريس سنة ١٤٧٠ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧٥ هجرية) ثلاثة طباعين من الالمان وهم اولريك جرنغ ومخايل فريبورجير ومرتين كرانتز فجعلوا دار طباعتهم بمدرسة لاسربونة وترتب على نجاح هذا الامر نجاح غيره حيث اتسعت دائرة العلوم وتقدمت فى اقرب وقت بنشر الكتب مع غاية السرعة والسهولة بعد أن كانت الى ذلك الوقت قليلة الوجود غالية الثمن حتى ان المتشبثين بمطالعة الكتب العلمية كان لا يمكنهم تحصيل ما يلزم لهم من الكتب الا بشق الانفس لندرتها وعزتها

وكان

وكان علم الطب يدرس اوّلا فى مجمع باريس الا أن هذا العلم الذى كان قليل التقدم وكان مخلوطا بالضلالات والاعمال السحرية لم يكن له مدرسة مخصوصة ولكن تجددت له فى عهد هذا الملك مدرسة خصوصية سنة ١٤٧٢ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧٧ هجرية) وبعد ذلك بسنتين انتشر هذا الفن باستكشاف نافع وهو عملية الحجر التى جربت وظهر نجاحها فى بعض الرماة من اهل مودون وكان قد حكم عليه بالقتل لجناية ارتكبها فنجا من الهلاك مرتين بواسطة هذه التجربة الناجحة

وكان لهذا الملك مزيد التفات الى التجارة حيث كان يتأثر من كون مملكته محتاجة لمحصولات الدول الاجنبية فاراد أن يجبر هذا الخلل فاحضر من بلاد اليونان ومن بلاد ايطاليا كثيرا من ارباب الصنائع ليجدد بمملكته معامل وورشا للاقمشة المزركشة بالذهب والفضة واقمشة الحرير وامر بمعافاتهم من جميع التكاليف والمغارم بسائر انواعها وكذلك زوجاتهم واراملهم واولادهم ثم حرر اشعارا يتضمن الاذن بالتجارة برا وبحرا لسائر القسوس والاشراف وغيرهم بشرط أن من تاجر منهم فى البحر لا يأتى بالبضائع الا فى سفن فرنساوية وفى سنة ١٤٧٠ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٧٥ من الهجرة) وضع قانونا فى شأن استخراج المعادن ولم يكن له قبل ذلك قانون معين وصدر عنه امر بمعافاة كل من اتى لهذا الغرض من الشغالة الاجانب من جميع المغارم مدة عشرين سنة وخيرهم اما أن ينتظموا فى سلك الفرنساوية او يعودوا الى بلادهم

ومن اعظم ترتيبات لويز الحادى عشر واتمها نفعا هو ترتيب البريد والبوسطة وكانت البوسطة فى مبدء الامر معدة لمصالح الملك والبابا خاصة ثم اتسعت دائرتها سنة ١٤٨١ من الميلاد (اى نحو سنة ٨٨٦ من الهجرة) حتى صارت تستعمل فى مصالح الاهالى ومراسلاتهم

وكان هذا الملك كلما لم تدعه كراهة الاعيان الى ارتكاب ما يخالف قوانين اقامة الدعاوى وطرق فصل الخصومات يلتفت كل الالتفات ويعتنى اتم

الاعتناء باجراء ذلك على وجه العدالة والتحقيق وكان قد رتب قبل أن يتولى المملكة برلمان غرنوبلة (اى مجلس هذه المدينة) ثم رتب اثنين آخرين بعد التولية وهما مجلس بردو سنة ١٤٦٢ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٦٧ من الهجرة) ومجلس ديجون سنة ١٤٧٧ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٢ هجرية) ورتب قانونا يتضمن أنه لا يسوغ توظيف احد بوظيفة الا اذا كانت خالية بموت صاحبها اونزوله عنها اوعدم قيامه باداتها وكان لويز عازما على أن يجمع جميع القوانين والعوايد ويؤلف منها كتاب قوانين للمملكة لا يكون العمل على خلافه ويختصر طرق فصل الدعاوى وبالجملة فلا مانع أن يقال ان حكومة لويز الحادى عشر وان اضرت بالاعيان والاشراف الا انها عادت بالنفع على العامة الا ما كان فيها من زيادة المغارم زيادة جسيمة فقد كانت المغارم الاهلية على عهد والده كرلوس السابع تبلغ ١٨٠٠٠٠٠ فرنك وبلغت فى ايامه ٤٧٠٠٠٠٠ فرنك وقد ذكر المؤلف كومين فى كتابه مانصه ان من رأى اوعلم فقر الاهالى وفاقتهم حينئذ رثى لحالهم واخذته الرأفة عليهم الا أنه كان فى سيدنا العظيم (يعنى الملك) خصلة ممدوحة وفضيلة مستحسنة وهى أنه كان لا يكنز فى خزائنه شيأ من الاموال بل كان يصرف كل ما جمعه انتهى

وقال المؤرخ دقلوس ان لويز الحادى عشر كان يقوم بمصاريف الجيوش اللازمة ويحصن المدائن ويرممها ويعمرها ويحدث المعامل وجعل النهيرات قابلة للملاحة بها وانشأ مبانى عظيمة وكان يستميل اعداءه بالاموال وكثرة البذل حقنا للدم رعيته ولم يحصل فى ايامه الا واقعتان احداهما واقعة مونتلهيرى والاخرى واقعة غنغاطة ومع ذلك اكتسب بسياسته من الفتوحات مالا يكتسبه غيره من الملوك باسلحته فقد وسع المملكة بما الحقه بها من قونتية روسليون واقليمى برغونيا واقاليم ارتواس وبيكارديا وبروونسة وانجو ومينة واذل الاعيان وقمعهم ومنعهم عن الجور والتعدى وكانت عاقبة امره أن احل بالمملكة صلحا فاخرا وهدأ تاما ثم مات وترك فيها جيشا يبلغ

ستين الفاعلى احسن حالة واكمل نظام وترك ايضا من الطوبجية طقما كاملا وترك جميع الثغور محصنة مستوفية لسائر اللوازم والادوات انتهى

ومع أن هذا الملك رتب فى المملكة ما لم يرتبه غيره مات وهو مبغوض للرعية بخلاف كثير من الملوك فانهم وان لم يضاهوه فى ذلك الأن موتهم كان يحزن الرعية ويسئهم فكان الاشراف يكرهونه لانه كان يكره مزاياهم اشد الكراهة وكان القسوس لاترضى نفوسهم بالصفح عنه فى نظير ابطاله للقانون القسيسى المسمى ابرجماتيكة وكان الرعية يضجون من كثرة المغارم والمظالم وبالجملة فكان مضرا بجميع الطوائف فى مصالحهم الخصوصية وكانت طبيعة الرعية مباينة بالكلية لطبيعة ملكها فان هذه الامة المتعودة على حب ملوكها ومدحهم على ما حازوه من الشجاعة والمروءة والرأفة والاستقامة والصدق وغير ذلك من صفات الملوك وخصال الابطال التى كانت متحققة فى فيليبش اغسطوس وسنت لويز وكرلوس السابع واضرابهم كانت فى المذلة والضجر من تحمل اثقال حكومة هذا الملك الذى كان يميل كل الميل الى التوغل فى مسالك الدسائس ويسر من نكث الايمان ونقض العهود ويرى أن نجاحه بالحيل والدسائس خير له من نصرة يكتسبها على العدو بالقوة والسلاح وكان كثير الاوهام فكان يعتقد صحة ما يقوله المنجمون وكان قليل الديانة جدا فكان يتلاعب بالايمان والعهود وان صدرت منه على رؤوس الاشهاد وكان ذا شدة وقسوة حيث كانت سياسته تدعوه الى ايقاع الرعب فى قلوب الاهالى بالقتل وسفك الدماء وكان مع هرمه وشيخوخته سفاكا للدماء فلولا أن قصر بليسيسليزتورس اخفى فى داخل جدرانه ما كان يصدر عن هذا الملك من الخبائث والفواحش التى كانت تضاهى ما كان يقع فى مدينة كبرية (بايطاليا) لذكرتنا شيخوخته شيخوخة القيصر طبريوس (الذى كان بهذه المدينة)

قال بوسوة فى مختصر تاريخ فرانسا ان لويز الحادى عشر رفع اعلام الشوكة الملوكية حتى بلغت اقصى الدرجات فقد دخل الفلمنك تحت تبعيته وحل بالعشيرة البرغونية فى ايامه الضعف والعجز بعد أن نغصت عليه واوقعته

فى الحيرة والارتباك وصار دوق برغونيا الذى كان من ابغض الناس اليه عاجزا بحيث لايمكنه الشروع فى شئ حيث صار زمامه بايدى طائفة حربية كبيرة كانت على حدود بلاده واصطلحت مع هذا الملك دولة اسبانيا وصارت تخشى بطشه وصولته وتخاف قواه واسلحته من جهة روسليون التى كانت تحت يده على سبيل الرهنية ومن جهة بلاد البورتغال وبلاد نوارة التى كانت من حزبه وتسعى فى مصالحه وضعفت انكلترة فى ايامه وحلت بها الفتن والتعكيرات وصارت ايقوسيا معه بالكلية وصار له فى ألمانيا حلفاء كثيرون وانقاد السويسة لاحكامه حتى كأنهم رعيته وبالجملة فكانت شوكته على غاية من التمكن فى داخل المملكة ومهيبة جدا فى خارجها بحيث لم يبق عليه الاأن يريد شيأ فيبادر بتحصيله له على طبق مراده

وهذه الاوصاف فى حد ذاتها عظيمة ممدوحة الاأن زيغه عن الدين واتباعه للاوهام الفاسدة وكونه خلى بين نفسه والارتياب من سائر الناس وعدم الوثوق باحد منهم وسلوكه فى العقوبات مسلك الشدة والصعوبة وتولعه بسفك الدماء كل ذلك يعد من الصفات الذميمة التى لاتليق الابالنفوس الخسيسة والطباع الدنيئة لابالامراء والملوك انتهى

ومن سعد الافرنج ووفور حظهم أن مثل هذه الحكومة الظالمة المظلمة لايمكن أن تكون اسوة لملوكهم بحيث يقتفون اثرها و ينسجون على منوالها فلم يكن فى لويز الحادى عشر من المهارة ما يكفى فى تربية ولده الذى خلفه على المملكة بحيث ينشأ على اسلوبه ومنهاجه ولم يفهم خليفته هذا معنى العبارة التى كان لايعظه بغيرها وهى من لم يعرف المداراة لم يعرف الادارة

(الباب السادس)

وفيه فصول

(الفصل الاول)

فى ذكر ما حصل من تولية كرلوس الثامن (بن لويز الحادى عشر) على مملكة فرانسا الى ارتحاله الى بلاد ايطاليا (وذلك من سنة ١٤٨٣ الى

سنة

سنة ١٤٩٤ من الميلاد (اى من سنة ٨٨٨ الى سنة ٩٠٠ من الهجرة تقريبا

لما مات لويز الحادى عشر ملك فرانسا تطلب اثنان من الامراء نيابة المملكة التى كان اوصى بها لويز قبل موته لبنته (حانة دوبوجو) احدهما لويز دوق اورليان وكان اعظم امراء العشيرة الملوكية وولى عهد المملكة الفرنساوية وثانيهما يوحنا دي بوربون وهو الاخ البكرى للامير الملقب سيردوبوجو (اى والى تلك المدينة) فبحثت المشورة فى مبدأ الامر عما يكون به سد هذا الباب وانقطاع الطماعية فيه فقلدت الاول حكومة ايلدوفرانسا (اى جزيرة فرانسا) واقليم شمبانيا وقلدت الثانى منصب الكونيتابل (اى رياسة الجيوش) ولقبته بلقب باشمعاون المملكة ولكن لم يقع ذلك منهما بموقع ولم تشف تلك المناصب غليل اطماعهما فصمما على ما كانا عليه من تطلب منصب النيابة ولاجل أن يتقوى جانبهما فى ذلك جددا فى خارج المملكة مع مكسيمليان ودوق اربطانيا علائق وروابط اكيدة وطلبا فى داخلها اصلاح الادارة وتحسين طرقها وطلبا ايضا عقد الجمعية المسماة ايتاجنرو فانعقدت فى اوائل سنة ١٤٨٤ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٩ من الهجرة) وسلكت الوصية النائبة فى الحكم عن اخيها مدة انتظار عقد هذه الجمعية مسلك اللطف والحزم فى الحكومة لتستميل بذلك قلوب الرعية اليها فاطلقت المسجونين واعادت المنفيين واستردت بعض التزامات من التزامات التاج الملوكى وعافت الاهالى من ربع المغارم التى كانت عليهم واجابتهم الى عقاب اوليو بيرلودام ويوحنا دوبالئ وكانا من وزراء ابيها لويز الحادى عشر وكانا مبغوضين لجميع الناس فقتل الاول ونفى الثانى نفيا مؤبدا

وفى اثناء هذه الاحوال اخذت تلك الجمعية فى المفاوضة بمدينة طورس سنة ١٤٨٤ من الميلاد وكان حزب دوق اورليان فى مبدأ الامر هو المتسلطن فيها فاثر هذا الامير على كونه يبادر بطلب منصب النيابة الذى

لو طلبه وحينئذ لا يجيب اليه بدون مشقة امتحان ادارة لويز الحادى عشر واختيارا حكامه مؤملا أن كراهة هذا الملك عند الناس بسبب حكومته تسرى الى بنته فيبغضونها ايضا فعرض ارباب الجمعية كراسة تتضمن عدة دعاوى عظيمة وشكاوى جسيمة

فكان مما ذكروه فيها مما يخص الدين أن مزايا الكنيسة الغليكانية كانت على عهد سنتلويز وفيليبش لوبيل وكرلوس الخامس والسادس والسابع جارية مع غاية الاعتناء والمراعاة والآن يطلبون مراعاة حقوقها ومزاياها مع الصداقة والاستقامة كما كانت على عهد الملوك السابقين

وذكروا ايضا أن الاشراف هم سند المملكة وقوتها وقد ظلمهم لويز الحادى عشر وافتات عليهم مع أنه كان لهم مدخلية عظيمة فى اعادة ابيه الى حالته الاولى فينبغى أن يعودوا لما كانوا عليه من المزايا والقضاء والصدارة وطلبوا أن يرخص لهم فى الصيد والقنص بالغابات الملوكية وأن لا يدعوا الى الحرب دائما وأن لا يفوض الى الاجانب حرس الثغور والرباط فيها لخيانتهم غالبا وانما ذلك يكون من وظيفة الاشراف الذين لا يشك فى امانتهم وصداقتهم

وذكروا فيها ايضا اسباب فقر الرعية وفاقتهم وفصلوا ذلك تفصيلا شافيا فقالوا انه من حين ابطال القانون القسيسى المسمى ابرجماتيكة انتقل الى رومة من النقود مبلغ جسيم وصار بعض ندماء الملك فى ثروة عظيمة من الالتزامات الملوكية وكثرت المغارم وزادت ثلاثة اضعاف عما كانت عليه فى ايام كرلوس السابع وترتبت على الاهالى مصاريف عساكر الحرب الخالين عن الانتظام واصول الضبط والربط وكذلك مصاريف عساكر العسس الذين ازدادت عدتهم فى عهد لويز وبالجملة فالاهالى الذين لم يتمتعوا بشىء من المزايا صاروا مجبورين على الاجابة الى الحرب عند الدعاء اليه على خلاف العادة القديمة ثم ان ارباب الدرجة الثالثة من اهل المملكة طلبوا المعافاة من التكليف بهذا الامر وابطال المغرم المسمى تالية والمرتبات السنوية وما اشبه ذلك وافادت الجمعية أن اقصى مرامها هو أن لا يقلد احد من الآن فصاعدا

بوظيفة

بوظيفة اومنصب الابطريق الانتخاب كما هو العادة القديمة وأن يمنع بيع الوظائف وأن يبطل منها مالم تجربه العادة وأن لا يكون للانسان الا وظيفة واحدة وأن لا يطلب المتهمون الى الحضور بين يدى وكلاء فصل الدعاوى وأن ينسخ جميع ما حكم به فى عهد لويز من العقوبات وضبط الاموال وأن تدون عوايد اقاليم المملكة ويجرى عليها العمل وذكرت امورا اخرى غير ذلك ورضيت بضرب مغرم على الرعية يبلغ ١٢٠٠٠٠٠٠ من الفرنكات ومغرم آخر يبلغ ٣٠٠٠٠٠٠ فرنك وسمته چويوأوتمان يعنى مرتب التولية السارة وابطلت كلمة تالية لبشاعتها والتمست أن جبى اموال المغارم يكون بملاحظة ارباب تلك الجمعية وانهم يعقدون مجلسا آخر بعد مضى سنتين وأن لا يضرب على الامة شئ من المغارم الا برضاهم

فطلبت النائبة وهى بنت الملك مهلة تتروى فيها وتنظر فى ذلك وكان هناك جماعة لهم ميل ورغبة فى هذه المظالم المذكورة فى كراسة الشكوى فاخذت حانة فى طرف هذه المدة تقوى حزبها وتؤيده حتى صارت لا تخشى الحزب الآخر فى شئ فعند ذلك افادتهم بجواب الملك فى هذا المعنى فقالت ان معارضة الكردينالات والاحبار تمنع من بت الامر فيما يتعلق بالامور القسيسية واما الاشراف فاعادت لهم مزاياهم وخصايصهم وارضت خاطر الاهالى بنقصان المغارم والتزمت بأنه من الآن فصاعدا لا يعزل احد عن منصبه الا بالموت اوالنزول عنه اوعدم القيام بواجباته

وبعد أن رتب ارباب الديوان ما يتعلق بالايرادات وغيرها من فروع الادارة اخذوا يرتبون للملك مشورة واهتموا فى ذلك غاية الاهتمام فاضافوا الى اعضاء المشورة القديمة اثنى عشر رجلا من اعضاء الجمعية السابقة المسماة ايتاجنرو وجعلوا رئيسها دوق اورليان واذا غاب يقوم مقامه دوق بوربون او سيردوبوچو ولكن لما كان لا يمكن لهذه المشورة أن تبت الامر فى شئ بدون رأى الملك بقى زمام الحكومة بيد اخته التى لم تزل نائبة عنه فى الحكم فاتفقت كلمة ارباب المشورة على فسخ النيابة وانما تكون هذه الاميرة

عاقلة فاضلة صاحبة حزم وتدبير يكون لها حق الحضانة والكفالة لاخيها فقط حسبما اوصى بذلك ابوها وصدر الحكم حينئذ بانحلال جمعية الايتاجنرو وتفرق اربابها وحاشا أن الاميرة يحملها ذلك على أن تتجاوز الحد فى مالها من الخصايص والمزايا بل غمرت معارضيها بالاحسان واجزلت لهم العطاء فاستمالت بهذه السياسة والسخاء قلوب الناس اليها حتى لم يبق مع دوق اورليان من المتحزبين الا من كان منهم لخلوه عن الاغراض والمطامع لا يحظى مثله بالاقبال والسعادة ولا يحذو حذوه فى الارتقاء الى رتب المعالى والسيادة مثل قونتة دنواس وجرجى دنبوازة الذى كان اذ ذاك اسقف مونتوبان

ثم ان خيبة هذا الدوق عوضا عن كونها تثبطه وتضعف قواه اغضبته واثارت غيظه ففى (سنة ١٤٨٥ من الميلاد (اى نحو سنة ٨٩٠ من الهجرة) حين كان ديوان الملك فى مدينة مونترجيس ذهب الى برلمان باريس (اى مجلس وكلاء الملة) وبث فيه الشكوى من الاميرة حانة وتكلم بكلام يؤخذ منه انها مضيقة على اخيها وانه لم يخرج من حجرها وانها اطالت مدة قصوره لتنوب منابه فى الحكم فاجابه يوحنا دولاوكرى وكان اعظم رؤساء المجلس على لسان الجمعية بأن هذا المجلس انما هو معد لفصل الدعاوى والخصومات ولا علقة له بالحرب ولا بالارادات ولا بالحكومة ولم ينجح هذا الدوق ايضا عند مجمع طائفة العلماء التى كانت اذ ذاك ذات شوكة قوية حتى انها فى ايام الفتن التى حصلت على عهد الملوك السالفين جهزت نحو عشرين الف رجل وقصارى امره أنه لما بلغه صدور الامر بالقبض عليه فر هاربا الى مدينة ورنولية نحو صرفيها بعد ذلك بقليل وجبر على الرضاء بصلح لا يلايم مصلحته بل يعود عليه بالضرر فلذا بادر بفسخه وذلك انه فى سنة ١٤٨٦ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٩١ من الهجرة) اتفق مع فرنسوا الثانى دوق اريطانيا المسمى ايضا فرنسيس الثانى وعقد مع الارشدوق مكسمليان فى مدينة برجس مشارطة مضمونها التحزب على حانه دوبوجو فارسل الارشدوق رسولا الى حكام باريس يهددهم بالحرب اذا لم تخل الاميرة

عن الحكومة فلم يعبأ هؤلاء الحكام بكلامه هجم على بيكارديا لكن صدّه مارشالات جيا وكردس وعما قليل سرّح عساكره لقلة الدراهم والمصاريف وفي سنة ١٢٨٧ ميلادية (اى نحو سنة ٨٩٣ هجرية) ذهب دوق اورليان الى ابريطانيا واعلن بالعصيان والخروج عن الطاعة فهزمه لاتريموالا (٢٨ من شهر يوليه سنة ١٤٨٨ ميلادية) (اى نحو سنة ٨٩٤ هجرية) في غزوة سنت اوبين دوكورمبير واخذ اسيرا وسجن في برج برجس فلحق دوق ابريطانيا من هذه النكبة الفزع والرعب فطلب الصلح واجيب الى ذلك ووضع القرار على المصالحة في الحادى والعشرين من شهر اغسطوس والتزم فيها بتسريح جميع الاجانب من عساكره وانه من الآن فصاعدا لا يدخل في خدمته منهم احدا وأن لا يزوج بنتيه الا باذن الملك ورضاه وأن ينزل للفرنساوية عن اربعة مدن من مدنه الحصينة فاستولى عليه الياس والقنوط بسبب هذه المشارطة التى اورثته المذلة والهوان فهلك من الغم بعد ذلك بايام قلائل

وورثت دوقيته بنته البكرية المسماة حانة فعما قليل حصل السعي من سائر الجهات في زواج هذه الوارثة الغنية فممن سعى في زواجها احد سادات الباريت وكان ممن تقادم عهده في العسكرية وكان قد دافع عن ابريطانيا في الحرب السابق ومنهم مكسمليان الذى بعد أن اطلق من الاسر وخلى سبيله استمر على المقاتلات القليلة الجدوى بثغر بيكارديا وكذلك كرلوس الثامن ملك فرانسا الذى كان يقوم بتدبيره اخته وارباب مشورته فحملوه على ذلك خشية أن ينضم هذا الاقليم الذى هو من اعظم اقاليم مملكته الى التزامات دولة النمسا فرجحت جانب مكسمليان وآثرته على غيره ولما كان ابوها قبل ذلك بيسير قد وعد بها هذا الامير ارسلت تخبره بأنها انما اختارته دون غيره تنفيذا لاختيار ابيها وتنجيزا بوعده غير أنه لما كان يتعذر عليه الوصول اليها بسبب الحرب الواقع اذ ذاك في بلاد ألمانيا ارسل اليها رسلا من طرفه واقام احدهم وكيلا عنه في عقد النكاح

ومع ذلك فلم تيأس بنت الملك لويز من منع هذا الزواج وابطاله حيث أنه يضر بمملكة فرانسا فبينما كانت تبادر فى فسخ هذا النكاح بالدسائس الخفية اذ تخلص اخوها كرلوس من حجرها وتضييقها عليه وذلك أنه خرج ذات يوم فى المساء فى نفر من اتباعه من قصر بليسيسايزتورس مسافرا الى هار باستعلال بالصيد والقنص وكان اول شئ فعله لما استبد بحكومة المملكة هو تخلية سبيل دوق اورليان وكان هذا الدوق يحب حانة الابريطانية لكنه غلب شكر هذا الصنيع الذى اسداه اليه هذا الملك على محبته اياها فسعى جهده فى استمالتها الى كرلوس ولما كان تولع هذا الملك بها يزيد بامتناعها عنه وعدم رضائها به (كما هو مصداق قول الشاعر

(منعت شيأ فاكثرت الولوع به * احب شئ الى الانسان مامنعا)

ذهب الجيازتها بنفسه والسلاح بيده كابطال الشوالية فحاصرها فى مدينة رينس وصارت مجبورة على التسليم فرغبت فى أن تتخلص من هذه المضايقة وتتمتع بالحرية فاذعنت الى هذا الامر الجبرى واظهرت الركون اليه ثم اخذت تذكرة طريق وسارت الى مدينة لنجيس ببلاد طورينة وبعثت الى الملك تفيده أنها قد اجابته الى مطلوبه وكان اشهار هذا النكاح السعيد فى السادس من شهر دقمبر سنة ١٤٩١ من الميلاد (اى نحو سنة ٨٩٧ من الهجرة) واشترط فى الوثيقة انه اذا مات كرلوس الثامن ولم يعقب ذرية تزوجت بمن يخلفه على المملكة ان كان غير متاهل والا تزوجت باكبر امراء بيت المملكة لئلا تنتقل ابريطانيا الى الاجانب وكان فى هذا الزواج منقصتان لمكسمليان اخذ زوجته منه وطرد بنته مرغريطة التى تربت منذ مشارطة اراس فى دولة فرانسا طمعا فى الحكم عليها بتزوج ملكها

وكان كرلوس لايخشى حقد مكسمليان عليه وما كان اسعد هذا الملك لو ابقى مملكته فى الهدء والصلح ولم يستبدل ذلك بالتعرض لاعداء آخرين طامعا فى فتوحات بعيدة غير مقطوع بها وذلك أن اباه لويز الحادى عشر

كان

كان قد ورث ما كان لعائلة انجو من الحقوق في مملكة نابلي ولم يسع في تحصيلها فلم يحذ كرلوس حذو ابيه في الحزم وسداد الرأي بل جعل نديمه كتاب سير قيصر ومناقب كرلوس مانوس وكان جيد القريحة حاد الذهن بالطبع وازداد بمطالعة هذا الكتاب حمية وحماسة فاقترحت فكرته مقاصد عالية واغراضا سامية وبرقت في سماء فكره بوارق التخيلات وتواردت عليه من الاوهام ماهو من قبيل الترهات وطمع في تحقيق ذلك وتجهيزه بلاد ايطاليا

وكان فردينند وهو ابن طبيعي للملك اراغون المسمى الفونس الخامس (اى متخلق من السفاح لامن النكاح) قد تولى حكومة مملكة نابلي من سنة ١٤٥٨ ميلادية (اى نحو سنة ٨٦٣ هجرية) فامر سنة ١٤٨٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٩١ او سنة ٨٩٢ من الهجرة) بالقبض على بعض الاعيان من امراء نابلي في موسم صنعه لاجل المكيدة وجرّعهم فيه كؤوس الردى وكان سبب ذلك انهم سعوا في خلعه عن سرير الملك ثم تركوا ذلك وامنوا على انفسهم معتقدين فيه الصفح والحلم والقوا السلاح مغرورين بخداعه وعقده للصلح معهم واما شركاؤهم في الخروج عن الطاعة الذين تخلصوا من القتل بطريق الصدفة والاتفاق او بارتيابهم منه واستخوانهم له او بالهروب فالتجأوا الى اعداء هذا الملك لاسيما دولة فرانسا لينتقموا منه ويأخذوا لهم بالثار فلم يجابوا الى مطلوبهم في عهد خانة نائبة مملكة فرانسا ثم اجيبوا لذلك لما استبد اخوها كرلوس الثامن بحكم المملكة

وكان لودويق لومور قد حاز لنفسه بطريق الجبر والقهر حق الوصية والكفالة لابن أخيه المسمى حناغلاس دوق ميلان وحجزه في حصن باويا مع زوجته ايزابيلة حفيدة ملك نابلي وكان تعديه على حق الكفالة مقدمة لما كان عازما عليه من الاقتيات والظلم فقصد اهلاك ابن اخيه غير مكترث بارتكاب هذه الكبيرة الا انه اراد أن يسلك في ذلك مسلك الحزم

والتبصر فتشكى فردينند وابنه ألفونس والد ايزابيلة من الجبر على غلاس وبحجزه فى الحصن وهدد من تعدّى عليه بالعقاب واستحسنت ايطاليا منهما هذه الشكاوى التى لم تخرج عن حد العدالة والانتصار للمظلوم لما انها كانت مغيظة من اجرام لودويق وخائفة من شره فدعا لودويق الفرنساوية الى ايطاليا طمعا فى صرف ما كان يخشاه من المصيبة وابعادها عنه ورغبة فى شفاء غليله ونيل مطامعه فى اثناء ما كان واقعا اذ ذاك من التقلبات والفتن العامة على اسهل وجه لا يعود عليه بالضرر واتفق مع النابليين الهاربين من المملكة على ارسال رسل من طرفه الى كرلوس الثامن ملك فرانسا يعرضون عليه تاج نابلى فاظهر هؤلاء الرسل لكرلوس أنه ان فتح هذه المملكة توصل بذلك الى سطوات ومقاصد جديدة حيث يتوجه منها الى انقاذ القسطنطينية والقدس واخراجهما من ايدى الاسلام وحسنوا ذلك الامر لهذا الملك الشاب فاغتر بزخرف قولهم وخلى بين نفسه وتلك الامانى الباطلة وتبع حميته الطبيعية وركن الى قوته الحربية مجتنبا سلوك طرق الحزم والتدبير ففتح بذلك لفرانسا ميدان الفخار كما أنه عرضها للنكبات والاخطار ٠

وفى اثناء مشارطته مع لودويق بزل لمن جاوره من الملوك عن اشياء جسيمة ليكون آمنا من جهتهم فى المشروع الذى عزم عليه بحيث لا يعارضونه فيه * هذا ولم يرسل هنرى السابع ملك الانكليز الى الابريطانيين بقصد اعانتهم الامداد هينا مع أن منع الفرنساوية وصدهم عن فتح ابريطانيا كان من اهم الاشياء وانفعها بالنسبة لبلاد انكلترة * وقد تأسف فيما بعد على تزوج كرلوس الثامن ملك فرانسا بحنانة وندم على ذلك حيث لا ينفعه الندم فنزل الى مدينة كاليس بجنود كثيرة الا أنه ترك القتال وسكن غضبه بمشارطة ايتابلس (وكانت فى شهر نومبر سنة ١٤٩٢ من الميلاد) (اى نحو سنة ٨٩٨ من الهجرة) وبها ثبتت له جميع الديون التى اقترضتها ابريطانيا من انكلترة مدة الحرب الاخير وثبت له بها ايضا على كرلوس الثامن

المرتب الذى كان يدفعه ابوه لويز الحادى عشر الى ايدوارد الرابع ملك الانكليز

وكان يمكن لفرديننند القاثوليقى الذى كان مستوليا على جزيرة سيسليا أن يعارض كرلوس الثامن فى فتح مملكة نابلى بعوائق كثيرة وموانع كبيرة الأان كرلوس المذكور ردّله بمقتضى مشارطة برسلونة (المنعقدة فى التاسع عشر من شهر ينوية سنة ١٤٩٣ ميلادية) (المقابلة لنحو سنة ٨٩٩ هجرية) اقليمى روسليون وسردانيا وكان قد رهنهما يوحنا الثانى ملك اراغون عند ابيه لويز الحادى عشر فانظر كيف ردّ كرلوس هذين الاقليمين فى نظير امر غير محقق وهو عدم المعارضة وردّ ايضا لمكسيمليان بمشارطة سنليس (المنعقدة فى الثالث والعشرين من شهر ماية من السنة المذكورة) اقاليم ارتواس والفرنشقونتة وكاروليس فتسلى مكسيمليان بذلك على مصابه وما لحقه من الاساءة والمنقصة

وبسفر كرلوس الثامن الى بلاد ايطاليا ظهر لاهل اوروبا ما كان يخفى عليهم من سبب ردّ هذه الاقاليم الى اصحابها

(الفصل الثانى)

فى الكلام على حالة ايطاليا من سنة ١٤٥٣ الى سنة ١٤٩٢ من الميلاد (اى من سنة ٨٥٧ الى سنة ٨٩٨ من الهجرة تقريبا)

(ذكر مملكة نابلى)

(من سنة ١٤٣٥ الى سنة ١٤٨٦ ميلادية) (اى من سنة ٨٤٩ الى سنة ٨٩١ اوسنة ٨٩٢ هجرية تقريبا)

كان اصل الحقوق التى ورثها كرلوس الثامن عن عائلة انجو فى شأن مملكة نابلى هو تبنى الملكة حانة الثانية لرينة دوق انجو سنة ١٤٣٥ من الميلاد وكانت هذه الملكة قبل ذلك بخمس عشرة سنة قد تبنت ألفونس

الخامس دى اراغون ثم استبدلته بريشة المذكور الآن ألفونس دافع عما ادّعاه من الحقوق الثابتة له بالتبنى بطريق القوّة والقهر وانتصر على خصمه وجلس على سرير مملكة نابلى سنة ١٤٤٢ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٤٦ من الهجرة) ومكث مستوليا عليها مع العز والفخار حتى مات سنة ١٤٥٨ ميلادية (اى نحو سنة ٨٦٣ هجرية) وتركها لفرديننـد ولده من السفاح لا من النكاح كما ترك لاخيه يوحنا الثانى المتغلب على نوارة اراغون وقتالونيا ووالنسة وجزائر بليار وجزيرة سردينيا وسيسليا

وكان ألفونس الخامس هذا من ابطال الحربيين السعداء الماهرين وكان ايضا مشغوفا بالآداب متولعا بحمايتها وتقويتها سخيا كريما حتى انه تلقب بلقب منياليم (ومعناه كريم النفس على الهمة) الا أن هذه الخصلة الممدوحة افضت به الى ارتكاب ما يدنس حكومته من المثالب والعيوب وذلك انه لافراطه فى الانعام وكثرة العطاء حصل له شدّة ومضايقة فاضطر الى أن يكلف رعاياه باحد امرين اما أن يضرب عليهم مغارم كثيرة او يجعل عليهم مقدارا من الاموال فى نظير المعافاة وهو مخالف لحسن ادارة المملكة ثم انه لعدم وجود الاموال عنده صار يفرق الالقاب الجديدة والمناصب والالتزامات مع الافراط والاسراف فاتسعت بذلك مزايا الملتزمين وخصايصهم واضرّ هذا الكرم بالاهالى حيث ثقلت به عليهم اعباء التبعية للملتزمين واضرّ ايضا بالمنصب الملوكى حيث ادّى الى ضعف قوّته واضمحلال شوكته ومع هذه المثالب التى لا مانع أن يكون الباعث له عليها وعذره فى ارتكابها هو ضرورة كون دولته الجديدة تحتاج لاحزاب واشراقات هو جدير بأن يعدّ فى زمرة عظماء الملوك الكرام الذين اشرقت شمس فخارهم فى القرن الخامس عشر

ثم ان بارونات نابلى دعوا يوحنا دى انجو بن ريشة الى الحضور اليهم فلبى دعوتهم وقدم الى نابلى سنة ١٤٥٩ من الميلاد (اى نحو

سنة

سنة ٨٦٤ من الهجرة) لينظر ما تجرى به المقادير عليه في قتاله مع فرديننــد بن ألفونس الخامس فحقت الهزيمة على فرديننــد في واقعة سرنو (سنة ١٤٦٠ ميلادية) (اى نحو سنة ٨٦٥ هجرية) وترا أى من هذا القتال في مبدأ الامر أنه لا تقوم له قائمة بعد ذلك الا أن كلا من فرنسيس سفورس واسكندر بيك اعانه على عدوه وكان والده ألفونس الخامس قد اعان اسكندر المذكور على الدولة العثمانية فكافأ ابنه بالاعانة في نظير صنيع ابيه معه فتمكن فردينند على سرير مملكته بوقعة توروابا التى انبت بها الامر وانقطع النزاع (وكانت سنة ١٤٦٢ من الميلاد) (المقابلة لسنة ٨٦٧ من الهجرة تقريبا) ولم يمكن ليوحنا ذى انجو أن يجبر خلل هزيمته بل عاد الى بلاد فرانسا بعد أن مكث سنتين وهو يبذل جهده في اصلاح شؤونه ومصالحه ولم يخرج من ذلك على طائل

واما فرديننــد فانه بعد نصرته اساء معاملة الملتزمين الذين انضموا الى حزب يوحنا ذى انجو وظلمهم وضيق عليهم فنشأ عن هذه الشدة والقساوة كراهتهم له ولم تزل بغضته من قلوبهم بل ما زالوا يبغضونه حتى انقضت مدة حكمه الطويلة لانه اكثر اساءتهم وأدمن اضرارهم بالغدر والقهر والشره والحرص * قال كومين ان هذا الملك كان لا يعرف الرأفة والشفقة فكان لا يرثى لحال رعيته ولا ينظر لفاقتهم ومسكنتهم من جهة الاموال فكان يتجر في جميع بضائع المملكة فيشترى هو وابنه الزيتون من مواضعه المغروس بها كاقليم لابوويلية بالثمن الذى يريدانه وكذلك القمح قبل نضجه ويبيعانه بعد ذلك باغلى ثمن حسب ارادتهما وكان يلزم الاهالى بشراء البضاعة ان نقصت عن ثمنها المعلوم ولو شيأ يسيرا وله مضار اخرى غير ما ذكرناه انتهى وفي سنة ١٤٨٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٩٠ من الهجرة) قام عليه اغلب بارونات نابلى وخرجوا عن طاعته لظلمه وطغيانه فصالحهم ظاهرا حتى سكن غضبهم ثم قبض على جماعة منهم كانوا اشد خطرا عليه من غيرهم وقتلهم خفية وألقى جثثهم في البحر ومن نجا منهم وهرب من المملكة اشاعوا في جميع بلاد ايطاليا حتى

لفعاله ما اوجب كراهته بين الناس (انظر تاريخ كرلوس الثامن ملك فرانسا لتعرف بالوقوف عليه بقية تاريخ مملكة نابلى)

(ذكر فلورنسة)

(من سنة ١٤٢٠ الى سنة ١٤٩٢ من الميلاد) (اى من سنة ٨٢٣ الى سنة ٨٩٨ من الهجرة)

لما انتصر حزب الالبيزية على العائلة الميديسيسية فى اواخر القرن الرابع عشر تجردت هذه العائلة عن الشوكة ونفوذ الكلمة بالكلية ثم اعادلها يوحنا دوميديسيس و يقال له ايضا جناد وميديسيس فخارها ورفعة مقدارها سنة ١٤٢٠ من الميلاد وكان هذا الامير قد اكتسب من الاموال ما لا يحصى وارتقى الى اعظم منصب فى الدولة وفى سنة ١٤٢٦ ميلادية (اى نحو سنة ٨٣٠ هجرية) عزم وجوه المملكة واعيانها على التغلب على الحكومة فابى أن ينضم اليهم و يوافقهم على غرضهم فوقع ذلك من الاهالى موقعا عظيما حتى بلغت محبتهم له اعلى الدرجات واقصى النهايات ثم ادركه الموت سنة ١٤٢٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٣٣ من الهجرة) وكان قد اوصى اولاده أن لا يسعوا فى طلب للمناصب بل ينتظرونها حتى يدعوا اليها وقد ورثه فى الفضائل وحميد الخصال ولده كوسم الاول الا أنه اهمل نصيحة ابيه ونبذ وصيته وبادر بالسعى ليأخذ له بنصيب من مصالح الدولة فنفاه اعداؤه سنة ١٤٣٣ ميلادية (اى نحو سنة ٨٣٧ هجرية) فذهب الى مدينة بادوة غير أن اهل فلورنسه بعد ذلك بيسير تأسفوا على غيبته وعظم عليهم امر فرقته فدعوه الى الحضور لديهم سنة ١٤٣٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٣٨ من الهجرة) وطردوا اكبر اعدائه المسمى رينود الالبيزى وسائر احزابه فاضمحلت بذلك شوكة هذا الحزب وتلاشت بالكلية ومن وقتئذ اخذت العائلة الميديسيسية تترقى حتى تقلدت الرياسة على طوسكانة واستمر كوسم الاول على منصب الرياسة حتى مات سنة ١٤٦٤ من الميلاد (اى نحو سنة ٨٦٩ من الهجرة تقريبا) وقد كناه ابناء بلده

بابى

بابى الوطن وهى من الكنى الفاخرة ثم ان ابنه بطرس طلب أن يخلفه على رياسة جمهورية فلورنسة فتقلدها الا أنه كان يترأى من صغر سنه وقلة معارفه أنه غير اهل لهذا المنصب فاشمأزت منه العائلات القديمة التى كانت تحتقر العائلة المديسيسية لكونها حديثة عهد بالغنى والثروة فكانت تحمل احكامه مع القلق والضجر حيث ان حاكمهم ضعيف الجسم والعقل (اى صغير السن قليل المعارف) ولما تقلد نيقولاس سودرينى منصب الجونفلونير اى رياسة فصل الدعاوى املت فلورنسة عود حريتها اليها لما كانت تعهده فى هذا الرئيس من الشجاعة والنجابة وقد اعلن أنه يريد رد قوانين الجمهورية واصولها الى قوتها القديمة الا أنه قصر به ثباته ونشاطه فلم يدرك هذا الغرض فخابت بذلك آمال اعداء بطرس فبحثوا عن اعانات اجنبية وتحزبوا مع دوق مودينة فبلغه أن اعداءه قد جندوا الجنود فى اسرع وقت وانهم قادمون بها الى فلورنسة ليفاجئوها بالاغارة فابدى عند ذلك من النشاط والقوة والثبات مالم يكن يؤمل منه حيث جهز للمدافعة تجهيزا عظيما اوقع الحزب المتعدى فى الحيرة والارتباك واكتسب فسحة للتجهيز بمراسلاته وتدابيره حيث عقد معهم صلحا ظاهريا نقضه بعد ذلك بيسير وانتقم من اعدائه سنة ١٤٦٦ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧١ هجرية) حيث قتل باشهر عائلاتهم قتلا وتشريدا

ولما مات بطرس خلفه على رياسة الجمهورية ولداه لورانت وبوليان وكان اكبرهما لم يبلغ من العمر احدى وعشرين سنة الا أن حزب عائلتهما قلدهما منصب الرياسة ولم يلتفت الى صغرهما وحداثة سنهما فلم يسلكا فى مبدأ امرهما مسلك التثقيل والتشديد فى الحكومة فمكثت مملكة فلورنسة سبع سنوات من حكمهما وهى فى هدوء وامن عظيم وكانت الحكومة تسمى باسمهما ولكن لما تكاملا فى سن الرجولية استبدا بالشوكة ونفوذ الكلمة وكانت عائلة بازى اعظم العائلات الشهيرة التى كانت الى ذلك الوقت بجمهورية فلورنسة وكانت ترتاب منها العائلة المديسيسية ولا تأمنها وكان كوسم الاول قد اراد

قبل ذلك أن يربط بين هذه العائلة القوية وعائلته المديسيسية بروابط النكاح ولحمة النسب فزوج بنت ابنه وهى بلانشة اخت لورانت وبوليان الغليوم بازى ولكن لم يسلك لورانت فى السياسة مسلك جده بل ذهب فيها مذهبا آخر حيث لم يأل جهدا فى اتلاف اموال عائلة بازى وتجريدها عما كان لها من الاعتبار ونفوذ الكلمة فخرج فرنسيس بازى وكان اكبر اصهار بلانشة فارا من هذا الظلم والجور حتى نزل بمدينة رومة وكان له بها منزل من اعظم منازله التجارية وكان كل من البابا سكيستة الرابع وابن اخيه جيروم ريارو يحقد على العائلة المديسيسية لكونها اعانت عليهما احد امراء ايالة رومانية فوقعت الالفة واكيد الارتباط بين فرنسيس وبينهما ثم تواطئ فرنسيس وجيروم ريارو على تغيير الحكومة الفلورنسية بقتل المديسيسية وانضم اليهما فى هذه العصبة فرنسيس سلوياتى وكان قلده البابا منصب المطرانية على مدينة بيزة فلم يقره المديسيسية ثم ان فرنسيس بازى ذهب الى فلورنسة وادخل فى حزبه عمه يعقوب وكان رئيس عائلة بازى وهجم المتحزبون على لورانت وبوليان فى الكنيسة الكبرى وكان ذلك فى السادس والعشرين من شهر ابريل سنة ١٤٧٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٨٣ من الهجرة) وقتل بوليان وفر لورانت وفى هذه المدة ذهب المطران سلوياتى ليتغلب على السراية العمومية (دار الامارة) لكنه لم ينل غرضه بل خابت اماله حيث قبض عليه الجونفلونير بتروكسى وصلبه على شبابيك السراية وكان اهل فلورنسة يحبون العائلة المديسيسية ويجنحون اليها فلذا اخذوا لها بالثار حيث قتلوا كل من قبضوا عليه من الفئة الباغية

ولما خابت آمال تلك العصبة اشهر البابا سكيستة الرابع الحرب مع اهل فلورنسة وتحالف مع فرديننـد ملك نابلى وتحالف الفلورنسية مع الاميرة بونة دوساوة نائبة دوقية ميلان الآن فرديننـد عرف كيف يشغلها ويلاهيها حيث اغرى جنويزة بالقيام على ميلان واوقع الفتنة بينهما

وكان

وكان اهل البنادقة يريدون اعانة المديسيسية والانضمام اليهم الا انهم لضعفهم ونفاد قواهم بحربهم مع الدولة العثمانيـة لم يمكنهم اعانة المديسيسية الا بما لا طائل تحته من المودة وحسن المراعاة فلما لم يبق لاهل فلورنسة ظهير ولا معين حقت عليهم الهزيمة بمحل يقال له بوغجيو امبريال وانتصر عليهم ألفونس دوق كلابرة ابن فرديننـد واستولى على اغلب حصونهم ومع ما حصل للورانت دوميديسيس فى هاتين الغزوتين من الخيبة وسوء الحظ لم تفتر همته ويقل عزمه بل اتفق مع اهل البنادقة على تقوية حزب انجو بمملكة نابلى ليقاوم به فرديننـد وكانت يولنده احدى بنات رينة دى انجو قد تزوجت بقونتة وودمونت المسمى فيرى ورزق منها بالامير رينة دى وودمونت وهو الذى استحق وراثة حقوق عائلة انجو بعد موت عمه يوحنا وابنيه يوحنا ونيقولاس فلذا ذهب اليه رسل من فلورنسة والبندقية بصدد البحث عنه فى اقليم لورينة فبينما كانوا يتذاكرون معه فى هذا الشان اذ حضر الى لورانت دوميديسيس من طرف دوق كلابرة مقدمات وامور اولية فى شأن الصلح بينهما وكان قد وقع بين البابا والملك فرديننـد نزاع فى شأن حرب فلورنسة فذهب لورانت الى نابلى ووضع فيها القرار على الصلح سنة ١٤٨٠ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٥ من الهجرة) وفى هذه السنة ايضا داخل البابا فزع ورعب من اغارة الدولة العثمانية واخذ اقليم اوترنتة فاصطلح مع الفلورنسية على أن يجهزوا من عندهم خمس عشرة سفينة لقتال العثمانية وبذلك انتهى الحرب الناشئ عن عصبة العائلة البازية

ومن وقتئذ عاش لورانت اهنأ عيشة حيث صار محبوبا عند اهالى فلورنسه ومحترما عند الدول الاجنبية ومكث على ذلك الى سنة ١٤٩٣ ميلادية (اى نحو سنة ٨٩٩ هجرية) وسعى جهده فى ايقاع المعادلة بين دول ايطاليا وكنى بابى الآداب لفرط تولعه بالفنون والآداب (راجع الباب الثانى من الدور الثانى)

واما لقب مانيفك اى الفاخر فهو وان لم يلقبه به اهل بلده ومؤلفو عصره الا لكونه لقب شرف يلقب به عادة من لا لقب له من الامراء والكونندوتيرية اى الولاة والاجنية الا انه كان احق به واهله لتحقق معناه فيه حيث كان يميل الى مافيه الفخر والظهور من التبذير والسرف وبانضمام ذلك الى سوء تدبير مصالحه التجارية نفد ما كان للعائلة المديسيسية من الاموال والثروة وقد هلكت ايرادات الدولة عدة سنين وهى تستعمل لاخفاء خساراتهم وكساد تجاراتهم وبالجملة فلم تعبأ فلورنسة فى منع تلك الخسارات وجبر خللها بما ترتب لها عن ذلك من خسارتها وكساد تجارتها سنة ١٤٩٠ ميلادية (اى نحو سنة ٨٩٦ هجرية) وكان الربح فى الديون العمومية اذ ذاك ثلاثة فى المائة وبطل كثير من المحال المعدة للصدقات وفعل الخيرات وصار الديوان لا يقبل فى قبض المغارم النقود المتعامل بها الا ناقصة الخمس ويصرفها للناس كاملة فبذلك تراجعت اموال لورانت وثروته * وكل حاكم مطلق التصرف لا يتصرف فى اموال الرعية بازيد من ذلك فلم تكن فلورنسة حينئذ جمهورية الا بمجرد الاسم فقط وآلت بالتدريج حماية المديسيسية ورياستهم على الجمهورية الى حكومة مطلقة التصرف

ذكر الدولة الرومانية

من سنة ١٤٢٩ الى سنة ١٤٩٢ ميلادية (اى من سنة ٨٣٣ الى سنة ٨٩٨ هجرية تقريبا)

لما نزل البابا كليمان الثامن الذى كان غير صحيح البيعة عن منصبه سنة ١٤٢٩ من الميلاد انتهى بذلك افتراق العصبة الدينية الذى مكث احدى وخمسين سنة وكان اول ما بدئ به ذلك سنة ١٣٧٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٧٨٠ من الهجرة) هو انتخاب اوربان السادس وكليمان السابع واستبدّا بالمنصب البابا مرتين الخامس وعقد مجمع باله سنة ١٤٣١ ميلادية (اى نحو سنة ٨٣٥ هجرية) ومات فى تلك السنة وخلفه اوجين الرابع ولما ادرك هذا الخليفة الرعب والخوف من تعدّى هذا المجمع

على

علی شوکته عارضه بجمع فراره ومجمع فلورنسة علی التعاقب فترتب
علی ماسلکه هذا البابا فی ذلک افتراق العصبة الدینیة مرة اخری وذلک ان آباء
باله (ای احبار هذا المجمع) خلعوا اوجین الرابع وولوا بدله امیدیه دوسابوة
وسموه فلیکس الخامس ثم مات اوجین الرابع سنة ١٤٤٧ من المیلاد
(الموافقة لنحو سنة ٨٥١ من الهجرة) وفی ایام خلیفته نیقولاس الخامس
خلع فلیکس الخامس نفسه عن منصب الباپویة سنة ١٤٤٩ میلادیة
(ای نحو سنة ٨٥٣ هجریة تقریبا) وتفرق ارباب مجمع بالة وکانوا
قد انتقلوا الی لوزانة وعاد الهدء والصلح الی العصابة الدینیة وفی سنة
١٤٣٨ من المیلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٤٢ من الهجرة) اختار
الفرنساویة عدة احکام من احکام المجمع المذکور انتخبوها من القانون
القسیسی المسمی ابرجماتیکه سنکسیون الذی کان وضعه کرلوس السابع
بمدینة برجس ونحا نحوهم فی ذلک النمساویة حیث قبلوا هذه الاحکام
فی مشورة میانسة سنة ١٤٣٩ میلادیة (ای نحو سنة ٨٤٣
هجریة) ومن وقتئذ بذل البابات جمیع مجهوداتهم فی ابطال هذه القوانین
الابرجماتیکیة فنجح منهم فی هذا الغرض نیقولاس الخامس حیث ابطل
منها قانون میانسة سنة ١٤٤٨ من المیلاد (ای نحو سنة ٨٥٢
من الهجرة) واستبدله بالقانون المسمی بالکونکوردات الجرمانی (راجع
تاریخ ألمانیا) ثم تنغص فرحه بنیل هذا الغرض بتحزب استفانو پورکاری
سنة ١٤٥٣ من المیلاد (ای نحو سنة ٨٥٧ من الهجرة) حیث اراد
أن یعید الی رومة الحکومة الجمهوریة وتنکد ایضا مما حصل فی هذه
السنة من الحادثة العظیمة التی اوقعت الرعب والخوف فی قلوب النصاری کافة
ثم بطلت عصبة پورکاری وبعد ذلک مات نیقولاس الخامس سنة
١٤٥٥ میلادیة (ای نحو سنة ٨٦٠ هجریة) بعد ان وعظ النصاری
وحثهم علی انقاذ القسطنطینیة بما لا طائل تحته حیث ادرکته الوفاة قبل
أن یمهد لهذا الحرب بالاخذ فی الاسباب وازالة الموانع وکان هذا البابا من اعلم

اهل عصره واستحق الارتقاء الى هذا المنصب بما حازه من العلوم والآداب
وكان معظم فخاره انما هو بحمايته لها ومدافعته عنها وتولى بعده ألفونس
برجيا اسقف والنسة التي هي اصل غرسه ومسقط رأسه وسمى كاليكستة
الثالث ففتح بولايته باب الاعتبار والعظم لعائلة برجيا وكان قد اورثها
اسكندر السادس وقيصر برجيا شهرة ذميمة وبمجرد ولايته بث الدعاة فى جميع
بلاد اوروبا ليحرضوا ابناء النصرانية على قتال العثمانية فاجابهم الى ذلك دوق
برغونيا وملك اراغون وحملا الصليب حمية منهما وغيرة على الدين الا أن
هذه الغيرة كانت وقتية حيث زالت منهما فى اسرع وقت بالتبصر وتدبر العاقبة
وانعدمت الغيرة ايضا من اهل الصليب جميعا ولم تعد لهم بعد ذلك وكان للبابا
بعض سفن حربية من الاغربة فذهبت تخرب اقاليم العثمانية الواقعة على البحر
الا انها كانت تؤذن بضعفه فيها اكثر من هيبته ثم ادركته الوفاة بعد هذه
المجهودات التي يصفونها بأنها من الاغراض المحمودة سنة ١٤٥٨ من الميلاد
(الموافقة لنحو سنة ٨٦٣ من الهجرة) وخلفه فى المنصب الشهير
ايناس سلويوس بيقولوموني وسمى پيه الثانى وكانت الاخطار وقتئذ
تزيد وتشتد كل يوم عما قبله على بلاد النصارى فعقد پيه الثانى المذكور
سنة ١٤٥٩ ميلادية (اى نحو سنة ٨٦٤ هجرية) بمدينة مانتو
جمعية من الامراء والاحبار ليتفاوضوا فيما بينهم على طرق يكون بها قمع
عصبة الاسلام وحضر فى هذه الجمعية رسل من مورة ورودس وقبرص
ولسبوس وايبيرة وايليريا وجعل اربابها على كل امة من امم اوروبا
حصة من الاموال اللازمة لمصاريف الحرب الذى عزموا عليه الا انه وقع
التفاقم والشقاق بين ابناء النصرانية وحصلت تقلبات على حين غفلة فكان
ذلك مانعا لهم من تنجيز هذا المشروع العظيم الا أن البابا پيه الثانى لم تفتر
همته بذلك بل نشر فرمانا فى ٢٢ من شهر اوقطوبر سنة ١٤٦٣
من الميلاد (اى نحو سنة ٨٦٨ من الهجرة تقريبا) يدعو فيه جميع
النصارى الى حمل الصليب وجعل موعدهم مدينة انكونة ولما وصل

الى

الى هذه المدينة قاصدا قيادة اهل الصليب بنفسه وجد بها جما غفيرا من الناس الا انهم مجردون عن الرؤساء والاموال والاسلحة ثم ادركه الموت في ١٤ من شهر اغسطوس سنة ١٤٦٤ ميلادية (اى نحو سنة ٨٦٩ هجرية) و بموته بطل امر القتال مع الاسلام وكان البابا نيقولاس الخامس قد ابطل قانون ما ينسة القسيسى المسمى ابرجماتيكه ولما تولى پيه الثانى نال من لويز الحادى عشر ابطال ابرجماتيكه مدينة برجس (انظر تاريخ لويز الحادى عشر) وبعد موته تولى پولس الثانى فبدأ حكومته بعقد جمعية قسيسية ليأتمروا فى شأن الحرب مع المسلمين الا أن هذه العزيمة التى هى عندهم من المقاصد المستحسنة كانت سدى لا طائل تحتها وانما فى سنة ١٤٦٥ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٧٠ من الهجرة) اعطى بعض عساكر لاسكندر بيك وكان قد ذهب الى رومة يطلب منه الاعانة والمدد وفى سنة ١٤٧١ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧٦ هجرية) اجابته مشورة راتسبونه الى ما طلبه منها حيث وعدته بتجهيز عظيم للحرب مع الاسلام وحرض غازان التترى الذى كان يحكم فى بلاد العجم على قتال السلطان محمد الثانى الا انه مات كسلفيه پيه الثانى وكاليكسته الثالث فى الوقت الذى كان يمكن أن يؤمل فيه انقاذ بلاد النصارى من اعدائهم فانتخبوا بعده الكردينال فرنسيس دولاروويرة وكان ابوه صيادا فخلف پولس الثانى فى المنصب وسمى سكيستة الرابع وكان دون اسلافه فى الالتفات الى اتساع فتوحات العثمانية بل اشتغل بمصالحه الخصوصية دون مصالح ابناء النصرانية وكان اكثر سعيه فى تحصيل الثروة والغنى لعشيرته لانها كانت من افقر العشائر فكان جل همه ترقية ابناء اخوته وكانوا اربعة احدهم الكردينال يوليان الذى بعد أن تقدم فى السن ابان عن شجاعته واظهر أنه اعظم البابات بسالة وقوة حيث اخذ حينئذ يعود نفسه على فن الحرب بقتاله لنيقولاس و يتيلى امير سيتادى كستيلو وكان من ملتزمى اقليم رومانية فاستعان و يتيلى باهل فلورنسة ليبقى على استقلاله بحكومته

الصغيرة فلما لم يمكن ليوليان الظهور عليه بطريق القوة والقهر شارط معه مشارطة لم تبخس بمقام ونيتيلي ولم تخدش شرفه ونخاره وكان ذلك سنة ١٤٧٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٧٩ من الهجرة) ثم ان سكيسته الرابع لم يصفح عن المديبيسية في نظير كونهم عطلوا مقاصده وافسدوا عليه مآربه بل انضم الى عصبة البازية بعد ذلك بثلاث سنين (انظر ماسبق في ذكر فلورنسة) فلم تشف هذه العصبة غليله ولم يفز معها بجميع مرامه فلذا اشهر الحرب مع الفلورنسية ثم انتهى الحرب بينه وبينهم سنة ١٤٨٠ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٥ هجرية) بمشارطة عقدها معهم وكان الباعث عليها خوفه من اغارات العثمانية ثم مات سنة ١٤٨٤ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٩ من الهجرة) وكان كسلفيه بيه الثاني ونيقولاس الخامس يميل الى الآداب ويحامي عن العلماء وترك بعده آثارا باهرة لتحسين مدينة رومة ومنفعتها فكان بها جديرا ببقاء الاسم وتخليد الذكر الى آخر الدهر غير أن ميله الى عشيرته وايثارهم على غيرهم كسف شمس صنائعه الجميلة وذهب برونق خصاله الحميدة وتولى بعده اينوسنت الثامن وكان من سوء حظ هذا البابا الضعفه وحلمه أن خاصته الاخساء النفوس هم الذين كانوا يقومون بتدبيره ويسوسون امره فكانوا الدناءتهم لا ينال منهم شيء الا ببذل الاموال وكان لا يقدم على ما فيه ايذاء للناس الا نادرا وانما كانت خاصته هم الذين يكثرون من ايذائهم واضرارهم وهو لا يتعرض لمنعهم من ذلك ولما كان موجودا في زمن فاسد وعصر كثير المفاسد كانت اخلاقه قبل دخوله في زمرة الطوائف الدينية بعيدة عن طرق التهذيب قليلة الانتظام والتأديب وكانت افعاله لا تصلح أن يقتدى بها في اصلاح ماعم من الفساد ولا أن يهتدى بها الى طرق الهدى والرشاد وقد ادركته الوفاة سنة ١٤٩٢ من الميلاد (اى نحو سنة ٨٩٨ من الهجرة) فكان يلزم بعده لاهل ذلك العصر انسان فاضل دأبه التشديد والزهد في زهرة الحياة الدنيا مثل سنت لاون او اغرغوار حتى يعود لهذا المنصب ما كان قد تباعد عنه من الاحترام

والاعتبار

والاعتبار بين الامم ولكن سبق القضاء بأن يتقلده بورجيا الذى سمى اسكندر الثالث وجلس على سرير مار بطرس احدى عشرة سنة حتى دنسه اى تدنيس وهتك حرمته بفعله الخسيس (وان اردت الوقوف على تاريخ هذا البابا وخلفائه الى انقضاء مجمع ترنتة فعليك بتاريخ حروب ايطاليا وتاريخ مذهب لوتير)

*(الكلام على البندقية (من سنة ١٤٥٤ الى سنة ١٤٨٤ من الميلاد) (اى من سنة ٨٥٩ الى سنة ٨٨٩ من الهجرة)

لما فتح العثمانية مدينة القسطنطينية ترتب على ذلك أن مدينة البندقية صارت عرضة للخطر اكثر من غيرها من سائر بلاد ايطاليا وذلك أن الدولة العثمانية صارت ترهب من كان فى بلاد المشرق من قبائل البنادقة وتهددهم بأنهم عما قليل يحل بهم الوبال والدمار غير أن البنادقة قصدوا حماية قبائلهم من تلك الدولة فاختاروا اولا أنهم يسلكون معها مسلك المصالحة لا مسلك المقاتلة فبعثوا لهذا الغرض سفيرا من طرفهم الى السلطان محمد الثانى وعقدوا معه سنة ١٤٥٤ من الميلاد مشارطة على أن يصطلح معهم ويحسن جوارهم فاستمروا بمقتضاها على ما كان لهم فى عهد قياصرة الروم من أنه يكون لهم فى اسلامبول بيله اى وكيل من طرفهم يقوم فيها بوظيفة الالچى ويفصل دعاوى البنادقة المقيمين ببلاد الدولة العثمانية ثم لما فسخت هذه المشارطة سنة ١٤٦٣ ميلادية (اى نحو سنة ٨٦٨ هجرية) وقع الحرب بينهم وبين السلطان محمد الثانى ومكث القتال بين الفريقين ست عشرة سنة حتى انتهى سنة ١٤٧٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٤ من الهجرة) بمشارطة كانت قليلة الاضرار بجمهورية البنادقة كما أنها كانت هينة بالنسبة الى تشرفهم واحترامهم (راجع تاريخ السلطان محمد الثانى) ثم ان البنادقة فى اثناء هذا الحرب اخذوا جزيرة قبرص وكان ريشارد كوردليون قد انعم بهذه الجزيرة على جوى دولزنيان سنة ١١٩٢ ميلادية (اى سنة ٥٨٨

هجرية تقريبا) ثم انتقلت من بعده الى ذريته حتى صارت الى آخرهم وهو حنا الثالث فلما مات سنة ١٤٥٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٦٣ من الهجرة) ولم يعقب الا بنتا تسمى كرلوتة ورثت عنه هذه المملكة وخلفته عليها والبست تاج ملكها لزوجها لويزدوسابوة اخى الدوق اميدنيا التاسع وكان لابيها حنا الثالث ولد نغيل يقال له ياكس فعزلها هى وزوجها سنة ١٤٦٠ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٦٥ من الهجرة) باعانة سلطان مصر الملك الاشرف ابى النصر اينال العلاءى الناصرى وكان ملوك قبرص يدفعون لهذا السلطان الجزية والخراج ثم ان هذا المفتات لما خشى بأس شوالية المار يوحنا وخاف من الجنويزية الذين كانوا يجنحون الى كرلوتة وزوجها سعى فيما تكون به اعانة البنادقة له حيث اتخذهم ظهيرا بتزوجه كاترينة كرنارو بنت أندره كرنارو سنة ١٤٧١ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧٦ هجرية) وكان أندره المذكور من وجوه البنادقة واشرافهم ولاجل تشريف هذا الزواج وجعله من الامور الفاخرة المعتبرة تبنت مشورة السنت كاترينة واعلنت بأنها بنت المار مرقس او بنت الجمهورية ثم مات ياكس بعد ذلك بسنتين فادخل البنادقة جزيرة قبرص تحت تبعيتهم لكن على اسم كاترينة سنة ١٤٧٤ من الميلاد (اى نحو سنة ٨٧٩ من الهجرة) ولم يبقوا لها الا مجرد ابهة المنصب الملوكى وسبب ذلك أن اهل هذه الجزيرة كانوا يبغضونها لكونها اجنبية منهم ثم ان البنادقة اكرهوها بعد ذلك على الحضور الى مدينة البندقية (قاعدة جمهوريتهم) لتخلع نفسها وتتنزل لهم عن حكومتها وتكتفى بالمرتب الذى عينوه لها (وكان ذلك سنة ١٤٨٩ من الميلاد) المقابلة لنحو سنة ٨٩٥ من الهجرة) ثم تمكن البنادقة من هذه الجزيرة سنة ١٤٩٠ ميلادية (اى نحو سنة ٨٩٦ هجرية) حين سمح لهم سلطان مصر بالتملك عليها

وفى سنة ١٤٨٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٨٧ من الهجرة)

تحزبه

بحزب جيروم رياريو امير ايمولا وفورلى وكان من اولاد اخوة سكيستة الرابع مع البنادقة لاجل شن الغارة على دوق فرارة وذلك أن رياريو المذكور كان يريد توسيع دائرة حكمه وكان البنادقة يريدون بقاء دعواهم من أن لهم الحق فى الاستبداد بالملح الذى يخرج من البطائح والمستنقعات بحيث تكون هذه الدعوى ثابتة على الدوام فان رعايا عائلة ايستة (اول دوقات فراره) كانوا ينكرونها فى بعض الاحيان وفى هذا الحرب انقسم اهل ايطاليا الى حزبين وذلك أن الجنويزية ومرقى مونتفرارات انضموا الى حزب البنادقة وانضم ملك نابلى ودوق ميلان والفلورنسية الى حزب دوق فرارة وعما قليل انفصل رياريو عن البنادقة وانضم الى الحزب الآخر ولكن استمر البنادقة على الحرب واضرموا نيران القتال فى اقاليم ملك نابلى سنة ١٤٨٤ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٩ هجرية) واستولت دونماهم على بوغاز كليبولى وبوليكاسترو ثم تفاوض الفريقان فى شأن المصالحة فى السنة المذكورة وانعقد الصلح بينهما على أن هرقول (دوق فرارة) الذى هو من عائلة ايسته يرد للبنادقة جميع ما طلبوه من المزايا والخصائص وينزل لهم عن اقليم بوليزينة واراضى روويغو وأن يرد البنادقة لفردينند ملك نابلى فى ظرف شهر جميع المدن التى سلبوها منه وأن يكافئهم على ذلك باقراره جميع مالهم فى اقاليمه من المزايا التجارية فبذلك اغتنمت جمهورية البنادقة مع التيقظ والنباهة العجيبة جميع الفرص التى بها يسهل عليهم تحصيل اغراضهم وتنجيز مقاصدهم فيما يخص عظمهم واتساع دائرتهم فكانت لهم الشوكة القوية فى البر والحكم ونفوذ الكلمة فى البحار حيث كان تحت بنديراتهم البحرية من الملاحين اكثر من ثلاثين الفا ولكن كان قد قرب اوان انحطاطهم وزوال شوكتهم حيث كانت تجارة آسيا وقتئذ قد عدلت عن منهجها الاول وشرعت فى اغناء اقوام آخرين

(الكلام على ميلان وجنويزة)

(من سنة ١٤٤٧ الى سنة ١٤٩٠ من الميلاد) (اعنى من سنة ٨٥١ الى سنة ٨٩٦ من الهجرة تقريبا)

كان بمدينة قوتنيولا رجل فلاح يقال له أطندولو ترك ارضه واطيانه فى اوائل القرن الخامس عشر ودخل فى العسكرية وفى اقرب وقت تنقل فى جميع الرتب العسكرية يترقى منها درجة بعد اخرى حتى صار اشهر رؤساء العسكرية بايطاليا وجمع ممن اتى اليه ودخل تحت اعلامه بالطوع والاختيار طائفة بلغت عدتها سبعة آلاف وكان يبيع اعانته لامراء عصره بالاموال فكان لا يعين احدا منهم مجانا وهو الذى انقذ حانة الثانية ملكة نابلى مما كانت فيه من الضنك والضيق حيث كان ألفونس ملك اراغون قد حاصرها فى حصن من حصون تحت ملكها ودار اقامتها فحاز أطندولو بما ابداه من الشجاعة وفرط الهمة منصب الكونيتابل (اى رياسة الجيوش) بمملكة نابلى ومنصب جونفلونير الكنيسة الرومانية (اى حامل لوائها) ثم انقضت ايام عزه وانتهت مدة سعده بموته اسوء ميتة حيث ألقته فرسه فى محل عميق غزير المياه فغرق فيه وكان قد غير اسمه أطندولو الى اسم سفورز او سفورس فتسمى به بعده ابنه الطبيعى فرنسيس سفورس الذى ورثه فى المهارة والشجاعة ثم تزوج فرنسيس المذكور بالاميرة بلانشة وكانت بنتا طبيعية لفيليبش مارى وهو دوق ميلان الاخير وكان يلقب ويسقونتى فلما مات سنة ١٤٤٧ من الميلاد عزم فرنسيس سفورس على وراثته وحيازة دوقيته فوجد اخصاما اربعة ينازعونه فى ذلك وهم دوق ساوة وملك نابلى وجمهورية البنادقة وكرلوس دواورليان سبط الدوق يوحنا غلاس ويسقونتى فهو جد كرلوس من جهة امه والانتينة او والنطينة التى كان تزوجها لويز دواورليان اخو الملك كرلوس السادس (ملك فرانسا) فعزم الميلانيون على ابطال المنصب الدوقى وجعل دوقيتهم جمهورية قطعا للنزاع بين هؤلاء الاخصام وقلدوا بادارة حكومتهم ولاة وجعلوا فرنسيس سفورس قائد عساكرهم

فاباى

قابان عن صحة ايثارهم له بهذا المنصب بما حازه غير مرة من النصرة على البنادقة غير أن هذه النصرات كانت سببا فى وقوع الريبة منه فى قلوب الميلانيين فعقد مع البنادقة مشارطة سنة ١٤٤٨ ميلادية (اى نحو سنة ٨٥٢ هجرية) ورد لهم الاسارى وسلم لهم فى بلاد كريمة وغيارة وأدا على أن يعينوه على اخذ البلاد التى كانت لفيليبش مارى ثم وجه اسلحته نحو الميلانية واستمر الحرب فى ميلان سنتين ثم وقع فيها خروج وقيام لاجله سنة ١٤٥٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٥٤ من الهجرة) فبايعه الميلانية على انه دوقهم واميرهم وفى سنة ١٤٥٢ ميلادية (اى نحو سنة ٨٥٦ هجرية) دعاه البنادقة الى الحرب ثم انتهى ذلك بعقد مشارطة لودى سنة ١٤٥٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٥٨ من الهجرة) ولم يزل سفورس حاكما على ميلان الى سنة ١٤٦٦ ميلادية (اى سنة ٨٧١ هجرية تقريبا) وكان اعظم امراء عصره يسعون فى مخالفته ويبحثون عن مصاهرته وكان له بنت يقال لها هيبوليتة فتزوجها ألفونس ابن فرديننـد ملك نابلى وكان بين سفورس ولويز الحادى عشر مودة وارتباط اكيد حتى ان لويز نزل له عن جنويزة سنة ١٤٦٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٦٩ من الهجرة) فكافأه على ذلك بالاعانة فى حرب المصلحة العامة حيث امده بالف وخمسمائة من السوارى وثلاثة آلاف من البيادة كان قائدهم ابنه غلاس سفورس فلم يزل غلاس فى فرانسا حتى بلغه موت ابيه فبادر عند ذلك بالرجوع الى ايطاليا ليكون بحضوره على يقين من بيعة الميلانية له واستمر مع الفرنساوية على المودة والصداقة واكد المعاهدة مع لويز الحادى عشر بزواجه بونة دى سابوة اخت زوجة لويز سنة ١٤٦٨ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧٣ هجرية) فداخله الكبر والعتو بهذا النكاح الفاخر وسلك فى الحكم على رعيته مسلك الحاكم المطلق المتصرف فقتله بعض المتضررين الذين اساءهم ظلمه وطغيانه فى كنيسة سنت أمبوروازة سنة ١٤٧٦ من الميلاد (المقابلة لنحو

سنة ٨٨١ من الهجرة) وكان لولده جنا غلاس من العمر ثمانى سنوات فبويع على أنه دوق ميلان تحت نيابة امه وكفالتها حتى يبلغ اشده فاوقع اعمامه الفتنة والخلل فى دولته لغيرتهم من سيكوسيمونيتة الكلابرى حيث كان وزيرا لجده فرنسيس سفورس ولابيه غلاس سفورس وتوزر له ايضا فى ايام نيابة امه فظهر عليهم هذا الوزير ونفاهم سنة ١٤٧٧ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٢ هجرية) وفى سنة ١٤٧٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٨٣ من الهجرة) طلب الفلورنسية من الميلانية الامداد والاعانة على ملك نابلى فحرض هذا الملك جنويزة على القيام والخروج عن طاعة النائبة وكان واسطته فى ذلك هو بروسبيرآدورنو فظفر الجنويزية بجيش من جيوش الميلانية واسترجعوا حريتهم وتجاوز بروسبيرآدورنو الذى هو سبب تلك الفتنة الحد فى النصرة حيث قتل بعض اعدائه فلم يشعر الا وهو خلى عن الاحزاب مجرد عن المعينين والاصحاب فاضطر الى المهاجرة من المدينة وتولى بابتيست فريغوز دوجا اى حاكما وبايعه على ذلك جميع الاحزاب وفى سنة ١٤٧٩ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٤ هجرية) استولى لودويق سفورس الشهير باسم لودويق لومور وهو احد اعمام الدوق جنا غلاس على اقليم طورطونة فدعاه اعداء الوزير سيمونيتة الى الحضور الى ميلان فدخلها وهو يعلن بأنه خادم الدوقة النائبة وحاميها الامين الا أنه عما قليل قبض على الوزير وسجنه فى قلعة باويا سنة ثم قتله وفى سنة ١٤٨٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٨٥ من الهجرة) اشاع أن ابن اخيه جنا غلاس مارى بلغ اشده مع أن عمره اذ ذاك لم يكن الا اثنى عشرة سنة فتركت الدوقة عند ذلك الادارة وتدبير المصالح وهاجرت من ميلان ومن وقتئذ حكم لودويق فى الدوقية باسم ابن اخيه وفى سنة ١٤٨٨ ميلادية (اى نحو سنة ٨٩٤ هجرية) وقع فى جنويزة فتنة ترتب عليها رجوع هذه المدينة الى حكومة الميلانية وذلك أن بعض الاحزاب كان قبل ذلك بيسير طلب الحماية من ملك فرانسا

وعرض

وعرض عليه فى نظير ذلك أن يأخذ امارة جنويزة فطلب لودويق من هذا الملك أن يوليه على جنويزة على انها من التزامات تاج فرنسا قصدا للجمع بين مصلحته ومصلحة هـذا الجار القوى الشوكة (يعنى ملك فرنسا) فاجابه الى ذلك وقلده حكومتها على هـذا الشرط سنة ١٤٩٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٩٦ من الهجرة) (انظر الفصل الآتى لتقف على بقية تاريخ لودويق مع تاريخ كرلوس الثامن ملك فرنسا)

(ولم نتعرض فى الكلام على ايطاليا الا الى الدول الاصلية منها اذ ما عداها لا يستحق أن يعتنى به مثلها وانما نقتصر على ايرادها ليعلمها الواقف على كتابنا فنقول ان قونتات ساوة الذين حازت عشيرتهم القديمة فيما بعد السودد والفخار لم تكن دولتهم فى ذلك العصر الا فى الدرجة الثانية من دول ايطاليا وكان لهم ارتباط بالفرنساوية حتى ان الدوق فيليبش الثانى خدم كرلوس الثامن (ملك فرانسا) فى حروب ايطاليا خدمة عظيمة فجعله اعظم حجابه واكبر رؤساء منزلة وكانت مركية مونتفيرات ومركية سلوس الى ذلك الوقت لم ينضما الى ساوة واما برمة وبليزنسة فكانتا منضمتين الى بلاد ميلان انضماما وقتيا وكانت عائلة ايستة تحكم فى فرارة ومودينة وريجيو وكان الغونزاجية يحكمون فى مانتوه والبكسية فى ميرندولة والملاتستية فى رسينى والملسبينية فى ميسا وكرارة والغريملدية فى موناقو والمونتفلترية فى اوربين وكان ايضا غير هؤلاء يحكمون فى محال أخر وجميع هذه الولايات وكذلك جمهوريتا سيينة ولوكس الصغيرتان عمتها الفتنة والانقلاب العام)

الفصل الثالث

فى الكلام على ما حصل من سفر كرلوس الثامن الى بلاد ايطاليا الى موته (وذلك من سنة ١٤٩٤ الى سنة ١٤٩٨ من الميلاد) (اى من سنة ٩٠٠ الى ٩٠٤ من الهجرة تقريبا)

قد سافر كرلوس الثامن من مدينة ليون فى السابع والعشرين من شهر اغسطوس سنة ١٤٩٤ من الميلاد بعد أن أقام الملكة وسيردبوجو نائبين عنه فى ادارة المملكة وتدبير مصالحها وكان يؤمل الفوز بمرامه فى اسرع وقت لانه كان معه فرقة عسكرية من بيادة الفرنساوية واخرى من عساكر السويسة والالمان وكثير من ابطال السولرى وجم غفير من الطوبجية الا أن هذا الجيش العظيم كان خاليا عما يكون به قوام الحرب وعليه مدار القتال وذلك أن خزينة المملكة كانت قد نفدت اموالها بما صرفه على هذه التجريدة من المصاريف الجسيمة وبتبذيره فى الاموال التى انفقها لينال الصلح عمن جاوره من الامراء وكان اول ما بدأ به فى هذا المشروع المفضى الى الفلس ونفاد اموال المملكة هو اقتراضه من جنويزة وميلان مبالغ عظيمة بلغت حد الكثرة ولم يعقه هذا العائق عن السعى فى تنجيز غرضه فان بلانشة ارملة دوق سابوة التى ورثت هذه الدوقية عن زوجها فتحت له طرق جبال الالب وكانت هذه الاميرة من اقارب كرلوس وحلفائه فدخل الفرنساوية منها الى بلاد ايطاليا وكان اغلب دول تلك البلاد يرغبون فى قدوم الفرنساوية اليهم وقد اسلفنا لك ما دعاهم لاجله لودويق من المغرض الذميم * ومن جهة اخرى كان الدوق حنا غلاس اسيرا عند لودويق فكان يود أن كرلوس الثامن يقدم الى ايطاليا عسى أن يكون فى ذلك فك اسره وتخلية سبيله وكان دوق فراره ايضا يؤمل أنه بالفتنة التى ستحصل يسترجع اقليم بوليزينة دوربويغو وكان قد سلب منه فى مصالحة بنيولو (راجع ما سبق فى تاريخ البنادقة) وكان الفلورنسية يريدون الخروج من حكم الميديسينسية وكان البابا اسكندر السادس قد تحالف اولا مع فردينند طمعا فى نيل اغراضه ثم ظهر منه الميل حينئذ الى الفرنساوية ظانا أن ما يناله بواسطتهم من المنافع اكثر مما يناله منها بمحالفة فردينند وكان البنادقة يتمنون انحطاط عائلة اراغون وكان لهذه العائلة بمملكة نابلى اعداء كثيرون يودون فرصة ينتهزونها فى الانتقام

منها

منها فى نظير ما سلكته بهم مدة طويلة من مسالك الظلم وسوء المعاملة
ثم ان كرلوس الثامن بعد أن قوبل فى ديوان تورين بما يليق بمقامه من التشريفات وحسن الملاقاة سافر منه الى مدينة أسطى وكانت لدوق اورليان ورثها عن جدته والنطينة فمرض بها كرلوس حتى اشفق العساكر عليه وداخلهم من خوف هلاكه وجل عظيم ورعب شديد لكن لم تطل مدة مرضه بل اسرع له البرء وشفى عن قريب فزال عن الجيش الوجل وذهب عنه الروع وفاز بالنجاح والنصرة مرتين وتضاعف فرح الفرنساوية عند ماشاع هذا الخبر
وذلك أن فرديننـد (ملك نابلى) بينما كان يجهز للمدافعة عن مملكته اذ اتاه هادم اللذات ومفرق الجماعات فى الخامس والعشرين من شهر ينويه سنة ١٤٩٤ من الميلاد فخلفه على المملكة ابنه البكري المسمى ألفونس ولما حاز هذا الامير منصب الملوكية وكان له عقب برث الملك بعده كان عدوا للودويق فعزم على الهجوم عليه قبل اغارة الفرنساوية ظانا أنه بهذا المشروع يحظى بالنجاة اوالانتقام او بهما معا فبعث تحت قيادة اخيه فردريق وابنه فرديننـد دونما الى سواحل ليغوريا وجيشا الى ثغور ميلان الا أن الفرنساوية بنشاطهم وشهامتهم خيبوا مسعاه فى هذه التجريدة واضطر النابلية الى الانصراف بما لحقهم من الخسارة والخذلان وفى اثناء ذلك خرج الملك من مدينة أسطى قاصدا مدينة باويا وكان الدوق غلاس وزوجته ايزابيلة مسجونين فى حصنها فاراد الملك أن ينظر هذا الدوق الشاب فوجده فى سكرات الموت ويقال ان سبب مبادرة المنية له هو افراطه فى اللذات وانهماكه على الشهوات والعامة تقول سبب ذلك ما اعطاه له لودويق من السم البطئ التأثير
ولما ابصر غلاس كرلوس الثامن ترأى من حاله أنه انتعش لرؤيته وافاق قلبه من غمرته الا أن حضور لودويق منعه من تتميم الشكوى الى الملك وقد كاد يفشى اليه ما فى سريرته ويطلعه على ظلامته فامسك عما سوى التنهد

والبكاء و بينما هو على تلك الحالة المحزنة التى ترق لها القلوب اذ اقبلت زوجته ايزابيلة وكانت قد فرّت من الحرس وخرّت على اقدام الملك وصارت تتضرّع اليه وتستعطفه لاجل زوجها الذى كان قد قارب الوفاة وابنها الذى كان فى المهد وابيها الذى كان يهدده الفرنساوية باسلحتهم من غير أن يجنى جناية يستوجب بها ذلك فاجابها كرلوس مع الحيرة والاضطراب بأن مقاصده قد اخذت فى التقدم والنجاح فلا يسعه العدول عنها وحاول اخفاء التاثر والرأفة وفارق هذا المحل المحزن وتبعه لودويق الى مدينة بليزنسة فبلغه فيها موت حناغلاس فبادر بالرجوع ليتغلب على منصبه تحت السير الى ميلان وبذل الرشوة الى ارباب مشورتها فاعلنوا بأن الوطن لا يستغنى عنه ودعوه الى لبس التاج لكن لما كان للدوق المتوفى ولد بلغ من العمر خمس سنوات لم يجبهم اولا الى ذلك نفاقا منه وخداعا ثم رضى بذلك مظهرا أنه على خلاف مرامه وأنه ليس الا لموافقة رأى الجمهور فقط وتوشح بشعائر المنصب مظهرا أن جلوسه على الكرسى لم يكن عن طيب نفسه مع انه كان يطمع فى ذلك منذ عشرين سنة و بعد هذا التغير تجاسر على أن يتصل بالفرنساوية ثانيا وكان عساكرهم لقبائحه وكثرة ظلمه قد حنقوا منه حنقا شديدا حتى كانوا يتشوّفون كل التشوّف لعقابه والفتك به فاشاروا على ملكهم كرلوس بأن يستعد لتجريدة نابلى بفتح ميلان غير أنه كان مصمما على مقاصده الاولى فراعى ما كان يبديه له لودويق من ذميم المودّة التى لا بقاء لها واستمر سائرا الى نابلى وكان بطرس دوميديسيس رئيس جمهورية فلورنسة حليفا لالفونس الثانى فلو تعرض الفلورنسية لمنع كرلوس عن السير للحقه منهم خطر عظيم فان الجيش الفرنساوى وقتئذ كان على غاية من الفاقة والاحتياج حتى ان شدة احتياجه كانت تلزمه أن يسلك طرقا اخرى فى تحصيل الاموال ولا مانع أن يقال انه لو لحق الفرنساوية الخطر المذكور لحمل ذلك لودويق على المبادرة التى اقتضى حزمه تأخيرها الى وقت الفرصة * ومثل ذلك لا يعد من هذا الخائن منقصة وخطأ (اذ ما على

مثله

مثله بعد الخطاء) ولكن كان فى فلورنسة فتنة افضت باهلها الى أن صاروا حزبين متعادين فكان ذلك نافعا لكرلوس وملايما لمصلحته

وذلك أن جيروم ساوونارول الذى ولد بمدينة فرارة سنة ١٤٥٢ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٥٦ من الهجرة) اعدّ نفسه للدين فترهب من صغره وكان حادّ الذهن وازدادت حدّته بما كان يرد عليه فى الخلوة من التخيلات وجولان ذهنه فى التصوّرات فظن فى سنة ١٤٨٣ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٨ هجرية) أنه قد اوحى اليه وسمع نداء خفيا يدعوه الى اصلاح بلاد النصرانية وتهذيب اخلاق الملة المسيحية فابتدأ الدعوة فى مدينة بريسيا واخذ يعظ الناس بالابوكالبسيس وهو جلية يوحنا الانجيلى ثم ذهب الى فلورنسة سنة ١٤٨٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٩٥ من الهجرة) واستوطن بها فمكثت هذه المدينة ثمانى سنوات وهى ميدان لوعظه ومقر لانذاره قبل أن تصير محلا لتعذيبه وقتله ولما رأى فساد عصره اخبر بأنه عما قليل يحل بايطاليا مصائب غريبة وهذا منه اما من باب الحدس والتخمين او من باب النظر فى العواقب فدعا ابناء وطنه أن يتداركوا هذه النقمة الآلهية بالاستقامة وحسن السلوك وبالجملة فكان كالراهب ارنود دوبريسيا يمزج الامور السياسية بالامور الدينية وكان اذا اصعد المنبر يسلك مسلك الحمية والحماسة وكان يخطب للامة فى الساحة العمومية وفى ايام لورانت لومانيفيك تجاسر على أن يطلب على لسان الاهالى اعادة الحكومة الاهلية وفى ايام خليفته بطرس ازدادت جسارته ونفوذ كلمته وصار له عند الامة منزلة عظيمة حتى كأنه معبودهم وصار له الرياسة على الحزب المضاد لحزب المديسيسية ولما قرب كرلوس من اراضى فلورنسة قال ان هذا الملك مرسل من الله جعله واسطة لاصلاح حال الكنيسة وتهذيب اخلاق اهلها فهو الذى يرشده فى سيره ويزيل الموانع من بين يديه ويذلل له كل صعب عليه فادرك بطرس دوميديسيس الرعب والخوف مما ترتب على هذا الكلام من هيجان الناس واضطرابهم ورأى أنه

لايسعه منع الاضطراب الداخلي واغارة الاجانب دفعة واحدة فطلب من الجمهورية أن تعين ارسالية ليستصحبها معه الى ملك فرانسا فوجده فى مدينة بونترمولى ونقض ما كان بينه وبين ألفونس الثانى من العهود والعلائق وعرض على كرلوس أن يفتح له الطريق ويمده بالمؤونة فاراد الملك أن يستوثق منه على ذلك فطلب منه أن يسلم له جميع ثغور طوسكانة ووعده أنه بعد انقضاء الحرب يردها اليه فرضى بطرس بذلك ووضع القرار عليه ثم ان الانسان قد يعرض له احوال سيئة واوقات مشؤومة تحمل الناس على أن لايبحثوا فيها الاعن خطأه ومايدعو الى ذمه وملامته وذلك أن بطرس المذكور عاد الى فلورنسة مجردا عن محالفة ألفونس وعداوة كرلوس فكان بذلك خائنا للوطن فقام الفلورنسية على هذا الجبان الذى وضع القرار على ما يورث بلاده الخزى والعار فاضطر الى الفرار هو واخواه يوحنا ويوليان وذهبوا الى مدينة البندقية فصارت فلورنسة حينئذ ارستوقراطية اى ترتبت فيها حكومة الاعيان وصدر الامر من ديوان الحكومة بقتل المديسيسية والاعلان بأنهم عصاة والضبط على اموالهم وعينت الحكومة جعالة لمن يقتلهم ويأتى برؤسهم فلم يكن جبن المديسيسية الاعلة تعلل بها الفلورنسية فى هذا التغيير والانقلاب وبعد كثرة هرجهم وشدة اضطرابهم رأوا انهم قد نالوا الحظ الاوفر بتقرير كرلوس للمشارطة التى كان عقدها مع بطرس حيث ذهب منهم سفراء الى مدينة بيزة ليقابلوا الملك وكان من جملتهم ساوونارول فدعا الملك الى دخول ارض فلورنسة التى منحته بها القدرة الالهية وهذا على عادته من التعبير بعبارات تؤذن أنها بطريق الوحى والالهام ومع ذلك وعظه وارشده الى اتباع طرق الرأفة والحلم واشار عليه أن يتأسى فى افعاله برحمة الله تعالى الذى دعاه الى ما اعده له من الحظوظ السنية فوعده كرلوس باصلاح مايتعلق بفلورنسة وترتيب امورها على وفق مرام اهلها غير أنه اذ ذاك لم يكن فى وسعه أن يفى بوعده وذلك أن البازية الذين كان الفلورنسية منذ قرن تقريبا تغلبوا

عليهم

عليهم وادخلوهم تحت حكمهم لاقواه هذا الملك كلاقاة المنقذ المخلص وخرجوا عن تبعية الفلورنسية واعلنوا بالاستقلال عملا بمقتضى كلمة قالها كرلوس من غير روية ولا تدبر فلما دخل فلورنسة وجد اهلها فى هرج واضطراب من هذا التعدى على حكومة جمهوريتهم وازدادوا حنقا بما رأوه فيه من العتو والانفة وكثرة الالحاح فى اعادة الميديسيسية حتى كاد ذلك يجر الى الفتنة والقيام فتدارك هذا الامر بتسليمه لهم فيما طلبوا سالكا فى ذلك مسلك الحزم والتبصر حيث آثر ما فيه نفعه من امدادهم له بمائة وعشرين الف ريال على ما يظهر فيه بمظهر الافتخار من محاماته للعائلة الميديسيسية المطرودة

ثم انه ارتحل من فلورنسة الى مدينة سينة واقام بها محافظين ثم دخل اراضى الكنيسة فى اوائل شهر دقمبر وكان للبابا اسكندر السادس مدخلية فيما دعا كرلوس الى ايطاليا من التدبيرات والمصالح الا انه لما اجيب الى عقد مشارطة مع عائلة اراغون تعود عليه بالمنفعة واثبت لاولاده اقطاعات عظيمة بمملكة نابلى عدل عن نيته الاولى ولكن داخله الرعب والفزع من سرعة نجاح كرلوس فاخذ فى اسباب المصالحة مع هذا الشاب الفاتح فارسل اليه ارسالية وتلقى منه مثلها غير أنه لما ايقن بحضور جيش من نابلى ابطل المفاوضة فى شأن تلك المصالحة على حين غفلة وقبض على الارسالية الفرنساوية ومثل هذا التعدى مباين لطرق الحزم والسداد كما انه منابذ لحقوق الملل بعضها على بعض وعما قليل حقت الهزيمة على النابلية واخذوا فى الانصراف وحصر البابا فى حصن سنتانج وجبر على التصديق ووضع القرار على مشارطة تعود عليه بالضرر فلذا كان فى الحقيقة عازما على نقضها عند الفرصة اذ بمقتضاها لزمه أن يسلم للملك ثلاثة حصون من حصونه حتى ينقضى الحرب وأن يذهب ولده المسمى قيصر برجيا مع الفرنساوية ليكون رهينة عندهم يستوثقون بها وأن يسلم له ايضا الامير جم اخى السلطان بايزيد الثانى وعدوه ليستعين به على ما كان يقصده

فى شأن بلاد الدولة العثمانيــة وكان هــذا الامير قد غدر به الدهر حتى اوقعته تقلباته العجيبة فى قبضة هذا البابا (راجع تاريخ الدولة العثمانية) فرضى اسكندر بذلك كله وسافر كرلوس من رومة فى الثامن والعشرين من شهر يتوية واستصحب معه ثلاثة من الامراء كان يزعم أنه يستخدمهم فى اغراضه ومصالحه * احدهم اندريه باليولوغة ابن اخى آخر قياصرة المشرق وكان قد نزل له عن حقوقه التى لا طائل تحتها فى شأن كرسى" هذه الايمبراطورية التى اضمحلت وتلاشت * والثانى الامير جم * والثالث قيصر برجيا الا أن هذا الامير الاخير فر خفية الى مدينة ولترى ومات الامير جم بعد ذلك بايام قلائل فاشاع الناس انه مات مسموما وأن الموت كان كامنا بين اعضائه حين سلموه لكرلوس الثامن وأن اخاه السلطان بايزيد اعطى البابا فى نظير ارتكابه لهــذا الذنب ثلثمائة الف دوقة واياما كانت هــذه التهمة فالرأى العام نسبة ذلك الى البابا اسكندر وكان هروب قيصر برجيا دليلا واضحا على خيانة البابا المذكور وعدم صدقه فيما اخذ عليه من العهود وقد جزم كرلوس بخيانته حين بلغه أنه شرع فى المعاهدة مع ايزابيلة وفرديننداالقاثوليقى" ملكى اسبانيا لكن كان قد سبق القضاء بأنه لا شئ يحمل كرلوس على العدول عما عزم عليه فى شأن مملكة نابلى وكان قد ترتب على ماشاع من نجاحه اثناء سيره أن حصل فى هذه المملكة فتنة وهرج

وذلك أن ألفونس الثانى الذى كان من اهل الحرص والبخل والجبر والقساوة كان مبغوضا عند رعاياه حتى انهم بعد أن نهاهم عن الدعاء عليه بالسب واللعن حين كانت شوكته قوية عادوا لما كانوا عليه وصاروا يلعنونه وهو يسمع منهم على كرسيه الذى صار مبغوضا لا ثبات له فلما رأى ماعليه الامة من الهرج واللغط واحس من نفسه بالقلق وعدم براءة الذمة وما أورثته له الاوهام الفاسدة من الخشية والخوف لم يسعه الا اجابة هذه الدواعى فنزل عن سرير ملكه فى الثالث والعشرين من شهر يتوية وذهب بوسواسه وقلقه الى دير

من

من الادبار مكث فيه حتى مات في تلك السنة وخلفه على المملكة ابنه فرديننـد الثاني وكان ذا شجاعة وشهامة الا أنه لم يمكنه أن يكسب ذلك لعساكره حيث ابانوا عن الجبن الذي اورثهم مالامزيد عليه من الخزى والمعرة على سواحل غاريلان وسان جرمانو وكابوة وفي سائر المصادمات ولسوء حظ هذا الملك الذي تركه عساكره في ميادين الحرب كان قد اشرف على الوقوع في مكايد الخيانة ومصايد الغدر وذلك أن بعض الاحزاب تواطئوا مع المحافظين على القبض عليه وبيعه للفرنساوية فلما بلغه امر هذه العصبة المؤذنة بالجبن فر من سراينه خفية واخذ زوجته وجدته وركب بهما البحر حتى وصل الى جزيرة اسكيا فمكث فيها ينتظر فرصة يسعفه بها الدهر

وكان كرلوس الثامن قد حث السير الى نابلي فارسل له اهلها البيعة ومفاتيح مدينتهم فدخلها في الحادى والعشرين من شهر فبرية واهلها على كثرتهم يستهلون ويصيحون صياح المسرة وينثرون الازهار في طريقه ويسمونه منقذ ايطاليا فاخذته من ذلك نشوة الفرح وخامرته خمرة السعد والاقبال حتى صار بمعزل عن تمكين ما ناله من العز والسعادة بسلوكه مسلك الملاطفة واتباع طرق الحزم والتدبير بل لم يتفكر الا في التمتع بذلك فلم يدع شيأ يهدم ما بناه الا فعله ولا امرا يفضى بسعده الى الزوال الا ارتكبه وما اهمله حتى انه لانهماكه على الحظوظ وانكبابه على المواسم كان يظهر من حاله أنه لا يعلم أن مدن ريجيو وبارى وغاليبولى وعدة ثغور اخرى لم تزل من حزب فرديننـد فلم يعتن بالزامها بمبايعته وجبرها على طاعته وعما قليل نفرت منه قلوب النابلية بما وقع منه من المظالم وما شابذ الحزم والتبصر فان اغلب ملتزمى هذه المملكة بادروا بالحضور ليبايعوا هذا الملك الجديد فكانت مكافاته لهم على مبايعته والسعى في مصلحته هو أنهم تجردوا عن جزء من التزاماتهم حازه خاصته وجلساؤه ولم يكن الاهالى دونهم في المسرة والفرح الا أن عتو المتغلبين الخالى عن الحزم والتبصر غاظهم واساءهم وجاء على خلاف ظنهم ولما زال من قلوبهم فرط اعجابهم بهذا الملك وامسكوا

عن مدحه وحل محل ذلك الاسف والكراهة كان هو حينئذ على غاية
من الامن والطمأنينة حقيقة او أنه كان يتصنع ذلك ويتكلفه حيث كان يظهر
فى مملكة نابلى ابهة حكومات ثلاث كان قد غرته بها الطمع وتعلقت بها آماله
فكان يود المبايعة بالامبراطورية على المشرق وبالتملك على نابلى وبلاد
القدس حتى انه دخل المدينة لابسا العباءة الامبراطورية فى الثالث عشر
من شهر مايه بموكب واحتفال عظيم وفى احدى يديه عكازة الملك وفى
الاخرى كرة من الذهب ومع ذلك فلم يراصل لابلاد اليونان ولا بلاد فلسطين
بل ضاعت منه ايطاليا بعد ذلك بقليل وذلك أن فيليبش دوكومينة
وكان الچيه فى مدينة البندقية اطلع على سر عصبة كبيرة تعصبت على سيده
فى هذه المدينة وان كان اطلاعه على ذلك فى غير اوانه وكان رئيس هذه العصبة
هو لودويق مع أنه هو الذى كان دعا الفرنساوية للتغلب على كرسى
ميلان ولكن كانت مصالحه واغراضه قد تغيرت منذ افتتات على هذا الكرسى
فانه كان لا يخفى عليه كراهة كرلوس الثامن له على هذا الافتيات وصار
لا يراه الامن اعدائه فبحث عن ظهير آخر يعتمد عليه فاشترى من الامبراطور
مكسمليان منصب الحكم على جمهورية ميلان وكان دوق اورليان
الذى كانت له حقوق فى هذه الجمهورية نازلا بمدينة أسطى ومعه طائفة
من العساكر وكان قد استولى على مدينة نوار فكان هذا المفتات
(يعنى لودويق) يخشى مجاورة هذا الدوق وقصارى الامر أن كرلوس الثامن
كان قبل دخوله بلاد ايطاليا قد وعد لودويق بامارة ترنتة فلما فتح تلك
البلاد بخل بها عليه ولم يف له بوعده فحمله الغضب والخوف من هذا الملك
على القيام عليه والعزم على قتاله وانضم البنادقة الى العصبة طامعين
فى الاستيلاء على بعض محال بحرية من مملكة نابلى كان قد وعدهم
النابلية بها مع أنهم كانوا فى مبدء الامر متباعدين عن الفريقين فلم يكونوا مع
احدهما على الآخر ولم يتجاسر البابا اسكندر السادس على الانضمام
اليها جهرة على رؤس الاشهاد وانما دخل فى زمرة المتعصبين سرا ودخل

ايضا

ايضافى حزبهم الملوك الثلاثة الذين كان كرلوس الثامن قد اشترى منهم التباعد وعدم التحزب عليه باغلى ثمن فبينما كان لودويق محاصرا دوق اورليان فى مدينة اسطى وكان البنادقة ينتظرون باربعين الف مقاتل كرلوس الثامن حتى ينزل من جبال ابنين كان على ملك اسبانيا أن يرسل من سيسليا جيشا الى نابلى ويهجم على فرانسا من جهة جبال البرنات وعلى مكسمليان أن يدخل اقليم شمبانيا وعلى هنرى السابع أن يدخل اقليم بيكارديا .

فلما بلغ كرلوس امر هذه العصبة الهائلة بادر بالارتحال من نابلى لئلا يترك للعدو فسحة فى سد طريق جبال ابنين عليه الا انه لم يأخذ من عساكره الا تسعة آلاف وخمسمائة مقاتل وترك منها فى نابلى اربعة آلاف رجل لاجل حمايتها مع أن هذه الجنود كلها كانت غير كافية بالنسبة الى خطر هذا الخطب الشديد فاما أن يكون ذلك منه احتقارا للا يطاليين وعدم اكتراث بهم او أنه استحى أن يظهر عليه العدول عن الفتوح وأناب عنه على نابلى چلبيرت دو بوربون قونتة مونتپنسير وقلد دوبنى بسيف الكونيتابل على السيسليتين اى جعله اميرا على الجيوش وبعد أن رتب بذلك ماهو على صورة الحكومة اخذ فى السير حتى جاوز مع السرعة ايالة الرومان وتحت حكومتهم ولما علم البابا أنه قادم الى تلك البلاد فر هاربا منها قبل وصول الملك اليها ومع سوء حظ كرلوس حينئذ قابله اهل مدينتى سيينة وبيزة ولاقوه ملاقاة المنقذ لهم وكانوا يخشون أن يدخلهم الفلورنسية ثانيا فى حكومتهم وتحت تبعيتهم وكانوا يرون أن ذلك صار قريب الوقوع حتى كأنه نصب اعينهم فرأى كرلوس أن عظم مقامه يأبى تركهم بدون اعانة فاضعف قوة نفسه العسكرية زيادة على ضعفها الاصلى بتركه عندهم طائفة ممن كان معه من العساكر لاجل محافظة مدينتيهم ثم وصل الى فورنوة وهى بلدة واقعة فى سفح جبال ابنين على البعد من مدينة بارمة بثلاثة فراسخ وكان العدو ينتظره هنالك ولم يمكن للودويق أن يتصل

بالبنادقة لانه كان مشغولا بقتال دوق اورليان على أن عساكرهم كانت اربعين الفا تقريبا يقودهم مركى منتوه ولم يكن مع الملك الا ثمانية آلاف قد ادركهم النصب والتعب وحلت بهم الامراض وقد بلغ الفرنساوية قبل الالتحام أن البنادقة قد عزموا على أن يوجهوا جميع عملياتهم الحربية الى الجهة التى يكون بها الملك فاظهر تسعة من شواليتهم ما لامزيد عليه من الصداقة والهمة العجيبة حيث صمموا على أن يبذلوا مهجهم دون ملكهم وأن يقوه بأنفسهم فتزيوا بزيه ليتلقوا عنه ما يقصده به العدو من الطعن والضرب واظهر كرلوس من الشجاعة وشدة البأس فى المعركة ما قضى بأنه اهل لمثل هذه الدرجة من المحبة وتأسى به فى ذلك جنوده فلم تمض عليهم ساعة الا وقد ظهروا على عدوهم وتمت لهم النصرة عليهم ولم تبلغ قتلاهم مائتى رجل بخلاف عساكر العدو فانهم تركوا منهم فى ميدان الحرب اربعة آلاف ولم يسبق للايطاليين منذ عدة قرون مثل هذه الوقعة فى سفك الدماء وكثرة القتلى ولم يكتسب كرلوس من هذه النصرة الفاخرة الا ازالة المانع من طريقه فقصد مدينة أسطى ودخلها فى الخامس عشر من شهر يولية وكان دوق اورليان وقتئذ قد حصره لودويق فى مدينة نوار وكان لم يزل متجلدا على قتال غير مستوى الطرفين حيث كان يقاوم جيشا جرارا بطائفة من محافظى تلك المدينة كان قد اسقمهم الشقاء والجوع حتى كلت هممهم فعوضا عن كون كرلوس يعاقب مفتات ميلان (يعنى لودويق) اضطر الى المشارطة معه فوضع القرار على مشارطة ورسيلى فى الثامن عشر من شهر اقطوبر وكانت مشتملة على شروط ظهر من بعضها الذى نقضه لودويق بعد ذلك بقليل أنه هو الذى انقذ فرانسا مما يخل بشرفها ويخدش عرضها وفى الحقيقة لم يجتن كرلوس من ثمراتها الا تخليص محافظى مدينة نوار من ربقة الاسر ثم ان الملك بعد ذلك بايام قلائل اجتاز جبال الالب ثانيا ونزل بمدينة ليون حتى لا تنقطع من فكره ملاحظة ايطاليا فعما قليل وصل اليه منها ما اساءه من الاخبار المحزنة

وذلك

وذلك انه بمجرّد سفر الفرنساوية خرج فرديننـد من ملجأه الى نابلى
فما كان من اهلها الذين دأبهم التلوّن وعدم الثبات على حالة واحدة الا انهم
قابلوه مع البشر والفرح مع أنهم كانوا قبل ذلك بعدّة اشهر تخلوا عنه جميعا
وكان ملك اسبانيا قد بعث اليه بعض فرق عسكرية يقدمها غونزلوة
القرطبى وكان هذا القائد قد حاز من المهارة والنجابة ما يغنى عن كثرة
العدد فابان كل من قونتة مونتبنسيير نائب كرلوس على نابلى ودوبنى
(الذى قلده رياسة الجيوش على السيسليتين) عما يؤمل صدور مثله عن
الشجاعة والنشاط مع صغر جيشهما وقلة عدده غير أن هذا النائب كانت
شجاعته تفوق على ما يلزم لرؤساء العسكرية من المهارة والحزم فلذا اجبر
على التسليم فى مدينة اتيلا بموجب شروط وقعت بين الفريقين ثم اقتضى
الحال المفاوضة فى امور اخرى الجأته أن يمكث مدة الصيف على شاطئ بايا
وكان فيه امراض وبائية معدية فاصيب منها بمرض افضى به الى الهلاك وأتى
على معظم جيشه فاهلكهم ايضا ولم يبق منهم الا بقايا واهية بحيث لا يمكنها
العود الى وطنها الا بشق الانفس واما دوبنى فانه انتصر فى مبدأ الغزوة
بمدينة سمينارة ثم سلم ايضا فى مدينة غرو بولى بعد أن بذل فى المدافعة
عن اقليم كلابرة ما لا مزيد عليه من الهمة والشجاعة ورخص له فى العود
الى فرانسا

فتشوّف كرلوس كل التشوّف الى جبر ما لحق عساكره من الشقاء وسوء الحظ
فاراد أن يستولى على نابلى ثانيا لكن منعه من تجهيز هذا الغرض اغارة
الاسبانيول على اقليم لنغدوق وان اجلاهم الفرنساوية عن فرانسا
بل وتتبعوهم الى اقليم روسليون وقد تعجب فرديننـد مما عاينه
فى الفرنساوية حينئذ حيث وجدهم لم يزالوا بمكان من الشجاعة وشدة البأس
مع أنه كان لا يظن فيهم الا الضعف وفتور الهمة فلذا طلب المهادنة منهم فاجابوه
الى ذلك وشرع ايضا كل من مكسمليان وهنرى السابع فى المفاوضة معهم
فى شأن الصلح وانحط الرأى بينهم على العمل بمقتضى المشارطات القديمة

فظهر حينئذ من حال الملك الشاب (يعنى كرلوس الثامن) انه صار خليا عما يمنعه من التشبث ثانيا بتنجيز مقاصده فى شأن الفتوحات الا أن مراجعة مجالس البرلمان (اى مجالس المداولة) له فى هذا المعنى الزمته بتأخير ذلك الى وقت آخر متعللين بنفاد خزائن المملكة ثم فجأه الموت سنة ١٤٩٨ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٠٤ من الهجرة) وله من العمر سبع وعشرون سنة ولا مانع أن الموت اراحه مما كان عساه أن يقع فيه من الزلل والخطأ فيفضى به ثانيا الى النكبات والمصائب

وقد حاز الفخر الحقيقى بما صدر عنه فى المدة القصيرة التى كانت بين عوده من ايطاليا ووفاته من الاعتناء بشأن ادارة المملكة حيث جعل مقر المشورة الكبرى مدينة باريس واجاد ترتيبها واحسن نظامها وكانت قبل ذلك تابعة لديوان الملك اينما وجد وكانت فى الغالب غير مستكملة وشرع فى امر مهم نافع وهو تدوين العوايد الذى كان عزم عليه الملكان اللذان توليا قبله ولم يتم الا فى ايام كرلوس التاسع وكان مثل سنت لويز يحب أن يباشر بنفسه فصل دعاوى رعيته فكان يعقد مجلسا عاما يسمع فيه شكاوى الناس عموما لاسيما الفقراء وهو وان كان لا يفصل فيه كثيرا من الدعاوى الا انه كان يوقع الهيبة فى القلوب لاسيما ضباط المملكة فانه عزل منهم جماعة لاختلاسهم وبالجملة فهو وان اضر المملكة بعدم تبصره وقلة حزمه الا انه حاز من الصفات الجميلة ما يبعث على الاغضاء عن مثالب الملوك وعدم الالتفات الى معايبهم وهو طيب السريرة وكرم النفس وقد قال كومينة او كومينيس انه لا احد احسن من هذا الملك انتهى

(الباب السابع)

(فى الكلام على فرانسا و بلاد ايطاليا)

(ذكر لويز الثانى عشر)

(من سنة ١٤٩٨ الى سنة ١٥١٥ من الميلاد)

(اى من سنة ٩٠٤ الى سنة ٩٢١ من الهجرة تقريبا)

الفصل

(الفصل الاول)

فى ذكر ماوقع من تولية لويز الثانى عشر على مملكة فرانسا الى فتح ميلان ثانيا بمفردها (وذلك من سنة ١٤٩٨ الى سنة ١٥٠٠ من الميلاد) (اى من سنة ٩٠٤ الى سنة ٩٠٦ من الهجرة تقريبا)

ولد لويز الثانى عشر بمدينة بلواس فى السابع والعشرين من شهر يونية سنة ١٤٦٢ ميلادية (اى نحو سنة ٨٦٧ هجرية) وابوه هو كرلوس دوق اورليان وامه مارية دى كايوة وجده لويز الاول دوق ورليان وجدته والنطينة وسقونتى وقدورث المملكة عن كرلوس الثامن الذى مات ولم يعقب ذرية بوصف كونه اول امير من العائلة الملوكية (اى اقرب العصبة الملوكية اليه) وكان مثل لويز الحادى عشر قد عكر الدولة بالقيام واثارة الفتن قبل أن يجلس على سرير الملك وكان مثله ايضا قد حصل له ما يوجب الضغينة والحقد الا أن المشابهة بينهما كانت مقصورة على ذلك فان لويز الحادى عشر بادر بمعاقبة من حقد عليه ولويز الثانى عشر بادر الى العفو والصفح وذلك أن لترموالة الذى كان قبل ذلك قد غلبه فى مدينة سنتوبين كان على وجل منه أن يعاقبه فى نظير انضمامه الى حزب النائبة (اى حانة اخت كرلوس الثامن) فقال له لويز الثانى عشر لا يليق بملك فرانسا أن ينتقم ممن اساءه حين كان دوق اورليان انتهى وكان برلمان باريس (اى مجلس المداولة) بتلك المدينة لم يقبل اربابه منه ماعرضه عليهم من الشكاوى سنة ١٤٨٥ من الميلاد (اى نحو سنة ٨٩٠ من الهجرة) فكانوا بذلك على قلق وخوف منه خشية أن ينتقم منهم وازداد بهم الفزع حين امر باحضار جدول يتضمن اسماء الولاة والحكام وصار يضع علامة الصليب بجانب كل اسم من اسماء من عارضوه قبل ذلك وركنوا الى مخالفته الا انه ذهب عنهم الروع بعد ذلك بيسير حين قال فى شأنهم ما بالهم لا يطمئنون وقد وضعت بجانب اسمائهم علامة النجاة المقدسة وكانت حانة دى بوجو (اخت الملك

كرلوس الثامن) من اشد اعدائه حين كان دوق اورليان ومع ذلك لم يستثنها ممن أمنهم بل شملتها ايضا ذاثرة حلمه وعفوه ولم يحرمها من احسانه وبرّه فقد قرر لبنتها المسماة سوزانة دى بوربون التى لم يكن لها سواها ما كان لاقاربها من الاقطاعات وان كان بعض هذه الاقطاعات بموتهم يرجع للتاج الملوكى * وحيث كان نسيان الاساءة بعدم المواخذة عليها معدودا من مكارم الاخلاق فليكن الاعتراف بحسن الصنيع من قبيل العدالة والانصاف فلذا طلب لويز الثانى عشر لجرجى دمبوازه منصب الكردينال وجعله اعظم وزرائه واشركه معه فى الحكم مكافأة له على انضمامه اليه وارتباطه به من مبدأ الامر ومقاسمته فيما قدر عليه سعادة وشقاء حين كان لويز المذكور دوق اورليان

وكأن هذا الملك ابقى القسوة كلها لزوجته حانة دى فرانسا ثانية بنات لويز الحادى عشر وكان ابوها قد جبره على زواجها وهى وان كانت خالية عن المحاسن الظاهرية الا أنه قام مقام ذلك ما انطوت عليه من المحاسن الباطنية ومع ذلك لم تحظ من زوجها بالمحبة اصلا وكان قد ابتلى بزواجها وله من العمر اربع عشرة سنة وكان عقده عليها بطريق الاكراه كما أن بقاءه معها كان من باب السياسة فلما تمكن من فراقها بولايته على المملكة فسخ نكاحها وذلك انه انعم بدوقية ولنتنواس على قيصر برجيا ابن البابا اسكندر السادس ليستميل بذلك والده حتى يحكم له فى هذه المادة بما يكون على وفق مرامه فارسل هذا البابا ثلاثة احبار من ديوان رومة لينظروا فى هذه القضية فحكموا بفساد النكاح من وجوه ثلاثة احدها كون الزوجين فى درجة من القرابة يمنع معها النكاح وثانيها ما كان بينهما من العلاقة الدينية المحترمة لذلك وثالثها الاكراه على نكاحها

وكانت حانة دى بريطانيا قد عادت الى ولاية دوقيتها بعد موت زوجها كرلوس الثامن فاعاد لويز الثانى عشر هذه الدوقية العظيمة الى مملكة فرانسا وضمها اليها ثانيا بزواجه لهذه الاميرة التى كان زواجه بها موافقا لهواه

كما

كما كان ملايما لمقتضى السياسة ولكن اثبتوا فى وثيقة النكاح أن تلك الملكة لها أن تتصرف فى ايرادات دوقية بريطانيا كيف شاءت وأن هذه الدوقية بعد موتها تنتقل لثانى اولادها من الذكور فان لم تعقب ذكورا انتقلت الى بناتها مع مراعاة حق الكبر فى السن فان لم تعقب اصلا كانت لملك فرانسا مدة حياته وترجع بموته لاقرب عصبة الملكة والتزم لويز الثانى عشر أنه لا يغير شيأ فى ادارة هذا الاقليم وأن لا يضرب على اهله شيأ من المغارم ولا يجمع منهم عساكر الا برضاء جمعية الوكلاء واشترطوا فى الوثيقة ايضا أن الملكة هى التى لها حق التقليد بالمناصب التى خلت عن اصحابها وأن الملك لا يضع فى امضائه على الاوراق التى تخص هذا الاقليم الالقب دوق بريطانيا ولما تم امر هذه الوثيقة اشهر النكاح فى مدينة نتس فى الثامن من شهر ينوية سنة ١٤٩٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٠٥ من الهجرة) وتتوجت حانة مرة ثانية فى سنت دينيس وصحب هذا الاحتفال مواسم فاخرة وكان للامة نصيب فى تلك الافراح والمسرات حيث خفف عنهم بوضع عشر المغارم ووعدوا بالتخفيف زيادة على ذلك وعوفوا بالكلية من المغرم المسمى جويواو تان (اى مرتب التولية السارة)

وكان ذلك من لويز الثانى عشر تباشير ومقدمات لحسن مقاصده وجميل اغراضه فيما يوجب عز المملكة وسعادتها فانه كاد يستغرق السنتين الاولين من حكمه (وهما سنة ١٤٩٨ وسنة ١٤٩٩ من الميلاد) (الموافقتان لسنتى ٩٠٤ و ٩٠٥ من الهجرة تقريبا) فى الاصلاحات النافعة والتحسينات المفيدة والترتيبات الضرورية واشغال الادارة الداخلية

وقد سعى كل من كرلوس الخامس ومن بعده من ملوك فرانسا فى الزام العساكر بالاذعان الى اصول عسكرية وقوانين منتظمة فلم يجد سعيهم نفعا فان هذه القوانين المقبولة التى وضعوها انما دلت على ما كان بالمملكة من الخلل دون أن تزيل ضرره وتمحو اثره وبعد أن خابت مساعيهم فى ذلك وذهبت

مجهوداتهم سدى كان الناس يرون أن نجاح هذا الغرض من حيز المستحيل الا لو يز الثانى عشر فلم يروا أيهم فى ذلك بل وضع قانونا سلك فيه مسلك التشديد فانه بعد أن عين فيه للعساكر محال مخصوصة لاجل المحافظة واثبت ما يلزم لهم من المرتبات والعلوفات هدد كل من نسى منهم أن العسكرى لا ينبغى له أن يكون قاطع طريق بعقاب يصح أن يكون عبرة للمعتبرين وزجرا للمتمردين واجرى هذا القانون مع غاية التدقيق والتشديد ففزع العساكر مما شاهدوه من العقوبات الهائلة وجبرهم ذلك على القيام بواجباتهم وادائها على اتم وجه

وكانت ادارة فصل الدعاوى تستدعى التفات الملك اليها لانه كان قد تطرق اليها خلل عظيم حيث كان يصحب القضاة فى مجلس الحكم اناس يشك فى استقامتهم وتأهلهم لفصل الخصومات فكثيرا ما كانوا يماطلون فى القضاء عملا بما تسوله لهم انفسهم حتى كانت الدعاوى يتأخر الحكم فيها الى امد لا يكاد ينقضى وكان ذلك يعود بالنفع على ارباب المحكمة وبالضرر على المتحاكمين وكان الملوك فيما يتعلق بالتزاماتهم من الدعاوى لا يرون اثما فى حمل اهل المحكمة على الحكم فيها بما يلايم مصلحتهم حكما بتيا وقد وقع غير مرة أنهم عند ارادة الانتقام من احد يتخلصون من القوانين والاصول الجارية بايثارهم على المحاكم المعتادة مجلسا خصوصيا يعقدونه لاجل هذا الغرض لما أنه كان اطوع لهم منها واقرب لتحققهم من موت الخصم او الخائن فوضع لو يز الثانى عشر قانونا عادلا فى شأن المحاكم عين فيه ما يلزم للدعوى من الزمن وعدد المحاكم وبين فيه مصاريف اقامة الدعاوى وامر أن لا يقبل فى منصب القضاء الا من عرفت اهليته له بالامتحان وجعل ارباب هذا المنصب قائمين بانفسهم لا يدخلون تحت تبعية احد وابطل المجالس الخصوصية

وكان على عهد سلفه حين كان حاكما على اقليم نورمنديا قد لاحظ ما فى محكمة هذا الاقليم العليا من الاختلالات والمثالب حيث لم تكن الا محكمة قديمة التزامية وكانت لم تزل تسمى ايشكيير فلما جلس على سرير الملك جعلها على

منوال

منوال غيرها من محاكم المملكة والزم اربابها بالعمل بالاصول الجارية فى تلك المحاكم وسلك هذا المسلك ايضا فى محكمة اقليم بروونسة ولم يعارضه فى هذا الاصلاح معارض

واما طائفة العلماء اى اهل المدارس الجامعة فلم يتأسوا بالمحاكم والعساكر فى الطاعة والانقياد وذلك أن هذه الطائفة كان لها مزايا جسيمة صارت عدة منها بتداول الازمان مثالب فظيعة وعيوبا فاحشة حتى طلب ابطالها اعيان طورس فاجابهم الى ذلك لويز الثانى عشر حيث امر بابطال ما كان منها مخلا بحسن النظام والعدالة وابقاء ما كان ملايما لذلك وهذا الامر وان كان من باب الحزم وسداد الرأى الا أن تلك الطائفة رأت ذلك من باب التعدى والافتيات على حقوقها التى لطول زمانها وتداول الايام عليها صارت عندهم محترمة لا يجوز انتهاك حرمتها فعارضوا امر الملك الصادر فى شأنها وغلقت مدارسها وصار يخشى من هرج تلامذتهم واضطراب طلبتهم تنغيص الامن والراحة العمومية وافضى الغيظ بوعاظهم أن صعدوا المنابر وقالوا فى الملك ماشاؤا أن يقولوا من القدح والمذمة فبلغه ذلك فى مدينة بلواس فبعث من طرفه القنجليير لاطفاء هذه الفتنة فلم يمكنه ذلك فاخذ لويز فى السير جهة باريس مع حرسه وخفره فسكنت الفتنة بمجرد قدومه واذعن اليه اربابها عند مشاهدته فاتبع ذلك بمسامحتهم والعفو عنهم

وكان فى اثناء هذه الاصلاحات عازما على أن يجرد تجريدة جديدة على ابطاليا فكان مشتغلا بتجهيزها لاجل اثبات الحقوق التى كان يدعيها من جهة جدته والنطينة ويسقونتى فى دوقية ميلان وعقاب لودويق لومور واسترجاع مملكة نابلى واول مابدأ به من ذلك دوقية ميلان

وكان لم يمكن لابيه كرلوس دوق اورليان الذى مكث اسيرا عند الانكليز مدة طويلة وكان له دخل فى حروب فرانسا الداخلية أن يثبت دعواه فى شأن ميراث الوسقونتية وكان كل من لويز الحادى عشر وكرلوس

الثامن قد تعاهد مع العائلة السفورسية المفتانة واما لويز الثانى عشر فسلك فى السياسة مسلكا آخر فقد ابان عن مقاصده بالقاب دوق ميلان وملك سيسليا وملك القدس التى اضيفت الى لقب ملك فرانسا حين لبس تاج الملك وكذلك تبصره فى الاحتراس حيث حمل برلمان باريس (مجلس المداولة) على الاعتراف بحقوقه فجدد قبل اشهار الحرب مشارطات سنليس وايتبلس وبرسلونة مع الايمبراطور وملكى انكلترة واسبانيا وبحث فى ايطاليا عن انصار يعينونه واستمال اليه البابا اسكندر السادس بالانعام على ولده قيصر برجيا واستمال ايضا البنادقة بعرضه عليهم أنه ينزل لهم عن مدينة كريمونة وجزيرة غيرة واذا وكان للودويق حلفاء بالطبع وهم مكسيمليان زوج بنت اخيه ودوق فرارة ختنه اى ابو زوجته وملك نابلى حيث كان له مصلحة فى مدافعة لويز الثانى عشر الذى كان عدوّا له ايضا غير أن مكسيمليان زيادة على ما كان بينه وبين لويز المذكور من المعاهدات كان وقتئذ يفنى قواه ويدمر جنوده فى قتال السويسة الذى كان مشؤما عليه واما دوق فرارة فلم يكن يهتم بامر زوج بنته ولا يتأثر لما يلم به من الخطوب حيث كان فى نفسه منه شئ يسوغ له التظلم والتشكى واما ملك نابلى فكان قريب العهد بحرب اضعفت قواه وكان من طبعه التردد فى الامور فرأى أن المخاطرة بانتظار الخطب اوفق به من العزم على اقتحام خطره فبذلك لم يكن للودويق بايطاليا الا مجرد قواه ولكن شاغل السلطان بايزيد لاجله البنادقة فاشهر الحرب معهم (سنة ١٤٩٩ من الميلاد) (اى نحو سنة ٩٠٥ من الهجرة) وبالجملة فقد كان دوق ميلان (يعنى لودويق) صاحب ثروة عظيمة فانه حاز من الاموال مالم يحزه غيره من امراء عصره فلو كانت درجته فى المهارة عالية وحصته فى البسالة وافية لامكنه أن يقاوم الحروب مدة مديدة لكنه بدلا عن أن يقود عساكره بنفسه جعل قائدهم رجلا من نابلى كان ملتجأ عنده يسمى غلاس دوسنسويرنو وهو الى الآن مجهول الحال لا تعرف

نجابته

نجابته ولا امانته

ثم ان جيش الفرنساوية الذى كان فيه من الخيالة تسعة آلاف وستمائة ومن المشاة ثلاثة عشر الفا اجتاز جبال الالب تحت قيادة تريوولس من غير أن يصادف فى طريقه عائقا وانصرف غلاس دوسنسورينو بمجرد دنو هذا الجيش منه وفتحت احصن مدن ميلان ابوابها بمجرد الامر بذلك وهى مدائن ولنزة وباسنيانو ووغيرة وكستيل نووو وتورتونه ولم يدافع اهل ميلان بمدينتهم عن سرير اميرهم لانهم كانوا يبغضونه فلما ايس لودويق ارسل اولاده ومابقى من امواله الى ألمانيا تحت حراسة اخيه الكردينال اسكانية وفرهو الى مدينة أنسبروك بممالك مكسيمليان وترتب على فراره أن عدة مدن كانت لم تزل تقاوم العدو بادرت بالتسليم فلم يمض على الفرنساوية عشرون يوما حتى فتحوا دوقية ميلان واتى اليها لويز الثانى عشر ليجنى ثمرة فتحها فدخلها فى السادس من شهر اوقطوبر سنة ١٤٩٩ ميلادية بموكب واحتفال وكانت اوائل اعماله السياسية من جميل الاعمال واحسن الفعال حيث نقص مقدار المغارم الى ٦٢٢٠٠٠ فرنك وكانت فى ايام لودويق ١٧٠٠٠٠٠ فرنك تقريبا وقضى بين الناس بالعدل والانصاف ورتب فى ميلان مشورة السنت اى محكمة على منوال محاكم فرانسا وجعل اربابها ممن عرف بالصدق وحسن الاستقامة وقدم عليه قبل سفره الجية اغلب امراء ايطاليا وعقد المعاهدة مع الفلورنسية ثم رحل وترك خلف جبال الالب سيرة جميلة تنوه له بالعظم وعلو المقدار كما تقضى بأنه من الطيبين الاخيار

ولكن هذه المآثر الجميلة محيت بعد ذلك بقليل بادارة تريوولس الذى انابه عنه فى ايطاليا وذلك أن هذا الامير كان ميلانى الاصل ورئيسا على حزب الجويلفية (حزب البابات) فعوضا عن أن يحسن معاملة الحزب الآخر المسمى حزب الجيبلينية (حزب الايمبراطرة) سلك معهم مسلك التشديد

والانفة فاثار بذلك غضبهم ولما عاملهم بالجبر وشدة القسوة على اخذهم في اسباب القيام عليه والخروج عن طاعته بلغ منهم الغضب منتهاه فلما علم لودويق بذلك بادر بالقدوم مع بعض فرق عسكرية فقام لاجله الميلانيون باجمعهم ولم تجد الفرنساوية المتشتتة فسحة للاجتماع وكان لودويق المذكور قد خرج من ميلان في الثاني من شهر سبطمبر سنة ١٤٩٩ من الميلاد والامة تشيعه باللعن والسب ثم دخلها في الخامس من شهر فبرية سنة ١٥٠٠ ميلادية (اى نحو سنة ٩٠٦ هجرية) والامة المذكورة تصيح لقدومه صياح المسرة حتى كأنها قد اخذتها نشوة الفرح بمشاهدة اميرها القديم وعوده اليها غير أنه لم تطل مدة ظفره ونصره فان لويز الثاني عشر لما بلغه هذا التغير بادر بتسيير جيش جرار تحت قيادة لتريموالة او لتريموليه وبلي ديجون فلم تمض مدة قليلة الاوالفرنساوية تحت اسوار نوار أمام لودويق وكان معظم مشاة الفريقين من عساكر السويسة فكان اصحاب لتريموالة ممن اعطته المعاهدة السويسية للفرنساوية وامدتهم به من عساكرها وكانوا يسيرون تحت اعلام اخطاطهم وبنديرات بلادهم واما اصحاب لودويق فكانوا مجمكين على طرفه ممن يطوف البلاد للبحث عن الحوادث فلم يكن ارتباطهم به الامن حيث انفسهم فقط فلذا اعلنوا عند الالتحام بأنهم لا يقاتلون من كان تحت اعلام جمهوريتهم وتفاوضوا مع لتريموالة فاذن لهم في العود الى بلادهم وصحبهم لودويق متنكرا في زي راهب حتى لا يعرفه احد فقبض عليه عسكرى من خط اورى وسلمه لبلي ديجون واخذ منه في نظير ذلك مائتي قطعة من النقود المسماة ايكو فسجنوه في حصن لوشس ومكث فيه اسيرا عشر سنوات ومات هنالك سنة ١٥١٠ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٦ من الهجرة) ولما كان للسويسية الفضل على لويز الثاني عشر في هذه النصرة ثقلوا عليه في المطاليب حتى تجاوزوا الحد فيها فلم يجبهم الى ذلك فانتقموا منه

حين

حين منقلبهم بالتغلب على مدينة بيلتزونة وهى مدينة حصينة من ثغور دوقية ميلان فاهمل الفرنساوية فى استرجاعها وقد ترتب على تضررهم وتغلبهم على هذه المدينة التى بأخذها صارت طريقهم الى ايطاليا خالية عن الموانع والعوائق نتائج مهمة وامور عظيمة

وقد اقيم كردينال امبوزة مقام تريوواس فى حكومة دوقية ميلان فكان احق بالنيابة عن لويز الثانى عشر واهلا لوزارته حيث لم يسلك مع اهل ميلان مسلك التحامل وحب الانتقام بل كان يقبل من هؤلاء العصاة بيعتهم وما يبرؤن به انفسهم فاستمال قلوبهم بملاطفته وحسن معاملته

(الفصل الثانى)

فى الكلام على ماحصل منذ فتح دوقية ميلان ثانيا الى مشارطات بلواس (وذلك من سنة ١٥٠٠ الى سنة ١٥٠٥ من الميلاد) (اى من سنة ٩٠٦ الى سنة ٩١١ من الهجرة تقريبا)

كان الفلورنسية ممن عاهدهم لويز الثانى عشر مدة اقامته فى ميلان وفصلهم عن حزب لودويق سفورس واستمالهم الى ذلك بوعدهم بالاعانة على بيزة فاعلنوا فى الفتح الثانى لدوقية ميلان بأنهم مع الفرنساوية فلما رأوا من انفسهم أنهم قد وفوا بشروط المعاهدة استعجلوا لويز الثانى عشر فى تنجيز وعدهم فجهز لهم على طرفهم ستمائة مقاتل من الخيالة وسبعة آلاف من المشاة وجعل قائدهم هوغس درومونت وكان ذلك سنة ١٥٠٠ من الميلاد غير أن الفرنساوية لسابق محالفتهم مع البيزية لم تكن اعانتهم لفلورنسة على بيزة صادرة عن طيب نفس بل كانت مع الاسف والاشمئزاز حتى ان ما كان يصدر عنهم من الهروب جبر اميرهم على رفع المحاصرة فانقطع القتال من بين هاتين المدينتين المتعاديتين مدة من الزمن ثم عاد الحرب بينهما سنة ١٥٠٣ ميلادية (اى نحو سنة ٩٠٩ هجرية) واستمر القتال بين الفريقين على وجوه مختلفة تارة يكون فيه الحظ لهذا وتارة للآخر

ولم يزل الامر كذلك الى سنة ١٥٠٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٥ من الهجرة) فانتهى حينئذ الحرب بينهما بتسليم بيزة لفلورنسة بعد محاصرة طويلة

وكان اقليم رومانية منذ عدة سنوات ميدانا لحرب اخرى اثارها طمع قيصر برجيا وكانت دولة الكنيسة الرومانية اذذاك من دول ايطاليا السيئة التدبير والادارة الخالية عن الهدء والراحة وذلك أن بلاد الارياف المجاورة لمدينة رومة كان قد انتقل معظمها تحت حكومة عائلتى كولونة واورسيني والاولى كانت من الجبلينية والثانية من الجويلفية وكان الاشراف منقسمين بين هاتين العائلتين القويتين اللتين كانت مشاجرتهما تؤدى غالبا الى تلويث اراضى كرسى دولة الكنيسة بدماء القتلى وكانت الاقاليم البعيدة غير منقادة ايضا لتلك الدولة فان بعض مدن من هذه الاقاليم وهى مدن أنكونة واسيزة وسبوليته وترنى ونرنى كانت حكومتها جمهورية من بعض الوجوه وكان يحكم اقليم مارشة عائلتا ورانو وفوغليانو وكانت الثانية قد ارتقت الى منصب الرياسة على فرمو والاولى كانت تحكم بمدينة كامرينو وفى سنة ١٤٧١ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٧٦ من الهجرة) كان البابا سكيسته الرابع قد انعم بمدينة سنيغاغليا على ابن اخيه يوحنا ولاروويرة وكان غيلداوبالدو الذى هو آخر وارث من عائلة مونتفلترو متملكا على دوقية اوربين وقونتية مونتفلترو والتزام اغوبيو وكان البغليونية يحكمون فى بيروزة والوتيلية فى سيتادى كاستيلو وكان ثم امراء آخرون يظهرون الاستقلال فى باقى ايالات الكنيسة وكان يوجد فى مدينة بيزارو فرع من العائلة السفورسية وكان الملتستية فى مدينة ريميني والمنفريدية فى فاينزة وكان البنادقة متغلبين على مدينتى راوينة وسروية وكانت مدينتا ايمولة وفورلى لعائلة رياريو وكان يوحنا بنتيوغليو حاكما مطلق التصرف فى مدينة بولونية من سنة ١٤٦٢ من

ميلادية (الموافقة لنحو سنة ٨٦٧ من الهجرة) وحاز هرقول دستة من التزامات الكنيسة التزام فراروا س وضمه الى ما كان معه من الالتزامات الامبراطورية وهو التزام رجيو ومودينة وكان جميع هؤلاء الملتزمين يتنافسون ويتسابقون الى الخيانة وارتكاب الجبر والقساوة وكانت نفوس رعاياهم مشمئزة من هذه الحكومة التى كانت جامعة بين نوعين من انواع البلاء وهما الظلم وخلل الادارة فعزم البابا اسكندر السادس على أن ينتهز فرصة هذا الاشمئزاز الذى كان هؤلاء الملتزمون المفتاتون غرضا لاصابة سهمه كى يوسع دائرة التزام ابنه قيصر برجيا من اوقاف الكنيسة فاستولى قيصر المذكور مع بعض فرق من عساكر الفرنساوية على مدينتى ايمولة وفورلى سنة ١٤٩٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٠٥ من الهجرة) وعلى مدينتى بيزارو وريمى سنة ١٥٠٠ ميلادية (اى نحو سنة ٩٠٦ هجرية) وعلى مدينة فاينزة سنة ١٥٠١ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٠٧ من الهجرة) ولما فتح اقليم رومانية اذعن مجمع الكردينالات لاوامر اسكندر السادس ورضى اربابه بنقل هذا الاقليم الى قيصر برجيا وجعله دوقيته

وفى ظرف عدة اشهر استولى لويز الثانى عشر على بلاد لنبرديا مرتين وكان لا يخفى عليه احوال اقليمى طوسكانة ورومانية ولا ما وقع فيهما من الحوادث وكان ايضا لم يبق عليه الا توجيه اسلحته نحو مملكة نابلى فاخذ فى فتحها سنة ١٥٠١ من الميلاد

وكان فرديننند الثانى قد اخترمته المنية بعد أن استرجع بلاده بمدة يسيرة فلما رأى عمه فردريق الذى خلفه على تلك البلاد انه عاجز عن مقاومة ملك فرانسا عرض عليه البيعة وأن يكون عاملا من طرفه على البلاد المذكورة ويقوم له بدفع الخراج ويسلم له احصن مدنه ولو قبل منه لويز الثانى عشر ما عرضه عليه لاجتنى بذلك جميع ثمرات النصرة لكنه رد ذلك وصمم على امر سيئ العاقبة منابذ للعزم والتبصر وذلك أن فرديننند

القاتوليقى زعم أن ألفونس الاول لاحق له فى جعل ولده الطبيعى الذى هو فرديننـد الثانى ولى عهده ووارث مملكة نابلى بعده (راجع الباب السادس) وادعى لنفسه وراثة هذه المملكة ولكن عرض على لويز الثانى عشر أن يقتسمها معه قصدا للاصلاح والتوفيق بين حقوق عائلة أنجو وعائلة اراغون وقد كان يسهل على لويز المذكور حين رد ماعرضه عليه فرديننـد من تلقاء نفسه أن يعرف ما يترتب على الخوف او الغيرة من الموانع والعوائق اذ لامانع أن مكسيمليان الذى التجأ عنده ابنا لودويق يدعى أن النصرة لاتكفى فى اثبات حق التملك على نابلى التى هى من التزامات الايمبراطورية ويجهز الالمان لقتال فاتح ولاية ميلان (لويز الثانى عشر) وقد كان السويسة الذين استولوا على مدينة بيلنزونة يهددون دائما بلاد لنبرديا وكان فرديننـد القاتوليقى من اشد الناس خطرا على فرانسا واكبر اعدائها حيث كان يسهل عليه فى آن واحد أن يعين فرديق بامدادات يبعثها اليه من مينات قتالونيا وسيسليا ويشن الغارة على فرانسا من جهة جبال البرنات ولما نسى لويز الثانى عشر أن محالفة فرديننـد المذكور ليست فى الخطر دون عداوته رضى بما عرضه عليه وانعقدت بينهما مشارطة بمدينة غرناطة (فى شهر نومبر سنة ١٥٠٠ ميلادية) استقر فيها الرأى على أن هذين الملكين يفتحان مملكة نابلى معا وأن فرديننـد يستولى منها على اقليمى پوولية وكلابرة ويلقب بدوق هذين الاقليمين وأن لويز الثانى عشر يستولى على مدينة نابلى وارض لابور واقليم ابروزة ويلقب بملك سيسليا والقدس وانهما يشتركان فى الانتفاع بايرادات اقليم كپيتانات وأن البابا هو الذى يقلدهما بذلك

ثم ان دوبنى اجتاز بلاد ايطاليا بقدم ستة عشر الف مقاتل (سنة ١٥٠١ من الميلاد) وكان الجنرال غنزالوة القرطبى نازلا فى سيسليا بجيش من العساكر وكان يعد الملك فرديق بالاعانة على العدو

فاغتر بمواعيده الخداعية ولم يعده من اعدائه بل وثق به واعتمد فى دفع العدو على اعانته فلما قدم الفرنساوية ترك هذا الجنرال الاسبانيولى المخادعة واغار الجيشان على هذا الملك السيء الحظ فلما ثقلت عليه مقاومتهما ذهب بمقتضى شروط التسليم الى جزيرة ايشيا مع زوجته واربعة اولاد صغار السن ومع ذلك لم يأمن على نفسه فى هذا الملجأ المشؤوم من مشروعات قريبه ملك اراغون لما كان يعهده فيه من الغدر والخيانة فعوّل على صدق عدو اكرم منه نفسا واطيب سريرة لكونه اعلن بقتاله على رؤس الاشهاد وهو لويز الثانى عشر وقبل منه ما رتبه له كل سنة وهو ثلاثون الف دوقة وصار هذا المبلغ يدفع اليه كاملا بدون نقص ولا اختلاس باقليم تورينة حتى قضى ايامه مع الهدء والراحة فى ممارسة الاشعار والآداب بعيدا عن تعب المناصب وتنغيصها

وبعد أن دافع ولده البكرى المسمى فرديننّد عن مدينة ترنتة سلمها للعدو واشترط صراحة أن يبقى على حريته بحيث لا يكون لاحد عليه ولاء ولكن قبض عليه غنزالوة وبعثه اسيرا الى اسبانيا

وبمجرد استيلاء الفرنساوية والاسبانيول على مملكة نابلى وقع بين الفريقين من النزاع والتفاقم ما كان لابد من وقوعه وكان منشأ ذلك هو اقليم كبيتانات وذلك أن مشارطة غرناطة لم تتعرض للقسمة فى هذا الاقليم فأدت الشركة بين الفاتحين الى استيلاء كل على ما يستحسنه لنفسه فجر ذلك الى الجور والتعدى وترتب عليه الشكاوى والمشاجرات التى آل امرها الى نقض المعاهدة وفسخ المشارطة وانضمت دونمة فرنساوية كان يقودها فيليدش دوراوستين الى جيش برى لاجل فتح مملكة نابلى ثانيا وكانت اعانتها فى هذا الحرب الجديد تعود بالمنفعة على الفرنساوية لولم ينقطع دابرها فى التجريدة التى ارسلت لقتال العثمانية وكان سبب انضمامها الى هذه التجريدة هو أن قائدها لقلة حزمه وعدم تبصره اجاب دعاء كل من البابا والرئيس الاكبر دوبوسون لذلك واما العساكر البرية فان رئيسهم دونبى

اصيب بداء السل فاختل بذلك نظامهم وزال الضبط والربط من بينهم فبعث الملك لاسترجاع ذلك لويز درمنياق دوق نيمور وقلده رياسة عموم العساكر غير أن دوبني اخذ لنفسه بثار هذه المصيبة على وجه تشريفي حيث تغلب على كلابرة فى نظير ما فقده من المنصب الآن اصحابه كانوا يتأسفون ويتضجرون من خلعه عن هذا المنصب الذى هو اعلى المناصب فلذا انقسم الجيش عند القتال الى حزبين (سنة ١٥٠٢ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٠٨ هجرية) وكان الفرنساوية يفوقون فى العدد عساكر الاسبانيول فترك لهم غنزالوة الخلاء وغلق على نفسه ابواب مدينة برليتة حتى يأتيه مدد يستعين به وفى مدة محاصرة هذه المدينة ابدل عساكر الجيشين الذين كانت الخيالة فيهم من ابطال الاشراف وشجعانهم بمبارزات خصوصية ومسابقات عسكرية امتاز فيها ابطال الفرسان وفحول الشجعان لاسيما الفارس بيار هكذا كانت الغزوة الواقعة فى سنة ١٥٠٢ من الميلاد لم يترتب عليها حوادث بتية ولا نتائج قطعية

وفى هذه السنة سافر لويز الثانى عشر ثانيا الى ايطاليا وذلك أن جاره ومحبه قيصر برجيا الذى كان اذ ذاك دوقا على رومانية كان لم يزل يسعى فى توسيع دائرة التزاماته فتغلب سنة ١٥٠١ من الميلاد على جزيرة البة وامارة پيومبينو وسلب سنة ١٥٠٢ دوقية اوربين من جويدوبالدو ومدينة كميرينو من عائلة ورانو التى فتك بها حتى اشرفت على الانقراض بالكلية فغضب الناس جميعا من شدة طمعه وقسوته وبث الامراء الذين جردهم عن بلادهم اوكانوا يخشون ذلك منه شكواهم الى ملك فرانسا فجاب لويز جبال الالب قاصدا ميلان لينظر هذه القضية ويتحقق مضمون الشكوى فبادر عند ذلك دوق رومانية (اى قيصر برجيا المذكور) بالمسير الى لنبرديا ورد دعوى اخصامه بأنها محض فتن وسعى بالفساد وابدى ما يدل على نفع مخالفته فى الاحوال الراهنة ورغب كردينال دمبوازة فى لقب نائب البابا بفرانسا وحسنه له واوقع فى نفسه انه عما قليل يحظى بمنصب

البابا

البابا فبواسطة هذا الوزير استمر على ما كان عليه من جوار الملك وحمايته وحظوته واقباله فترتب على عدم معاقبته أن ازداد كبرا وعتوا وذهب ليتغلب على مدينة سنيغغليا (سنة ١٥٠٢ ميلادية) وعلى مدينتى سيتاديكستيلو وبيروزة (سنة ١٥٠٣ من الميلاد) (اى نحو سنة ٩٠٩ من الهجرة) ولا يدرى هل عدم معاقبة الملك له لكونه كان يعتقد أن معاهدته مع البابا من اهم الاشياء لديه فيسكن بها قلق نفسه واشتغال ذمته بالاقرار على هذا المنكر اولكونه لم يقف على الحقيقة فى اضرار قيصر برجيا بالناس وقبح سلوكه معهم واياما كانت الاسباب التى يظهر بها وجه سلوك الملك هذا المسلك فحمايته لهذا الرجل القبيح اوجبت كراهته فى بلاد ايطاليا وذلك مما ينابذ الحزم وسداد الرأى فى مبدء حرب صعب لا تعلم عاقبته

ومع ذلك كان النجاح للفرنساوية فى المقاتلات الاولى التى حصلت سنة ١٥٠٣ من الميلاد حيث هزم دوبنى دون هوغس القرطبى فى مدينة تيرانووا بعد أن نزل هوغس المذكور فى كلابرة مع العساكر التى اجتمعت فى سيسليا

وفى هذه السنة مر الارشدوق فيليبش لوبو (اى الظريف) ابن مكسمليان وصهر فرديننه وايزابيلة بمملكة فرانسا قاصدا حكومته بالبلاد الواطية فلما رأى فرديننه أن مصالح الاسبانيول فى ايطاليا قليلة التقدم والنجاح فى هذا الوقت نصب اشراك المكيدة للويز الثانى عشر واشرك معه فى ذلك فيليبش المذكور وان كان فى الواقع بريأ من هذه الخيانة لعدم علمه بالحقيقة وذلك أن فرديننه اذن له أن يعقد الصلح مع ملك فرانسا فاجابه الى ذلك ووضع امضاءه على مشارطة الصلح بمدينة ليون (فى الخامس من شهر ابريل سنة ١٥٠٣ من الميلاد) وكانت تتضمن أن ابنه كرلوس دواستريا يتزوج مدام كلوده دى فرانسا بنت لويز الثانى عشر وأن هذين المخطوبين الصغيرين يكونان ملكين على نابلى وان مشارطة

غرناطة يجرى العمل عليه الى وقت اشهار النكاح فلما اعتقد لويز صحة هذا الصلح امسك عن التجهيز للحرب وسرّح طائفة من العساكر الجديدة التى جمعها فى فرانسا وبعث الى دوق نيمور يأمره بالكف عن القتال ولكن صدر امر فرديننـد بخلاف ذلك الى غنزالوة حيث امره بالقتال وامدّه بكثير من الامدادات والاعانات ولما كان مرام فرديننـد بذلك انما هو اكتساب الفسحة وافساد مادبره عدوه امتنع من وضع القرار على مشارطة ليون المذكورة وكان الارشدوق لم يزل بفرانسا فداخله الغيظ والغضب من كونه جعل واسطة فى هذه الخيانة وخاف أن يحجزه لويز الثانى عشر عنده ويجعله رهينة يستوثق بها على امضاء المشارطة الاأن هذا الملك بادر بتأمينه وافادته أنه باق على حريته وسكن روعه وازال خوفه حيث خاطبه بهذه العبارة اللطيفة وهى لأن يضيع منى تاج مملكة اقدر على استعادته فيما بعد احب الىّ من أن يضيع منى شرف العرض الذى لايجبر خلله ولا يمكن اصلاحه انتهت فلم يكن لهذا الكلام الدال على خلوص طوية لويز وطيب سريرته تأثير عند فرديننـد بل اخذ يجنى ثمر خيانته ويسعى فى تحصيل فوائد غدره فهزم اصحابه دوبنى واسروه قريبا من سمينارة فى المحل الذى انتصر فيه قبل ذلك بثمانى سنوات وكان لويز قد تركه فلم يبعث اليه بمدد ولا اعانة وقصارى الامر أن واقعة سيرينولة التى قتل فيها دوق نيمور مع اربعين الفا من العساكر تقريبا ترتب عليها انقياد المملكة بتمامها للجنرال غنزالوة ماعدا مدينتى غايطة وونوزة حيث قاوم العدوّ فيهما اويس دلغرة ولويزدرس مع من بقى من العساكر وابديا فى ذلك الثبات والتجلد

فاراد لويز الثانى عشر ان يأخذ بثار هزيمته ويعاقب فرديننـد على خيانته فجهز ثلاثة جيوش امّر على احدها سيردلبريت وامره بدخول اسبانيا من مدينة فونترابيا وعلى الثانى المارشال دريوكس وامره بالهجوم على روسليون وعلى الثالث لتريمولية وامره بالسير الى ايطاليا

ورسا

وسار من مرسيليا دونمتان لاجل اعانة العساكر البرية غير أن الجنود الفرنساوية كانت سيئة الحظ حيث لازمتها الخيبة فى سائر الجهات فان كلا من دربوكس ودلبريت لم ينجح فى ارساليته وكلتا الدونمتين خرجت عليهما رياح عاصفة فعادتا الى المينا على اسوء حالة فحزن لذلك لويز الثانى عشر وادركه الغم لتراكم هذه النكبات وظهر من حاله الميل الى الصلح لكن لم ينحط الرأى بينه وبين فرديننـد الاعلى هدنة اجلها ثلاث سنوات فى خصوص ثغر البرنات واستمر الحرب بينهما خلف جبال الالب وجاب لتريمولية تلك الجبال ومعه من العساكر خمسة وعشرون الفا فلما وصل الى مدينة بارمة لحقه المرض فاقيم مقامه فى رياسة العساكر فرنسيس دوغنزاغة مركى منتوه اى ملتزمها واميرها وهو الذى صد كرلوس الثامن سابقا فى مدينة فورنوة وصار الآن يقاتل لمصلحة لويز الثانى عشر فاسف لذلك الفرنساوية حيث رأوا انفسهم تحت قيادة رجل اجنبى كان عدوهم قبل ذلك بيسير وكان هذا التغيير الواقع فى رياسة العساكر اعظم مانع لنجاح تلك التجريدة وكذلك موت البابا اسكندر السادس الذى حصل فجاءة (فى الثامن عشر من شهر اغسطوس سنة ١٥٠٣ من الميلاد) بل كان اكثر شؤما واكبر خطبا

وذلك أن كردينال دمبوازة كان اذ ذاك فى ايطاليا طامعا فى الارتقاء الى منصب البابا فحجز الفرنساوية على ابواب رومة مدة طويلة ليتحقق من التقليد بهذا المنصب الا أن جمعية الكردينالات المعدة لانتخاب البابات سلكت معه مسلك التأنى والتحيل فلما اغتر دمبوازة بما ابداه له الكردينال يوليان دولاروويرة من المخادعات والمواعيد الباطلة وسئم من سلوك طرق القوة والقهر علانية مال الى ما حسنه اليه الكردينال المذكور من صرف الجنود الفرنساوية متعللا بأن انتخابه فى هذه الحالة يظهر أنه بالطوع والاختيار لا بالاكراه والاجبار فبمجرد انصرافهم اجمع الكردينالات كلهم على انتخاب فرنسيس پيكولوميني (پيه الثالث) وكان شيخا هرما

قد اضناه السقم والضعف حتى كان يتوقع موته عن قريب وقد تحقق ذلك فانه مات بعد توليته بخمسة وعشرين يوما ولما نفس دمبوازة من الولاية بعده سعى فى انتخاب يوليان دولاروويرة الذى افسد عليه قبل ذلك ما آربه باشارته وتدبيره لكنه لاحظ أن يوليان هذا كان قد ظلمه البابا اسكندر السادس ونفاه فقابله الفرنساوية بالترحيب واكرموا نزله واحسنوا قراه فاذا تقلد المنصب راعى جانبهم وتذكر صنيعهم وهذا منه لم يصادف محلا لعدم وقوفه على حقيقة البابا يولس الثانى (لقب يوليان بعد توليته بابا) فان هذا البابا المعجب بنفسه لم يكن من دأبه انه يجعل السياسة تابعة لتذكر ما مضى من المعروف وحسن الصنيع بل لفرط طمعه وكبره كانت داعية المصالح التى تستدعيها شوكته وعلو مكانته اقوى عنده من داعية شكر النعم وكان لم يزل ايطاليا من حيث قلبه وميله النفسانى فكان يستوى عنده فى الكراهة الاسبانيول والالمان والفرنساوية حيث انهم بالتناوب افتاتوا على وطنه وظلموا اهله وكان يروم أن يمكن ايطاليا من الاستقلال وعدم التبعية لدولة من الدول باجلاء هؤلاء الاجانب الذين كان يسميهم متبربرين والجائهم الى المهاجرة منها كما كان يريد ترجيح الكرسى المقدس (يعنى كرسى البابات) فى هذا القطر بترتيب حكومة ملكية كبيرة فشرع فى تنجيز بعض هذا الغرض بتجريد قيصر برجيا وسلب ما كان معه من الاراضى والبلاد وقبض عليه وألزمه بوضع امضائه على الامر بتسليم جميع حصون رومانية لعساكر البابا فهذا المفتات (يعنى قيصر برجيا) الذى لاجل أن يدخل تحت طاعته عدة امارات صغيرة سلك من مسالك الغدر والتحيل والخبث ما هو اكثر مما يلزم عادة لفتح ايمبراطوريات كبيرة فقد فى اسرع وقت ما جناه من ثمرات قبائحه وضاعت منه فى اقل زمن نتائج مساعيه الذميمة ولما خلى سبيله ولم يجد حليفا ولا صديقا ولا ملجأ دخل تحت كنف غنزالوة القرطبى واستأمنه على نفسه (سنة ١٥٠٤ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩١٠ من الهجرة) لكنه غدر به

غنزالوة و بعثه الى اسبانيا اسيرا ثم هرب من السجن سنة ١٥٠٧ ميلادية (اى سنة ٩١٣ هجرية تقريبا) والتجأ الى بلاد نوار وقاد عساكر صهره الملك يوحنا دلبريت قاصدا شن الغارة على سفن العصاة فقتل وسلاحه بيده

ومع ذلك فالجيش الفرنساوى بعد أن ضاع منه الزمن النفيس دخل مملكة نابلى واجتاز نهر غاريلان وكان غنزالوة القرطبى نازلا على شواطئه غير أن كلا من توالى الامطار واختلال الحال الذى حل بهم منذ ترك لتريمولية قيادتهم ولا زال آخذا فى الزيادة منعهم من اجراء الحركات العسكرية والعمليات الحربية فلذا انتهز مركى منتوه فرصة اول امر ظهر له صحة الاستناد اليه وقبوله فى الاحتجاج ونزل عن منصب الرياسة العسكرية وامر مركى سالوسة الذى تولى الرياسة بعده بالعود والانصراف فاجتازت الفرنساوية ثانيا نهر غاريلان فتتبعهم الاسبانيول وهزموهم ففروا الى مدينة غايطة لكن لما حل بهم فيها الضجر والسآمة من هذا الحرب المشؤوم بادروا بالتسليم لينقذوا انفسهم من القتل والاسر (سنة ١٥٠٤ ميلادية) واما لويزدرس الذى ثبت للمقاومة فى مدينة وينوزة منذ هزيمة سيرنيولة فاستمر على المدافعة عدة اشهر ثم لما ايس من المدد والاعانة اخترق صفوف عساكر العدو والرمح بيده حتى جعل له مسلكا بينهم وعاد بمن معه من الخيالة الى مملكة فرانسا

فلما استولى غنزالوة على نابلى اقتصر فى النجاح على ذلك وحيث لم يكن عنده من الاموال ما يصرفه فى استحقاقات العساكر الذين كانوا يستحقون عنده ماهية سنة بتمامها والتمسوا منه صرفها اسكنهم فى الاقاليم التى فتحوها على حسب اغراضهم فكانت بطالة هؤلاء المنصورين بتلك المثابة كأنها فاتحة للصلح الذى كانت المفاوضة لم تزل فى شأنه مدة الحرب ثم وضع كل من لويز وفرديننده فى مبدأ الامر امضاءه على مهادنة اجلها ثلاث سنوات وكان ذلك فى الحادى والثلاثين من شهر مارث سنة ١٥٠٤ من الميلاد

وبعد ذلك وقعت المفاوضة بين مكسمليان وفيليبش لوبو (الظريف) فكانت نتيجتها عقد ثلاث مشارطات مختلفة وضع القرار عليها بمدينة بلواس فى الثانى والعشرين من شهر سبطمبر من السنة المذكورة وبموجب المشارطة الاولى من الثلاث سمح مكسمليان بولاية ميلان للويز الثانى عشر ولورثته الذكور من بعده فان لم يعقب ذكرا كانت لبنته كلودة بشرط أن تدفع مائة وعشرين ألفا من قطع النقود المسماة فلورين وبالمشارطة الثانية وقع الاتفاق ثانيا على أن كلودة دى فرانسا يتزوجها كرلوس دوستريا فان مات قبل زواجها تزوجها اخوه فرديننـد ويكون جهازها دوقيات ميلان وبريطانيا وبرغونيا وبالمشارطة الثالثة تحزب ملك فرانسا ومكسمليان على جمهورية البنادقة واتفقا على أن يهجما عليها معا ويقتسما بلادها التى فى الارض القارة وكان قد انحط الرأى حينئذ على ازالة دولة هذه الجمهورية وان كان لم يشرع فى ذلك الا بعد خمس سنوات وامهل ملك اسبانيا اربعة اشهر لاجل وضع القرار على تلك المشارطات الثلاث وفى اثناء ذلك ماتت ايزابيلة دى قسطيلة وكان الاحق بوراثتها حينئذ بنتها المسماة حانة التى لم يكن لها سواها وصهرها فيليبش الا أنها اوصت بادارة المملكة لفرديننـد ولم تدع لفيليبش الا التشريفات المنصب الملوكى وشعاره ولما كان فرديننـد لا يريد أن يشتغل بمصلحة من المصالح سوى السعى فى استقراره وتمكنه من مملكتى نابلى وقسطيلة حمله ذلك على الميل الى المصالحة مع فرانسا ومع ذلك لم ينعقد الصلح بينهما الا فى الثانى عشر من شهر اوقطوبر سنة ١٥٠٥ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١١ من الهجرة) ثم انعقدت مشارطة اخرى فى مدينة بلواس بمقتضاها نزل لويز الثانى عشر عما ثبت له فى مشارطة غرناطة من الحقوق فى جزء من مملكة نابلى لبنت اخته المسماة جرمانة دى فواكس التى حصل الاتفاق على زواجها من فرديننـد لتأخذ ذلك فى جهازها وشرط لنفسه الرجوع فى تلك الحقوق فى صورة ما اذا مات فرديننـد قبل

زوجته

زوجته المذكورة ولم يعقب ذرية

(* الفصل الثالث) *

فى الكلام على ما حصل منذ مشارطات بلواس الى العصبة المقدسة (وذلك من سنة ١٥٠٥ الى سنة ١٥١١ من الميلاد) (اى من سنة ٩١١ الى سنة ٩١٧ من الهجرة تقريبا)

قد كان يترتب على مشارطة سنة ١٥٠٤ من الميلاد من حيث اشتمالها على زواج كرلوس دوستريا بالاميرة كلودة دى فرانسا تمزيق مملكة فرانسا لاجل تحصيل جهاز هذه الاميرة ولا يمكن أن تقول فى شأن هذه المشارطة الغريبة شيأ سوى كون الملك لم يرد تجهيزها وانما عوّده اعداؤه على أن يسلك معهم مسلك التحيل والمكر واياكان فمجلس العموم الذى انعقد فى مدينة طورس سنة ١٥٠٦ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٢ من الهجرة) اظهر المعارضة لتلك المشارطة المضرة و بين للملك ما يترتب من المضار على زواج بنته من امير اجنبى وترجاه أن يزوجها لابن عمه وولى عهده فرنسيس قونتة أنغوليم فلما قبل من ارباب هذا المجلس ما ابدوه له فى هذا المعنى من المراجعات التى لا مانع أنها كانت باشارته واغرائه اظهر أنه يميل الى اغراض الامة فسلبت وارثة حانة دى بريطانيا من وارث عائلتى اوستريا واسبانيا كما سلبت قبل ذلك حانة نفسها من مكسمليان وخطبت كلودة لقونتة أنغوليم بحضور ارباب مجلس العموم وتأخر البناء بها لصغر سنهما حينئذ فلم يدخل بها فرنسيس الا سنة ١٥١٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٢٠ من الهجرة) بعد موت امها حانة دى بريطانيا وصار لهذا المجلس الذى انحط الرأى فيه على النكاح المذكور منظر حسن وحالة سارة عند الناس وذلك أنه صار بحيث لا تسمع فيه شكوى ولا تقام فيه دعوى وما كان يقع فى كل سنة من التخفيف فى المغارم مع ما كان حاصلا وقتئذ من اثقال تكاليف الحرب ومصائبه دل على اعتناء الملك بشأن رعيته وجلب الراحة والسعادة اليهم حتى ان ارباب المجلس كنوه

على رؤس الاشهاد بابى الامة مكافأة له على حب الرعية واظهارا لشكرها له على حسن صنيعه معها

وما وقع فى ايطاليا وفلندرة واسبانيا من الحوادث المتعاقبة شغل امراء النمساوية عن أن يطلبوا من الدولة الفرنساوية جبر ما وقع منها فى حقهم من الخلل بفسخ المشارطة وذلك أن الارشدوق فيليبش لما رسا بجيشه على قسطيلة جرد ختنه (فرديننـد) عن الشوكة التى ثبتت له بوصية ايليزابيلة (راجع تاريخ اسبانيا) فلهذه الاهانة التى لحقته من فيليبش خرج من اسبانيا الى ايطاليا رغبة فى الظهور بين رعيته الجديدة ورهبة من تعصب غنزالوة الذى بخلعه عن حكومته وجد ما يستند اليه فى القيام والخروج عن الطاعة فلما بلغ هذا القائد العظيم أن سيده مرتاب منه حضر اليه وسلم له فى نفسه مع الامن والاطمئنان الملازمين للبراءة من التهمة او القريبين من ذلك فقابله فرديننـد بالبشر والاجلال واغدق عليه بالمزايا والخصايص الا انه اخذه معه الى اسبانيا وعين لاقامته بل لنفيه مدينة لوكسا فلم يزل بها فى حيز النسيان والسقوط حتى مات سنة ١٥١٥ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٢١ من الهجرة) ولما عاد فرديننـد الى اسبانيا وجد قسطيلة قد تحكم فيها الاختلال وسوء الحال وذلك أن فيليبش مات ولم يكن فى زوجته حانة صلاحية للادارة لعظم مصابها وشدة حزنها التى افضت بها الى الخبال فانتهز ملك اراغون (يعنى فرديننـد) فرصة اختلال بنته واسترجع ما فقده من الشوكة فى قسطيلة واستمر محافظا عليها حتى فارق الدنيا

وكان فيليبش لو بو قد اعقب ولدين صغيرين وهما كرلوس وفرديننـد فتربى الاول فى البلاد الواطية واما الثانى فكان مع ابيه حين قدم الى اسبانيا وكان يظن أن ذلك فرصة للويز الثانى عشر فى التغلب على اقليم فلندرة الا أنه رأى أن مقامه يجل عن استضعاف يتيم يفتات عليه ويأخذ بلاده بل طلب من الفلمند أن يرتبوا لكرلوس مشورة نيابة حتى يبلغ اشده واعلن بأنه محاميه ونصيره نظرا الى أنه من اتباعه الملتزمين

واما البابا يولس الثانى وفرديننـد ومكسيمليان فلم يتأسوا بلويز فى المروءة ومكارم الاخلاق بل فى سنة ١٥٠٧ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٣ هجرية) اثاروا الفتن والتعكيرات فى جنويزة التابعة لفرانسا لكونها من دوقية ميلان فقتل اهلها محافظى الفرنساوية وبايعوا مكسيمليان على أنه ملتزم جنويزة فسار لويز الثانى عشر لقتال هؤلاء العصاة فقمعهم حتى صاروا فى قبضته ودخل مدينتهم دخول المنصور المغتاظ الا أن تضرعهم اليه سكن غضبه وذهب بغيظه فاقتصر على عقاب بعض المذنبين ايثار المقتضى عدله على مقتضى حب الانتقام وانقذوا المدينة من التخريب بدفع ٢٠٠٠٠٠ فلورين ولما نظروا على درع الملك صورة ملك نحل حوله سربه فهموا أن هـذا الرمز من اجلهم وقالوا على سبيل الايهام ان ملكا لم يستعمل شوكته

وقد اعقب هـذه الغزوة السريعة عصبة كبريه الشهيرة التى تحزب فيها نصف اوروبا على جمهورية واحدة وذلك أن جمهورية البنادقة لم تكتف بما كان لها من سلطنة البحر فاستولت من الارض القارة بطريق الفتح او بطريق الاقتنيات الذى حصـل منها غير مرة على املاك والتزامات كبيرة اخذتها من الدول المجاورة لها فكان لويز الثانى عشر يتطلب مدينتى برغامة وبريسيا اللتين كان البنادقة سلبوهما من دوقات ميلان سنة ١٤٢٦ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٣٠ من الهجرة) وكان ايضا يتأسف على مدينتى كريمونة ولاغيرةددّا اللتين نزل لهم عنهما سنة ١٤٩٩ ميلادية ليكونوا من حزبه على لودويق وكذلك بعد نكبة قيصر برجيا حين كان يولس الثانى مشتغلا بادخال جزء من اقليم رومانيـة تحت الطاعة (سنة ١٥٠٣ من الميلاد) (اى نحو سنة ٩٠٩ من الهجرة) وبالاستيلاء على مدينة فورلى (سنة ١٥٠٤ ميلادية) (اى سنة ٩١٠ هجرية تقريبا) وبترغيب غويدوبالدو الذى لم يكن له ذرية فى تبنى ابن عمه المسمى فرنسيس مارى دولاروبرة وباثبات دوقية

اوربين لفرنسيس المذكور وتقريرهاله وبالدخول ثانيا فى مدينة بيروزة (سنة ١٥٠٦ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩١٢ من الهجرة) وباسترجاع مدينة بولونية من بنت ووغليو كان البنادقة قد تغلبوا من بلاد الكنيسة على راوينة وسيرويا وريمينى وفاينزة وايمولا وسيزينة وغيرها من المدن الحصينة وكذلك ملك اراغون (يعنى فردينند) كان مما يشق عليه أنه يرى تحت ايديهم خمس مدن بحرية من مدن مملكة نابلى وهى ترانى وبرندة واوترنتة وغاليبولى وبولنيانولى وكان اخذهم لهذه المدن من متأخرى ملوك هذه المملكة فى نظير مابذلوه من الاعانات وكان مكسمليان يدعى عليهم أنهم اخذوا بالاقتيات من مدن الايمبراطورية ويسنسة وويرونة وبادوة ومن التزامات عائلة اوستريا رويريدو وتريويزة ولوفريول وقد سبق أن لويز الثانى عشر ومكسمليان والبابا يولس الثانى عزموا من سنة ١٥٠٤ من الميلاد على تقسيم ايالات هذه الجمهورية الا أن ماوقع بينهم من التفاقم كان سببا فى تأخير تنجيز هذه العزيمة حتى وقع بينهم وبين مكسمليان سنة ١٥٠٨ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٤ من الهجرة) حرب كان مشؤما عليه وكان سببه انهم منعوه فى السنة التى قبلها أن يمر باراضيهم ليذهب الى رومة بقصد التتوج فيها فحمله الغيظ منهم على تجديد مشارطة سنة ١٥٠٤ ميلادية لينتقم منهم فى نظير ما لحقه بسببهم من الخسارة والخذلان فوقعت المفاوضة فى هذا الشان بمدينة كمبريه بين كردينال دمبوازة ومرغريطة دى اوستريا بنت مكسمليان فكانت نتيجتها أن انعقدت (فى العاشر من شهر دقمبر سنة ١٥٠٨ من الميلاد) مشارطة بالمحالفة والتحزب على البنادقة وفى اوائل السنة التى بعدها اقر تلك المشارطة البابا والحبر الاعظم وكان الغرض منها الزام جمهورية البنادقة أن ترد للمتعاهدين ما افتاتت عليه من اراضيهم ولملك المجار جميع مدن دلماسيا والصقالبة التى كانت سابقا تابعة لمملكته بشرط أن ينضم الى العصبة

ولدوق

ولدوق ساپوة بمملكة قبرص التی سلبتها سنة ١٤٤٧ من المیلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٧٩ من الهجرة) من فرع من فروع عائلته ولدوق منتوه وفرارة الالتزامات التی انتزعتها من اسلافهما

فلما بلغ الجمهوریة خبر هذه العصبة العجیبة التی تعصبت علیها تحیرت لذلك وتنغص عیشها فسعت فورا فی المفاوضة فی شأن الصلح وكان البابا یواس الثانی قبل أن یضع القرار علی مشارطة كبریة ویعدل عما استحسنه رأیه من طرد اهل ماوراء الجبال من ایطالیا قد طلب من البنادقة أن یتخلوا له بالطوع والاختیار عن مدینتی فاینزة وریمینی فلم یجد ذلك نفعا ثم عرضوا علیه أنهم یجیبونه الی مطلوبه الذی ردوه قبل ذلك بیسیر فاجابهم بالرد كما صنعوا معه ولما خابت مساعیهم ایضا عند مكسیملیان وفردیننْد ولویز الثانی عشر سعوا فی مشاغلتهم بحمل الانكلیز والدولة العثمانیة علی حرب فرانسا والنیمسا حیث انهم اعداء للفرنساویة والنیمساویة بالطبع فلم یرض بذلك هنری السابع (ملك الانكلیز) ولا السلطان بایزید الثانی ومع ذلك لم تفتر همة الجمهوریة فی هذا المعنی لانها كانت من حیثیة تلاحظ ضعف هذه العصبة حیث كانت اغراض اربابها فی السر متضادة ومصالحهم فی الحقیقة متباینة وكانت من حیثیة اخری تری أن وسایطها عظیمة ووسائلها جسیمة وهی الثروة العمومیة والثروة الخصوصیة اللتان كانتا بالسویة علی احسن حالة (وهما ثروة المجموع وثروة الافراد) فنظرت الی ماحازته من الاموال التی اكتسبتها بنشاطها فی تشغیل تجاراتها وفبریقاتها والی ترساناتها المشحونة بالذخائر وآلات الحرب والی جیوشها التی كانت تقبل الزیادة بانضمام الفرق الطوائفة العدیدة التی كانت فی ذلك العصر لا تخدم الامن أعطاها اجرة وافرة فعزمت علی مقاومة هذا الخطب الجسیم حتی ان دوجهم ای حاكمهم المسمی لوریدان اجاب سفیر ملك فرانسا الذی بعثه للاعلام باشهار الحرب بقوله ان البنادقة لیعرفون كیف یدافعون عن انفسهم وانهم بعون الله تعالی یؤملون عدم الخیبة. وجمعت فی اقرب وقت اربعین الف مقاتل

فحمل لويز الثانى عشر على هذا الجيش فى اغنادل ولاغيرة دداّ (فى الرابع عشر من شهر ماية سنة ١٥٠٩ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩١٥ من الهجرة) وهو اول من بدأ الحرب من ارباب العصبة ولما اخذ الفرنساوية فى الرجوع القهقرى صاح عليهم الجنرال لتريمولية ايها الاولادان الملك يرا كم فكانت هذه الكلمة علامة على النصرة حيث اشتدت الحمية بهم حتى ضيقوا على البنادقة فلانوا لهذه الشدة وفترت همتهم عن الكفاح فاستولى الفرنساوية على معسكرهم واسروا قائدهم برتلى دلويانو وفتحت مدن كراوغيو وبريسيا وبرغامة وكريمة وكريمونة وبزيغيتونة ابوابها فورا للمنصور وفى هذا الوقت استولى فرنسيس مارى دولاروويرة ابن اخى البابا الذى كان فى السنة الماضية قدورث دوقية اوربين عن متبنيه غيدوبالدو على مدن ريمينى وراوينة وفاينزة وسروية واستولى ايضا الفونس ديستة دوق فرارة الذى انضم الى عصبة كمبريه وكان قريب العهد بالتقلد بمنصب جونفلونيير الكنيسة الرومانية (اى حامل لوائها) على اقليم بوليزين دروبغو ومدينة ايستة ومدينة مونتنيانو وعلى مدينة مونسليسه التى كانت لعائلته قديما واسترجع مركى منتوه مدينتى ازولة ولونانو وكانت جمهورية البنادقة قد سلبت هذين الثغرين من جده وبعث مكسمليان فى آخر الامر نوابه فاخذوا البيعة على مدن ويرونة وويسنسة وپادوه

وفى اثناء هذه الاحوال انفذت مشورة الست البندقية جمهورية البنادقة بعزيمة كانت فى الظاهر من باب اليأس والقنوط الا أن عاقبتها دلت على أنها كانت من باب الحزم وحسن التدبير وذلك انها دعت حكام جميع مدنها التى بالارض القارة وجعلت اهلها فى حل من عهود المبايعة وحامت عن بحيراتها وتخت جمهوريتها وشرعت فى مفاوضات الصلح وكان يلزم للهجوم على البنادقة دونها ولم يكن فى ارباب العصبة من يسعه ذلك الاملاك اراغون

الا أنه لما نال مرامه باسترجاع خمس مدن من مملكة نابلى صار لا يفكر
فى مصالح حلفائه بل ظهر من حاله أنه يسهل فصله عن العصبة وكذلك
البابا يولس الثانى فانه لما ادرك الغرض الذى لاجله دعا الاجانب الى
ايطاليا صار لا يفكر الا فى طردهم منها حيث انه بمجرد استرجاعه لاقليم
رومانية اصغى لما عرضته عليه جمهورية البنادقة فى شأن الصلح واما لويز
الثانى عشر فانه بعد أن استولى على ما خصته به مشارطة كمبريه
سرح معظم جنوده وعاد الى فرانسا فتقوت همة البنادقة لبعد هذا
الملك وعدم حركة فرديننند ويولس الثانى وتوهم انفصالهم عن العصبة
فجمعوا جيشا جديدا فاجأوا به مدينة بادوة واستولوا عليها ثم دافعوا فيها
عن انفسهم ثمانين ألف مقاتل كان قائدهم الامبراطور مكسمليان بنفسه
وكان مع هؤلاء العساكر من المدافع العديدة ما يثبت الاقدام ويعين على الهجوم
والاقدام ومع ذلك الجأ جيش البنادقة هذا الامبراطور الى رفع الحصار
واستردوا بعد انصرافه مدينة ويسنسة واغلب ثغور اقليم تريويزان
واما مساعى هذه الجمهورية فى الانتقام من ألفونس دوق فرارة
فكانت دون ذلك فى النجاح وذلك انها كانت لا تسمح نفسها بالصفح عن هذا
الامير الصغير الذى مكث تحت كنفها مدة طويلة ثم مد يده الضعيفة نحوها
حين ظن أنها شلت وعجزت فسارت احدى دونماتها فى نهر پو بقصد
معاقبة هذا الدوق ولوفى مقر حكومته الا أن امير هذه الدونما سلك
مسلك التساهل والاهمال حتى هجم عليه كردينال ديسته ليلا فهربت
من مبدأ الواقعة وصار معظم سفنه غنيمة للعدو والمياه فكانت هذه النكبة سببا
فى رضاء تلك الجمهورية بما وضعه البابا من الشروط لاجل الصلح بينهما وبين
دولة الكنيسة فانعم عليها يولس الثانى بالغفران فى الرابع والعشرين من
شهر فبراير سنة ١٥١٠ ميلادية غير ملتفت الى ما ابداه له من
المراجعات فى هذا المعنى حلفاؤه الذين فسخوا معاهدته بعد ذلك بيسير
فكافأه البنادقة على ذلك بالتزامهم انهم من الآن فصاعدا لا يتصدون

فى التزاماتهم لمعارضة احكامه فيما يخص الدين و يتركون له جميع فتوحاته و ينزلون عن سائر ما يدعونه من الحقوق فى اراضى الكنيسة و يرخصون لجميع الرعايا الرومانية فى التجارة والملاحة فى جون البندقية مع الحرية وعدم المعارضة

فكانت هذه المحالفة التى انعقدت بينه و بينهم نقضا بينا لمشارطة كبرية واعقب ذلك حوادث اخرى كانت مقدمة لفسخ هذه المشارطة فسخا بتيا وذلك أن لويز الثانى عشر كان قد اغضب السويسة بامتناعه من زيادة اجرهم وجماكيهم وبما وقع منه فى حقهم بدون تبصر ولا حزم من السخرية على فقرهم ومؤاجرة انفسهم فى الحرب بخلاف يولس الثانى فانه اكتسب محبتهم بواسطة اسقف سيون المسمى متيوشنير الذى كان دائما يظهر الكراهة الشديدة لفرانسا وذلك انه استمال هؤلاء الجبليين الشرهين بسخاء البابا وكرمه حتى داخلهم الاعجاب والكبر بتلقبهم بحامى الكنيسة وبذلك صار للبابا مزية كونه يجمع من اخطاط السويسة جميع من يحتاج اليه من العساكر واستمال اليه حينئذ ملك ازاغون بتولينته ملكا على نابلى وسعى ايضا فى استمالة كل من مكسمليان وهنرى الثامن ملك انكلترة الا أن مساعيه كانت فى مبدأ الامر قليلة الجدوى فترتب على ذلك كله رجوع المقاتلات وتغيرت الاحوال بالنسبة الى البنادقة فيما بين غزوتين حيث صار يولس الثانى يركن اليهم و يرجح جانبهم بعد أن كان منذ قليل عدوا لهم وصاروا لا يخشون بأس فرد ينند ولا يخافون سطوة اسلحته بل املوا منه الاعانة كما تيقنوها من السويسة فلم يبق لهم حينئذ عدو يقاتلونه من ارباب عصبة كبريه الا لويز الثانى عشر ومكسمليان وكذلك دوق فرارة الذى كان بينه و بين فرانسا علاقة وارتباط اكيد لما كان يدعيه البابا اذ ذاك فى جزء من دوقيته من الحقوق المنابذة للعدالة والانصاف غير أن مكسمليان لما كان من دابه البطء والتردد فى المشروعات كان لا يوثق بمحالفته كما كان لا يخشى من سطوته وعداوته وكان دوق فرارة دونه

فى الاعانة فانه لم يكن فى وسعه أن يعين حلفاءه الا بكونه وسيلة لهم فى حيازة الفخر بحمايته والاخذ بناصره لما كان عليه من الضعف وعدم القوة فكانت اثقال الحرب كلها فى الحقيقة على ملك فرانسا وحده

ومع ذلك فالبابا يولس الثانى قبل أن يشهر الحرب مع لويز الثانى عشر اراد أن يغير بعض اغارات لا يكون خيها لويز مقصودا بالذات وانما تحمله على أن يسلك طرقا يمكن للبابا أن يعدها منه منقصة فى حق الكرسى المقدس (اى كرسى البابات) ويستند اليها فى نقض المعاهدة فسارت دونمنا من دونمات البنادقة وانضم اليها غراب من مراكب البابا قاصدة جنويزة لتحرض اهلها على القيام والخروج عن طاعة الحكومة الفرنساوية وفى هذا الوقت حكم بالحرمان على ألفونس دسته واغار دوق اوربين ابن اخى البابا على ولاية رومانية الفرارية واغار ايضا السويسة على بلاد لنبرديا وكان قائدهم الكردينال سيون الذى كان واسطة فى استمالتهم الى البابا وهذه المشروعات كلها لم تنجح ولكنها لما جبرت الفرنساوية على تفريق قواهم وتوزيع عساكرهم انقذت البنادقة مما كانوا فيه فى مبدأ التجريدة من الضنك وشدة الحصر والمضايقة واسترجعوا بدون قتال مدينة ويسنسة وغيرها من المدن التى كانوا خسروها قبل ذلك

فظهرت حينئذ مقاصد البابا للويز الثانى عشر وصار لا يمكن أن يداخله فى شأنها غش ولا مخادعة فان هذه الاغارات العديدة لم تكن دون الاعلان بنقض المعاهدة على رؤوس الاشهاد غير أن هذا الملك لصدق ديانته ورسوخ ما كانت تعتقده الملكة حانة دى بريطانيا من حرمة قتال البابا فى ذهنه وتمكن ذلك منه كل التمكن رأى أن الاقدام على قتاله هو اعظم المصائب واشد البلايا فسعى فيما يدعوه الى سلوك طرق الصلح وترك موجبات الشقاق فلم يجد ذلك نفعا فعند ذلك جمع فى مدينة طورس قسوس مملكته وسألهم هل يجوز بمقتضى اصول الدين مقاومة البابا فأجابوا بما صورته ان الدين لا دخل له فى مثل هذه المشاحنة فلا مانع من مقابلة اسلحة البابا بالاحتقار

وعدم المبالاة اذا هو استعملها فى غير محلها وان الملك يسوغ له أن يدفع السلاح بالسلاح وأن يبث شكواه من رئيس الكنيسة الى مجمع قسيسى عام يكون عقده بالاتفاق مع الامبراطور انتهى

فلم يزد ذلك يولس الثانى الا عتوا وعنادا فضلا عن كونه رهبه و ثبطه فانه عاد فورا الى الاغارة على جنويزة وان لم يخرج من ذلك على طائل ايضا واخذ فى المفاوضات ثانيا مع الامبراطور وهنرى الثامن وفرديننند القاثوليقى وسار الى مدينة بولونية بقصد النزول بها ليباشر ادارة الجيش الذى كان ارسله لتخريب اقليم فراره لكن ماوقع بين نائبيه وهما دوق اوربين وكردينال باويا من التفاقم واختلاف الكلمة اضر بالتجريدة وعطل نجاحها وبينما كان الدوق ألفونس دسته يراقب جيوش البابا و يمنعها عن الحركة حاصر الجنرال شومونت دمبوازة هذا البابا فى مدينة بولونية وكان اذ ذاك مريضا بها غير أن هذا الجنرال خدعه البابا المذكور بما ابداه اليه فى شأن الصلح من المفاوضات التى ابطلها مع الكبر والانفة بمجرد قدوم جيش البنادقة الذى كان قد دعاه لاعانته فلم يسع شومنت حينئذ الا الرجوع على عقبه مع الخزى واليأس فعند ذلك كتب البابا الى سائر امراء النصرانية يخبرهم أن ما فعله هذا الجنرال من الاغارة على بولونية من باب الكفر والتعدى على البابا والكنيسة الرومانية ولما ظفر من عدوه بالهروب بادر باجراء الحركات العسكرية والعمليات الحربية مع فرط الحمية والعجلة اكثر من السابق وغلبت حميته على هرمه وعارض مرضه فذهب لمحاصرة مدينة لاميرندولة ثم هدم جزأ من سورها ودخلها منه (فى شهر ينوية سنة ١٥١١ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩١٧ من الهجرة)

وكان اذ ذاك بمدينة مثنوه مجلس انعقد بصدد ايقاع الصلح فى ايطاليا فنجح يولس الثانى فى ابطاله وتفريق اربابه وانما رضى بعقده اولا ليكون معه فسحة من الزمن ولما جانب رعاية الناس وصار لا يوقر احدا ابرز فرمانا

حكم فيه بالحرمان على احزاب ملك فرانسا قاطبة وادرج في هذا العموم الملك نفسه لكن لا على وجه الصراحة ثم ان تريوولس الذي تولى رياسة العساكر بعد شومونت سار الى مدينة بولونية بتحريض اهل مدينة باتنووغليو له على ذلك فناط يولس الثاني بحماية بولونية دوق اوربين وارتحل الى راوينة فقام اهل بولونية عقب ارتحاله فلما رأى دوق اوربين أنه محصور من داخل المدينة وخارجها امر عساكره بالرجعة فاقتفى اثرهم الفرنساوية وهزموهم فنسب هذا الدوق الهزيمة الى كردينال پاويا وانتقم منه بالقتل حيث طعنه بالخنجر في مدينة راوينة طعنة افضت به الى الهلاك فكانت نكبة هذا الدوق الذي هو ابن اخي البابا واقترافه لهذه الخطيئة سببا في طرد عمه المذكور من تلك المدينة فقصد العود الى كرسي حكومته وهو على غاية من الكآبة والحزن فبلغه في اثناء الطريق أن القسوس عقدوا في مدينة بيزة مجمعا يلزمه أن يحضر فيه بنفسه لكون الغرض من عقده اصلاح شأن الكنيسة وتنظيم حالها من حيث رئيسها واتباعه (اي البابا والقسوس)

ولكن لما كان لويز الثاني عشر متأثرا من نجاح اسلحته ونصرته على البابا دعا تريوولس الى الحضور الى دوقية ميلان وسعى ثانيا في المصالحة الا أن البابا ادعى دعاوى عريضة فلم يجد لويز بدا من ادمان الحرب الا أنه سلك فيه مسلك التراخي حتى أن ما قام به في هذا المعنى من قلق النفس وتأثر الذمة اوقعه في الحيرة والارتباك والجأه الى البطء والتأني وقت أن كان خصمه الذي لا يلين ولا يحنو يبذل الهمة في مجهوداته ويسعى مع النشاط في مشروعاته ولما بلغ فرديننـد القاثوليقي خبر هزيمة بولونية خاف على مملكة نابلي فارسل اليها مددا من العساكر تحت قيادة بطرس نوارة ثم الح عليه البابا أن ينضم اليه ويعلن بأنه من حزب الكنيسة الرومانية نظرا الى اتحاد مصالحهما وتوافق اغراضهما فانعقد في رومة بين البابا وفردينند المذكور وديوان جمهورية البنادقة معاهدة حصل الاعلان بها

فى الخامس من شهر اوقطوبر سنة ١٥١١ من الميلاد وسميت بالعصبة المقدسة

(الفصل الرابع)

فى الكلام على ما حصل من حين انعقاد العصبة المقدسة الى موت لويز الثانى عشر ملك فرانسا (وذلك من سنة ١٥١١ الى سنة ١٥١٥ من الميلاد) اى من سنة ٩١٧ الى سنة ٩٢١ من الهجرة تقريبا)

ثم ان ارباب هذه العصبة اعلنوا بأن الغرض من معاهدتهم حفظ اتحاد الكنيسة (اى عدم الافتراق الدينى) حيث كان يخشى عليها حينئذ من عصبة بيزة أن تجلب اليها الافتراق وتوقعها فى الاختلاف والشقاق واعلنوا ايضا بأن غرضهم منها اعادة مدينة بولونية الى حكومة الكنيسة وكان مكسيمليان وقتئذ مغيظا من دولة فرانسا وكان هنرى الثامن مفوضا ادارة مصالحه لاول وزرائه المسمى ولسى وكان هذا الوزير من مدبرى العصبة المقدسة فلذا كان من المتوقع القريب الحصول أن هذين الملكين يدخلان فيها ويكونان من اربابها فكان كذلك

وايضا حين كان الكردينالات الذين هم من حزب لويز الثانى عشر يجتمعون فى مدينة بيزة مع البطء والتراخى اراد البابا يولس الثانى أن يعارض المجمع بمثله فعقد من طرفه مجمعا بمدينة سنت يوحنا دولاتران وعين للمداولة فيه غرة شهر ابريل من السنة الآتية وحكم على كردينالات بيزة بالعزل عن وظائفهم اذا هم امتنعوا من الحضور اليه ولما بلغه أن مجمع بيزة قد اخذ فى المذاكرة حكم بالحرمان على هذه المدينة بل وعلى جمهورية فلورنسة بتمامها فترتب على الهرج والاضطراب الناشئ عن هذا الحرمان وعلى قسوة محافظى الفرنساوية الذين اعدوا لحرس احبار بيزة قيام وخروج عن الطاعة اوقع هؤلاء الاحبار فى الرهبة والخوف فاجمعوا على نقل المجمع الى ميلان

ووقع حينئذ الفزع والرعب فى بلاد لنبرديا باغارة السويسة عليها ثانيا حيث هجموا على تلك البلاد وتوغلوا فيها حتى وصلوا الى مدينة مونزا وكانت عدتهم ستة عشر ألفا ولم يكن للويز الثانى عشر فى ايطاليا من العساكر الاعدة قليلة الا انها كانت قد انتقلت وقتئذ الى قيادة ابن اخته غستون دى فواكس دوق نمور وكان من ابطال الشبان وفحول الشجعان وكان سنه اذذاك اثنتين وعشرين سنة وقد ضاهى فى مدة شهرته القصيرة الفاخرة ابطال الضباط العسكرية ومهرة الرؤساء الحربية فانه ألجأ السويسة الى الرجعة ولما أتاه الامداد من فرانسا بادر بالسير ليسطو سطوات اخرى وكان كل من جيش الاسبانيول الذى كان قائده ريموندو كردونه عامل ملك اسبانيا على مملكة نابلى وجيش البابا يولس الثانى الذى كان قائده يوحنا دى ميديسيس قد حاصر مدينة بولونية فى اثناء فصل الشتاء من شهر ينوية سنة ١٥١٢ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٨ من الهجرة) وكان البابا مشغوفا باسترجاعها ولم يكن فيها الا قليل من المحافظين فبادر غستون بالذهاب اليها واجبر ريموندو كردونه على رفع المحاصرة عنها وبمجرد انصراف هذا العامل لزم غستون أن ينتقل الى اماكن اخرى غير تلك المدينة حيث كان حضوره فيها متعينا لابد منه فان سائر المدن الحصينة من اقليم لنبرديا البنادقية التى استولى عليها الفرنساوية منذ واقعة اغنادل كانت تبغض الحكومة الفرنساوية وكان القونتة اووغارو قد ادخل البنادقة فى مدينة برسيا حتى ان محافظى الفرنساوية الذين حوصروا فى قلعة هذه المدينة عزموا على التسليم وبينما هم كذلك اذ قدم عليهم غستون بجيش من الفرنساوية وكان من امره انه لما بلغه خبر خيانة هذا القونتة سافر من مدينة بولونية ولقى البنادقة فى طريقه فهزمهم ولم يزل يحث السير تسعة ايام وهو منصور على اعدائه حتى وصل الى اسوار برسيا وامر عسكره بالاغارة عليها فى اليوم الثانى من قدومه وكان فى الوقعة الفارس بيار

الذى حاز الشرف بطلب الحملة الاولى فجرح فيها جرحا خطرا فاشتدت الحمية بالفرنساوية طلبا للاخذ بثاره حتى فتحوا المدينة عنوة وسبلوا ونهبوا وجرت فيها دماء اهلها ودماء البنادقة ولكن كانت هذه النصرة مشؤومة عليهم كما تدل عليه عبارة المؤرخ الصادق صاحب تاريخ الفارس بيار الذى لا يخاف ولا يلام حيث قال من المعلوم أن فتح برسيا كان سببا فى تبدد شمل الفرنساوية بايطاليا لانهم غنموا من هذه المدينة اموالا كثيرة حملت اغلبهم على ترك الحرب والرجوع الى الوطن بخلاف واقعة راوينة فانهم سلكوا فيها مسلكا حسنا كما سيأتى انتهى

وكان ترك الفرنساوية للخدمة العسكرية مشؤوما جدا لان العصبة المقدسة كانت وقتئذ قد تقوت زيادة عما كانت عليه بانضمام هنرى الثامن اليها فكان لويز الثانى عشر كلما التفت الى جهة وجد الاخطار أمامه حيث كان يخشى من الانكليز على جميع السواحل ومن فرديننند على ثغر البرنات بتمامه ومن السويسة على اقليم برغونيا ودوقية ميلان وكان البابا والبنادقة وعامل نابلى قد جمعوا فى ايطاليا قواهم واخذوا ثانيا فى تهديد دوق نمور وكان الفلورنسية مع تلقبهم بلقب حلفاء فرانسا قد صار بينهم وبين اعدائهم مفاوضات ومذاكرات نعم كان دوق فرارة والباتووغليو لم يزالا مع حزب لويز الثانى عشر على غاية من الصداقة والامانة الا أن ضعفهما كان بقدر امانتهما واما مكسمليان فأخذ يتخلى عن الفرنساوية بسلوكه مسلكا يقتضى أنه بمعزل عن الفريقين وذلك أنه عقد مع البنادقة مهادنة اجلها عشرة اشهر وارسل للالمان امرا بالخروج من معسكر الفرنساوية الا أن رئيسهم يعقوب أمبسير لمحبته للفرنساوية أخر هذا الامر مدة من الزمن فبادر غستون فى هذه الشدة الى حمل ريموند دوكردونه على القتال حيث شن الغارة على مدينة راوينة الحصينة فقدم الاسبانيول للذب عنها فوقع بين الفريقين مقتلة عظيمة بقرب هذه المدينة (فى الحادى عشر من شهر ابريل سنة ١٥١٢ من الميلاد)

وكانت

وكانت النصرة فيها للفرنساوية حيث كان معهم طوبجية دوق فراره وكانوا اذ ذاك اعظم طوبجية ذلك العصر باوروبا وكان معهم ايضا ابطال مشاة الالمان وكان من اسباب نصرتهم ايضا ما أبداه غستون فى الوقعة من جودة الترتيب وحسن النظام وتأسى العساكر به وماسرى لهم منه من خلال الشجعان وخصال الابطال فكل ذلك حقق النصرة التامة للفرنساوية الا أن غستون حملته الحمية على أن يندفع لتتبع فرقة من الاسبانيول كانت قد انصرفت عن محل الواقعة مع الترتيب والانتظام فلما صار بعيدا عن اصحابه احاط به الاعداء فأصابته منهم طعنة رمح فوقع بها فى اثناء نصراته قتيلا وعمره يومئذ أربع وعشرون سنة والذى جره الى ذلك هو هذه الفعلة الخالية عن الحزم والتبصر التى لم يكن له من العيوب الموجبة للوم سواها فحزن الجيش الفرنساوى لفقده حزنا شديدا وعمهم الغم والاسف وكانوا وقت احتفالهم لتشييع جنازة هذا المنصور قد حازوا من العدو غنائم جسيمة واستولوا على معسكر مشحون من عساكر الاسبانيول باثنى عشر ألفا واسروا من المشاهير الكردينال دومينديسيس والمركى دويسكير وهو بطرس نوار مخترع الالغام وكانوا اذا تفكروا فى موت هذا الجنرال ظنوا أن لا ابقاء لتسليم راوينة وانقياد رومانية ولا لغيرهما من تلك المفاخر والفوائد لما أن موته كان مشؤوما لا يتوقع منه الا حصول النكبات والمصائب فى المستقبل فقد صاح لويز الثانى عشر حين بلغه خبر هذه النصرة التى قتل فيها ابن اخته قائلا نعوذ بالله من مثل هذه النصرات انتهى فانها فى الواقع كانت شرا من الهزيمة لان الجيش الفرنساوى بعد موت قائده المذكور صار يتناقص بهروب العساكر حتى حل به الضعف وفتور الهمة وصار لا قدرة له على الثبات فى القتال تحت رياسة القائد لاپاليس الذى خلف غستون فى الرياسة العسكرية وبعد أن كان البابا يولس الثانى قد داخله الرعب والفزع من اوائل نصرات دوق نيمور (الجنرال غستون) وصار يصغى لما كان يعرضه عليه لويز الثانى عشر فى شأن الصلح بادر بمجرد موت هذا الجنرال الى ابطال ذلك

وامر (فى الثالث من شهر مايه) بفتح المذاكرة فى مجمع لتران الذى عارض به مجمع ميلان وحمل الكردينالات على أن لا يشيروا الا بالاستمرار على محاربة فرانسا ورخص له مجلس الدينة بخط زوريك أن يجمع من اخطاط السويسه ستة آلاف رجل ومن يومئذ رضى مكسمليان بالدخول فى العصبة المقدسة وتغلب السويسة على مدينة كريمونة لمكسمليان سفورس وارتحل عن ميلان الكردينالات الذين كانوا من حزب لويز الثانى عشر وذهب لاباليس الى اقليم بيمونت وترك البانتيوغليو مدينة بولونية التى جردها البابا عن خصايصها ومزاياها واستقلت جنويزة بنفسها واقامت عليها دوجا (اى حاكما) من عائلات فريغوزة واضطر دوق فراره الى المثول بين يدى البابا والتضرع اليه

واستولى البابا على مدينتى پارمة وبليزانسة وضمهما الى اوقاف سنت بطرس ولم يراع فى ذلك حليفه مكسمليان متعللا بأن هاتين المدينتين كانتا سابقا من اكزركة راوينة (اى ولاية راوينة) التى وقفها شرلمانيا على الكنيسة الرومانية وما وقع من الفلورنسية من العزلة والتباعد عن الفريقين لاشتباهه وعدم خلوه عن الريبة لم يغن عنهم شيأ حيث لم يمنع العصبة المقدسة أن تنتقم منهم فقد امر المتعاهدون فى مجلس انعقد فى مدينة منتوة بناء على طلب يوليان دميديسيس أن حكومة فلورنسة تعود الى عائلته والذى نجز هذا الامر هو جيش ريموند دكردونه

ومع هذا القيام العام لم يزل لويز الثانى عشر يؤمل استرجاع اقليم ميلان فنجح اولا فيما قصده من انفصال البنادقة عن العصبة المقدسة فان الايمبراطور مكسمليان كان قد افزعهم بما ابداه من دعوى الاستحقاق فى اراضيهم و بلادهم التى بالارض القارة ثم حصلت حادثة اخرى تلايم مصلحة فرانسا وهى موت البابا يولس الثانى وذلك أن هذا البابا الذى كان لا يكل ولا يمل وكان مجبولا من اصل ولادته على فرط النجابة والمهارة بحيث كان يصلح لادارة كل دولة غير دولة الكنيسة و بينما كان مشغولا بالمفاوضات

والمذاكرات فى سائر الجهات ويستعمل جميع وسائله السياسية لاجل تنجيز غرضه من طرد الاجانب من ايطاليا اذ اصابه مرض شديد افضى به الى الموت وحين احس بدنو اجله لم يداخله فزع ولا انزعاج بل بقى على عادته من التجلد والثبات وكان موته فى الحادى والعشرين من شهر فبرية سنة ١٥١٣ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٩ من الهجرة) وتولى بعده يوحنا دوميديسيس المشهور باسم ليون العاشر فسلك فى مبدء الامر مسلك سلفه ثم جنح الى الصلح لانه كان يميل بالطبع الى الهدء وعدم التعكير وقصارى الامر أن فرديننند القاثوليقى لما قنع بأخذ بلاد نوار من يوحنا البيرت وصار لا يجد ظهيرا ولا معينا لما حل بحلفائه الفرنساوية من النكبات والمصائب ورأى أن الاوفق به البحث عما يتمكن به من تلك البلاد المهمة التى فتحها دون البحث عن فتوحات اخرى جديدة عقد مع لويز الثانى عشر مهادنة وضع امضاءه عليها بمدينة اورتيس (فى غرة شهر ابريل)

فهكذا كانت الاحوال حين قدم الى اقليم ميلان جيش من العساكر الفرنساوية يقوده كل من لتريمولية وتريوولزة وجيش آخر من البنادقة بقصد اعانتهم يقوده الويانو وبمجرد قدومهم الى هذا الاقليم انصرف ريموند دكردونة وسلمت مدينة ميلان بدون مقاومة وذهب مكسمليان سفورس الى مدينة نوارة ليتحصن بها فحاصره فيها لتريمولية وتريوولزة وكانا قبل ذلك قد اسرا اباه فيها فكان يخشى على مكسمليان أن يصنع به كما صنع بابيه الأن السويسة أنقذوه من هذا الخطب حيث تجاسروا على الهجوم على لتريمولية أمام تلك المدينة (فى السادس من شهر يونية) مع أن عساكرهم لم يكن فيهم خيالة ولا طوبجية وانتصروا عليه نصرة تامة وحل الخزى بالخيالة الفرنساوية الذين كانوا اشجع عساكر اوروبا فى ذلك العصر فلم يكونوا فى هذا اليوم اهلا لهذه الصفة العظيمة ورجع المنهزمون من طريق جبال الالب وكان الجيش الاسبانيولى وقتئذ

قد هزم ألويانو قريبا من مدينة وينسة
ولم يكن غدر الدهر بالفرنساوية فى خصوص ايطاليا بل غدر بهم ايضا فى غيرها فانهم لما نزل هنرى الثامن ومكسيمليان فى اقليم بيكارديا اعتدوا المقاومتهما دوق لنغويلة حفيد الشهير قونتة دنواس الا أن هذا الدوق لم يكن كجده فى المهارة والنجابة فانهزم فى وقعة غنغات المسماة ايضا ايبيرون (اى يوم المهاميز او نخس الخيل) لان الفرنساوية استعملوا فيها المهاميز اكثر من الرماح (وكانت فى الثامن عشر من شهر اغسطوس سنة ١٥١٣ من الميلاد) ولما كان بيار لايخطر بباله الهروب ابدا استمر على القتال فى هذه الوقعة وانجلى عنه العساكر حتى كاد يكون فى المعركة وحده فاسره العدو وهو دوق لنغويلة وترتب على هذه النصرة أن الانكليز استولوا على مدينتى تروانة وتورناى وقد عزم بعد ذلك باكس الرابع ملك ايقوسيا وكان حليفا لهذه الدولة سيئة الحظ (اى دولة فرانسا) على أن يشاغل الانكليز فى انكلترة ويلاهيهم عن حلفائه الفرنساوية لانه على ضعفه كان صاحب انسانية ومروءة ولكنه قتل هو واغلب جيشه فى وقعة فلودن (٩ من شهر سبطمبر)
هذا وقد دخل السويسة اقليم برغونيا بتحريض كردينال سيون واغرائه وكانت عدتهم عشرين ألفا فحاصروا مدينة ديجون وكان يمكنهم لو اخذوا هذه المدينة أن يتوجهوا الى تخت المملكة بدون مقاوم ولا معارض فرأى لتريمولية أن سلامة الوطن فى مثل هذه الشدة اولى بالمراعاة من شرف العرض فخادع السويسة بمواعيده واغتروا بمشارطة أنكرها فيما بعد لويز الثانى عشر حتى رضوا بالانصراف فخلصت فرانسا من هذا الخطب الجسيم الذى لم يدهمها مثله منذ مدة طويلة ولما تخلص لويز الثانى عشر من هذا الخطر العظيم عزم على الاذعان لمقتضيات الاحوال وعدم معارضة الدهر فى تقلباته فاصطلح مع البابا ليون العاشر ورفض مجمع بيزة الذى كان اذ ذاك فى مدينة ليون وترك ولاية ميلان

لمكسيمليان

لمكسمليان سفورس ونزل للسويسة عن اخطاط لوغانو ولوكرنو ومنـدريزيو وبلنزونا التى يقال لولاتها بلى (اى قضاة) وعقد مع هنرى الثامن (ملك الانكليز) مشارطة بواسطة دوق لنغويله الذى كان اذ ذاك اسيرا فى مدينة لندرة ولما كان مغيظا من الايمبراطور لكونه لم يوافقه على اغراضه كما كان مغيظا ايضا من ملك اسبانيا لكونه سلك معه غير مرة مسلك الغش والمخادعة لم ترغب نفسه الا فى الكف عن القتال وكانت زوجته حانة دى بريطانيا قد ادركتها الوفاة فى التاسع من شهر ينوية سنة ١٥١٤ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٢٠ من الهجرة) فانحط الرأى على تأكيد الاتحاد والارتباط بين دولتى فرانسا وانكلترة بتزوج هـذا الملك للاميرة مارية اخت هنرى الثامن فحملته ضرورة احتياجه الى الصلح ورجاؤه أن يرزق بولد يرث المملكة بعده على تقليل أمد الحـداد والحزن على زوجته الاولى فعقد على تلك الاميرة حسبما انحط عليه القرار مع تفاوتهما فى السن * قال صاحب سيرة بيار ان هذا الملك العظيم كان يراعى زوجته الجديدة كل المراعاة حتى غير لاجلها طريقة عيشته بالكلية فقد كان يأكل غداءه فى الساعة الثامنة (وذلك قبل الزوال بنحو ساعتين) فغير هـذه العادة وصار يأكل وقت الزوال وكان من عادته ايضا انه ينام فى الساعة السادسة من الزوال فغير ذلك وصار ينام غالبا فى نصف الليل فترتب على هـذه المراعاة المنابذة للحزم والتبصر أن عاد ذلك بالضرر على صحته مع ما كان حاصلا له قبل ذلك من ضعف البنية الناشئ عن العاهات التى بادرته قبل اوانها فاقترنت به حمى شـديدة فلما احس بدنو اجله احضر ابن اخته وولى عهده وهو دوق ولواس (فرنسيس الاول) وقال له انى مفارق الدنيا فاوصيك على رعيتى ثم خرجت روحه بعد ذلك ببعض ساعات وهو بين يدى هـذا الامير الذى كان فى حزن شـديد من اجله وكان موته فى غرة شهر ينوية سنة ١٥١٥ من الميلاد

ولم يتفق أن ملكا من الملوك احب رعيته واحبوه مثل لويز الثانى عشر

فانك اذا اطلعت على دلائل محبتهم اياه وفرط مودتهم له اخذتك من ذلك رقة وحنان فان اسفاره كانت عبارة عن مواكب نصر ومحافل افتخار حيث كانوا يتسابقون الى السير امامه افواجا افواجا و يترون فى طريقه الازهار واوراق الاشجار و يتزاحمون حوله وكانوا لفرط السرور به يبكون عند رؤيته و ينادونه فى التحية بالحبيب والمنعم وابى الملة وهل ثم امير احق بهذه التحية ممن كان دائما متمسكا بهذه الحكمة وهى اعظم الرعاة * من لا يقصر فى تسمين ما استرعاه * وممن كان لا يعبأ بملامة اخصائه حيث كانوا يصفونه بالبخل لحسن تدبيره واقتصاده الذى كان لا يلايم شرههم وشدة طمعهم بل اكتفى بقوله لأن يضحك المتملقون من بخلى احب الى من أن تبكى الامة من انفاقى ولم يعدل فى جميع ايامه عن سلوك طريق الاقتصاد الذى هو من اعظم المناهج واطيب المسالك فقد نقص حين جلس على سرير الملك اموال الاطيان وابطل كثيرا من المغارم ولم يعدها اصلا مع ما لزمه من كثرة المصاريف والكلفة فى عدة حروب مشؤومة بل آثر على ذلك بيع بعض التزامات التاج الملوكى وسلك ايضا فى هذا الامر مسلكا دون ما قبله فى شرف العرض وكرم النفس وهو انه باع سنة ١٥١٣ من الميلاد منصبى القضاء ومنصب كتخدائية باريس ومنصب باش عرضحالجى بعد فقده لولاية ميلان والاغارة على نوار ثم انه وان امكن الاعتذار عنه فى ارتكاب هذا البيع المشؤوم المنابذ لما كان يعمل بمقتضاه من الاصول والقوانين بأنه انما صدر عنه ذلك لضرورة مقتضيات الاحوال اذ ذاك الا انه يتأسف على كون مثل هذا الملك العادل تسمح نفسه بذلك و يسن هذه السنة لمن بعده ولكن يجب أن نغضى عن هذه المذمة التى لم تقع منه الا مرة واحدة ونتذكر ما كان عليه من الاهتمام والتشديد فى المحافظة على القوانين حيث كان لا يبغى الا دوام العمل بها وعدم الالتفات الى ما كان يصدر عنه من الاوامر التى كان يأمر بها لكثرة الالحاح عليه وكان قد جعل من الواجب عليه أن يطلع بنفسه على طريقة فصل الدعاوى * ثم ان الفرنساوية يتلذذون بتذكر ما كانت عليه مجالس سنت لويز من جلالة

الهيئة الساذجية اى الخالية عن الابهة والرفاهية حيث كان يعقدها تحت ظلال اشجار مدينة ونسينة ويحضرها على هيئة شيخ جليل اوواحد من آباء الاسباط ولا مانع أن يقال ان لويز الثانى عشر لم يكن دونه فى هذه الهيئة الجليلة فقد كان يذهب الى المحكمة راكبا بغلته الصغيرة بدون تكلف ولا اتباع ولا تنبيه بالحضور ويجلس بين القضاة ويسمع الدعاوى ويحضر معهم مجلس المذاكرة لاجل بت الحكم

ولما كان هذا الملك يرى أن القوانين العادلة لا تظهر ثمرتها الا اذا نيط باجرائها من تنزه عن دنس الرشوة من ارباب المهارة والنجابة كان بيده قائمتان محررتان احداهما تتضمن جميع وظائف المملكة واقطاعاتها والاخرى تشتمل على اسماء جميع الرجال الممتازين بالمعارف والفضائل والخدم وجعل فى الاقاليم اناسا من اهل الصدق والامانة يخبرونه بكل منصب او اقطاع خلا عن صاحبه فعند ذلك يراجع القائمتين ويقلد بالمنصب او الاقطاع من رآه احق به من غيره فبذلك كان يمنع أن يقع فى هذا المعنى من الالحاح فى الطلب ما ينادى بالعار على من تشبث بذلك سواء من يطلب هذا الانعام او من يزاحم الطالب عليه بل كان لا يجيب الى ذلك من استعان فى هذا الغرض بالوزراء او الاعيان ممن تساووا فى الفضل واتحدت درجتهم فى المعارف وهكذا يكون سر الحكومة فينبغى أن تكون امورها من حيث العلم والعمل اى النظر والاجراء على حد سواء فى السهولة

وعلامة كون الملك حسنة الاحكام جيدة الادارة هى أن تكون زاهية زاهرة * وما ثبت لمملكة فرانسا فى مدة هذا الملك القصيرة من عظيم التغير وحسن التحول هو مما لا يكاد يقبل لو لم يثبته رجال ذلك العصر من المؤلفين وينص عليه من كان فى ذلك العهد من المؤرخين فمن ذلك عبارة سيسيل اسقف مرسيليا حيث قال اما الاهالى فلا يشك احد أنهم الآن (اى فى ايام لويز الثانى عشر) قد بلغوا فى الكثرة مبلغا لم يبلغوه قبل ذلك اصلا حسبما تدل عليه حالة المدن والفلوات فان جميع القرى وكثيرا من المدن الكبيرة كانت

قليلة العمران خالية تقريبا عن الاهل والسكان ثم صارت الآن كلها معمورة بالاهالى الذين جاوزوا حد الكثرة حتى ان الرجل ليبحث عن محل يجدد فيه مسكنا لنفسه فلا يجده الا بشق الانفس فكنت ترى فى سائر اجزاء المملكة عمارات كبيرة جديدة ومبانى ظريفة عديدة ومما يدل على كثرة الاهالى ايضا حالة الريف والفلوات فانه قبل ذلك كنت ترى عدة اماكن واقطار كبيرة خالية عن الزراعة اوفيها غابات وعاقول صارت الآن مزروعة كثيرة القرى والبيوت واما الامتعة والملابس وطرق المعيشة فانها صارت ابهج من السابق بكثير بحيث لم يسبق لها مثل تلك الحالة وبهذا تعرف ثروة المملكة وغناها * واقرب من ذلك فى اثبات ما قلناه هو ان الاقطاعات والاراضى والالتزامات زاد ايرادها زيادة بالغة فى سائر الجهات حتى ان عدة منها زاد ايرادها فى كل سنة على ما كانت تباع به فى ايام لويز الحادى عشر وكذلك محصولات عوايد الملح والمرور والدعاوى وغيرها فانها فى بعض الجهات بلغت زيادتها اكثر من الثلثين وفى بعض آخر بلغت التسعة عشرة وبذلك اتسعت دائرة التجارة برا وبحرا حيث تشبث بها جميع الناس ماعدا الاشراف بل وبعض منهم ايضا حتى صار يوجد فى مثل باريس و روان و ليون من عظماء التجار المعتبرين نحو الخمسين او اكثر بعد أن كان لا يوجد فى كل مدينة منها الا تاجر واحد من الاعيان بل تجدد فى المدن الصغيرة من التجار ما لم يعهد مثله فى امهات المدن الكبيرة * وهنالك امور اخرى تدل على ما ذكرناه انتهى

ومن ثم كانت حكومة هذا الملك التى هى اشبه بحكومة اب على اولاده باقية الآثار فى اذهان الامة مرتسمة المآثر فى عقول الرعية حتى انهم بعد هذا الملك بمدة طويلة كانوا اذا اقتضى الحال ترتيب قوانين نافعة تذكروا ما ظهر فى ايامه من القوانين والترتيبات

(الباب الثامن)

(فى الكلام على اسبانيا والبرتوغال)

(الفصل الاول)

فى

*(فى الكلام على نوار (من سنة ١٤١٩ الى سنة ١٥١٦ من الميلاد)
(وذلك من سنة ٨٢٢ الى سنة ٩٢٢ من الهجرة تقريبا)

فى سنة ١٤١٩ من الميلاد تزوج حنا الثانى وهو ثانى اولاد ملك اراغون المسمى فرديننده لوجست (اى العادل) بلانشة دنوار بنت كرلوس الثالث ملك نوار ووارثته وكان كرلوس المذكور من عائلة اوروكس فلما مات سنة ١٤٢٥ ميلادية (اى نحو سنة ٨٢٩ هجرية) انتقل كرسى نوار الى عائلة اراغون وقد رزق حنا الثانى من بلانشة المذكورة بولد يقال له دون كرلوس امير ويانة وبنتين احداهما بلانشة التى تزوجها هنرى الرابع ملك قسطيلة والثانية ليونور التى تزوجها غستون الرابع قونتة فواكس ثم ماتت الاميرة بلانشة دوروكس سنة ١٤٤١ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٤٥ من الهجرة) وكان الاحق بوراثة تاج نوار هو ابنها دون كرلوس امير ويانة الا انه لما لم يمكنه أن يجلس على السرير الا بخلع ابيه حنا الثانى عنه اظهر انه لا رغبة له فى الحكم فاستمر أبوه على التمتع بتشريفات المنصب الملوكى واجراء مقتضياته ثم تزوج حانة هنريكيز بنت امرنت قسطيلة (اى قبودان باشى هذه الولاية) فرزق منها بفردينند القاثوليقى ثم اغرته هذه الملكة على أن يتملك تاج نوار لنفسه لان استيلاءه عليه لم يكن الا على سبيل العارية بل عزمت على نقله الى ابنها فردينند فعمل حنا الثانى بمقتضى نصائح هذه الاميرة المخادعة ونحى ولده دون كرلوس عن التشبث بسائر المصالح وظهر منه جحود حقوقه كلها وقد بلغ هذا الامير الذى كان فريسة لزوجة ابيه المغتالة من العمر ثلاثين سنة ولم يمكنه أن يحظى بالانتصاف من والده الذى كانت القوانين قد نظمته فى سلك الرعية ببلاد نوار ولولا ما حمل امير ويانة على تطلب سرير هذه المملكة من سوء المعاملة من ابيه والحاح اصدقائه من اهل نوار فى طلبه لاستحقاقه الولاية عليهم لامكن أن يغلب البر بوالده على الحمية الغضبية فانقسمت المملكة بين الاب

والابن ثم شهر دون كرلوس السلاح بعد أن توقف مدة طويلة وكان اهل قسطيلة يمدونه بالاعانة فأخذ يقاتل اباه قريبا من ايبار سنة ١٤٥٢ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٥٦ من الهجرة) فهزمه ابوه واسره وسجنه فى بعض الحصون وكان الناس يحبونه فرثوا لحاله نظرا لصغر سنه والاقبيات عليه وتشكوا من اسره فأطلقه حنا الثانى وخلى سبيله وكان ذلك سنة ١٤٥٣ ميلادية (اى نحو سنة ٨٥٧ هجرية) الا أن زوجة ابيه صممت على اتلافه وقد نالت ذلك من ابيه حيث غلب طمعه على الشفقة الابوية والحنان الطبيعى

وذلك أن حنا الثانى تعصب على ابنه مع زوج بنته (وهو قونتة فواكس) سنة ١٤٥٦ من الميلاد (المقابلة لنحو ٨٦١ من الهجرة) واتفقا على اضراره واساءته فانحط الرأى بينهما على أن مملكة نوار تبقى تحت حكم حنا الثانى مدة حياته وتنتقل بعد موته الى قونتة فواكس وزوجته ويمنع منها دون كرلوس واخته بلانشة ملكة قسطيلة فعند ذلك شهر دون كرلوس السلاح ثانيا وانهزم فى مدينة أستيلا ثم رحل من اسبانيا الى باريس ثم الى نابلى ليطلب من كرلوس الثامن (ملك فرانسا) وألفونس الخامس (ملك نابلى) أن يكونا واسطة بينه وبين ابيه فى هذه المادة * وفى تلك المدة سلك حنا الثانى مسلك اغلب امثاله من المفتاتين حيث سعى فى الاستناد الى مايظهر للناس من رضاء الامة به فحمل مجلس وكلاء الملة على الحكم بمنع دون كرلوس من وراثة المملكة فأثار هذا الظلم غيظ احزاب هذا الامير ونسوا هزيمتهم مرتين ولم يلتفتوا الا الى الانتقام بنفوسهم من السخط والغضب وأعلنوا له بالملوكية فى غيبته فلما بلغه ذلك اشتد به الغم والحزن لكن لما كان تأثره من بذل جهدهم لمصلحته وغمه من ذلك على حد سواء التمس منهم أن لا يتجاوزوا الحد فى سعيهم ولا يحدثوا امرا يمنع الصلح لصدق رغبته فيه فلذا توسط فى ايقاعه ألفونس الخامس وكان اخا حنا الثانى وكان ملكا على مملكتى نابلى واراغون

ولم

ولم تكن له ذرية من نكاح صحيح وكان اخوه حنا الثاني يرجو خيره ويخاف شره لقوة شوكته وشدة بأسه بحيث كان لا يمكنه عدم الرضاء بتوسطه فعقد مهادنة بينه وبين ولده وجعل اجلها ستة اشهر ووضع امضاءه على مشارطة التزم فيها أنه من الآن فصاعدا يمسك عن القتال في المملكة وفوض امر الدعوى والشكوى الى اخيه ملك اراغون

ولكن لما كان الدهر الخؤن غير مسالم لامير ويانة منعه أن يجتني ثمرة هذه المشارطة حيث مات ظهيره ألفونس سنة ١٤٥٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٦٣ من الهجرة) وكان دون كرلوس لم يزل بايطاليا فعرض عليه ملتزمو نابلي البيعة وانهم يؤثرونه على فرديننـد وكان ابنا طبيعيا للملك ألفونس الخامس فابى أن يسترجع بالاقتيات لقبا سلب منه بالاقتيات (يعني لقب ملك) ثم عاد الى اسبانيا وكان ابوه حينئذ قريب العهد بالجلوس فيها على سرير مملكة اراغون فطلب من ابيه الصلح واغتر بما ابداه له من المخادعة والمداهنة ووثق به وعول على امانته فقبض عليه وسجن ثانيا * ثم ان الملك حنا الثامن باغراء زوجته حانة هنريكيز اتهم هذا الامير بامور شنيعة ومقاصد سيئة ليثبت بذلك براءة نفسه من الخيانة فكان هذا التضييق والافتراء سببا في ازدياد احزاب دون كرلوس وكثرتهم فان النوارية والقطالونية (المعروفين ايضا باسم الكيطلان) بل والاراغونية قاموا جميعا على ساق وقدم ونشروا اعلام العصيان فاضطر الملك الى اطلاق ولده وتخلية سبيله بعد أن نقله من حصن الى آخر وكان ذلك سنة ١٤٦١ ميلادية (اي نحو سنة ٨٦٦ هجرية) غير أن هذا الامير حل به من الامراض والاسقام ما افضى به الى الهلاك ولا يدرى هل سبب ذلك سم اعطته له زوجة ابيه الملكة حانة هنريكيز كما هو الرأي العام او سببه ما قام به من الغم الشديد حين رأى نفسه غرضا لسهام العداوة والبغضاء من ابيه ولم تكن اخته بلانشة دونه في سوء الحظ فان زوجها هنري الرابع ملك قسطيلة طلقها ولما احتضر اخوها أوصى لها بوراثة ملكه من بعده

فكأنه لم يوص لها الا بشقائه وسوء بختها حيث ان ابوها حنا الثانى وذلك أنه صنع بها ما اوجب له المعرة حيث سعى فى اهلاكها ليشفى بذلك غليل طمعه فيما يخص الحكومة وعقد مع صهره (يعنى زوجها) مشارطة اثبت له بها حق التمتع بمملكة نوار على أن تنتقل بعد موته الى عائلة فواكس وكان من شروط هذه المشارطة أن قونتسة فواكس وزوجته يتسلمان هذه الاميرة فتسلماها وسجناها فى حصن اورتيز ومتت هنالك وهلكت

ومع ذلك لم يزل الكيطلان على القيام والعصيان وذلك أنهم كانوا قد شهروا السلاح لاجل الذب والمدافعة عن حقوق امير ويانة فلما مات استمروا شاهرين اسلحتهم لاجل الاخذ بثاره واعانهم على ذلك ملك قسطيلة فطلب حينئذ حنا الثانى المدد والاعانة من لويز الحادى عشر فامده بثلثمائة وخمسين قطعة من نقود الذهب ورهن فى مقابلة ذلك قونتتى روسليون وسردانيا سنة ١٤٦٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٦٧ من الهجرة) وفى السنة التى بعدها توسط له لويز المذكور فى فصل ملك قسطيلة عن حزب الكيطلان فلم تفتر همتهم بتخلى هذا الملك عنهم فانهم فى سنة ١٤٦٤ ميلادية (اى نحو سنة ٨٦٩ هجرية) دعوا الامير دون بدر وهو امير من عائلة البرتوغال الملوكية الى الحضور لديهم فلما حضر بايعوه واخذ عليهم العهود والمواثيق وتلقب بلقب ملك اراغون وسيسيليا الا انه فقد اغلب مدنه الحصينة حين هزمه الاراغونية فى واقعة كلاف واستولى عليه الحزن حتى مات فى برشلونة فانتخبوا بعده للتملك عليهم حنا دنجو دوق كلابرة فازال شعثهم واصلح امورهم ثم مات سنة ١٤٧٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٧٥ من الهجرة) فكان موته سببا فى اضمحلال الفتنة والقيام ومكثوا على الحرب سنتين لكن مع التراخى وفتور الهمة * وباخذ برشلونة تم انقياد الكيطلان سنة ١٤٧٢ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧٧ هجرية) وشرع حنا الثانى

سنة ١٤٧٣ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٧٨ من الهجرة) فى استرجاع اقليم روسليون لكنه لم يدرك مقصوده لان لويز الحادى عشر (ملك فرانسا) اثبت بقوة اسلحته ما عمله بمقتضى سياسته ثم مات حنا المذكور سنة ١٤٧٩ ميلادية (اى سنة ٨٨٤ هجرية تقريبا) فتولت بعده بنته ليونور على مملكة نوار بمقتضى المشارطات المقررة غير أنها لم تطل مدة جلوسها على السرير الذى لاجله هلكت اختها بل ماتت فى السنة التى تولت فيها فانتقل تاج نوار حينئذ الى عائلة فواكس فلبسه فرنسيس فوبوس حفيد الملكة المذكورة ثم ورثته عنه اخته كاترينة دفواكس سنة ١٤٨٣ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٨٨ من الهجرة) وتزوجها حنا دالبريت سنة ١٤٨٤ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٩ هجرية) ولما اراد فردينند القاثوليقى الذهاب لقتال فرانسا سنة ١٥١١ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٧ هجرية) طلب من ملك نوار أن يأذن له فى المرور فابى وتحالف مع ملك فرانسا لويز الثانى عشر فانتقم منه فردينند فى نظير امتناعه بفتح نوار حيث استولى على قاعدتها التى هى مدينة بنبلونة دوق ألبه بجيش من العساكر سنة ١٥١٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩١٨ من الهجرة) وفيما بعد سعى حنا دالبريت فى العود الى مملكته فلم يتيسر له ذلك بل ضم فردينند نوار الى قسطيلة انضماما مؤبدا سنة ١٥١٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٢١ من الهجرة) ثم مات حنا المذكور مجردا عن ملكه سنة ١٥١٦ ميلادية (اى نحو سنة ٩٢٢ هجرية) ولحقته زوجته كاترينة بعد ذلك بثمانية اشهر واعقبا ولدا يقال له هنرى الثانى ورث عنهما ما بقى لهما من الالتزامات والاراضى خلف جبال البرنات وهو جد هنرى الرابع ملك فرانسا

(الفصل الثانى)

فى الكلام على اراغون من سنة ١٤١٦ الى سنة ١٤٧٩ من الميلاد

(اى من نحو سنة ٨١٩ الى سنة ٨٨٤ من الهجرة)
(انظر تاريخ ايطاليا فى الفصل المتعلق بمملكة نابلى وتاريخ نوار فى الفصل الاول من هذا الباب)

قد خلف ألفونس الخامس بن فرديننـد لوجست (العادل) ملك اراغون اباه على هذه المملكة سنة ١٤١٦ ميلادية ثم وقعت المداولة بينه وبين حانة الثانية ملكة نابلى سنة ١٤٢٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٢٣ من الهجرة) فتبنته وجعلته ولى عهدها وذهب الى ايطاليا لكنه اغضب هذه الملكة التى لها الفضل عليه فابطلت تبنيها له ثم ماتت سنة ١٤٣٥ ميلادية (اى نحو سنة ٨٤٩ هجرية) بعد أن جعلت ولاية عهدها لرينه دنجو وبموتها رأى ألفونس الخامس أن الوقت يساعده فى استرجاع مملكة نابلى لحاصر مدينة غايطة لكنه انهزم فى واقعة بحرية اسره فيها الجنويزية ثم منوا عليه واطلقوه بعد ذلك بقليل غير أنه تمكنت منه الحمية فشرع ثانيا فى استرجاع تلك المملكة وتم فتحها سنة ١٤٤٣ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٤٧ من الهجرة) واستمر يحكمها مع الشرف والفخار خمس عشرة سنة ثم ادركته المنية سنة ١٤٥٨ ميلادية (اى نحو سنة ٨٦٣ هجرية) ولم يعقب ذرية من نكاح صحيح فورث ملكه فى ايطاليا ابنه الطبيعى المسمى فردينند واما مملكة اراغون فورثها عنه اخوه حنا الثانى ملك نوار ثم مات حنا المذكور سنة ١٤٧٩ ميلادية (كما سبق) وكانت مدة حكمه على اراغون مضطربة بكثرة الفتن والقيام ومدنسة بالخطايا الناشئة عن الافراط فى الطمع فانضمت حينئذ اراغون الى قسطيلة فى عهد فردينندا القاثوليقى وكان قد تزوج ازابيلة دى قسطيلة سنة ١٤٦٩ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٧٤ من الهجرة)

(الفصل الثالث)

فى الكلام على قسطيلة من سنة ١٤٥٤ الى سنة ١٤٧٩ من الميلاد

اى

(اى من سنة ٨٥٩ الى سنة ٨٨٤ من الهجرة تقريبا)
قد خلف هنرى الرابع بن حنا الثانى ملك قسطيلة اباه على هذه المملكة سنة ١٤٥٤ ميلادية (وهو الخليفة الرابع من خلفاء هنرى دوطرنسقمارة الذى بويع بالملوكية على قسطيلة سنة ١٣٦٨ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٧٧٠ من الهجرة) بعد موت بطرس لوكرويل (اى الجبار) وتوارثت ذريته المنصب الملوكى من بعده) وكان اول مابدئ به حكم هنرى المذكور هو حربه مع المغاربة فدخل مملكة غرناطة بقدم خمسين ألفا من العساكر الا أنه لم يفتح منها بلادا وانما كانت غزوته عبارة عن مقاتلات خالية عن الفائدة فانه لم يترتب عليها مايعوض على اهل قسطيلة مابذلوه فى مصاريف الحرب وكان قبل جلوسه على سرير الملك قد طلق زوجته الاولى وهى بلانشة دنوار لانه لم يرزق منها بذرية فلما رجع من غزو المغاربة تزوج دونا حانة اينفنت البرتوغال (اى اميرة البرتوغال) وكان قد تحكم فى ديوان قسطيلة الفساد التام فان هنرى كان منهمكا على ارتكاب الرذائل والمفاسد وسرى ذلك منه الى الملكة الجديدة (يعنى زوجته) فسلكت مسلكه حتى اتهمت بأن بينها وبين دون برتراند دولاجويوه اعز خاصة زوجها الفتذمية وعلاقات فاحشة ولما وضعت بنتها المسماة حانة كلمها نسبها الناس الى هذا الامير فكانت هذه الفضيحة الناشئة عن يقين او مجرد حدس وتخمين سببا فى سقوط الملك من عيون رعيته وموجبا لاحتقاره وضياع حرمته * وميله الى خاصته الاشرار الذين غمرهم بانعاماته واغدق عليهم بوافر هباته كان سببا فى نفور اعيان دولته وموجبا لبغضته وكراهته فترتب على كراهتهم بانضمامها الى احتقاره واستضعافه أن انعقدت بالتدريج عصبة كان لا بد من قيامها عليه فى العاجل او الآجل وقد تأخروا فى الخروج عليه لاشتغالهم بالغزوات الناجحة مع المغاربة واخرهم ايضا عن القيام فتحهم لارشدونة وجبل طارق وما كان للقسطيلية من المدخلية فى حرب الكيطلان ثم بايعوا اخاه المسمى ألفونس سنة ١٤٦٣ من

الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٦٨ من الهجرة) وكان رئيسهم في ذلك مطران طليطلة فما كان من هنرى الجبان الا انه عقد معهم مصالحة شرط فيها حرمان بنته حانة من الوراثة واثبت فيها ولاية العهد لاخيه ألفونس فاعقب هذه المشارطة المخلة بشرف العرض تفاقم وفتن جديدة وذلك أن العصاة في الخامس من شهر يونيه سنة ١٤٦٥ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧٠ هجرية) نصبوا قريبا من مدينة اويله في سهل متسع هنالك تياترا وضعوا عليه تمثال الملك جالسا على سرير الملك وعليه ثياب طويلة علامة على الحزن ومعه شعار الملك ثم قرأ رجل من كتاب السجلات باعلى صوته أمام الخاص والعام من الحاضرين ورقة تتضمن جميع ما يعاب به على الملك دون هنرى من الذنوب والمثالب ثم اعلنوا بخلعه عن سرير ملكه وجردوه عن التاج والعصى والسيف وسائر شعار الملك ثم نكسوا التمثال وصاروا يطاؤنه بأقدامهم مع السب واللعن الفظيع وبعد هذا الاحتفال صعد ألفونس على التياتر الذى اهانوا عليه المنصب الملوكى وانتهكوا حرمته واعلنوا له بالبيعة وسموه ألفونس الثانى عشر وكان عمره اذذاك اثنتى عشرة سنة واما الملك دون هنرى فانه وجد بعد خلعه احزابا يأخذون بناصره حيث اخذ لاجله عدة من مشاهير العشائر اسلحتهم فقاتل اخاه الشاب المفتات (يعنى ألفونس) لكن كانت الحرب بينهما سجالا ثم في سنة ١٤٦٧ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٧٢ من الهجرة) وقعت بينهما واقعة تحت اسوار مدينة دى ألكنيو وكانت عساكر هنرى اربعين ألفا ولم يكن مع اخيه ألفونس الاخمسة وعشرون ألفا لكن قام مقام قلة عدد عساكره شجاعته وحزمه فلم يثبت امر النصرة ثم مات هذا الامير الذى كان جديرا بما هو اولى من ذلك واحسن وحقيقا بطول العمر وفسحة الاجل وكان موته في ريعان شبابه سنة ١٤٦٨ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧٣ هجرية)

ولم تنته الفتنة بموت هذا الامير فان العصاة رغبوا في تولية اخته الاميرة

ايزابيلة

ايزابيلة عليهم واعلنوا لها بالبيعة من غير استشارتها فلما بلغها ذلك قالت لا يمكننى أن اتلقب بلقب لا استحقه مادام اخى حيا وانما طلبت أن تلقب باميرة اوستريا فاجابها هنرى الى ذلك ونسيت حقوق بنته حانة ثانيا وكان كل من ملك البرتوغال ودوق غيينة اخى لويز الحادى عشر يرغب فى زواج ايزابيلة ويسعى فى خطبتها لنفسه فلم ترض بواحد منهما وامتنعت من اجابتهما على رؤوس الاشهاد وآثرت عليهما فرديننند بن حنا الثانى ملك اراغون ثم فى سنة ١٤٦٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٧٤ من الهجرة) حين كان اخوها هنرى فى الاندلس ذهبت الى مدينة ولادوليد واتى اليها فرديننند خفية واشهرا فيها عقد النكاح الذى كان سببا فى عظم اسبانيا ولكن كان اشهاره بدون ابهة ولا رونق واشترطوا فى صلب العقد أن فرديننند لا يتعرض لحقوق ايزابيلة فيما يخص المملكة اذا جلست على سرير الملك وانها لا تتعرض لقوانين القسطيلية واشترطوا ايضا غير ذلك فلما بلغ هنرى خبر هذا النكاح لحقه من ذلك غم شديد لانه كان على غير مرامه حيث ان حزب اخته يكتسب بذلك قوة جديدة فما كان منه الا أنه ابطل فى خلاصة شهيرة صدرت عنه سنة ١٤٧٠ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧٥ هجرية) ما كان صنعه لاجلها وفعله رعاية لخاطرها وامسك عن نفى بنته حانة عنه من يومئذ واعاد لها جميع حقوقها فكثت المملكة مدة طويلة وهى تكابد اهوال الحروب الاهلية ولم يقدر هنرى على طرد فرديننند من قسطيلة ثم مات سنة ١٤٧٤ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٧٩ من الهجرة) واعترف قبل وفاته بأن حانة بنته من صلبه وأنها ولية عهده وانضم الى حزب هذه الاميرة خالها دون ألفونس الخامس ملك البرتوغال وشد عضدها ايضا فى قسطيلة اغلب العصاة الذين كانوا اولا يطعنون فى نسبها وينفونها عن ابيها غير أنهم حينئذ كانوا يخشون بأس ايزابيلة ودخل دون ألفونس المذكور بلاد قسطيلة ملقبا نفسه بزوج حانة (وكان ذلك فى سنة

١٤٧٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٨٠ من الهجرة) لكن لم يتم هذا الزواج لانه كان ينتظر ورود اذن من البابا بتحليل بنت الاخت لخالها فعرض ما عطل هذا الامر ومنع من تنجيزه وذلك أن ألفونس و فرديننـد بعد أن ترلسلا فى طلب القتال تلاقيا قريبا من مدينة تورو ووقعت بينهما واقعة كانت النصرة فيها للملك اراغون ثم اصطلحا سنة ١٤٧٩ ميلادية (الى نحو سنة ٨٨٤ هجرية) وتخلى عن حانة الظهير والمعين فذهبت الى دير فى مدينة كوامبرة واقامت فيه وفى هذه السنة مات حنا الثانى ملك اراغون وكانت ايالاته ماعدا اراغون الاصلية هى اقاليم قتالونيا و بلنسية و مورسية وجزائر بليارة وسردانيا وسيسليا فورثها كلها فرديننـد وضمها الى مملكة قسطيلة ومن وقتئذ صارت اسبانيا من الممالك العظيمة ذات الشوكة والفخار بعد أن كانت منذ مدة طويلة ضعيفة منقسمة الى عدة اقسام فكأن السياسة والدهر كانا يتسابقان الى توسيعها وترقيتها الى درجة العظم والاعتبار

(الكلام على مملكتى اراغون وقسطيلة من سنة ١٤٧٩ الى سنة ١٥١٦ من الميلاد (وذلك من سنة ٨٨٤) الى سنة ٩٢٢ من الهجرة تقريبا)

ثم ان فرديننـد وايزابيلة لما اخمدا نيران الفتن وابطلا التعصبات وتمكنا من الشوكة فى دولتيهما عزما على اجلاء المغاربة من غرناطة وطردهم منها بالكلية ولم يستقروا فيها مدة طويلة الا لما كان واقعا بين النصارى من الشقاق والفتن وكان هذان الملكان زيادة عما كان لهما من مزية الاتحاد واجتماع القوى بين ايديهما رجال على قدم راسخ فى الفضل والمعارف كالشهير كمنيس الذى كان رئيس مشاورهما وصدر مجالسهما وكان ايضا قد تخلق من الحروب الاهلية جم غفير من عظماء القواد وامتاز منهم غنزالوة الذى لقبه اهل وطنه بالرئيس الاعظم واقره على هذا اللقب اهل عصره ومن بعدهم وامتلأت الخزينة السلطانية بالاموال دفعة واحدة بسبب تشديد

ايزابيلة

ايزابيلة فى التوفير وحسن الاقتصاد والتدبير بعد أن كانت نفدت اموالها بما ارتكبه اخوها هنرى من الاسراف والتبذير وكانت عساكرهما قد تعوّدت على القتال واكتسبت الشجاعة فى اقتحام الاهوال وقوى جلدها وكثر عددها فكل ذلك كان يقضى بزوال آخر دولة للاسلام فى هذه الجهة ومع ذلك فمولاى حسن ملك غرناطة لم يفزع من هذه الاخطار ولم يعبأ بكثرتها بل بدأ العدو بالقتال سنة ١٤٨١ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٨٦ من الهجرة) حيث استولى على مدينة زهارة فتوجه عند ذلك جيش فرديننـد يقصد الحمى وهى مدينة حصينة بقرب غرناطة فاغار عليها النصارى واخذوها عنوة واضطرمت نيران الحرب بين الفريقين حتى صار يستبعد خمودها وكانت النصرة فى مبدء الامر مترددة بينهما وقد كان يمكن لمولاى حسن أن يدافع عن نفسه مدة طويلة لو لم يسلك من مسالك الخطا وعدم التبصر ما اوقعه فى مهاوى المهالك وذلك انه عشق جارية نصرانية وطلق لاجلها زوجته عائشة وكانت من اعظم قبائل غرناطة وكان لها منه ولد يقال له ابو عبد الله وكان ولى عهده فكان ذلك علامة على وقوع حرب اهلية فى المملكة فان هذه الزوجة التى اسيئت وابنها العاق اباعبد الله حرّضا طائفة من المغاربة على العصيان والخروج عن الطاعة فطرد مولاى حسن من تخت مملكته وتلقب ولده ابوعبد الله بملك غرناطة فوقع النزاع بين الاب وابنه على تاج سيسلبه منهما فرديننـد بعد ذلك بيسير ثم ان احد اخوة مولاى حسن وكان يقال له زجل او زجال انتصر على النصارى بعد ذلك بمدة نصرة عظيمة فى مضايق مالقة فكان بذلك اهلا لحب المغاربة اياه واعتبارهم له فحزب حزبا ثالثا فكان ابوعبد الله مجبورا على أن يدافع عن نفسه المغاربة والنصارى فاسره الاخيرون سنة ١٤٨٣ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٨٨ من الهجرة) وجعل عليه فرديننـد الحرس فى قرطبة فكان ذلك فرصة لمولاى حسن فى استرجاع ملكه وعاد الى تخت مملكته ولم يعبأ بحزب اخيه زجال فيها

فلم تمض الامدة يسيرة واطلق فردينند اباعبدالله وخلى سبيله رغبة في زيادة التفاقم واشتعال نار الفتنة بين المسلمين بل عقد المحالفة بينه وبينه بعد أن كان اسيره ووعده بالاعانة على ابيه على أن يدفع له ابو عبدالله مغرما قدره اثنتا عشرة قطعة من نقود الذهب ويعترف له بالتبعية فامضى هذا الجبان جميع ذلك وتقوى جانبه بفردينند وبادر بقتال ابيه فصارت عند ذلك مملكة غرناطة ميدانا لسفك الدماء فان كلا من مولاى حسن واخيه زجال وابنه ابى عبدالله كان يتتبع الآخر ويقتفى بعضهم اثر بعض مع شدة الحمية والحدة الغضبية الخالية عن التبصر والتدبير وكان الاسبانيول اذ ذاك يفتحون البلاد بلدة بعد اخرى ففى اثناء هذه الاهوال والمصائب مات مولاى حسن اما باستيلاء الحزن والغم عليه واما بقتل اخيه له سنة ١٤٨٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٩٠ من الهجرة) فاستولى فردينند على الجزء الغربى من المملكة بتمامه واتفق ابو عبدالله مع عمه زجال على أن يقتسما ما بقى من هذه الحكومة المتخربة ومع ذلك فلم تزل الحرب على حالها فلما أيس زجال من حفظ ما معه من البلاد نزل عنها لفردينند على أن يجعل له مرتبا سنويا (وكان ذلك سنة ١٤٩٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٩٦ من الهجرة) وبالجملة فلم يبق بيد الاسلام الامدينة غرناطة وكان ابو عبدالله لم يزل يحكم فيها فارسل اليه ملكا قسطيلة واراغون يأمرانه بتسليم تخت المملكة لهما فابى وقصد المدافعة عنها فتوجه اليه فردينند يقدم جيشا قدره ستون ألف مقاتل انتخبهم من عساكر المملكتين وحاصر مدينة غرناطة فى التاسع من شهر مايه سنة ١٤٩١ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٩٧ من الهجرة) وكان فى تلك المدينة ما يزيد على ألف برج ومع ما وقع فيها من الحروب الاهلية التى ملأتها بدم القتلى كان لم يزل بها من الاهالى ما ينيف على مائتى ألف نفس ومكثت المحاصرة نحو تسعة اشهر ولم يقصد فردينند اخذها عنوة لما أنها حصينة شديدة الامتناع بل بعد

أن

أن خرّب ما حولها انتظر مع الهدء والسكون أن الجماعة تجبر اهلها على التسليم وبينما هو كذلك اذ حصلت حادثة اضطرمت بها النار فی خيام الملكة ازابيلا فتقاعد ابو عبدالله عن انتهاز هذه الفرصة فعزمت ازابيلا على أن يبنى لها الاسبانيول مدينة بدلا عن المعسكر المحترق لتظهر للمسلمين انها لا ترفع الحصار عنهم اصلا فلم تمض ثمانون يوما حتى تنجزت هذه العزيمة الملائمة لبراعة هذه الملكة وتوطن الاسبانيول فی هذه المدينة الجديدة التی لم تزل الى عصرنا هذا مسماة باسم سنتافيه الذی سمتها به هذه الملكة المدينة فلما حل بالمغاربة ضنك المجاعة وانهزموا غير مرة فی المقاتلات الصغيرة التی كانت دائما تقع بينهم وبين النصارى تحت اسوار مدينتهم وتخلى عنهم اهل افريقية حيث لم يمدوا اصلا باعانتهم وانقاذهم من النصارى رأوا انه لا محيص لهم عن التسليم ففوض الملكان تحرير شروط التسليم الى غنزالوة القرطبی وهی أن اهل غرناطة يبايعون بالتملك عليهم فرديننـد وازابيلا ومن ورث بعدهما تاج قسطيلا وانهم يطلقون من عندهم من اسرى النصارى بدون فداء وانهم مرخصون فی العمل بشريعتهم والمحافظة على عوايدهم وابقاء قضاتهم والاستمرار على ديانتهم وعباداتهم بدون حرج ولا معارضة وانهم مخيرون فی املاكهم بالابقاء والبيع وأن لهم أن يذهبوا الى افريقية او غيرها من البلاد وليس لاهل قسطيلا جبرهم على المهاجرة من اسبانيا وأن اباعبدالله يمكث فی جبال البوجيراس ويتمتع هناك بالتزام خصب يتصرف فيه كيف يشاء ثم خرج هذا الملك السیء الحظ من المدينة ليسلم مفاتيحها لفرديننـد ولم يعد اليها بعد ذلك اصلا وتوجه باهله وعشيرته وقليل من الخدم الى الالتزام الذی اعطى له بدلا عن المملكة فلما وصل الى جبل بادول وهو جبل يمكن للانسان فيه أن يبصر مدينة غرناطة نظر اليها آخر نظرة وبكى وسالت دموعه على خده فقالت له امه عائشة يحق لك ياولدی أن تبكی كالنساء على ملك لم يمكنك أن تحامی عنه محاماة الرجال ولم يستطع هذا المسكين أن يقيم كأحاد الرعايا فی البلاد التی كان

ملكا عليها بل ارتحل بعد ذلك بيسير الى افريقية وقتل فى بعض الوقائع
واما فردينند و ايزابيلة فدخلا غرناطة فى الثانى والعشرين من
شهر ينوية سنة ١٤٩٢ ميلادية (اى نحو سنة ٨٩٨ هجرية)
فكانت مدة دولة المسلمين بهذه البلاد منذ فتح طارق لها سبعمائة واثنتين
وثمانين سنة

ولما كان حظ اليهود فى اسبانيا مرتبطا بحظ المسلمين لما كان بين
الطائفتين من المحالفة والمعاهدة منذ ثمانية قرون اندرجوا معهم فى مشارطة
التسليم فكان لهم بمقتضاها أن يتمتعوا بما تقرر فيها للمسلمين من المزايا لكن
قصر النصارى فى حقهم ولم يفوا لهم بما وعدوهم به بل كانوا عرضة لكراهتهم
واحتقارهم غير أنهم بمهارتهم وكدهم جبروا هذه المذلة حيث كادوا لثروتهم
بالتجارة والربا يستولون على جميع اموال الملة الا أن مارموا به من التهم
الباطلة والظنون العاطلة التى تنشأ دائما عن الكراهة الدينية او السياسية
أثار غضب الاهالى عليهم حتى اشتدت بهم الحمية الغضبية وسرى ذلك الى
ارباب الدولة بدون أن يحترزوا من هذا السريان اما لغيرتهم المبنية على عدم
التبصر وسوء التدبير او لظنهم أن فى ذلك مصلحة مع أن ظنهم هذا لم يصادف
محلا فامروا اليهود بالخروج من المملكة وامهلوهم ستة اشهر حتى يبيعوا
ما بايديهم من الاملاك والامتعة ومنعوهم أن يستصحبوا شيأ من الفضة
او الذهب او غيرهما من الاحجار الثمينة وكل من خالف ذلك عوقب بالقتل فكان
طردهم رغبة فى نهبهم فخرج منهم من اسبانيا مائة وخمسون الف نفس
فقصد بعضهم افريقية وبعضهم البرتوغال وبعضهم فرانسا وبخروجهم
تعطلت التجارة والحرف وكان يخطر ببال الاسبانيول انهم يصيرون
بطرد اليهود اصحاب يسار وثروة ولكن الفائدة الوقتية التى عادت على دولتهم
من ظلمها واجحافها بهذه الامة المشتغلة بالربا والاكتساب كانت سببا فى حرمانها
من الايراد المقرر الذى كان يدفعه اليهود الى الخزينة الملوكية ومع ذلك عومل
المسلمون فى مدة هذه الدولة معاملة اليهود حيث جبروهم على التنصر

ولم

ولم يعملوا بمشارطة التسليم المنعقدة بينهم في غرناطة فهاجر بعضهم الى افريقية واظهر بعضهم التمسك بدين النصرانية ثم سعوا غير مرة في استرجاع ما كان لهم من الحرية ورخصة الديانة الاسلامية فخاب سعيهم وقمعهم النصارى واستطالوا عليهم حتى آل امرهم الى أن طردهم فيليبش الثالث من اسبانيا ولم يبق منهم بها احدا وكانوا يزيدون على ستمائة الف نفس

وفي السنة التي اخذ فيها الاسبانيول غرناطة استكشف كرستف كلمب بلاد الدنيا الجديدة لدولة قسطيلة (راجع الباب التاسع)

وفي السنة التي بعدها كان رجوع اقليمي روسيليون و سردانيا للاسبانيول فكان ذلك من جملة ماحظيت به اسبانيا من انواع العز والسعادة المتتالية وذلك أن كرلوس الثامن (ملك فرانسا) قبل تجريدته على ايطاليا رد هذين الاقليمين لفردنند على أن يتخلى عن الفريقين بحيث لايكون لاحدهما ولا عليه ولكن لم يف فردنند بهذا الشرط (وكان تخليه هذا مما يخص مدخليته في حروب ايطاليا راجع تاريخ كرلوس الثامن ولويز الثاني عشر)

وفي سنة ١٤٩٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٠٢ من الهجرة) وقع الاتحاد والمصاهرة بين دولتي اوستريا و اسبانيا بعقد نكاحين كان يتداول في شأنهما منذ سبع سنوات وذلك أن مكسيمليان الاول كان قبل أن يتولى الامبراطورية قد رزق من مارية دي برغونيا وكانت اول نسائه بولد يقال له فيليبش وبنت تسمى مرغريطة فعقد لفيليبش المذكور على جانة وهي الانفانت الثانية لدولة اسبانيا (وكلمة انفانت عندهم لقب لاولاد ملوك اسبانيا) وعقد ليوحنا اخي هذه الاميرة على مرغريطة دي اوستريا وكان ذلك سنة ١٤٩٦ من الميلاد (كما سبق) فمات يوحنا في هذه السنة فوقع الاتفاق في الجمعيات التي انعقدت في طليطلة وسرقسطة على أن الانفانت ازابيلة التي تزوجها اعمنويل ملك البرتوغال وكانت اكبر من اختها الارشد وقبحه جانة هي الوارثة

المملكتى قسطيلة واراغون وبويعت بذلك وبعد مجلس البيعة بقليل وضعت غلاما سمى ميخاييل وماتت فى نفاسه فبمجرد موتها قلد هذا المولود بجميع حقوق امه الا أن مملكة اسبانيا انتقلت الى عشيرة اجنبية وذلك أن ميخاييل مات فى العشرين من شهر يولية سنة ١٥٠٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٠٦ من الهجرة) فورثه كرلوس الخامس ابن حانة وفيليبش وكان قد ولد قبل موت ميخاييل باشهر وذلك أن فرديننده وايزابيلة بعد أن فقدا ولدهما الذى لم يرزقا غيره من الذكور وكذلك بنتهما البكرية وحفيدهما قصرا جميع آمالهما على حانة وذريتها فطلبا سنة ١٥٠٢ ميلادية (اى نحو سنة ٩٠٨ هجرية) كلا من هذه الاميرة وزوجها الارشدوق الى الحضور لديهما باسبانيا وانحط القرار فى مجلس المملكتين (قسطيلة واراغون) على أن لهذين الزوجين الحق فى التاج الملوكى غير أن فيليبش بعد ذلك بقليل استثقل ما عليه ديوان الاسبانيول من الرسوم والقوانين لما رآه فى ذلك من التشديد الذى نفرت منه نفسه ولم يستطع تحمله فرغب فى العود الى اصل غرسه ومسقط رأسه فلما عاد الى البلاد الواطية دعى فورا الى اسبانيا لموت ايزابيلة وكانت هذه الملكة العظيمة قد استولى عليها الحزن والغم لفقد اولادها صغارا حتى افضى بها ذلك الى أن قبرت فى السادس والعشرين من شهر نومبر سنة ١٥٠٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩١٠ من الهجرة) ولما كانت معكرة المزاج من صهرها فيليبش ورأت أن بنتها غير اهل للاخذ بزمام المملكة وادارتها بنفسها اوصت أن فرديننده يحكم بالنيابة على قسطيلة ويباشر ادارة مصالحها حتى يبلغ حفيدها كرلوس الخامس عشرين سنة واوصت ايضا لزوجها بنصف ايراد بلاد الهند وبأنه الرئيس الاعظم على الطوائف الثلاثة العسكرية فتنزل فرديننده عن لقب ملك قسطيلة واعلن لحانة وفيليبش بأنهما ملكا هذه المملكة وجعل لنفسه النيابة عليها

ولما لم يقنع فيليبش بهذا اللقب القليل الجدوى اشمأزت نفسه من وصية

ايزابيلة

ايزابيلا وعزم على التملك على قسطيلة ومباشرة ادارتها بنفسه وانضم
اليه فى ذلك اشراف قسطيلة ووجوهها فلم يسع فرديننـد حينئـذ
الا التسليم وذهب الى اراغون بعـد أن اثبت لنفسه بموجب مشارطـة
انعقدت بين الفريقين لقب الرئيس الاعظـم على الطوائف الثلاثة العسكرية
واثبت ايضا لنفسه جزأ من الايراد التى اوصت له به زوجته ايزابيلا ثم اجتمع
اعيان الدولة فى مدينة ولادوليد وبايعوا جميعا حانة وفيليبش بأنهما
ملكا قسطيلة وأن ابنهما كرلوس امير اوستريا *وهـذا هو اعظم
حادثة تستحق الذكر من ادارة فيليبش وقد مات فيليبش المذكـور
بعد ذلك بثلاثة اشهر عن ثمان وعشرين سنة واعقب ولدين وهـما كرلوس
الخـامس وفرديننـد وكلاهما تولى الامبراطورية

فانفردت حانة بتملك قسطيلة الا أن موت زوجها الذى كان تمكن
حبـه من قلبها وتسلطن هواه على عقلها ولهازاد به اختـلالها وكثر بفقـده
اعتلالها وخبالها فانها كانت قبـل ذلك بمدة مديدة قد اصيبت بقلة العقل
وضعف الرأى فصارت بذلك غير كفوء لادارة المملكة وتدبيرها وكان فرديننـد
اذ ذاك فى ايطاليـا وكان البـاعث له على الذهاب اليها هو أنه كان يريد افساد
الدسائس والتعصبات السرية التى كان يتهم بها غنزالوة القرطبى
تهمة لا اصل لها وفى مدة غيبته كان اكسيمنيس مطران طليطلة يستميل
اليه قلوب النـاس حتى انه لما رجع الى اسبانيا بعد أن نظم مصالح نابلى
ورتب امورها لم يجد معارضا فى تحصيل نيابة قسطيلة لنفسه فركـب
فى ادارة هـذه المملكة مطية الحزم وسلك فى تدبيرها جادة التبصر حتى صار له
فى قلوب اهلها محبة ومنزلة عظيمة فكان ما حافظ عليـه فى داخلها من الهـدء
والسلم سببا فى سهولة غزواته الخارجية ونجاحها فقد ضم المطران اكسيمنيس
مدينة اوران وعدة مدن اخرى حصينة من ساحل البربر (اى بلاد المغاربة)
وألحقها بمملكة قسطيله وكان هذا المطران مقدما على جيش خرج به لقتال
مغاربة هـذا الجزء من افريقة وكان قد قام بمصاريف هـذا الشيء ع

على طرف نفسه وايضا طرد فرديننده حنادالبرت من كرسى مملكة نوار الذى كان جلوسه عليه بمقتضى الاصول والقوانين متعللا فى طرده بعلل باطلة ليست الا محض ظلم واقتيات و باستيلائه على هذه المملكة اتسعت حدود مملكة اسبانيا من جبال البرنات الى ثغور البرتوغال وفى اثناء هذه الاشغال الناشئة عن الطمع وحب الرياسة حصل له فرح شديد اعقبه ترح اشد منه وذلك أنه رزق من زوجته الشابة بولد لو عاش لسلب من كرلوس الخامس ممالك اراغون و نابلى و سيسليا و سردانيا لكنه مات فى المهد فايس بعده من الاولاد وتنغص عليه عيشه وعزم على أن يجعل هذه الممالك العديدة لحفيده كرلوس الخامس الذى كان لا يحبه ولا يميل اليه قلبه وكان فى مبدء الامر يؤثر عليه اخاه فرديننده لكونه نشأ فى اسبانيا وتربى بين اظهر الاسبانيول وكان محبوبا عندهم ومقبولا لديهم فرتب لاجله امورا نافعة لكنه ابطلها قبل موته خوفا من وقوع التفاقم والحروب الاهلية بين هذين الاخوين فاثر مصلحة الدولة على محبته لفرديننده وجعل كرلوس ولى عهده فى جميع دوله ولم يجعل لفرديننده الا اقطاعات قليلة لا تجبر ما فاته من الممالك العديدة ثم مات هذا الملك بعد أن وضع امضاءه على وصيته بذلك ببعض ساعات فى الثالث والعشرين من شهر ينوية سنة ١٥١٦ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٢٢ من الهجرة)

وقد عاب جميع المؤرخين من الاجانب على هذا الملك بأنه كان يسلك فى سياسته مسلك الغدر والخداع ولاموه على شدة طمعه ونهمه فى حب الرياسة واما الاسبانيول فلم يألوا جهدا فى نشر صفاته الجيدة دون مثالبه ومعايبه فان هذا الملك جعل لمملكة اسبانيا حالة وجود جديدة وقوة لم يسبق لها مثلها بخلاف من قبله من ملوكها فان شوكتهم كانت محصورة فى حدود ضيقة بسبب ما كان لمدن هذه المملكة من الخصايص وبسبب جمعيات الكورتيز وما كان للاشراف من كثرة المزايا والخصوصيات وقد سعى جماعة منهم فى ازالة هذه الموانع الحاصرة لشوكتهم فلم يجد سعيهم نفعا واما فرديننده

فنجح فى سعيه وظفر بمرامه فان الكورتيز وان كانوا لم يزالوا متولعين بحب الحرية لكنهم تناقصوا بالتدريج حتى صاروا عبارة عن شرذمة قليلة من وكلاء المدن وضاع منهم جل أهميتهم القديمة لقلة ترتيباتهم المنتظمة وعدم ثباتها واستمرارها وافتقرت عدة مدن لما وقع فيها من الحروب الاهلية اولغير ذلك من الاسباب فأبطلت بالتدريج ارسال الوكلاء استثقالا لما كان يلزمها من مصاريفهم حتى انه فى سنة ١٤٨٠ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٥ هجرية) صار عدد مدن قسطيلة التى بقيت على ارسال الوكلاء والنواب سبع عشرة مدينة من غير زيادة وحصل مثل هذا التغيير تقريبا فى مملكة اراغون ولما رأى فرديننـد أن ضرر المدن اهون عليه من ضرر الحكومة الارستوقراطية جعل جل غرضه خفض الاشراف واضرارهم فسلب من الملتزمين المعروفين بالبارونات اراضيهم التى كانوا تملكوها ممن سلف قبله من الملوك امالتبذيرهم اواضعفهم متعللا فى ذلك بعلل مختلفة وكان يسلك فى سلبها منهم تارة مسلك الجبر والقساوة وتارة وهو الاغلب ينزعها منهم بخلاصات واوامر تصدر من المحاكم

فصارت الاحساب والانساب لاتراعى فى ادارة المصالح العامة وبذلك حرم الاعيان بالتدريج من الدخول فى مجالس الشورى ومن اقبال الملك عليهم ووثوقه بهم ورأوا أن المناصب العالية صار يتقلد بها اناس آخرون كانوا يبذلون غاية جهدهم فى مصالح الملك مع غاية التسليم وعدم المعارضة لكونه ولى نعمتهم وله المنة عليهم فى التقليد بتلك المناصب وزيادة على ذلك تجدد فى ديوانه ابهة ورسوم كانت مجهولة الى ذلك الوقت تعود بها الاشراف على أنهم لايدنون من كرسى الملك الابأداء رسوم تشريفية صار له بها عندهم نوع حرمة لاتهتك وعظمة بينهم لاتدرك

وكانت طوائف سنت ياكس وكلاتراوة والقنطرة الدينية والعسكرية قد انعم عليها من اصل منشاءها بالتزامات عديدة حتى صارت حائزة لجزء كبير من اراضى الملة وكان كل من تقلد بالرياسة الكبرى على احدى هذه

الطوائف يحوز بهذا المنصب من الثروة ونفوذ الكلمة ما يكاد يعادل به الملك فسعى فرديننـد فى أن يجرّد هؤلاء الاشراف عن هـذا الامتياز لتعود منفعته على التـاج الملوكى فاستمال اوّلا شوالرية سنت ياكس وعرف كيف يرغبهم فى أن يكون هو الرئيس على طائفتهم ثم لما ثبتت له الشهرة بنجاحه فى حرب المغاربة حمل بمواعيـده اوتهديده شوالرية كلاتراوة والقنطرة على أن يتأسوا بشوالرية سنت ياكس ويختاروه هو وزوجته ايزابيـلة رئيسين عليهما وقد اقرّ كل من البابا اينوسانت الثامن واسكندر السادس ما فعله فرديننـد من جعل هذه الرياسة الكبرى من وظائف التـاج الملوكى وضمها اليه ومن بعدهما من البابات جعل ذلك امرا مؤبدا لا ينسخ وبذلك صار الملكى قسطيلة واراغون تصرّف فى مقـدار كبير من الاقطاعات والالتزامات وفى ايراد جسيم من المحصولات وثبت لهما به شوكة ونفوذ كلمة على عائلات الاشراف الذين كانت اولادهم تودّ الدخول فى زمرة تلك الطوائف والانتظام فى سلكها

ومما استعان به فرديننـد على تنجيز اغراضـه طائفة يقال لها طائفة سنت هرمندال وهى طائفة ظهرت فى اثناء القرن الثالث عشر من الميلاد وكان اربابها مجموعين من مدن مملكة اراغون ثم مدن مملكة قسطيلة حيث تأسى اهلها بالاراغونية وكانت مرتبات هـذه الطائفة المنوطة بحماية الاشخاص والاملاك على طرف المدن حيث كان مضروبا عليها لهـذا الغرض مغرم معين يقوم بمصاريف فرقة من العساكر منوطة بمحافظة الطرق وجلب الامن فيها فكان كل من وقع منه قتل اوسرقة او غير ذلك مما يخل بالهدء والامن العام وقبضت عليـه عساكر سنت هرمندال احضرته بين ايدى قضاة تلك الطائفة فيفصلون هذه الدعوى ويحكمون على الجانى بما يستحقه من العقاب ولا يلتفتون الى كون هـذا الحكم من وظيفة امير المحل من الملتزمين ولا يراعون أن له الحق فى مطالبتهم بذلك وانهم مفتاتون على حقوقه فما كان من فرديننـد الا انه حامى بجميع شوكته وقوته هـذه الطائفة

غير مكترث بكراهة الاشراف لها نظرا الى انها زيادة على صلاحيتها لايقاع الضبط والربط فى المملكة صالحة ايضا لاضعاف القضاء الالتزامى وحكم العصابة البارونية ومحو اثر ذلك بالكلية على تداول الايام لانه كان منابذا للمزايا الملوكية كما كان منابذا لحسن نظام الجمعية

فبهذه الاحداثات النافعة التى ابتدعها فردينند ونشاطه فى المصالح بدون كلالة ولا ملل حتى كأنه كما قيل كان يستريح بالكد والعمل مكن الشوكة الملوكية حتى صارت متينة قوية فما كان اسعد اسبانيا لو لم يضع فيها حين انقاذها من خلل الحكومة الالتزامية اساس الظلم السياسى والدينى الذى تشعب واتسعت دائرته فى ايام من تولى بعده من الملوك وما كان اسعدها ايضا لو لم يرفع الى جانب سرير ملكها بعد أن اعاد اليه رونقه القديم المحكمة المشؤمة التى عكرت عند الاسبانيول موارد دين النصرانية وافسدت عليهم الغرض المقصود من الديانة والحرية بحمايتها للدين بالتعازير والعقوبات

(الفصل الرابع)

(فى الكلام على البرتوغال من سنة ١٣٨٣ الى سنة ١٥٢١)
(من الميلاد (اى من سنة ٧٨٥ الى سنة ٩٢٨ من الهجرة تقريبا)

كان آخر ملوك البرتوغال الذين هم من نسل هنرى دى برغونيا بموجب النسب الصحيح هو دون فردينند وكان موته سنة ١٣٨٣ من الميلاد وكان له بنت طبيعية (اى متولدة من السفاح لا من النكاح) يقال لها بياتركس ولما كان يرغب فى ولايتها بعده زوجها ليوحنا الاول ملك قسطيلة وعمرها حينئذ احدى عشرة سنة واوصى بوراثة المملكة لمن تلده من الذكور وجعل النيابة عن هذا الولد لصهره المذكور ثم مات فردينند عقب هذا الزواج فانتهز دون جوان اى دون حنا وهو اخ طبيعى لفردينند فرصة كراهة البرتوغال لحكم القسطيلية وسعى فى اخذ النيابة لنفسه حتى سلبها من ارملة اخيه فعند ذلك قدم ملك قسطيلة الى مدينة شبونة (قاعدة مملكة البرتوغال) وحاصرها لكنه لم ينجح فى مشروعه

فاجتمع وجوه البرتوغال واعيانهم فى مدينة كومبرة وسلموا تاج مملكتهم لدون حنا وهو الذى اشتهر فى التاريخ بيوحنا الاول الملقب بالنغل ثم استعان بالانكليز على قتال القسطيلية وحلفائهم الفرنساوية فى وقعة اليوباروتا (وكان ذلك فى الرابع عشر من شهر اغسطس سنة ١٣٨٤ من الميلاد (اى سنة ٧٨٦ من الهجرة تقريبا) فانتصر عليهم نصرة عظيمة تمكن بها من كرسى مملكة البرتوغال

ومع ذلك لم تزل الحرب قائمة على ساقها عدة سنوات بين البرتوغال والقسطيلية ولم ينقطع القتال من بين الفريقين الا فى اوائل القرن الخامس عشر من الميلاد حيث انتهى بالصلح الذى التزم فيه هنرى الثالث ابن يوحنا الاول ملك قسطيلة أن لا يسعى ابدا فى اثبات الحقوق التى تدعيها زوجة ابيه الملكة بياتركس التى لم يكن لها ذرية فكان يوحنا النغل اصلا لدولة جديدة حكمت مملكة البرتوغال من سنة ١٣٨٥ الى سنة ١٥٨٠ ميلادية (اى من سنة ٧٨٧ الى سنة ٩٨٨ هجرية تقريبا)

ولما مات يوحنا الاول المذكور سنة ١٤٣٣ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٣٧ من الهجرة) بعد أن حكم مدة ثمان واربعين سنة مع العز والفخار خلفه على سرير الملك ايدوارد اكبر اولاده فاراد أن يسلب من الاسلام مدينة طنجة فناط بهذه الغزوة اخويه هنرى وفرديننד لكن لما تكاثرت الاعداء على البرتوغال واحاطوا بهم من جميع الجهات اضطروا الى مصالحة سلك فاس والتزموا له برد مدينة سبتة وكان يوحنا الاول قد تغلب عليها قبل ذلك وتركوا فرديننד عنده رهنا على ما التزموا به ثم امتنع البرتوغال من رد هذه المدينة الحصينة فبقى فرديننד فى ربقة الاسر حتى مات ولم يحكم ايدوارد على مملكة البرتوغال الا خمس سنوات لانه مات فى الطاعون الذى خرب البلاد البرتوغالية سنة ١٤٣٨ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٤٢ من الهجرة)

ثم

ثم خلفه ابنه ألفونس الخامس تحت نيابة امه اليونورة لكن لم يستحسن ذلك اعيان الدولة فسلبوا منها النيابة ولم يتركوا لها الا حضانة ولدها وتربيته واقاموا بدلها على ادارة المملكة دون پدر خال ألفونس ثم فى سنة ١٤٤٦ من الميلاد (اى نحو سنة ٨٥٠ من الهجرة) زوج هذا النائب بنته ايزابيلة لهذا الملك القاصر وبعد ذلك بمدة وشى بدون پدر الى الملك فارتاب منه فاضطر دون پدر سنة ١٤٤٩ ميلادية (اى نحو سنة ٨٥٣ هجرية) الى الخروج عن الطاعة وحمل السلاح ليأمن على نفسه وقد حزن حين حضرته الوفاة على موته على العصيان بعد أن عاش على الطاعة والصداقة وكان موته فى بعض الوقائع وبعد موته تحقق الناس أن ما حصل فى حقه انما هو مجرد سعاية ووشى عند الملك فاقلعوا عن ذمه والقدح فيه وعادوا الى مدحه والثناء عليه

وكان ألفونس يميل بالطبع الى المشروعات الحربية ويرغب فى افعال الابطال وفحول الرجال وقد تلقب بالافريقى لكونه غزا المغاربة ثلاث غزوات كان فخارها اعظم من نفعها (وكانت هذه الغزوات الثلاث فى سنة ١٤٥٨ وسنة ١٤٦٤ وسنة ١٤٧١ من الميلاد) اى فى نحو سنة ٨٦٣ وسنة ٨٦٩ وسنة ٨٧٦ من الهجرة)

وفى سنة ١٤٧٤ ميلادية (الموافقة لنحو سنة ٨٧٩ هجرية) بعد موت هنرى الرابع ملك قسطيلة خطب ألفونس دوناجانة بنت هنرى المذكور وتلقب بملك قسطيلة وزاحم فرديننند القاثوليقى على ولاية هذه المملكة (راجع الفصل الثالث من هذا الباب) فلما هزمه فرديننند ذهب الى فرانسا يستنجد بلويز الحادى عشر فلم يفز منه الا بالخيبة والخذلان فحمله ذلك على خلع نفسه وقصد بلاد القدس وبعث الى ولده دون جوان او دون حنا كتابا يودعه فيه وداع من صمم على عدم الاوبة واوصاه أن يجلس على سرير ملكه لكنه بعد ذلك بقليل بدا له رأى آخر حيث انه حين كان يظن انه سافر الى بلاد فلسطين قدم الى بلاد البرتوغال بعد

ما تولى ولده بخمسة ايام فسلم اليه ابنه زمام المملكة ثم خلع نفسه ثانيا سنة ١٤٨١ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٦ من الهجرة) ومات وهو ذاهب الى بعض الديورة لاجل العزلة فيه عن الناس

ولما خلفه ابنه دون حنا المسمى ايضا يوحنا الثانى مكن الشوكة الملوكية فى البلاد البرتوغالية باضعافه شوكة الاعيان الذين كانوا استعودوا بالكلية على الاستقلال حيث ابطل فى مجلس الديتة الذى انعقد فى مدينة ايوورة سنة ١٤٨٢ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٧ هجرية) جميع ما سمح به للاشراف الملوك الذين خلوا قبله مما يضر بحقوق التاج الملوكى فابطل ما كان لهم من التصرف المطلق فى قتل الجانى او الابقاء عليه وجعل مدنهم واراضيهم تجرى عليها احكام الضباط الملوكية فغضبوا لهذه الابتداعات وتعصبوا مع بعضهم لاجل حفظ مزاياهم وخصايصهم وجعلوا رئيس عصبتهم فرديننددوق براغنسة فضرب الملك عنقه وسلب صورة اخيه لغيبته واوقع بهذه العقوبة القاسية الهيبة فى قلوبهم واجرى احكامه عليهم ثم مات سنة ١٤٩٥ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٠١ من الهجرة)

وفى ايامه وصل البرتوغال فى استكشافاتهم الى ماوراء راس الامل (المسمى ايضا رأس عشم الخير) ولازالوا يشتغلون بالاستكشافات فى عهد ايمنويل لوفورتونى (اى السعيد) الذى كانت ايامه ابهج الايام فى مملكة البرتوغال وكان معظم بهجتها مما كانوا يبعثونه من الارساليات لاجل الاستكشافات وكان ذلك من سنة ١٤٩٥ الى سنة ١٥٢١ ميلادية (اى من نحو سنة ٩٠١ الى سنة ٩٢٨ هجرية) (راجع الباب التاسع الآتى من هذا المختصر)

﴿الباب التاسع﴾

(فى ذكر استكشافات واستيطانات البرتوغال والاسبانيول فى افريقة وآسيا وامريقة الى نصف القرن السادس عشر تقريبا)

﴿الفصل الاول﴾

مقدمة

(مقدمة)

قد آل امر البلايا والمصائب التى كانت منذ مدة طويلة تتجمع حول الامبراطورية الرومانية أن هبت عواصفها وزمر رعدها وانسكبت انواؤها فى اوائل القرن الخامس من الميلاد فان الامم المتبربرة نزلت فى اوروبا كسيل العرم وانتشرت فى آفاقها انتشار الجراد حتى فاضت بحار التبربر على الفنون والعلوم والابتداعات والاستكشافات فأغرقتها ومحت معالمها وكانت هذه الامم الفاتحة كلها وحشية خشنية لاتعرف ممارسة العلوم العقلية ولا السياسة ولا الضبط والربط ولم يكن لها اصول ولا قوانين ولا حكومة منتظمة فكان اول ماترتب على استيطانهم فى اوروبا هو قطع ماجعلته الدولة الرومانية بين الناس من العلائق والتواصل حيث مزقوا اوروبا وقسموها الى دول صغيرة عديدة كل دولة منها قائمة بنفسها ومباينة لغيرها فى الاخلاق والعوايد واللغات ومن وقتئذ انقطع التواصل من بين هذه الدول وانحلت من بينهم روابط الالفة والمحبة وعلائق المخالطة والتجارة وصارت كلمة اجنبى وكلمة عدو مترادفتين بمعنى واحد وصار ارباب الاسفار فى سائر الجهات عرضة للاباطيل والاخطار بسبب عوايد تلك البلاد بل واصولها وقوانينها وانقطعت ممارسة العلوم التى تنبنى عليها الجغرافية والملاحة وتبدلت معرفة البلاد القاصية بالجهل حيث نسيت اوضاعها ومحصولاتها بل واغلب اسمائها

ولكن كان هناك امر ترتب عليه وحده بقاء بعض علاقات ومخالطات تجارية بين الامم القاصية وهو تخلص القسطنطينية من هيجان المتبربرين وحدة غضبهم فلم تزل بها فنون القدماء واستكشافاتهم معروفة فكنت ترى هذا التخت العظيم مشحونا بأنواع الزخارف والرفاهية ومحوشا فيه عن محصولات البلاد الاجنبية لاسيما محصولات الهند وكانت التجارة بتلك المدينة لم تزل باقية على زهرتها ورواجها بخلاف غيرها من مدن اوروبا فان التجارة فيها تعطلت وتلاشت

وكان يسطع اذذاك ببلاد المشرق بعض اشعة من انوار العلوم والمعارف

فان العرب عرض فيهم بعض ميل الى علوم الامة التى ابادوا سلطنتها من الشام ومصر وافريقة فترجموا الى لسانهم عدة كتب من كتب فلاسفة اليونان ومارسوا الجغرافية فى تأليف بطليموس واعتنوا بمطالعة الهندسة والهيئة وفعلوا فى هذا المعنى تجارب لم يستنكف الاوروبيون أن يقلدوهم فيها فى الازمنة التى اضاءت فيها عندهم شموس المعارف لانهم فى الصدر الاول كانوا يجهلون اشغال العرب واعمالهم

ولكن التخريبات التى كابدتها اوروبا من فتوحات المتبربرين لم تدم بل تنوسيت شيأ فشيأ اوعحا عظيم آثارها تداول الازمان فاجتمعت عدة اسباب متنوعة بعثت الناس على التشبث بالتجارة وفتحت بابا من ابواب الوصلة والمخالطة بين الامم المختلفة وكان اول ماشوهد فيه علامة هذا الانتعاش هو بلاد ايطاليا حيث عرضت مقتضيات ناجحة سهلت على بعض مدن تلك المملكة التخلص من ذل العبودية والاسترقاق حين كان غيرها من مدن اوروبا يكثر التأوه والانين من ثقل وطاة الملتزمين فتشبث اهل تلك المدن الايطالية بالملاحة والتجارة وصارت مدينة القسطنطينية اعظم سوق يتردد اليه تجار ايطاليا الذين كانوا يأتون منه الى مجاوريهم من الامم الاخرى بالتولع بالفنون وبالمحصولات المشرقية النفيسة وينشرون ذلك عندهم الا أن دائرة تجارتهم كانت لم تزل ضيقة جدا فمن ثم كانت الروابط التى وقعت وقتئذ بين الدول المختلفة واهية هينة فلما كانت الغزوات الصليبية وذهب لاجلها الى آسيا جنود عديدة جمعت من سائر جهات اوروبا كانت سببا فى فتح طريق اوسع من ذلك للتواصل والمخالطة بين المشرق والمغرب مكثت عدة قرون * فان هذه الغزوات وان كان الغرض منها مجرد الفتوحات دون التجارة وكانت عاقبتها مشؤمة الا انه ترتب عليها فوائد عظيمة ومنافع مستمرة اعانت على تقدم التجارة وفلاحها لان المدن الكبيرة من ايطاليا وغيرها من بلاد اوروبا اكتسبت فى مدة هذه الحروب الصليبية الحرية واكتسبت معها المزايا التى صارت بها كل واحدة جمعية

مستقلة

مستقلة محترمة فتخلق حينئذ فى كل مملكة طائفة جديدة من الاهالى بذلت نفسها للتجارة وفتحت بذلك طريقا للثروة والشرف وبعد حروب الصليب بمدة يسيرة سهل التواصل والمخالطة بين الاقطار الشاسعة والولايات المتباعدة حتى كأن الامم والاقطار تدانت من بعضها وتقاربت وكان السبب فى ذلك هو استكشاف البوصلة (بيت الابرة) او استعمالها حيث تقوت بذلك الملاحة وتمكنت وصار يقدم عليها مع الجسارة وعدم المبالاة

ثم ان موقع اوروبا الجغرافى يقسمها من حيث تجارتها البحرية الى قسمين اصليين * احدهما البلاد الواقعة على شواطئ بحر بلطق وبحر ألمانيا (بحر الشمال) والمحيط الغربى * وثانيهما البلاد الواقعة حول البحر المتوسط وكان هذا التقسيم قبل استكشاف امريقة بأربعة قرون ممتازا اكثر مما هو عليه الآن لقلة ما كان اذ ذاك بين القسمين من العلاقات واسباب التواصل فى البر والبحر * ومن القسم الاول البلاد الواطية وسواحل فرانسا وألمانيا وسكندناوة وقومتيات الانكليز البحرية * ولا مانع أن يجعل من الثانى اقاليم بلنسية وقتالونيا (بلاد الكيطلان) وبروونسة ولنغدوق وايطاليا بتمامها

واعظم المواد التى استمدت منها التجارة فى القسم الشمالى هو صناعة اقمشة الصوف فى فلندرة وهناك عدة دلائل تشهد بأن فبريقات هذه البلاد كانت زاهية زاهرة من القرن الثانى عشر من الميلاد حتى صارت فلندرة وما اتصل بها من الاقاليم اعظم قطر فى اوروبا فى الثروة والعمران والزراعة بسبب ما كان فيها من التجارة العظيمة التى كان مركزها مدينة بروجة وكانت تجارة انكلترة فى مبدأ الامر محصورة فى نقل صوفها الى الفلمند فان الانكليز لم يكن لهم دراية بالفنون والصنائع حتى يأخذوا فى اسباب التأسى بالفلمند فى فبريقاتهم وورشهم المذكورة التى كان الانكليز ينقلون موادها من بلادهم الى هؤلاء الاجانب اصحاب تلك الفبريقات ثم اخذت تتجدد عندهم اوقات سعيدة على عهد ايدوارد الثالث

لان هذا الملك دعا الى بلاده جماعة من صناعية الفلمند ليتوطنوا فيها وقنن عدة قوانين مستحسنة تبعث على الرغبة فى التجارة وله الفضل على انكلترة حيث اعتنى فيها بتجديد ما بها من فبريقات الصوف ثم حمل قومه أن يوجهوا قرائحهم النشيطة المتولعة بالمشروعات الى ممارسة الفنون النافعة التى ارتقوا بها الى اعلى الدرجات بين الامم المتشبثة بالتجارات

ثم انتشرت ايضا صناعة الصوف من فلندرة الى شواطئ الرين والاقاليم الشمالية من فرانسا وكانت المزايا التى انعم بها عدة من الايمبراطرة على المدن الحرة من ألمانيا سببا فى تقدم الحرف والصنائع فى تلك المدن غيرأن مدن فرانسا تأخر خلاصها من ورطة الحكومة المطلقة التصرف فكان ما يضرب عليها الملتزمون من المغارم الثقيلة بانضمامه الى المصائب المترتبة على الحروب مع الانكليز سببا فى بطء تقدم فبريقاتها وعدم اتساع دائرتها

ثم ان فبريقات فلندرة وانكلترة وجدت لرواج محصولاتها وبيع بضائعها سوقا فيما قاربها من الولايات وكذلك فى البلاد المجاورة لبحر بلطق التى كانت معروفة قليلا منذ عدة قرون وكان يسكنها اذ ذاك اقوام وحشيون يتعيشون من الصيال فلما اخذت مدينتا همبرغ ولوبق فى التجارة معهم اضطرتا الى عقد المعاهدة معهم رغبة فى الحماية ومنعهم عن الصيال وقطع الطرق وعادت عليهما هذه المعاهدة بالمنافع الجمة حتى ان غيرهما من المدن بادر الى الانضمام اليهما والدخول فى معاهدتهما فاجتمع فى سنة ١٢٥٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٦٥٨ من الهجرة تقريبا) ثمانون مدينة تجارية من نهاية بحر بلطق الى مدينة كولونيا الواقعة على نهر الرين وتعاهدت مع بعضها المعاهدة الشهيرة المسماة بالمعاهدة الاسياتيقية وكانت منقسمة اربعة اقسام قواعدها مدن لوبق وكولونيا وبرنسويق ودنتزيق وكان لها فى البلاد الاجنبية اربعة منازل تجارية اصلية احدها فى لوندرة والثانى فى بروجة والثالث فى برجان والرابع فى نوغورود ولم تظهر العلائق التجارية بين هذه الاقطار الشمالية وبلاد اوروبا الجنوبية

الا

الا فى السنين الاول من القرن الرابع عشر من الميلاد
واما تجارة القسم الجنوبى فكانت اقدم وابهج من تجارة القسم الشمالى من غير أن يكون تأثيرها فى تقدم الجمعية على ما يظهر اقوى من تأثير التجارة الشمالية فى ذلك وكانت مدينتا البندقية واملفى تتجران قبل الغزوة الاولى من الغزوات الصليبية مع المدن الاسياتيقية ولم تمكث مدينة املفى على عزها زمنا طويلا غير أن ايطاليا عوضت خيرا من ذلك حيث جبرفيها خلل انحطاط هذه المدينة بارتقاء مدن اخرى تدريجا وهى بيزة وجنويزة والبندقية فى القرن الثانى عشر وما بعده فكانت تمد اهل حرب الصليب فى مدة غزواتهم بسفن من سفن النقل ومؤونات وذخائر حربية واكتسبت زيادة على ما اخذته فى نظير ذلك من الاموال الجسيمة والمبالغ العظيمة مزايا ومواضع تجارية فى بلاد فلسطين وايالات الشام النصرانية فكان لها فى عكا وصور وطرابلس وغيرها حارات ممتازة لها حكام من اهلها يحكمون فيها بمقتضى قوانينهم واصولهم واكتسبت ايضا فى القسطنطينية مثل ما اكتسبت فى الشام من المزايا والخصائص وكان لها مدخلية عظيمة فيما حصل فى بلاد الدولة العثمانية من الحوادث وتقلبات الاحوال بل عقدت معاهدات مع امراء العرب ورتبت تجارات منتظمة مع بلاد المشرق بواسطة المينات المصرية وجلبت من هذه البلاد جميع محصولات الهند الثمينة
وكانت اقاليم فرانسا الواقعة على شواطئ البحر المتوسط تشاركها فى فوائد التجارة التى كانت تمر عليها فى هذا البحر فليست مدينة مرسيليا وحدها هى التى كان لها فى اليسار والثروة درجة ما مكثت عليها مدة القرون ذات الخشونة وعدم التمدن بل كذلك مدينة نربونة ونمس ولاسيما مدينة مونت بلير فان هذه المدن الثلاثة كانت ايضا تتمتع بثروة عظيمة وكانت بلاد قتالونيا ابهج وازهر فان مدينة برشلونة اخذت فى القرن الثالث عشر من الميلاد تضاهى مدن ايطاليا فعما قليل صار القيثلان او الكيطلان

(اهل قتالونيا) يعدون من اعظم الملل التجارية وهم الذين ينسب اليهم قانوننامة البحرى المعنون باسم كونسيلا توديل مارى ومعناه قنصلية البحر وقد صار هذا القانون معمولا به فى البحر المتوسط على سبيل الالزام من حين اقره بالاحتفال ملك فرانسا وقومتة بروونسة وقد تحرر فى فرانسا على عهد ملكها سنت لويز عدة قوانين اغلبها مستنبط من قانوننامة المذكور وجرى العمل عليها فى انكلترة باسم قوانين اوليرون وكان فى البلاد الشمالية ايضا قانوننامة خاص بها يتعلق بالاحكام البحرية وهو عبارة عن قوانين ويسبوى التى هى من مدائن جزيرة غوتلند وقد اندرج اغلب هذه القوانين فى قوانين اوليرون قبل سنة ١٤٠٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٠٣ من الهجرة) وكان يعمل بها تجار بحر بلطق

وبينما كانت التجارة ببلاد اوروبا على هذه الحالة اذ حصلت حادثتان عظيمتان جدا بالنسبة للنوع الانسانى على العموم ولاهل اوروبا على الخصوص وهما استكشاف امريقة المسماة بالدنيا الجديدة والسلوك الى بلاد الهند من رأس الامل المسمى ايضا رأس عشم الخير اذ بهاتين الحادثتين تغيرت احوال التجارة والشوكة والاخلاق والحرف والصنائع والحكومات عند جميع الملل

(الفصل الثانى)

(فى الكلام على قبائل البرتوغال ونزلاتهم بالبلاد الاجنبية من سنة ١٤١٨ الى سنة ١٥٠٨ من الميلاد (اى من سنة ٨٢١ الى سنة ٩١٤ من الهجرة تقريبا)

كان يوحنا الاول الملقب لوبتار (اى النغيل وهو ولد الريبة) الذى اسس فى اواخر القرن الرابع عشر من الميلاد دولة جديدة فى بلاد البرتوغال قد شرع سنة ١٤١٢ ميلادية (اى نحو سنة ٨١٥ هجرية) فى عمل غزوة مع المغاربة قاصدا بذلك شغل رعيته ارباب النشاط والخفة فسار هو واولاده

الذين كان ينتظر لاجلهم فرصة يشتهرون فيها فينظمهم فى سلك طائفة الشوالرية حتى جاوز البوغاز ومعه دونانما كبيرة وتغلب على مدينة سبته الحصينة التى كان ملوك مراكش قد جعلوها مخزنا للاسلحة

وقد اثرت هذه الغزوة فى ثالث اولاده وهو الانفانت دون هنرى دوق ويزو حيث رجع منها وله ميل شديد الى السياحة والاسفار وكان مما تزعمه الناس اذ ذاك أن البحر الاطلنطيقى يتعذر ركوبه والسلوك منه وأن السواحل الغربية من افريقة لوقوعها فى المنطقة المحترقة شديدة الحرارة لا يمكن سكناها فزال هذا الخطأ بالحروب مع المغاربة لانه شاع أن هؤلاء الامم تنقل من البلاد التى يعتقد أنها محترقة اموالا جسيمة تمر بها من البحر المحيط الاطلنطيقى الذى اشتهر بأنه لا يركب ولا يمكن السلوك منه فعزم الانفانت دون هنرى المذكور على أن ينتفع بأنوار هذه المعارف الجديدة وكان من اعلم اهل عصره بالجغرافية والرياضيات فجعل دار اقامته مدينة سجرس قريبا من رأس سنوسان باقليم الجرف وامر بانشاء مدرسة بحرية فى هذه المدينة تعلم فيها لشبان البكزادات الذين هم اعضاء ديوانه وكان له مدخلية عظيمة فى اختراع الاصطرلاب وهو اول من عرف منفعة البوصلة فقد سير سنة ۱٤۱۲ من الميلاد سفينتين من سفنه فما زالتا سائرتين حتى جاوزتا رأس نون بستين فرسخا مع أن الناس اذ ذاك كانوا يزعمون أن هذا الرأس من الموانع التى لا يمكن الظهور عليها ولكن لم يتجاسر من كان فيهما من الملاحين على اجتياز رأس يادور الواقع على البعد من دائرة الانقلاب بدرجتين وفى سنة ۱٤۱۸ ميلادية بعث كلا من حناغونزالس ذرقو وترستان وازتكسيرة ليجتازا هذا الرأس فخرجت عليهما ريح عاصفة ألقتهما على جزيرة صغيرة سمياها پورتوسنتو ثم لما توغلا فى لجج البحر سنة ۱٤۱۹ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ۸۲۲ من الهجرة) وصلا الى جزيرة مادرة وقد اشتهر أن هذه الجزيرة اوقدت فيها النار لتحرق ما كان يسترها من الغابات والاشجار

الكثيرة بحيث تكون بعد ذلك صالحة للزراعة وأن النار مكثت بها سبع سنين حتى صارت ارضها من اخصب الاراضى واصلحها للزراعة ثم نقل اليها الامير هنرى قصب السكر من سيسليا وقبرس وفسول الكروم من مالوازية فنجح فيها هذان الغرسان نجاحا عجيبا حتى انه بعد سنوات قلائل صار سكر مادرة ونبيذها من اعظم بضائع البرتوغال التجارية

وكان الاسبانيول من اثناء القرن الرابع عشر يشنون الغارة على الجزائر السعيدة التى سميت من يومئذ بجزائر الخالدات لاجل نهب اهلها وسلب اموالهم وفى سنة ١٣٤٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٧٤٥ من الهجرة) جعل البابا كليمان السادس هذه الجزائر مملكة واعطاها للويز دولاسردا ليكون ملكا عليها وكان لويز المذكور من امراء عشيرة قسطيلة الملوكية ولكن لم يقدر على أن يثبت لنفسه هذا اللقب الصورى الذى لم يتحقق له مدلوله فانه لم يذهب الى جزائر الخالدات اصلا ثم انه فى سنة ١٤١٧ ميلادية (اى نحو سنة ٨٢٠ هجرية) قبل استكشاف جزيرة مادرة بسنتين وقيل فى سنة ١٤٠٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٠٧ من الهجرة) استأذن حنادو بيتنكورت وكان من البيكزادات الفرنساوية ملك قسطيلة فى فتح هذه الجزائر فاجيب الى ذلك ففتح منها بالتوالى جزائر لنسروتة وفورتواتتورة وجميرة وفرو وبايع بها ملك قسطيلة ثم نزل عنها ابن اخيه فيما بعد للانفانت دون هنرى فى نظير اراض من جزيرة مادرة لكن لم تقر دولة اسبانيا نزوله عنها متعللة بأن لها الحق فيها حيث اعطاها لها البابا اولا فآل امر هذه الدولة الى استرجاع تلك الجزائر التى فتحها حنادو بيتنكورت والاستيلاء عليها ثم تمم الاسبانيول فتح هذا الارخبيل اى مجموع جزائر الخالدات بفتح كنارية الكبيرة وبلما وتنريف سنة ١٤٨٣ وسنة ١٤٩٢ وسنة ١٤٩٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٨ وسنة ٨٩٨ وسنة ٩٠٥ من الهجرة) ومكثت من يومئذ تحت حكم الدولة

الاسبانيولية

الاسبانيولية

وفى اثناء هذه المشاحنة فى شأن جزائر الخالدات استكشف البرتوغال عدة اماكن واسسوا فيها نزلات وقبائل فقل بذلك اسفهم على فقدهم لبعض جزائر كانت ارضها لم تزل بورا قاحلة

ثم ان الغزوات الصليبية ترتب عليها انتشار بعض معارف فى اوروبا تتعلق بالاقطار المشرقية وذلك أن مرقوبول البندقى وهيتون الارمنى ومندويل الانكليزى قصدوا الرحلة الى بلاد آسيا فسلكوا اليها من الطريق التى سلكها اهل حرب الصليب وكان اعظم وسائلهم فى دخول تلك البلاد هى الارساليات التى بعثها البابا اينوسانت الرابع وسنت لويز الى خان التتار فطافوا اجزاء من هذه الارض القارة المتسعة وذكروا فى شأن البلاد المشرقية اخبارا كانت دلالتها على الامور الصحيحة الثابتة دون دلالتها على مالم يكن كذلك ومع ذلك اورثت اهل اوروبا مزيد تولع ورغبة فى الاطلاع على تلك البلاد ولما لم يتيسر للبرتوغال الوصلة مع اهل آسيا من طريق فى البر مستقيمة سهلة السلوك عزم الامير هنرى على سلوك طريق فى البحر توصل الى بلاد الهند وهى أنه يطوف حول افريقة ولاجل تقوية البرتوغال على التشبث بالمشروعات البحرية ومنع معارضة الملل الاخرى لهم فى ذلك طلب من البابا مرتين الخامس أن يملك الدولة البرتوغالية جميع الاراضى التى تستكشفها من رأس بيادور الى بلاد الهند بدخول الغاية فاجابه الى ذلك كأنه مالك الارض بتمامها وسمح له سنة ١٤٣٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٣٦ من الهجرة) بما كان يطلبه لنفسه من حق الفتح وبالغفران لمن يقتل فى الغزو لاجل تلك الفتوحات وقد اقر هذه المزية فيما بعد كل من البابا اوجين الرابع ونيقولاس الخامس وسكستة الرابع وغيرهم فبادر البرتوغال الى تنجيز هذا الغرض ليظهروا انهم مستحقون لتلك المزية فاجتاز جليانيز رأس بيادور سنة ١٤٣٣ ميلادية (اى نحو سنة ٨٣٧ هجرية) وكان هذا المشروع اذ ذاك معدودا من

المشروعات الشديدة الخطر جدا حتى ان مؤلفى ذلك العصر فضلوه على اشغال هرقول (وهى مذكورة فى الفصل الثالث من القسم الثانى من المقالة الثامنة فى الخرافات اليونانية من كتاب بداية القدماء وهداية الحكماء فراجعها ان شئت) وسافر كل من أنطوان غونزاليز ونوجنوترستان سنة ١٤٤٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٤٤ من الهجرة) حتى وصلا الى الرأس الابيض وبعد ذلك بسنتين (اعنى سنة ١٤٤٢ ميلادية) (اى نحو سنة ٨٤٦ هجرية) اخذ البرتوغال ماقدمه اليهم اهل تلك البلاد من التبر واطلقوا لهم بعض الاسارى الذين كانوا اسروهم فى رحلتهم الاولى وسموا هذا المحل ريودورو وازداد تولعهم بالاستكشافات لما رأوا هذا المعدن الذى ظهر لمعانه لاعينهم بأرض افريقة فى هذه المرة التى هى اول مرة نظروه فيها فتجددت فى مدينة لاغوس سنة ١٤٤٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٤٨ من الهجرة) قبطانية افريقية جهزت عشر قراولات (نوع من السفن) بالاهبة الحربية واستولت بها على جزائر لاس جرزاس ونار وتيدر وفى سنة ١٤٤٥ ميلادية (اى نحو سنة ٨٤٩ هجرية) وصل غنزالودوسنترة وكان من رؤساء عساكر القبطانية الى جزائر اوجين التى اشتغل فيها البرتوغال بعد ذلك بقليل بالتجارة فى الذهب واجتاز دنيس فرتندير مصب نهر سنغا او سنغال ووصل الى الرأس الاخضر الذى استكشف جزائره أنتونيودونولى سنة ١٤٦٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٦٧ من الهجرة) وطاف جزائر اسورة التى كشفها قبله غونزاليز ولهودوكبرال وقد ظهر للبرتوغال أن جميع من لاقوه من الامم فى استكشافاتهم الى نهر سنغال يشبهون المغاربة تقريبا واما من لاقوه فى جنوب هذا النهر فرأوه على صورة اخرى غير الاولى فان اهل هذه الاقطار سود البشرة كلون الابنوس وزعم البرتوغال أن ذلك ناشئ عن حرارة ارضهم فخافوا أن تلك الحرارة تؤثر فيهم ايضا هذا التأثير المهول اذا هم قربوا من خط الاستواء اكثر

من ذلك

من ذلك وكان اهل الجبن والحسد من ديوان البرتغال يقولون انه يلزم الكف عن السياحة في هذه الاقطار التي تزيد اخطارها بالتوغل فيها واما الانفانت دون هنري فانه لم يزل مصمما على تنجيز اغراضه وامر هؤلاء المعارضين المعطلين لمقاصده بالكف عن مثل هذا الكلام وألزمهم بالسكوت عن التكلم في هذا الغرض مستظهرا عليهم بفرمان البابا اوجين الرابع الذي اذن له فيه بالاستمرار على الاستكشافات ولكن ظهرت عدة حوادث مشؤومة تراأى منها تعضيد ماوقع من المعارضين من المراجعة والتثبيط عن السياحة والاستكشاف وذلك أن سياحي البرتغال صادفوا موانع عظيمة على السواحل المعمورة بالسودان الذين لمداومتهم على مقاتلة الوحوش والحيوانات المفترسة التي بأقطارهم المحترقة كانوا اشد بأسا واعظم بطشا من اهل الجزائر فاحتيج في غلبة تلك الموانع والظهور عليها الى نشاط الانفانت دون هنري الذي كان لايكل ولايمل لكن مات هذا الامير سنة ١٤٦٣ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٦٨ من الهجرة) بعد أن اسس عظم البرتغال في القوة البحرية ولقد اصاب من قال في حقه انه عاش مدة حياته وهو مشتغل بالافكار العظيمة والافعال المرضية الكريمة وانه اتخذ من شعاره هذه الكلمات وهي الرغبة في الخير خير

وكان ابن اخيه المسمى ألفونس الخامس مستوليا على سرير المملكة من سنة ١٤٣٨ ميلادية (اى نحو سنة ٨٤٢ هجرية) فاستغرق البرتغال بقية أيام هذا الملك في الاستكشافات في افريقة لكن مع فتور الهمة وقلة الاجتهاد ومع ذلك سافر حنادوسنتريم وبطرس دسكالونة في البحر حتى وصلا الى ماوراء رأس سيراليونة واسسا في شواطئ غينيا تجارة ذهب مينا وكذلك فرننْدوبو وصل الى الجزيرة المسماة باسمه واستكشف ايضا غير هؤلاء من ارباب الملاحة جزيرتي سنت توماس وآنوبون سنة ١٤٧١ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٧٦ من الهجرة) ولما تجاوز البرتغال خط الاستواء عجبوا من تلك الارض التي هي جزء من المنطقة

المحترقة حيث وجدوها آهلة عامرة كثيرة الخصوبة مع انهم كانوا يظنون أنها خالية غير معمورة فازدادت رغبتهم وحميتهم فى الاستكشاف فى عهد ملكهم يوحنا الثانى الذى خلف ألفونس الخامس سنة ١٤٨١ ميلادية (اى نحو سنة ٨٨٦ هجرية) وجهزوا فى سنة ١٤٨٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٨٩ من الهجرة) دونمة قوية لاجل الاستكشاف فاستكشفت هذه الدونمة مملكة بنين ثم اخذت فى السير حتى جاوزت خط الاستواء باكثر من الف وخمسمائة ميل ووصلت الى مملكة كونغو فاقلع ديغوكام فى نهر كونغو الذى يسميه اهل تلك البلاد زايرة ثم ان يوحنا الثانى بنى على سواحل غينيا حصونا ليتمكن من استكشافاته وبايعه عدة من صغار امراء افريقة بالطوع والاختيار على أن يدفعوا له الجزية والخراج وجبر غيرهم على ذلك بقوة اسلحته

ولما توغل البرتوغال جهة الجنوب وجدوا ارض افريقة القارة تضيق وتنحنى بالتدريج الى جهة الشرق لا انها تمتد بالاتساع كما زعمه بطلموس قديما فبهذه الملاحظة ازدادت رغبتهم وقوى فيهم امل الوصول الى بلاد الهند الشرقية من البحر ووثقوا باخبار الاسفار التى وقعت قديما من الصوريين حول افريقة بعد أن كانت هذه الاخبار تعد منذ مدة طويلة من قبيل الخرافات فبينما كانوا يجهزون ارسالية جديدة اذ بلغهم من سفير ملك بنين انه يوجد فى شرقى افريقة على البعد من الشاطئ الغربى بمسافة عظيمة مملكة ذات شوكة ملكها على دين النصرانية فاستنتج ملك البرتوغال من ذلك أن هذا الملك ينبغى أن يكون هو الامبراطور اى نجاشى الحبشة الذى سماه اهل اوروبا بالقسيس يوحنا لاغترارهم بخطا روبروقيس ومرق بول وغيرهما من السياحين فشرع فى اجراء الوصلة والمراسلة بينه وبين هذا الملك وسلطنته مؤملا أن يصل منه اخبار واعانات يستعين بها على نجاح مشروعه الذى كان الغرض منه نشر دينهما واتساع دائرته .

وكان ديولن لسبونة اولشبونة قد ارسل قبل ذلك قسيسين الى بلاد

المشرق

المشرق فلم يرجعا الا بقليل من الاخبار المفيدة لما انهما كانا لا يفهمان اللغة العربيـة فانتخب يوحنا الثانى فى هذه المرة اثنين من البيكزادات يقال لاحدهما بيدرو دوكوويلام وللثانى ألفونس دوپيوا ليكونا سفيرين له عند ملك الحبشة وكان لهما معرفة باللغة العربية وامرهما أن يجمعا من البلاد التى يطلعان عليها ما يصل اليهما من الاخبار فى شأن تجارة الهند وفى شأن طريق الملاحة التى توصل الى هذا القطر وفى مدة ما كان حنا الثانى يسعى هـذا السعى بر تلمى دياز قد اجتاز الرأس المرتفع الذى هو حد افريقة من جهة الجنوب وحيث ان هذا السياح قاسى فى هذا المحل شدائد الفرطونات وعواصف الرياح سمى هذا الرأس كابو تورمنتوزو ومعناه رأس الشدائد غير أن الملك يوحنا لما صار لا يشك فى أنه قد حصل العثور على هذه الطريق التى مكثوا امدة طويلة وهم يبحثون عنها غير هذا الاسم الذى يتشاءم منه وسمى الرأس المذكور رأس الامل او رأس عشم الخير (وكان ذلك سنة ١٤٨٦ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٨٩١ او سنة ٨٩٢ من الهجرة) وقد تحقق امله بالاخبار التى وصلت اليه من سفيريه اللذين ارسلهما الى بلاد الحبشة .

ثم ان كوويلام وپيوا عملا بمقتضى اوامر سيدهما وذهبا اولا الى اسكندرية ثم الى القاهرة ثم خرجا منها مع بعض القوافل المصرية حتى وصلا الى مدينة عدن الواقعة على ساحل البحر الاحمر ثم افترقا هنالك فأقلع پيوا الى جهة بلاد الحبشة واقلع كوويلام الى بلاد الهند الشرقية وبعد أن اطلع على مدينتى كانور وغوا الواقعتين على ساحل مليبار وعلى جزيرة هرموز فى الخليج الفارسى رجع الى سفالة الواقعة على الساحل الشرقى من افريقة ومنها الى القاهرة وكانت موعد اجتماعهما ولكن كان پيوا قد قتل فى بلاد الحبشة ومع ذلك دخل كوويلام هذه السلطنة فأبقاه النجاشى فى ديوانه عدة سنوات وبعث سفيرا من طرفه الى بلاد البرتوغال فكان ذلك بمجرده هو ثمرة المراسلة مع الحبشة ولم يترتب عليها

شيء آخر الا أن سياحة كوويلام ترتب عليها ما كان يؤمل منها وذلك
أن هذا السفير ارسل الى لشبونة اخباره اليومية واستنبط من ملحوظاته
ومن الاخبار التى جمعها أن الانسان اذا طاف حول افريقة من البحر عبر
على طريق توصل الى بلاد الهند فكان هذا الرأى الناجح بمطابقته
لاستكشافات برتلى دياز سببا فى زوال ما كان حاصلا فى هذا المعنى
من الشك والتردد تقريبا غير أن بعد الشقة ومشقة السفر اطلع بهما على
البرتوغال ما كان مرتبا لهم بعين مطامعهم وآمالهم فى هذا الغرض فلزمهم
أن يتربصوا مدة حتى تستقر آراؤهم ويستعدوا لهذه الارسالية الخطرة
وفى هذا الوقت حصل مشروع آخر أعجب من ذلك وكان قد قارب التنجيز
تحت رعاية يوحنا الثانى وذلك أن كرستف كلب عرض على هذا
الملك أن ينجز له تحت الراية البرتوغالية ما هو عازم عليه من المقاصد العظيمة لكن
لما وقع فى حقه من الغدر والحيلة الناشئة عن الجبن ما الجأه الى مفارقة
البرتوغال ارتحل الى اسبانيا وعرض على ملكيها (ايزابيلة وفرديننند)
ما عرضه على ملك البرتوغال فماطلاه مدة طويلة ثم سمحا له بثلاث سفن
عبر بها المحيط الاطلنطيقى سنة ١٤٩٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة
٨٩٨ من الهجرة) ووصل الى الدنيا الجديدة وفى السنة التى بعدها نال
فرديننند القاثوليقى من البابا اسكندر السادس فرمانا منحه فيه
جميع ما استكشف وما يستكشف من البلاد الواقعة فى جهتى الغرب والجنوب
حيث حدد ذلك برسم خط وهمى ممتد من قطب الى قطب فى مسافة مائة فرسخ
على غربى جزائر أسورة والرأس الاخضر فاغتاظ من ذلك ملك
البرتوغال لكونه رأى أن هذا الامر يضر باستكشافاته الشرقية فوقع
الاتفاق فى هذا المعنى بين الدولتين واصطلحتا فيه على أمر بينهما وفى سنة
١٤٩٤ ميلادية (المقابلة لنحو سنة ٩٠٠ هجرية) صدر فرمان
آخر أبعد هذا الخط المحدد عن جزائر أسورة والرأس الاخضر باربعمائة
وسبعين فرسخا وخص دولة اسبانيا بالبلاد الواقعة فى الغرب ودولة

البرتوغال

البرتوغال بالبلاد الواقعة فى الشرق
وفى سنة ١٤٩٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٠١ من الهجرة) مات يوحنا الثانى متأسفا على ماضاع منه من الفرصة العظيمة التى عرض عليه فى شأنها كرستف كلب لما أنها كانت تعود عليه بالفخر والقوّة ولكن تسلى البرتوغال فى عهد خليفته ايمنويل لوفورتونى (اى السعيد) على هذه الخسارة التى لاتجبر بنجاح وسكودوغاما فى ارساليته وذلك أنه سافر فى الثامن عشر من شهر يولية سنة ١٤٩٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٠٣ من الهجرة) ومعه ثلاث سفن ومائة وستون رجلا فكابد فى سفره اهوال القرطونات وشدائد الرياح العواصف حتى جاوز رأس الامل ومرّ بساحل سفالة الذى ارضه مثرية من غيران يعاين هذه المدينة التى هى من مملكة مونوموتپا ووصل الى جزيرة موزمبيق فوجد بها اممًا متأنسة يتكلمون باللغة العربية وكان قد ظهر للسياحين أن الآدميين والحيوانات والنباتات قد تغيرت اشكالها من درجة عرض جزائر الخالدات الى موزمبيق حتى كأنها نوع آخر غير المعهود وقد زاد بهم التعجب حين رأوا هنالك اناسا يشبهون اهل الارض القارة المعروفة وهم على دين الاسلام والمسلمون الذين يسافرون من المشرق الى المغرب يتلاقون مع النصارى الذين يسافرون من المغرب الى المشرق فى احد اطراف تلك الارض

وكانت جزيرة موزمبيق قد صارت لوضعها وموقعها احد مراكز تجارة سفالة والهند وكان العرب المقيمون بها كالافرنج تقريبا فى فن الملاحة فيقال انهم كانوا يعرفون استعمال البرجل البحرى وكان عندهم بوصلات (اى بيوت ابرة) وخرطات بحرية وآلات فلكية وقد ظنّ اهل هذه الجزيرة فى مبدء الامر أن البرتوغال مسلمون من بلاد المغرب فلما عرفوا أنهم نصارى سعوا فى اهلاكهم غير أن الفرنج أرهبوهم بمدافعهم حتى امن بها غاما على نفسه حين كان فارًا منهم وذهب الى جزيرة مونباسة فعصب عليه

اميرها عصبة لم ينج منها الا بتعجيل السفر فلما وصل الى مملكة ميلندة تلقاه ملكها بالترحيب واعطاه ربانا اى واحدا من رؤساء الملاحين ليوصله الى كالكته الواقعة فى ساحل مليبار فعرف بمعاونة هذا الربان الذى كان من هنود غوزوراته ساحل زنجبار وعبر هذا الخليج العظيم الذى يزيد على سبعمائة فرسخ ويفصل افريقة من جزيرة الهند ثم وصل الى مدينة كالكته بعد ثلاثة عشر شهرا من خروجه من لشبونة

وكانت بلاد الهندستان حين دخلها البرتوغال منقسمة بين ملوك كنباية ودلهى او دلى وبسناغار ونرزنجة وكالكته وكان ممن يدفع الخراج لهؤلاء الملوك عدة امراء متفاوتون فى الشوكة وكان لملك كالكته الملقب عندهم زامورين الحكم على الولايات البحرية فكان حكمه ممتدا على جميع اقليم مليبار فكان تحت طاعته امراء كانور وكرنجانور وكوشين وبركا وكولان وتراونكور ويحكى أن زامورين مليبار فى القرن الثامن من الميلاد حين اخذ المسلمون فى استيطان بلاد الهند رغب فى دينهم كل الرغبة حتى انه لم يكتف بمجرد الدخول فيه والتمسك به بل ارتحل الى مكة بقصد الاقامة فيها الى الممات ومن يومئذ صارت مدينة كالكته التى هاجر منها هذا الملك معتبرة عند المسلمين كل الاعتبار حتى انهم تعودوا بالتدريج على الذهاب اليها بسفنهم وصارت هذه المينا بمجرد اعتبارهم لها اشهر واغنى اسواق هذه الاقطار مع ما هى عليه من الخطر والمشقة

وقد صادف غاما فى مدينة كالكته رجلا من مغاربة تونس يعرف اللسان البرتوغالى وكان قد غلب عليه الميل الى الامة البرتوغالية لما رآه من الاشياء العظيمة التى صدرت عنها فى سواحل المغرب فسعى فى حمل الزامورين على ملاقاة غاما وقبوله فى مجلسه فلما تلاقيا عرض عليه غاما أن يعقد معه معاهدة ومشارطة تجارية باسم ملكه ايمنويل فرحب به الزامورين فى مبدء الامر ورضى بمحالفة ملك البرتوغال

المذكور

المذكور ولكن لما خشى عرب افريقة ومكة الذين كانوا اذذاك يتاجرون فى بلاد الهند أن يجرّ ذلك الى المنافسة والمخاصمة بينهم وبين البرتوغال فى التجارة سعوا فى ايقاع الريبة منهم فى قلب الزامورين ونجحوا فى سعيهم فاستقر الرأى على قتل غاما واصحابه من البرتوغال لكنه تخلص من هذا الخطر بثباته وشجاعته وقصد اوروبا ووصل الى مينا بيلم فى شهر سبطمبر سنة ١٤٩٩ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٠٥ من الهجرة) وكان ذلك بعد رحلته من اوروبا بسنتين وشهرين ودخل لشبونة بموكب واحتفال وجعله الملك اميرال الهند اى قبودان باشى على دونما تلك البلاد وأتحفه بالتشريف وأغدق عليه بالاموال مكافأة له على اشغاله وفى اثناء نشوة الملك من راح تلك الافراح لقب نفسه بلقب جديد وهو رئيس الملاحة والفتوح والتجارة فى بلاد الحبشة والعرب والعجم والهند

(سنة ١٥٠٠ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٠٦ هجرية) ثم ان دولة البرتوغال لم تهمل فى الاستكشافات حتى تفتر فى ذلك همة الامة بل جهزت ثلاث عشرة سفينة وجعلت بدرو ألوارس كبرال رئيسا عليها وكان فى هذه الدونما الف وماتتا رجل وكان سفرها فى التاسع من شهر مارث سنة ١٥٠٠ من الميلاد فخرجت عليها ريح عاصفة دفعتها الى جهة الغرب فرسوا على ارض واقعة فى الدرجة العاشرة خلف خط الاستواء فكانت هذه الارض هى الجزء من امريقة الجنوبية الذى اشتهر من وقتئذ باسم ابريزيل فاستولى عليه كبرال باسم ملك البرتوغال ثم اقلع الى رأس الامل فغرقت منه اربع سفن باعصار خرج عليه فى البحر وكان برتلى دياز من جملة الرؤساء الذين هلكوا فى هذه الحادثة واجتاز كبرال الرأس المذكور فى اثناء هذه العواصف ووصل فى ٢٠ من شهر يوليه الى مينا موزمبيق واتخذ منها ربانا ليوصله الى جزيرة كلوة فاطلع عليها وعلى ميلندة ثم وصل الى مدينة كلكتة فاستمال زامورينها اى ملكها بالهدايا حتى اظهر

المودة للبرتوغال وأذن لهم أن يجددوا محلا لتجارتهم فى هذه المدينة التى هى كرسى مملكته غير أن المسلمين ظهروا عليهم مرة ثانية حيث سعوا بهم الى اهل كالكته حتى اغتروا بدسائسهم وقتلوا جماعة من هؤلاء الفرنج فانتقم منهم كبرال فى نظير ذلك باحراق جميع سفن العرب التى كانت فى المينا وتخريب المدينة بضرب المدافع عليها ثم سار منها الى كوشين ثم الى كانور فعرض عليه ملكا هاتين المدينتين أن يتعصبا معه على زامورين كالكته الذى كانا يدفعان اليه الخراج وعرض عليه ذلك ايضا فيما بعد امير كولان وعدة من امراء تلك الجهات وكانوا جميعا يؤملون التخلص من دفع الخراج للزامورين المذكور ولم يخطر ببالهم أنه لامانع من أن الفرنج يصيرون ذات يوم ساداتهم ويكونون اشد خطرا عليهم من الزامورين فقد ترتب على سوء تدبيرهم أن البرتوغال بعد ذلك بقليل صار لهم الرياسة على اقليم ملبار بتمامه ثم ان كبرال بعد أن قبل منهم ماعرضوه عليه رجع الى بلاد البرتوغال

وفى اثناء رجوعه بالدونما الى لشبونة التى وصل اليها فى الحادى والثلاثين من شهر يولية سنة ١٥٠١ ميلادية (اى نحو سنة ٩٠٧ هجريه) سافر يوحنا دونويوة من بلاد البرتوغال الى بلاد الهند ليكمل ماصنعه هنالك كل من غاما وكبرال فاستكشف فيما بين موزمبيق وكاوة جزيرة سماها باسمه واطلع على كوشين وكانور فهجم عليه فى جون كانور دونما من كالكته فظهر عليها بمدافعه ثم تعاقبت الارساليات وصارت تتوالى مع السرعة فكان البرتوغال ينقضون على بلاد الهند طامعين فى جمع الاموال منها اونشر دين النصرانية بها ففى سنة ١٥٠٢ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٠٨ من الهجرة) جهزوا فى آن واحد ثلاث دونمات صغيرة كانت عدة سفنها كلها عشرين سفينة ونيط برياستها العظمى وسكو دوغاما فرتب مواضع تجارية فى سفالة وموزمبيق وفى السنين التى اعقبت هذه السنة انقاد لحكومة البرتوغال بالتدريج هاتان المملكتان

الصغيرتان

الصغيرتان وغيرهما من دول العرب الواقعة على ساحل زنجبار وتغيرت هذه الممالك الصغيرة الى سلطنة متسعة تمتد من سفالة الى ملندة وجعلوا مقر حكومتها جزيرة موزمبيق التى صارت مرسى ومستودعا للسفن والتجارة البرتوغالية ولما وصل غاما الى الهند عقد مع ملك كانور مشارطة بقصد المحبة والتجارة وبنى هنالك محلا للتجارة ثم توجه الى كالكته فلما لم يرض الزامورين بعقد المعاهدة مع البرتوغال لتسلطن العرب عليه وعدم خروجه عن اشارتهم ضربت على مدينته المدافع البرتوغالية ثانيا ورأى غاما من تريمونبارة ملك كوشين مارآه قبله كبرال من المودة والاكرام فاغتاظ الزامورين من مخالفة عامله ملك كوشين لهؤلاء الاعداء الاجانب وارسل من سفنه دونمة لاجل معاقبته على ذلك فشتتها مدافع البرتوغال ثم سافر وسكودوغاما بالدونمات الى بلاد البرتوغال قاصدا مدينة لشبونة بعد أن ابقى منها على ساحل كوشين دونمة جعل رئيسها ونسنت سودرة لاجل حماية ملك كوشين

وبعد سفر غاما المذكور (سنة ١٥٠٣ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٠٩ هجرية) جهز الزامورين خمسين الف مقاتل وهزم بهم تريمونبارة ملك كوشين واستولى على مقر حكومته وأحرقها وجبره على أن يغلق على نفسه الابواب فى جزيرة رايبى وبينما كان الزامورين يحاصره فيها أتى من اوروبا ألفونس دلبوكرك ومعه دونمة برتوغالية فجمع بقايا دونمة ونسنت سودرة التى كانت قد غرقت فى سواحل العرب وأنقذ ملك كوشين فلسوء تدبير هذا الملك أذن للبرتوغال حين هاجت به نشوة السرور فى ادائه الشكر لهم على حسن صنيعهم معه أن يبنوا حصنا قريبا من مقر حكومته فصارت لهم بذلك الرياسة على جميع القطر ثم عاد ألبوكرك الى بلاد البرتوغال وترك فى هذه الجهة ايدوارد باشيكو بسفينة وقراولتين (نوع من السفن) فلم يكترث الزامورين بهذه السفن الهينة بل جند جنودا جديدة وجمع سفنا عديدة قاصدا محق هذا الحصن الجديد ومعاقبة ملك كوشين لكن قام مقام

كثرة جنوده شجاعة پاشيكو ومهارته فانهزم الزامورين برا وبحرا وذهب الى دار اقامته فضر وقتئذ من لشبونة لويس سوريز ومعه ثلاثون سفينة (وكان ذلك سنة ١٥٠٤ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩١٠ من الهجرة) فأطلق المدافع على كلكته حتى خرب جزأمنها ثم تغلب على كرنجانور واحرقها لان أهلها كانوا يتعصبون على كوشين باغاراتهم ثم رجع الى اوروبا سنة ١٥٠٦ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٢ هجرية) وفى السنة التى بعدها سافر فرنسيس دلميدا من لشبونة بدونمنا كانت عدة سفنها اثنين وعشرين سفينة ملقبا بلقب نائب الملك على الهند وكان مأمورا بتجديد نزلات وبناء حصون على ساحل أفريقة الشرقى من موزمبيق الى رأس غردفوى لاجل الأمن على التجارة البرتوغالية فتغلب على مدينة كلوة وعزل ملكها المسمى ابراهيم وجعل مكانه ملكا آخر وترك فيها محافظين ونهب مدينة مونباته واحرقها حيث ظهر من اهلها كراهة البرتوغال عدة مرات فهذه الافعال أوقعت الرعب والفزع من البرتوغال فى البلاد القاصية حتى صاروا لايجدون فى طريقهم مايعوقهم وهزموا الزامورين ثانيا واغرق لورانزو بن دلميدا السفن الكبيرة التى كان الزامورين جمعها على مينا كانورة وكانت عدتها ستين سفينة ثم سلم العرب للبرتوغال جميع البلاد التى كانت الى ذلك الوقت ميدانا للحروب وارتحلوا عن ساحل ايان وملبار ونقلوا تجارتهم الى بوغاز ملقا وجزائر سوندة مؤملين انهم فى هذه الاماكن التى لم يدخلها الفرنج اذذاك يكونون احرارا الاسلاطة لاحد عليهم ولما تتبعهم لورانزو جهة هذه الاقطار الجديدة استكشف فى طريقه جزيرة سيلان التى كان يسميها القدماء تبروبانة

وفى سنة ١٥٠٨ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٤ من الهجرة) ارتحل الى الهند كل من ترستان داكونيا وألفونس دلبوكرك ومعهما دونمنا عدة سفنها ثلاث عشرة سفينة فاستوليا على جزيرة سوقطرا الواقعة قريبا

من الطرف الشرقى من امريقة تجاه بوغاز باب المندب الذى كان البرتوغال
يلاحظون منه تجارة البحر الاحمر حتى أحدثوا من الموانع ما عطل تجارة مصر
ثم اقلع ترستان داكونيا الى بلاد الهند وتوجه دلبوكرك الى
الخليج الفارسى لانه كان يريد أن يجعله تحت حكومة البرتوغال ثم ان جزيرة
جيرون واقعة فى مخرج بوغاز موسندون الذى يوصل الى فرع من البحر
وكان قد أسس فيها بعض الفاتحين من العرب فى القرن الحادى عشر من الميلاد
مدينة هرمز التى صارت بتداول الايام كرسى مملكة كانت من احدى
جهتيها ممتدة مع التوغل فى بلاد العرب ومن الجهة الثانية فى بلاد العجم وكان
لهذه المدينة مينتان عظيمتان وكانت لموقعها مركزا طبيعيا لتجارة العجم والهند
فبذلك كانت اعظم مدن المشرق غنى وثروة فبعد أن خرب دلبوكرك عدة
مدن من المدن التى كانت تحت حكم ملك هرمز قدم الى هذه المدينة التى هى
مقر تلك الحكومة وطلب من الملك المذكور أن يدفع الخراج للبرتوغال
كما يدفعه للعجم فما كان جوابه الا انه ارسل لمحاربة المراكب البرتوغالية دونما
سفنها هرمزية وعجمية وعربية فظهر دلبوكرك على جميع هذه القوى بخمس
سفن من السفن البرتوغالية ومحق أثرها بالكلية وبنى برضاء الملك المغلوب قلعة
تشرف على المدينة وميناها لكنه ترك هذا الفتوح لما خانه ثلاثة من رؤساء
عساكره ثم عاد الى هرمز بعد ذلك بقليل حين تقلد النيابة وصار عاملا على
تلك البلاد من طرف الدولة البرتوغالية فأذعنوا اليه ثم تجاسر ملك العجم على
أن يطلب من هذا العامل المنصور خراجا كما كان منه الا أنه احضر أمام
الرسول العجمى كللا وقنابر وسيوفا وقال له ها هو الخراج الذى يدفعه ملك
البرتوغال

وبينما كان دلبوكرك مشتغلا بتتميم فتح هرمز وكان الميدا لم يزل
عاملا على الهند اذ شرع قانصوه الغورى سلطان مصر فى طرد
البرتوغال منها وذلك أن مدينة اسكندرية كانت قبل وصول البرتوغال
الى بحار المشرق اهاحط عظيم من تجارة الهند وكان البنادقة يذهبون

الى ميناها ليحملوا منها محصولات هذا القطر وينشروها فى جميع بلاد اوروبا فلما سافر غاما الى البلاد الهندية صار لتجارة المشرق بالتدريج طريق اخرى فكانت أموال الدنيا تنصب فى مدينة لشبونة انصبابا وعاد ذلك بالضرر على البندقية واسكندرية حيث رأتا أن زمن زهرتهما قد انقضى ووقت رونقهما قد تولى ومضى ولحقهما بذلك من الاسف والغم الشديد ما لامزيد عليه فعزمتا على انهما الايسلمان فى ذلك بدون مقاتلة واشتدت بهما جميعا الحمية على الانتقام من البرتوغال فأرسلت البنادقة الى السلطان الغورى موادا ومهمات ليصنع منها دونمة فخرج من مينا السويس سنة ١٥٠٨ من الميلاد اثنتا عشرة سفينة كبيرة من السفن المصرية ودخلت فى البحر المحيط الهندى فلما صارت بقرب جزيرة ديو اجتمعت بدونمة ملك كباية وكان البرتوغال اذذاك قد ضعفت قوتهم الحربية حيث كانوا قد ارسلوا الى اوروبا عدة من سفنهم فوقع بين الفريقين قتال لم تستوفيه القوة من الجانبين بل كانت الهزيمة على البرتوغال وقتل فى هذه الوقعة رئيسهم المسمى لورانزو بن دلميدا ولكن لم تطل مدة النصرة للمسلمين فان فرنسيس دلميدا جاءاليه امدادات واعانات من طرف دولته فأخذ بثار ابنه ومحق الدونمة المنصورة عن آخرها وكان قد أتى اليه مع طائفة من هذه الامدادات امر من الدولة البرتوغالية أن يسلم العمل لالبوكرك وينزل له عن منصب النيابة ومع أن اجل حكمه كان قد انقضى سعى اولا فى أن يستمر على الحكم كما كان ثم امتثل الامر الصادر له بالخلع وارتحل متأسفا عن موضع فخاره ومات خامل الذكر عند امة خشنية من امم افريقة وذلك انه حين رجوعه الى اوروبا (سنة ١٥٠٩ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩١٥ من الهجرة) رسا على جون شلدانيا قريبا من رأس الامل فقتله سودان هذا القطر

ثم ان خليفته ألبوكرك نجز مشروعا مهما ترتب عنه أن البرتوغال تمكنوا من الاستيطان فى بلاد الهند تمكنا لم يسبق لهم نظيره * وذلك أنه يوجد بالقرب من وسط ساحل ملبار فى جزيرة منفصلة عن الارض القارة بفرعين

من النهر مدينة غوا مرتفعة على شكل مدرج والنهر الذى يحيط بها تكوّن عنه تجاه اسوارها مينا عظيمة تعد من اعظم مينات الدنيا فتغلب ألبوكرك على هذه المدينة سنة ١٥١٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩١٦ من الهجرة) وجعلها مقر الحكومة وعما قليل وصلت اليها تجارة مدينة كلكته واموالها وهجرت مينا هذه المدينة

فلما تمكنت شوكة البرتوغال فى خليج العرب والفرس وفى ساحل ملبار قصد ألبوكرك أن يوسعها فى شرقى آسيا فترك جزيرة سيلان التى كان ألميدا ابتدأ فتحها وانهاه البرتوغال فيما بعد ولم يتصد لتأسيس نزلات وقبائل فى ساحل كرومندل لانه كان خاليا عن المينات ولا يتأتى للسفن أن ترسو عليه فى مدة من السنة ولم تؤسس فيه قبيلتا سنت تومة ونيغبتام الابعده وعزم على أن يذهب ليتغلب على مدينة ملقا الواقعة فى شرسونيزة الذهب (شبه جزيرة ملقا) وكانت اذذاك اشهر اسواق الهند وكان قد قتل بها جماعة من تجار البرتوغال فتعلل بذلك ألبوكرك وقصد الاغارة عليها فوصل اليها سنة ١٥١١ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٢٧ من الهجرة) وكان قدومه متوقعا فقاومته مدة مقاومة شديدة ثم ظهر عليها بشجاعته وانتقم من اهلها بذبح كثير منهم ذبحا ذريعا وبعد أن استولى على المدينة وعلى خزائنها مكن فتوحه بتشييد حصن منيع فكان اخذ ملقا وقتل اهلها سببا فى ايقاع الرعب والفزع من البرتوغال فى الاقطار الدانية والقاصية فقد أرسل ملوك سيام وبيغو ونرزنغ وويزاپور الى ألبوكرك يهنونه بالنصرة وفتح تلك المدينة وما ذاك الالما لحقهم من الخوف والفزع منه وعرضوا عليه التجارة فى بلادهم وطلبوا منه محالفة الدولة البرتوغالية وكذلك الزامورين فانه اذعن لتلك الشوكة القاهرة التى كان يذعن اليها قطر الهند بتمامه ورضى أن يبنى البرتوغال حصنا يشرف على مدينة كلكتة وفى هذا الوقت انفصلت فرقة مراكب من الدونما الكبيرة ووصلت الى جزائر الملوك فلم تتأخر هذه

الجزء الرابع عن الانتظام في سلك الاقاليم البرتوغالية

ولما عاد البوكرك من غزوة ملقا تم انقياد ساحل مليار وكان اهله قد اغتنموا فرصة غيبته ليسترجعوا بعض حريتهم وحيث كان يرى ان التجهيزات الحربية تخرج من مصر على الدوام عزم على تخريب مينا السويس حتى تنتهي اغارات المصريين فدخل البحر الاحمر الا أن اخطار الملاحة في هذا البحر ومشاقها اجبرته على العدول عن هذه العزيمة وبعد أن ابدى الاشغال الكثيرة وكابد المشاق الشديدة حصل له ما يحصل عادة للابطال وفحول الرجال حيث وشى به بعض الحساد الى الملك فمات مغضوبا عليه بمدينة غوا في ١٦ من شهر دقبر سنة ١٥١٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٢١ من الهجرة) ولم يترك هذا الفاتح لكثير من الممالك اموالا وانما ابقى في اذهان الهنود السيرة الحسنة والذكر الجميل فهم دائما يذكرون فضائله وتنزهه عن الاغراض ومكثوا مدة طويلة بعد موته وهم يذهبون الى قبره ويتظلمون له من جور خلفائه كأنهم يسألونه النصفة منهم

ثم تقلد العمل بعده لوبيس سوارز دلبرغاريا فشرع سنة ١٥١٦ وسنة ١٥١٧ من الميلاد (الموافق ذلك لنحو سنة ٩٢٢ وسنة ٩٢٣ من الهجرة) في عدة غزوات مختلفة على سواحل العجم والعرب وفي البحر الاحمر ولم يكن لذلك ثمرة ولا منفعة وفي سنة ١٥١٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٢٤ من الهجرة) قصد جزيرة سيلان وكانت منقسمة الى تسع ممالك اعظمها مملكة كولمبو فجبر ملكها على دفع الخراج وبنى في بلاده قلعة حصينة ثم تولى بدله في هذه السنة بعينها ديجو لوبيس دوسكيرا وكان البرتوغال في اوائل حكم سوارز قد نجزوا ما كان عزم عليه لوغوان ألبوكرك من فتح باب مراسلة ووصلة بينهم وبين الصين فسافر فرديننددندرياد بفرقة من سفن الدونما قاصدا بلاد الصين واخذ معه ايلجيا سفيرا من الدولة البرتوغالية يقال له توماس بيريز فوصل

هذا السفير الى مدينة بكين (تخت الصين) وسلك كل من الاميرال (يعني فرديننـد) والسفير مسلك الحزم وحسن المعاملة فاستمالا بذلك قلوب الصينيين حتى وثقوا بهما وركنوا الى امانتهما وأذنوا للبرتوغال أن يطوفوا السواحل الصينية ويتجروا فيها فبينما كانت مينات الصين كلها آخذة في قبولهم والترخيص لهم في التردد اليها اذ قدم سيمون دندرياد اخو فرديننـد بفرقة اخرى من السفن ارسله بها سكيرا فلم يحسن سيمون المذكور المعاملة مع الصينيين بل عاملهم كما عامل البرتوغال امم الهند التي غلبوها فاغتاظوا من ظلمه وسلبه وجهزوا دونما كبيرة وطردوا هؤلاء الاجانب لو قاحتهم وقلة حيائهم بعد أن كانوا في مبدأ الامر لاقوهم ملاقاة الاحباب وسجن سلطان الصين توماس بيريز حتى مات في السجن وصارت الامة البرتوغالية ممنوعة من دخول بلاد الصين عدة سنين ثم لان لهم الصينيون ورخصوا لهم في التجارة بمينا سنسيام فلما طرد البرتوغال من جزيرة مكاو رجلا من اهل الصيال كان ينغص على السواحل والمينات الصينية انعم عليهم السلطان بتلك الجزيرة مكافأة لهم على هذا الصنيع فبنوا فيها مدينة صارت عما قليل عامرة زاهرة وقد نفعتهم هذه المدينة في التجارة التي احدثوها بعد ذلك بيسير في جزائر يابونيا وذلك أنه في سنة ١٥٤٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٩ من الهجرة) ألقت الرياح العاصفة سفينة من سفنهم على سواحل هذه الجزائر الشهيرة فقوبلوا فيها بالترحيب والاكرام فكان ذلك فتح باب جديد لدعوة دعاتهم وتجارة تجارهم

واعظم ما وقع من الحوادث في ايام سكيرا الذي عزل عن العمل سنة ١٥٢١ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٢٨ من الهجرة) وتولى بدله ايدوارددومانيزس هي تجريدة في البحر الاحمر وقيام في جزيرة سيلان اخمدت ناره في اسرع وقت وحرب مع ملك يازاميرديو وسفر سيمون دندرياد الى الصين وفي ايام ايدوارد المذكور امر ملك هرمز بقتل جميع من في بلاده من البرتوغال ونفذ أمره وترتب ايضا على ظلم المتغلبين (يعني

البرتوغال) أن قامت عليهم جزيرة ترناتة احدى جزائر الملوك التى كانوا قد بنوا فيها حصنا

وفى سنة ١٥٢٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣١ من الهجرة) ارسل الملك يوحنا الثالث خليفة ايمنويل بقصد اعادة الانتظام الى بلاد الهند وسكودوغاما بلقب نائب الملك ومعه دونناعة سفنها ست عشرة سفينة وكان هذا الملاح الشهير اهلا لهذه المأمورية وجديرا بها الا أنه مات بعد وصوله الى تلك البلاد بمدة يسيرة سنة ١٥٢٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٢ من الهجرة) وفى سنة ١٥٣٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٥ من الهجرة) نقلت بقايا جثته الى بلاد البرتوغال ودفنت هناك مع الاحتفال اللائق بامراء العائلة الملوكية وخلفه على منصب النيابة دون اريك ذومانيزس فكان اول ما فعل تنظيف بحور الهند من اهل الصيال الذين كانوا منذ مات لوغران ألبوكرك ينغصون على ركاب تلك البحور ثم عاقب زامورين كلكتة لكونه فعل معه ما اوجب تظلمه منه وعرف كيف يضبط البرتوغال بادارته المتينة العادلة ويقمع اعداءهم بأسلحته الهائلة وكان قد جهز تجهيزا كبيرا لم يكن يعرف المقصود منه حتى صارت منه جميع بلاد الهند فى حذر واستيقاظ وبينما هو كذلك اذ اخترمته المنية سنة ١٥٢٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٣ من الهجرة) وتقلد بالعمل بعده كل من بدرومسكرناس ولو بيزدوسنبايو وتلقب كل منهما بلقب نائب الملك فهزم مسكرناس ملك بنتام وألزمه بدفع الخراج ولورضى بالحرب الداخلى لفاق بفخر هذه الغزوة قرينه ولكنه آثر على ذلك تفويض الامر فى حقوقه ودعواه لثلاثة عشر قاضيا يحكمون فى شأنها وحيث كان انتخاب اغلبهم من اتباع سنبايو قضوا لصاحبهم على مسكرناس وارسلوه الى بلاد البرتوغال وفى ايام سنبايو أحرق دون جرسى هنريكيز مدينة تيدور (قاعدة جزيرة تيدور التى هى احدى جزائر الملوك) بعد أن عقد مع ملكها

مشارطة الصلح وسمه وسلك مسلك الجبر والقساوة فى سائر جزائر الملوك حتى اوقع فى القلوب هيبة اسم برتوغال وكذلك دون جرجى دومانيزس فانه سلك هذا المسلك مع اهل هذه الجزائر وهزم سنبايو نفسه دونغا للزامورين وأحرق مدينة بركا وانتصر على قبودان ديو وفى سنة ١٥٢٩ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٦ من الهجرة) تولى بدله نونيودا كونيا الذى كان سببا فى ازدياد كراهة الهنود للبرتوغال بما صدر عنه من التخريبات المهولة فانه أحرق كثيرا من مدنهم واستولى سنة ١٥٣٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٤ من الهجرة) على مدينة ديو وكان ملك كنبايت قد اذن له أن يبنى فيها قلعة ثم حاصرها العثمانية سنة ١٥٣٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٥ من الهجرة) فدافعهم عنها حكمدارها المسمى انطوان دوسلوبرا واتلف الدنغا العثمانية وفى اثناء ما كان نونيودا كونيا يستعد لارسال مدد لاعانة هذا الحكمدار الذى عرف كيف يستغنى عنه ورد له امر من طرف دولته بالعود الى بلاد البرتوغال فرجع اليها بعد أن حكم فى بلاد الهند عشر سنوات واقيم مقامه فى النيابة عن ملك البرتوغال دون جرسى دونورونيا وفى ايامه وكذلك فى ايام اسطوان دوغاميت وألفونس دوسوزا الذين تعاقبوا فى الولاية بدون تراخ ولامهلة كثرت العلامات الدالة على انحطاط شوكة البرتوغال فى قبائلهم ونزلاتهم وذلك أن هذه الملة الصغيرة (يعنى الدولة البرتوغالية) لما رأت نفسها قد استولت دفعة واحدة على اعظم تجارات الدنيا ثروة واتساعا تفرغت الى ذلك بالكلية حتى صار اهلها عما قليل ما بين تجار ووكلاء تجار وملاحين فهلكوا من طول الاسفار فى البحار وكانت هذه الملة ايضا قد فقدت اساس الشوكة الحقيقية وهو الزراعة والحرف والصنائع والسكان حتى لم يبق فيها بين التجارة وطرق استمرارها مناسبة وقد ارتكبت من الخطأ ما هو أعظم من ذلك وهو أنها تشبثت بالفتوح حتى صار تحت يدها اراض واسعة بحيث لا يمكن أن تحكمها

الا وتضمحل وتضعف قواها واستنكفت أن يكون بينها و بين امم افريقة وآسيا ارتباط ولحمة نسب اما لمانع دينى او كبر أهلى (يعنى أنها رأت أن هذه الامم ليست كفؤا لملتها) ولما لم ترض بمشاركتهم فى الوطن (اى لم ترض بمشاركتهم فى المزايا الاهلية بحيث يكونون جميعا كأنهم اهل بلدة واحدة) التزمت أن تعاملهم معاملة الاعداء وبتداول الازمان انضم الى هذه الاسباب الاولية المفضية الى الخراب والدمار اختلال الادارة وسوء التدبير وجور الغلبة والانتصار فان ظلم البرتوغال وكراهة الناس لحكومتهم وفساد اخلاقهم كل ذلك كان قد بلغ مبلغا لامزيد عليه وكانت شجاعتهم قد ضعفت بالتدريج وتلاشت شهامتهم بتتبع الرفاهية والرخاوة وانما عادت لهم قوتهم مدة يسيرة من الزمن فى ايام دون جوان دو كسترو اى دون يوحنا الذى تقلد بالنيابة سنة ١٥٤٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٥٢ من الهجرة) ولما انتصر هذا النائب على ملك كنبايت وفتح مملكة ديو عزم على أنه اذا رجع الى غوا يعمل لجيشه تشريفات موكب النصرة على منوال القدماء معتقدا أن هذه التشريفات تهيج حمية البرتوغال الحربية وأن بهجة هذا الموكب تؤثر فى عقول الامم المغلوبة بحيث يصير لها وقع فى قلوبهم فدخل غوا سنة ١٥٤٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٥٤ من الهجرة) راكبا عربة فاخرة وخلفه جنرالات الاعداء وعساكرهم المأسورون فكان ذلك حاملا لملكة البرتوغال على أن تقول فى حقه انه انتصر انتصار النصارى واحتفل احتفال عبدة الاوثان وكان موته سنة ١٥٤٨ ميلادية (اى نحو سنة ٩٥٥ هجرية) بين يدى سنت فرنسيس اكساويير فى الوقت الذى ورد له فيه الامر بالاستمرار وزيادة اجل النيابة ثلاث سنوات.

وما احياه كسترو المذكور فى البرتوغال من القوة والشهامة لم يمكث مدة طويلة فان النواب التسعة الذين تعاقبوا بعده على منصب النيابة من سنة ١٥٤٨ الى سنة ١٥٦٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٧٦

من

من الهجرة) لم يكن فيهم احد جامعا بين المعارف والفضائل اللازمة لجبر خلل الفساد العام اوتداركه ومنعه حيث كان البرتوغال اذ ذاك قد بلغوا فى اختلال الحال النهاية ووصلوا فى عدم الانتظام الى الغاية حتى صاروا بذلك غرضا لسهام البغضة والكراهة فى جميع الاماكن وتعصبت عليهم عصبة تعاهدت مع بعضها على طردهم من بلاد المشرق ودخلت جميع دول الهند القوية فى هذه العصبة ومكثت نحو ثلاث سنوات اواربعة وهى تتجهز خفية لقتالهم وتتأهب لمحاربتهم فلما بلغ ذلك ديوان لشبونة بعث سيبستيان وكان حينئذ ملكا على البرتوغال الى بلاد الهند دون لويز داتيدة وارسل معه جميع من امتاز من البرتوغال فى حروب اوروبا بالشجاعة وحاز فيها الشهرة والبراعة فابدى أتيدة المذكور من المهارة والنجابة ما يوازى الموانع التى هو مبعوث بصددها وظفر بجميع اعدائه وأعاد بلاد الهند الى ربقة الاسر وذل الحكومة وضم الى فخر الاسلحة فخر حسن الادارة حيث تصدى لدرء مفاسد البرتوغال ومنع ما كانوا عليه من الخلل واعاد الى البلاد حسن النظام واصلح طرق الادارة وأحسن مناهج التدبير ولكن هذا التغيير الحسن انما كان بقريحة هذا الرجل العظيم وكانت مدة نيابته اربع سنوات فقط فلم تكن كافية فى تمكن هذا التغيير وثباته بل بعد هذا الامير ارتج ثانيا بيت العظم البرتوغالى بالبلاد الهندية وتزعزع * وتداعى بنيانه العجيب وتصدع * وآذن بالانهدام من جميع الجهات * وآل الى السقوط فى سائر الاوقات * ولم يزل كذلك حتى جاء فيليبش الثانى (ملك اسبانيا) ورماه آخر رمية بسهام التغلب على البلاد البرتوغالية * ونبال الادارة البولينقية * فسقط وانهار * وانتهى امره الى الدمار * وكان استيلاء فيليبش المذكور على بلاد البرتوغال سنة ١٥٨٠ ميلادية (اى نحو سنة ٩٨٨ هجرية)

(الفصل الثالث)

فى تاريخ امريقة الى موت كرستف كلب (وذلك من سنة ١٤٩٢

الى سنة ١٥٠٦ من الميلاد (اى من سنة ٨٩٨ الى سنة ٩١٢ من الهجرة تقريبا)

هذا الجنويزى الشهير الذى كأنه انشأ دنيا جديدة لم تكن تعرف الى عصره كان قد ألهم من صغره التولع بفن الملاحة فقد بعثته الرغبة فى هذا الفن على التشبث به وهو فى سن اربع عشرة سنة فمارسه حتى فاق فيه الاقران ووصل به فى الفخار الى اعلى مكان وذلك أنه بعد أن حاز الشهرة فى بعض غزوات بحرية دخل فى خدمة الدولة البرتوغالية لأن هذه الملة الصغيرة التى أبدت اذذاك اشياء عظيمة وامورا جسيمة كان لها مشروعات فاخرة دعت الى تلك الدولة كل من كان له رغبة فى نيل الفخار وميل الى الحوادث وقد جعل كلب دار اقامته مدينة لشبونة وتزوج فيها بنت برتلى برستريلو احد قبودانات البرتوغال الذين استكشفوا جزيرتى بورتوسنتو ومادرة فاكتسب من خرطات هذا الملاح الماهر ووقائع اسفاره اليومية معارف مفيدة وفوائد جديدة وبكثرة اسفاره الى الجزائر الخالدات وجزائر اسورة والى النزلات المختلفة التى كانت للبرتوغال فى افريقة صار من احسن بحارة اوروبا ولما لم يكتف باقتفاء اثر أسلافه ومتابعة اهل عصره عزم على استكشاف طريق اخرى الى بلاد الهند غير الطريق التى كانت الدونمات البرتوغالية اذذاك قد سعت فى فتحها الى تلك البلاد

وذلك أن البرتوغال اذ ذاك كان قد تيسر لهم اجتياز الرأس الاخضر ووصلوا مع المشقة الى خط الاستواء وكانوا يؤملون أنهم يطوفون افريقة ثم يصلون الى الهند من الجهة الشرقية ولكن لو فرضنا أنهم يستكشفون فى الجهة المذكورة هذه الطريق التى كانت مجهولة الى ذلك الوقت لكان طول مسافتها ومشقة قطعها داعية الى تحقق خطرها والتردد فى نجاح سلوكها فرأى كلب بعد امعان النظر وكثرة التأمل أنه يمكن استكشاف طريق مستقيمة اقصر منها وأن من سار جهة الغرب فى البحر الاطلنطيقى يجد بلاد مرية بلادا جديدة وهى على رأى كلب تكون جزأ من اراضى الهند القارة

الواسعة * ثم ان هذا الرأى الذى بنى فيه الامر الصحيح (وهو استكشاف البلاد الجديدة) على اصل فاسد نشأ له من عدة اسباب وذلك أنه كان من المعلوم أن الارض كرية الشكل وأن مقدار جرمها محدود ومع التدقيق والضبط فيستنتج من ذلك عقلاً أن اوروبا واسيا وافريقة ليست الاجزاء من الكرة الارضية وأن الارض القارة الواقعة فى النصف المعروف من الكرة يلزم أن يوازيها ارض قارة اخرى فى النصف المقابل وقد عضد هذا الاستنتاج العقلى كما قال روبيرتسون بما ابداه ارباب الملاحة من الملحوظات والتخمينات فمن ذلك أن ربانا برتوغاليا توغل جهة الغرب اكثر من غيره من اهل ذلك العصر فوجد قطعة خشب منقوشة عائمة على الماء تدفعها نحوه ريح غربية فاستنتج من ذلك انها آتية من بعض اراض مجهولة واقعة فى تلك الجهة وكذلك بعض اصهار كلب وجد فى غربى جزيرة مادرة قطعة خشب ترى فيها صنعة النوع الانسانى والريح المذكورة تدفعها اليه وكثيرا ما شوهد على سواحل جزائر أسورة بعد هبوب رياح غربية مكثت مدة من الزمن اشجار مقلوعة وشوهد ايضا ذات مرة جثتا رجلين ميتين لا تشبه سحنة وجوههما سحنة اهل اوروبا وافريقة

فبهذه الملاحظات امل كلب استكشاف اراض جديدة غير أنه اغتر ببعض ملحوظات ظاهرية فاعتقد أن هذه الاراضى يلزم أن تكون من ارض الهند القارة وقد تجاسر بعض مؤلفى اليونان على تخطيط الاقطار الواقعة خلف نهر الكنك مع جهلهم لها وجعلوا لها امتدادا عظيما فان المؤلف تتزياس ونيارك وأونيزقريطة وبعده المؤلف بلينوس الطبيعى ظهر منهم التنافس فى توسيع تلك الاقطار وفى القرن الثالث عشر من الميلاد توغل الشهير مرقوبول فى آسيا المشرقية اكثر من اسلافه من السياحين وتبين من تخطيطاته البديعة العبارة لمملكتى قاثاى وسينغو وعدة ولايات اخرى ما يدل على اثبات مبالغات الاقدمين بالنسبة لامتداد بلاد الهند فاستند كلب الى هذه التخطيطات الباطلة واستنبط منها مع

فسادها أن ارض الهند القارة من حيث امتدادها جهة الشرق يلزم أن تكون بالنظر لشكل الارض الكرى قريبة من الجزائر القريبة العهد بالاستكشاف فى غربى افريقة وأن المسافة التى بين آسيا وهذه الجزائر يلزم أن لا تكون طويلة جدا وأن اقصر الطرق واعظمها استقامة من اوروبا الى الاجزاء المتوغلة فى الشرق من هذه البلاد الكبيرة (يعنى بلاد الهند) هى أن يركب المسافر البحر ويسير فيه من جهة الغرب وفى كلام بعض قدماء المؤلفين كأفلاطون وارسطو وسنيكة ما يصلح مستندا لمذهب من يقول بقرب بلاد الهند الى الاجزاء الغربية من الارض القارة

وكان لابد لكلمب فى تنجيز غرضه من حماية دولة من الدول تقوم بمصاريف المشروع الذى تصدى اليه فخطر له اولا أن يجعل فخار ذلك لوطنه حيث كان مع غيبته عنه لم يزل يحبه ويحن اليه لكن لما لم تجبه مشورة السنت الجنويزية الى مطلوبه حيث ردت عريضته وعدتها من الهوس والهذيان قصد دولة البرتوغال التى اتخذ ارضها وطنا له فقابله ملكها يوحنا الثانى بالترحيب والاكرام وفوض النظر فى قضيته الى دييغو أورتيز اسقف مدينة سبتة واثنين من اطباء اليهود كانا يعرفان علم القسمغرافيا (اى علم هيئة الدنيا اورسم العالم) ولبئس القضاة فى هذه المادة هؤلاء الثلاثة فان دييغو وصاحبيه كانوا منذ مدة طويلة قد اختاروا فى مسئلة وجود الطريق الموصلة الى الهند مذهب البرتوغال المباين لمذهب كلمب الذى عرض عليهم لاجل النظر فيه فلو استصوبوا مذهب كلمب المذكور لعد ذلك منهم ردا على انفسهم ورجوعا عن المذهب الذى اختاروه ولو أنهم لم يتجردوا من الاوصاف الجميلة الا عن شرف النفس الذى يورث صاحبه ما يثقل على غيره من الفضل والتقدم لما عيب عليهم الا بالهفوات الملازمة عادة للغرور لكنهم ارتكبوا مالوحكاه حاك لنجر فانهم لم يقتصروا على تاخير قرارهم فى هذه المادة حتى قلق كلمب وعيل صبره من مطالهم وبطئهم بل

تعصبوا

تعصبوا وتواطئوا على أن يسلبوا منه فخار هذا المشروع الذى تصدى اليه
ويجردوه عن فوائده ويحوزوا ذلك لانفسهم ودخل فى هذه العصبة الذميمة
يوحنا الثانى حسبما اقترفوه بذلك ونسى ما كان يعهد فيه من مكارم
الاخلاق وبعثوا سفينة أمروا ملاحيها بالسير فى الطريق التى عينها كلب
فلما خشى رئيسها من اختلاف الرياح عاد الى اشبونة وشنع على
هذا المشروع الذى لم ينجح فيه ووصفه بأنه شديد الخطر وأنه ليس الامن
الهوس والجنون قائسا ادراكات كلب العالية الناشئة عن براعته وجودة
قريحته على شجاعة نفسه (التى تبين خلافها)
فادرك كلب من ذلك غيظ شديد وحق له أن يغتاظ ففارق البرتوغال
وتوجه الى اسبانيا فى اواخر سنة ١٤٨٤ من الميلاد (الموافقة
لنحو سنة ٨٨٩ من الهجرة) وبعد ذلك بقليل جلس هنرى السابع
على كرسى انكلترة فبعث له كلب اخاه برتلى ليتفاوض معه فى هذه
المادة وذهب هو بنفسه لعرض مقصده على فردينند وايزابلة (ملكى
اسبانيا) وكانا وقتئذ مشتغلين بقتال المغاربة ومع ذلك قابلاه بنوع بشاشة
وحسن التفات وفوضا النظر فى قضيته الى فردينند دوتالاويرة صاحب
اعتراف الملكة ايزابلة فبحث عن هذه المادة بما يكشف عنها الغطاء
مع الصداقة وحسن النية وراجع فيها الاسبانيول الذين لهم بها المام
اكثر من غيرهم ولكن مضى على كلب خمس سنوات وهو يرد المناقشات
والاعتراضات التى كان يوردها عليه المنوطون بالنظر فى تلك القضية ويبين لهم
من المعارف ما تزول به جهالتهم وتستنير به عقولهم ولكنه لم يخرج من ذلك على
طائل فانه بعد هذه المدة لم يحكم له بما يوافق اغراضه حيث افاده فردينند
وايزابلة أنهما لا يمكنهما أن يشتغلا بشئ قبل انتهاء الحرب مع المغاربة
ومع ذلك لم تفتر همة كلب فى هذا المعنى بل لما سئم من الملوك قصد دوقى
مدينة سدونيا ومدينة سيلى لأنهما وان كانا من جملة الرعايا الا انهما
كانا يملكان من الاموال ما يضاهى اموال الملوك لكنهما لم يجيباه الى مالم

يجيبه اليه الملك امالكونهمالم يتحقق عندهـماصدق قوله اولكونهما خشيا أن ذلك لايعجب سيدهما (يعنى الملك)

وقد ازداد بكلمب الغم والحزن لما لم يصل اليه خبر عن اخيـه وكان من امر اخيـه المذكور أنه خرج عليه ارباب الصيال فى البحر فقبضوا عليـه ومكث عندهم اسيرا عدة سنوات فاراد كلمب التوجه الى انكلترة فبينما هو يستعد لذلك اذ ترجاه فى تاخير السفر جوان بيريس (ويقال حنا بيريس) وكان امام الدير الذى تربى فيه اولاده وكان قد تطرف فى مذهب كلمب واختبره حتى تحقق صحته فكتب لايزابيلة كتابا حملها فيه على أن تلتفت الى مقصد كلمب العظيم الذى لم يخطر لاحد قبله فأثر فيها قوله وأذعنت لما ابداه لها من الادلة والبراهين ودعت كلمب الى الحضور ثانيا فى الديوان فوجد له هنالك احزابا تعينه وتشد عضده وكان اقواهم ألونزودو كنتنيله مفتش دفاتر المالية بمملكة قسطيلة وسنتنجيل جابى الايرادات القسيسية بمملكة اراغون ولكن خابت مساعيهم فى ذلك لما كان قائما بالملك فردينند من الاوهام حيث كان من طبعه الاحتراس واساءة الظن حتى ان ايزابيلة بعد أن تصدت اولا لاعانة كلمب تخلت عنه دفعة واحدة وأبطلت المذاكرة فى قضيته فبهذا مكث كلمب مدة طويلة وهو يكابد ما لامزيد عليه من المشقة فى تحمل اهواء هذا الديوان الذى كان لايستقر على حالة واحدة وصار لايتفكر الا فى الرحيل الى انكلترة كما كان مصمما عليه قبل ذلك

وفى هذا الوقت (اى فى سنة ١٤٩٢ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٨٩٨ من الهجرة) سلمت مدينة غرناطة فعند ذلك انتهز الفرصة كل من كنتنيلة وسنتنجيل وبذلا اخر مجهودهما فى قضاء حاجة كلمب عند ايزابيلة فنجحا فى سعيهما حيث ازالا عنها ما كان قائما بها من الخوف والحيرة فدعت كلمب الى الحضور ايضا وسمحت نفسها بان ترهن ما فى حوزتها من الالماس والجواهر حتى تحصل من الاموال ما يلزم لهذه الارسالية لأن خزائن اموالها كانت اذذاك على حالة سيئة ولكن التزم

سنتنجيل

سنتجيل بأنه يقوم حالا بدفع المبلغ المحتاج اليه وكان كلب قد خرج من اسبانيا خروج المصمم على عدم الرجوع فأدركه فى الطريق ساعى ازابيلة فبادر بالعود الى مدينة سنتافه وكانت بها وقتئذ الدائرة الملوكية فبعد حصول مذاكرات قليلة وضع الملكان فردیننىد وازابيلة امضاءهما فى سابع عشر ابريل سنة ١٤٩٢ ميلادية على معاقدة تتضمن أنهما بوصف كونهما ملكى المحيط قلدا كلب منصب الاميرال الاعظم على جميع البحار والجزائر والاراضى القارة التى تصدى لكشفها وأن هذا المنصب يكون وراثياله ولعائلته من بعده وقلداه ايضا بمنصب النيابة عن الملك فى جميع مايكشفه من الاراضى وأن هذا المنصب ايضا يكون له ولعقبه من بعده وأن مايتحصل من الاموال التجارية فى الاراضى التى يكشفها يكون له عشر أرباحها وأنه مطلق التصرف فى فصل الدعاوى والخصومات التى تتعلق بمادة التجارة وغيرها * ومع أن فردیننىد كان مذكورا فى ورقة المعاقدة لم يكن لمملكته وهى مملكة اراغون دخل فى هذا المشروع بل كان استكشاف الدنيا الجديدة (بلاد امريقة) وفتحها من خصوصيات مملكة قسطيلة لأنها هى التى قامت بجميع المصاريف اللازمة لذلك حتى انه لم يرخص فى الذهاب الى تلك البلاد والتوطن بها فى حياة ازابيلة لغير اهل قسطيلة الا القليل

فبذلك بلغ كلب اقصى مرامه وفتحت له ابواب آماله واستعد لاستيفاء نصيبه من المقادير حيث وافقته على اغراضه مملكة عظيمة الشان بل كانت بنفسها تسارع فى تجهيزات الارسالية ومع سعى هذه المملكة التى كانت له ظهيرا ومعينا جليلا وبذل جهدها فى تحصيل مطلوبه لم يكن فى أهبة الارسالية الا ثلاث سفن لا تعد فى عصرنا هذا الا من الزوارق الكبيرة فركب كلب منها السفينة الاولى التى سماها سنت مارية واما الثانية والثالثة المسميتان لاپنتا ولانجنا فتولى رياستهما ثلاثة اخوة من عائلة يقال لها پنسون وكانوا من اغنياء البحارة وأرادوا المخاطرة مع كلب بأموالهم وانفسهم

وقد بلغت مصاريف هذه الدونمًا الصغيرة ان صح اطلاق هذا الاسم عليها نحو مائة ألف فرنك من النقود الفرنساوية فانظر الى هذا المبلغ الهين كيف ازعج دولة اسبانيا ونالت به دنيا جديدة

ثم ان كلب واصحابه قبل سفرهم تقربوا الى الله تعالى بفعل امر دينى رجاء أن ينزل عليهم سحائب الخير والبركة وذلك أنهم ذهبوا باحتفال عظيم الى دير رو بيدا وتناولوا فيه القربان المقدس من يد امامه المسمى جوان بيريس وفى الغد (الذى هو ثالث اغسطوس سنة ١٤٩٢ من الميلاد) سافر كلب من مينا بالوس قاصدا الجزائر الخالدات ثم توجه منها سالكا الطريق المستقيم الى جهة الغرب وبعد ثلاثة اسابيع من سفره صارت دونمته الصغيرة كأنها ضالة فى لجج محيط مجهول لا يرى له حد ولما نظر اصحابه من الاسبانيول الى المسافة التى قطعوها وفكروا فى عظم مقدارها أحسوا من انفسهم بفتور الهمة وكانوا قد استبشروا غير مرة بالقرب من البر اخذا من عدة أمارات كانوا يتفاءلون بها كطيران الطيور ونحوه فلما لم يصدق فالهم وخابت فيه آمالهم مرارا عديدة استحال رجاؤهم الى اليأس والقنوط واخذوا يلومون انفسهم على كونهم سلكوا فى هذا الامر مسلك المجانين حيث صدقوا هذا الرجل الاجنبى منهم ووثقوا بمواعيده الباطلة ثم صاحوا قائلين لا سبيل الى النجاة الا تعجيل الاوبة بل افضت الجسارة والوقاحة ببعضهم الى طلب القاء هذا الاميرال فى البحر قطعا لتوبيخه لهم ومراجعته اياهم ولكنه مكن غضب هؤلاء العصاة ببديهة رأيه وسرعة خاطره وحذقه ونباهته واستمالته اياهم بلين الكلام فعما قليل اخذ يتحقق عندهم من العلامات ما استدلوا به على القرب من البر حيث نظروا الطيور قد أخذت تظهر اسرابا وتطير جماعات جهة الجنوب الغربى فقصد كلب هذه الجهة وسار نحوها عدة ايام فلم يصادف برا فعند ذلك ايس الملاحون ثانيا وانقطع رجاؤهم بالكلية وأحدقوا بالاميرال المذكور وقد احتدوا واضطربوا وهاجت نفوسهم وهددوه على العود الى اوروبا وكانت المعارضة فى ذلك مع خطرها

لا تجدى

لا تجدى نفعا فمن ثم لما رآى كلب أنه لا قدرة له على قمع هؤلاء العصاة اصطلح معهم والتزم لهم أنه ان لم يجد برا بعد ثلاثة ايام يجيبهم الى مطلوبهم فكان فعلهم هذا هو أشأم امر وقع فى ذلك المشروع وقد كان من الجائز أنهم لا يقترونه على هذا الشرط لما كانوا عليه من الجزع وقلة الصبر لكنهم قبلوه منه وحصل استكشاف امريقة

وذلك أنه فى الليلة الحادية عشرة من شهر اوقطوبر سمع صوت من السفينة المسماة لابنتا وكانت سابقة على غيرها وقائل يقول البر فما جاء النهار حتى رآى الاسبانيول جزيرة مخضرة ذات اشجار وغابات وجداول تروى ارضها فعند ذلك أنشدوا القصيدة المسماة تودوم (وهى قصيدة تتضمن الثناء على الله تعالى) شكرا للمولى على هذا الاستكشاف السعيد ثم بكوا من شدة الفرح والتعجب والشكر وبعد ذلك خروا على اقدام الاميرال متندمين غاية الندم على ما فرط منهم فى حقه وطلبوا منه الصفح والمسامحة على تكذيبهم له ووقاحتهم عليه ووصفوه بأنه ملهم من الله تعالى واعترفوا بأنه يفوق البشر بعد أن جعلوه اولا من اوباش الناس وآساؤوه بالسب والشتم ولما طلعت الشمس تقدمت القوارب كلها جهة الجزيرة ونشرت الاعلام مصحوبة بنغم الموسيقى العسكرية فكان كلب اول من وطئ من اهل اوروبا ارض الدنيا الجديدة فخرج اليها شاهرا سيفه واصحابه خلفه واهل الجزيرة ينظرونهم وكانوا اقدأتوا لرؤية هذا الامر الجديد وقبل الاسبانيول الارض واقاموا بها الصليب ثم احتفلوا وتملكوا على تلك الارض لدولة قسطيلة وليون

وقد سمى كلب هذه الجزيرة بجزيرة سن سلوادور ولكن اكثر شهرتها انما هو باسم غواناهانى الذى يسميها به اهلها المتأصلون وقد ذكر سكانها للاسبانيول أن جزيرتهم محاطة بعدة جزائر اخرى وأن اهلها يقال لهم لوقايوس ومن هذا الاسم اخذ اسم لوقاييس الذى وضع من يومئذ على جميع الجزائر الواقعة فى غربى جزائر انتيلة الكبيرة وشمالها وتنتهى

بخليج بهاما ولما اطلع الاميرال على غواناهاني وجد اغلب اهلها يعلقون في انوفهم صفائح من الذهب وكان ذلك هو زينة سكان تلك الجزيرة وحليتهم فسألهم كلب عن المحل الذي يستخرجون منه هذا المعدن النفيس فأشاروا له الى جهة الجنوب فقصد هذه الجهة واخذ معه جماعة من اهل سن سلوادور فاطلع على عدة جزائر صغيرة فاذا هي لا تزيد في الثروة عن جزيرة غواناهاني ثم آل امره أن استكشف بلادا ذات امتداد عظيم سماها من كان معه في السفينة من اهل الجزيرة باسم كوبا فطاف بعضها وتعجب من خصوبة ارضها لكنه لم يجد فيها من الذهب ما يشفي غليل اصحابه فدله اهل البلاد على جزيرة في الجهة الشرقية سموها باسم هايتي وافادوه أنه يكثر بها هذا المعدن العزيز عند الفرنج فوصلها كلب في سادس شهر دقمبر وسماها اسپانيولة تعظيما للملة الاسبانيولية ووجد عند اهلها من الذهب شيأ كثيرا فبادروا الى مبادلة ذهبهم بهدايا هينة من الاسپانيول كأجراس وخرز من زجاج ودبابيس ومثل ذلك عندهم يعد من الاشياء الجديدة الغريبة ثم انهم افادوا الاميرال بأن هذا الذهب يأتي اليهم من بلاد سيباوو الواقعة في الشرق على مسافة قصيرة من البحر فسار اليها فورا فاذا هي اقليم يحكمه كاسيك اي اميريسمى غواكنهاري وهو أحد الحكام الخمسة المقتسمين للجزيرة فبعث اليه الكاسيك المذكور بالهدايا وطلب منه اجتماعا خاصا في محل مخصوص فقصد كلب هذا المحل ولكن صدمت سفينته صخرا في البحر فأغرقها فعند ذلك فر ملاحوها في زوارق لا نجنا ولما عاين الكاسيك واهل الجزيرة ما حل بهؤلاء الاجانب بادروا الى اسعافهم ومنذ نزل الاسپانيول في الدنيا الجديدة لم يقابلوا فيها الا بالاكرام والملاطفة والمروءة من هذه الملل الباقية على اصل الفطرة التي لا تعرف مكرا ولا خداعا مع أنهم ربما كانوا وقتئذ قد عزموا على استعبادها وتخريب بلادها

وكان كلب اذ ذاك مضطرا الى كرمهم وحسن قراهم فانه لم يبق من سفنه الا اصغرها واشدها تلفا وذلك أن احد الاخوة البنسونية المسمى مرتين

كان قد انفصل عنه بالسفينة المسماة لا پنتا فكان الاميرال يخشى أن يكون هذا الرجل قد رجع الى اوروپا ليكون اول مخبر بنجاح المشروع ويحظى عند الملكة من الفخر والمكافأة بما هو حق مقترح هذا الغرض العظيم فكان قلقه واشتغال باله بهذا الامر باعثا له على الرجوع الى اوروپا بدون تاخير غير أنه لما رآى أنه يشق عليه حمل جميع الملاحين فى سفينة واحدة قد ساء حالها اضطر الى أن يترك فى الجزيرة جماعة من اصحابه ليتعلموا لغة اهل تلك البلاد ويعرفوا طبائعهم واخلاقهم واسترضى اهلها فى ذلك بكونه التزم لهم بالاعانة من طرف الاسپانيول على ملة الكرايب وهى ملة ذات شجاعة وميل الى الحروب تأكل لحوم الآدميين كانت فى الغالب تسطو على جزيرة هايتى وتخربها فبنى الاسپانيول هنالك حصنا بقصد الاقامة فيه وشاركهم اهل الجزيرة مع النشاط والحمية فى بناء ذلك الحصن الذى هو اول آثار استعبادهم ووضعوا فيه المدافع الكبيرة التى بقيت بعد غرق سفينة الاميرال ثم ان كلب اراد أن يقوى ما فى اذهان اهل الجزيرة من هيبة الاسپانيول فبين لمن هو نزيلهم بواسطة تجارب غير مضرة صنعها مع اصحابه أمامهم قوة الاسلحة الفرنجية من رماح وسيوف وبنادق فلما رآى دهشتهم من ذلك وفزعهم امر باطلاق مدافع الحصن فدهشوا لذلك دهشة عظيمة وانكبوا على وجوههم واعتقدوا من وقتئذ أن هذه الامة المتسلحة بالبرق والصواعق التى ترمى بهما متى شاءت لا يمكن قهرها ولما صار الاسپانيول بذلك على حالة بحيث لا يمكن أن يكون لهم فى هذا الشاطئ عدو الامن انفسهم اوصى كلب من تركه منهم فى الشاطئ المذكور أن يداوموا فى غيبته على الاتحاد والالتئام ووعدهم أنه يعود اليهم سريعا ثم حل الشراعات وسافر فى رابع ينويه سنة ١٤٩٣ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٩٩ من الهجرة) واخذ معه جماعة من اهل الجزيرة بل وواحدا من اقارب الكاسيك وبعد ذلك بأيام اجتمع بالسفينة المسماة لا پنتا التى كانت انفصلت عنه منذ ستة اسابيع ولم يزل

على البهولة والصين فى سفره الى رابع عشر فبريه وبينما هو قد قطع مسافة خمسمائة فرسخ فى البحر الاطلنطيقى اذ خرجت عليه ريح عاصف وفرطونة مهولة فلما خاف الغرق الذي به تنقطع حياته ويضيع اخباره كتب وهو فى وجل من هول هذه العواصف قصة سياحته واخبار سفرته سالكا فيها مسلك الايجاز ولفها فى قطعة من المشمع ووضعها فى برميل وألقى البرميل فى البحر واودعه للامواج رجاء أن تقذف الريح بهذه الوديعة النفيسة الى شاطئ من الشواطئ فينتفع بها الناس ولكن لاحظته عين العناية الالهية وتعلقت الإرادة الازلية بفسحة الاجل لهذا الرجل العظيم الذى ارشدته الى الاستكشافات العجيبة من بين الموانع الكثيرة والعوائق العديدة فسكنت الرياح شيأ فشيأ وهدأت الامواج وفى عشية اليوم الخامس عشر من شهر فبريه رسا كلمب على جزيرة سنت مارية احدى جزائر أسورة ثم رحل عنها حين ساعدته الرياح فلما صار من اسبانيا على مسافة قليلة هبت عليه ريح اخرى عاصفة جبرته على الدخول فى نهر تاجه فاستأذن فى الذهاب الى اشبونة فأذن له وقوبل فيها بالترحيب والاكرام ولما دخل عند الملك قص عليه قصته فتعجب من حكايته وتأسف على ماوقع له وقد انشرح صدر كلمب ببيان نجاح مقاصده لمن كانوا ينكرونها فى هذه الاماكن التى عدت فيها تلك المقاصد من الهوس والهذيان ومع ذلك حمله فرط رغبته فى مشاهدة اسبانيا على التوجه اليها بعد قليل من الزمن فوصل الى مينا پالوس فى خامس عشر مارث وكان قد مضى عليه منذ فارقها سبعة اشهر واحد عشر يوما

ثم سار من هذه المينا الى مدينة برسلونة وكان بها وقتئذ فرديننند وايزابيلة وصار يهرع اليه الاهالى فى طريقه من سائر الجهات ويبالغون فى الثناء عليه ويصفقون تصفيق المسرة قال روبرتسون ان فرديننند وايزابيلة امرا أن يكون دخوله فى المدينة بموكب عظيم يلايم هذه الحادثة التى يكون بها الايام مهما بهجة ورونق عظيم وكان فى اوائل الموكب الهنود الذين

اتى بهم معه من امريقة وخلفهم انواع الحلى والزينة الذهبية المصوغة بصياغتهم الخشنية وحبوب الذهب التى وجدوها فى الجبال وكذلك تبر الذهب الذى جمعوه من النهيرات وجملة من انواع محصولات هذه البلاد الجديدة وكان كلمب فى آخر الموكب وجميع الابصار منجذبة اليه وتلقاه فرديننند وايزابيلة وهما على سرير ملكهما وعليهما جميع الشعار الملوكية وفوقهما مظلة فاخرة ولما دنا منهما قاماله ومنعاه من الجثو على ركبتيه لتقبيل ايديهما واجلساه على كرسى كان قد اعدله وسألاه أن يقص عليهما اخبار سفره فقص عليهما القصة مع التواضع مجتنبا فيها التنميق والتحسين ولما اتمها جثيا على ركبهما ليشكرا المولى على تلك النعمة ثم منحا كلمب ما دل دلالة بينة على استحسانهما لفعله وشكرهما لصنيعه حيث أقراه هو وذريته على المزايا المقررة لهم فى معاقدة سنتافه وانتظمت عائلته فى سلك الاشراف ولكن كان احب اليه من ذلك كله هو صدور الامر الذى صدر عن الملكين بتجهيز دونغا اخرى ليسافر بها ويسارع الى استكشافات جديدة حيث كان من طبعه النشاط والميل الى المشروعات انتهى

هذا وقد انتشرت فى جميع بلاد اوروبا اخبار نجاحه فى هذا المشروع فعجبوا لذلك غاية العجب واعقب تعجبهم الرغبة والتولع بهذا الامر فصاروا يتحادثون فى شأن تلك الحادثة العجيبة ويتساءلون اى قسم من اقسام الارض تنسب اليه هذه البلاد التى استكشفت الآن فاضطربت فى ذلك آراء العلماء وكان كلمب لم يزل فى هذه المادة على رأيه الاول فعضد أن تلك البلاد جزء من ارض الهند القارة المتسعة وقد عضد هذا الرأى عدة مشابهات ظاهرية او حقيقية بين محصولات هذين القطرين وطبيعتهما وقالت بذلك الرأى مملكة اسبانيا وغيرها من ممالك اوروبا فجعلت بلاد امريقة جزأ من بلاد الهند ولما تبين فيما بعد خطاهم فى ذلك لم يزل عنها الاسم الاول بل مازالت تسمى بالهند الغربية واهلها بالهنود

ثم ان تجهيزات الارسالية الثانية تمت مع السرعة الناشئة عن الرغبة وقوة

الامل فنزل من المسافرين ألف وخمسمائة شخص فى سبع عشرة سفينة وعين منهم
طائفة للاقامة بتلك البلاد بحيث تكون فيها نازلة اوقبيلة ولم يكتف فرديننـد
وايزابيلة بهذه التجهيزات بل لاجل التمكن من الاستبداد بالاستيلاء على الدنيا
الجديدة لاذا بالبابا اسكندر الرابع فأبرز لهمـا ذلك البابا صاحب الشوكة
المطلقة فرمانا اقطع به لدولة قسطيلة جميع البلاد التى استكشفت والتى
ستستكشف ولكنه خشى أن يكون هذا الاقطاع مناقضا للاقطاع الذى صدر
عنه اوّلا لدولة البرتوغال فنصب حدّا للدولتين برسم خط وهمى من احد
القطبين الى الآخر يمرّ بعيدا عن جزائر أسورة بمسافة مائة فرسخ جهة
الغرب فكان للبرتوغال الجهة الشرقية من هذا الخط وللاسبانيول الجهة
الغربية وبعد هذا التحديد الذى احترس به عن الوقوع فى المناقضة سافر
كلمب فى الخامس والعشرين من شهر سبطمبر سنة ١٤٩٣ من الميلاد
وبعد مضى ستة وعشرين يوما من سفره رسا على احدى جزائر الكرايب
اوجزائر الريح وسماها دزيراده ثم استكشف بعدها جزائر دومنيكه
ومارية غلنتة وغوادلوب وسنت چان دوبورتوريكو وغيرها
وكان على غاية من العجلة فى السير ورغبة فى رؤية قبيلته التى انزلها فى جزيرة
اسبانيولة فلم يقف فى جزيرة من هذه الجزائر وايضا كان يسكن الجزائر
المذكورة اقوام فيهم من القسوة والتوحش والميل الى الحرب بقدر ما وجده
فى اهل جزيرة هايتى من الرفق ولين الجانب فاستمرّ على سيره الى جزيرة
اسبانيولة فلما وصل اليها لم يأت الى مقابلته احد من الاسبانيول فتعجب
لذلك وخرج اليها وهو فى قلق عظيم فوجد الحصن قد اندثر بالكلية وكان
السبب فى ذلك أن الاسبانيول بعد ارتحال كلمب عنهم سلكوا مع اهل
الجزيرة مسلك الظلم والجور فكان ذلك سببا فى تجاسر هذه الامة الخوّافة
وتقوّى قلوبها فان كاسيك سيباوو (يعنى امير هذا الاقليم) المسمى
كوانابو جمع رعاياه وأحاط بالحصن وأضرم فيه النار فهلك بعض العساكر
الذين كانوا يدافعون عنه بسهام العدوّ والبعض الآخر بالنار او بالمياه هكذا

اخبر

اخبر أحد اخوة الكاسيك غواكنهارى الاميرال كلب وكان هذا المخبر
مبعوثا الى كلب من طرف الكاسيك المذكور واخبره هذا الرسول
ايضا بأن أخاه أخذ بثار الاسبانيول وانه هزم كوانابو وان دليل
صداقته للاسبانيول هو كونه جرح فى هذا القتال جرحا لم يبرأ منه الى الآن
فصدقه كلب فى هذا الخبر او أظهر أنه صدقه ورآى أنه ليس هذا وقت
اظهار القسوة والانتقام بل أغضى عن الماضى واشتغل بالمستقبل
فلم يقتصر على بناء حصن كما صنع اولا بل بنى مدينة سماها ازابيلة باسم
محاميته حتى يكون متمكنا من هذه البلاد

وبعد أن أدخل الترتيب والنظام فى قبيلته الجديدة التى ناط بادارتها اخاه
دييغو ترك الجزيرة واستمر على استكشافاته وكان اعظمها جزيرة جمايكه
وجزيرة سنت مرته وفى اثناء ما كان محاذيا للشاطئ الجنوبى من كوبا
وجد نفسه فى تيه متكون مما لا يحصى من الجزائر الصغيرة سماه بستان
الملكة وقاسى ما لا مزيد عليه من الشدائد فى هذه الطريق المجهولة الصعبة
المسلك حيث تأخر فيها بالرياح المخالفة فأدركه من العناء والتعب ما اثقل قواه
الطبيعية واعترته حمى شديدة اعقبها سبات ثقيل حتى صار يخشى عليه الموت
فعاد الى مدينة ازابيلة وهو سقيم فوجد بها اخاه برتلمى الذى فارقه
منذ ثلاث عشرة سنة ففرح بلقائه فرحا به اسرع له الشفاء

وكان من امر برتلمى هذا أنه بعد أن خرج من ربقة الاسر وقع فى الفاقة
والفقر فمكث مدة طويلة فى لوندرة وهو لا يتقوت الا من سعيه وشغله الذى
كان قليل الجدوى فكان يرسم الخرطات ويبيعها ويصرف من ثمنها الهين بقدر
حاجته وصار يجمع ما يفضل منه حتى تحصل عنده بعد مدة مديدة ما اشترى
به ثيابا لائقة بحيث صار يمكنه أن يظهر بها فى الديوان فلما أذن له بالدخول
عند الملك قوبل لديه بالبشر والبشاشة ولكنه تنغص بخيبة آماله ففارق
انكلترة قاصدا فرانسا وطلب من ملكها كرلوس الثامن أن يشمله
باحسانه فاجابه الى ما طلب ووصل الى اسبانيا حين سافر اخوه كلب

بالارسالية الثانية فتبعه فورا بثلاث سفن اعطاها له فردنند وايزابيلا وكانت من الاسعافات النافعة لكلمب

وكان قد اختل امر الضبط والربط مدة غيبة الاميرال فى العساكر الذين تركهم فى القبيلة فانهم فعلوا مع الاهالى من الجبر والقسوة والسلب والنهب ما اوجب حنقهم وغيظهم بل سلك كلمب نفسه مع هؤلاء الاهالى من الغدر والخيانة مسلكا لا يلايم طبيعته حتى افضى بهم ذلك الى اليأس والقنوط وذلك أنه بعد رجوعه تحيل حتى اختطف الكاسيك كوانابو لانه كان يخشى من براعته وميله الى المشروعات وبعثه الى اسبانيا فهبت على هذا الكاسيك المسكين ريح عاصف فاغرقته فكانت هذه الخيانة سببا فى قيام اهل الجزيرة فعزموا على أن يجمعوا بجميع قواهم على هؤلاء المعتدين ويثقلوهم بكثرتهم فوقع اغلب الاخلاط من اصحاب كلمب بعضهم فى مهاوى المهالك وبعضهم فى دائرة التعطيل بحيث صار لا يصلح للخدامة وعاد منهم طائفة الى اسبانيا فلم يبق معه فى التجريدة الثانية الا مائتان من المشاة وعشرون من الخيالة ومثلها من الدرابيس (نوع من الكلاب) المتدربة على الغزو والقتل فكانت مهولة على هؤلاء الاقوام العرايا الابناء وعوضا عن كون هؤلاء الهنود يحاربون الاسبانيول حرب الكمين فى الاجمات والجبال نزلوا فى سهل ويغاربل وهو اكبر سهل فى تلك البلاد فبادرهم كلمب بالجملة (سنة ١٤٩٥ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٠١ هجرية) وكانت له النصرة عليهم على اسهل حالة ولم يسفك فيها دم احد من الاسبانيول وامتثل المغلوبون لدفع الجزية وكان لجميع الكاسيكات مدخلية فى هذه الحركة ما عدا غواكنهارى فانه لم يزل على مودة الاسبانيول ولكنه بعد ذلك بقليل دخل فى عموم الاستعباد جزاء له على هذه الصداقة المورثة للمعرة حيث اتحف بها هؤلاء الطغاة المعتدين على وطنه ثم أنه طرح عن نفسه فيما بعد ربقة هذا الاسر الذى لا يطاق وفر هاربا هو ورعيته الى الكهوف والجبال ومات بها من الجوع والمسكنة

وبينما كان كلب يؤسس حكومة الاسبانيول فى بلاد الدنيا الجديدة كان حسدته من خواص فردينند وايزابيلة يسعون به اليهما بقصد اتلافه فكانوا يذمّون جميع افعاله ومازالوا على النميمة والوشى حتى حملوهما على تقليد وكيل نيط من طرفهما بالذهاب الى جزيرة اسبانيولة ليختبر ادارة كلب هنالك وكان كلب لا ينتظر قدوم هذا الوكيل المحكم الذى اساء به الظن من قبل فسلم ادارة القبيلة لاخيه برتلى بلقب أديلنتادو ومعناه نائب عموم وقصد اسبانيا مؤملا اظهار براءته للملك والملكة فحضر الى الديوان وهو ثابت الجنان مطمئن القلب عليه سكينة وتواضع كما هو شأن كل من لم يرتكب ما يوجب ملامة اومثلبة فخجل فردينند وايزابيلة من كونهما سمعا فيه قول الوشاة وأفاضا عليه سجال الاعتبار والامتياز وأذنا له بدونما اخرى صغيرة وبسائر ما يلزم لتتميم ترتيب قبيلة اسبانيولة وأنزلا فى الدونما المذكورة جماعة مهاجرين فيهم من سائر الدرجات والصنائع ما يقوم بحاجة تلك القبيلة فكان فيهم طائفة كبيرة من اهل الزراعة وفرقة من الصناع الماهرين فى فن استخراج المعادن ولكنهم لسوء الحظ اساؤا السلوك فأفسدوا جميع ثمرات هذه التدبيرات العظيمة وذلك أن كلب لفرط تولعه بعمارة اسبانيولة طلب أن يخرج اليها جميع المذنبين المحكوم عليهم بالليمان اوالموت ليشتغلوا فيها باستخراج المعادن لكن بشرط أن لا تكون ذنوبهم من اكبر الكبائر واشنعها فأجابه الديوان الى هذا الرأى الفاسد ففتحت الحبوس وألقت اسبانيا قاذوراتها على الدنيا الجديدة ورخص فى النفى اليها فى المستقبل لكن فى صور مخصوصة فانظر الى الاسبانيول كيف شرعوا فى تأسيس جمعيات بما يؤدى الى هدمها وخرابها

وبعد أن تأخرت هذه الارسالية عن السفر مدة طويلة بسبب فونسيكه اسقف بدايوز مدير مصالح الهند واكبر اعداء كلب سافر بها هذا الرجل العظيم فى الثلاثين من شهر مايه سنة ١٤٩٨ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٠٤ من الهجرة) ووصل فى غرة اغسطوس الى

جزيرة عظيمة سماها ترينيته (الثالوث) ولم تزل تسمى بهذا الاسم الى الآن وهى واقعة فى ساحل غيانة قريبا من مصب اورينيقة وهو نهر يصب فى المحيط مقدارا عظيما من المياه واذا اصادفت هذه المياه المد قاطعته بقوة اندفاعها الى مسافة عظيمة ويكون لذلك دوى واضطراب مهول فرآى كلب أن مثل هذا النهر لا يمكن أن يخرج الا من ارض قارة عظيمة ولقد اصاب فيما رآى فانه لكثرة اشتغاله بهذا الامر قصد جهة الغرب محاذيا للاقاليم المعروفة الآن باسم باريا وكومانا حتى وصل الى ارض الدنيا الجديدة القارة التى كشف جزائرها قبل ذلك

وفى مدة غيبته نقل اخوه برتلمى الذى كان منوطا من طرفه بادارة اسبانيولة قبيلة ايزابيلة الى مكان أليق من الاول وأسس مدينة سنت دومنغ التى صارت من وقتئذ عامرة آهلة ثم طاف من الجزيرة عدة اقسام مختلفة لم يطلع عليها اخوه كلب ويدخلها تحت الطاعة ثم ان الهنود الذين شملتهم ربقة الاستعباد الذى لا يطاق قاموا ثانيا بل ظهر بين الاسبانيول انفسهم فتنة وقيام اعظم من ذلك واشد وذلك أن فرنسيس رولدان الذى كان كلب جعله ألكادماجور اى رئيس فصل الخصومات فى اسبانيولة كان من طبعه الطمع والميل الى الفتن فحرض جماعة من الاسبانيول على القيام والخروج عن طاعة برتلمى ولكن لتيقظ برتلمى وشجاعته خابت آمال العصاة فذهبوا الى اقليم اكسراغوة ولكنهم استمروا فيه على العصيان وبينما كانت الطاعة لا تخطر لهم ببال اذ وصل كلب الى سنت دومنغ فرآى أن مصالحتهم خير من مقاتلتهم فأعلن بالعفو العام فكان ذلك سببا فى دخول جماعة من الخارجين تحت الطاعة ثم اخذ فى المصالحة مع العصاة فوعد رولدان أن يعيده الى وظيفته واجاب اصحابه من اهل الفتنة الى اغلب مطالبيهم فنال كل منهم اراضى فى جهات مختلفة من الجزيرة وصار هنود كل خط ملزومين بزراعة قدر معلوم من الاراضى لساداتهم الجديدين واقيم هذا الشغل مقام ما كان عليهم من الجزية فهذا هو منشأ

الريارتيمانتوس

الرپارتمياتوس اى توزيع الهنود الذى كان ابتداعه فى هذه الامة السيئة الحظ اصلا لما حل بهم من المظالم والمصائب التى لا تحصى
ولم تطفأ بذلك نار الفتنة بل ما زالت مضطرمة بينهم فكانت ضرورة مراقبة العصاة مانعة لكلمب من السعى فى استكشافات جديدة وارسل الى ديوان اسبانيا يخبره بقصة عصيان اسپانيولة وكذلك العصاة بعثوا الى الديوان المذكور ما يقضى ببراءتهم فذهب الى اسبانيا جملة منهم وتشكوا من كلمب ووصفوه باوصاف غير مرضية وعضد فونسيكة شكواهم لما انطبع عليه من الحقد والعداوة لكلمب فتغيرت بذلك حالة ايزابيلة التى كانت دائما تحامى عن كلمب وآل امرها لكثرة الوشاة وشدة عسفهم أن ارتابت منه وأصغت للوشى واجابت الى تقليد وكيل يذهب الى اسپانيولة لينظر فى احوال كلمب ويختبر ادارته ورخصت له فى عزله ان ثبتت عنده صحة التهمة (وكان ذلك سنة ١٥٠٠ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٠٦ هجرية) وكان هذا الوكيل المسمى فرنسيس دوبواديلا عازما من قبل على أن يجعله مذنبا فأمر بالقبض على الاميرال ووضعه فى السلاسل والاغلال وبعثه الى اسبانيا مع اخويه ووضع فيهما الحديد ايضا فلما بعد كلمب عن منظر الجزيرة عرض عليه الونزودواليو قبودان السفينة التى هو فيها أن يفكه من قيوده عن سماحة وطيب نفس فأبى وقال انها لا تطرح عنى الا بأمر من ملكى ولما بلغ فرديننند وايزابيلة ما لحق هذا الاميرال من الاساءة والمنقصة غضبا لذلك اوأظهرا الغضب فأمرا بفكه من الاغلال وطلباه الى الحضور فى الديوان فاثبت لديهما براءته مع السهولة فعزلا بواديلا ولكنهما لم يعيدا كلمب الى منصب النيابة على البلاد التى استكشفها بل أبقياه فى الديوان متعللين بعلل مختلفة وقلدا بدلا عنه نيقولاس دووندو بحكومة اسپانيولة (سنة ١٥٠١ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٠٧ هجرية) فهذه المنقصة الاخيرة تممت ما كان قائما بالاميرال من الحنق والغضب حتى صار لا يمكنه أن يكظم غيظه بل جعل يحمل

قيوده الى اى محل ذهب اليه ايذانا بكفران الاسبانيول لحسن الصنيع وكان دائما يعلقها فى حجرته واراد أن تجعل فى تابوته وتدفن معه بعد موته ومع هذه المظالم والاساآت كلها لم تضعف رغبته فى الاستكشافات بل شرع (سنة ١٥٠٢ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩٠٨ من الهجرة) فى رحلة رابعة عزم فيها على أن يركب البحر ويتوجه على الاستقامة الى ارض امريقة القارة ولكنه رساعلى اسبانيولة ليبدل فيها سفينة من سفائنه كانت بطيئة السير ويامن هنالك من خطر الرياح العاصفة التى كان يتوقعها بما ظهر له من العلامات المختلفة فامتنع أووندو من قبوله ولم يعبأ بما اشار به عليه من تأخير سفر دونمة مؤلفة من ثمانى عشرة سفينة كانت ذاهبة الى اسبانيا فخرجت عليها ريح عاصف حسبما اخبر به كلب فأغرقتها كلها تقريبا وكان ممن غرق فيها بواديلا وروالدان اللذان كانا اشد أعداء الاميرال كلب واما دونمة الصغيرة فانها سلمت من ضرر هذا الخطر لما أنه كان قد توقع حصوله واحترس منه ثم انه بعد أن سافر مدة طويلة استكشف غوانيا وهى جزيرة مجاورة لساحل هندوراس ثم توجه منها جهة الشرق قاصدا صوب خليج دريان وعرف فى سيره بحذاء الشاطئ الارض القارة من رأس غراسياس اديوس الى مينا پورتو بيلو وخرجت عليه فى تلك النواحى رياح عاصفة مهولة اغرقت سفينتين من سفنه ففارقها وسماها ساحل العوائق ثم هبت عليه ريح اخرى ألجأت سفنه الى صدم شواطئ جمايكه فتكسرت وتلفت فأعطاه اهل تلك البلاد صندلين فخاطر بنفسه كل من منديز الاسبانيولى وفيسشى الجنويزى وكانا من البيكزادات واهما من الارتباط بكلب ماليس لغيرهما ونزلا فى الصندلين المذكورين قاصدين اسبانيولة ليبحثا فيها عن الاسعافات فردهما اووندو خائبين ولم يرجعا الى كلب الابعد ثمانية اشهر ومعهما سفينة اشترياها من جزيرة سنت دومنغ فبادر كلب بالنزول فيها والتوجه بها الى اسبانيا فلما وصل اليها بلغه موت الملكة ازابيلة (سنة ١٥٠٤ من الميلاد)

(الموافقة

(الموافقة لنحو سنة ٩١٠ من الهجرة) فانقطع بموتها ما كان يؤمله من عدالتها وحسن التفاتها ولما كان فرديناند دائما لا يلتفت اليه جاحدا حسن صنيعه انتقل الى ولادوليده وانقطع بها حتى مات سنة ١٥٠٦ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٢ هجرية) وعمره تسع وخمسون سنة ونقلت جثته الى اشبيلية ودفنت مع الاحتفال فى الكنيسة الكبرى وجعل له فيها قبر نقش عليه ما معناه قد اعطى كلب لمملكتى قسطيلة وليون دنيا جديدة

وفى سنة ١٥٣٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٣ من الهجرة) نقل ما بقى من آثاره وآثار ابنه دييغو الى اسبانيولة ودفنا فى الكنيسة الكبرى من مدينة سنت دومنغ ثم نقلت آثارهما فى عصرنا هذا الى مدينة هوانة بجزيرة كوبا وكان ذلك فى ١٥ ينويه سنة ١٧٩٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ١٢١١ من الهجرة)

ثم ان استكشاف الدنيا الجديدة اورث الاسبانيول الميل والرغبة فى المشروعات البحرية واوائل مشروعاتهم كانت بادارة كلب وتدبيره وحده وكانت مصاريفها على طرف الملك وعما قليل اغتر جماعة بنجاح هذه الارساليات فعرضوا للدولة أن يسافروا على طرفهم فكان اول من اذن له بالسفر الى الدنيا الجديدة من غير اعتبار للمعاقدة التى حصلت سنة ١٤٩٢ من الميلاد هو ألنزو دو ييدا احد الضباط الذين كانوا مع كلب فى سفرته الثانية فسافر سنة ١٤٩٩ ميلادية (اى نحو سنة ٩٠٥ هجرية) واقتفى اثر كلب بالكلية حتى وصل الى ساحل باريا ثم عاد الى اسبانيا بعد أن اطلع على استعداد عظيم من السواحل وتحقق من مذهب الاميرال الذى كان يرى أن هذه البلاد جزء من ارض قارة وكان مع أوييدا المذكور فى هذه السفرة امريقو وسيوس احد بيكزادات فلورنسة وكان من اصحاب المعارف بعلم الملاحة فصار له بذلك نفوذ كلمة على اصحابه حتى انهم فوضوا له معظم الامر فى ادارة هذا المشروع ولما عاد الى اوروبا ألف رحلة ضمنها

ماوقع له من الحوادث وتجاسر فيها على أن نسب لنفسه فخر اول مستكشف لأرض الدنيا الجديدة القارة وسلك فى تأليفها مسلك العاقل الفطن وأفرغ عباراتها فى قالب حسن وكانت اول تخطيط اشتهر فى وصف تلك البلاد فأخذ الناس يتعودون شيأ فشيأ على تسمية البلاد المذكورة باسم هذا الرجل الذى كان يفتخر بنسبة استكشافها اليه وهذا من الظلم الذى بقى على تداول الازمان وصار بحيث لا يمكن تداركه ولا جبر خلله

وفى سنة ١٥٠٠ من الميلاد سافر الى الجهة الجنوبية وينسانت يانيز ينسون احد اصحاب كلب فى سفرته الاولى وجاوز خط الاستواء وسار محاذيا لسواحل امريقة الجنوبية حتى وصل الى نهر امزونة

وفى ذلك الوقت وصل البرتوغال الى برزيل (راجع ماسبق فى الفصل الثانى من هذا الباب)

وقصارى الامر أن رودريغودو بستيداس استكشف سنة ١٥٠١ ميلادية (اى نحو سنة ٩٠٧ هجرية) ساحل الاقليم المسمى تيرفرم (ومعناه ارض قارة) من رأس ويلا الى خليج دريان ولكنه لم يجدد هنالك قبيلة اصلا * هكذا كانت حالة الاستكشاف فى الدنيا الجديدة قبل موت كلب

(الفصل الرابع)

فى تاريخ امريقة منذمات كرستف كلب الى أن فتح فرنند كورتز بلاد مكسيكة بدخول الغاية (وذلك من سنة ١٥٠٦ الى سنة ١٥٢١ من الميلاد) (اى من سنة ٩١٢ الى سنة ٩٢٨ من الهجرة تقريبا)

كان اول ما اعتنى به الاسبانيول مدة عدة سنين هو قبيلة اسبانيولة فكان اووندو يحكم الاوربيين فيها مع الحزم والعدالة وأسس مدنا جديدة فى عدة اماكن من الجزيرة وزرع فى ارضها مزارع واسعة من القصب وفى قليل من السنين صارت هذه الزراعة هى جل شغل اهل اسبانيولة

ومنشأ معظم ثروتهم غير أن هذا الرجل الذى كانت حكومته محبوبة عند الاسبانيول كان يعامل هنود امريقة بالجبر والقسوة ولما بلغ ازابيلة ما حل بهذه الامة السيئة البخت من الشقاء وسوء الحال من حين توزيعهم صدر عنها امر بمنع جبرهم على الشغل فلما ماتت ادخلهم اووندو ثانيا فى الاسر والاستعباد ووزعهم على الاسبانيول لاجل استخدامهم فى زراعة الاراضى واستخراج المعادن ولما كان ساداتهم الذين لا يعرفون القناعة يكلفونهم دائما بالكد والعمل الشاق هلك بعضهم من التعب والضعف وبعضهم ادركه القنوط واليأس فقتل نفسه حتى تنقضى ايام شقائه فمن ثم تفانى الاهالى على وجه سريع مهول فقد كانوا حين قدم الاسبانيول الى جزيرتهم يبلغ عددهم مليونا فصاروا بعد خمس عشرة سنة يعنى فى سنة ١٥٠٧ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٣ هجرية) ستين ألفا لا غير فعزل اووندو سنة ١٥٠٨ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٤ من الهجرة) وارسل بدله الى اسبانيولة دون دييغو اكبر اولاد كلب حيث اثبت لنفسه وراثة حقوق ابيه ولكن لم تحسن حالة اهلها بتغيير حاكمها بل ما جاءت سنة ١٥١٦ ميلادية (التى هى سنة ٩٢٢ هجرية تقريبا) الا وعددهم اربعة عشر ألفا فقط فتأثر عليهم من الاسبانيول من كان لم يزل عنده نوع رأفة وشفقة ورثوا لحالهم لما رأوه من سوء المعاملة التى كان يعاملهم بها فاتحو بلادهم وذلك أن الدعاة الذين بعثوا الى امريقة لتنصير اهلها كانوا اوّل من عارض فى توزيع الامريقيين ولقد حاز الدومينيقية وهى طائفة قسيسية الشرف دون غيرها من الطوائف القسيسية حيث بذلت جهدها فى محاماة هذه الامة فان احد مشاهير دعاتهم المسمى انطوان مونتزينو شرع من سنة ١٥١١ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٧ من الهجرة) يحط فى كنيسة سنت دومنغ الكبرى على هذه العادة الخشنة ويشنع عليها كل التشنيع حتى سعى به الضباط الملوكية عند فرديننـد فركب البحر قاصدا اسبانيا ليثبت براءته عند الملك فكان ذلك سببا

فى صدور عدة اوامر لاجل التخفيف عن هنود امريقة ولكن لم يجر العمل عليها

ولم يترتب على عدم نجاح مونتزينو فى هذا السعى فتور همة الدعاة بل اقامت الرأفة النصرانيـة للمظلومين ظهيرا انتظم فى سلك ارباب المروءة والانسانيـة وهو الشهير برتلى دولاس كزاس فانه بعد أن بذل المجهود فى تخفيف ظلم الاسپانيول عنهم ولم يخرج من ذلك على طائل ارتحل الى اسپانيا سنة ١٥١٦ ميلادية ولما دخل عند الملك وصف له مع الجسارة والفصاحة ماد هم الهنود من المصائب مع براءتهم وعدم ارتكابهم لما يوجب ذلك وترجاه أن يداوى داء اختلالهم ويجبر خلل سوء حالهم فوعده فردينند بذلك لكنه مات وصار اجراء هذا الامر منوطا بالكردينال اكسيمنيس الذى جعل نائبا على قسطيلة مدة غيبة شرلكان وارث فردينند المذكور فبعث هذا الكردينال الى امريقة ثلاثة رهبان من الرهبان الهيرونيميتية بوظيفة الملاحظين على جميع القبائل وجعل لهم من الشوكة ونفوذ الكلمة ما يكفى فى شأن القضية المهمة المتعلقة بحرية اهل تلك البلاد المتأصلين وبت الحكم فيها على وجه بحيث لا يعارض حكمهم ولا ينقض وذهب معهم لاس كزاس بلقب محامى الهند فسلك هؤلاء الوكلاء المبعوثون فى افعالهم مسلك الحزم والاعتدال فانهم بعد أن اختبروا الامور بغاية التدقيق رأوا أن استعباد الهنود مما لا بد منه فى بقاء القبيلة واقتصروا من شوكتهم وموعظتهم وامثالهم على ما تخف به اثقال الاسترقاق ويستطاع معه تحمل اعبائه فلم يستحسن ذلك لاس كزاس ورآه من قبيل السياسات الملحوظ فيها الامور الدنيوية التى تقر المظالم اذا كان لها ثمرة ومنفعة فذهب الى بلاد اوروبا وتفاوض فى هذا المعنى مع وزراء شرلكان غير أن توقف عمارة القبيلة على جبر الاهريقيين على الشغل كان مانعا قويا من التنجيز غرضه فى شان حريتهم فلاجل ازالة هذا المانع عرض أن يشترى من القبائل البرتوغالية عبيدا من سودان افريقة وينقلون الى امريقة ويكلفون بالعمل فى المعادن

والزراعة

والزراعة بدلا عن الامريقيين لانهم اشد منهم واقوى فلم يسمح شرلكان بهذه المزية الا لملتزم فلمندى ناطه بنقل اربعة آلاف من العبيد الى بلاد الهند الغربية فباع هذا الملتزم هؤلاء العبيد لتجار من جنويزة كانوا اول من رتب طريقة منتظمة فى هذه التجارة الذميمة ولكنهم تغالوا فى أثمان السودان الذين نقلوهم الى اسبانيولة تغالى الطماع المستبد بالبضاعة فلم يبيعوا منهم الا مقدارا قليلا بحيث تحسن به حال القبيلة فلما أيس لاس كزاس حينئذ من فعل اى خير كان فى حق الهنود الموجودين فى القبائل المستحدثة عرض أن يجدد فى ارض امريقة القارة قبيلة مؤلفة من الزراع والمحترفين والقسوس خالية عن اهل الملاحة والمحاربة والتزم بتأنيس الهنود وتمدينهم وتعويدهم على الشغل بدون جبرهم عليه بالاسر والاستعباد فأجيب الى ذلك وأقطع سنة ١٥٢٠ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٢٧ من الهجرة) اقطاعا من الارض قدره ثلثمائة ميل على ساحل كومانا ولكن لم يمكنه أن يرغب فى مصاحبته الى تلك الارض الا طائفة قليلة من الزراع والمحترفين ولما وصل الى امريقة وجد الاسبانيول قد اشتغلوا بحرب اهل كومانا واشرفوا على اعمال السلاح والنار فى هذا القطر فلم يكن ثم شئ الا وهو يعين على خيبة امله وعدم بلوغ وطره وصارت مساعيه فى راحة الهنود سببا فى بغض اهل وطنه له ولما استعظم خيبة مسعاه فى هذا الامر وأعيته اثقال عدم النجاح فى ذلك الغرض اعتزل فى دير الدومينيقية بجزيرة سنت دومنغ وبعد ذلك بقليل ترهب ولبس شعار هذه الطائفة

وفى اثناء ما كان رجال من خيار الناس ينتصرون للامريقيين بدون طائل استمر الاسبانيول على استكشافاتهم ففى سنة ١٥٠٨ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٤ هجرية) توغل جوان بونس دوليون فى داخل جزيرة بورتوريكو فلما استعبد أهلها وعاملهم بالجبر والقساوة كأهل اسبانيولة لم تمض عليهم الا سنوات قلائل حتى انعدموا عن آخرهم

وفى هذا الوقت طاف حول جزيرة كوبا سبستيان دوأوكمبو وتحقق أن هذه البلاد التى كانوا يرونها أولا ارضا قارة ليست الا جزيرة كبيرة

وفى سنة ١٥٠٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٥ من الهجرة) سافر فى البحر كل من جوان ديازدوسوليس ويانيز بنسون اللذين كانا فى السنة الماضية قد استكشفا فى رحلتهما الى الارض القارة اقليم يوكاتان المتسع ومازالا سائرين فى الجهة الجنوبية حتى وصلا الى الدرجة الاربعين من العرض الجنوبى فعادت رحلتهما هذه بالمنفعة على الاسبانيول حيث استنبطوا منها فى شأن امتداد الدنيا الجديدة معارف اصح وأضبط مما كانوا يعرفونه قبل ذلك فعن لهم حينئذ أن يجددوا نزلات وقبائل فى الارض القارة فكان اول ما تجدد بها قبيلة صغيرة أسمها نويسيزدوبليوا بالقرب من خليج دريان

وفى سنة ١٥١١ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٧ هجرية) عزم دييغو كلب على ادخال جزيرة كوبا تحت الطاعة وقلد ولسكيز رياسة التجريدة فلم يصادف فى اخذها مانعا الا الكاسيك هاتوى وكان هذا الكاسيك قد فر من اسبانيولة واستولى على الطرف الشرقى من كوبا فلما بلغه أن الاسبانيول قادمون للاغارة عليه جمع اصحابه وحلفاءه وحملهم على أن يلقوا فى البحر جميع ما عندهم من الذهب الذى هو عند الاسبانيول بمنزلة الاله المعبود مؤملا انصرافهم عن هذا المشروع بقطع عرق هذا الجاذب الذى يجذبهم الى تلك البلاد ولكن خاب امله فاستعد للمدافعة غير أن الاسبانيول هزموا عساكره مع السهولة وبددوا شملهم ووقع هو فى ايديهم اسيرا وحكموا عليه بالحرق ولما صلبوه على سارية العذاب اخذ راهب من الطائفة الفرنسسكية يرغبه فى التنصر ويعده بنعيم الجنان اذا هو مات على دين النصرانية فقال له ذلك الكاسيك هل فى محل النعيم الذى ذكرته لى اسبانيول فقال له الراهب نعم لكن الصالحون الاخيار فقط فقال وهل فيهم صالحون اخيار كلا هذا من المستحيل وانا لا اريد الذهاب

الى

الى محل يجمعني واياهم ثم خرجت روحه وهو في لهيب النار فاوقعت هذه الفعلة القبيحة الدالة على خشونة الاسبانيول وقساوتهم الرعب والفزع في قلوب اهل تلك الجزيرة المتأصلين وصاروا بحيث لا يخطر لهم مقاومة عدوهم باي وجه كان حتى ان ولكين لم يفقد في فتح جزيرتهم احدا من اصحابه

وفي سنة ١٥١٢ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩١٨ من الهجرة) لما تجاوز جوان پونس دوليون جزائر لوقايس قصد الجنوب الشرقي واستكشف جزيرة فلوريدة هذا ومن المأثور من سالف الازمان عند اهل امريقة أنه يوجد في احدى جزائر لوقايس المذكورة بقرب خليج بهاما عين ماء كل من اغتسل فيها من الشيوخ عاد صبيا فعمل جوان المذكور على هذه الحكاية القديمة ومكث مدة طويلة وهو يبحث عن هذه العين العجيبة وبحثه هذا وان كان مبنيا على اوهام خرافية الا أنه ترتب عليه منفعة حقيقية وهي معرفة خليج بهاما على وجه صحيح مضبوط فان ارباب الملاحة بعد ذلك بقليل اخذوا في سلوكه الى بلاد اوروبا

وفي سنة ١٥١٣ ميلادية (اي نحو سنة ٩١٩ هجرية) بلغ بلبوا حاكم قبيلة دريان من احد كاسيكات البلاد أنه بعد ست شموس اي بعد سير ستة ايام جهة الجنوب يوجد محيط آخر يكتنف ولاية مثرية يكثر فيها الذهب كثرة بالغة حتى ان اهلها يستعملونه في الاشياء التافهة وكان هذا الخبر اول دليل للاسبانيول على وجود بيرو والمحيط الاكبر الجنوبي فما كان من بلبوا المذكور الا أنه بادر بتحقيق ما بلغه بنفسه فسافر مع مائة وتسعين رجلا ولم تعقه الموانع الغريبة التي صادفها في طريقه بل ظهر عليها وتوغل في السير حتى وصل الى البحر الجنوبي واستولى عليه لدولة قسطيلة وقد ازداد فرحه بما بلغه من هنود هذا الساحل انه يوجد على البعد من الساحل المذكور في الجهة الشرقية مملكة قوية مثرية ولكنه لحزمه لم يشرع في فتحها مع شرذمة قليلة من الناس اضناهم العناء والتعب بل اخر

ذلك الى وقت آخر وعاد الى سنتامارية التى هى كرسى قبيلته واول شئ اهتم به هو اخبار دولة اسبانيا باستكشافاته وطلبه للامدادات فبعث فرديننـد تلك الامدادات ولكن قلد بقيادتها بدرارياس داويلة وجعله حاكم دريان وكان ذلك (سنة ١٥١٤ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩٢٠ من الهجرة) فافتات بدراریاس على بلبوا لغيرته منه واتهمه بما افضى به الى القتل على المشنقة (سنة ١٥١٧ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٢٣ هجرية)

وفى مدة ما كانت هذه الحوادث حاصلة فى دريان كان فى غيرها من الاماكن عمليات اخرى مهمة وذلك أن جوان دیازدوسولیس سار (سنة ١٥١٥ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩٢١ من الهجرة) بجانب امريقة الجنوبية حتى وصل الى مصب ريودولابلاته وهو احد الانهار الكبيرة من هذا الجزء من الدنيا الجديدة فقتله اهل هذا القطر الذين يأكلون لحوم الآدميين وقتلوا كذلك بعض اصحابه وعاد البعض الآخر الى بلاد اوروبا ولم يتوغلوا فى استكشافاتهم اكثر من ذلك

وفى سنة ١٥١٨ ميلادية (اى نحو سنة ٩٢٤ هجرية) اجتاز يوحنا دوغريجلوا شبه جزيرة يوكاتان وتوجه جهة الغرب حتى وصل الى بلاد تراءى له أنها متقدمة فى التمدن والتحضر فنظر على الساحل قرى متفرقة فيها بيوت مبنية من الحجارة ولما أبدى احد عساكره أن هذا القطر شبيه فى منظره باسبانيا سماه غريجلوا باسم اسبانيا الجديدة الذى لم يزل يسمى به وقد افهمه بالاشارة اهله المتأصلون انهم رعايا لملك عظيم يسمى موتيزوما وحكمه ممتد على سلطنة متسعة فلما رأى غريجلوا أنه ليس معه من القوى ما يكفى فى الاقامة بهذه البلاد لم يجد فيها نزلة بل تركها وعاد الى كوبا بعد سفره منها بستة اشهر وفى مدة سفرته هذه استكشف ايضا جزيرتى كوزوميل وسنت جان دولوا وجزيرة القرابين وانما سميت بهذا الاسم لأن اهلها يتقربون الى آلهتهم بقرابين من بنى آدم

ثم ان ولسكيز اسرع فى التأهب بالاهبة القوية لفتح اسبانيا الجديدة وانتخب لقيادة العساكر فرنند كورتز وكان مولد فرنند المذكور (سنة ١٤٨٥ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٨٩٠ من الهجرة) فى مدلين وهى مدينة صغيرة من اقليم استرامادور وكان من عشيرة شرفها يفوق على ثروتها وكان من مبدأ امره قد اعد لتعلم الشرائع والقوانين فتعلمها فى سلمنكه ولكن كان له ميل طبيعى الى فن الحرب فترك علم الاحكام وانتقل الى امريقة سنة ١٥٠٤ ميلادية وحاز فيها الشهرة والصيت فظن ولسكيز أن هذا الرجل هو الذى يكون على طبق مرامه من حيث اهليته للرياسة وعدم طماعيته فى الاستقلال لأن كلا من رتبته وثروته يأبى ذلك ولكنه عما قليل ندم على انتخابه له وارسل خلفه بعد ارتحاله ووصوله الى هوانة امرا بالقبض عليه فلم يكترث فرنند بعدوه لأنه كان واثقا باعانة عساكره الذين كان لهم رغبة عظيمة فى القتال وسافر من هوانة فى عاشر فبريه سنة ١٥١٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٢٥ اوسنة ٩٢٦ من الهجرة) وكانت دونمته مركبة من احدى عشرة سفينة وكان فيها من الرجال ستمائة وسبعة عشر منهم خمسمائة وثمانية من العساكر ومائة وتسعة من البحارة والصناع ولم يكن معه من الخيل والمدافع الاستة عشر فرسا وعشرة مدافع صغيرة من مدافع النقل وكان مرسوما على اعلامه صليب كبير منقوش عليه مامعناه (لنتبع الصليب * فنصرنا تحته قريب) وذلك لأن الاسبانيول كانوا فى جميع مشروعاتهم يجمعون مابين الحمية الدينية والتولع بالاستكشافات والفتوحات

ثم ان فرنند كورتز رسا على جزيرة كوزوميل واقتدى فيها من الهنود جيروم داغيلار وهو رجل اسبانيولى مكث اسيرا عند هؤلاء الهنود ثمانى سنوات فتعلم لسانهم فبذلك كان نافعا فى اغلب الاوقات لكورتز لقيامه عنده بوظيفة ترجمان ثم سار من كوزوميل ووصل الى تباسكو فسعى اهلها فى القبض عليه فهزمهم فى عدة وقعات فطلبوا منه الصلح وبايعوه

على أن ملك قسطيلة ملكهم واعطوه ذخائر وذهبا وعشرين امة وكانت فيهن جارية فائقة فى الجمال فتنصرت وتعمدت وسميت باسم مارينة ونفعت الاسبانيول نفعا عظيما فى غزوة مكسيكة وقد اتى الى كورتز وهو فى جزيرة سنت چان دلوا ارسالية انفذها اليه من طرف الايمبراطور مونتيزوما كل من بلپتوه حاكم الاقاليم المجاور لهذه الجزيرة وتوتيلة رئيس عساكر ذلك الاقليم فترجمت مارينة ماقاله الرسل وافادت كورتز بأنهم مبعوثون بصدد سؤاله بطريق النيابة عن ملكهم عن سبب مجيئه الى ارضهم فأجاب بأنه انما اتى محبا الاعدوا وأن له اغراضا لا يفصح عنها الا للحاكم ثم خرج من الغد الى ارض مكسيكة وساعده الهنود أنفسهم فى خروجه الى البر وبعد ذلك بقليل جاء لزيارته كل من بلپتوه وتوتيلة وخلفهما كثير من اتباعهما فاخبرهما أن كرلوس دوستريا ملك قسطيلة الذى هو اقوى ملوك الشرق ارسله الى مونتيزوما وطلب منهما الوصول فورا الى هذا الملك وكان ملوك مكسيكة قد اقاموا سعاة فى الطرق الكبيرة ليصل اليهم بالسرعة كل ما يحصل فى ايمبراطوريتهم الواسعة فارسل بلپتوه وتوتيلة السعاة الى مونتيزوما ليخبروه بمجيء الاسبانيول وأن لهم مقاصد يريدون اعلامه بها فبعث لهم هدايا عظيمة وتحفا ثمينة وطلب منهم أن يخرجوا من بلاده فلم يجب كورتز الى ذلك بل تعاصى عن الخروج مع قوة وثبات الخما الايمبراطور مونتيزوما

وكان لهذا الايمبراطور من الشوكة والقوة ما يبعثه على التصميم وشدة العزم بل يتراءى أن مقامه كان يدعوه ايضا الى ذلك فانه من بين ايمبراطرة مكسيكة كان على غاية من الشمم والجبر لا يتحمل ادنى معارضة فى اى شئ اراده حتى انه لشدة ظلمه قاموا عليه فى عدة جهات لكنه قمع الاقاليم التى خرجت عن طاعته ماعدا اقاليم مشواكان وتپيكة وتلسكالة وكان يقول مفتخرا انما اخرت قمعها لأجعل اهلها قرابين ومع ذلك خشى بأس هذا الاسبانيولى وخاف من جسارته وداخله الرعب ايضا مما شاع على ألسنة الناس من أن

مكسيكة يخشى عليها من نكبة عظيمة تحل بها من قوم فاتحين يأتون اليها من اقطار الشرق فتفاوض مع كورتز بدلا عن كونه يتصدى لقتاله بجميع ما في ولاياته المتسعة من القوى والوسايط مع أنه كان يسهل عليه جدا الظفر به لأن هذا الاسبانيولي كان في قلق وحيرة في امر عساكره حيث كان لا يعرف مقاصدهم واغراضهم وكان تقلده بهذه المأمورية انما هو من طرف واسكيز وكان قد عزله منها وطلب احزاب ولسكيز المذكور أن يرجعوا الى كوبا ليبحثوا فيها عن قوى جديدة ولكن افسد عليهم كورتز ما آربهم بحذقه ومهارته وكان معظم جيشه من الاخلاط المتلهفين على اقتحام الاخطار وجمع الاموال وكان لهم طمع عظيم في اغتنام خزائن مكسيكة فعرف كورتز كيف يحملهم على أن يستعجلوه في الشروع في فتحها فاجابهم الى اغراضهم عندما وافقوه على اغراضه وهي أنه قبل ابتداء الغزو أسس قبيلة سماها ويلاريكة دولاويراكروز وجعل فيها مشورة بيدها الحكومة والتصرف المطلق وولاة انتخبوا من اصحابه الصادقين في خدمته وتحررت وثائق انتخابهم باسم الملك ولم يذكر فيها اسم ولسكيز ثم نزل عن وظائفه بين ايديهم وسلم لرئيس المشورة العصى الجنرالية وانصرف الى خيمته فذهبت اليه المشورة مع الاحتفال وأعلنت له بأن مدينة ويراكروز قد اختارته بطريق النيابة عن الملك القانونيّ حاكما على القبيلة الجديدة وجنرالا على الجيش القسطيلي

ثم انه لما رأى عدة من العساكر قد تعبوا من الخدمة واشتاقوا الى وطنهم اتلف سفن الدونما كلها ومحا اثرها بالكلية حتى لا يبرحوا عما قصده من المشروع فانحصروا معه في بلاد عدو تملاهم كثيرة الملل المجهولة ذات الشوكة والقوة فترك من اصحابه في مدينة ويراكروز مائة وخمسين رجلا وسار بباقي جيشه الصغير ليشن الغارة على ايمبراطورية متسعة فتلقاه عدة من كاسيكات البلاد كأنه المنقذ المخلص لهم وتقدم في السير حتى وصل الى ثغور بلاد الطلسقلان من غير أن يجد في طريقه ما يعوقه او يصده

والطلسقلان ملة كان يحكمها فى الاصل ملوك ثم وقع بينهم حرب اهلى انساهم عادة الانقياد والطاعة فأعرضوا عن الحكومة الملوكية الى نوع من الحكومة الجمهورية واستمروا على ذلك عدة قرون وكانت كل كورة من كورهم تبعث من طرفها رسلا يقيمون بتخت الحكومة ويتألف منهم جمعية سنت تنقاد لاحكامها جميع الملة وهم وان كانوا اعداء لاهل مكسيكة لكنهم لم يجيبوا هذا الجنرال الاسبانيولى الى ماعرضه عليهم من الصلح وعدم المشاحنة وأبدوا فى قتاله من شدة البأس والشجاعة مالم يكن رآه قبل ذلك اهل اوروبا فى الدنيا الجديدة ولكن فوقان الاسلحة والتربية العسكرية ظهرا على الكثرة والشجاعة فبعد أن انهزم الطلسقلان عدة مرات توهم ارباب جمعية السنت أن نصرات النصارى انما هى من ابواب السحر فسألوا فى ذلك سحرتهم فأجابوا بأن الاسبانيول اولاد الشمس وأن اعظم اعمال سحرهم انما هو الحضور والدهم فيلزم الهجوم عليهم ليلا فلما شنوا الغارة فى الليل انهزموا ايضا فتقربوا الى آلهتهم بذبح جماعة من سحرتهم وعرضوا الصلح على كورتز وبايعوه على أنهم عمال للملك قسطيلة وعاهدوه على أن يعينوه فى جميع غزواته فجعل جمهوريتهم تحت حمايته وعاهدهم على حماية انفسهم واموالهم ثم حملته حميته الدينية على أن اشار عليهم بكسر اصنامهم فأبوا فاستعد لجبرهم على ذلك بقوة الاسلحة فمنعه عن هذا الامر الناشئ عن عدم الحزم والتبصر امام الجيش وهو القسيس برتلى دولميدو فاقتصر على أن لا يلزمهم الا بالكف عن التقرب بذبح الآدميين ثم سار واخذ معه منهم ستة آلاف ومازال يتلقاه اهل تلك الجهات تلقى المنقذ المخلص حتى وصل الى مدينة مكسيكو (تخت ايمبراطورية مكسيكة) فى ثامن شهر نومبر سنة ١٥١٩ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٢٥ اوسنة ٩٢٦ من الهجرة) وكانت هذه المدينة واقعة فى وسط بحيرة وتتصل بالارض بواسطة ثلاثة جسور وكان عدد اهلها ينيف على ستين الف نفس فلم يمنع مونتزوما الاسبانيول من دخول تلك المدينة اما لعجزه عن صدهم اولاضماره الغدر بهم بل قابلهم بالترحيب

والاكرام

والاكرام وعين لاقامتهم احدى سراياته وقد تعجب الاسبانيول مما رأوه فى هذا التخت العظيم من الرونق والبهجة ولكنهم عما قليل استشعروا بالخطر الذى عرضتهم اليه جسارتهم بين اعداء لا يحصى عددهم وذلك أن كورتز بلغه أن جنرالا من جنرالات مونتزوما يقال له كليبوككة اغار على الاسبانيول المقيمين فى ويراكروز فغلبوه ومع ذلك لم يامن كورتز غائلتهم فسلك فى الجسارة مسلكا غريبا صرف به الخطر عن نفسه حيث عزم على أن يذهب الى سراية مونتزوما ويقبض عليه فيها ويأتى به اسيرا الى منزل الاسبانيول مؤملا أن هذه الرهينة الكريمة يأمن بها من المكر والتعدى فأمر جماعة من اصحابه بالقبض عليه مما كان من هذه الشرذمة القليلة الاجنبية الا انها قبضت فى اثناء النهار على هذا الايمبراطور وهو فى دار ملكه ومقر حكومته واتت به بدون قتال ولا مقاومة واملى عليه الاسبانيول مقاصدهم واعلنها باسمه وقبضوا ايضا على كليبوكة وولده وخمسة من كبار الضباط واتوا بهم الى مكسيكو وألقوهم فى النار احياء ثم بايع مونتزوما الاسبانيول على أنه من عمال ملك قسطيلة (سنة ١٥٢٠ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩٢٧ من الهجرة) والتزم بدفع الخراج فى كل سنة ولم يظهر الاباء والنفرة الا فى امر الدين فاشتدت الغيرة الدينية بكورتز وذهب بعساكره الى هيكل مكسيكو الكبير قاصدا تنكيس ما فيه من الاصنام فلما رآى امناء دينهم والاهالى قد شهروا اسلحتهم امسك عن ذلك ومن يومئذ عزم المكسيكيون على تدمير الاسبانيول واشتد الخطر على الاسبانيول المذكورين بقدوم دونما ارسلها ولسكيز وذلك أن ولسكيز المذكور كان يغار من فرنند كورتز ويعده من العصاة فبعث اليه بانفيل دونرويس وأصحبه بثمانمائة من المشاة وثمانين من الخيالة واثنى عشر مدفعا ليسلب منه ما فتحه من البلاد فلما اشتد الامر على كورتز ترك فى مدينة مكسيكو مائة وخمسين رجلا وجعلهم تحت قيادة الوارادو وتوجه لقتال عدوه ففاجاه بالهجوم ليلا فى بلاد زنبوالة فجرح نرويس فى الوقعة واسر ثم تفاوض

كورتز مع عساكر نرويس واستمالهم اليه فانضموا الى حزبه فاشتد
بأسه وقويت صولته حيث صار قائدا لالف من الاسپانيول مستعدين
لاتباعه حيثما توجه ثم اسرع بالعود الى مكسيكو لان من تركه فيها
من اصحابه كانوا فى اشد الخطر فان المكسيكيين شنوا الغارة عليهم فى غيبته
واستمروا بعد رجوعه على القتال فبعد أن كانت هذه الامة ذات احتمال وصبر
على المكروه صارت الآن تقاتل مع ما تقصر دونه العبارة من فرط الشجاعة
وشدة البأس حتى حاصرت الاسپانيول فى معسكراتهم وقتل
الايمبراطور مونتزوما فى بعض الاغارات حين اخرجه الاسپانيول
ووضعوه على المتاريس لينظره المكسيكيون فتسكن حدتهم وتخمد نيران
غضبهم فانتخب المكسيكيون بدله كاسيكا يقال له كينلواكة فانقطع
رجاء الاسپانيول فى المصالحة ولم يجد كورتز الى النجاة سبيلا سوى
الرجعة والانصراف ففارق مكسيكو واقتحم فى مفارقتها الاهوال حيث
كان دائما ينغص عليه فى رجعته جم غفير من المكسيكيين اصحاب الجمية
والحدة فلما وصل الى الارض القارة تفقد اصحابه فاذا قد فقد منهم مائتا رجل
وست واربعون فرسا وفى اليوم السادس من مسيره وصل الى مدينة اوتمبا
وكان المكسيكيون قد جمعوا فيها قوى عجيبة فوقع الالتحام بينه وبينهم
وسفكت فى هذه الوقعة دماء كثيرة وكان المكسيكيون حاملين فيها اكبر ألوية
ايمبراطوريتهم الذى يعتقدون أن به مصادير وقائع القتال من نصرة اوهزيمة
فطعن كورتز برمحه الجنرال الذى كان بين يديه هذا اللواء فوقع بطعنته
على الارض فلما رآى المكسيكيون أن اللواء قد صار بيد العدو داخلهم
الفزع والرعب وحل بهم اليأس والقنوط وتبدد شملهم ووصل كورتز بعد
نصرته الى الطلسقلان وجاءت اليه الامدادات من كوبا وجامايكا
فشرع ثانيا فى فتوح مكسيكة مع جيشه الصغير وعشرة آلاف من
الطلسقلان (سنة ١٥٢١ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٢٨ هجرية)
وكان كينلواكة قد مات وولى المكسيكيون بعده على سرير ملكهم

غواتيموزين

غواتيموزين ابن اخى موتتزوما وصهره وكان شابا له صيت وشهرة عظيمة فوجد كورتز فى جميع الجهات تجهيزات تعوقه عن التقدم فى الفتوح ولكنه ظهر على هذه العوائق كلها ووصل الى مكسيكو واقام عليها الحصار واستولى على البحيرة بواسطة ماصنعه من السفن الصغيرة التى يقال لها براغانتين حيث اباد بها وبمدافعها مع السهولة زوارق المكسيكيين غير أنهم كانوا يدافعون عن مدينتهم مع الشجاعة والشهامة فلزم كورتز فى فتحها أن يظهر على موانع لورآها غيره ممن دونه فى الشجاعة والثبات لرأى مالايمكن الظهور عليه ولكن آل امره انه بادمانه ومهارته ظهر على مابذله غواتيموزين من الهمم والمجهودات فقبض على هذا الايمبراطور وسلمت المدينة فى ثالث عشر اغسطوس سنة ١٥٢١ من الميلاد غير أن الاسبانيول خابت آمالهم فى الغنيمة لقلتها وذلك أن غواتيموزين لما توقع ما سيحصل له امر أن يلقى فى البحيرة جميع الاموال التى تركها اسلافه فخشى كورتز أن غيظ عساكره من ذلك يجرهم الى عصيانه والقيام عليه فامر بتعذيب هذا الايمبراطور الشقى وكذلك خصيصه الاعظم ليجبرهما على تعيين المحل الذى يظن انه اخفى فيه الخزينة السلطانية فتحمل غواتيموزين اشد العذاب مع غاية الثبات والصبر حتى انه قال لصاحبه حين ابدى مايدل على ضعفه وعدم تجلده على العذاب مامعناه هل انا جالس على فراش من الورد (يعنى افلا تكون مثلى فى التجلد والتحمل) فأثرت فيه هذه الكلمات الناشئة عن الشجاعة والثبات وبعثته على التجلد وتحمل اهوال العذاب حتى فارق الحياة واما غواتيموزين فانه لما كان اقوى من صاحبه واشد منه باسا وقوة قاوم ما كان يقاسيه من العذاب ولكن خجل كورتز من شناعة هذا التعذيب وأخذه من ايدى الجلادين المنوطين بعذابه ثم تعلل عليه بعد ذلك بيسير بأنه عزم على أن يوقظ الفتنة ويحرض قدماء رعاياه على القيام على حكومة الاسبانيول فأمر بقتل هذا الايمبراطور الذى هو آخر ايمبراطرة مكسيكة وصلبه على المشنقة فكان انتهاء اجله فى هذا العذاب الشنيع

فقام المكسيكيون بعد ذلك وكان هذا اخر مجهودات هذه الامة اليائسة فعاقبهم كورتز بعقاب شنيع سلك فيه من القسوة مالم يسمع بمثله فانه اخذ من اقليم يانوكو ستين كاسيكا واربعمائة من الاعيان وألقاهم جميعا فى النار وتمم هذا الامر الفظيع بجبره اولادهم واقاربهم على معاينة احراقهم

ولما صدر الامر من شرلكان بتقليد كورتز قبودانا عموميا وحاكما على اسپانيا الجديدة جعل دار اقامته مدينة مكسيكو التى عمرها بعد الخراب وبناها على التدريج بموجب اشكال ورسوم صارت بها اظرف مدينة من مدن الدنيا الجديدة ثم وشى به عند الايمپراطور شرلكان بعض خاصته لغيرتهم منه على ما حازه من الفخر والشوكة حتى استخونه الايمپراطور المذكور وصار لا يثق بأمانته (وكان ذلك سنة ١٥٢٥ من الميلاد) (اى نحو سنة ٩٣٢ من الهجرة) فذهب من تلقاء نفسه الى اسپانيا ليظهر براءته عند الايمپراطور وهذا مما يدل على براءته مما اتهم به فتلقاه شرلكان بالترحيب والتشريف واتحفه بلقب مركى وأقطعه اقطاعا واسعا فى اسپانيا الجديدة ومع هذه الاتحافات الجديدة لم يرجع الى مكسيكو الا بشوكة قد تناقصت وقوة قد ضعفت حيث لم يبق له الا قيادة العساكر والحق فى استكشاف اراض جديدة واما الادارة الاهلية فنيطت بها مشورة سميت بمجلس اسپانيا الجديدة فصار تفرق هذه الوظائف التى كانت كلها مجموعة بيد كورتز سببا فيما تراكم عليه من الحزن والضجر فبحث عن امر فاخر يتسلى به فشرع فى مشروعات بحرية جديدة فاستكشف شبه جزيرة كليفورنيا وعرف الجزء الاعظم من الجون الذى يفصل هذه الشبه جزيرة من مكسيكة ولكنه سئم من مشروعات اخرى كانت دون هذه فى النجاح وضجر من أناس كانوا محتقرين عنده لما رآهم يسعون فى تخييب آماله وتعطيل مقاصده فذهب ثانيا الى اسپانيا يروم النصفة والاخذ بناصره فلم يجبه الى ذلك شرلكان ولم يباششه عند الملاقاة بل جحدت حقوقه

ولم يلتفت الى شكواه ومات مثل كرستف كلمب ساقطا من عين الاعتبار منحطا عن درجة القبول والوقار (سنة ١٥٤٧ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٥٤ من الهجرة)

(الفصل الخامس)
(فى كشف بلاد پرو وفتحها)

لما كشف نونيزدو بلبأو بحر الجنوب وبلغه أن هنالك بلادا ذات ثروة يكتنفها هذا المحيط سافر من وقتئذ الاسپانيول النازلون فى دريان وپناما عدة اسفار لاستكشاف هذه البلاد المجهولة ولم يخرجوا من ذلك على طائل فظهر ثلاثة رجال ممن اهم تولع بالمشروعات وهم فرنسيس پيزارو ودييغو دلماغرو وفرننددولوكه واشتركوا فى هذا الغرض (سنة ١٥٢٤ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٣١ هجرية) ففازوا من ذلك بالمرام فاما پيزارو فكان ابنا طبيعيا (اى متولدا من سفاح لا من نكاح) لرجل من بيكزادت مدينة طروكسيلو وكانت امه من رعاع الناس فلم يكن بحسب اصله اهلا لأن يتصف بغير صفة امه من الخسة والدناءة واما ألماغرو فكان لقيطا واما فرننددولوكه فكان قسيسا ورئيسا على مكتب فى پناما فاكتسب الاولان علو المنزلة بالسلاح وجمع الثالث اموالا جسيمة لم يبين التاريخ طرق جمعها وكان پيزارو هو اول من اقتحم اخطار هذه السفرة البعيدة وبعد أن استغرق فى السياحة مدة طويلة عرف فيها بالثبات والمواظبة حيث لم تفتر همته بما صادفه فيها من الموانع والاخطار كشف ساحل پرو ونزل بمدينة طنبس وهى مدينة عظيمة بها هيكل كبير وسراية للانكا وهو لقب لولاة تلك البلاد فعجب الاسپانيول لما رأوا هذا القطر عامرا جيد الزراعة لاسيما وجدوا فيه من الذهب والفضة شيأ كثيرا حتى ان استعمالهما هنالك لم يكن مقصورا على زينة العامة وزخرفة الهياكل بل الاوانى والمواعين المعتادة متخذة منهما ايضا فلما عاينوا تلك الاموال ازداد طمعهم وقوى شرههم غير أن پيزارو لما لم يكن معه من القوة العسكرية لفتح هذا القطر الاشئ

قليل اقتصر على معرفته وطاف جزأ من سواحل تلك البلاد ثم رجع الى پناما (سنة ١٥٢٧ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٣٤ هجرية) فكانت مدة غيبته عنها ثلاث سنوات تقريبا وكان قد جرى على ألسنة الاسبانيول تسمية هذه البلاد التى استكشفوها باسم برو اخذا من اسم نهر صغير هنالك ثم تغير هذا الاسم الى پرو بالباء الفارسية وهو دال على عدة ولايات لكل منها اسم يخصه

ثم ان هؤلاء الشركاء الثلاثة اتفقوا على أن پيزارو يذهب الى اسپانيا ويطلب من الدولة لنفسه منصب حكمدارية هذه البلاد التى قصدوا فتحها ولصاحبه ألماغرو نيابة حكمداريتها ولثالثهم لوكه وظيفة الاسقفية عليها فذهب الى اسپانيا وحسن لشرلكان ووزرائه ما اتى بصدده من المقاصد والاغراض حتى اعجبتهم واستصوبوها وكان ذلك سنة ١٥٢٨ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٥ هجرية) فقلد بالحكمدارية وجعل قپودان عموم وأدلنتادة (اى حاكما جهاديا) على جميع القطر الذى استكشفه وعلى الاقطار التى يؤمل لستكشافها وفوض له تفويضا كليا فى المصالح العسكرية والملكية وطلب للوكه ما كان يطمع فيه من وظيفة الاسقفية فاجيب الى ذلك ولم يطلب لألماغرو الاحكمدارية الحصن الذى عزموا على بنائه فى طنبيس وجمع من الرجال ما يزيد بقليل على مائة ثم عاد الى پناما (سنة ١٥٣٠ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٣٧ من الهجرة) وصحبه اليها اخوته الثلاثة وهم فرديننـد ويوحنا وغونزاليز فلما رآى ألماغرو أن آماله قد خابت فسخ ما كان بينه وبين هذا الصاحب الخائن من المعاهدة والروابط غير أن پيزارو سكن غيظه ببعض مزايا ومواعيد وتجددت المعاهدة على الشروط القديمة فلما انضمت عزائم هؤلاء الشركاء الى بعضها لم يتيسر لهم الاجمع ثلاث سفن صغيرة ومائة وثمانين عسكريا منهم ستة وثلاثون من الخيالة اخذهم پيزارو وركب بهم البحر سنة ١٥٣١ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٨ هجرية) واما ألماغرو

فبقى

فبقى هذه المرة ايضا فى بناما ليجمع فيها مددا من العساكر التزم بقيادته بنفسه ثم ان بيزارو خرجت عليه ريح صدته عن صوب سفره ودفعته الى ماوراء طنبيس بمائة فرسخ فاضطر الى الخروج على بر جون سنفتيو وسار هو وعساكره برا بحذاء السواحل حتى وصل الى طنبيس فحل فيها بعساكره من الامراض ما ألجأه الى المكث بها ثلاثة اشهر وقدم اليه فى تلك المدة مددان قليلان لكنهما كانا تحت قيادة سبستيان بينلكزار وفرندسوتو وكانا من اعظم الضباط الذين خدموا فى امريقة ثم خرج من طنبيس ووصل الى مصب نهر بيورة ورتب هنالك اول قبائل برو الاسبانيولية وسماها سنت ميشيل (اى المار ميخاييل)

ثم ان اهل برو كانوا سابقا يعيشون عيشة المتوحشين المتبربرين حتى اتى اليهم رجل وامرأة عليهما جلالة وجلالة وكان اسم الرجل منقوقاباق والمرأة ماماوقلو وأخبرا انهما ولدا الشمس ويقال انهما ظهرا لاهل برو على شاطئ بحيرة تتياكا وجمعا اقواما من الطوائف الرحالة النزالة وعلماهم فن الزراعة وفنونا اخرى نافعة وأسسا فى قوسكو مدينة وسلطنة فهذا هو أصل سلطنة الانكاآت اى امراء برو حسبما يذكره اهل تلك البلاد خلفا عن سلف وكان على سرير ملكها وقت وصول الاسبانيول اليها سنة ١٥٢٦ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٣ هجرية) هواناقاباق وهو الخليفة الثانى عشر للانكا منقو وكان قد ادخل مملكة كيتو تحت طاعته وتزوج بنت ملكها الذى سلب منه ملكه ورزق منها بولد سماه اتهوالبا ثم مات واوصى لولده هذا بالمملكة التى سلبها من جده (وهى كيتو المذكورة) (سنة ١٥٢٩ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩٣٦ من الهجرة) واوصى لاخيه المسمى هوسكار الذى كانت امه من عائلة الانكاآت الملوكية بمملكة قوسكو فاراد هوسكار المذكور ابطال وصية ابيه ولكن اثبتها اتهوالبا بجيشه الذى قاده بنفسه حيث غلب اخاه واخذه اسيرا وأباد نسل منقوقاباق وهم الانكاآت اولاد الشمس الاخصهم

السيئ البخت (يعنى اخاه هوسكار) فانه ابقاه رغبة فى تمكين شوكته على وجه حسن باعطاء الاوامر باسم اخيه

فهذا الحرب الاهلى سهل على بيزارو التوغل فى تلك البلاد حتى وصل الى مقر السلطنة قبل أن يتفكر احد فى منعه (سنة ١٥٣٢ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٣٩ هجرية) ولم ينتظر قدوم الامداد الذى كان آتيا اليه من پناما بل اخذ اثنين وستين من الخيالة ومائة واثنين من المشاة وتوجه بهم الى مدينة كاكزملكا اوكاكزمركا وكان اتهوالبا نازلا بها مع معظم عساكره فأظهر له بيزارو دلائل المحبة فبعث له ذلك الانكا هدايا ثمينة ولم يمنعه عن سيره فطلب منه بيزارو الاجتماع به فوعده اتهوالبا انه يأتى فى الغد ليشاهد الاسپانيول فلما جاء الغد حضر هذا الانكا فى موكب وأبهة عجيبة وقدم محمولا على اعناق اكابر خاصته وكان بين يديه اربعمائة رجل يمشون أمامه وكان معه من العساكر ما يزيد على ثلاثين ألفا حتى ملأوا السهل فقام الراهب امام التجريدة الاسپانيولية المسمى ونسنت ولبرد ودعاه الى دين النصرانية ومبايعة البابا وملك قسطيلة فظهر من اتهوالبا بعض علامات تدل على احتقار ذلك فعند ذلك اشار بيزارو لعساكره بالهجوم الذى كان قد استعد له كل الاستعداد فاطلق الاسپانيول الاسلحة النارية وحمل خيالتهم حملة منكرة فاستولى الخوف والرعب على قلوب الامريقيين حين دهمهم ذلك على حين غفلة وولوا الادبار من سائر الجهات وقتل منهم اربعمائة رجل وغنم الاسپانيول من معسكرهم غنيمة عظيمة ولم يقصد بيزارو الا الانكا اتهوالبا فقبض عليه ورجع به اسيرا فعرض عليهم أنه يفتدى نفسه باكثر مما كانوا يظنونه من كثرة الاموال بمملكته وذلك انه التزم أن يملأ الغرفة التى كان مأسورا فيها من اوانى الذهب الى نهاية ما يمكن للانسان مسه من جدرانها فى الارتفاع وكان طول هذه الغرفة اثنين وعشرين قدما وعرضها ستة عشر فأجيب الى ذلك فارسل من طرفه رسلا الى قوسكو وكيتو وجميع ولايات سلطنته وامرهم أن يجمعوا

ما التزم به لفداء نفسه ويأتوا به الى كاكزملكا فأبطأ هؤلاء الرسل فى جمع الذهب بطأ ضجرمنه الاسبانيول فاعتذرلهم اتهوالبا ببعد مدينة قوسكو وصعوبة الطرق وطلب من بيزارو أن يرسل اليها رسلا من الاسبانيول ليتمكنوا من الاموال بانفسهم فوجد هؤلاء الرسل فى ذلك فرصة لزيارة هوسكار فى سجنه وكان بعيدا عن كاكزملكا ببعض مراحل (وكان ذلك سنة ١٥٣٣ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩٤٠ من الهجرة) فالتزم لهم هذا الامير بفداء اعظم من فداء اخيه اذا هم التزموا بحمايته فبلغ ذلك اتهوالبا سرا فخشى أن يجيب الاسبانيول اخاه الى ما طلب فصدرت عنه الاوامر بقتل أخيه ونجزت مع السرعة ومن وقتئذ تجدد فيه نشاط آخر حمله على تعجيل جمع ما التزم به للاسبانيول فى فدائه حتى يزيل بذلك ما عساه أن يقع فى قلوبهم من الريبة من هذه الفعلة وفى هذا الوقت قدم ألماغرو من بناما فأعلنت عساكر بيزارو بأن القادمين لا ينبغى لهم رجاء المقاسمة مع المنصورين فى الاموال وفى الواقع لم يأخذ ألماغرو واصحابه من فداء اتهوالبا الا مقدارا يسيرا حيث لم يسمح لهم منه الا بما قيمته مائة ألف ريال من نقود ذلك العصر وبقى بعد ذلك مليون وخمسمائة ألف قسمها بيزارو عليه وعلى اصحابه فكان نصيب الفارس ثمانية آلاف والراجل اربعة آلاف واما بيزارو وضباط عساكره فكان نصيب كل منهم على حسب درجته

ومع أن اتهوالبا وفى بما التزم به لم يخل الاسبانيول سبيله بل عزموا على قتله وذلك أن ألماغرو خشى أن هذا الانكا ما دام حيا يختص جيش بيزارو بالغنيمة كلها ويدعون انها من فداء الانكا المذكور وكان بيزارو قد سقط من اعين اتهوالبا لأنه كان اجهل ادنى عساكره امّيا لا يعرف القراءة والكتابة فهذه الاسباب النفسانية او المصلحة الخصوصية حملتهم على الحكم بقتل اتهوالبا ولا مانع أن الاسباب السياسية كانت اعظم مدخلية فى ذلك وتجاسروا على أن يحكموا فى شأنه بموجب الاصول الجارية

باسبانيا في دعاوى الجنايات وكان مجلس هذا الحكم الغريب الذي تمثل فيه الانكا اتهوالبا مؤلفا من بيزارو و ألماغرو واثنين من المشيرين وادّعوا عليه أنه قد ارتكب ذنب قتل اخيه وتعدد الزوجات وعبادة الاوثان واختلاس اموال السلطنة التي ملكها الاسبانيول بحق الفتوح واتهموه بذنوب اخرى غير ذلك فحكموا عليه بموجب هذه الذنوب التي اتهموه بها أن يحرق حيا ثم ان هؤلاء القضاة الذين لا يعرفون الشفقة ولا الرأفة خلطوا قسوتهم بالدين مع أن هذا الدين ينهى عنها فوعدوا هذا الملك المسكين بأنه ان رضي بالتعميد والتنصر خففوا عنه العذاب فرضي بذلك فغيروا الحرق بالصلب على المشنقة التي كان مربوطا عليها

وبعد موته قلد بيزارو بالملك احد أولاد هذا الملك وكان شابا لا خبرة له بالامور ولا تجربة ليجعله عند الحاجة كالآلة في قضاء اوطاره واما اهل قوسكو ومجاوروهم فبايعوا بالملك عليهم منقوقاپاق اخا هوسكار وكان هنالك جنرال مقلد بحكمدارية كيتو من طرف اتهوالبا يقال له رومنغي فقتل اخا سيده واولاده واحدث مملكة مستقلة فلما رأى بيزارو هذا التفاقم والشقاق لم يتردد في التوجه الى قوسكو وايضا كان قد شاع خبر نجاحه حتى اتى له امدادات عظيمة فصار بذلك مقتدرا على التوغل في داخل البلاد بدون أن يخشى خطرا فتغلب على قوسكو بعد ان وقع بينه وبين الاهر يقيين عدة وقعات كانت عاقبتها هزمهم وقتلهم كما هي عادة الاسبانيول معهم ووجد في قوسكو من الاموال والخزائن ما يزيد بكثير على ما بذله اتهوالبا في فدائه وفي اثناء ذلك دخل بنالكزار بفرقة من العساكر الجديدة التي قدمت من پناما ونيقرانية في مدينة كيتو ظافرا منصورا ولكن رومنغي اضرم النار في جهة من سراية الانكاآت تشتمل على نفائس الاثاث والامتعة وكان الاهالي قد فروا بأموالهم وامتعتهم وفي ذلك الوقت قدم فرديننذ بيزارو من اسبانيا وكان قد ارسله اخوه اليها بهدية عظيمة للايمبراطور شرلكان فجاء معه بفرمانات من طرف الايمبراطور

تتضمن

تتضمن أن شرلكان قد اقرأخاه فرنسيس بيزارو على منصب الحكمدارية بتلك البلاد ووسع حدود حكومته التى يلزم أن تسمى قسطيلة الجديدة وأن البلاد المتوغلة بجهة الجنوب تسمى طليطلة الجديدة وأن ألماغرو يتقلد بحكمداريتها ويلقب بلقب أدلنتادة اى نائب عموم فلما بلغ ألماغرو انه حظى من الايمبراطور بحكومة مستقلة زعم أن قوسكو دار اقامة الانكا آت من ضمن هذه الحكومة فتأهب للاستيلاء عليها ومع ذلك فقد حصل السعى والوصول الى اجتناب ما يكون به قطع روابط الصلح علانية على رؤوس الاشهاد فعقدت مصالحة جديدة بين بيزارو وألماغرو كان شرطها الاصلى أن ألماغرو يشرع فى فتح ولاية شيلى فان رآها لاتليق لاستيطانه نزل له بيزارو عن جزء من بلاد پرو

ولما انتهت هذه القضية على هذا الوجه ورأى بيزارو انه لم يبق له عدو من الاسبانيول ولا من الهنود تشبث بايقاع تنظيم الضبط والربط فى بلاد حكومته الواسعة فقنن قوانين فى شأن الاقضية والاحكام وقبض المغارم واستخراج المعادن ومعاملة الهنود ثم لما رأى أن مدينة قوسكو واقعة فى ركن من اركان الايمبراطورية على البعد من البحر باكثر من اربعمائة ميل وبينها وبين اقليم كيتو المهم مسافة اعظم من ذلك اسس فى وادى ريمالة الخصب بعيدا عن المحيط بمسافة مدينة يقال لها مدينة تروارو (اى مدينة الثلاثة الملوك) واكثر شهرتها باسم ليما وهو تحريف عن الاسم الذى كان يسمى به ذلك الوادى الذى اسست فيه تلك المدينة (وكان تأسيسها سنة ١٥٣٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٢ من الهجرة) وشيد فى داخل سورها عمارات فاخرة آذنت بمستقبل عظيم للمدينة

هذا وقد توجه ألماغرو الى شيلى بخمسمائة وسبعين رجلا وذلك اعظم فرقة جمعت فى پرو من عساكر اوروبا فهلك منهم فى الطريق طائفة عظيمة من الجوع والتعب ومن بقى منهم ووصل الى شيلى وجد فيها ملة حربية قاومتهم اشد المقاومة حتى صار طرف النجاح فى ذلك المشروع مرجوحا

وبينما هم كذلك اذ حصل فى پرّو على حين غفلة فتنة وقيام حملهم على العود اليها

وذلك أنه بعد طرد رومنتى المفتات وموت ابن انهوالبا بويع لمنقوقاپاق بالولاية على عموم المملكة فانتهز هذا الملك فرصة الخطا الواقع من الفاتحين حيث ارسلوا عند سفر ألماغرو فرقا اخرى الى عدة اقاليم بعيدة كانوا لم يطلعوا عليها الى ذلك الوقت فلما رآى منقوقاپاق أن اعداءه قد تفرقوا فرّ من مدينة قوسكو التى كان بها كالاسير فى سراية اسلافه واشار لرعاياه بالحرب فاجتمع منهم حوله فى اقرب وقت مالا يحصى كثرة فبعث جيشا لمحاصرة ليما وذهب بنفسه لمحاصرة قوسكو وكان بها يوحنا وغونزالبزيزارو ومعهما فرقة قليلة من العساكر (وكان ذلك سنة ١٥٣٦ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٤٣ هجرية) فمكث الحصار تسعة اشهر وسلك فيه اهل پرّو مسلك الماهرين الناشطين حيث تأسوا بالاسبانيول فى الضبط والربط والتربية العسكرية وتمرّنوا مثلهم على القتال حتى جعلوهم من التضييق عليهم فى اسوء حال

فبمجرد ما بلغ ألماغرو خبر هذا القيام الواقع من اهل پرّو بادر بالرجوع اما لأجل الاستيلاء على قوسكو اولاعانة ابناء وطنه (وكان رجوعه سنة ١٥٣٧ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٤٤ من الهجرة) ففاجأ اهل پرّو بالاغارة وشتت شملهم ودخل تخت المملكة ليلا وألزم عشيرة بيزارو بالتسليم والانقياد اليه بحيث يكونون تحت تصرفه وبعد ذلك بمدة هزم وأسر ألونزودلواردو وكان فرنسيس بيزارو قد بعثه ليعين اخوته واهل مدينة قوسكو بعد أن انقذ مدينة ليما ثم ان ألماغرو لم يعرف أن يجتنى ثمرة ظهوره وظفره وذلك أنه اشير عليه أن يتوجه حالا لقتال بيزارو الذى كان الى ذلك الوقت يجهل رجوعه ونصراته وأن يغير عليه فى ليما قبل أن يستعد للمدافعة فأهمل ألماغرو هذه النصيحة النافعة التى اشير بها عليه وانتظر قدوم عدوه مع أنه هو الذى كان ينبغى له البحث عنه والسعى لقتاله بل تساهل فيما اولاه الدهر حيث جعل تحت قبضته رهائن كريمة ولم يعتن

بمراقبتها والمحافظة عليها ففرّ منه ألورادو مع واحد من اخوة بيزارو ثم اطلق الآخر لما اغترّ بالمفاوضات الخداعية فلما صار فرنسيس بيزارو آمنا على أخويه استعدّ للحرب وارسل اخاه فرديناند بيزارو لقتال خصمه وأصحبه بسبعمائة رجل فانهزم ألماغرو فى سهل قوسكو (فى ٢٦ من شهر ابريل سنة ١٥٣٨ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٤٥ من الهجرة) وبقى فى ربقة الاسر وضيق عليه فى الحرس عدة اشهر ثم ادّعى عليه بأنه بموجب القوانين قد ارتكب ذنب الخيانة واقيمت دعواه بمقتضى الاصول الجارية فحكم عليه بالموت فما كان من البيزارية الذين كانت قبل ذلك ارواحهم فى قبضته ولم يسفك دماءهم الا انهم بادروا الى تنجيز هذا الحكم مع القسوة وعدم الرأفة فخنق فى السجن وعمره خمس وسبعون سنة

ثم ان الكمدار بيزارو بعد موت ألماغرو وزع الاراضى على المنصورين توزيعا لم يجر على سنن العدالة فانه اخذ لنفسه واخوته واخصائه كورا عظيمة فى اخصب الاراضى ولم يترك لبقية اصحابه الا اراضى عقيمة اوواقعية موقعا رديئا واما اصحاب ألماغرو فلم يكن لهم نصيب فى هذا التوزيع

وفى هذا الزمن اتسعت حكومة الاسبانيول ايضا بمشروعات جديدة منها أن بطرس دووالديويا تشبث بتنجيز غرض ألماغرو فى شأن ولاية شيلى فقصدها واقام بها مع ما كان عليه اهلها من البسالة وفرط الشجاعة واسس فيها مدينة سنتياغو وهى اوّل ما اسس للاسبانيول فى هذه الولاية واشهر هذه المشروعات التى حصلت فى ذلك العصر واحقها بالذكر هو مشروع غونزالز بيزارو فان المذكور شرع فى كشف وفتح البلاد الواقعة فى شرق الهند فسافر اليها من كيتو بثلثمائة واربعين عسكريا ووصل بعد العنا والمشقة الفادحة الى سواحل نهر نابو وهو من الانهار العظيمة التى تصب مياهها فى نهر مارنيون وفى هذه السواحل تركه نائبه المسمى فرنسيس أوريلانا وكان قد نيط برياسة سفينة صغيرة صنعها الاسبانيول بعد مشقة كبيرة ليستعينوا بها على معرفة البلاد فترك السفينة

تجرى به وبأصحابه وكانوا خمسين رجلا فى تيار هذا النهر حتى دخل فى نهر مارنيون ثم انحدر فى هذا النهر حتى دخل فى المحيط بعد أن قاسى من المشاق والاخطار ما لا مزيد عليه ووصل الى نزلة كوبانيا الاسپانيولية ثم اقلع منها الى اسپانيا وجمع فى اخبار رحلته بين الصدق والكذب فزعم انه وجد بلادا ذات ثروة عظيمة حتى ان الهياكل فيها مستورة بالذهب وانه رآى جمهوريةمن النساء الحربيات تستقل بحكومتها على اقطار واسعة فكان هذا اصلا لما قيل فى شأن بلاد ايلدورادو الاختراعية التى لا حقيقة لها وفى الجمهورية الشهيرة المنسوبة للامزونات (اى النساء المسترجلات) من الحكايات الموضوعة التى مكثت زمنا طويلا والناس يعتقدون صحتها لتولعهم بالعجائب ورغبتهم فى الغرائب ثم ان غونزاليز حين خانه اوريلانا كان بينه وبين كيتو ألف ومائتا ميل فطلب اصحابه منه الرجوع وهلك اغلبهم من التعب والجوع ولم يرجع معه منهم الى پرو سوى ثمانين نفسا

فلما وصل الى كيتو بلغه أن اخاه مات اسوأ ميتة وذلك أن اصحاب ألماغرو من وقت توزيع الاراضى عدوا انفسهم كالمحكوم عليهم بالقتل فكانت تزداد فيهم رغبة الانتقام فذهب اغلبهم الى ليما وأعانهم فيها ابن قائدهم القديم (ألماغرو) ببقايا امواله فصار له عندهم من المنزلة والمودة ما كان لأبيه وبايعوه بالرياسة وتحزبوا معه على تدمير ظالمهم فقتلوا فى السادس والعشرين من شهر يونيه سنة ١٥٤١ ميلادية (اى نحو سنة ٩٤٨ هجرية) فرنسيس پيزارو وهو فى سرايته ثم انتشروا فى المدينة وجاؤا اليها بألماغرو الصغير الذى هو ابن قائدهم الاول مع الموكب والاحتفال وقلدوه منصب الحكمدارية ولكن لم يبايعه على هذا المنصب جميع الناس وعما قليل اخذ منه بثار پيزارو وذلك أن الايمبراطور شرلكان بمجرد ما بلغه امر الحروب الداخلية الواقعة فى بلاد پرو عزم على أن يرسل اليها رجلا مفوضا تفويضا كليا لينظر حالة المصالح فيها ويرتب حكومتها على وجه حسن فاختار لذلك واكاد وقسطرو فسلك فيما نيط به مسلكا جعله اهلا لاختيار

الايمبراطور له فانه بمجرد مابلغه موت بيزارو وما اعقبه من الحوادث تلقب بلقب حكمدار برو ورفع العلم الملوكى وجمع العساكر وذهب للبحث عن العدو فانهزم أمام اغرو الصغير قريبا من شوپاس (سنة ١٥٤٢ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٤٩ من الهجرة) ولكنه هرب ثم قبض عليه بعض ضباطه وسلموه للحكمدار فضرب عنقه فى قوسكو على رؤوس الاشهاد

وفى مدة هذه المشاجرات التى سفكت فيها الدماء تشاور الايمبراطور ووزراؤه فى طرق يتمكن بها الهدء والامن بواسطة تدبير حكومة القبائل الاسپانيولية وادارتها على وجه منتظم وكانت الدولة قد فوضت لآحاد الناس كشف بلاد الدنيا الجديدة وفتحها اوأنها كان لها فى ذلك مدخلية واهية فلذا لزم أن النزلات والقبائل التى انشأها اوباش الناس وجهلتهم الخشنيون الذين كانوا لايشتغلون الا بما فيه ثروتهم ويسارهم تكون خالية عن حسن الضبط والربط فكان الفاتحون لايعرفون من الحقوق الاحق القوة والاقتدار وكانوا يعدون مايسلبونه من اموال الامم المغلوبة عوضا عن المصاريف التى بذلوها وجزاء يستحقونه على المشقة التى كابدوها وصنعوا فى مكسيكة وبرو مثل ماصنعوا فى الجزائر واستغلوا اهل البلاد فى استخراج المعادن حتى هلك كثير من هؤلاء المساكين من الاشغال التى كانت فوق طاقتهم فخشيت دولة اسپانيا أنها بعد قليل لايكون لها سلطنة الا على صحارى وقفار فوضعت عدة قوانين لو جرى العمل عليها لحصل التخفيف بها عن الهنود ولكن زاغ عنها الفاتحون اولم يعبأوا بها اما لحرصهم وطمعهم اولوقاحتهم وجسارتهم ثم بذل كرلوس الخامس (شرلكان) سنة ١٥٤٢ من الميلاد وسعه واجتهد اجتهادات اخرى فى مداواة هذا الداء الذى كاد يكون عضالا وكان اذ ذاك لاس كزاس الدومينيقى بمدينة مدريد لقضاء مصالح بيت من بيوت طائفته فدعاه الايمبراطور شرلكان الى الحضور لديه فمكن هذا الراهب فى ذهن الايمبراطور ما كان مصمما عليه من الاغراض بما ابداه فى مخاطبته له

من الفصاحة وذكر ما كان عليه الامر يقيون من الشقاء وسوء الحال وما كان عليه الفاتحون من القساوة والجفا حيث اتى فى وصفهم بما يؤثر فى القلوب ويرثى به لحال هؤلاء المساكين فقنن الامبراطور لحكومة امريقة قوانين مشتملة على عدة احكام نافعة وكانت ادارة القبائل الاسبانيولية بجملتها موكولة لمجلس عال يسمى مشورة الهند وكانت هذه المشورة موجودة من سنة ١٥١١ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٧ هجريه) لكن لم يستقر ترتيبها و يثبت امرها وتفرغ فى القالب التى هى عليه الا فى سنة ١٥٤٢ من الميلاد وفى هذا الزمن قلد من طرف الامبراطور عامل فوض له تفويضا كليا فى الادارة الملكية والجهادية ببلاد پرو وكان على مكسيكة عامل من سنة ١٥٤٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٧ من الهجرة) وفى سنة ١٥٤٢ جعل فى مدينتى مكسيكو و ليما مجلسان لفصل الدعاوى وكانا عبارة عن محكمتين من المحاكم العليا منوطتين بالاقضية والاحكام وجعلا تحت رياسة عامل تلك الجهة وقد بلغت عدة مجالس فصل الخصومات فيما بعد عشرة وعدة العمال اربعة وكانت اقضية هذه المجالس ترفع لمشورة الهند لاجل النظر فيها

وفى سنة ١٥٤٤ ميلادية (اى نحو سنة ٩٥١ هجريه) ذهب الى مكسيكة فرنسيس تيلودوساندوال بلقب ناظر عموم وكان مأمورا بالمفاوضة فى تلك البلاد مع عاملها أنطوان دومندوزة فى شأن وضع اصول وقوانين جديدة وبعث الى پرو بمثل هذه المأمورية ملاسكونونيز ويلا وجعل عاملا على هذا القطر وقد جرى العمل فى مكسيكة على القوانين التى نقلت اليها من اوروبا ولم يعارض فى ذلك معارض بخلاف پرو فلم يكن الامر فيها كذلك فان اهل القبائل بها عارضوا هذه القوانين لانهم رأوها من الاقتيات على حقوق الفتح وازداد ضررهم لما رأوه فى نونيز ويلا من الجبروت والعتو فأشار هؤلاء العصاة الخارجون عن الطاعة على غونزالبز پيزارو أن يكون لهم رئيسا وقائدا فجمع فى مدة

يسيرة

يسيرة فرقة من العساكر لامانع انها اذ ذاك كانت تعد فى امريقة من الجيوش الجرارة ووقع بينه وبين العامل قريبا من كيتو وقعة سنة ١٥٤٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٥٣ من الهجرة) ومكث امر النصرة مترددا بين الفريقين مدة طويلة فلما قتل نونيسزويلا كان موته سببا فى هزيمة عساكره وانقادت البلاد كلها الى بيزارو فأشار عليه اصحابه أن يستولى على الحكومة فتجرد عن العزم والثبات فى هذه الحالة التى كان بها الانفصال وتمام الامر حيث قصر أمنيته على أن يطلب من دولة اسپانيا أن تقره على الشوكة التى كان يتمتع بها فلم تجبه هذه الدولة الى ذلك بجواب صريح وبعث بطرس ذوغسكا مشير محكمة تفتيش العقائد والامور الدينية الى پرو بلقب رئيس مجلس ليما لاجل ملاحظة الامور والنظر فيها ومداواة ادوائها بالادوية المناسبة فسلك مع الناس مسلك الحزم والملاطفة حتى استمالهم اليه وانضم اليه جم غفير من الضباط والعساكر وامتنع بيزارو من مبايعته وبعد أن بذل غسكا مجهوده فى حقن الدماء ولم يجد ذلك نفعا جمع ألفا وستمائة رجل وسار بهم الى مدينة قوسكو وكان بيزارو مستوليا عليها فتخلى عنه جماعة من ضباطه وقت الالتحام فقبض عليه وضربت عنقه (سنة ١٥٤٨ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٥٥ هجرية) وجعل غسكا جيشين من العساكر لتنظيم حكومة پرو ثم عاد الى اسپانيا سنة ١٥٥٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٥٧ من الهجرة) بعد أن وفى بمأموريته على وجه اكسبه الشرف والفخار ومع ما رتبه فى تلك البلاد من القوانين العظيمة تعكر فيها امر الهدء ثانيا بما حصل فيها من القيام والخروج عن الطاعة غير مرة الا أن ذلك كان وقتيا لا يناسب أن يذكر فى تاريخ عام وانما يقتصر منه على التنبيه على أن الحروب الاهلية أنقذت بلاد پرو بالتدريج من المفسدين المعربدين الذين فتحوها لتخريبها وتنغيص اهلها وتمكنت شيأ فشيأ الشوكة الملوكية فى هذه البلاد اتم تمكن كغيرها من النزلات والقبائل الاسپانيولية

(الدور الثانى)

فى الكلام على ما حصل منذ تولية فرنسيس الاول ملكا على فرانسا وظهور المذهب اللوثريانى (المسمى ايضا مذهب لوتير) الى مصالحة كاتوكمبريزيس (وذلك من سنة ١٥١٥ الى سنة ١٥٥٩ من الميلاد) (اى من سنة ٩٢١ الى سنة ٩٦٧ من الهجرة تقريبا)

(الباب الاول)

فى الكلام على فرانسا واسبانيا وايطاليا من سنة ١٥١٥ الى سنة ١٥٥٩ من الميلاد

(الفصل الاول)

من جلوس فرنسيس الاول على سرير مملكة فرانسا الى جلوس شرلكان على سرير الامبراطورية وذلك من سنة ١٥١٥ الى سنة ١٥١٩ ميلادية)

لما مات كرلوس الخامس ملك فرانسا اعقب ولدين احدهما كرلوس السادس الذى خلفه على المملكة وانقرضت ذريته بموت كرلوس الثامن وثانيهما لويز الاول دوق اورليان الذى أعقب من زوجته والنطينة ويسقونتى ثلاثة اولاد احدهم كرلوس ابو لويز الثانى عشر والثانى فيليش قونتة ورتوس وقدمات هذا ولم يعقب ذرية والثالث يوحنا قونتة انغوليم وكان لهذا ولد يقال له كرلوس دانغوليم تزوج لويزة دى ساوة فرزق منها بفرنسيس الاول سنة ١٤٩٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٠٠ من الهجرة)

وكان لويز الثانى عشر (ملك فرانسا) يرى أن فرنسيس هذا وارثه والخليفة من بعده فعامله معاملة الوالد لولده من الرأفة والشفقة وعين أرتوس دوغوفيير بوازى لتأديبه وامره بالاعتناء بتربيته وفى سنة ١٥١٢ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٨ هجرية) جعله قائدا على جيش البرنات وامره بطرد دوق ألبه وكان قد تغلب على اقليم نوار فوفى فرنسيس

بهذه المأمورية مع النجاح وفى سنة ١٥١٣ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩١٩ من الهجرة) انتخب بجبرهزيمة دوق لنغويلة بمدينة غنغانه فاستقام يدافع العدو مدافعة الحازم المتبصر حتى منعه من اجتناء ثمرة نصرته وفى سنة ١٥١٤ ميلادية (اى نحو سنة ٩٢٠ هجرية) تزوج قلودة دى فرانسا بكرية ابويها لويز الثانى عشر وحانة دى ابريطانيا وكان قد حصل التصميم على هذا النكاح من سنة ١٥٠٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩١٢ من الهجرة) ولكنه تأخر حتى ماتت حانة دى ابريطانيا لانها كانت تبغض لويزة دى ساوة (ام فرنسيس) وفى سنة ١٥١٥ ميلادية جلس على سرير مملكة فرانسا فأبان فى مبدء ولايته عن البر بامه والحنو والشفقة عليها وعن شكر صنيع مؤدبه حيث حظى لديه غوفيير بوازى بمنصب ادارة المصالح العامة زيادة على منصب الرياسة العظمى فى ادارة المنزل الملوكى وجعل فوتنية أنغوليم دوقية لامه لويزة دى ساوة ورقى أنطوان دوبرات وكانت له الرياسة العظمى على برلمان باريس (مجلس اعيان الملة) الى رتبة القنجلير (ديوان افندى) عملا بوصية امه وكذلك بموجب وصيتها اعطى منصب الكونيتابل (رياسة الجيوش) للدوق دوبربون الذى حصل له من ذلك الوقت ضنك وظلم شنيع حتى زل ورفض دينه ووطنه

وكان لويز الثانى عشر مشتغلا بطرق ووسايط يسترجع بها اقليم ميلان فأدركته الوفاة فى اثناء ذلك فاستمر فرنسيس الاول على هذه التجهيزات خفية وقبل أن يظهر غرضه من ذلك اراد أن يعقد مع الدول التى فى وسعها معارضته مشارطات يربطها بها ويمنعها من المعارضة فجدد المعاهدات القديمة التى كانت بين دولة الفرنساوية ودولتى الانكليز والبنادقة واظهر الارشدوق كرلوس (شرلكان) الرغبة فى الصلح مثل غيره فانه لما كان اميرا على امة غير طائعة وكانت له ولاية العهد على النمسا واسبانيا وكان يخشى من ميل جده ابى امه (وهو فرديننند القاثوليقى) لاخيه فرديننند

رأى أن المصلحة له هى رعاية جانب فرانسا فبايع فرنسيس على أن يكون عاملا له على قونتيات فلندرة وارتواس وشاروليس وانعقدت بينهما معاهدة اشترط فيها زواج الارشدوق المذكور بمدام رينة ثانية بنات لويز الثانى عشر وتكفل له فرنسيس بوراثة اسبانيا بعد موت ملكها والتزم هو لفرنسيس أنه يرد اقليم نوار لخليفه يوحنا دلبريت وتصارى الامر أن دوج مدينة جنوزة (اى حاكمها) سلم هذه المدينة لملك فرانسا ورضى بأن يكون محافظوها من الفرنساوية

واما فردينند والايمبراطور والسويسة وكذلك حليفهم مكسمليان سفورس دوق ميلان فعقدوا فيما بينهم معاهدة لأجل حماية ايطاليا غير أن الايمبراطور لم يصنع شيأ للمصلحة العامة كما هى عادته فبعد أن تغلب ريموند دوكردونة على اقاليم بريسان وويستين وويرنيزة صده جيش البنادقة الذى كان يقوده ألويانة وبقيت النوبة لدوق ميلان وحماته السويسة وحيث اغتر هؤلاء الابطال الجبليون ارباب الجرأة والبسالة بنصرة نوار تجاسروا على اقتحام الخطر فى قتال ملك فرانسا واغاروا على ايالة دوق سابوة وتغلبوا على مدينة باس دوسوزة

ولما تم فرنسيس الاول ملك فرانسا اهبة الحرب بعث الى ايطاليا جيشا جرارا لم يسبق لدولة فرانسا الى ذلك الوقت أنها بعثت مثله الى ماوراء جبال الالب وكانت الخزينة السلطانية عند موت لويز الثانى عشر قد نفدت اموالها فلم يرض فرنسيس أن يجعل ولايته على المملكة مكروهة عند الناس باعادة المغارم التى كان سلفه لويز الثانى عشر قد ابطلها فاقتضى الحال أن يتشبث بطرق ووسائل غريبة يستعين بها على مصاريف التجهيزات فامر ببيع وظائف الحكم والقضاء وكان ابتداء بيع مناصب الاقضية الدنيا قبل حكم سنث لويز واستمر ذلك فى ايامه وبقيت منه بقايا فى عهد خلفائه فلما تولى كرلوس السابع منع بيعها ثم عاد الترخيص فيه

على

على عهد لويز الحادى عشر ثم بطل ثانيا فى زمن كرلوس الثامن فلما
اشتدت حاجة الدولة فى ايام لويز الثانى عشر باع وظائف المالية بل
وبعض مناصب القضاة ثم منع بيعها بعد ذلك فأعاده فرنسيس الاول
ووسع دائرته وذلك أن القنجلير دوبرات قدم لمجلس البرلمان قانونا
يتضمن انشاء قلم جديد مؤلف من عشرين مشيرا تباع وظائفهم لاجل مصلحة
الملك فناقض فيه ارباب المجلس وابوا تسجيله الابامر صريح من الملك ومع
ما ابدته القومبانية فى ذلك من الممانعة والمعارضة جرى بيع الوظائف
وصارت المناصب تباع وتشترى غيرانهم تخلوا من ذلك فألزموا كل من تقلد
منصبا أن يحلف على رؤوس الاشهاد أنه مادفع فى مقابلته شيأ وانما فعلوا ذلك
تنصلا من خزيهم ودفعا لخجلهم ومكثوا على هذه العادة نحو قرن تقريبا
ثم فى سنة ١٥٩٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ١٠٠٦
من الهجرة) ابطل الوكيل العمومى فى عهد هنرى الرابع عادة هذه اليمين
والاولى أن يعبر عنها بالكذب الرسمى (اى الذى صار رسما من الرسوم
الجارية)

ثم ان هذه الوسيلة المشؤمة التى هى بيع المناصب لم تكف فى تحصيل الغرض
المقصود منها فأعاد الملك بعض مغارم كانت مضروبة من قبل ثم بطلت فلما رآى
الناس هذه المبادى التى ابتدأ بها حكمه تشاءموا من ولايته وأظهروا الاسف
على لويز الثانى عشر فبادر فرنسيس الاول الى جبر ماخسرته الملة
فى ذلك بتحصيل الفخار لها بغزوة فاخرة غزاها وذلك أنه جعل امه نائبة عنه
فى المملكة وسار حتى جاوز جبال الالب وجاب بالسرعة اقليم پيمونت
واستولى على عدة مدن حصينة منها مدينة نوار التى انضم اليه فيها فرقة
عسكرية من الالمان تبلغ عدتها عشرة آلاف مقاتل قدم بها اليه
دوق غويلدرة ثم نزل فرنسيس بهذه العساكر المجتمعة فى مارغنان
ومع رغبته فى اكتساب فخار الحرب تفاوض قبل القتال فى امر الصلح
فانعقدت مشارطة التزم فيها السويسة باخلاء اقليم ميلان على أن يدفع

فرنسيس في تطير ذلك لمكسمليان سفورس مرتبا قدره ستون ألف دوقة (نوع من النقود) ويدفع لهم ايضا مبلغا عظيما من الاموال فلما تحصل هذا المبلغ بهمة اعيان الضباط وكرمهم حيث باعوا اوانى مائدتهم وبذلوا جميع مامعهم من النقود نيط لوطريك بحمل تلك الاموال الى مدينة بافولورة وكانت موعدا لأن يقبض فيها السويسة هذه الاموال ولكن اغراهم كرد ينال دوسيون على الخيانة والغدر ولم يعد عليهم من ذلك نفع بل افضى بهم الى الخزى والمعرة وذلك انهم عزموا على أن يحوزوا هذا المبلغ الذى هو ثمن الصلح وأن يستمروا على الحرب فبلغ ذلك لوطريك قبل حصول مرامهم فعدل عن الطريق واودع الاموال في محل مأمون وافاد الملك أن يأخذ حذره فلما ارتحل السويسة مع معسكرهم وذهبوا ليشنوا الغارة على العساكر الفرنساوية طامعين في الهجوم عليهم بغتة رأوهم قد اصطفوا للقتال وتاهبوا للنزال فعجبوا لذلك ولكن لم يرتبكوا فى امرهم بل قصدوا جهة المدافع وكان يحميها المشاة الالمانية وارادوا أن يتغلبوا عليها كما صنعوا فى نوار ويحوّلوها على الفرنساوية فأخذت ثم ردت عشر مرات فى معركة شديدة مكثت بين الفريقين اكثر من ثمانى ساعات حتى اقبل الليل ولم ينته الالتحام فلما جن الظلام وجبرت شدة الظلمة كلا الجيشين على الامساك عن الطعن والضرب اختلط العسكران وامتزج بعضهم ببعض ولزم كل انسان منهم مكانه مع السكوت والسكون خشية أن يلقاه عدوه ومكث الملك للاستراحة على عربة من عربات المدافع بدون أن يلقى سلاحه وكان بينه وبين الفرقة العظمى من عساكر السويسة خمسون خطوة ولما طلع الفجر عادوا للقتال ومكث امر النصرة مجهولا بين الفريقين مدة طويلة ثم ثبتت للفرنساوية فانصرف السويسة لكن مع الانتظام والتشمم ومنع الملك عساكره من تتبعهم لما أنه كان يكره مثل هذا القتل الذريع الخالى عن الرأفة والشفقة الذى وان شفى غليل العساكر لا يزيد فى فخر المنصور شيأ

وقد هلك من السويسة فى وقعة مارغنان هذه ما يزيد على خمسة عشر

القا

ألفا ومن الفرنساوية نحو ستة آلاف حين قال مارشال دوتريوولاس الذى شهد سبع عشرة وقعة ان وقعة مارغنان هى وقعة الجبابرة واما غيرها فهى من ألعاب الصبيان وقد ابدى الملك فيها شجاعة الابطال وسلح من امتاز فيها بالشجاعة والشهامة بأسلحة طائفة الشوالية لكن لم ينظمهم فى سلك هذه الطائفة الا بعد أن تقلد هو بسلاح الطائفة المذكورة من يد بيار وانتظم فى سلك رجالها فعانقه بيار ثم صاح بأعلى صوته يخاطب سيفه وهو بيده اليمنى على سبيل الملاعبة قائلا ما اسعدك اليوم ايها السيف حيث قلدت برتبة الشوالية ملكا فاضلا ذا شوكة واقتدار وانك ايها السيف الجيد الجدير بأن تحفظ كآثار القديسين وتشرف على كل السيوف ولا تحمل الا لقتال الترك والعرب او المغاربة ثم طفر طفرتين وغمد سيفه

ثم سار الملك الى ميلان وكان كردينال دوسيون قد التجأ اليه فلما دنا الفرنساوية منها فر الى الايمبراطور مع الشاب فرنسيس سفورس سوغ الدوق مكسيمليان سفورس (اى اخيه الذى ولد بعده ولم يولد بينهما) وبعد أن حاصر الفرنساوية هذا الدوق فى حصن ميلان عشرين يوما انعقدت بينه وبينهم مشارطة التسليم فنزل لهم عن جميع حقوقه نزولا لا رجعة بعده على أن يدفعوا له مرتبا سنويا قدره ثلاثون ألف ايكو (نوع من المعاملة) ثم بعثوه الى فرانسا فلم يزل بها حتى مات سنة ١٥٣٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٧ من الهجرة) ولما صار الملك مستوليا على اقليم ميلان دخل تحت هذا الاقليم بموكب واحتفال ورتب فيه مجلس برلمان واقام فى ايطاليا مدة يدبر امر المصالح المختلفة مع حكام تلك البلاد لاسيما البابا (ليون العاشر)

ومن حين جاوز فرنسيس الاول جبال الالب لم ينفك البابا عن المفاوضة فى امر الصلح والسلاح بيده مستعدا لقطعها اذا هو رأى الدهر قد خان فرنسيس وقطع مسالمته فلما رآه مسعفا له ولم يقطع عنه مسالمته عزم على انهاء تلك المفاوضة بعقد الصلح والمشارطة معه فكان من بنودها الصعبة رد مدينتى

بارمة و بلبزنسة وكان من امرهاتين المدينتين أن البابا يولس الثانى بعد
وقعة راوينة وموت غسطون تغلب عليهما وكانتا الى وقت تغلبه عليهما
تحت حكم دوقات ميلان ولم يسع الدوق مكسمليان فى استرجاعهما بل
تساهل فيه ماوكان وقوع مثل هذا التساهل من فرنسيس غير ممكن فلذا وضع
نائب البابا القرار والتصديق فى مدينة باويا على المشارطة التى رد بموجبها
ليون العاشر هاتين المدينتين ونزل عنها لدولة فرانسا والتزم بطلب عساكر
الكنيسة الذين كانوا يقاتلون البنادقة وفى نظير هذين الشرطين ادخل الملك
تحت حمايته العائلة المديسيسة وتخلى عن العائلة الباتيبوغلية وترك للبابا
مدينة بولونيسة والتزم أن لا يعارضه فى تنجيز اغراضه فى شأن فرنسيس
مارى دولاروويره دوق اوربين وبمجرد ذلك استولى لورانت دوميديسيس
ابن اخى البابا ليون على دوقية اوربين ثم عاد اليها لاروويرة المذكور
سنة ١٥١٧ ميلادية (اى نحو سنة ٩٢٣ هجرية) وطرد منها
فى تلك السنة بعينها ثم عاد لها ثانيا سنة ١٥٢١ من الميلاد (المقابلة
لنحو سنة ٩٢٨ من الهجرة) حيث سمح له بها البابا ادريان السادس
وكان من المقاصد السياسية الرومانية العظيمة منذ مدة طويلة ابطال القانون
القسيسى المسمى ابرجماتيكه سنكسيون وكان لويز الحادى عشر
قد ابطله فى مبدأ حكمه ثم صار يعمل به تارة ويلغيه اخرى على حسب حاله مع
البابات رضاء وسخطا ثم جرى العمل عليه فى عهد كل من كرلوس الثامن
ولويز الثانى عشر ثم ابطله فرنسيس الاول لأن هذا الملك لما كان يرغب
فى التودد الى البابا سمحت نفسه بابطال هذا القانون الذى كان يبغضه البابات
فبطل واقيم مقامه اتفاق نامة روعيت فيه مصالح الدولتين رعاية الحاذق
المتفطن وذلك فى ١٥ من شهر اغسطوس سنة ١٥١٦ ميلادية
(اى نحو سنة ٩٢٢ هجرية) فنسخت الانتخابات القانونية اى القسيسية
وصار للملك الحق فى التقليد بوظائف الاسقفيات ورياسة الديورة ولكن البابا
هو الذى يعطى فرماناتها وجعل له فى نظيرها رسم الانات اى المرتبات التى تدفع

عادة

عادة للبابات على تلك الوظائف (ومقدارها ايراد سنة من محصولاتها) واتفقوا على ذلك سرا فيما بينهم ولم يثبتوه فى الاتفاقنامة المذكور فانظر الى هذه المبادلة الغريبة حيث وقعت الامور الدنيوية فى نصيب البابا صاحب الشوكة الدينية ووقعت الامور الدينية فى نصيب الملك صاحب الشوكة الدنيوية وبموجب الاتفاقنامة المذكور خف امر الريزروة (وهى خصايص كانت للبابا) وبطل الغراس اكسپكتاتيوة (وهى كما سبق الانعامات المنتظرة بأن ينعم البابا على انسان ببعض اقطاعات قبل موت صاحبها لكن لا يحوزها و ينتفع بها الا بعد موت واضع اليد عليها) واستمر عيب رفع الدعاوى الى ديوان رومة منسوخا كما كان فى القانون المسمى ابرجماتيكة ثم ان هذا الاتفاقنامة الذى كان مخالفا لاصول الكنيسة الغلية اى الفرنساوية ترتب عليه أن القسوس ومجلس البرلمان ودار العلوم الجامعة عارضوا فيه معارضة شديدة ولم يصدق عليه مجلس البرلمان ويقيده فى سجله الا فى سنة ١٥١٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٢٤ من الهجرة) بعد أن راجع فى ذلك غير مرة وامره الملك امرا صريحا بتقييده مرارا وبعد أن جبرهم فرنسيس على تقييده والتصديق عليه لم يتمكن من اجراء العمل به فلما أيس من الظهور عليهم فى ذلك جردهم عن وظيفة النظر فى دعاوى الاقطاعات التى يكون التقليد بها من طرف الملك وخص ذلك بالمشورة الكبرى بموجب امر صدر عنه فى سادس سبطمبر سنة ١٥٢٧ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٤ هجرية)

وفى اثناء مفاوضة الملك مع البابا فى هذا المعنى عقد مشارطة مهمة لاجل الامن على اقليم ميلان وكان ذلك بواسطة دوق ساوة فانعقد الصلح مع السويسة على نفس الشروط التى كانوا قبل وقعة مارغنان قد رضوا بها ثم نقضوها ولم يغير فيها المنصور (فرنسيس) شيأ لما كان عليه من اللطف والاعتدال فبايعه السويسة على أنه دوق ميلان وقونتة أست وسيد جنويزة والتزموا أنهم يعطونه عند الاقتضاء من العساكر بقدر

مايزيد تجميكه ويردون له ما يملكونه فى اقليم ميلان من الاماكن والحصون والتزم هو أنه يدفع لهم مليونا من الايكو اما التنجيز هذه المشارطة المسماة مشارطة ديجون اولاغراض اخرى وزاد فى مرتباتهم السنوية ثم ان هذه المشارطة التى حصل التصديق عليها فى جنيورة (فى سابع شهر نومبر سنة ١٥١٥ من الميلاد (اى نحو سنة ٩٢١ من الهجرة) لم يقبلها من مبدأ الامر الاثمانى كور من كور السويسة واما الكور الخمسة الصغيرة فامتنعت اولا من قبولها حيث انها تجبرهم على اكثر مما يرده الكور الاخرى ثم ان فرنسيس بعد أن دبر مصالحه فى ايطاليا على هذا الوجه فوض حكومة اقليم ميلان الى الكونيتابل وسار الى فرانسا ليراه اهلها الذين كان لهم تشوف ومزيد رغبة فى رؤية ملكهم المنصور

ولما فتح اقليم ميلان صار فرديننند القاثوليقى من وقتئذ يخشى على مملكة نابلى فاجتهد فى تجديد اعداء لفرنسيس الاول فسعى فى ايقاظ بغضة السويسة له واثارة غيرة ملك الانكليز منه وانعاش همة الامبراطور الفاترة ولكنه فى اثناء هذا السعى والحركة مات فى الثانى والعشرين من شهر فبريه سنة ١٥١٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٢٢ من الهجرة) وترك دوله لحفيده (ابن بنته) الارشدوق كرلوس وأوصى أن مطران سراغوسه يكون وكيلا على مملكة اراغون وأن الشهير اكسمينيس يكون وكيلا على قسطيلة حتى يأتى الارشدوق المذكور

ولما دعى هذا الامير الشاب الى الاستيلاء على وراثة جده العظيمة سعى ثانيا فى محالفة فرنسيس الاول حتى لا ينغص عليه هذا الملك المجاور له ذو الشوكة القوية فى التملك والاستيلاء على تلك الوراثة فانعقدت بينهما مشارطة فى نيون ولم يعرف فرنسيس أن ينتهز فيها فرصة مقتضيات الاحوال اذ كانت له اذ ذاك فرصة تساعده على رد نوار ومملكة نابلى فلم يبادر بانتهازها ويسارع الى اغتنامها بل وقع الاتفاق على أن كرلوس متى وصل

الى اسبانيا ونظر فى قضية نوار فلابد وأن يرضى خاطر دلبريت واما مملكة نابلى التى بمقتضى مشارطة سنة ١٥١٥ من الميلاد يكون نصفها لدولة فرانسا (حيث ان فردينند القاثوليقى لم يعقب ذرية من زوجته جرمينه دى فواكس) فترك نصفها المذكور لكرلوس ملك اسبانيا نظرا الى حصول الاتفاق على أنه يتزوج مدام لويزة بنت فرنسيس الاول التى كانت اذ ذاك فى المهد ملغيا ما كان قصده منذ مدة يسيرة من نكاح مدام رينة اخت الملكة (جرمينه) وبعد ذلك بمدة اشهر التحق مكسمليان بمشارطة نيون المذكورة وفى هذه السنة رضيت الكور الخمسة السويسية التى امتنعت قبل ذلك من قبول مشارطة جنيورة بمشارطة فريبورغ التى انعقدت فى التاسع والعشرين من شهر نومبر سنة ١٥١٦ من الميلاد بين فرانسا والطائفة الهلويتيقية (اى السويسية) واستمر العمل عليها مع الصداقة مدة ثلاثة قرون فكانت جديرة بتسميتها بالصلح الدائم الذى سميت به من حين انعقادها

وتم الصلح العام بالمشارطة التى انعقدت بين فرنسيس الاول وهنرى الثامن (ملك الانكليز) وكان الفرنساوية قبلها من سنة ١٥١٣ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٩ هجرية) يتأسفون على كون مدينة تورناى تحت قبضة الانكليز كما أن الانكليز كانوا فى حيرة من تملك هذه المدينة البعيدة عنهم لانها كانت تستدعى مصاريف جم غفير من المحافظين فبهذه المشارطة سلموها للفرنساوية واخذوا منهم فى نظيرها ستمائة ألف ايكو وكان من شروط هذه المشارطة أن الدوفين (اى ولى عهد مملكة فرانسا) يتزوج بالاميرة مارية دى انكلترة وانحط الرأى على أن الملكين يجتمعان مع بعضهما بدون أن يعين لاجتماعهما زمن

ثم ان كرلوس (شرلكان) بعد مشارطة نيون توجه الى اسبانيا وبويع فيها بالتعاقب على أن يكون ملكا على قسطيلة وعلى اراغون وبينما كان مشتغلا بتمكين شوكته وحكمه على رعاياه الجديدين اذ مات جده

مكسيمليان بمدينة لنتز فى خامس عشر ينوية سنة ١٥١٩ ميلادية (اى نحو سنة ٩٢٥ او سنة ٩٢٦ هجرية) فكان موت هذا الايمبراطور الذى لم يكن له ادنى تأثير فى اوروبا لا بمعارفه ولا بشوكته من الحوادث التاريخية الجديرة بتخليد الذكر من حيث عواقبه لانه ترتب عليه فسخ الصلح العام الذى كان اذ ذاك متسلطنا على بلاد النصرانية وجر الى وقوع مخاصمة بين ملكين عظيمين (فرنسيس وشرلكان) بها اضطربت بلاد اوروبا بتمامها واضطرمت نيران حروب طالت مدتها وسفكت فيها دماء كثيرة وذلك أن كلا من ملك فرانسا وملك اسبانيا طمع فى الكرسى الايمبراطورى وتراءى من حال هنرى الثامن انه طمع فيه ايضا مدة من الزمان ثم انقطعت طماعيته لكونه لم يجد الى ذلك سبيلا وانعقد فى هذا المعنى مجلس دييته (يعرف بمجلس وكلاء الملة) بمدينة فرنكفورت وانتصر فيه على رؤوس الاشهاد مطران ترِوة لفرنسيس الاول ومطران ميانسة لكرلوس ولم يقتصر هذان الملكان فى هذا الغرض على ماوقع فى هذه المكالمة بين مبعوثى كل منهما اعتمادا على فصاحتهم وتعويلا على حذقهم وفطانتهم بل استعملا فى ذلك ايضا وسيلتين اقوى تأثيرا من الاولى وهما الاموال والمواعيد واضطربت آراء المنتخبين (بكسر الخاء اى المنوطين بانتخاب الايمبراطور) فمن جهة كان يخشى بأس هذين المتطالبين وكانت ألمانيا تخاف من تنصيب سيد عليها ومن جهة اخرى كان لا بد للايمبراطورية من انتخاب امير ذى شوكة قوية يحامى تلك الايمبراطورية التى كانت الدولة العثمانية قد ارهبتها وهددتها بل واغارت عليها بالفعل وبالجملة فلما امتنع منتخب سكس وهو فردريق لوساج (اى العاقل) من قبول المنصب الايمبراطورى انحط الرأى بمعونة نصحه واشارته على انتخاب كرلوس وتوليته ايمبراطورا وربما كان طيش الاميرال بونويت سفير الدولة الفرنساوية وحدته وعدم ائتلاف الملتين (الفرنساوية والالمان) وتباينهما درجة وعنوانا وفخر فرنسيس الاول وظهور طمعه اذ ذاك دون طمع كرلوس فانه كان

لم يزل

لم يزل خفيا كل ذلك اعان على هذا الغرض بقدر اعانة نصائح فردريق
عليه وكان شرلكان يعنى كرلوس الخامس حين بلغه هذا الخبر السار
مقيما بمدينة برسلونة ومع أن حضوره الى اسپانيا وقتئذ كان ضروريا
حيث كان يتوقع فيها حصول فتنة وقيام ركب البحر فى شهر مايه
سنة ١٥٢٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٢٧ من الهجرة)
وخرج على انكلترة وسعى هنالك فى ابطال ما انحط عليه الرأى من اجتماع
هنرى الثامن (ملك الانكليز) وفرنسيس الاول (ملك فرانسا)
ولم يجد سعيه نفعا وطاف على اقاليمه بالبلاد الواطية ثم ذهب الى مدينة
اكسيلا شبيلا ولبس فيها تاج الايمبراطورية فى الثانى والعشرين من شهر
اوقطوبر

(الفصل الثانى)

فى ذكر ما وقع منذ جلس شرلكان على كرسى الايمبراطورية الى رجوع
لوطريك الى فرانسا بعد وقعة بيكوكة (اى من سنة ١٥١٩ الى
سنة ١٥٢٢ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٢٩ من الهجرة)
كان الخصمان المتطلبان لمنصب الايمبراطورية قبل حصول الانتخاب تلوح
عليهما دلائل المحبة الصادقة وظواهر المودة التامة فكأنهما كانا آمنين من
غوائل الطمع والسياسة أن تعكر ما كان بينهما من رائق الوداد وتفصم حبل
الائتلاف والاتحاد ولكن هذا الاعتدال الذى كان جاريا فى الظاهر بينهما
لم يكن مبنيا على تجربة واختبار فان فرنسيس الاول الذى كان فخره قد شاع
فى بقاع اوروبا لما رأى أن شابا لم يكن الى ذلك الوقت فعل شيأ ينادى
بشهرته وينوه بذكره وسيرته قد اوثر عليه وانتهى منصب الايمبراطورية اليه
رأى أن ذلك يحط بمقامه ويقضى بذله وهوانه وكان يقطع بأن هنرى الثامن
يقاسمه فى هذا الحقد فاستعجله فى الاجابة الى الاجتماع الذى كان قد انحط
عليه الرأى منذ مدة طويلة فاجتمعا بين مدينتى غينة وأندرة فى سهل كبير
سمى من وقتئذ بمعسكر جوخ الذهب لما اظهره فيه الملكان واتباعهما من

الرونق والابهة ومكثا فيه ثمانية عشر يوما مع بعضهما وقضت الدائرتان الملوكيتان هذه المدة بالالعاب الفاخرة والمواسم اللطيفة وجميع المواكب الحربية التى كانت معروفة فى ذلك العصر * وما انتقش فى ذهن هنرى الثامن واعجبه من حسن اخلاق فرنسيس وهيئته الدالة على سلامة باطنه وخلوص طويته محاه فى اقرب وقت الايمبراطور شرلكان بحيلته ومكره وذلك أن هنرى الثامن لما خرج من معسكر جوخ الذهب ذهب الى مدينة غراولينة فرآى فيها الايمبراطور فطلب منه شرلكان أن يفوض اليه جميع ما يمكن أن يقع بينه وبين فرنسيس من المخاصمات حتى يحكم فيه وحده بما يراه فسر لذلك هنرى وأجاب شرلكان الى ما طلب لأن هذا الطلب اتى على وفق ما كان عند هنرى المذكور من العجب والكبرياء فكان ذلك باعثا له على أن يجنح لشرلكان ولحذق هذا الايمبراطور ونباهته فعل ما تحقق به من دوام الميل اليه من طرف الملك هنرى الثامن حيث استمال اليه بالعطاء والانعام الكردينال ولسى الذى كان اعظم وزراء هذا الملك وكان مستوليا على عقله ولا يخرج عن قوله ورأيه وكان البابا ليون العاشر فى قلق وشغل بال مما كان يترقب اذ ذاك من الحوادث فلم يستقر رأيه على شئ فى هذا المعنى الابعد أن توقف مدة وتحير وكان يظن على ما هو الظاهر أن فرنسيس الاول بذل فى اكتساب محبته امورا جسيمة ولكن السياسة فى الغالب * عدو لشكر الصنيع غالب * فان هذا البابا بعد أن مكث مدة طويلة وهو ينظر فيما كان يعرض عليه ويوعد به من طرف هذين الخصمين اللذين كانا يتسابقان خفية الى معاهدته ويزن ما كان من طرف احدهما بما كان من طرف الآخر اعلن بأنه من حزب الايمبراطور وكان ذلك فى الثامن من شهر مايه (سنة ١٥٢١ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٢٨ هجرية) واتفقا فيما بينهما على أن يجمعا قواهما ويطردا الفرنساوية من اقليم ميلان ويردانه الى فرنسيس سفورس بن لودويق وأن البابا يسترجع مدينتى بارمة وبليزنسة وأن يزاد فى الخراج السنوى

المضروب

المضروب على مملكة نابلى لديوان رومة واتفقا على امور اخرى غير ذلك

واما فرنسيس فكان تعويله على المعاهدات التى لم يكن لها قرار ولا ثبات دون تعويله على قوى الدولة الفرنساوية وعلى الفتن التى كانت اذ ذاك تنغص على اسبانيا وتمزقها حتى كان يخشى أن تفضى بها الى الانتكاس والانقلاب

وذلك أن الاسبانيول لم يسروا لتولية شرلكان ايمبراطورا لانهم كانوا يجزمون بأن هذا المنصب الجديد يحرمهم عما قليل من حضور ملكهم بين اظهرهم ويجعلهم تحت حكومة عامل من طرفه وكانوا يجزمون ايضا بأنه ستحصل مشاجرات ومنازعات تبذل فيهما من اسبانيا نفوس رجالها وخزائن اموالها لاجل ابقاء ابهة ذلك المنصب الاجنبى منهم فلذا مالت نفوسهم الى تذكر ما وقع من اشراف قسطيلة فى القرن الثالث عشر من الميلاد من منعهم لملكهم المسمى ألفونس لوساج (اى العاقل) من الخروج من مملكتهم ليتولى ايمبراطورا ولكن لم يلتفت شرلكان الى اغراضهم ولا لغطهم بل قبل التاج الايمبراطورى وافصح عن مقصوده حيث اعلن بأنه ذاهب الى ألمانيا ليلبس فيها ذلك التاج وكان قد ترتب وقتئذ عن ظلم الاشراف فتنة وقيام فى مملكة بلنسية فان استقلالهم ومزاياهم كانا قد اتسعت دائرتهما فى هذا الاقليم دون غيره من اقاليم اسبانيا فكانت حكومتهم فيه جائرة مجحفة حتى بعثت الاهالى على القيام والخروج عن الطاعة ففزع هؤلاء الاشراف من هذه الحركة التى لم تكن تخطر لهم ببال وارسلوا للايمبراطور يستأذنونه فى قمع العصاة بالسلاح وكذلك بعث له الاهالى رسلا من طرفهم ليبثوا اليه شكواهم ويسألوه الحماية من ظلم اخصامهم فجنح شرلكان الى جانب الاهالى لانه كان متأثرا من اشراف بلنسية لكونه طلب منهم الاعانة بالاموال فضنوا بها واذن لهؤلاء الاهالى من غير روية ولا تدبير أن يستمروا على حمل السلاح فظهروا على عدوهم وقويت بذلك قلوبهم فطردوا

من المدينة جميع الاشراف وناطوا بحكومتها حكاما داخلية وجددوا طائفة سموها جرمانادة ومعناه اخوة فكانت هذه الطائفة اصلا للاختلالات الشنيعة ومنشأ للمصائب المهولة الفظيعة (وكان تجديدها سنة ١٥٢٠ ميلادية) وسرى هذا التولع بالاستقلال الى مدن اخرى كبيرة سريانا تدريجيا وقد استدل شرلكان على ذلك بدلائل اخرى ظهرت له من جمعية سنت ياكس دكبستله وذلك أنه طلب منها أن تسعفه بشيء من المال فعارض فى ذلك من اربابها عدة من مبعوثى النواحى معارضة شديدة ومع ذلك ركب البحر وتوجه الى ألمانيا بعد أن أناب على قسطيلة مؤدبه الكردينال ادريان دوترکت وجعل على عمالتى اراغون وبلنسية اميرين من امراء الاسپانيول

وكان قد اخذ حينئذ بمدينة طليطلة فى التهيؤ للفتنة والاستعداد للقيام فعما قليل اضطرمت نار تلك الفتنة وفشا امرها وذلك أن اهل هذه المدينة لما بلغهم أن جمعية سنت ياكس دوكبستله سمحت للايمبراطور بعطية مجانا رغما عمن عارض فى ذلك من مبعوثيهم طردوا حاكمهم وجعلوا مكانه نوع حكومة اهلية وجمعوا الجموع للمدافعة عن انفسهم وقلدوا قيادتهم دون جوان دوپاديلة بكرى حكمدار قسطيلة واستولت هذه الحمية على اهل مدن سيغوية وسلمنكة وزامورا وبرغوس وبعض مدن اخرى واجتمع مبعوثو المدن العاصية فى مدينة آويلة وعقدوا مع بعضهم معاهدة سموها سنتاجونتا ومعناه العصبة المقدسة وطلبوا علانية أن يجعل للولاية التى تخص البلاد داى لحكومتها الداخلية صور واشكال جديدة بأن تفرغ فى قالب آخر وأن لا يكون للاشراف مزية فيما يخص الاموال وعزلوا الكردينال ادريان من وظيفته وتغلبوا على حصن توردى يلاس وكانت به حانة الملكة والدة شرلكان التى كان قد استولى عليها الغم والحزن وتمكنت منها الماليخوليا منذ مات زوجها وأجروا الاحكام باسم هذه الملكة فلما بلغ الايمبراطور خبر هذه الحوادث

ارسل

ارسل الى مدن قسطيلة مكاتيب دعاهم فيها الى القاء السلاح ووعدهم بالعفو العام وبرفع المغرم الاخير الذى طلب أن يسعفوه به وبالاتصار لهم فى بعض تظلماتهم وشكاياتهم ولكن اغترت هذه العصبة بقوتها فظنت أن لها الحق فى املاء شروط للمصالحة وكتبوا للايمبراطور عريضة كبيرة طلبوا فيها لكونهم لاحظوا اجزاء الحكومة واختبروها أن تغير الادارة بالكلية ويجعل لها ترتيب جديد به تتسع شوكة الاهالى وتضيق شوكة الملك والاشراف فاغتاظ الايمبراطور من جسارتهم وامتنع من مقابلة رسلهم فلما بلغهم ذلك سدوا باب المداراة وعزموا على أن يتغلبوا بالقهر والغلبة على ما تطلبوه من المزايا وجهزوا للقتال عشرين ألفا وعزلوا عن القيادة جوان دوپاديلة لغيرة بعض اهل العصبة منه وولوا بدله دون پدرو جيرون وهو وان كان عريق الحسب الا انه كان شابا معجبا بنفسه ذا خفة وطيش خاليا عن الخبرة والتجربة مع أن العصبة وقتئذ كانت محتاجة لقائد ماهر لأن حزب الملك كان قد استرجع بعض قوته حيث ان الاشراف بعد أن مكثوا مدة وهم يلاحظون ما وقع من الحوادث ملاحظة الناظر المتفرج رأوا أن مزاياهم كمزايا الملك غرض لسهام غضب جمهورية المتعصبين فصمموا على أن يكونوا مع الملك حزبا واحدا وجمعوا أتباعهم فلم يمكن جيرون أن يمنع القونتة دوهارو قائد الجيش الملوكى من استرجاع حصن توردزيلاس وحيازة شخص الملكة (ام شرلكان) فكان هذا الامر مشؤما على العصاة لأنهم كانوا الى ذلك الوقت يستظهرون باسم تلك الملكة ولم يقصر جيرون فى ذلك الاعدم النجابة والمهارة ولكنهم اتهموه بالغدر والخيانة وخلعوه عن قيادة عسكرهم واعادوها لپاديلة غير أن ذلك كان قد فات وقته فان هذا القائد بعد أن نجح بعض نجاح هين هزمه رئيس جيوش قسطيلة فى قصبة ويللار (فى الثالث والعشرين من شهر ابريل سنة ١٥٢١ من الميلاد) وكانت كفارة ذنب عصيانه قتله على الخوطة

وقد انبت الامر بوقعة ويللار هذه حيث ترتب عليها أن جميع المدن سلمت

للمنصور ما عدا مدينة طليطلة فان ارملة باديلة المسماة دونامارية باشيكو حرضت اهلها على المقاومة نظراً لشجاعتها قلوبهم بحميتها وحماستها لكنهم لما تعبوا من طول المحاصرة وفتحوا ابواب مدينتهم للحزب الملوكي التجات هذه المرأة الى القلعة واستمرت فيها على المدافعة عن نفسها مدة طويلة ولما أشرفت على ان تغلب ويظفر بها خرجت متنكرة والتجات الى البرتوغال فعند ذلك انقادت جميع بلاد قسطيلة وفي مدة ما كانت هذه المملكة قد استولى عليها الشقاق والتفاقم الاهلي كانت طائفة جرمانادا تخرب اقليم بلنسية وكانت هذه الطائفة قد استمرت على محاربة الاشراف مدة سنتين وبذلت في قتالهم من الشجاعة والمواظبة مالم يكن يظن بامثالهم من عوام الناس الذين لا يعرفون الانتظام ولا التربية العسكرية وقوادهم من الصنايعية الخاملين ولكن لما تقدمت فرقة من جموع قسطيلة العسكرية بعد وقعة وبلالار انقرضت طائفة جرمانادا وعادت حكومة بلنسية الى صورتها الاولى

(سنة ١٥٢١ من الميلاد) وفي مدة ما كانت اسبانيا مضطربة بهذه الفتن رأى فرنسيس الاول أن هذا الوقت يلايم استرجاع مملكة نوار التي كان هنري دلبريت يلح في استردادها حسبما هو مقرر في مشارطة نويون فبعث الى هذه البلاد جيشا تحت قيادة لسبارة اخي مارشال دولوتريك وكان من الاقارب الادنين لعائلة دلبريت فلما لم يكن في اسبانيا من الجيوش من يصده او يقاومه استولى على تلك المملكة بتمامها في ظرف خمسة عشر يوما

وعوضا عن كون هذا القائد يشتغل بتمكين فتوحه عزم على الشروع في فتوحات جديدة فجاوز حدود نوار ووضع الحصار على مدينة لوغرونو احدى مدائن قسطيلة ولما كانت نيران الفتنة باسبانيا قد اشرفت وقتئذ على الخمود انضم الحزبان الى بعضهما لقتال هذا العدو الاجنبي فقدم بالسرعة الى مدينة لوغرونو جيش جرار لاجل اعانة اهلها

فرفع عنها الحصار وذلك أن الفرنساوية لقلة عددهم انصرفوا الى مدينة
پيلونة وشرعوا فى القتال على سهل هنالك يسمى سهل سكيروس ولم ينتظروا
حتى يقدم اليهم ستة آلاف من نوار كان لابد من انضمامهم اليهم عن
قريب ولم يكن الفريقان فى هذه الوقعة مستويين فى القوى وحملة الفرنساوية
وان كانت حملة منكرة الا انها لم تمنع عنهم الهزيمة التامة التى انهزموها فى تلك
الوقعة فان لسپارة وان كان من صناديد العساكر الا انه كان قائدا
غير مجرب فأسره العدو بعد أن ابدى من الشجاعة العجب العجاب وفقد
الفرنساوية مملكة نوار فى اقل من المدة التى استولوا عليها فيها
وفى مدة ما كان فرنسيس الاول يسعى فى تبرئة نفسه من الاغارة على مملكة
نوار التى لم تجد نفعا بنسبتها الى هنرى دلبريت استند الى حيلة من
هذا القبيل لأجل الهجوم من جهة اخرى على بلاد الايمپراطور وذلك أن
روبيرت دولامرك امير بوليون وهى امارة صغيرة قائمة بنفسها واقعة على
ثغور لكزنبورغ وشمپانيا ترك خدمة الايمپراطور انتقاما منه على ما ادعاه
عليه من امتناعه عن الحكم فى قضية تخصه والتجأ الى دولة فرانسا ولشدة
غيظه التى أعمت بصيرته وتحققه من اعانة فرنسيس الاول له اظهر فى جمعية
ورمس عدم الاكتراث بالايمپراطور وانه يدعوه الى الحرب ولا يبالى وخرب
اقليم لكزنبورغ نهبا كان من الايمپراطور الا انه بعث لعقابه على وقاحته
وسفاهته قونتة دى ناسو وأصحبه بجيش من العساكر فتغلب هذا القونتة
على جميع مدنه الحصينة ماعدا مدينة سيدان ثم نبه على اصحابه بحرب
اهم من ذلك فاستولى على ثغور فرانسا وحاصر مدينة موزون
فبادرت بالتسليم حتى كأنها لم تقاوم فعند ذلك تسلحت بلاد فرانسا
عن آخرها وخرج دوق دالنسون من شمپانيا ودوق دووندوم من
پيكارديا والاميرال بنوويت من غيانة ومارشال دولوتريك من
ايطاليا وذهبوا جميعا لقيادة العساكر غير أن ناسو الذى استولى على
مدينة موزون حاصر مدينة ميزيرة التى لو فتحها لصار للجيش

الايمبراطورى مسلك يسهل عليه الوصول منه الى وسط شمپانيا لكن دافع بيار عن هذه المدينة المحصورة ومكث يقاوم فى المدافعة عنها مدة ستة اسابيع جيشا عدته خمسة وثلاثون ألف مقاتل مع شرذمة قليلة من المحافظين فبذلك جعل لدوق دالنسون فسحة من الزمن يأتى فيها لانقاذ تلك المدينة فانصرفت عساكر الايمبراطور وتبعهم الملك بنفسه ولم يزل يقفو اثرهم حتى جاوز نهر الاسقوط وفتح فى البلاد الواطية بعض فتوحات هينة لم يعادل نفعها ماوقع اذذاك من الخطأ الكبير وذلك أن الملكة والدة فرنسيس كانت على ماذكره مؤرخو ذلك العصر تألف الكونيتابل دوبوربون لما كان فيه من الصفات الجميلة التى اخذت بلبها فاحتقرها واعرض عنها فتبدلت محبتها بالكراهة وتسلطت عليه بالظلم والاجحاف فسلبت منه حكومة اقليم ميلان وحصل له منقصة اخرى عند اجتيازه نهر الاسقوط وذلك انه طلب من الملك أن يقلده قيادة طليعة العسكر لأنها من مزايا منصبه الشريفة فلم يجبه الملك الى ذلك بل قلد بها دوق دالنسون فكانت هذه الاساآت اصلا للحقد الذى ازداد باساآت اخرى حتى كانت عاقبته فيما بعد مشؤومة على فخر هذا الكونيتابل وسيرته وعلى فرانسا

وقد انتصر الفرنساوية جهة جبال البرنات كما انتصروا فى البلاد الواطية وذلك أن الاميرال بنوويت الذى هو من صنيعة الملكة ام فرنسيس واشرافاتها ومن ندماء الملك وخواصه استولى على مدينة فونترابية التى كانت مشهورة الى ذلك الوقت بانها منيعة حصينة ولكن كان لوتريك اقل منه نجاحا فى ايطاليا فان الاسبانيول والبابا والفلورنسية ومركى دومنتوة تحزبوا مع بعضهم وصاروا عصبة مهولة بقصد اجلاء الفرنساوية عن ايطاليا واعادة فرنسيس سفورس فأحاط من مبدا الامر بجيش المتحزبين الذى كان يقوده بروسپير كولونة بمدينة پارمة (سنة ١٥٢١ من الميلاد) فرفع لوتريك الحصار عنها وقد كانت له فرصة فى الحملة على المتحزبين حال انصرافهم لكنه لم يغتنمها ولم يجد له فرصة

اخرى

اخرى في ذلك بل توالت عليه في هذه الحرب المصائب وقل أن انقطعت عنه بنجاحاته الهينة الغير المثمرة وقصارى الامر أنه اضطر الى الاقتصار على المدافعة فذهب واغلق على نفسه ابواب مدينة ميلان فهجم عليه فيها بغتة مركى دوبسكيرة فالتجأ الى اراضي البنادقة وترك هذا الكرسي عرضة لحمية العساكر الامبراطورية وشرههم فمكثوا في نهبه عشرة ايام

ولما بلغ البابا نجاح العصبة لاسيما فتح بارمة وبلزنسة اللتين انضمتا ثانيا الى ايالات الكنيسة فرح لذلك فرحا شديدا كانت عاقبته على ما يقال مشؤومة عليه حيث افضى به الى الموت كما قاله مؤرخو الفرنساوية وكان الامبراطور شرلكان قد استمال اليه الكردينال ولسي وجعله من حزبه بكونه وعده بمنصب البابا متى خلا عن صاحبه فلما مات هذا البابا لم يف بوعده بل قلده مؤدبه القديم وهو الكردينال ادريان دوتريكت (وكان ذلك في تاسع ينويه سنة ١٥٢٢ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٢٩ هجرية) ولكن هل يليق بولسي أن يحسد على هذا المنصب الذى لا دوام له شيخا هرما قد أدركه المرض والسقم وهل يحق له أن يغتاظ من انتخاب سيعقبه انتخابه بعد مدة يسيرة كلا بل تسلى المذكور على فوات المنصب بترقبه وامله واغتر ثانيا بمواعيد الامبراطور واراد في هذه السنة أن يؤدى لذلك الامبراطور خدمة عظيمة يستحق بها اديه الوفاء بالوعد وذلك أنه من مبدا المعاداة (بين فرنسيس وشرلكان) جعل هنرى الثامن نفسه واسطة في الصلح لأنه كان يرغب أن يكون حكما بين دول اوروبا فزعم ولسي سنة ١٥٢١ من الميلاد في مجلس المفاوضات الذى انعقد في مدينة كالس انه وازى ما بين مصالح الخصمين ووفق بينهما ولكن ميله الى جانب شرلكان اغضب السفراء الفرنساوية المرخصين ولم يرض الملك فرنسيس بحكومة هذا الحكم لما فيها من الريبة وابطل ما كان حاصلا من المفاوضات واخر دفع بعض المبالغ التى كانت لدولة انكلترة على دولة فرانسا وفي سنة ١٥٢٢ ميلادية سافر الامبراطور مرة ثانية الى انكلترة ليجنى من ثمار

ميل هنرى الثامن ووزيره اليه وايثارهما لجانبه على جانب فرنسيس فانعقدت بين الملكين حينئذ المشارطة المسماة مشارطة وندسور واتفقا فيها على ان يهجما بجميع قواهما على فرانسا وارسل هنرى فورا الى فرنسيس رسولا للاعلان بالحرب عملا بالرسوم الجارية وخرج الى كالس جيش من الانكليز يقوده دوق دوسفولك وحاصر مع جيش الايمبراطور مدينة هسدين وبعد تسعة اشهر من هذا الحصار الذى لم يجد نفعا اجتاز الجيش الانكليزى البحر ثانيا وسعت عساكر الايمبراطور سنة ١٥٢٣ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٠ من الهجرة) فى الاغارة ثانيا على اقليم بيكارديا ولكن صدهم عنه دوق دووندوم وكان الدهر لم يزل مسالما للفرنساوية فى البلاد الواطية بخلاف ايطاليا فانه لم يكن معهم فيها على حالة واحدة لانه بعد أن غدر بهم فيها عاد الى سلمهم مدة يسيرة ليغدر بهم مرة اخرى وذلك أن موت البابا ليون العاشر عطل نجاح العصبة حتى اشرفت على الانحلال وعاد لوتريك الى اقليم ميلان واخذ فى الهجوم ثانيا واعانه على ذلك البنادقة وقدم اليه مدد من عساكر السويسة يبلغ ستة عشر ألفا ثم قدم اليه من فرانسا مارشال دفواكس بعدد عظيم واتى معه برجلين عظيمين يعادلان جيشا احدهما بطرس دونوار وكان قد استخدم فى فرانسا والثانى الشواليى الذى لا يخاف ولا يلام (وهو بيار) فاستولى لوتريك على عدة مدن من اقليم ميلان ثم قصد قاعدة الاقليم فوجد عساكر العصبة فى معسكر منيع متحصنة فى حصن لابيكوك الواقع بين لودى وميلان ومونزه (وكان ذلك سنة ١٥٢٢ ميلادية) فكان من الحزم تركهم والانصراف عنهم ولكن عساكر السويسة الذين كان لهم فى الخدمة عدة شهور لم تصرف لهم جوامكهم ضجروا من طول الحرب وألحوا فى طلب القتال فأنذرهم لوتريك أن لا يلقوا بأيديهم الى التهلكة فلم يجد انذاره نفعا بل هاجوا وصاحوا قائلين نطلب احدى ثلاث اما الدراهم واما الانصراف واما القتال فأذن لهم بالقتال

فانقضوا

فانقضوا مع الشجاعة الخالية عن الحزم والتبصر على تحصينات العدو وكانت تضرب بها مدافع كثيرة اصواتها مزعجة كالرعد وأبدى السويسة فى هذه الحملة العجب العجاب لما اعانهم الفرنساوية وشدّوا عضدهم ثم رجعوا على اعقابهم مع الانتظام وقصدوا من الغد جهة بلادهم بعد أن فقدوا اشجع ضباطهم وخيار عساكرهم فلما صار لوتريك لا طاقة له على القتال جعل فى بعض المدن محافظين وعاد الى فرانسا فلامه فرنسيس على ضياع اقليم ميلان فقال له مع الثبات وقوة الجنان ان الملك نفسه هو السبب فى ضياعه لأن عساكر العسس خدمت ثمانية عشر شهرا بدون أن تصرف لها جوامكها فينبغى للدولة أن تنسب لنفسها تخليهم عن الفرنساوية وكذلك جميع نكبات الحرب ومصائبها فعند ذلك امر الملك بالقبض على سنبلنساى مدير المالية لأنه كان امره أن يبعث الى ايطاليا اربعمائة ألف ايكو فلم يبعثها فاعتذر بأن ام الملك حجزت هذا المبلغ فلم يقبل اعتذاره بل ناط جماعة بتحقيق هذه الدعوى فطال مدة تحقيقها ثم رأوا أنه مرتكب ذنب الاختلاس فحكموا عليه بالصلب سنة ١٥٢٧ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٤ هجرية) وكان تنفيذ هذا الحكم بمدينة مونتفكون فأسخط عقابه الامة الفرنساوية لأن الرأى العام اذ ذاك كان يقضى ببراءته ويظهر الآن أنه برئ فى الواقع ونفس الامر

(الفصل الثالث)

فى ذكر ما حصل من وقت رجوع لوتريك الى فرانسا بعد وقعة بيكوك الى مشارطة مدريد (وذلك من سنة ١٥٢٢ الى سنة ١٥٢٦ من الميلاد) (اى من سنة ٩٢٨ الى سنة ٩٣٣ من الهجرة تقريبا)

قد ترتب على ما لحق الفرنساوية من النكبات والمصائب انه لم يبق لهم اصحاب يحبونهم فيما وراء جبال الالب فان اهل مدينة البندقية وكذلك دوق اوربين ودوق فرارة تخلوا عنهم بعد أن كانوا حلفاءهم وأدخل حزب

الادورنية مدينة جنوزة تحت قبضة العساكر الامبراطورية ثم فى اوائل سنة ١٥٢٣ من الميلاد تحزب على فرانسا البابا والامبراطور وملك انكلترة وجميع ايطاليا ومعظم ألمانيا فلم يحصل لفرنسيس من خطر تلك العصبة حيرة ولا خوف بل بعد أن اعدّ ماتكون به حماية ثغور مملكته عزم على أن يذهب بنفسه لاسترجاع اقليم ميلان فأخذ فى السير مع جيش جرّار فبينماهو كذلك اذا اطلع على عصبة اهلية كادت تجرّ المملكة الى التلف والدمار فأمسك عن السير

وكان السبب فى هذه العصبة الخطرة هو كرلوس دوق دوبربون كونيتابل فرانسا وذلك أنه انقطع عن الدائرة الملوكية من حين ماوقع له من المنقصة والاساءة وصار مشغول البال بالانتقام فى نظير تلك الاساءة فأخذ من وقتئذ فى المراسلة والمكاتبة مع وزراء الامبراطور وفى ذلك الوقت ماتت زوجته دوقيجة دى بربون ولم تعقب ذرية فكان موتها فرصة للويزة دى ساوة (ام الملك) فى اظهار الحقد والبغضاء للكونيتابل المذكور فشرعت فى سلب امواله حيث طلبت وراثة عائلة بربون بوصف كونها هى وارثة زوجته المذكورة المسماة سوزانة دى بربون بوجو

هذا وكان مقتضى القانون السالى الجارى عليه العمل دائما فى العائلة البربونية أن لا ترث بطرس دوبربون بوجو بنته سوزانة وانما يرثه زوجها كرلوس دوبربون بن جلبيرت دومونت پانسيير الذى قتل فى اول حرب مع نابلى ولكن لويز الثانى عشر راعى جانب حانة دى بوجو فعزم على جمع الحقوق والادعاآت مع بعضها بتزويج كرلوس دوبربون لسوزانة فزوجهما من بعضهما وتواهب الزوجان واقرّت هذه الهبة سوزانة فى وصيتها وكذلك امّها دوقيجة دى بوجو اقرّتها ايضا فى وصيتها واما لويزة دى ساوة التى طلبت حرمان الكونيتابل من الارث فهى بنت مرغريطة دى بربون زوجة فيليش دوق ساوة وحيث ان مرغريطة هذه هى بنت كرلوس الذى هو اكبر اخوة لويز دومونت پانسيير

جدة الكونيتابل فلويزة دى سابوة (بنت مرغريطة المذكورة) هى المستحقة لارث سوزانة لولم يكن قانون الوراثة فى عائلة البربون يخص الذكور بالارث دون الاناث فاشار عليها القحلير دوبرات أن تجعل للملك مدخلية فى هذه القضية لأنه اذ لنظر الى النسب والمصاهرة سهل عليه أن يضع قانونا يجعل التاج الملوكى هو الاحق برد الوراثة اليه فان ذلك اخف من اضرار الذكور رعاية لحقوق النسب وكان الغرض من هذه القضية الجسيمة الاستيلاء على عدة اقاليم وهى البربونيس واوورنيا ومارشة وفوريز وبوجوليس وامارة دونبه وعلى كثير من الالتزامات وهذه المذكورات كان بعضها مطلوبا باسم الملك وبعضها مطلوبا باسم امه وكان طلب كل منهما على خلاف الاصول الا أن لويزة دى سابوة بواسطة شوكتها والقحلير دوبرات بواسطة حيله حملا القضاة المنوطين بالنظر فى هذه القضية على أن يحكموا بالضبط الوقتى على املاك عائلة البربون فأوقع جور هذا الحكم دوق دوبربون فى اليأس والقنوط وأفضى به ذلك الى الوقوع فى الخطيئة

وذلك انه مع كونه كونيتابل فرانسا واميرا من نخذ العائلة الملوكية تعاهد مع اعداء ملكه حيث عقد مع شرلكان وهنرى الثامن معاهدة على اخذ مملكة فرانسا وتمزيقها والتزم له الايمبراطور أن يزوجه اخته ايليونورة وكانت اولا تحت ملك البرتوغال ثم مات عنها وأن يجهزها له بجهاز عظيم واتفقوا على أن يضم الى التزاماته قونتية بروونسة وقونتية الدوفينة ويصير الجميع مملكة وعلى أن شرلكان وهنرى الثامن يقتسمان بقية المملكة الفرنساوية والتزم هو لهما بأنه يسعى فيما يسهل عليهما فتحها والاستيلاء عليها

ولما بلغ فرنسيس الاول خبر هذه العصبة كان قد استعد لاجتياز جبال الالب فلما سمع هذا الامر لم يعتقد صحته مستغربا أن مثل هذا الامير الذى هو اعظم امير من نخذ العائلة الملوكية يسعى فى تسليم المملكة للاجانب وذهب

فورا الى مدينة مولين وكان بها دوق دوبربون متعللا بالمرض ليتخلص من السفر مع الجيش فأخبره الملك بجميع ما بلغه على الحقيقة بدون محاولة فأقسم له انه لم يزل على الصداقة والامانة فاغتر الملك بايمانه واعتقد براءته ولم يسمع كلام عقلاء وزرائه الذين اشاروا عليه بالقبض عليه واستمر على السير الى مدينة ليون وكانت موعد الاجتماع بهما وفي الواقع أنه تبع الملك وقطع خلفه مسافة قليلة الا أنه عدل عن الطريق بغتة واجتاز نهر الرون ولم يأخذ معه الا رجلا من البيكزادات يقال له بمبران ولم يعثر به احد من الفرق التي بعثها فرنسيس اخيرا بعد فوات الوقت لاجل البحث عنه والقبض عليه وذلك لانه تنكر ولبس ثيابا مبتذلة حتى صار لا يعرف له اسم ولا مقام وسار حتى اتى ايطاليا فلحق الملك غم شديد على هروبه وخيانته ثم قال وهو يتأوه لعمري ان ما اتاه عليه من الاخلاص وطيب السريرة لجدير بأن يفطر له قلبا ويلين ما كان منه صعبا كيف لا وقد خاطبته مخاطبة الاخ لاخيه مع الملاطفة والحنو عليه ولكن حيث ان هذا الخائن يريد الهلاك فليس له عن الهلاك فكاك ثم بعث اليه من منزله رجلا من البيكزادات يقال له ايمبولت فلقيه هذا الرسول في خارج المملكة وحثه على التوبة ليكون جديرا بعفو الملك فأبى ونفر فلما لم يجد لاستمالة هذه النفس الابية سبيلا طلب منه بطريق النيابة عن الملك سيف الكونيتابل فقال ان الملك اخذه مني عند اجتياز نهر الاسقوط حين قلد مسيو دالنسون قيادة طليعة الجيش ثم تمادى على العصيان وذهب الى جنويزة لينتظر فيها ما يصدر له من اوامر الايمبراطور الذي وقع الاتفاق بينه وبينه على أن يكون صهره لكن لم تحصل بينهما مصاهرة بل صار الايمبراطور سيده وملكه حيث ابت نفسه أن يزوج اخته لرجل منفي مطرود وانما رضي أن يكون من جملة قواد عساكره فبعثه الى اقليم ميلان ليقاسم القواد في قيادة الجيش الايمبراطوري وبينما كان شؤم طالع هذا الرجل يعد له في البلاد الاجنبية مذلات ورذائل اخرى كانت دعواه قد اقيمت في فرانسا لاجل تحقيقها وفصلها ولكن

لم يستمروا

لم يستمروا على تحقيقها بل اوقفوها ثم عادوا اليها مرارا حتى انتهت بعد موته وتدنست سيرته وصدرت خلاصة معنونة بالرسوم المعتبرة بموجبها انفصل عن العائلة البربونية وانسلخ نسبه عنها وكان صدورها سنة ١٥٢٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٤ من الهجرة) بناء على أنه قد تغيرت فيه اخلاق اسلافه من تلك العائلة ولم يحافظ على صداقتهم وامانتهم بل سعى على رؤوس الاشهاد فيما افسد اخلاقه وأضاع امانته

ولما كان لفرنسيس رغبة فى الوقوف على تفاصيل امور العصبة وعواقبها مكث فى فرانسا وبعث لوتريك الى غيانة (اقليم قديم من فرانسا) وارسل بنويت الى ايطاليا فدخل بنويت اقليم ميلان مع ثلاثين ألف مقاتل وضيع وقتا نفيسا قبل توجهه الى قاعدة الاقليم ثم لما دنا منها ووجدها قد استعدت للمدافعة ارتحل عنها بعد أن هجم عليها عدة مرات بدون ثمرة وذهب لينزل منزلا يقيم فيه مدة الشتاء وفى هذا الوقت تقريبا مات البابا ادريان السادس وتولى بدله الكردينال يولس دوميديسيس وسمى كليمان السابع لذلك ولبى حنقا عظيما وتأثر ثانيا اشد التأثر من خبث طوية الايمبراطور وتنحى من وقتئذ عن السعى فى مصالحه وتباعد عن اغراضه ولم يفكر الا فى الانتقام منه غير أنه لما كان مجبورا على تأخير ذلك كظم غيظه وأظهر السرور لولاية البابا الجديد ولما تولى البابا كليمان السابع كان له شهرة عظيمة وكان قد اختبر المصالح وجربها مدة طويلة فانه كان مشيرا عند كل من البابا ادريان السادس والبابا ليون العاشر وكان لنفوذ كلمة عائلته وتقلده بهذا المنصب الجديد جامعا بين قوى جمهورية فلورنسة وقوى الدولة القسيسية اى أن كلا منهما كان بيده وتحت تصرفه فلذا كان له قوة تأثير فى مصالح ايطاليا فأعلن اولا بأنه قد جعل من الواجب عليه التنزه عن الاغراض بالكلية وأنه لا يجعل لنفسه مدخلية بين فرانسا واسبانيا الا بوصف المتوسط المصلح ولكن حيث كان يرى أن راحة ايطاليا متوقفة على اجلاء الفرنساوية منها وظهر له أن ذلك قد قارب التنجيز سعى فى تنجيزه واتمامه فأبقى العصبة التى

انعقدت لاجل حماية ولاية ميلان وامدها بشيء من الاموال وكان بنويت متحصنا فى مدينة بياغراس منتظرا فيها قدوم الامدادات من فرانسا والسويسة وكان الجيش الفرنساوى قد اتعبه الجيش الايمبراطورى بالمقارعات والمناوشات فى وقائع جزئية متجنبا للاغارة العامة وكان قائد العساكر الايمبراطورية قونتة دولانواى عامل نابلى ومن تحته پسكير وبربون وفرنسيس دوسفورس دوق ميلان فلما رآى بنويت تناقص جيشه بدون ثمرة ووجد ما عنده من الذخيرة والزاد قد اشرف على النفاد ارتحل عن المحل الذى كان متحصنا به عازما على الرجعة

فحمل عليه العدو على شواطئ نهر سيسيا وجرح فى مبدأ المعركة جرحا خطرا اعجزه عن القتال فناط بقيادة الجيش الشوالى بيار فبينما كان هذا البطل يحامى عن بقايا الجيش فى رجعتهم وهو يقدم الخيالة اذ أصيب برمية بندقة فجرح بها جرحا افضى به الى الهلاك ومات على الحالة التى كان عليها مدة حياته من كونه لا يعرف التكلف فى اموره فقارق الدنيا وهو على تقشف الابطال من ابناء النصرانية فانه لما أحس بتلاشى قواه امر احد اصحابه أن يسنده الى شجرة ويجعل وجهه جهة العدو فلما وضع فى هذا المحل شخص ببصره الى قبيعة سيفه وكان قد رفعه بدلا عن الصليب وابتهل بالدعاء الى الله تعالى وحيث لم يكن عنده اذ ذاك قسيس يعترف على يديه جعل اعترافه على يد صاحب مائدته ومرّ به وقتئذ دوق دى بربون فرثى لحاله فقال له ذلك البطل الذى يجود بنفسه تنبك انت ياسيدى على نفسك فانى لست ممن يرثى لحاله لانى اموت وعرضى نقى شريف حيث قمت بما علىّ من الواجبات بل انا الذى ارثى لحالك فانك قد قاتلت ملكك وحاربت وطنك ونقضت البيعة والميثاق انتهى ثم ان اضطرار العساكر الفرنساوية الى الرجعة كان سببا فى بقاء بيار بين ايدى العساكر الايمبراطورية فاجتهد پسكير فى معالجته كى يبرأ او يتأخر موته فلم يجد ذلك نفعا فصبر جثته وبعثه الى عائلته وكانت هذه العائلة

من الابطال قد تعودت على بذل نفوسها لاجل الوطن فان جد جده قتل فى وقعة بواتيير وقتل ابو جده فى وقعة ازنكورت وجده فى وقعة مونتليرى وجرح ابوه فى وقعة غنيغات

ثم ان بنويت وصل بيقايا جيشه الى فرانسا وتغلبت عساكر الايمبراطور فى اسرع وقت على عدة مدن كان قد ترك فيها بنويت محافظين من اصحابه فنظر فرنسيس الاول لنفسه فاذا هو قد تجرد فى غزوة قصيرة المدة عن جميع ما يملكه فى ايطاليا ولم يبق له فيها مولى ولا حليف فهذا ما كان من امر الغزو فى ايطاليا واما الغزو جهة اسبانيا والبلاد الواطية فكان فيه النجاح وعدمه متكافئين وذلك أن شرلكان فى سنة ١٥٢٣ من الميلاد (اى نحو سنة ٩٣٠ من الهجرة) هجم على مدينة بيونة فصده عنها لوتريك فانتقم من الفرنساوية فى نظير ذلك بأخذ مدينة فونترابية وحصل ايضا أن قوتة دى غيزة طرد جيشا من الالمان كان قد جاوز نهر الموز وكذلك الجنرال لاترمويل حاز فى الفخر الحظ الاوفر بكثرة قتاله للانكليز والفلمند فى بيكارديا وكانوا قد توغلوا فى فرانسا حتى لم يبق بينهم وبين باريس الا احد عشر فرسخا وكان عددهم يزيد على ثلاثين ألفا فبعث فرنسيس وكان لم يزل الى ذالك الوقت بمدينة ليون الى الجنرال لاترمويل بمدد من الخيالة فكان هذا المدد بانضمامه الى نشاط هذا الجنرال واشتداد البرد الذى تعجل قبل اوانه ونفاد مؤنتهم وذخائرهم سببا فى رجعتهم وانقاذ كرسى المملكة

ثم ان اهل ايطاليا كانوا يعتقدون أن هزيمة بنويت واجلاء الفرنساوية عن بلادهم وعود فرنسيس سفورس الى الدخول تحت حماية الايمبراطورية ينتهى بها الحرب بين شرلكان وملك فرانسا وسعى البابا فيما يبعث المنصور على الصلح لما أن ذلك كان من الواجب على البابا المذكور ومما تقتضيه رتبته ومنصبه غير أن شرلكان كان قد دبت فيه نشوة الظفر والنجاح وأثر فيه تحريض الكونيتابل بربون وتمكن منه الطمع فلم يلتفت الى

نصائح البابا بل عزم على نقل الحرب من ايطاليا الى فرانسا فدخل الجيش الايمبراطورى فى اقليم بروونسة تحت قيادة الجنرال پسكير وحاصروا مدينة مرسيليا وكانوا لا يؤملون المقاومة من اهاليها بناء على ما قاله الكونيتابل ان ثلاث ضربات من ضربات المدفع تحمل اهلها لجبنهم على الخروج الينا خاضعين ومفاتيح مدينتهم بأيديهم والحبال فى اعناقهم فما لبث الا قليلا حتى ظهر خلاف ما قال فان محافظيها واهاليها بل ونساءها تسابقوا الى المدافعة مع الثبات والاقدام فوجد فرنسيس بذلك فسحة من الزمن جمع فيها جيشا جرارا تحت اسوار مدينة اوينون فلما قدم الى مرسيليا بادر عساكر الايمبراطور بالانصراف الى ايطاليا لأن قواهم كانت قد خمدت وهممهم فترت بما كابدوه من تعب الحصار الذى مكث اربعين يوما واسقمتهم المجاعة والامراض

فلما رأى الملك فرنسيس انه صار فى ثغور ولاية ميلان مع جيش منصور لم تسمح نفسه أن يرجع بدون أن يسعى ثانيا فى فتح تلك الولاية التى كان اخذها مع خطره غير محقق ولم يثبطه عن هذه العزيمة نصح اتمه ولا موت الملكة زوجته الذى بلغه اذ ذاك بل دخل ولاية ميلان مقتفيا اثر العساكر الايمبراطورية الهاربة وحاصر مدينة پاويا وهى من اعظم حصون هذه الولاية فصار يدافع عنها انطوان دوليوه وكان معه ستة آلاف من قدماء العساكر وساعدته شدة الشتاء فطال امد الحصار فظن البابا أن الترغيب فى الصلح فى هذه الحالة يثمر فطلب اولا مهادنة الى خمس سنين فأبى الايمبراطور فعقد مع ملك فرانسا مشارطة على أن يكون منعزلا متباعدا عن الفريقين ودخلت فى تلك المشارطة جمهورية فلورنسة على العزلة والتباعد ايضا فلما رأى الملك أنه صار غير محتاج لأن يجمع جميع قواه للاستيلاء على پاويا عزم على الاغارة على مملكة نابلى ولم يكن لها وقتئذ من يحاميها ويدافع عنها فبعث اليها ستة آلاف مقاتل تحت قيادة يوحنا استوارت دوق ألبانية فبينما كان يضعف عساكره بتوزيعهم لاجل مشاغلة العدو بدون روية

ولا تدبر

ولاتدبراذقدم بربون باثنى عشر ألفا من مشاة ألمانيا فزاد بذلك عدد العساكر الايمبراطورية على عدد الجيش الفرنساوى وتقدموا الى باويا بقصد اسعافها واعانتها فتعذر على الملك فتحها بدون قتال فتجاسر لاترمويل وغيره من مهرة الضباط ذوى الخبرة والتجربة واشاروا عليه برفع الحصار واجتناب القتال فخالفهم فى ذلك نديمه بنويت واظهر الغضب من التفكر فى الانصراف وشدد فى أن القتال امر ضرورى لابد منه فى رفعة شأن الملك ومملكته فغلب فخاره الكاذب على ما ابداه غيره من الحزم والتبصر واحس كل من الفريقين احساسا قويا بعواقب النصرة والهزيمة والتحم القتال بينهم مع الحدة والحمية الشديدة فلم يمكن لعساكر الايمبراطور مقاومة الفرنساوية فى الصدمة الاولى ولكن تغيرت حالة الدهر معهم فى اسرع وقت فان السويسة الذين كانوا مع الفرنساوية تمكن منهم الرعب والفزع فتركوا مواضعهم على حين غفلة ولكن جبر منقصة هذا الجبن رئيسهم المسمى ديسباق ببذل روحه وسفك دمه حيث افضى به اليأس الى اقتحام الخطر واختراق صفوف الالمانيين حتى قتل ولما اشتدت المعركة خرج دوليوه مع من كان معه من المحافظين وانقض بهم على ساقة الجيش وكان قائدها دوق دولنسون فهزمها وبدد شملها وقصد پسكير مع خيالة الالمانية الخيالة الفرنساوية فكسرهم وفرق جمعهم وشملت الهزيمة العساكر الفرنساوية ماعدا من كان منهم جهة الملك فانهم ثبتوا على المقاومة وابدى الملك فى هذا المقام من الثبات والاقدام ما تقصر عنه العبارة لأنه كان حوله جماعة من صناديد الاشراف وابطالهم ولكن كان ذلك بلا طائل فان جميع ضباطه الممتازين بفرط الشجاعة وقعوا حوله وهو يراهم بعينه وهم مارشال دوفواكس ومارشال دوشبانه وشومونت والجنرال لاترمويل والجنرال بنويت الذى هو اصل هذه النكبة العظيمة وقد كان هذا الجنرال وجد له فرصة فى الهروب الا انه لم يجد سوى الموت كفارة لخطاه وقصارى الامر أن هذا الملك الشهم خلع عن سرجه وجرح فى جبينه وسال دمه بكثرة بعد أن قتل

سبعة من عساكر العدو حتى كاد يكون وحده عرضة لجملة بعض عساكر الاسبانيول التى كانت تزداد فيهم كلما ثبت هو فى المقاومة فعند ذلك عرفه باصابة طعنه وضربه البيكزادة پمپران الذى صحب بربون فى هروبه فنحى عنه العساكر وخر على اقدامه وترجاه أن يسلم نفسه لدوق دى بربون لقرب مكانه منه فقال فرنسيس ان الموت احب الى من ذلك فدعا پمپران عند ذلك لانواى عامل الايمبراطور فسلم له فرنسيس سيفه ثم ذهب به لانواى الى معسكره واعتنى بمداواة جراحه وفى هذا المكان كتب فرنسيس لامه هذه العبارة الجليلة وهى الى والدتنا قد خسرنا ايتها السيدة كل شئ ماعدا شرف العرض

وقد بقى من الفرنساوية فى ميدان المعركة مايزيد على عشرة آلاف وهلك فى هذه الوقعة معظم شرفاء الفرنساوية ولم تمض الاخمسة عشر يوما حتى خرج من ايطاليا جميع الفرنساوية ولم يبق بها منهم احد

هذا وقد بلغ شرلكان خبر ظفر جيوشه ونجاحها وكان على غير انتظار ولكن لم تستخفه نشوة الفرح وتأخذه اريحية المسرة بل امسك نفسه عن الافراط وابدى من الاقتصاد والتوسط فى ذلك ما اوضح وصدر عن صدق عزيمة لفاق فخره فخر النصرة وذلك أنه لما هنأه خاصته بالنصرة اصغى اليهم اصغاء الحبالمتبع المتواضع واظهر الاسف على مصاب فرنسيس الاول ومنع الناس أن يعملوا للنصرة شيأ من مواسم الافراح العامة ولكنه طلب فى تخلية سبيله وفكه من الاسر فدية عظيمة حيث علق فكه على هذه الشروط وهى أن يسلم برغونيا للايمبراطور وينزل عن اقليمى پروونسة والدوفينة للكونيتابل دى بربون ليضمهما الى بعضهما ويجعلهما لنفسه مملكة مستقلة وأن يمسك عن الدعوى باى وجه كان فى شأن مملكة نابلى وولاية ميلان وغيرهما فاغتاظ فرنسيس من هذه الشروط ولكنه رأى أن هذه المطاليب ليست صادرة عن نفس الايمبراطور بل هى من املاء اهل مشورته الذين هم ارباب قسوة وتشديد فى السياسة فطلب أن ينقل الى اسبانيا

مؤملا

مؤملا أن مقابلته مع شرلكان تكون اقرب الى تحيز المصالح من المفاوضات الطويلة بينه وبين وزراء الايمبراطور فنقل الى مدينة مدريد غير أن الايمبراطور امتنع من مقابلته حتى تنتهى شروط الصلح واشترط عليه شروطا صعبة فاقتضى الحال حينئذ أن تكون المفاوضة فيها على لسان السفراء من الطرفين وكانت المفاوضة قد حصلت منذ مدة مديدة مع ام فرنسيس التى كانت نائبته على المملكة ولعمرى ان هذه الملكة منذ وقعة باويا التى دارت فيها الدائرة على ولدها ابدت حزم ارباب السياسة ونشاط اهل التدبير والكياسة فقد جمعت بقايا جيش ايطاليا وفدت الاسارى ودفعت لهم ما لم يصرف من جوامكهم وجندت جنودا اخرى واعدت ما يكون به الامن على الثغور وبعثت سفراءها الى ملك انكلترة فما كان من ولسى الا انه حمل هنرى الثامن (ملك انكلترة) على الانفصال عن شرلكان وفسخ محالفته انتقاما منه على كونه أخلف الوعد معه مرتين وايضا هذا الخطب الذى دهم فرانسا كان سببا فى تسكين غضب بعض اعدائها فيما وراء جبال الالب فألقوا اسلحتهم وكفوا عن قتالها وكان الناس يرغبون كل الرغبة فى انتهاء الحرب بين فرنسيس وشرلكان لما أن العساكر الايمبراطورية سلكت معهم مسلك التعدى والظلم حيث كانوا لعدم صرف جوامكهم يتعيشون من السلب والنهب وقطع الطرق ففى اثناء هذه الاحوال جنح الايمبراطور لقبول ما كانت تعرضه عليه الملكة والدة فرنسيس واجابها الى عقد هدنة تحصل فيها المفاوضة فى شأن فك الملك من الاسر والذى بعث شرلكان على ذلك هو ميله الى اظهار السهولة والملاينة وكذلك قلة امواله وتخلى هنرى الثامن عنه وتوقع التعصبات والفتن فى ايطاليا ومع ذلك تطاول امد هذه القضية على فرنسيس حتى ضاق ذرعا لاسيما وكان ذا أنفة ونفسه سريعة الاحساس والتأثر فأفضى به ضيق الاسر وقسوة الايمبراطور وعدم رضاه بمقابلته الى أن اشتد به التأثر وتمكن منه انفعال النفس فمرض مرضا شديدا حتى قال الاطباء ان لم يبادر الايمبراطور بزيارته ايسنا من حياته فعند ذلك عزم

الامبراطور على زيارته ووعده بالخير خشية أن يموت فتضيع عليه الفدية العظيمة التى كان ينتظرها منه لاجل فكه من الاسر فحضر اليه وعانقه واظهر له الحنو والشفقة ولاطفه فى الحديث وكلمه بلسان المودة والمحبة ووعده بالخلاص عن قريب فانتعش فرنسيس بهذا الوعد وكذلك باعتناء اخته دوقيجة دالنسون بشأنه واهتمامها بأمره وكانت قد حضرت الى اسبانيا بقصد تسلية اخيها والمفاوضة فى شأن الصلح فلما رآه الامبراطور قد عوفى من مرضه عدل عما وعد به وعاد لما كان عليه من الغلظة والتشديد

وكان اثقل ما على فرنسيس رد برغونيا وكان شرلكان مشددا فى ذلك غاية التشديد وكان فرنسيس يقول دائما ان من العار على أن ارضى بتمزيق مملكتى وعزم فى اثناء هذه المشاحنة دفعة واحدة على امر جدير بعلو همته وملائم لتخييب مطامع شرلكان وذلك لانه اعطى اخته عند سفرها الى فرانسا وثيقة تتضمن نزوله عن المملكة لابنه ولو استمر على هذه العزيمة العظيمة حتى نجزها لحاز بذلك من الفخر ما يعادل شقاءه وسوء حظه ولكنه عدل عنها عملا بما رآه او اشير به عليه فى هذا المعنى وهو أنه ان منعه شرف النفس عن الرضاء بتمزيق المملكة لم يمنعه عن أن يسلك مسلك المكر والخداع مع خصم ظفر به فأبدل المرحمة بالشدة وتجاوز فى مطاليب النصرة حده اذ الضرورات تبيح المحظورات وانه اذا فك من الاسر يسوغ له أن يرجع عما التزم به لكونه حصل منه بطريق الاكراه والاجبار فكان من الاحتراس الذى لا تخلو التواريخ عن ذكر مثله المرة بعد المرة وان كان فى الحقيقة ليس الا سفسطة سياسية وحيلة پوليتيقية يتحيل بها صاحبها على براءة ذمته وخلوصها من اثم المخالفات أنه احضر خفية كاتبا من الموثقين وامره أن يكتب انه مكره على قبول تلك الشروط ثم فى رابع عشر ابريل سنة ١٥٢٦ من الميلاد وضع الامضاء والقرار على مشارطة مدريد التى بموجبها نزل للامبراطور عن جميع ما كان له من الحقوق فى شأن ايطاليا ورد برغونيا مع جميع ملحقاتها وتخلى عن حكومة افلندرة وارتواس وترك حماية

روبيرت دولامرك ملك نوار ورضى أن يعيد الى بربون واحزابه جميع املاكهم وأن يدفع لملك انكلترة خمسمائة ألف ايكو كانت له على الامبراطور والتزم لاجل وثوق الامبراطور منه بالعمل على تلك المشارطة أن يجعل ولديه الكبيرين رهينة عنده وقصارى الامر أن هذين الملكين جعلا شاهدا لصلح بينهما هو أن فرنسيس يتزوج اخت الامبراطور المسماة اليونورة ارملة ملك البرتوغال

(الفصل الرابع)

فى ذكر ما حصل من مشارطة مدريد الى مشارطة كمبريه (وذلك من سنة ١٥٢٦ الى سنة ١٥٢٩ من الميلاد) (اى من سنة ٩٣٣ الى سنة ٩٣٦ من الهجرة تقريبا)

ولما التزم فرنسيس انه ان حصل ادنى توقف فى تنجيز تلك المشارطة يعود الى السجن كما كان خرج مصحوبا بالحرس حتى وصل الى نهر بيدسوا وهنالك حصلت المبادلة (اى بعث ولديه للامبراطور بدلا عنه) وكانا قد حضرا الى هذا المحل فلا حضورهما قلبه فرحا وترحا وبعد أن عانقهما وصل الى ساحل فرانسا وصاح قائلا انى لم ازل ملكا وكرر ذلك مرارا ثم قدم اليه بعد قليل سفراء من طرف الامبراطور يستأذنونه فى الاستيلاء على دوقية برغونيا باسم سيدهم فاجابهم بانه يلزم اولا جمع اعيان هذه الدوقية ووجوههم حتى يعلم هل يرضون بتغيير الحكومة اولا فما كان جواب هؤلاء الاعيان الا أن قالوا ان برغونيا يجب أن تكون من فرانسا حسبما هو الواجب عليها ومرغوب اهلها وان الملك نزل عنها لغيره بدون أن يكون له حق فى ذلك ومشارطة مدريد باطلة لانعقادها بالاكراه والاجبار فعوّل فرنسيس على رأيهم هذا ولو بالنسبة لبرغونيا فقط والتمس أنه يعمل بمشارطة مدريد فيما عدا التنزول عن برغونيا ويفدى ولديه بمليونين من نقود الذهب عوضا عن تلك الدوقية فعند ذلك ذكره قوتشة دولانواى وكان رئيس السفراء المذكورين بما التزم به من العود الى السجن باسبانيا اذا حصل توقف

فى اجراء المشارطة وحضه على تنجيزها والوفاء بها فحاوله فرنسيس وتشكى من ظلم الايمبراطور وجوره وصمم على ما التمس

وكان فرنسيس اذ ذاك قد تقوى جانبه حتى صار لا يبالى بالايمبراطور ولا يعبأ بغضبه وغيظه فانه عصب عصبة كان من اربابها البابا كليمان السابع وملك انكلترة والسويسة والبنادقة والفلورنسية واعلن هنرى الثامن ملك انكلترة بانه محاميها وكان الغرض من هذه العصبة طرد الايمبراطور من دوقية ميلان واثباتها لفرنسيس سفورس وكان الايمبراطور يريد نزعها منه بعد أن اعاده اليها وكان الغرض منها ايضا أن فرنسيس المذكور يتزوج بأميرة من فرانسا وأن لا يبقى لملك فرانسا من هذه الدوقية الاقونتينة أست ومدينة جنويزة وانه بعد اخذ الدوقية المذكورة من الايمبراطور تؤخذ منه ايضا مملكة نابلى ويكون التصرف فيها للبابا بعد رضاء بقية العصبة وانحط رأيهم على أن لا يلقوا السلاح حتى يجبروا الايمبراطور على اطلاق الاميرين الفرنساويين من الاسر ثم ان هذه العصبة فى مبدأ امرها لم تكن فى مساعيها المقصودة لها على السرعة التى كانت عليها حين التعصب وعقد المعاهدة وذلك لأن فرنسيس كان يؤمل أن مجرد الخوف من تلك العصبة القوية يبعث شرلكان على التساهل فلم يبادر بارسال جيش الى ايطاليا بل بعد قليل من الزمن جبر الكونيتابل دى بربون الامير سفورس بعد أن حاصره فى قلعة ميلان على التسليم مع اعانة البابا والبنادقة له غير أن بربون مع نصرته على عدوه قصرت به الاموال واظهرت عساكره العصيان حتى اضطر الى احد امرين اما أن يسرحهم واما أن يذهب بهم عن تلك البلاد التى سلب العساكر اموالها حتى عجزت عن القيام بمؤونتهم وضرورة قوتهم فخرج من ميلان على حين غفلة وترك فيها انطوان دوليوة وسار فى شدة القر والبرد ومعه من العساكر خمسة وعشرون ألفا مختلفة فى الملة والاخلاق واللسان مجردة عن الاموال والمؤونة والمدافع والاثقال وتنحى عن قتال عساكر العصبة وكانت هذه العساكر تنتظره قريبا

من

من فلورنسة حين جاءت اليها الامدادات من فرانسا والسويسة وعدل الى رومة وأسرع فى السير اليها بقصد حصارها سرعة عجيبة لا يفوقها الا جسارته على هذا المقصد فحاصرها وامر بالهجوم عليها حتى يأخذها عنوة فأصيب برمية اول سهم خرج من اسوار المدينة فقتل ولعمرى ان هذا البطل السيئ الحظ يحق أن يرثى لحاله فى حياته ومماته وأن يمدح على نجابته ومعارفه فقد كانت فرانسا تنسب نفره اليها وتقصر علو شأنه عليها كما كانت تتأسف على زلته وتتوجع على خطأه وهفوته (وكان موته فى خامس مايه سنة ١٥٢٧ من الميلاد) واوصى من حوله أن يخفوا موته عن العساكر حتى لا تفتر همتهم وتقلد بعده بقيادة العساكر امير من عائلة شالون يقال له فليبرت وهو آخر امراء اورنجه فأخبرهم فى اثناء المعركة بموت قائدهم وحثهم على الاخذ بثاره فاجابوه الى ذلك وانتقموا من رومة انتقاما عظيما حيث اخذوها عنوة ومكثوا فى نهبها شهرين مع فرط الحدة التى هى اجدر بالغوث والوندال (وهما امتان من الامم الوحشية القديمة) وحاصروا البابا فى قلعة سنت أنج فلما خاف على نفسه الهلاك سلم لهم واشترطوا عليه شروطا صعبة وبقى فى الاسر مع ثلاثة عشر كردينالا حتى يدفع المبالغ الجسيمة التى التزم بها للجيش الايمبراطورى فلما بلغ الايمبراطور خبر هذه النصرة تصنع الحزن واظهر الغم لاجلها ولم يقر هذا النجاح الذى اسخط دول اوروبا وعدته من الاقبيات المكفر بل لبس شعار الحزن وامر اهل دائرته بذلك ولكنه ابقى الشروط التى اشترطت على البابا فى نظير اطلاقه وفك اسره ثم ان البابا عجز عن اداء ما التزم به لاجل فدائه فاستطالت مدة اسره فانتهزت مدينة فلورنسة هذه الفرصة وتخلصت من حكومة العائلة المديسيسية فخلت عن حكومتها جمعية الخواص التى كان ظهورها سنة ١٥١٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩١٨ من الهجرة) واعيدت لها الحكومة الاهلية واستولى البنادقة فى هذا الوقت على مدينة راوينة وعلى عدة مدن اخرى من مدن الحكومة القسيسية

متعللين بأن قصدهم حفظها على سبيل الوديعة واخذ ايضا كل من دوق اوربين ودوق فرارة نصيبه من سلب هذا الحبر السيء الحظ وكانا يظنان انه سقط عن درجة الاعتبار سقوطا لا رجعة بعده

وفى هذا الوقت كان قد آن اوان خروج كل من ملك فرانسا وملك انكلترة من حيز الدعة والبطالة الى حيز الاشتغال بالحرب والنزال ولكن قبل الاعلان بطلب القتال استشار فرنسيس الملة فى مشارطة مدريد هل الرأى اعتبارها او الغاؤها (وكان ذلك فى حادى عشر دقمبر سنة ١٥٢٧ ميلادية) وذلك أنه جمع جمعية من وجوه الملة واعيانها وخطب فيهم خطبة ترق لها القلوب ووصف فيها ايام حكمه ثم امر بقراءة الوثيقة التى كتبها مدة اسره فى شأن نزوله عن سرير المملكة وطلب من رعاياه الاسعاف والاعانة على التخلص من ورطة هذه المشارطة المنفرة ومع ذلك عرض عليهم انه يرجع الى الاسر باسبانيا ان كانوا يرون فى ذلك مصلحة للدولة فما كان من مبعوثى طوائف الملة الثلاث الا اظهار حميتهم وغيرتهم عليه فاما طائفة القسوس فجعلت على نفسها مغرما قدره مليون وثلثمائة ألف فرنك واما طائفة الاشراف فأجابت بأنها تذب عن الملك بأنفسها واموالها واجابت الطائفة الثالثة وهم العامة بمثل ما اجاب به الاشراف

ولما صار كل من ملك فرانسا وملك انكلترة لا يؤمل للمفاوضة ثمرة ولا يطمع منها فى شئ أنفذا للامبراطور سفراء يدعونه للقتال (وكان ذلك سنة ١٥٢٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٥ من الهجرة) فعند ذلك تظلم شرلكان من ملك فرانسا بأنه قد غدر ولم يف بما وعده وطلب أن يبارزه فى الميدان فكتب اليه خصمه كتابا وضع فيه امضاءه بيده وذكر فيه انه قد افترى وكذب فيما تظلم منه وحضه على تعيين مكان للمبارزة فعين شرلكان لذلك محلا على سواحل نهر بيدسوا ثم انهما لم يفعلا شيأ غير ذلك بل اقتصرا على هذا الطلب الذى يزرى بهما ولا يليق بمقامهما ولم تحصل بينهما مبارزة ولكن وقع الحرب فى ايطاليا بين الفريقين مع فرط الحمية والحدة وذلك

ان

أن لوتريك قلد رياسة عساكر العصبة وجاوز فى شهر يوليه سنة ١٥٢٧ ميلادية جبال الالب يقود ألفا من الخيالة الشاكى السلاح وستة وعشرين ألفا من المشاة وكانت اوائل حركاته العسكرية صادرة عن الحزم وحسن التدبير فلذا كان يعقبها الظفر والنجاح فقد تغلب باعانة اندره دوريا على جمهورية جنويزة واعاد فيها حزب الفريغوزية وحكومة الفرنساوية وقع فى اقرب وقت مدينتى اسكندرية وباويا وعدة مدن اخرى واعيدت حكومتها لفرنسيس سفورس ولكنه عوضا عن كونه يتمم فتح ولاية ميلان التى كان فيها انطوان دوليوة لايمكنه أن يقاوم بجيشه الصغير عساكر العصبة مدة طويلة قصد دولة الكنيسة ليخلص البابا من الاسر حيث كان الى ذلك الوقت اسيرا بقلعة سنت أنج ثم يستولى بعد ذلك على مملكة نابلى

ففى اثناء سيره الى مدينة رومة مع التأنى والبطء اطلق شرلكان البابا كليمان السابع من الاسر فى نظير فدية افتك بها نفسه مقدرها ثلثمائة وخمسون ألف دوقة (نوع من النقود) ولما فك من الاسر طلب أن يتوسط فى الصلح بين الدول المتشاحنة وحصلت فى ذلك الوقت بعض مفاوضات ومكالمات فى هذا المعنى لم يترتب عليها ثمرة بل اعقبها حرب كانت اشد مما قبلها فان لوتريك طرد أمامه العساكر الايمپراطورية وصار يقفو آثارهم بجيشه المنصور الذى كان يزداد عدده فى السير ومازال كذلك حتى دخل مملكة نابلى فطاف جهاتها كما يطوف الفاتح المتغلب وسلمت له جميع مدنها ماعدا قاعدتها فان عساكر الايمپراطور اجتمعت كلها فى هذه المدينة بحيث صار حصارها من الامور الصعبة الخطرة التى تستدعى التلف وسفك الدماء حيث ان القائم بالذب عنها جيش تام فاختار لوتريك من طرق المحاصرة ما كان اكثرها بطأ واقلها خطرا حيث امر العساكر بالاحاطة بها من سائر الجهات مؤملا أن المجاعة تجبر المحصورين على التسليم فى اقرب زمن فخاب امله بحادثة حصلت لم تكن تتوقع

وذلك أن اندره دوريا عادى ندماء الملك فرنسيس وخاصته بسلوكه معهم فى مقام المخاطبة والمكالمة مسلك المتكبر الذى يفصح عما فى باطنه مع الشمم والتعاظم فسعوا به عند الملك وتسابقوا فى الوشى به عنده حتى ارتاب منه وأساء به الظن فلم يسع اندره دوريا اذ ذاك الا احتمال الاذى والصبر على المكاره والتجلد لتجرع ما كان يناله من غصص الاساآت والمظالم ولا زال كذلك حتى انتهكت حرمة وطنه (مدينة جنويزة) باساءة جديدة فعند ذلك عيل صبره وقصر به الاحتمال والتجلد وسبب هذه الاساءة أن الفرنساوية حصنوا مدينة ساوونة ونظفوا ميناها ونقلوا اليها بعض فروع من التجارة كانت لمدينة جنويزة كأنهم يريدون بذلك أن يجعلوا لهذه المدينة ضرة تعادلها فى العظم والثروة فلشدة غيرة اندره دوريا على شرف وطنه وحرصه على حفظ مقامه ورعاية مصالحه تشكى وتظلم بل وارهب وهدد وكان اذ ذاك فى مدينة جنويزة ومعه دونمة من السفن الحربية فأمر فرنسيس بالقبض عليه فلما بلغه ذلك تحالف فورا مع الامبراطور وابدل الراية الفرنساوية بالراية الامبراطورية وقصد نابلى بجميع سفنه كى يسعف هذه المدينة وينقذها مما حل بها من الخطب والكرب فوصل بوصوله اليها الرخاء والخصب وزال عنها القحط والجدب فلما انقطع بقدومه استيلاء الفرنساوية على البحر دارت عليهم الدائرة وحلت بهم المجاعة والقحط وانضم الى ذلك الطاعون فلم تمض الامدة يسيرة حتى هلك به قائدهم ومعظم جيشهم فتولى قيادة العساكر مركى دوسالوسه فأراد هذا القائد انقاذ بقايا الجيش من الشقاء والبلايا فسلم نفسه للعدو ودخل تحت اسرهم وترك لهم جميع ما كان معه من المدافع والاثقال فلم تطل مدة حياته حتى يقاسى ما لحقه من الخزى والمعرة بل مات بعد قليل فى نابلى من ألم الجراح فكأنه لم يتول قيادة الجيش ايا ما قلائل الا لاضاعة مملكة نابلى وتبديد شمل جيش العصبة ثم ان دوريا لم يضع الزمن بل ركب البحر وقصد جنويزة واخرجها من حكم الفرنساوية بدون قتال وكما أنه حاز بذلك وصف المنقذ لبلاده اتصف

ايضا

ايضا بوصف المتقن لقوانينها فانه دعا اهلها الى اصلاح ما فى اصولهم وقوانينهم من الامور المختلة التى كانت سببا فيما حل بهم من المصائب فعينوا جمعية اربابها اثنا عشر رجلا لاجل ترتيب جمهوريتهم وجعلها على نظام جديد فجدد ارباب تلك الجمعية المنوطة بالاصلاح والتنظيم مشورة كبرى اعضاؤها اربعمائة شخص وجعلوا بأيديهم الشوكة العظمى والحل والعقد وجعلوا المدة لكل رئيس تولى على الجمهورية سنتين فقط ورئيسهم يلقب بالدوج ولم يجعلوا من وظائفه المواد التى تسبب عنها بقاء الاحزاب والعصب بالجمهورية واضرمت فيها نيران الفتنة والاضطراب فهكذا كان ترتيب الحكومة الارستوقراطية اى حكومة الاشراف والرؤساء بجنويزة وقد حفظت اصول هذه الحكومة من ذلك الوقت بدون تغيير ولا تبديل ماعدا بعض تغيير وتلطيف حصل فيها سنة ١٥٧٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٨٤ من الهجرة)

ولما كان فرنسيس الاول له حمية وغيرة شديدة على ازالة ما لحقه من خزى النكبات الكثيرة والمصائب العديدة سعى فى اخذ ولاية ميلان وكان ذلك آخر مساعيه فى شأن تلك الولاية فبعث اليها جيشا بقصد اخذها والاستيلاء عليها فانهزم جيشه شر هزيمة وانقطع دابره بالكلية فى الغزوة المعروفة بوقعة لندريانو التى كانت سنة ١٥٢٩ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٦ هجرية) وبهذه الوقعة انتهى الحرب والقتال فان ضعف الدول حتم الصلح وجعله متعينا فكان اول من تفاوض مع الايمبراطور شرلكان فى هذا المعنى هو البابا كلمان وكان لا يمكن لشرلكان التمكن فى ايطاليا الا بربط البابا بعقد مشارطة اكيدة بينه وبينه فلذا عقد معه مشارطة حصل التصديق عليها فى مدينة برسلونة والتزم فيها بأنه يرد للبابا جميع ما تغلب عليه من اراضى الدولة القسيسية وأن يعيد الى فلورنسة حكومة العائلة المديسيسية وأن يزوج بنته الطبيعية (اى المتولدة من السفاح لا من النكاح) المسماة مرغريطة دى استريا لاسكندر رئيس هذه

العائلة واما البابا فقلد شرلكان ولاية نابلى وابطل الجزية القديمة التى كان يدفعها ملوك نابلى للبابات وسمح بالعفو العام عن كل من كان له دخل فى سلب مدينة رومة ونهبها

ولما شاع خبر هذه المشارطة حصلت المبادرة والتعجيل فى المفاوضات التى كانت حاصلة قبل ذلك فى كمبريه بين مرغريطة دى استريا من طرف الايمبراطور ولويزة دى ساوة من طرف ملك فرانسا وكانت مشارطة مدريد اساسا للمشارطة التى عقدتها هاتان الاميرتان ولم تؤثر هذه المشارطة الثانية فى الاولى الا بعض تخفيف ونوع تلطيف وذلك انه استقر الرأى فيها على أن فرنسيس الاول يفتدى ولديه بمليونين من نقود الذهب المسماة ايكو ويتخلى قبل اطلاقهما عن جميع ما بيده من مدن ولاية ميلان ويترك جميع حقوقه فى شأن مدينتى اراس وتورناى وينزل عن حكومة افلندرة وأرتواس ويترك ما يدعيه فى شأن نابلى وميلان وجنوية وغيرها ويتزوج اليونورة ايم ملك البرتوغال التى هى اخت الايمبراطور البكرية واما برغونيا فاقتصروا فيها على شرط كان لا يعد الغاؤه وعدم تنفيذه فيما بعد وهو أنه اذا ولدت زوجة فرنسيس الثانية (يعنى اليونورة) ذكرا اختص هذا المولود بارث دوقية برغونيا دون اولاد الزوجة الاولى

وبعد حصول التصديق على هذه المشارطة فك الاميران (ولدا فرنسيس) من الاسر وذهب مارشال دومونتورامى لملاقاتهما على شواطئ بيدسوا واتى بهما الى والدهما مع الملكة الجديدة فاشهر فرنسيس نكاحها فورا

﴿الفصل الخامس﴾

فيما حصل من مشارطة كمبريه الى هدنة نيسة (وذلك من سنة ١٥٢٩ الى سنة ١٥٣٨ من الميلاد (اى من سنة ٩٣٦ الى سنة ٩٤٥ من الهجرة تقريبا)

وفى اثناء ما كان فرنسيس الاول يدارى حزنه ويخفى غمه باظهار المواسم والعاب الرماحة والمسابقة التى هى بالنسبة اليه ليست الا ابهة ظاهرية ورونقا

كاذبا

كاذبا تكلفه لاجل اشهار هذا النكاح المشؤم كان خصمه الايمبراطور شرلكان قد ذهب الى ايطاليا واظهر فيها ابهة ماحظى به من الشوكة وفخار النصرة حيث ألبسه البابا بمدينة بولونية تاج الايمبراطورية وفى هذا الاحتفال جمع شرلكان بين خضوع الغلام المنقاد للكنيسة وجلالة الايمبراطور العظيم الشان فانه جثا على ركبتيه وقبل يد البابا الذى فكه من قيود الاسر قبل ذلك بقليل

وقد بقى بعد ذلك لاجل تمام الصلح فى ايطاليا مصالحة دوق فرارة مع البابا ومصالحة دوق ميلان والبنادقة مع الايمبراطور ومع جمهورية فلورنسة فأما دوق فرارة فجعل الايمبراطور حكما بينه وبين البابا فرد اليه الايمبراطور جميع التزاماته واما دوق ميلان وهو سفورس فاعتذر الى الايمبراطور وبرأ نفسه فقبل عذره وبراءته وأقره على ولاية ميلان التى كان سابقا قلده بها ودفع له الدوق فى نظير تقريره عليها اربعمائة وخمسين ألف دوقة وزوجه الايمبراطور بنت ملك دانيمرقة وهى بنت اخته واما البنادقة فاصطلحوا معه ايضا على أن يردوا للبابا مدينتى راوينة وسرويا ويخرجوا من جميع المدن الحصينة التى شغلوها فى مملكة نابلى ويمدوا الايمبراطور بجملة من الاموال وقد حصل الاعلان بهذه المشارطات بمدينة بولونية فى اول يوم من سنة ١٥٣٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٧ من الهجرة)

وباثر هذا الصلح أذعنت بلاد ايطاليا كلها لاحكام الايمبراطور وتلقتها بالقبول ماعدا اهل فلورنسة فانهم تجاسروا بمفردهم على معارضة رأى الايمبراطور ولم يرضوا باعادة العائلة المديسيسية فضيق عليهم الجيش الايمبراطورى وتخلى عنهم جميع حلفائهم وفشا فيهم الشقاق والجماعة الأنجمية الجمهورية الجاهلية كانت ظهيرهم ويأس مسلوب البصيرة كان نصيرهم فمكثوا يدافعون عن انفسهم مدافعة الشهم العنيد مدة احد عشر شهرا ولم يسلموا الا بعد عقد مشارطة أملوا بها البقاء على بعض بقايا من حريتهم ولكن

خيب الايمبراطور أملهم حيث وضع قانونا جديدا حصل اعلانه فى السابع والعشرين من شهر ابريل سنة ١٥٣٢ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٩ هجرية) فبطلت به حكومتهم الاهلية وكذلك غونفلونيير العدالة (اى رئيس احكام عدلية) وبطل ايضا مجلس السيادة (وهى جمعية كان بيدها معظم حكومتهم) وجعل اسكندر دوميديسيس رئيس الدولة واميرها ولقبه بلقب دوج اى دوق جمهورية فلورنسة وجعل هذا المنصب وراثيا فى عقبه الاكبر فالاكبر ثم ان هذا الدوج وعد اهل فلورنسة بالعفو العام ومع ذلك اخذ منهم بثار عائلته المديسيسية حيث انتقم من اشد اعدائها بالنفى والسجن والعقوبات الشديدة فعاد عليه ظلمه بالعداوة والبغضاء فكرهه احزابه بل واقاربه فقتله ابن عمه لورنزينوميديسيس سنة ١٥٣٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٤ من الهجرة) وكان لورنزينو المذكور اكبر الفرع الثانى من هذه العائلة ولكن لما استولى عليه الفزع والرعب من ذلك الذنب لم يسعه الا الهروب فولت مشورة السنت الشاب كومة وكان من ابعد اقارب اسكندر الا انه كان قد انفرد حينئذ بوراثة عائلته لكونه اكبر الذكور الموجودين من هذه العائلة فعكر المنفيون اوائل ولايته ببعض مقاتلات ولكن ادخله الايمبراطور شرلكان تحت كنفه وحمايته ومكن فى طوسكانة شوكة المديسيسية

ثم ان شرلكان بعد الاعلان بالصلح فى مدينة بولونية قصد بلاد ألمانيا لأن مصلحة الامور الدينية كانت تستدعى حضوره اليها وذلك أن جمعية اسبيرة كانت فى سنة ١٥٢٩ من الميلاد قد حكمت على اتباع لوتير بحكم شديد ثم ثقله عليهم فى سنة ١٥٣٠ ميلادية تشديد جمعية اغسبورغ لخاف الامراء القاثوليقية الذين هم من امراء الايمبراطورية من مناقضات اللوثريانية (اصحاب لوتير) وانكارهم عليهم وخافوا ايضا من انتشار مذهبهم واتساع دائرته اتساعا مخوفا فتعصبوا لحماية الدين الاصلى ودخل فى عصبتهم الايمبراطور نفسه وتعصب ايضا البروتستان (اى المنكرون

او المناقضون

اوالمناقضون وهم اللوترياينسة) فى اقليم اسمالكلده واخذوا يطلبون اعانة الامراء الاجانب وحصلت اذذاك حادثة لاتعلق لها بامور الدين تعللوا بها فى ذلك وهى انه كان من الاسباب التى بعثت الايمبراطور على الحضور الى ألمانيا انه كان يرغب فى جعل المنصب الايمبراطورى وراثيا فى عائلته بانتخاب اخيه فرديننـد ملكا على الرومانيين فساعده الوقت على تنجيز هذا الغرض حيث استحسنت جمعية الانتخاب التى انعقدت فى كولونية رأى هذا الايمبراطور المنصور الذى كان الحاجه بمنزلة الحكم والالزام فتولى فرديننـد ملكا على الرومانيين قهرا عن البروتستان فعند ذلك بعثت عصبتهم سفراء الى ملكى فرانسا وانكلترة فتعاهدا معهم سرّا ووعداهم بالاعانة (وكان ذلك سنة ١٥٣١ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٣٨ من الهجرة) فقويت قلوبهم بهذا الوعد وتجاسروا على معارضة آراء الايمبراطور اشد المعارضة ولما كان الايمبراطور اذذاك مضطرّا الى مساعدتهم لدفع اغارة العثمانية عقد معهم المصالحة المعروفة بمصالحة نورنبرغ وسمح لهم فيها بشروط تلايم اغراضهم (وكان ذلك فى سنة ١٥٣٢ ميلادية) ثم سار لملاقاة السلطان سليمان وكان قد دخل بلاد المجار بجيش جرّار فبعد أن جرّدا للقتال تجريدة كان فيها كلٌّ من الخصمين يخشى قوة صاحبه وغدر الدهر به اجتنبا القتال وتنحيا عن النزال فعاد شرلكان بعساكره الى ألمانيا وطاف ايطاليا ثانيا ثم ركب البحر فى سفن دوريا قاصدا اسبانيا فوصل اليها سنة ١٥٣٣ ميلادية (اى نحو سنة ٩٤٠ هجرية)

وفى اثناء ما كان شرلكان يطوف بلاد اوروبا طواف الفاتح اوالحكم اوالمنقذ كان فرنسيس مشتغلا فى هدء هذا الصلح بتدبير امر الحكومة فكان مما اشتغل به فى هذا الوقت ضم اقليم اربطانيا الى اقاليم التاج الملوكى بحيث لا ينتقل عنها الى الابد وكانت الملكة حانة دى اربطانيا تريد دائما أن تجعل هذا الاقليم دوقا يختص به فوقع الاتفاق عند زواجها

بالملك لويز الثانى عشر على انه ان ماتت ولم تعقب وارثا اوانقرض عقبها انتقلت دوقيـة ابريطانيا لاقرب وارث من عائلة دوقاتها ومع ذلك تحيل القبلبيردوبرات حتى نال ضم هـذه الدوقيـة لاقاليم التاج بطلب اعيانها ووجوه اهلها فانهم لما طلبوا ذلك ترتب بمقتضى طلبهم قانونسامة فيما يتعلق باصول الدولة سـنة ١٥٣٢ من الميلاد صرح فيه بأن دوقية ابريطانيا انضمت الى اقاليم التاج انضماما مؤبدا لا يعتريه تغيير ولا تبديل وبأن مزايا هذه الدوقية تبقى على حالها لا تنقص شيأ وفى السنة التى بعدها (اعنى سـنة ١٥٣٣ ميلادية) شرع الملك فرنسيس فى جعل المشاة الفرنساوية على ترتيب منتظم واسلوب مستحسن وكانت قبل ذلك منقسمة الى فرق غير متساوية فمنها ما كان عدده خمسمائة رجل ومنها ما كان ألفا ومنها ما كان ألفين فرتب سبع فرق على منوال الفرق الرومانيـة وجعل عدد كل فرقة سـتة آلاف نفس وانعم عليهـم بمثل المزايا التى كانت لطائفـة الرماة فى عهـد كرلوس السابع ولكن هذا النظام الجديد لم يمكث زمنا طويلا بل عاد العساكر الى ما كانوا عليه اولا من انقسامهم الى فرق غير متساوية لسهولة ذلك عليهم دون الترتيب الجـديد

وكان فرنسيس لم يرض بمشارطة كمبريه الا للضرورة فانه بمجرد وضـع امضائه عليها تمنى فسخها وصار يبحث عن فرصة تسهل عليـه نقضها ولهذا الغرض كان يتودد الى ملك انكلترة ويتحبب اليه ويسعى فيما يكون به بقاء غيظ امراء ألمانيا من الامبراطور وكان قد تعاهد سرا مع بروتستان هذه البلاد وان كان قد ابطل مذهبهم من مملكته ثم حمله التولع بالانتقام من الامبراطور على عقد محالفة اغرب من ذلك حيث كانت تأباهـا الاوهام والعقائد المعدودة من الاصول الشرعية والقوانين المحترمة المرعية بل كانت على حسب آراء اهل ذلك العصر من الامور الشنيعة والاشـياء المستقبحة الفظيعة ولذا مكث مدة طويلة وهو لا يقدر على الاقرار بها وبذلك تعسر تعيين تاريخها بحيث صار يصعب على الانسان أن يعرف الوقت الذى

حالفت

حالفت فيه دولة فرانسا السلطان سليمان على معارضة عائلة اوستريا (التي هي عائلة الايمبراطور) وهذه المحالفة كما اقتضتها البغضة والكراهة اقتضتها ايضا البوليتيقة والسياسة وايا ما كان الحامل لفرنسيس على محالفة الدولة العثمانية التي هي عدوة اوستريا بالطبع فقد امسك بزمام مصالح فرانسا المهمة وبين بذلك لمن تولى المملكة بعده منهجا اقتفوه ومسلكا سلكوه من غير انحراف ولا اعتساف فنجحوا في ذلك وفازوا بالمرام واما لوم معاصريه له على هذه المحالفة فما ذاك الا لكون ذلك العصر كان لم يزل فيه اسم الاسلام منفرا مفزعا لاسباب مختلفة اقتضت ذلك بحيث كان يصح اذ ذاك أن يجهل الانسان أن اختلاف الاديان لا يمنع من تحالف دولتين واتحادهما مع بعضهما اذا اقتضت مصالحهما ذلك

ثم ان فرنسيس الاول في مدة محالفته مع المسلمين كان يسعى جهده في فسخ ما كان بين الايمبراطور شرلكان والبابا كليمان السابع منذ مشارطة كمبريه من اكيد المعاهدة ومزيد الارتباط فان شرلكان كان قد استولى على عقل البابا بالكلية لاسيما بسعيه في ارتقاء العائلة الميديسيسية فاراد فرنسيس أن يستميله اليه بمثل ما استماله الايمبراطور فعرض عليه أنه يريد تزويج ثاني اولاده وهو هنري دوق دورليان بكاترينة بنت لورنت دوميديسيس ابن عم البابا فاغتر البابا بذلك ووقع منه موقعا لما أنه امر عظيم يعظم به شأن عائلته الميديسيسية وتعلو به منزلتها وحمله فرط الرغبة في هذه المصاهرة على الذهاب بنفسه الى مرسيليا سنة ١٥٣٣ من الميلاد بقصد الاجتماع مع الملك واشهار هذا النكاح الذي يتم به عظم الميديسيسية وتكمل به رفعة شأنهم ولكن لما كان شرفه بالنسبة الى عائلة فرانسا الملوكية قليلا كان مشؤم العاقبة على فرانسا بسبب طمع كاترينة ونجابتها ولم تطل مدة حياة البابا بعد هذا النكاح وانفصال انكلترة عن الكنيسة الرومانية الذي ظهر في ذلك الوقت بل مات بعد ذلك بيسير وتولى بعده اسكندر فرنيز وكان اكبر ارباب جمعية الكردينالات وسمي

من يومئذ بولس الثالث (وكان ذلك سنة ١٥٣٤ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٤١ هجرية)

ثم ان ملك فرانسا بعد اجتماعه مع البابا كليمان فى مرسيليا بعدة اشهر وجد لاسترجاع حقوقه فى شأن ولاية ميلان فرصة هى ما لحق سفيره من التعدى المنابذ لحقوق الملل بعضها على بعض وذلك أن هذا السفير كان من بيكزادات هذه الولاية وكان يقال له مرويلة وكان قد جمع من انعامات لويز الثانى عشر وفرنسيس الاول ما صاربه من اهل الثروة واليسار وكان موظفا فى السر من طرف فرنسيس بوظيفة السفارة عند سفورس دوق ميلان وكان الايمبراطور قد ارتاب من هذا الدوق واساء به الظن فى ذلك ثم تحققت ريبته وانكشف له الامر فخاف سفورس من تهديداته فاراد أن يستعطفه ويلين قلبه فأبدى له ما يدل على فزعه منه وبقائه على تبعيته لكن كان ذلك على وجه اورثه المعرة والخزى ودل على خشونته وقساوة قلبه وذلك أن خدم مرويلة قتلوا رجلا من بيكزادات ايطاليا كان قد سبهم وشتمهم فتعلل عليه الدوق بذلك وقبض عليه واقام دعواه ثم ضرب عنقه (فى شهر دقمبر سنة ١٥٣٣ من الميلاد) فاغتاظ فرنسيس من هذا التعدى ولم يمكنه أن يستوفى حقه من سفورس ولا من الايمبراطور فتظلم الى جميع دول اوروبا واعلن بالشكوى اليهم ثم تأهب للانتقام واخذ الثار وكان فى هذه القضية على الحق ولكنه لم يجد حليفا يستظهر به فان موت البابا كليمان السابع كان سببا فى حرمانه من الفوائد التى كان يؤملها من زواج ابنه دوق دورليان بكاترينة دى ميديسيس ولم يمكنه التعويل على اعانة ملك انكلترة لانه اذ ذاك كان مشغولا بمصالح مملكته الداخلية فاستعان بعصبة اسمالكالدة وهم البروتستان فلم يجيبوه الى ذلك لانهم كانوا مغتاظين منه على قتل عدة من بروتستان الفرنساوية فلم تثبطه هذه الموانع عما عزم عليه بل امر عساكره بالمسير الى ايطاليا فى اواخر فصل الصيف من سنة ١٥٣٥ ميلادية (المقابلة

لنحو

لنحو سنة ٩٤٢ هجرية) فأبى كرلوس دوق ساوة أن يأذن لهم بالمرور من بلاده لأنه كان صادقا فى خدمة صهره الايمبراطور وكان مغتاظا من ملك فرانسا لأنه قبل ذلك بيسير اعان عليه الجنويزية الخارجين عن طاعته فعند ذلك استولى الفرنساوية على بلاد ساوة ولم تنته هذه الغزوة القصيرة حتى تجرد هذا الدوق عن جميع ولاياته ما عدا ولاية پيمونت فانه كان باقيا له فيها بعض مدن حصينة

فبعد أن كانت الحرب فى مبدء الامر موجهة الى سفورس تغير ميدانها بغتة وحصلت ايضا حادثة على حين غفلة تغيرت بها طبيعتها دفعة واحدة وذلك أن دوق ميلان لما مات ولم يعقب ذرية (فى شهر اوقطوبر سنة ١٥٣٥ من الميلاد) استرجع فرنسيس جميع ما كان له من الحقوق فى شأن ولاية ميلان لانه كان لم يتنزل عنها الا لسفورس وعقبه فتطلب فورا تملك هذه الدوقية التى خلت عن صاحبها وقد كان يمكنه أن يتمكن منها بالسلاح ولكنه آثر على ذلك اثباتها لنفسه بالمفاوضة والمكالمة فبينما كان يصرف نفيس وقته فى المجادلة والمناقشة فى هذه القضية اقام خصمه شرلكان فى هذه الولاية اقامة وقتية بوصف كونه سيدا متبوعا ونظرا لكونها من التزامات الايمبراطورية ودبر فى السر ما يكون به بقاؤها تحت يده ومع ذلك كان يخشى أن تظهر مقاصده السرية عاجلا فأظهر الاعتراف بصحة ما يدعيه فرنسيس الاول من الحقوق فى هذا الشأن وأن حيرته انما هى فى الوسايط التى يملكه بها هذه الولاية بدون أن يتعكر بذلك الصلح فى بلاد اوروپا او ينعدم ميزان التعادل من ايطاليا ولما كان هذا الايمبراطور ماهرا فى احداث المشكلات الصعبة أطال المفاوضة فى هذا المعنى وجعل امر المكالمة فى ذلك مشكلا فكان تارة يعرض انه يقلد بولاية ميلان دوق دورليان ثانى اولاد ملك فرانسا واخرى يعرض انه يقلد بها دوق دانغوليم ثالث اولاده وكان دائما يتيقظ ويدقق النظر فيما يعود عليه بالمصلحة فى الوقت الذى يترآى فيه أن القضية قد اشرفت على التمام وأن امرها قد قارب النجاز فكان يقطع ويصل اسباب

الحيرة التى كان يتلاعب فيها بسياسة خصمه الغير المحققة ويوقعه فى الارتباك والتردد فى التدبير ثم انه بعد أن استقصى جميع مايصدر عن خبث الطوية من الحيل والمخادعات وتمم جميع مايحتاج اليه من الاستعدادات ذهب الى رومة (سنة ١٥٣٦ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٤٣ هجرية) واعلن فيها بمقاصده على وجه صريح مستغرب وذلك انه اجتمع البابا والكردينالات واغلب سفراء دول اوروبا فى ديوان الكردينالات ثم قام فيهم على حين غفلة واخذ يتكلم فى حق فرنسيس الاول ويقدح فيه فخطب فى ذلك خطبة طويلة سلك فيها مسلك الحماسة والحدة وبالغ فى لومه وسبه ودعاه فيها للمبارزة الشخصية بان يبرز كل منهما لصاحبه فى الميدان ثم ختم خطبته بدعواه على فرنسيس أنه ضعيف القوى والوسايط وذمه على ذلك حيث قال مع السفه والوقاحة لو كنت مكانه لذهبت فى الحال الى خصمى ويداى مغلولتان والحبل فى عنقى لاستعطفه واسأله أن ينظر لى بعين الرأفة والمرحمة ومثل هذا الكلام يستغرب صدوره من ملك عرف بالحزم وسداد الرأى وكان الى ذلك الوقت لا يألو جهدا فى سائر احواله ويسعى كل السعى فى أن يظهر بمظهر الاعتدال والسكون ولكن ادهشته نشوة اقبال الدهر التى تأخذ باللب وتغلب على العقل ولو بلغ صاحبه فى القوة والرزانة مابلغ فان انحطاط دولة فرانسا وانقياد ايطاليا اليه وانصراف السلطان سليمان أمام اعلامه الايمبراطورية وهزيمة بربروس الحديثة العهد التى اعقبها اخذ تونس (راجع تاريخ الدولة العثمانية) كل ذلك اورثه فيه من العتو والكبر مايذهب باللب ويستولى على العقل فلم يمكنه أن يكف نفسه عن فلتة لسانه هذه التى قالها بلسان الجبروت والتعاظم وصدرت عن نفس بالغرور قد ملئت وبخمر التملق والمداهنة قد ثملت وسكرت

ثم انه بعد ذلك بقليل أتبع القول الفعل ولم يلتفت لمراجعة البابا بولس الثالث له فى ذلك بل سار فى جيش قدره من المشاة اربعون ألفا ومن الخيالة عشرة آلاف وكان قد جمعه على ثغور ولاية ميلان ولم يكن قصده بذلك مجرد استرجاع

ولايه

ولايتى پيمونت وساوة بل عزم ايضا على الاستيلاء على الاقاليم الجنوبية من فرانسا ومما اعانه على حث السير مركى دوسالوسه الذى كان وقتئذ قائد الجيش الفرنساوى وذلك أن هذا القائد مع اغداق فرنسيس عليه بالانعام كفر نعمته عليه بالخيانة التى يصدر مثلها عن كل وغد جبان فانه اعتقد صحة ما قاله ارباب العرافة والتنجيم من الطليانيين من أن دولة فرانسا قد آن اوان انقراضها وحان وقت انهدام راسها ودمارها وأن الايمبراطور يؤسس على آثارها سلطنة عمومية فرأى ان الخيانة حينئذ ليست الامن باب التبصر والحزم فأهمل جميع الطرق والوسائل التى يكون بها صد العدو ومنعه مجاوزة الايمبراطور ولاية پيمونت ولم يصادف فى طريقه مايعوقه ولم يزل سائرا حتى دخل ارض فرانسا (فى الخامس والعشرين من شهر يوليه) وتمكن منه حينئذ العجب والغرور فوزع على اصحابه قبل أن يفتح شيأ من تلك المملكة حكومة اقاليمها ومدنها وحصونها ومناصبها ووظائفها

ومع ذلك وجد فرنسيس فسحة لجمع قواه والتأهب للمدافعة بتدبير مايلزم لها من الطرق وعمل فى ذلك بمقتضى اشارة مارشال دومونتمورانسى فعزم على أن لا يخاطر بقتال العدو وانما يجمع معظم عساكره فى معسكر محصن ويخرب بلاد الارياف ويتركها خالية متخربة ويقاتل عدوه بالقحط والمجاعة فأمر بهدم جميع اسوار المدن ماعدا مدينتى ارلس ومرسيليا فاضطر اهل تلك المدن وكذلك اهل الارياف الى المهاجرة من اوطانهم فمنهم من التجأ الى الجبال ومنهم من ذهب الى داخل المملكة فلم تمض الايام قلائل حتى صار اقليم پروونسة قفرا خاليا عن الانيس وترك الفرنساوية الايمبراطور يطوف هذه الاراضى الخربة فلم يجد بها مؤنة لجيشه ولا مستندا لعساكره فهجم على مدينتى أرلس ومرسيليا ولم يخرج من ذلك على طائل فقصد مدينة آوينون وكان قد تحصن فيها مارشال دومونتمورانسى مع عساكره فلما دنا الايمبراطور منها صاحت عساكر مونتمورانسى يطلبون القتال فمنعهم ولم يصغ لالحاحهم فى الطلب ولكن لما حضر الملك الى المعسكر زادت بهم

لحضوره الشهامة والحماسة وصار القتال متحتما لا محيص عنه الا أن الايمبراطور امر جيشه بالانصراف على حين غفلة لأنه كان قد فزع مما اصاب عساكره من الجوع والامراض حتى هلك منهم خمسة وعشرون ألفا قبل أن يلاقى العدو وقد أخذ فلاحو بروونسة ينغصون على عساكر الايمبراطور ويبعثهم على ذلك رغبتهم فى الانتقام منهم على تخريب مزارعهم واحراق مساكنهم فلم يسع العساكر الايمبراطورية الاسلوك طريق جبال الالب حتى جاوزوها وهم من الاختلال على اسوأ حال فلما وصل الايمبراطور الى ثغور ولاية ميلان ترك قيادة باقى جيشه لمركى دغواست واسرع فى الرحيل عن ايطاليا حتى كأنه هارب مول دبره قاصدا بذلك اخفاء خزيه عن اهلها لأنه كان قد لحقه الذل والهوان فى هذه الغزوة حيث جاءت عاقبتها المشؤمة على خلاف ما كان يؤمله قبل ذلك بقليل مع المباهاة والتفاخر واتهت بضد ما اظهره اولا من الكبر والاعجاب بالنفس

وفى هذه الغزوة عزم الدوفين (ولى عهد مملكة فرانسا) على ممارسة صناعة الحرب تحت قيادة ابيه وكان عمره اذ ذاك تسع عشرة سنة وكان يتوسم فيه الخير فركب نهر الرون قاصدا الاجتماع بوالده فى مدينة والنسة فبينما هو سائر اذ فجأه فى مدينة تورنون مرض شديد مات به فى رابع يوم من مرضه والظاهر أن مرضه هذا الذى مات به هو ذات الجنب ولكن زعموا انه انما مات بالسم واتهموا بذلك ساقيه مونتكوكولى الطليانى فاخذوا فى تعذيبه وتعنيفه ليقر ويعترف بما اتهم به فأقر بأنه قد ارتكب هذا الذنب اما لشدة ألم العذاب اولكون ذمته حملته على الاقرار بالواقع غير أنه اشرك معه فى ذلك جماعة وهم مركى دوغونزاغة وانطوان دوليوه والايمبراطور نفسه فلما بلغ الايمبراطور هذا الخبر استعظم هو وضباطه وقوع هذا الامر واستشنعوه ونفروا منه واقسموا على براءة انفسهم من هذه التهمة وكل ذلك مع انضمامه لاستبعاد العقل تحقق هذه التهمة لم يمنع فرنسيس من اعتقاد صحتها اما لكونه نقوع الاذن يصدق بكل شئ

اواكراهته

اولكراهته للايمبراطور والا فهـذه التهمة زيادة على كونها من عظائم الامور هى ظاهرة البطلان مخالفة لما يقتضيه العقل كيف لا وفرنسيس له ولدان آخران غير الدوفين كلاهما بلغ من السن ما يصلح به لولاية العهد ووراثة المملكة وكل منهما صحيح الجسم قوى البنية فأى فائدة للايمبراطور فيما اتهم به من قتل الدوفين وقد أجاب عن نفسه فى هذه المادة بتهمته لغيره وهذه التهمة الصادرة عنه وان احتمل كذبها لا يستبعدها العقل وذلك انه اتهم بهذا الذنب كاترينة ذى ميديسيس زوجة دوق دورليان (ابن فرنسيس) لأن موت الدوفين يفتح لزوجها طريقا الى الجلوس على سرير المملكة وكونها من العائلة الميديسيسية لا يساعد فى دفع الريبة عنها ثم ان مونتكوكولى الذى ترتب على اقراره ظنون سيئة وتهمها ثلة قتل فى مدينة ليون بتقطيعه اربع قطع على هذا الذنب مع أنه ان لم يكن محض افتراء وتقوّل كما هو الظاهر فلا أقل من انه امر اتهامى مشكوك فيه يحتمل الصدق والكذب

وقد ابتدأت سنة ١٥٣٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٤ من الهجرة) بامر من الامور التى يكون وقوعها مصحوبا بالتفاخر والمباهاة وان كانت فخامتها لا تمنع عنها داعما السخرية والاستهزاء وذلك أن الملك فرنسيس ذهب الى ديوان البرلمان واخذ معه امراء الدولة والامراء الذين هم من فخذ العائلة الملوكية قاصدا عقد مجلس فى شأن ما بينه وبين الايمبراطور من الخصومة فقام المحامى العمومى الذى هو مكافل الخصومات وقرأ فى المجلس خطبة مصطنعة ادّعى فيها أن كرلوس دوستريا (يعنى الايمبراطور شرلكان) نقض مشارطة كمبريه التى نزل بموجبها فرنسيس الاوّل عن ماله من المتبوعية والسيادة على ولايات فلندرة وارتواس وشارولس فعاد بنقضها الى ما كان عليه من تبعية ملك فرانسا وصار مرتكبا لذنب الخيانة بسبب حمله السلاح على ملكه فاذن يلزمه أن يحضر بنفسه او يوكل عنه وكيلا فى الحضور الى محكمة باريس التى لها الحق فى الحكم عليه بمقتضى

الاصول الشرعية والقوانين المرعية فعند ذلك حصل الاعلان على ثغور المملكة بطلب الايمبراطور فلما لم يحضر حصل الاعلان ايضا بأنه من حيث عصيانه وامتناعه من الحضور الى المحكمة صار لاحق له فيما بيده من الالتزامات ثم برز الامر بضمها الى فرانسا

وبعد أن سلك فرنسيس هذا المسلك الذى لا ثمرة له فى اظهار حقده وغيظه دون بطشه وشوكته اشتغل بتنجيز هذا الغرض الذى حصل الحكم به فى مجلس البرلمان لكن كانت الحمية فى الاشتغال بتنجيزه دون الحمية فى الحكم به فذهب فى جيش جرار صوب ولاية ارتواس واستولى على عدة مدن حصينة ولكنه اضطر الى مفارقة جيشه لاجل ادارة الحركات العسكرية وتدبير العمليات الحربية فى جهة اخرى ففقد فى اقرب مدة جميع ما فتحه واستولى عليه وصارت النوبة فى الاغارة والهجوم للعساكر الايمبراطورية فحاصروا مدينة تروانة فتوجه الى اسعاف هذه المدينة دوق دورليان الذى صار بموت اخيه ولى عهد المملكة وتلقب بعده بلقب الدوفين الخاص بولى العهد وصحبه اليها مونتمورانسى الذى انعم عليه الملك بمنصب الكونيتابل مكافأة له على ما بذله من الخدم فى السنة الماضية فبينما هما سائران اذ بلغهما انعقاد هدنة ومتاركة فأمسكا عن السير وذلك أن كلا من الفريقين كان قد كل من الحرب وتعب من كثرة القتال فعرضت ملكة المجار الارملة التى هى اخت الايمبراطور وحاكمة البلاد الواطية فى شأن المتاركة فأجيبت الى ما طلبت ووقعت المفاوضة فى ذلك بقرية بومى وانحط الرأى فى الثلاثين من شهر يوليه سنة ١٥٣٧ ميلادية على هدنة فى شأن البلاد الواطية وبيكارديا اجلها عشرة اشهر وبعد ذلك باشهر قليلة فى ٢٧ من شهر نومبر انعقد بسعى تلك الملكة واجتهادها هدنة اخرى فى شان ولاية بيمونت اجلها ثلاثة شهور ولكن حصلت مفاوضات اخرى ازدادبها اجل هذه الهدنة وحصل التشبث بعقد مشارطة بتية وذلك أن مصاريف الحرب كانت تزيد بكثير على ايرادات الملكين لاسيما

شرلكان فانه كان متحيرا كيف يصنع في اداء ما كان عليه للعساكر منذ مدة طويلة من المبالغ الجسيمة فجنح الى الصلح لوجهين احدهما التعب وضعف القوى وثانيهما نجاح العثمانية المحالفين لفرنسيس الاول وكان البابا بولس الثالث بعد أن استغرق مدة الحرب وهو يدعو الخصمين الى انهاء هذا الخصام قد اشار عليهما أن يتفاوضا مع بعضهما بانفسهما في مجلس يحضره هو بنفسه وطلب أن يكون محل المفاوضة مدينة نيسة فلم يسعهما رد توسط هذا الحبر المحترم لما في ذلك من اساءة الادب حيث انه مع بلوغه من العمر سبعين سنة عرض نفسه لمشاق السفر الطويل رغبة في الصلح فحضروا في المحل الذي هو موعد الاجتماع وكان للبابا مزيد رغبة وغيرة على أن يوقع بينهما اصلاحا بتيا ولكنه وجد من العوائق ما منع وقوع الصلح بهذه المثابة خصوصا بالنسبة لولاية ميلان فلم يترتب على بذل مجهوداته في هذا المعنى الا عقد هدنة مؤجلة بعشر سنوات حصل التصديق عليها في ثامن عشر يونيه سنة ١٥٣٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٥ من الهجرة) وكانت شروطها عين شروط الهدنة الاولى فبمقتضاها لزم أن كلا منهما يبقى على تملك ما تحت يده وبموجب هذا الاتفاق فدى شرلكان مصلحة نفسه بخسارة حليفه دوق ساوة كما أن فرنسيس قبل ذلك فدى مصلحته في مشارطة كمبريه بخسارة حلفائه فلم يبق مع هذا الدوق من بلاده الا مدينة نيسة وقونتيتها وباقي ولاياته صار بين الملك والايمبراطور ثم ان الملكين بعد انعقاد الهدنة تقابلا مع بعضهما في مدينة ايج مورت واظهر كل لصاحبه مع الصداقة الظاهرية دلائل الصلح التام حتى كأنهما نسيا في هذا اليوم عداوة عشرين سنة

﴿الفصل السادس﴾

في ذكر ما حصل منذ هدنة نيسة الى موت الملك فرنسيس الاول (وذلك من سنة ١٥٣٨ الى سنة ١٥٤٧ من الميلاد) (اي من سنة ٩٤٥ الى سنة ٩٥٤ من الهجرة تقريبا)

قد استنبطت دول اوروبا مما حصل بين العساكر الامبراطورية (سنة ١٥٣٩ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٤٦ هجرية) من الفتن والخروج عن الطاعة فى الحكومة الاسبانيولية بتمامها أن الامبراطور انما رضى بالهدنة لعجزه عن ادمان الحرب * وهذه الفتن هى التى ادّت لا على سبيل المباشرة الى تغيير عظيم حصل فى اعضاء جمعيات قسطيلة وذلك أن شرلكان لما جمعهم فى مدينة طليطلة عرض عليهم انه يلزم لاجل اعانة المملكة على القيام بضروراتها أن يضرب مغرم على البضائع كلها فعارض هذا العرض جميع الطوائف لاسيما طائفة الاشراف وعجز الامبراطور عن الظهور عليهم لانهم شددوا كل التشديد فى المنع والمعارضة فلم يسعه الا أن امرهم بالانصراف وهو حنق مغتاظ * ومن يومئذ صار لايدعى الى حضور هذه الجمعيات لا طائفة الاشراف ولا طائفة القسوس استنادا الى أن من لايدفع مغرما لاحق له فى اعطاء الرأى فصار من وقتئذ لايقبل فى الجمعيات الا الوكلاء المبعوثون من طرف المدن وكانت عدتهم ستة وثلاثين وكيلا فكانت الجمعية التى تتألف منهم ليس لها من القوة والهيبة ما كان للجمعيات الاولى بل كانت تسلم فى كل ما تطلبه الدولة على اى حالة كانت

ثم ان ما وقع بين الملكين حين اجتماعهما بمدينة ايج مورت من دلائل المحبة وظواهر المودة كان يلزم امتحانه واختباره بالفعل حتى يتبين هل وافق الواقع اولا فعرضت لذلك فرصة بعد الاجتماع بمدة يسيرة وذلك أن اهل مدينة غاندة كانوا قد خرجوا عن طاعة الامبراطور لكونهم امتنعوا من دفع ما خصهم من المغرم المضروب وطردوا الولاة المنصبين من طرف الامبراطور ودعوا ما جاورهم من المدن الى القيام معهم والخروج عن الطاعة مثلهم وبعثوا سفراء الى ملك فرانسا يطلبون منه الاعانة والحماية حتى كأنه متبوعهم وسيدهم وعرضوا عليه انه ان اعانهم سعوا معه فى استيلائه على البلاد الواطية فلم يقتصر فرنسيس على ردّ هذا العرض المشتمل على الاستمالة والترغيب بل لفرط مروءته اطلع الامبراطور على عرض هؤلاء

البغاة

البغاة واوقفه على حقيقة اغراضهم بل سهل عليه طرق الذهاب اليهم ليعاقبهم حيث اذن له بالمرور من فرانسا على شرط أن يوليه ولاية ميلان (وكان ذلك سنة ١٥٤٠ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٤٧ من الهجرة) فرآى اغلب وزراء فرنسيس أن المشافهة في هذا الامر لا تكفى بل لابد من اخذ مكاتبة من الايمبراطور يلتزم فيها بتوليته على الولاية المذكورة حتى يكون على ثقة منها واشار عليه مونتمورانسي أن يكتفى منه بالتزام ذلك شفاها وانه لا حاجة الى التوثق منه بالكتابة فلمروّة فرنسيس وعلو همته اعجبه رأى مونتمورانسي فرجحه على رأى غيره وعمل بمقتضى اشارته ولما وصل الايمبراطور الى فرانسا صار كلما اتى على مكان قابله اهله بالمواسم والمسرات وذهب الملك لمقابلته حتى وصل الى مدينة شاتيلبروت فاجتمعا فيها ثم توجها منها معا الى باريس ودخلا فيها بموكب عظيم فأقام بها شرلكان ستة ايام اظهر فيها الامن والاطمئنان وان كان باطنه يرجف من الخوف وكثرة الواردات والوساوس فكان يخشى أن فرنسيس متى تمكن من ذاته وشخصه يعاقبه دفعة واحدة على مافرط منه من الغدر والخيانة وما كان يخشاه شرلكان هو ما كان يراه عدة من خواص فرنسيس الا أن هذا الملك حافظ على الوفاء بوعده وكان يتراءى من الايمبراطور بعد ما التزم به من المواعيد لفرنسيس وماقوبل به في فرانسا من حسن المعاملة والصنيع أنه لا يزال مقيدا بقيود الشكر الواجبة الاحترام ومربوطا بروابط المروّة التي لا ينقضها الا الاوغاد اللئام لكنه لم يكن عنده كبير اهتمام بما يوجب مدحته ونخاره حتى لا يقدم على خيانة هذا الملك الشهم الذي وثق بكلامه وقنع بمواعيده بل بمجرد وصوله الى ثغور البلاد الواطية حاول الكونيتابل مونتمورانسي حين طالبه بالوفاء بمواعيده وكان قد صحبه من فرانسا لاجل تنجيز هذه المواعيد فلما ألح عليه في تنجيزها تعلل له بعلل مبهمة واجابه بعبارات مشتبهة لا طائل تحتها ثم لما عادت له شوكته في البلاد الواطية بعد ذلك بقليل وعاقب اهل غاندة وصار لا حاجة له بكتمان اغراضه أبان

عن النفاق والخداع وكشف عن خبث طويته القناع وتجاسر على انكار ماوعدبه فرنسيس

فلما بلغ فرنسيس هذه الخيانة الجديدة اغتاظ اشد الغيظ وحق له أن يغتاظ وقد ازداد به الحنق وبلغ منه الغيظ منتهاه بوقوع ذنب عظيم وخطيئة جسيمة كانت سببا فى اضرام نيران الحرب والقتال

وذلك أن فرنسيس كان قد بعث سفيرين من طرفه احدهما الى مدينة البندقية وثانيهما الى الدولة العثمانية فركبا نهر بو فهجم مركى دوغواست على مركبهما ليأخذ مامعهما من الاخبار التى بعثا بصددها فقتلهما بعد المدافعة الشديدة ولم يبيعا نفوسهما الا بنفائس النفوس ومع ذلك لم يكتسب غواست من هذه الخطيئة الا الخزى والمعرة ولم يخرج منها على طائل فان دوبلاى لنجى الذى كان حكمدارا من طرف فرنسيس فى ولاية پيمونت اخذ ما كان مع السفيرين من الاخباريات والاوراق المهمة ووعدهما انه يبعث بها اليهما اذا وصلا لمدينة البندقية فقد انقذ هذا الحكمدار بحزمه اسرار الدولة أن يطلع عليها الاجانب كما انه بهمته ونشاطه اطلع فى هذا الوقت بعينه على العصبة وعرف تفاصيلها واظهر دلائلها حتى صارت جلية لا تنكر وثبت على غواست هذا التعدى الذى يستشنعه اهل الجفوة والغلظة من الملل فضلا عن غيرهم وقد افتضحت العصبة زيادة على ذلك بما وقع من الايمپراطور من المحاولة وعدم سلوك سبيل الاستقامة فى اجوبته لفرنسيس حين ألح عليه فى طلب الانتصار له على رؤس الاشهاد والانتصاف له من خصمه على وجه بحيث يعرفه الخاص والعام فكان الايمپراطور بذلك شريكا لتابعه غواست فى هذا الاثم بل هذا يعد منه اقرارا بالشركة وطلبا للحرب والقتال ولم يمكن لفرنسيس أن يسكت على هذا الذنب ويتركه سدى بدون معاقبة ولا انتقام كيف والقانون الذى تواتر عند سائر الملل وحرمة منصبه الملوكى ودم سفيريه كل هذا يدعوه الى الانتقام ويأبى الا الاخذ بالثار

فلم تمض الا مدة يسيرة حتى جهز فرنسيس خمسة جيوش احدها سار تحت

قيادة

قيادة الدوفين جهة ثغور اسبانيا وثانيها كان تحت قيادة دوق دورليان وامر بالحرب فى لكسنبورغ وذهب الثالث تحت قيادة مارشال دوغو يلدرة الى اقليم برابنت لاجل القتال هنالك وكان معظم هذا الجيش من عساكر دوق دوكليوه الذى كان يزاحم عائلة اوستريا وينازعها على دوقية غويلدرة ولاجل هذه القضية حالف دولة فرانسا وأعد الجيش الرابع للتوجه الى ثغور فلندرة والخامس الى ولاية پيمونت

وكان اول الغزو فى لكسنبورغ مصحوبا بالنجاح العظيم (سنة ١٥٤٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٩ من الهجرة) الا أن دوق دورليان لقلة حزمه وعدم تبصره اضاع ثمرة هذه المبادى الناجحة وذلك انه كان قد شاع انه ستحصل عن قريب وقعة فى اقليم روسليون فبادر بالذهاب الى هذا الاقليم مؤملا مشاركة اخيه فى فخار النصرة فخاب امله لعدم حصول الوقعة ولم يكن آخر الغزوة كأولها فى النجاح والنصرة بل انتهت بانصراف الفرنساوية ورجعتهم فانهم بعد أن مكثوا ستة عشر شهرا وهم يشتغلون اشغالا لاثمرة لها رفعوا الحصار عن مدينة پرپنيان وكذلك جيش لكسنبورغ فانه بعد أن فارقه قائده وهرب جماعة من عساكره ضعفت قوته وفترت همته حتى صار لايدافع عن نفسه الابشق الانفس ولم يستمر نجاح العساكر الفرنساوية الا فى ولاية پيمونت فان الكمدار لنجى استولى منها على عدة مدن حصينة

وفى السنة التالية للسابقة وهى سنة ١٥٤٣ ميلادية (المقابلة لنحو سنة ٩٥٠ هجرية) تقوى الايمپراطور شرلكان بمحالفة هنرى الثامن ملك الانكليز وذلك أن ياكس الخامس ملك ايقوسيا كان قد مات سنة ١٥٤٢ من الميلاد ولم يعقب الا بنتا فى المهد تسمى مارية وكان الكفيل عليها والنائب عنها فى المملكة هى امها الملكة مارية دى لورينه وكان المدبر لمملكتها هو كردينال دوسنت اندريه

وقد كان لهذه الاميرة الصغيرة شهرة بجمالها وشقائها وسوء عاقبتها فكانت من حين ولادتها غرضا لسهام المطامع والمشاجرات لانها لما كانت هى الوارثة لمملكة ايقوسيا طمع اقوياء الملوك فى زواجها فطلبها ملك الانكليز لابنه ايدوارد حيث كانت ابنة بنت اخته فاراد الملك فرنسيس منع هذه المصاهرة وجنح اليه فى ذلك امها والكردينال مدبر مملكتها الآن دسائس ملك الانكليز وامواله غلبت فى مبدا الامر على معارضتهما وركونهما الى ملك فرانسا الذى كانا من حزبه ومن اغراضه فحصل الاتفاق على تزويجها من ايدوارد فعند ذلك اراد فرنسيس أن يفسد على الحزب الانكليزى ما ربه ويخيب عليه آماله فبعث الى ماريه دى لورينة وكردينال دوسنت اندريه رجالا واموالا لاجل اعانتهما فبذلك صار فى وسعهما فسخ هذا الاتفاق الذى لم يكن على مرامهما فاغتاظ هنرى من ذلك ودعا ايقوسيا الى الحرب وبعد ذلك بقليل دعا اليها فرانسا وتحالف مع الايمبراطور على فرنسيس الاول (سنة ١٥٤٣ من الميلاد) ونسى ما وقع سابقا من الايمبراطور فى حقه من المضار وضم الى الجيش الايمبراطورى من عساكره الانكليزية عشرة آلاف مقاتل واما ملك فرانسا فأكد المحالفة بينه وبين سلطان العثمانية فصدر امر هذا السلطان لبربروس أن يمد الدونغا الفرنساوية فى الحرب بدونغا قوية

ثم ان الملك والايمبراطور وجها معظم قواهما وعساكرهما الى البلاد الواطية وفى مدة ما كان فرنسيس يحاول التغلب على مدينة لندريسى هجم شرلكان فى خمسين ألف مقاتل على ايالات دوق دوكليوه فما كان من هذا الدوق الا أنه تدارك هذه المصيبة بالمبادرة الى التسليم فعند ذلك سار شرلكان من هذا المحل قاصدا استرجاع لندريسى التى تغلب عليها الفرنساوية فحضر فرنسيس لاجل اعانة هذه المدينة وكان اهل اوروبا ينتظرون حصول وقعة بين الملكين ينبت بها الامر ويكون بها الانفصال الآن كلا منهما ابت نفسه المخاطرة بالاقدام على هذه الوقعة واقتصرا على

المقاتلة

المقاتلة بالمكامنة والمكايد الحربية لكن لما سلك الملك طرق التدبير الناجح حتى ادخل فى المدينة المؤنة والعساكر رفع عنها الايمبراطور الحصار واتخذ محلا يقضى فيه مدة الشتاء

وكان اذ ذاك السلطان سليمان قد دخل بلاد المجار واستولى منها على عدة مدن وكان مع بربروس دونما تحتوى من السفن المسماة بالغراب على مائة سفينة وعشرة فأوقع بها الرعب والفزع على جميع سواحل ايطاليا ثم سار منها الى مرسيليا فانضم اليه هناك الدونما الفرنساوية وكان رئيسها وقتئذ قونتة دانجيان وهو شاب من ابطال امراء العائلة البربونية فقصد المتحالفون حينئذ (وهم المسلمون والفرنساوية) محاصرة مدينة نيسة وكانت آخر ملجاء لدوق ساوة فاستولوا عليها لكنهم عجزوا عن اخذ قلعتها الحصينة التى التجأ اليها حاكم المدينة فلما دنت منها الدونما والعساكر الايمبراطورية رفعوا عنها الحصار وعاد بربروس الى القسطنطينية وذهب دانجيان الى ولاية پيمونت ليأخذ بزمام حكومتها

ثم ان الفرنساوية من اوائل فصل الربيع سنة ١٥٤٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٥١ من الهجرة) احاطوا بمدينة كارنيان وكان قد حصنها دوغواست وصرف فى تحصينها مصاريف جسيمة فبذلوا فى حصارها غاية جهدهم حتى ان القائد الاسبانيولى (يعنى دوغواست) لم يجد الى انقاذها سبيلا الا المخاطرة بالتحام القتال كما كان مرغوب قونتة دانجيان ومرام عساكره غير أن فرنسيس الاول كان قد شدد عليه أن لا يخاطر بالالتحام العام والقتال بجميع العساكر فبعث الى فرانسا مونتلوك ليبين للملك واهل مشورته ثمرة القتال وأن النصرة فيه قريبة الحصول فاذن لهم بالقتال وقدم الرسول من عنده بالاذن بذلك فبمجرد ماشاع هذا الخبر قامت الحمية بشبان اشراف الفرنساوية واشتدت بهم الرغبة فى القتال فتركوا ديوان الملك وبادروا بالقدوم واصطفوا تحت اعلام

قونتة دانجيان ولم يكن ذلك لمجرد رغبتهم فى الفخر بل كان ايضا لحبهم للوطن حتى ان قونتة دانجيان لما قصرت به الدراهم عن صرف جوامك العساكر طلب من هؤلاء الابطال الآتين من تلقاء انفسهم شيأ من الاموال فبادروا جميعا بفتح اكياسهم ولعمرى أن مثل هؤلاء الرجال جديرون بالظفر وقد تمت لهم النصرة فى سهول سيرزول (فى حادى عشر ابريل) وحصر من قتل فى هذه الوقعة من العساكر الايمبراطورية فكانت عدتهم اثنى عشر ألفا ولم يقتل فيها من الفرنساوية الا اثنان فقط

وبعد أن استولى هؤلاء المنصورون على كارنيان وعلى معظم ولاية مونتفرات قصدوا ولاية ميلان ليتغلبوا عليها لكن لما كان قد شاع أن الايمبراطور باتحاده مع هنرى الثامن شرع فى التأهب للقتال وأنه يجهز تجهيزات عظيمة جهة نهر الرين دعا فرنسيس الاول اثنى عشر ألفا من خيار عساكر جيش ايطاليا فثبت قونتة دانجيان على القتال فى ولاية پيمونت مع كونه قد حرم من خيار عساكره المذكورين حيث ذهبوا عنه بطلب فرنسيس لهم غير أن نفاد الاموال من عنده كان مانعا قويا من نجاحه وكذلك مركى دوغواست فانه بهذا المانع ايضا عجز عن القتال فطلب عقد هدنة فى شأن ايطاليا يكون اجلها ثلاثة اشهر فأجابه الى ذلك قونتة دانجيان واقرهما على تلك الهدنة كل من الملك والايمبراطور بدون توقف واتفقا على المقاتلة بجميع عساكرهما جهة البلاد الواطية

وكان ملك انكلترة هذا اكتفى فى سنة ١٥٤٣ من الميلاد بكونه امد الايمبراطور بعشرة الاف من عساكره ثم عزم فى سنة ١٥٤٤ ميلادية على أن يذهب بنفسه الى ارض فرانسا طامعا فى غير مطمع وهو كونه يفتح هذه المملكة مع الايمبراطور ثم يقتسمانها بينهما فاتفقا على أن يتوجها الى باريس احدهما من طريق اقليم پيكارديا والآخر من طريق شمبانيا ثم يتلاقيا تحت اسوار تلك المدينة فبعد أن تغلب شرلكان بالجيش الايمبراطورى على مدينتى لنبى وكومرسى احاط بمدينة سنت دزيير

وفى

وفى مدة محاصرة هذه المدينة خرج هنرى بالجيش الانكليزى الى اقليم بيكارديا وحاصر مدينتى بولونية ومونترولى فهكذا كانت قوى الملكين منقسمة من مبدأ الغزوة فبدلا عن كونهما يثق كل منهما بصاحبه ويكونان على قلب رجل واحد حسبما هو لازم لتنجيز هذا الغرض العظيم الذى تصدّيا اليه لم تمض الامدة يسيرة حتى اظهر كل منهما الغيرة من صاحبه فترتب على ذلك بالتدريج وقوع الريبة والاستخوان بينهما فلم يتم امرهما الا بالافتراق والمقاطعة على رؤس الاشهاد

فأما الايمبراطور فانه بعد أن تغلب على مدن سنت دزيير وايبرناى وشاتوتييرى لم يبق بينه وبين باريس الامرحلتان ولكن كان جيشه اذذاك قد اخذ فى المسغبة والمجاعة وكان قد فقد خيار عساكره فى محاصرة سنت دزيير واما ملك انكلترة فانه أبى أن يترك ما صمم عليه فى شأن مدينتى بولونية ومونترولى ويذهب الى الايمبراطور وينضم الفريقان الى بعضهما وكان كل من الدوفين قائد الجيش الفرنساوى والملك الذى بقى فى باريس قد سلك مسلك الحزم والمهارة فى التأهب لحماية هذه المدينة فلما أيس شرلكان من الظهور على هذه الموانع مع بقايا عساكره الذين كلت قواهم من الجوع والتعب اجاب ملك فرانسا الى ما طلبه فانعقدت بينهما مشارطة الصلح وحصل التصديق عليها فى ثامن عشر سبطمبر سنة ١٥٤٤ من الميلاد بمدينة كريسپى بولاية لاوون وكانت شروطها الاصلية أن كلا منهما يرد ما تغلب عليه من بلاد الآخر منذ هدنة نيسة وأن الايمبراطور يزوج بنته البكرية او بنت اخيه فرديننـد الثانية لدوق دورليان ابن ملك فرانسا وأن يكون جهازها اما البلاد الواطئة او ولاية ميلان وقد تخلص شرلكان من ورطة هذا الشرط بموت دوق دورليان المذكور ولو لم يمت للقضه قطعا عند اول فرصة تبدو له بدون أن تتأثر ذمته أو تقلق سريرته

وكانت مدينة بولونية قد سلمت قبل انعقاد صلح كريسپى وكان

هنرى الثامن قد تمكن منه الكبر والعتو من ظفره بهذه المدينة حتى انه لما حضر اليه وقتئذ رسل فرنسيس يدعونه الى التصديق على هذه المشارطة ادّعى دعاوى عريضة وطلب مطالب السفهاء المخالفة للاصول المعقولة حتى صار لا يتصوّر وقوع الصلح بينهما بأى وجه كان واستمرّ من وقتئذ القتال بين فرانسا وانكلترة نحو عامين تقريبا * وما وقع بين الفرنساوية والانكليز من الحروب فى هذه المدّة انما كان وقعات صغيرة حصلت لاجل الاغارة على مدينة بولونية والمدافعة عنها لأن الفرنساوية كانوا يريدون استرجاع هذه المدينة التى تغلب عليها الانكليز ثم آل الامر الى أن الملكين سئما من هذا الحرب الذى لم يكن هناك سبب يقتضيه ولا فائدة ترتبت عليه فعزم كل منهما على انهائه سنة ١٥٤٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٥٣ من الهجرة) فعين كلاهما رسلا من طرفه وانعقدت المفاوضة بينهم فيما بين مدينتى غينة واندرة وكان الغرض من هذه المفاوضة امرا سهلا وهو ردّ مدينة بولونية على شئ من المال ليس الا فان الفرنساوية لم يكونوا اخذوا من هنرى الثامن شيأ وهو لم يأخذ منهم غير هذه المدينة التى يريدون استرجاعها فانحط القرار بينهم على أن تلك المدينة تردّ لملك فرانسا على أن يدفع فى نظير ذلك الملك انكلترة مليونين من النقود فى ظرف ثمانى سنوات وبموجب هذا الاتفاق وضعت عن ملك فرانسا الديون القديمة وحصل الالتزام بردّ بولونية وملحقاتها عند آخر دفعة من المبلغ المذكور

ولو لم يكف هنرى الثامن وفرنسيس الاوّل عن القتال لجبرهما الموت على القاء السلاح فانهما ماتا بعد مشارطة بولونية هذه بشهور قلائل فكان موت هنرى فى الثامن والعشرين من شهر ينوية سنة ١٥٤٧ ميلادية (اى نحو سنة ٩٥٤ هجرية) وموت فرنسيس فى الحادى والثلاثين من شهر مارث من تلك السنة بعينها

وقد سلك شرلكان جادة الانصاف او طريق الحذق والمهارة حيث اثنى على خصمه فرنسيس بما يستحقه فانه لما بلغه خبر موته صاح صياح

المتأسف الحزين قائلا بلسان الاحترام والتوقير ما اعظم هذا الملك الذى فقدته فرانسا

هذا ولم نر فى تاريخ القرون المتأخرة مخاصمة وقعت بين ملكين تضاهى فى الشهرة مخاصمة شرلكان وفرنسيس * ولعل ايراد اصول هذه المخاصمة وموادها الاصلية هنا يعد من اللائق الذى صادف محلا فلذا رأينا أن نذكرها على سبيل الاختصار فنقول

ان فرنسيس الاول جلس على سرير الملك وعمره عشرون سنة وصار له عند اهل ديوانه وعساكره اقصى منزلة فى المحبة والمودة لما كان فيه من السخاء والشهامة وحسن الاخلاق الدالة على مروءته وانسانيته وقد تحقق بمبادى حكمه الفاخرة ما كان يتوسم فيه من الخير العظيم فان هذا الملك الذى هو فارس مارغنان تصاغرت شهرة معاصريه عند فخاره * وتنازلت لرفعة شأنه وعلو مقداره * وصارت اوروبا بتمامها تحدق اليه نظر الواله المتعجب * وتشخص اليه ببصر الداهش المستغرب * فكان بمجرد اوائل ولايته جديرا ببقاء الذكر وتخليده * واستمرار الفخر وتابيده * واما شرلكان فكان الى ذلك الوقت لا يدرى هل يكون له من موجبات الشهرة والصيت غير شوكته واتساع دائرة اراضيه ودوله اولا فانه كان مجهول الطبع غير معروف بالطمع بل ربما كان طمعه اذ ذاك لم يتخلق ولم يوجد فيه الحرص ولم يتحقق فكان لا يخرج عن رأى وزرائه ولا يعمل الا بنصحهم واشاراتهم وكان لا ينطق بما اكثر من ذلك فلما خلا كرسى الامبراطورية بموت مكسيمليان تسابق الى وراثة التاج الامبراطورى كل من هذين الملكين اى ملك فرانسا وملك اسبانيا على حسب الرسوم المرعية فكان الحظ الاوفر لشرلكان لشهرته اذ ذاك بتوسط الحال فى البراعة وعدم التناهى فى النجابة والمهارة فان اقوى الاسباب فى حيازته لتاج القياصرة انما هو هذه الشهرة ولكن كان اسعد الايام بالنسبة لفرنسيس ايضا هو اليوم الذى ردته فيه ألمانيا عن المنصب الامبراطورى كأنها تعاقبه بذلك على ما ادهشها وافزعها منه من الفخار

وعلو المقدار الذى حازه على حداثة سنه وعدم تقادم عهده بالولاية وهو ايضا اليوم الذى رآى فيه اعداءه يستندون فى امتناعهم من انتخابه لهذا المنصب الى فضله وخوفهم من فرط ذكائه وحذقه فكان امتناعهم المبنى على ذلك قاضيا بعلو مكانه وشاهدا برفعة شانه (والفضل ماشهدت به الاعداء) وكان الملكان قبل أن يتم امر الانتخاب قد التزما علانية بأن من خاب مسعاه منهما فى هذا الغرض يرضى بما قدر له عن طيب نفس وخلوص طوية ويفرح للناجح ويهنيه على ظفره ونجاحه ولاشك أن الزام النفس بمثل ذلك معدود من الامور العالية الجليلة ومنظوم فى سلك المحاسن الجميلة فلما حكم المنتخبون بين هذين الخصمين اللذين كان كل منهما يكلف نفسه باظهار الالفة والاخوة لصاحبه تبدل فى الحال اظهار المروءة والاخوة بالغيرة والعداوة وفرط التولع بالانتقام ووقع بينهما قتال شديد كان كغيره من الحروب التى يغلب فيها الكبر والاعجاب بالنفس على رعاية المصالح فكانت الاقاليم التى يتنافسان عليها ويتحاربان لاجلها لها حيثيتان متفاوتتان خفية كونها علة غائية وغرضا يترتب على القتال كانت دون حيثية كونها علة باعثة وسببا حاملا عليه فلم يكن حل الغرض لهما الاستيلاء على ولاية ميلان اومملكة نابلى ولاعلى اقليم بروونسة او بيكارديا وانما كان حل الغرض لكل اهانة خصمه واذلاله ولم يبخل الدهر على كل منهما بهذا الغرض الذميم بل اذاقهما لذة هذه الامنية السيئة غيرأن حظوة الانبراطور بها كانت اكثر واكمل فانه اسرخصمه وصار تحت تصرفه واوقعه فى اليأس والقنوط مع التفرغ لذلك وألزمه بأصعب المشارطات التى يورث العار والفضيحة وتمكن فى مملكة نابلى وفتح ولاية ميلان وحفظها من الضياع * فان قيل مااصل نجاحه الذى كان فى بعض الاحيان ذا رونق عظيم ولم يزل ثابتا على قرار متين قلنا ان لم نلاحظ الاشوكة الخصمين وقوى دولهما وجدنا بينهما فى الحرب فرقا كبيرا وبونا بعيدا فان شرلكان كان فى الحقيقة تحت سلطنته من الولايات والبلاد اعظم مما كان تحت سلطنة فرنسيس من ذلك فقد كان تحت انبراطوريته من بلاد نفسه اسبانيا

والبلاد

والبلاد الواطية والسيسليتان وجزيرة قرسقة وجزيرة سردينيا ومن الاداخيه الالتزامات الوراثية التى كانت لعائلته فى ألمانيا ومملكة بوهيمة (جه) فهذه الدول العديدة لو كانت متصلة ببعضها ومنقادة لقانون واحد وكان ملكها مطلق التصرف فى جميع جهاتها لحق لمن تملك عليها أن يوقع الفزع والرعب فى فرانسا بل واوروبا بتمامها ولكن تباعد ما بين هذه الاقطار واختلاف عوايدها واخلاقها وما كان فيها من المزايا والخصائص التى بها كان يمكن لأغلب تلك الدول معارضة الملك فيما يريده كل ذلك كان يضر بازدياد قواها فكان مثلها كمثل اجزاء متفرقة من مركب متسع خال عن التناسب بحيث يشق على الانسان ولو بلغ فى المهارة ما بلغ أن يدير بيده لوالبها الصعبة التركيب ويحرك قواها دفعة واحدة بخلاف فرانسا فمثلها كمثل مركب متواصل الاجزاء مع التناسب بحيث يصعب خدشها ويعسر تمزيقها وتفريقها وكان لهذه الدولة وسائط عظيمة من اجل الاغارة والهجوم كما كان عندها من الوسائل ما هو اعظم من ذلك بالنسبة للذب والمدافعة وكانت الاوامر التى تصدر عن الملك تنقل وتنجز بغاية السرعة بل ربما كانت الملة بتمامها تتحرك كشخص واحد عند امر ملكها الذى كان مطلق التصرف بسبب ما كان لمنصبه من الحقوق بل كان معظم تصرفه انما هو لمحبة رعاياه له فحينئذ وضع فرانسا وحسن نظامها الداخلى كانا يقومان مقام قلة اهلها وقلة امتداد ارضها فالواجب اذن أن ننظر الى ما كان عليه كل من هذين الملكين من النجابة والمعارف العسكرية حتى نعلم منشأ عدم تساويهما فى النجاح والظفر فنقول لعل الايمبراطور كان اعظم من فرنسيس من حيث القيادة العسكرية كما ان ملك فرانسا كان اعظم منه من حيث كونه عسكريا الا أن احدهما لم يكن دائما على الحزم وسداد الرأى كما أن الآخر لم يكن دائما على الغرر والمخاطرة وذلك أن شرلكان وان ابدى حسن الرياسة العسكرية حين اخذ تونس من بربروس وجبر السلطان سليمان على الرجعة والانصراف وادهش حزب البروتستان فى مولبيرغ واوقع عصبتهم فى الخبال وسوء الحال

الا أنه ظهر من حاله فى غزوة بروونسة انه لم يبق على عادته من سلوك مسالك الحزم وحسن التدبير وتراءى عليه فى محاصرة لندريسى أن الدهر غدر به بعد المسالمة فهو فى ذلك قد انكسفت شمس فخاره أمام خصمه مرتين وكذلك لم يقد الجيوش بنفسه فى الغزوتين الاولين ولكن هاتان الغزوتان بقطع النظر عن حربه مع لوثريان ألمانيا بعد مشارطة كريسبي كانتا اشرف ايامه واسعد مدته كما يشهد بذلك كل من مشارطة مدريد ومشارطة كبريه وهو وان لم يكن له غالبا فى ميادين الحرب مدخلية بنفسه بحيث يكون له نصيب فى تحصيل الحوادث العظيمة التى اكسبت سلطنته البهجة والرونق الا أنه لم يكن فى الغالب اجنبيا عنها بتدبيره وحسن سياسته بل يجب الاعتراف له بأنه من هذه الحيثية فاق خصمه بلا نزاع ولكن هذا لا يقضى بتجرد فرنسيس عن السياسة كما يزعمه العامة كيف وقد مكن محالفة فرانسا مع السويسة واكد روابطها وقد كانت على عهد اسلافه خالية فى الغالب عن الثبات والتمكن وسعى مع الاعتناء فى محالفة هنرى الثامن حتى ظفر بها ثم فقدها واسترجعها وعقد المعاهدة ايضا مع الدانيمرقة والاسوج وتجاسر على عقد المحالفة مع عصبة البروتستان ومع السلطان (سليمان) وعرف أنه لا بد لكل من اراد التمكن فى ايطاليا من التحبب والتودد الى البابات فكان دائما يسعى فى استمالتهم اليه غير أنه كان لا يعرف طريقة خصمه فى تدبير الدسائس فى مجالس المذاكرة ولا طريقته فى المكر والمخادعة والمواعدة والروغان واكتساب فسحة الزمن بل كان فرنسيس يجهل هذا الفن اعنى فن الغش والمخادعة الذى كانت تنجح فيه سياسة خصمه فلم يكن لمقرين سوء يلقى فى روعه الشر والخيانة مثل شرلكان ولاشك أن عدم سلوك هذه الطريقة المورثة للخزى والمعرة هو من اعظم المحاسن واكمل الفضائل وان كانت تلك الطريق غالبا طريقا للنجاح والفوز بالمرام وكان شرلكان يعرف ذلك حق المعرفة ومع ذلك ينبغى ايضا أن لا نقصر نجاح هذا الامبراطور على هذه الطريقة الذميمة بل كان هنالك ايضا اسباب اخرى حميدة فانه بنشاطه الذى لا يكل

ولا يمل

ولا يمل * فارب مابين الاجزاء المختلفة من ايمبراطوريته بايقاع الوصلة والمخالطة بينها فكان بالنسبة لدوله الواسعة رابطة نظامها وروح جسمها * قال بعض مؤرخى الفرنساوية ما معناه ان فرنسيس الاول كانت له اوقات فاخرة تدهش برونقها النظار * وتأخذ أشعة بهجتها بالابصار * لكن كان يتخللها مدد طويلة * وازمنة مستطيلة * يستغرقها بالفتور * ويمكث فيها كأنه ناعس او مخمور * بخلاف شرلكان فانه كان خليا عن تلك الفترات * مشمرا عن ساعد الجد فى سائر الاوقات * فكان لا ينفك عن العمل * ولا يتكاسل ولا يمل * يستعد ويجهز * ويشرع وينجز * ويدس الدسائس والفتن * ويوقع بين الناس التفاقم والاحن * يسرع الذهاب الى ألمانيا * وكذلك الى ايطاليا واسبانيا * هابته الدول الكبيرة * وخضعت له الدول الصغيرة * وربط الجميع بتدبيراته * وقيدها بقيود مشارطاته * انتهى * ولما خطب الخطبة التى اعلن فيها بالنزول عن سرير الملك ذكر الناس بانه فى ايامه صلحا وحربا ذهب الى ألمانيا تسع مرات والى اسبانيا عشرا والى فرانسا اربعا والى ايطاليا سبعا والى البلاد الواطية عشرا والى انكلترة مرتين وكذلك الى افريقة وانه اجتاز البحر احدى عشرة مرة وكان زيادة على هذا النشاط لا يفتر عن تنجيز ما عزم عليه من المقاصد والاغراض مع التصميم والعناد لا سيما وكانت فيه فضيلة عظيمة لا مانع انها بالنسبة للملوك تقوم مقام غيرها من الفضائل وكان قد بلغ فيها شرلكان الغاية القصوى وهى معرفته للرجال حق المعرفة فكان ينتخب منهم لخدامته من يعلم صلاحيته واستعداده ويواسيهم ويلاطفهم فكان عنده قواد نجباء ووزراء عظام * واما فرنسيس الاول فكانت الكلمة النافذة لامه او عشيقاته فكانت قيادة العساكر تولية وعزلا على حسب اهوائهن فقد حرمته فى الغالب الدسائس الدنيئة الهينة والشهوات الخسيسة المخزية من خدمة اولى النهى والفضل اوليس أنه جعل لوتريك غرضا لسهام العداوة من امه لويزة دى سافوة ورخص لهذه المرأة المتولعة بالانتقام أن تجحف بالكونيتابل دوبوربون

واهمل فى امره حتى جاءه شرلكان وهذا الكونيتابل العظيم وامير اورنجة وذورية وقلد بمناصب هؤلاء الرجال العظام خواصه مثل بنوويت واضرابه فهذا هو اكبر خطأ صدر منه وافضى به الى ماد همه من المصائب ولكنه مع ذلك كان فى عصره يفوق فى الصيت والشهرة شرلكان وربما استمرت تلك الشهرة الى الآن فان ما كان فيه من صفات الانسانية غطى على ما كان فيه من العيوب من حيث كونه ملكا فقد كان صاحب مروءة ورأفة محبا للخير سخيا كريما لم يسلك فى السياسة مسلك المكابرة والكذب ولم يسل سيف الغدر لقتل السفراء المحترمين وكان خالص الطوية طيب السريرة صادقا شهما فمثل هذا الملك يمكن أن يستغنى بهذه الصفات الجميلة عن النجاح ويكفيه ذلك عن فخر الظهور على خصمه فهو (كما سبقت الاشارة اليه) يمكنه أن يضيع كل شئ ماعدا شرف العرض

واعظم لقب استحقه فرنسيس الاول عند معاصريه هو لقب الشوالى الشهم وعند الخلف هو لقب ابى العلوم والمعارف لانه كان يحبها ويحاميها وكان ذلك اعظم فخره واصلا متينا لتخليد ذكره

ومع ذلك كان له فى محبة العلوم ومحاماتها اسوة باغلب اسلافه من عهد الملك كرلوس لوساج فان هذا الملك كان من اصوله أن تعظيم العلماء ليس له حد ينتهى اليه وانه مادام العلم معظما فى المملكة دام عزها وفلاحها واذا اهين فيها سقطت الى حضيض الاضمحلال وهو الذى شرع فى تأسيس الكتبخانة الملكية واغدق على العلماء بالانعامات ورغبهم بالعطايا الجزيلة حتى بذلوا فى تحصيل المعارف بعض مجهودات ناجحة فترجموا كتب الاقدمين وترتب على مطالعتها ثمرة عظيمة عادت بالنفع على مؤلفات الازمان المتأخرة وقد أعقب تقدم الآداب والعلوم تقدم الفنون والصنائع فشيد بها كل وسرايات جديرة بالانتساب الى اسمه فى قرية لورة ومدينة ونسينة وبونه وسنتدان وكريل ومولون ومنترجيس واحدث الصنائع والفبريقات او احكمها واتقنها ودعا ارباب الصنائع والحرف الى فرانسا وكثرت فى ايامه

ممارسة

ممارسة صناعة الساعات والميكانيكا والعلوم الرياضية الا أن التولع بالآداب والفنون كان مشوبا بعيوب ذلك العصر واستغرق ذلك بعده مدة طويلة وذلك أن المنجمين كانوا يزعمون انهم يعرفون من النظر الى السماء بخت الانسان سعادة اوشقاء مع أن هذا من الاسرار المغيبة وكذلك الكيماويون كانوا يبحثون عن حجر الفلاسفة (وهو مايزعمونه من استحالة المعادن ذهبا) فكانت مدرسة العلوم الجامعة ميدانا للمناظرة والجدال من هؤلاء الخوجات المجادلين ومثل هؤلاء المدرسين الذين لاتخلو دروسهم عن الغاغاء ورفع الاصوات لا ينبغي نظمهم في سلك اهل العلم والأدب

وفي القرن الخامس عشر من الميلاد حصل ايضا نوع تقدم للعلوم والآداب واشتهر في ذلك كل من المؤلف جرسون دبلي وكليمنجيس وغليوم ويوحنا وألان شرتيير شهرة جيدة * ومن آثار هذا العصر الادبية التي فاقت على آداب العصر الذي قبله اشعار اوكتاويان دوسنت جيليس الذي ترجم القصيدتين المسماتين اوديسة واينيده ورسائل اوويده ومنها ايضا اشعار ويلون الذي هو اول من حرر فن اختراع الحكايات الموضوعة القديمة وكذلك اشعار كرلوس دوق دورليان ابي لويز الثاني عشر ومن تلك الآثار ايضا تواريخ مارشيال دوويرنيه المنظومة واشعار الرعاة وهي اشعار نظمها الملك رينة الطيب لفرط رغبته وتولعه بالرعي حين زهد في الفتوحات والمناصب العالية ورعى مواشيه في مروج برووينسة مع زوجته الملكة حانة دي لوال ومما تجدد في هذا العصر من التآليف المفيدة المعتبرة تواريخ روبيرت جاجين ومونسترليت ورسائل اوليويير دولامرش وقد ألف فيليبش دوكومينه رسائل تتعلق بالملك لويز الحادي عشر كاد أن يعد بها من نظراء المؤرخ تاسيته ولامانع أن يقال ان غليوم فيشيت رئيس مدرسة العلوم الجامعة في عهد هذا الملك هو الذي احيي فن البلاغة وحسن اللغة اللاطينية في المكاتب والمدارس بل ذكر فيليبش دوكومينة مايفيد أن لويز الحادي عشر نفسه كان له معرفة كافية في الآداب والعلوم ونص

عبارته كان غذاء هذا الملك مباينا لغذاء امراء دولته (يعنى أن همه كان غذاء الارواح لا الاشباح) وقال المؤلف جاجين كان لهذا الملك معرفة بالآداب وكان فى العلم على درجة لا يصل اليها غيره من الملوك عادة انتهى غير أن هذا الملك كانت انوار معارفه مشوبة بظلمات الاوهام كما يقضى بذلك ماصدر عنه من الحكم المنكر الذى أنهى به المشاجرة الهزئية الشهيرة التى كانت بين الطائفة المسماة ريالست (اى الحقيقيين) والطائفة المسماة نومينو (اى الاسميين) ويشهد بذلك ايضا عقيدته الفاسدة فى العرافة والكهانة حيث كان عنده سبعة من ارباب التنجيم

(وقوله المشاجرة الهزئية الشهيرة التى كانت الخ اعلم أن فلاسفة ذلك العصر كانوا منقسمين الى طائفتين احداهما يقال لها ريالست اى الحقيقيون والثانية نومينو اى الاسميون فذهبت الاولى الى أن الاشياء كلها جواهر فعلى مذهبهم تكون الاعراض والخصايص كالاستدارة والصلابة مثلا قائمة بنفسها موجودة لا فى موضوع بمعنى أن الاستدارة مستقلة بالوجود عن المستدير وكذلك الصلابة مستقلة عن الصلب وذهبت الثانية الى أن الاستدارة والصلابة وغيرهما من سائر الاعراض لا تقوم الا بموصوفاتها وباختلاف هاتين الطائفتين اختلف اهل المدارس وتولد من هذا الجدال التشاتم والشحناء وتعدى البعض على البعض فاراد لويز الحادى عشر أن ينظر فى هذه القضية ويحكم فيها بما يراه فرآى أن الاسميين هم المخطئون وأمر سنة ١٥٧٥ من الميلاد بالحجر على كتبهم وحكم بالنفى على كل من تعرض لتأييد هذا المذهب وتصدى للانتصار له ثم فك حجر الكتب والمؤلفين)

وكان لويز الثانى عشر زيادة عن القابه المشعرة بفخاره ملقبا ايضا بحامى العلوم والآداب فانه كان كلما اختلس وقتا من اوقات اشتغاله بالمصالح العامة يشغله بمحادثة العلماء اومطالعة آثار الاقدمين وجلب الى فرانسا مشاهير علماء ايطاليا واستمالهم اليها بالعطايا والانعامات بل

توصل

توصل الى أن أقام منهم جماعة فى مدرسة العلوم الجامعة بباريس واخذوا يعلمون فى ايامه بتلك المدرسة الشهيرة اللسان اليونانى وحصل فى ذلك نجاح عظيم حتى صار المتعلمون يفسرون مخاطبات افلاطون * واما مؤلفات الاقدمين العظيمة فجمع منها هذا الملك مجموعا كان اعظم المجاميع التى اشتهرت اذ ذاك فى اوروبا فانه قرأها مع التأمل وجمع منها اصولا وحكما نافعة وكان يجتهد فى أن يطبعها فى ذهن الشاب فوتيه انغوليم الذى كان ولى عهده على المملكة (هو فرنسيس الاول) فحينئذ انوار المعارف البشرية التى اجتهد فرنسيس الاول فى نشرها على ايام ولايته ينبغى أن ينعكس منها جزء على ايام لويز الثانى عشر

ولما كان فرنسيس الاول قد نشأ من صغره على ممارسة العلوم والآداب كان بمجرد جلوسه على سرير الملك لا يرى الا والعلماء حوله فكانوا يصاحبونه فى كل مكان ولا يفارقونه لا فى الصيد والقنص ولا فى اسفاره ولا فى منتزهاته وكان يقلدهم بالمناصب ويجزل لهم العطاء وكان يرغبهم فى اشغالهم بجوده وكرمه وبكونه يشتغل هو بنفسه بحيث يكون اسوة لهم فى ذلك ولا شك أن اشهر هؤلاء الناس المجتهدين الذين جلبهم اليه بانعامه وفيض احسانه حتى ملأ بهم ديوانه بل ومجالس مشوراته هو غليوم بوديه الذى سماه اراسمه اعجوبة فرانسا وهو الذى حمل الملك على احداث المدرسة الملوكية وكان الغرض فى مبدء الامر من انشاء هذه المدرسة التى جعل لخوجاتها مرتبات جسيمة انما هو تعلم اللغة اللاطينية واليونانية والعبرانية فلذا سميت بمدرسة اللغات الثلاثة ولكن جدد فيها الملك بعد ذلك بالتدريج دروسا اخرى فقد استنبط من المكاتيب المؤرخة بسنة ١٥٤٥ من الميلاد أنه زيادة على خوجة اللاطينى وخوجات العبرانى الثلاثة وخوجات اليونانى الثلاثة كان يوجد فيها اذ ذاك خوجة لتعليم الطب وآخر للفلسفة واثنان للرياضيات وكذلك خلفاؤه من الملوك زادوا ايضا فى خوجات تلك المدرسة لانهم جددوا فيها بالتعاقب فروعا اخرى اقتضاها اتساع دائرة المعارف فى عصرهم

ولم تكن ممارسة الفنون والصنائع اذ ذاك دون ممارسة العلوم والآداب فان البابا ليون العاشر كان قد مكن الفنون فى ايطاليا فلما مات هذا الحبر جلبها فرنسيس الاول الى فرانسا وسهل عليه ذلك كون البابا ادريان السادس سلك فى تدبيره مسلك الافراط فى الاقتصاد والتوفير وكذلك اهمال كل من البابا كليمان السابع وبولس الثالث وعدم اعتنائه بشان تلك الفنون فلما اهملها هؤلاء البابات ولم يلتفتوا اليها جلب هذا الملك العظيم اهلها اليه وزين بهم ديوانه ودائرته لما انه كان يحبها ويتولع بها

وقد بنى هذا الملك ورمم وزخرف هذه الاماكن الآتية وهى سراية فونتنبلو وسراية سنت جرمان أنلايه وسراية شمبورد وفولمبراى وواير كوتريت وشرع فى بناء سراية لورة وحصن مينا هاوردوجراس وبنى ايضا القصر المسمى مدريد فى غابات بولونية

وقد حاول أن يحرم مكتب رومة من بولس رومان حيث سعى فى جلب هذا الرجل الى فرانسا ولكن لم يجد سعيه نفعا وانما حرم مكتب فلورنسة من ليوناردو دو ينسى اذ لا ينكر احد أن هذا الرسام الشهير مات بين يدى الملك فى فونتنبلو وقد جعل الملك المعلم روكس وكان من امهر المعمارجية ناظر عموم عمارات فونتنبلو فبنى فيها الازج او الممشى الكبير وزينه وزخرفه وكان لهذا الرجل الذى كاد أن يكون جامعا لجميع انواع الفنون عصرى خطير اوسع دائرة منه يقال له بنوانو توسليني وكانت احواله غريبة فانه كان يفتخر بأنه هو الذى قتل الكونيتابل دو بربون فى محاصرة رومة وقتل امبراور نجه فى محاصرة فلورنسة ثم آل به الامر الى أن طردته من فرانسا دوقيجة دى تنبه لكونه اغضبها وعكر مزاجها ثم ان فرنسيس احضر لو برماتيس من ايطاليا مرتين وهو الذى استمر على اشغال فونتنبلو بعد موت المعلم روكس وهو ايضا الذى رسم قبر فرنسيس الاول وابتدأ بعده فى رسم قبر هنرى الثانى ورسم ايضا صورة قصر مودون ولما حضر المعلم روكس ولو برماتيس

الى

الى فرانسا وجدايم ابعض رسامين من الفرنساوية فعلما ذلك الفن لجماعة آخرين ومن وقتئذ اشتهرت المدرسة الفرنساوية بتلامذتهما

وكانت اذواق القرون السالفة سقيمة وادراكاتهم وتصوراتهم غير صحيحة فأفسدوا الشعر اليونانى واللاطينى حيث اخترعوا طريقة الاشعار الليونية المفردة والمزدوجة والمثلثة وطريقة التطريز والتزموا فى قصائدهم الكلمات المبدوءة بحرف واحد وكانت لهم طرق اخرى من هذا القبيل فلما ظهر اهل الذوق الصحيح على عهد فرنسيس الاول رأوا هذه الطرق المتعبة من قبيل الالعاب التى لا تليق الا بالصبيان فنبذوها خلفهم ظهريا وعادوا بالتدريج الى ما يسهل على الطبع ويألفه الذوق غير أنهم مع كثرة ممارستهم الشعر اللاطينى لم يصلوا فى ايام هذا الملك الى درجة الكمال التى وصل اليها فى عهد لويز الرابع عشر كل من راسين وكوميرة ولارو ونيرة

ففى ايام فرنسيس الاول وكذلك قبله كانت لا تعرف الاجزاء التى تتركب منها بحور الشعر الفرنساوية كما أن اصول تجنيس القوافى وايقاع النماذج بينها كانت مجهولة اومهملة وكان ثقل اللفظ (وهو عندهم عبارة عن تلاقى حركتين احداهما فى آخر الكلمة والثانية فى اول كلمة اخرى تليها بدون حذف لاحداهما) سائغا مستعملا ومع هذه العيوب لم تزل قصائد ماروت وسنت جليس وبعض ابيات لفرنسيس الاول يستلذ انشادها ويستطاب سماعها الى الآن لما امتازت به عن غيرها من اللطف والسهولة وعدم التكلف واما من ظهر بعدهم من الشعراء الى زمن الشاعر مالهرب فلا يكاد يعرف الآن الا اسماؤهم وقل أن عرف لهم شعر واما كتاب الانشاء فلا ينبغى أن ينسى منهم ربيليس فان كتابه وان صار بتداول الازمان مغلقا يصعب فهمه لكثرة ما فيه من الكنايات ورموز الاشارات الا أن ما امكن فهمه منه يشهد بذكاء مؤلفه وجودة معرفته ويقضى له ببعض الشهرة التى حازها بين ابناء عصره * ومن آثار الكتب الادبية الفرنساوية النفيسة كتاب تاريخ الشوالى بيار فانه من الكتب التى اذا اطلع عليها الانسان تحسر على لغة

الاقدمين واخلاقهم ومنها ايضا رسائل مارشال دوفلورنجه فانها بمكان من اللطف حتى ان القارئ لا يملها ولا يسأم من مطالعتها * ورسائل الاخوين مرتين وغليوم دوبلاي هي بالنسبة لتاريخ فرنسيس الاول كرسائل سولي بالنسبة لتاريخ هنري الرابع ومع ذلك يجب الاعتراف بأن هنالك بونا بعيدا وفرقا كبيرا بين كتاب هذا العصر وشعرائه من الفرنساوية وكتاب العصر المذكور وشعرائه من ايطاليا فان فرنسا اذ ذاك لم يكن فيها من يضاهي من رجال ايطاليا غيشردين ولا ميشياويل ولا دنته ولا بترارك ولا اريوست

(الفصل السابع)

في ذكر ما حصل منذ موت فرنسيس الاول الى مشارطة كاتوكمبريس (وذلك من سنة ١٥٤٧ الى سنة ١٥٥٩ من الميلاد) (اى من سنة ٩٥٤ الى سنة ٩٦٧ من الهجرة تقريبا)

لما مات فرنسيس الاول خلفه على سرير المملكة هنري الثاني وكان الكونيتابل دومونتموارنسي وقتئذ منفيا في شنتلي (من بلاد دولاية واره) من حين مر الايمبراطور شرلكان بأرض فرانسا فأحضره هذا الملك الجديد الى الديوان واستأمنه ووثق به وكانت ديانة دي بواتييرس قد تملكت قلب هذا الملك الشاب وان كان دونها في السن فولاها على دوقية ولنتنواس وكانت زوجته الملكة كاترينة دي ميديسيس تشاهد حظوة هذه المرأة عند زوجها وتسكت ولا تظهر قلقا ولا غيرة فأضمرت من وقتئذ السوء والغدر واخذت في سلوك تلك المسالك المشؤمة

وكان وزراء ايدوارد السادس ملك انكلترة يريدون أن يزوجوا ملكهم هذا بمارية استوارت ملكة ايقوسيا وكان هذا الزواج يترتب عليه جمع مملكتين كان افتراقهما وشقاقهما في الغالب يعود بالنفع على فرانسا فلذا تدارك هنري الثاني الامر وحال بينهم وبين ما يشتهون حيث طلب هذه الملكة ليزوجها الابنه وكانت خطبتها للدوفين (اى ولي عهد

المملكة

المملكة الفرنساوية سنة ١٥٤٨ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٥٥ هجرية) واتى بها الى ديوان فرانسا فتربت فيه حتى كبرت ولم تزف على زوجها الا سنة ١٥٦٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٦٦ من الهجرة)

ثم ان ملك فرانسا كان يرى أن الصلح مع الايمبراطور لا يدوم فاراد أن يشاهد بنفسه حالة ثغور مملكته فطاف اقاليم بيكارديا وشمبانيا وبرغونيا وسابوة حتى وصل الى ولاية بيمونت وفى مدة ما كان خلف جبال الالب حصل فى غيانة وسنتونجه فتنة كان منشاها الافراط فى ضريبة الملح وكثرة العوايد المضروبة عليه وعماقليل تكاثرت جموع العصاة الخارجين حتى بلغت عدتهم خمسين ألفا ولو وجدوا لهم رؤساء ماهرين يدبرون عصبتهم ويسوسون حيتهم لصاروا عصبة مهولة يخشى بأسها ويخاف سطوتها وانتشرت نار الفتنة والعصيان حتى وصلت الى مدينة بوردو فبذل مجلس البرلمان بهذه المدينة جهده فى اخماد تلك النار فلم يجد ذلك نفعا بل اوقع فيها حزب العصاة خللا عظيما وقتلوا ترستان دومورين نائب حاكم الاقليم فعند ذلك توجه لقمع العصاة كل من فرنسيس دولورينة دوق دومال والكونيتابل دومونتمورانسى وكل منهما معه جيش من العساكر فذهب احدهما الى سنتونجه والثانى الى غيانة فاما دوق دومال فسلك فى تسكين الفتنة مسلك الحلم والملاطفة واما مونتمورانسى فشدد كل التشديد وسلك طرق التخويف والانتقام حتى ان اهل بوردو عرضوا عليه أن يفتحوا له ابواب مدينتهم فيدخل منها فأبى وعزم على دخولها من شرم الاسوار كالمدائن التى تؤخذ عنوة وحرم تلك المدينة من خصائصها ومزاياها وقتل عدة من اهلها وأرهب بمثل ذلك جميع مدن الاقليم التى كان لها دخل فى هذه الفتنة والقيام

وكذلك كان قد حصل فى بليزنسة فتنة كانت سببا فى اضرام نار الحرب بايطاليا وذلك أن البابا بولس الثالث اراد أن يسلك مسلك عدة من اسلافه

من البابات المعتبرين لفضائلهم وحميد خصالهم ورغب كل الرغبة فى أن يحذو حذوهم فتعلقت آماله بتوسيع مزايا عائلته وتعظيم شانهم فنال من مجلس الكردينالات أن سمحوا سنة ١٥٤٥ من الميلاد لولده بطرس لويز فرنيز بولايتى پارمة وپليزنسة وجعلوهما دوقية تابعة لحكومة البابا فلم يلبث هذا الدوق الجديد الاسنتين ثم قتله اشراف پليزنسة سنة ١٥٤٧ ميلادية لأنهم ابغضوه لفسقه وقسوته وكان من جملة المتحزبين عليه فرتند دوغونزاغة حاكم ولاية ميلان من طرف الايمبراطور فبمجرد قتله استولى على پليزنسة بطريق النيابة عن سيده فداخل البابا من الحزن والغم على قتل ولده وعلى دخول عساكر الايمبراطور فى پليزنسة وشغلهم اياها ما اخرجه عن عادته من الحزم والاحتراس فطلب من ملك فرانسا وجمهورية البنادقة أن ينضما اليه ويكونا معه على محاربة شرلكان فلما لم يجيباه الا بجواب مبهم ولم يكن فى وسعه أن ينتقم وحده من الايمبراطور على ماوقع منه من الافتيات والتعدى اقتصر على أن يحترس بحيث يمنع وقوع افتيات آخر فانه كان من الجائز أن الايمبراطور يطمع فى پارمة كما طمع فى پليزنسة فعزم البابا على ادخال هذه المدينة تحت حمايته فابطل ما كان صدر عنه من النزول عنها لولده بطرس لويز فرنيز وكان بطرس هذا قد أعقب ولدا يقال له اوكتاوة تزوج بمرغريطة دى اوستريا وكانت بنتا طبيعية لشرلكان (اى متخلقة من السفاح لا من النكاح) وكانت اولا تحت اسكندردومديسيس فقتل عنها وبقيت ارملة حتى تزوجها اوكتاوة المذكور فلما جرد هذا الشاب عن التزاماته كل من جده وختنه سعى فى الاستيلاء على پارمة والتمكن منها قهرا عنهما فأبى ذلك عليه حكمدار المدينة وحكمدار قلعتها ولما بلغ البابا پولس الثالث ما وقع من حفيده من هذا المشروع ومن كونه طلب الصلح من فرتند دوغونزاغة ادركه لذلك غم شديد زادت به اسقام هرمه وشيخوخته فمات فى عاشر نومبر سنة ١٥٤٩ ميلادية (اى سنة ٩٥٦ هجرية)

ولما

ولما تولى بعده البابا پولس الثالث ظهر منه في مبدا الامر انه معين لاوكتاوة فرنيز ولكنه في سنة ١٥٥١ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٥٨ او سنة ٩٥٩ من الهجرة) تخلى عنه خوفا من غضب الايمبراطور عليه وتهديده له لانه كان قد عزم على الاستيلاء على پارمة فلما لم يجد اوكتاوة له ظهيرا في ايطاليا طلب الحماية من دولة فرانسا وكان هنرى الثاني وقتئذ قد استرجع بولونية واستظهر في ايقوسيا بسياسته واسلحته على الانكليز فتقوى جانبه بهذه الحوادث الميمونة وانتهز مع فرط الرغبة فرصة هذا الطلب الصادر من اوكتاوة لان ذلك يكون داعية الى عود الفرنساوية الى ايطاليا فوعده بالاعانة والاسعاف فتقوى اوكتاوة بذلك ولم يعمل بمانعته المكاتيب التي ارسلها اليه البابا پولس الثالث يأمره فيها برفض هذه المحالفة الجديدة فعند ذلك اعلن البابا المذكور بحربه نظرا الى كونه من عماله وخرج عن طاعته وصدر من الايمبراطور امر الى فرنند دوغونزاغة باعانة البابا ووجه بريسالك حاكم ولاية پيمونت من طرف هنرى الثاني جموعا عسكرية لاجل اعانة اوكتاوة ولم يشتهر هذا الحرب بحادثة تستحق بقاء الذكر وانما انحط رأى الفريقين سنة ١٥٥٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٦٠ من الهجرة) على متاركة بموجبها بقى اوكتاوة على تملك پارمة وفى سنة ١٥٥٦ ميلادية (اى نحو سنة ٩٦٤ هجرية) رد له فيليپش الثاني (ابن الايمبراطور شرلكان) ولاية پاېزنسة

وفى مدة ما كان العساكر الفرنساوية وعساكر الايمبراطور يتقاتلون في ايطاليا بوصف كون الاول حلفاء اوكتاوة والاخر حلفاء البابا كان هنرى الثاني والايمبراطور شرلكان يظهران انهما باقيان على صلح كرسپي بقاء لا يشوبه فسخ ولا نقض ولكن عما قليل ظهر ما يدل على كذب ذلك وعدم صحته

وذلك ان شرلكان منذ وقعة مولبيرغ التي اسرفيها رئيسي الحزب

اللوثريانى سلك فى ألمانيا مسلك الحاكم المطلق التصرف فالتمس امراء هذا الحزب من هنرى الثانى أن يكون معهم على الايمبراطور فأجابهم الى ذلك وتحالف معهم متعللا بأنه يريد حماية الحرية الجرمانية وشرع فى الحرب سنة ١٥٥٢ من الميلاد حيث استولى على المدن الايمبراطورية وهى متز و تول وفردون واخذها بدون مشقة ولا كلفة بل بواسطة المراسلات بينه وبين اهلها وكان قد وعدهم سرا بأنه لا يتعدى على حزايا مدنهم ولا يتعرض لاستقلالها ولكنه لم يف بما وعد بل اعلن بأنها انضمت الى اراضى تاجه الملوكى فلم تمض عليه الامدة يسيرة حتى ندم على هذا الخطأ وذلك انه كان يؤمل الاستيلاء على اقليم ألساس بالسهولة كما استولى على هذه المدن الثلاثة الاسقفية الا أن اخلاف وعده نفر عنه القلوب فوجد من المصادمة فى ذلك ما لم يخطر له ببال وبلغه فى هذا الوقت أن الامراء الالمانيين الذين حالفوه عقدوا مع الايمبراطور معاهدة باسو التى بمقتضاها صار يمكن لشرلكان من الآن فصاعدا أن يوجه جميع قواه الى فرانسا وعما قليل قدم الايمبراطور فى مائة ألف مقاتل الى مدينة متز وحاصرها وكان الحاكم عليها وقتئذ فرنسيس دولورينة الذى تلقب بعد موت ابيه بلقب دوق غيزة فأسرع فى تحصين المدينة حتى صارت مقتدرة على الذب والمدافعة وتسابق الى اعانته معظم كبار الاشراف من المملكة بل وعدة امراء من العائلة الملوكية فأبدى هذا الدوق ما جعله جديرا بالرياسة على هؤلاء الذوات المتطوعين بالخروج للقتال حيث ظهر على عساكر الايمبراطور بحزمه ونشاطه وشجاعته فان شرلكان بعد أن مكث فى المحاصرة خمسة وستين يوما وهلك ثلثا جيشه امر عساكره بالرجعة والانصراف ولكنه فى سنة ١٥٥٣ ميلادية (اى نحو سنة ٩٦١ هجرية) انتقم من الفرنساوية فى نظير ذلك بتخريب مدينة تروانة والتغلب على مدينة هسدين فعندذلك توجه هنرى الثانى ملك فرانسا الى البلاد الواطية بقصد جبر هذه الخسارة فصار الخصمان (هنرى وشرلكان)

أمام بعضهما وكان ينتظر حصول وقعة بينهما يبت بها الامر الا أن الايمبراطور تجنب قتال الملاحمة وكان فصل الشتاء قد حان دخوله فاضطر الفريقان الى تأخير القتال

وفي اثناء هذا الحرب الذي طالت مدته بين الملكين بدون طائل تولت على مملكة انكلترة مارية بنت هنري الثامن امها كاترينة دي اراغوان خالة الايمبراطور شرلكان وكانت ولايتها على هذه المملكة بطريق الوراثة عن اخيها ايدوارد السادس لأنه مات في ريعان شبابه ولم يعقب ذرية وتزوجت مارية المذكورة فيليش بكري الايمبراطور شرلكان فكان اول نتيجة لهذا الزواج هي زيادة عدد اعداء الدولة الفرنساوية فان هذين الزوجين بادرا الى محالفة شرلكان ولكن منعهما في مبدأ الامر من أن يمدّاه بامدادات تقوية ما كان واقعا اذ ذاك في انكلترة من الفتن التي كان يلزمهما تسكينها واخماد نيرانها وكان هنري الثاني يريد التعجيل بقطع النزاع وبت الامر بينه وبين الايمبراطور بأقوى ما يمكنه من المجهودات واستفراغ الوسع فزاد في عساكره سنة ١٥٥٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٦٢ من الهجرة) وخرّب اقليمي هينوت وكمبريزيس والتحم القتال بينه وبين الايمبراطور قريبا من مدينة رنتي على حدود ولايتي ارتواس وبولونية وكانت النصرة فيها للفرنساوية بعد أن بذلوا فيها انفس النفوس وكانت قليلة الجدوى وبالجملة فكانت هذه الغزوة كغيرها من الغزوات السابقة لم يبت بها الامر ولم ينقطع بها عرق النزاع

وكان المارشال بريسالك وهو الملقب بما معناه السيد الشهم لم يأته من مبدأ الحرب مدد من طرف الدولة الفرنساوية ومع ذلك لم يزل يقاتل جنرالات الايمبراطور في اقليم بيمونت لما كان عنده من فرط الشجاعة والمهارة واما اعداؤه المذكورون فكانت لا تنقطع عنهم الامدادات اصلا وكذلك كان هنالك جيش فرنساوي تحت قيادة بطرس أستروزي وكان ايضا متروكا لم يبعث اليه بمدد ولا اعانة وكان مأمورا بحماية مدينة سيينة

واراضيها وكانت هذه المدينة قد استرجعت حريتها سنة ١٥٥٢ ميلادية ودخلت تحت حماية الدولة الفرنساوية فانهزم هذا الجيش بالكلية سنة ١٥٥٤ من الميلاد هزمه مركى دومارغنان قريبا من مدينة مارسيانو ثم جمع بقاياه بليزدومونتلوق ونزل بهم فى مدينة سينة المذكورة وقاوم العدو فيها عشرة اشهر ولم يجبره على التسليم الا المجاعة وكان تسليمه لها فى الثانى من شهر ابريل سنة ١٥٥٥ ميلادية (اى نحو سنة ٩٦٣ هجرية) على شرط انها تبقى على جمهوريتها ولكن لم تبق هذه المشارطة بل نقضت وفسخت وفى سنة ١٥٥٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٦٥ من الهجرة) نزل فيليبش الثانى عن تلك المدينة لكوسم الاول دوق طوسكانة فضمها الى ايالاته

وفى الثالث والعشرين من شهر مارث سنة ١٥٥٥ مات البابا پولس الثالث وخلفه مرسيل الثانى فلم يلبث فى المنصب الا اثنين وعشرين يوما فتولى بعده پولس الرابع وكان هذا البابا من عائلة يقال لها عائلة كاراف وكان له ابنا اخ فأملا بتوليته هذا المنصب انهما يترقيان الى الدرجات العالية وذلك لانهما رأيا أن المديسيسية قد ترقوا الى درجة الامارة العظمى فى طوسكانة بسبب من خرج من عائلتهم من البابات ورأيا ايضا أن الفرنيزية اكتسبوا دوقيتى پارمة وپليزنسة بهمة البابا پولس الثالث ولكنهما كانا يعلمان أن عمهما لا يبلغ به الضعف الى أن يقتطع لاجلهما جزأ من اراضى الكنيسة فرأيا أنهما لا واسطة لهما فى تحصيل امارات مستقلة الا تمزيق التزامات الايمبراطور الكائنة فى ايطاليا فسعيا فى ايقاع التفاقم والشقاق بين الايمبراطور والبابا ليحصلا بذلك غرضهما ويشفيا غليل الحقد الذى كان قائما بهما على الايمبراطور وكان البابا پولس الرابع نفسه مغتاظا من الايمبراطور وحق له أن يغتاظ ويتظلم منه فان شرلكان سعى جهده فى منعه من الولاية فبذلك صار له داعيان يبعثانه على محاربته وهما الانتقام من عدوه وتحصيل مناصب لولدى اخيه فالتمس من ملك فرانسا أن ينضم اليه

ويجمعا بعساكرهما على دوقية طوسكانة ومملكة نابلى وتعاهدا على انهما ان ظفرا بمرامهما اعادا الى تلك الدوقية حكومتها القديمة الجمهورية ووليا على مملكة نابلى احد اولاد ملك فرانسا وضما من ارضها جزأ الى التزامات الكنيسة وجعلاه امارتين يتولى عليهما ابنا اخى البابا وانعقدت بينهما على ذلك مشارطة كانت على خلاف رأى الكونيتابل دومو تمورانسى وانما كان انعقادها بموجب رأى الكردينال دولورينة ودوق دوغيزة مؤملا احدهما انه يكون فيما بعد منوطا بامر المكالمات والمفاوضات مع ديوان رومة والآخر انه يتولى قيادة الجيش المعد لغزو مملكة نابلى

ولكن شاع اذ ذاك على حين غفلة خبر لم يكن يخطر ببال احد حتى تعجب منه اهل اوروبا غاية العجب وهو أن الايمبراطور شرلكان الذى كدر راحة الملل مدة طويلة واتهم بانه يطمع فى الاستيلاء على الدنيا بتمامها خلع نفسه عن الملك فهل هذا الايمبراطور شبع من المناصب العالية الدنيوية وعرف أن مآلها للزوال او عاجلته الشيخوخة والهرم ولحقه من الوهن والضعف الناشئ له عن الاسقام والعلل المؤلمة ما افضى به الى التنحى عن المصالح فأراد أن يخفى عن الرعايا هبوطه وانحطاطه ويعتزل الناس محو با فخاره وشهرته ويلازم الخلوة كأنه راهب فى محراب فعزم على خلع نفسه ليكون بذلك موعظة وعبرة للناس او يكون بفعله هذا اعجوبة من عجائب الدهر تتشوف النفوس الى الاطلاع عليها ويرغب الناس فى النظر اليها فعقد بمدينة بروكسيلة مجلسا نزل فيه لولده فيليبش فى الخامس والعشرين من شهر اوقطوبر سنة ١٥٥٥ من الميلاد عن اقاليم البلاد الواطية وبعد ذلك بعدة اسابيع نزل له عن ممالك اسبانيا وجميع ملحقاتها سواء كانت فى الدنيا القديمة او الدنيا الجديدة ولم يبق لنفسه من املاكه الواسعة الامرتبا سنويا قدره مائة ألف ايكو ثم انه قبل أن يرحل الى بلاد اسبانيا التى اختارها لاقامته سعى فى ايقاع الصلح ببلاد اوروبا فساعد على عقد

هدنة بخمس سنوات بين ولده فيليبش الثانى وهنرى الثانى وحصل التصديق عليها بدير ووسيله فى خامس فبريه سنة ١٥٥٦ ميلادية (اى نحو سنة ٩٦٤ هجرية) وسعى ايضا فى حمل اخيه فرديننند ملك الرومانيين على أن ينزل لفيليبش الثانى عن حقوقه فى التاج الايمبراطورى ولكنه لم ينجح فى هذا السعى فنزل له عن جميع حقوقه فى الحكومة الجرمانية ثم سافر من مدينة زويتبورغ من بلاد زلنده فى سابع عشر سبطمبر ومكث فى البحر احد عشر يوما وكانت كلها اياما سعيدة مباركة ثم خرج على مدينة لارده من بلاد بسكاية وبمجرد خروجه الى البر سجد على الشاطئ وقبل الارض وقال مخاطبا لها يا ام جميع الناس انى خرجت من بطنك عارى الجسم واعود اليك كما خرجت ثم سار من لارده الى برجس ومكث فيها عدة اسابيع ينتظر النصف الاول من المرتب القليل الذى جعله لنفسه وكان السبب فى تأخره عنه هذه المدة هو فيليبش الذى صار بذلك ممن قابل الاحسان بالاساءة ثم توجه من برجس الى پليزنسة من بلاد استرامادور وكان قد رآى سابقا بقرب هذه المدينة حسن موقع الدير المسمى دير سنت جوست وقال لبعض اتباعه ان ديوقلطيانوس لو رآى هذه الخلوة لاعجبته فلما وصل اليه فى هذه المرة اختاره دارا لاقامته حتى يقضى فيه مابقى من ايام حياته فنزل هذا الايمبراطور الذى هو خليفة القياصرة فى بيت من ذلك الدير يحتوى على ستة اماكن كان قد امر ببنائه فاذا هو بيت بسيط ساذج لا يلايم حالة الخمول التى اختارها ومكث فيه سنتين حتى فارق الحياة وكان فى هذه المدة يشتغل تارة بزرع نباتات بساتينه وتارة بمصنوعات ميكانيكية لانه كان يميل كثيرا الى هذا الفن ولكن كان يصرف معظم اوقاته فى العبادة ووجوه البر ثم لما ثقل عليه داء النقرس الذى كان يؤلمه ويوجعه حتى اوهى قواه صار لا يفكر الا فى الموت فاستعد اليه بعمل جنازته قبل موته حيث امر بعمل قبر فى معبد الدير وامر الخدم والرهبان أن يذهبوا الى هذا القبر على صورة تشييع الموتى حاملين شموعا سودا وكان هو خلفهم مسجى بالكفن

وكان

وكان هنالك نعش حاضر فاضجعوه فيه مع اجراء الرسوم المعتبرة فى ذلك حيث صلوا عليه صلاة الجنازة وصار يقول معهم ما يقولونه فى تلك الصلاة ويبكى مع بكائهم ولما انتهت صلاته رشوا على نعشه الماء المقدس على عادتهم ثم انصرفوا واغلقوا ابواب المعبد فعند ذلك قام شرلكان من نعشه وذهب الى مسكنه كاسف البال مشغول الخاطر بالافكار الحزنة حتى افضى به تأثره من هول هذا التشييع الى الهلاك فانه فى اليوم الثانى اصابته الحمى ومات فى الحادى والعشرين من شهر سبطمبر سنة ١٥٥٨ من الميلاد عن ثمان وخمسين سنة ونصف

ومع ذلك لم يرجع البابا پولس الرابع عن اغراضه بل حمل هنرى الثانى على فسخ هدنة ووسيلة وعلى ارسال جيش الى ايطاليا تحت قيادة دوق دوغيزة ولما وصل هذا القائد الى رومة اجرى له فيها اعظم رسوم التشريفات غير أنه لم يجد بها شيأ مما اخبر به البابا من التجهيزات العسكرية ولما دخل اقليم أبروزة لم يمكنه لضعف ما معه من الوسائط أن يحصل من المشروعات على شئ مهم وبالجملة فادركه ما لا مزيد عليه من الغيظ والغم على كونه لم يعمل شيأ يلايم شهرته فطلب العود الى فرانسا وعما قليل صار رجوعه اليها ضروريا لما دهمها من المصائب جهة البلاد الواطية

وذلك أن مارية ملكة انكلترة كانت قد ضمت عساكرها الى عساكر زوجها وبعثا فى سنة ١٥٥٧ ميلادية (اى نحو سنة ٩٦٥ هجرية) اثنى عشر ألفا من الانكليز ليمدّا بهم الجيش الاسپانيولى الذى كان فى فلندرة تحت قيادة الامير ايمنويل فليبرت دوساوة حاكم البلاد الواطية فحاصر هذا الامير مدينة سنت كنتين فقدم الكونيتابل دومونتمورانسى لاجل انقاذ هذه المدينة وطلب القتال مع العدو ومع أن عساكره قل أن بلغت ثمانية عشر ألفا وعساكر الاعداء كانت تبلغ ثلاثة اضعافها فالتحم القتال بين الفريقين بقرب تلك المدينة فى عاشر اغسطوس

سنة ١٥٥٧ من الميلاد وقد ابدى الكونيتابل فى هذه الوقعة من الشجاعة العجب العجاب الا أن الكثرة غلبت على الشجاعة فاسره العدو مع المارشال دوسنت اندريه وثلثمائة من بيكزادات الفرنساوية واربعة آلاف من العساكر تقريبا وقتل من الفرنساوية فى ميدان المعركة مايزيد على اربعة آلاف وغنم العدو أعلام المشاة كلها والذخائر الحربية والمدافع ولم تزد قتلاهم على ثمانين نفسا وكان الحظ الاوفر فى هذه النصرة الفاخرة للقونتة دوغمونت

ولما شاع خبر هزيمة الجيش الفرنساوى انتشر الرعب والفزع فى كرسى فرانسا واخذ الاهالى فى الهرب الى داخل المملكة وكان الملك وقتئذ فى مدينة كومبيينة بصدد جمع جيش جديد فعقدت الملكة كاترينة فى غيبته مجلسا فى دار المدينة وسكنت خوف الناس وفزعهم وطلبت من الامدادات والاسعافات ماتسمح به نفوس محبى الوطن فدفعت مدينة باريس من اموالها مايفى بجوامك عشرة آلاف من العساكر وتأسى بها فى هذا البذل غيرها من مدن المملكة كل على حسب حاله ثم زال عن الفرنساوية الخوف والرعب واطمأنت قلوبهم بكون فيليبش ملك اسبانيا لخوفه او لحزمه لم يقدم الى باريس بل استمر على محاصرة سنت كنتين فخلوا بينه وبين هذه المدينة وكذلك مدينة هام ومدينة نوايون ومدينة كاتيليت وبمحاصرة فيليبش لهذه المدن وجد هنرى الثانى فسحة من الزمن جند فيها جنودا عديدة وطلب دوق دوغيزة لقيادتها فخرج هذا القائد العظيم من ايطاليا وقلبه كاد يطير من الفرح وكان البابا بولس الرابع قد اصطلح فيها مع فيليبش الثانى وجعل هنرى الثانى دوق دوغيزة نائب عموم المملكة فأبدى من النجاح ماصاربه اهلا لهذا المنصب فانه فى شدة القر والبرد احاط على حين غفلة بمدينة كالس التى لم يبق للانكليز سواها مما كانوا يملكونه سابقا فى ارض فرانسا من البلاد الواسعة واستولى عليها بعد مضى تسعة ايام من المحاصرة وتغلب بعد ذلك على مدينة غينة وقلعة هام (وكان ذلك سنة ١٥٥٩ من الميلاد) (المقابلة

لنحو

لنحو سنة ٩٦٧ من الهجرة) فصار لدوق دوغيزة بهذه الغزوة الفاخرة
التى لا يمت اعجاب الملة بنفسها عند ابناء الوطن منزلة اعلى من منزلة غيره من
جنرالات عصره وافضت بهم نشوة الفرح الى تلقيبه بالبطل المنقذ لبلاده فانتهز
فرصة هذا الاعتبار ونفوذ الكلمة وعقد نكاح بنت اخيه مارية استوارت
التى كانت قد تربت فى فرانسا منذ عشر سنين على الدوفين (اى ولى عهد
مملكة فرانسا وهو فرنسيس الثانى) وكان سبب تأخر زواجه بها الى
هذا الوقت هو خوف كاترينة دى ميديسيس ودوقيجة والنتنواس
وغيرهما منها ولما تم الزفاف قصد نائب عموم المملكة المذكور الذى صار
بهذا الزواج خالا لمن يكون وارثا لمملكة فرانسا مدينة تيونويلة لأن
محافظيها كانوا دائما يضارون اراضى مدينة متز فوصل اليها وتغلب عليها
الآن نجاحه هذا وازنه نكبة حصلت لمارشال دوترمة فى فلندرة
وذلك أن المارشال المذكور لما كان قريب عهد بهذا المنصب العظيم وكان
يرغب كل الرغبة فى أن يفعل ما يكون به اهلا لهذه الرتبة خرج من مدينة
كالس التى كان قائدا لعساكرها ودخل فى فلندرة وهجم على مدينتى
برجه ودونكرك واخذهما عنوة غير أن القونتة دوغمونت فجأه
بالاغارة قريبا من مدينة غراولينة فهزمه واسره فعند ذلك ترك
دوق دوغيزة مدينة لكسنبورغ ونزل بعسكره على نهر السوم فمكث
الجيشان عدة ايام أمام بعضهما وكان كل من الفريقين يرغب فى الصلح فشرع
سفراء فرانسا واسبانيا والايمبراطورية وانكلترة وسابوة فى المفاوضة
فى هذا الشان بدير سركنب وطلبوا من هنرى الثانى جميع ما استولى عليه
من البلاد بل وما استولى عليه ابوه من قبله فكانت هذه المطاليب سببا فى ابطال
المفاوضة فى هذه المرة ثم سهل صعوبة بعض تلك المطاليب موت مارية ملكة
انكلترة التى كانت تريد استرجاع مدينة كالس لأن الملكة ايزابيلة
(التى خلفتها على تلك المملكة) تساهلت فى هذا الامر لما أنها كانت
مشغولة بمصالح دولها فاعيدت المذاكرة فى مدينة كاتوكمبريزيس وحصل

التصديق على الصلح بهذه المدينة من طرف السفراء الفرنساوية والانكليزية والاسبانيولية فى ثالث ابريل سنة ١٥٥٩ من الميلاد فكان ما اتفقوا عليه فى شأن مدينة كالس هو أنها تبقى مع ملك فرانسا ثمانية اعوام وبعد انقضاء هذه المدة اما أن يردها او يدفع من نوع المعاملة المسماة كرونة خمسمائة ألف وهذا ما لم تنقض الصلح دولة انكلترة والا فلا يلزمه شئ وهذا الشرط كان مستندا لدولة فرانسا على عهد كرلوس التاسع فى ابقاء هذه المدينة المهمة تحت حكومتها وبموجب هذا الصلح ترادّ هنرى الثانى وملك اسبانيا ما استولى عليه كل من بلاد الآخر واسترجع دوق ساوة جميع ولاياته ماعدا تورين وبنيرول وكيرس وشيواس وويلانووه دست ومركية سالوسة وتخلى هنرى ايضا عن جميع البلاد التى استولى عليها بايطاليا ماعدا تول ومتز ووردون لكون الايمبراطور لم يشدد فى طلبها

ثم تأكد هذا الصلح بعقد نكاحين حيث تزوجت ايليزابيته بنت هنرى الثانى بفيليبش الثانى (ملك اسبانيا) وكان منذ عدة اشهر قد صار خليا عن الزوجات بموت مارية دى انكلترة وكانت ايليزابيته المذكورة اولا مخطوبة لولده دون كرلوس وتزوجت مرغريطة اخت هنرى المذكور بدوق دوساوة ولاجل اشهار ذلك عملت المواسم الفاخرة حتى ان الملك هنرى الثانى اراد أن يلعب بنفسه فى ملعب الرمى والمسابقة فجرح فى جبينه برمية رمح حين تسابق مع قونتة مونتغومرى جرحا افضى به الى الهلاك فانه مات بعد ذلك بأحد عشر يوما فى عاشر يولية سنة ١٥٥٩ من الميلاد وهو فى سن احدى واربعين سنة

ولا شك أنه بموت هذا الملك اسرع الى فرانسا احد ازمنة الشؤم والنحوس التى تكلم عليها تاريخ تلك المملكة فانها بمجرد ما اخذت تتنفس وتستريح من تعب الحروب مع الدول الاجنبية اشرفت على الوقوع فى نيران الحروب الداخلية تحت حكومة امراء ضعاف منقادين لامرأة طماعة غدارة

(واما)

(واما ما يخص مذهب التشيع البروتستانى على عهد هنرى الثانى فراجعه فى المقدمة المتعلقة بحروب فرانسا الاهلية والدينية من الجزء الثانى من هذا المختصر)

(الباب الثانى)

فى الكلام على الآداب والفنون بايطاليا من منتصف القرن الخامس عشر الى آخر القرن السادس عشر من الميلاد تقريبا

لانزاع أن ايطاليا وان اضرت بها الحروب كانت فى القرن الخامس عشر والسادس عشر من الميلاد هى القطر الذى اينعت فيه دون غيره من اقطار اوروبا ثمار الآداب والفنون مع مزيد الرونق والبهجة فانها اجتنت معظم ثمار الغزوات الصليبية حيث كانت تعين اهل تلك الغزوات بالارساليات البحرية فكانت تنقل الى المشرق ابطال المغرب كما كانت تنقل الى المغرب علماء المشرق وما تورث من الامبراطورية اليونانية ظهرت ثمرته فى قطر اوزونية المعتدل (يعنى ايطاليا) وبالجملة فكانت الملة الايطاليانية هى المستعدة اكثر من غيرها من ملل اوروبا لتلقى وتتبع المعارف والآداب التى ساقتها الى العقول الحوادث العظيمة التى حصلت فى اواخر القرن الخامس عشر من الميلاد

وكانت قد تأسست الآداب الايطاليانية فى القرن الرابع عشر من الميلاد أسسها فيها ثلاثة رجال من اولى النهى والقرائح الجيدة وهم دنته وبوكلسه وبتراركه وقد ترك هؤلاء لمن بعدهم من ابناء ذلك العصر من ملحهم وامثالهم لسانا جديدا انشؤوه وأحكموه واورثوا اهل ذلك العصر ايضا التولع بمطالعة كتب الاقدمين واستحسانهم اياها فكان ذلك منشأ لجميع الآداب المستحسنة وقد كانت الآثار القديمة قبل هؤلاء الثلاثة قد خيمت عليها عناكب النسيان فلم يكن فى اغلب كتبخانات المدارس والديورة التى كانت قد تجددت فى عدة اقاليم الا بعض كتب فى الالهيات وعلم الاحكام والطب والفلك والفلسفة التى كانت تقرأ فى المدارس على طبق الالهيات فحمل هؤلاء الثلاثة لاسيما بتراركة

اهل عصرهم على معرفة كتب الاقدمين ومطالعتها فأخرجوا بذلك الكتب التى كانت مدفونة فى تراب الديورة او كانت نائية فى الاقطار الشاسعة من حيز الخفاء الى حيز الظهور وحثوا الناس على التسابق الى العلوم واستفراغ الوسع فى التعلم والمعرفة وتوورث ذلك عنهم جيلا بعد جيل وفى اثناء ما كانت ايطاليا قد تمكن منها التولع بالعلوم والفنون ظهر فن الطباعة فزاد به تولعها وانتشر به حب المعارف واتسعت دائرته

وهذا الفن المخترع الذى لا تحصى منافعه وكان له تأثير عظيم حتى يصح أن يقال فيه انه غير احوال البشر كان ظهوره فى وقت ملايم لانتشاره وقبوله فانه استكشف فى زمن كان اهله يرغبون فى البحث عن الكتب وفى مطالعتها بالجد والاجتهاد حتى كأنهم افتتنوا بها وطالما تنازعت مدن ميانسة وهرلم واستراسبورغ فى ادعاء شرف اختراع الفن المذكور ويظهر الآن أن من المحقق أن اختراع الطبع بالحروف المتنقلة انما ينسب الى ألمانيا والذى اخترعه هو يوحنا غوتمبرغ دوميانسة وأن هذا الفن انتقل من ألمانيا الى ايطاليا قبل أن ينتشر فى محل آخر

ولا مانع أن يطلق على هذا العصر بالنسبة الى ايطاليا عصر ذهب الشعراء والعلماء والمحترفين فان الجمهوريات التى كانت موجودة اذ ذاك وكذلك الامراء الذين علا شأنهم وارتقوا الى الرياسة على جمهوريات كانت لا ثبات لها كانوا يتفاخرون ويتنافسون فى المبانى والرفاهية والزينة فى مواكبهم ومظاهر اماراتهم ويسعون كل السعى فيما يكون به فلاح دولهم وسعادتها وليس ذلك الا الآداب والعلوم والفنون التى كانت ممارستها معروفة وقتئذ بأنها من اقوى اسباب العز والفلاح واعظم وسايط الشرف والسؤدد كيف لا وامراء ذلك العصر وملوكه كانوا يتسابقون الى حماية ارباب المعارف مع الاستمرار والدوام والبذل والعطاء بحيث لم يقع مثل ذلك من غيرهم قط فقد كانوا متى ظفروا بعالم شهير تنازعوا عليه حتى كأنه من الفتوحات الفاخرة ويبعثه الظافر به على ملازمة ديوانه بالتشريفات والالقاب العظيمة ويفاخر به

الاجانب

الاجانب ويقلده بالسفارات والحكمداريات كأنه يريد بذلك ان يريه لجميع اهل الارض

وكانت نابلى التى هى من ايطاليا الجنوبية على عهد الملوك الاراغونية متولعة بممارسة العلوم ومطالعة كتبها فقد انشأ بها ألفونس الاول اكدمة صارت من مبدأ امرها شهيرة بالمؤلف بونتانوس والشاعر كاريتو ولاسيما الشاعر سنازار فان اشعاره اللاطينية تشبه احسن ما يجانسها من اشعار المتأخرين وقد وصف فى قصيدته المسماة اركادية اخلاق الرعاة وسلك فى وصفها من السهولة مسلكا لم يسلكه غيره من ابناء وطنه واتى فى بيان اخلاقهم باوصاف حماسية تنبسط منها النفوس واعانه على هذا المشرب مزاج قطر نابلى وكان من رجال اكدمة نابلى امراء مشاهير من جملتهم دوق دواترى ودوق دونردى وكان الملك ألفونس الاول ملقبا عند الاسبانيول بالعاقل صاحب الهمة ولعمرى انه لجدير بهذا اللقب ولو بالنظر لما صنعه من الخيرات فى شأن العلوم والآداب فانه كان لا يقتصر على الترغيب فيها بالبذل والعطاء بل كان يحبها ويمارسها ويحضر مجلسه العلماء ويقرؤون عنده كل يوم شيأ من المؤلفات القديمة وكان لا يترك عادته من مطالعة الكتب حتى فى وقت الحروب وكان اذا تغلب عسكره على مدينة ووجدوا فى الغنيمة كتبا اتوا بها اليه فورا كأنها اعظم شئ فى تلك الغنيمة

وامراء عائلة ايستة الذين هم حكام فراره قد اشتهروا من مبدأ الامر شهرة عظيمة لمحبتهم للآداب والعلوم واكرامهم لاهلها فقد جلب المركيز نيقولاس الثالث الى المدرسة الجامعة بمدينة فراره مدرسين ماهرين وقيدهم فيها بقيود احسانه وانعامه ولما تولى بعده ولده ليونيل سنة ١٤٤١ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٤٥ من الهجرة) لم يترك شيأ مما تكون به هذه المدرسة مضاهية فى الشهرة لاشهر مدارس ايطاليا وكان هذا الامير معدودا من مشاهير رجال عصره لما حازه من الصفات الدالة على وفور عقله ويؤثر عنه بعض اشعار رقيقة رائقة وقد زاد

هرقول ديسته في كتب الكتبخانة التي انشأتها عائلته وهو اوّل امير من امراء ايطاليا جدّد في ديوانه ملاعب فاخرة يلعبون فيها كوميديات (اي قطع العاب) يونانية ولاطينية بعد ترجمتها الى اللغة الدارجة ليفهمها العامّة وكانوا يلعبونها في تلك الملاعب من غير أن يترك فيها شيء من مظاهر تيارات الاقدمين وابهتها ورونقها ولم يكن الشعر خصوصا اشعار الحماسة واشعار ابطال الرجال يقال ويمارس مع الطلاوة والحسن مثل ما كان في ديوان فرارة فلا ينبغي أن ينسى من شعراء الحماسة بها بوياردو وكذلك أريوست وتاسه فان اسماءهما مخلدة كما أن ملح اشعارهما باقية مؤبدة

وكانت حماية الآداب موجودة ايضا في اوربين من طرف حكامها المونتفليترية وفي مانتوه من طرف الغونزاغية وفي ميلان من طرف الوسكونتية ثم السفورسية وفي بولونية من طرف الباتنتووغلية ولم يكن فونتات ميرندولة دون الامراء العظام في محبة الآداب ولا اقل من مشاهير العلماء في الشهرة بالادب كيف لا وتأليف القونتية يوحنا بك الادبية تكاد أن تكون جامعة لجميع انواع الانشاء وصناعة الكتابة وهو من اوّل من عارض في علم التنجيم وقال ببطلانه وهذا العلم مع كونه من الاباطيل والاوهام كان لخصوص تدريسه مقاعد ومدرّسون في مدرسة العلوم الجامعة ببولونية ومدرسة العلوم الجامعة في پادو اللتين كانتا اشهر مدارس ايطاليا وقدوة لغيرهما من المدارس

وليس من العجيب أن البابات لم يلتفتوا الى توسيع دائرة العلوم والآداب في مدة الفتن والاضطرابات التي كانت حاصلة بسبب تشيع طائفتين من النصارى وخروجهم عن الدين القاثوليقي ومع ذلك اشتغل بها بعضهم في هذه المدة حتى كأنه كان في زمن صلح تام واظهروا في ذلك ما دلّ على انهم من اشد حماتها واعظم المجازين لأهلها حتى انه في اواخر القرن الرابع عشر من الميلاد كان للبابا اينوسانت السادس واوربين الخامس واغرغوار الحادي عشر كاتب انشاء من العلماء خدمهم بهذه الوظيفة على التعاقب

وهو

وهو العالم كولكسيوسالوتاتو وخدم بهذه الوظيفة ايضا عند البابا اينوسانت السابع كل من بوغجيو بركسيوليني وليونردو داريزو وغيرهما ممن امتاز فى هذه الصناعة بالفضل والشهرة حتى ان هذا البابا فى اثناء مشاجرته وشدة نزاعه مع البابا الكاذب (اى المدعى لهذا المنصب) وهو بطرس دولونة خطر له أن يحيي مدرسة رومة الجامعة التى كانت كأنما خسف قمرها منذ مدة طويلة وعزم له أن يجعلها فى الرونق والبهجة اعظم مما كانت عليه قبل ذلك ولكن منعته المنية من تنجيز هذا الغرض وقد كان يرجى للعلوم أن تتقدم وتتسع دائرتها فى زمن البابا اسكندر الخامس لما انها كانت سببا فى ارتقائه وتقلده بهذا المنصب ولكن لم تطل مدته حتى يفعل فى شأنها مايدل على مكافأتها حيث لم يلبث فى المنصب الا سنة واحدة ومع أن البابا اوجين الرابع كان مشغولا بالفتن الحاصلة فى امر الدين فقد احب العلوم وقرب اليه مشاهير العلماء وجعلهم ملازمين له بالوظائف التى قلدهم بها ونجز الغرض الذى كان البابا اينوسانت السابع سعى فى تنجيزه بدون طائل وهو اعادة مدرسة العلوم الجامعة برومة ولم يكن من بابات القرن الخامس عشر احد مثل نيقولاس الخامس فى اكرام العلماء والاقبال عليهم وذلك انه فى الاصل كان ابن طبيب فقير من مدينة سرزانة وكان السبب فى ارتقائه الى المناصب العالية هو حرصه على التعلم ومطالعة الكتب العلمية وشهرته بالآداب حتى ارتقى من هذه المناصب الى منصب البابا فلما تقلد بهذا المنصب احضر الى ديوانه عددا لا يحصى كثرة من الناسخين والمترجمين الذين يترجمون الكتب اليونانية الى اللاطينية وبعث عدة من العلماء ليبحثوا عن الكتب المكتوبة بخط اليد فى سائر اجزاء ايطاليا وألمانيا وانكلترة وبلاد اليونان وبلاد المشرق ويشتروها على طرفه فترجم المترجمون الى اللاطينية مالا يحصى من الكتب اليونانية كمؤلفات هردوط وتوسيديده واكزنيفون وبوليبه وديودوردوسيسليا وقصيدة اوميروس المسماة ايلياده وجغرافية اسطرابونيس وايبيان الاسكندرانى وفيلون اليهودى

فكان ذلك اول مرة ترجمت فيها هذه الكتب واضيف الى ما كان يوجد هنالك من التاليف عدة مؤلفات لافلاطون وارسطو وثيوفراست وكان من هذا القبيل ايضا تاليف اباء الكنيسة ومعلمي علم الالهيات الذين كانوا في القرون الاولى من ظهور دين النصرانية فانهم ترجموا من اليونانية الى اللاطينية كتب اوزيبه القيسارى وديونيس الذى كان من اعضاء محكمة الاريوباج بمدينة اثينا وبازيل واغرغوار دونزيانزه ويوحنا كريزستوم وغيرهم وحصل اذ ذاك ايضا تعلم اللغات المشرقية مع الاجتهاد والرغبة وشرعوا كذلك في ترجمة الكتب المقدسة على الاسلوب العبراني وكانوا قد تركوا ترجمتها لموت البابا المذكور وبالجملة فيكفي في اعتبار نيقولاس الخامس ابا للعلوم والآداب أنه أسس كتبخانة وتيكان وجمع فيها من الكتب ما بلغت عدته خمسة آلاف مجلد في وقت كان فيه مثل هذا العدد يعد من العجائب وينتظم في سلك الغرائب وافخر من هذا واعظم بالنسبة اليه هو كونه ابا للفقراء والمساكين فان كثرة بذله وعطائه للعلماء لم تنسخ منه وصف السخاء والكرم بالنسبة لغيرهم فان الفقراء قاسموا هؤلاء العلماء في العطايا الجزيلة والانعامات الجليلة التي كان يبذلها هذا البابا الجواد ومن موت نيقولاس المذكور الى ظهور البابا ليون العاشر لم تجد لها العلوم في رومة محاميا ذا غيرة الا البابا پيه الثاني وانما كانت دولة العلوم اذ ذاك بفلورنسة

وذلك انه في اواخر القرن الرابع عشر من الميلاد كان يوحنا دومديسيس قد حاز اموالا جسيمة اكتسبها من التجارة واكتسب ايضا ببشاشته وملاطفته وسخائه محبة ابناء وطنه له ووثوقهم به واعتبارهم اياه فترقى بالتعاقب الى مناصب جمهورية فلورنسة كلها من غير أن يطلبها او يسعى في تحصيلها ولما تولى بعده ابنه البكرى المسمى كوسم ابقى لعائلته شوكتها ونفوذ كلمتها واوسع دائرتها وكان لها سندا وعضدا وقد سبق (في الدور الاول من هذا الكتاب) ذكر المصائب التي حلت به وذكرنا ايضا نفيه من بلاده ورجوعه وما ترتب

على ذلك من اتساع دائرة شوكته حتى صار له بذلك فى مدة حياته نوع من الرياسة العظمى وان كان بدون لقب وصار له ايضا على اهل وطنه شوكة وتصرف كاد يكون مطلقا وانما المحتاج الى ايراده هنا من احواله وسيرته هو أنه كان محاميا للعلوم والآداب والفنون المستظرفة فقد كان يحث عليها ويرغب فيها حتى فى مدة نفيه فانه امر المعمارجى الشهير المسمى ميشيلوزو ميشيلوزى وكان قد صحبه فى النفى أن يأخذ بالرسم صورة اظرف المبانى الموجودة بمدينة البندقية وامره ايضا آن يبنى ويزين على طرفه كتبخانة فى دير سنت جورجى ثم شحنها بالكتب النفيسة المكتوبة بخط اليد واراد بذلك أن يترك للبنادقة اثرا من آثاره ليكون علامة على شكره لصنيعهم حيث احسنوا قراه واكرموا نزله فى مدة نفيه عندهم ولما عاد الى وطنه ورآى أن شوكته قد تمكنت وأن الجمهورية صارت تتمتع بالأمن والراحة لم يجد مانعا من التفرغ بالكلية لمرغوباته العظيمة وكان من تلك المرغوبات استكشاف كتب الاقدمين وحيازتها وقد سهل عليه تحصيل هذا المرغوب الذى شفى به غليل تولعه كثرة امواله واتساع دائرة تجاراته فجمع مقدارا عظيما من الكتب العظيمة التى لا تدرك لها قيمة فى اللسان اليونانى والعبرانى والكلدانى والعربى والسريانى والهندى وصنع منها كتبخانة شهيرة زادت فيها ذريته من بعده زيادة بالغة لاسيما حفيده لورانت حتى صار لها شهرة عظيمة فى بلاد اوروبا ذات العلوم والمعارف وصارت تسمى فيها بالكتبخانة الميديسولورانتية (ومعناه المنسوبة الى لورانت دوميديسيس)

وكان اذ ذاك بمدينة فلورنسة رجل آخر يقال له نيقولو نيقولى استعمل امواله فى مثل ذلك فقد بلغ عدد الكتب التى جمعها ثمانمائة مجلد ما بين يونانى ولاطينى ومشرقى وهو مقدار جسيم بالنسبة الى ذلك العصر واوصى عند موته بأن هذه الكتب تجعل كتبخانة عامة اى خزانة كتب ينتفع بها عموم الناس وتكون تحت نظارة ستة عشر ناظرا وكان من جملة هؤلاء النظار كوسم دوميديسيس وكان نيقولو المذكور قد مات وعليه ديون كثيرة

فالتزم كوسم هذا بقضائها على أن يكون له التصرّف فى الكتب وحده ثم نقلها الى دير كان قد بناه وزخرفه بابهج الزخارف وسماه دير دوميكان سنت مرق لينتفع بها اهل وطنه

وممن امتاز بين العلماء الذين بذلوا وسعهم باعانة كوسم دوميديسيس فى البحث عن الكتب المكتوبة بخط اليد ثلاثة رجال وهم بوغجيو بركسيوليني وغوارينودوويرونة ويوحنا اورسبا فاما بوغجيو فانه عثر فى دورة فرانسا وألمانيا على مؤلفات كنتليان وبلوته بتمامها ولم يكن عندهم منها قبل ذلك الا البعض وعثر ايضا على الكتب الثلاثة الاولى من تأليف والريوس فلاكوس وعلى عدة خطب من خطب قيقرون وعلى تأليف كاوميل وقصيدة لوكريس وقصائد ايستاس وسليوس ايتاليكوس ثم ارتحل من ألمانيا الى انكلترة وارسل منها الى ايطاليا قصائد فى شأن الرعاة تظيم كالفورنيوس وبعث اليها ايضا بعض مؤلفات بترونه واما غوارينو ويوحنا اورسبا فانهما قصدا جهة اخرى فطافا مدينة القسطنطينية وغيرها من مدن المشرق ولم يضع تعبهما فى البحث سدى بل جمعا مقدارا عظيما من الكتب النفيسة غير أن غوارينو انكسرت به السفينة وهو راجع الى ايطاليا فغرق ما كان معه من الكنوز الادبية التى كان قد استصحبها فى عوده الى هذه المملكة وادركه من ذلك غم شديد وحزن عظيم واما اورسبا فكان اوفر حظا منه فانه وصل الى مدينة البندقية ومعه مائتان وثمانية وثلاثون كتابا من جملتها جميع مؤلفات افلاطون وبروكلوس وبلوتين ولوسيان واكزينفون وتواريخ أريان وديون وديودوردوسيسليا وجغرافية اسطرابونيس وقصائد كليمالك وبندار وأبيان والقصائد المنسوبة الى اورفة

ولما انقرضت ايمبراطورية المشرق بفتوحات الدولة العثمانية سنة ١٤٥٣ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٥٧ من الهجرة) هاجر عدة من علماء القسطنطينية الى ايطاليا وقصدوا ملجأ فى وطن العائلة الميديسيسية

لما بلغهم

لما بلغهم اذ ذاك ما كان حاصلا فى فلورنسة من اكرام معلمى اللغة اليونانية
وما كان مشهورا عند الخاص والعام من اعتناء كوسم دوميدبسيس
بشأن العلوم والآداب وسعيه فى تقدمها وتوسيع دائرتها فوجدوا بفلورنسة
اكرم نزل واحسن قرى وكان اشهر هؤلاء العلماء دمتريوس شلكونديل
ويوحنا أرجيرو بيل وأندرونيكوس كالستوس وقسطنطين
ويوحنا الاسكاريس وكانوا كلهم متمذهبين فى الفلسفة بمذهب افلاطون
وكان قد احيى هذا المذهب بايطاليا مرسيل فيسين حيث ترجم
مؤلفات افلاطون صاحب المذهب المذكور وكان مرسيل هذا من
طائفة الرهبان المعروفة بالطائفة القانونية بفلورنسة وكان قد اغدق عليه
كوسم بالانعامات الجزيلة فلما وصل هؤلاء العلماء الاجانب الى فلورنسة
تقوى فيها ذلك المذهب الافلاطونى زيادة عن قوته الاولية حتى صار بواسطة
اشتغالهم به على حالة بحيث يمكنه أن ينازع مذهب ارسطو فى الظهور
والسلطنة

ثم ان كوسم وان كان لا يعرف التكلف ولا امور الرفاهية فى عيشته المنزلية
بل كان سالكا فى امور منزله مسلك التقشف وعدم التكلف الا انه كان له
المظهر العظيم والرونق الفخيم فى بناء المبانى العامة العديدة التى زين بها
فلورنسة كيف لا وقد استعمل فى بنائها اصالة كلا من ميشلوز وميشلوزى
وفيليبش برونلسكى وكانا من انجب المعمارجية وامهرهم حتى ان الثانى
غير وبدل فى فنه وصنعته بل الاولى أن يقال انه اعاد ذلك الى اصول الظرافة
الحقيقية حيث ابدل صورة العمارة الغوطية باشكال العمارة القديمة اليونانية
ويكفى أن يقال فى مدحه انه هو الذى شيد القبة الفاخرة التى على كنيسة
فلورنسة الكبرى وفى هذا الوقت سبك غيبرتى من معدن الشبه
او الشبهان (وهو بالتحريك النحاس الاصفر) ابواب كنيسة سنت جان
(اى المار يوحنا) التى قال فيها ميخائيل أنج انها جديرة أن تكون ابواب
الجنان وكان هناك رجل ماهر فى فن النقر والنحاتة فكان يصنع من الرخام

بمنقاره (وهي الحديدة التي ينقر بها) اشكالا ظريفة كانت قد تركت من عهد
القدماء وكان كل من مساكسيو وفيليبش ليبي بمكان من فن الرسم فكانا
يكسبان القماش بأقلام رسمهما بهجة ظاهرة وحسنا بينا لا يوجد نظيره
في نموذجات غيدودوسيانا وسيمابو وجيوتو

ولما مات كوسم سنة ١٤٦٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٨٦٩
من الهجرة) كافأه ابناء وطنه على حسن صنيعه معهم بكونهم كنوه
بابي الوطن ورسموا هذه الكنية على قبره وقد ورث عنه ابنه بطرس محبة
العلماء واصحاب المعارف ولكن منعه من مساواة ابيه في الفخر ما كان قائما به
من الاسقام وقصر ايام حكمه فلما ظهر لورانت لومانيفيك اى الظريف
الذي هو حفيد هذا الرجل العظيم (يعني كوسم) حاز من الفخار ما فاق على
فخار جده كيف لا وقد كان اسعد الاوقات عنده هي الاوقات التي كان يصرفها
في مجالسة مشاهير العلماء الذين كانوا يجتمعون في سرايته بمدينة فلورنسة
او يصحبونه في بيوت منتزهاته التي كانت له في فيزوله وكارغجي وكفجيولو
ومن اعظم الدلائل على اعتنائه بشأن العلوم احياؤه لأكدمة بيزة
سنة ١٤٧٢ ميلادية (اى نحو سنة ٨٧٧ هجرية) وكانت
قد طرحت في زوايا النسيان بعد أن حازت من الشهرة ما تستحقه ومكثت
على ذلك ما ينيف على قرنين ولما كان من صغره قد نشأ على التمسك باصول
فلسفة افلاطون عزم على أن يجدد الموسم الذي كان يعمل لافلاطون
في كل سنة تشريفا لقدره وتعظيما لذكره وصمم على أن يعيده على وجه اتم
في الفخار واكمل وكان هذا الموسم لم يزل يعمل من بعد موت هذا الفيلسوف
العظيم الى أن ظهر بلوتين وپورفير وكانا من اتباع مذهبه فتعطل
من ذلك الوقت مدة تبلغ ألفا ومائتي سنة وبترتيب هذا الموسم الذي مكث
عدة سنين بقي اعتبار فلسفة افلاطون واشتهرت شهرة عظيمة حتى ان
اصحاب دراستها كانوا عند الناس اعظم احتراما واكثر معرفة من ابناء عصرهم
وكان التعليم في مدينة بيزة يكاد أن يكون مقصورا على اللسان اللاطيني

بخلاف

بخلاف فلورنسة فان اللغة اليونانية فيها انتشرت بهمة لورانت وصار يتعلمها عموم الناس وكان معلموها اما يونانيين اصليين او علماء ايطاليين يضاهونهم في المعارف حتى تخرج في هذه المدرسة من الافاضل ما يصح أن يشبه بالفرسان الذين خرجوا من فرس تروادة كما هي عبارة هؤلاء العلماء (وبيان ذلك كما في كتب الميثولوجيا أن اليونان لما سئموا من طول محاصرة تروادة استعانوا على فتحها بمكيدة حربية فصنعوا من اغصان اشجار التنوب صورة فرس هائلة كالجبل واحكموا اصناعتها واشاعوا أن هذه الصورة قربان لبعض الآلهة عسى أن يعودوا الى اوطانهم عودة حميدة ثم اختاروا بالقرعة جماعة من عساكرهم لتدخل في جوف هذه الفرس فلما استقروا في جوفها ورآى اهل تروادة هذه الصورة الهائلة تحت سور مدينتهم ارادوا أن يدخلوها في المدينة ويضعوها في قلعتها فهدموا جزأ من السور وادخلوا تلك الصورة المشؤومة ووضعوها على باب هيكل معبودهم المسمى منيروة فلما اقبل الليل واستغرق اهل المدينة في النوم خرج اليونان من جوف الفرس واضرموا النار في المدينة) فان هؤلاء الافاضل خرجوا ايضا من المدرسة المذكورة ونشروا اللسان اليوناني في ايطاليا وفرانسا وألمانيا واسبانيا وانكلترة واول من علم في هذه المدرسة من المدرسين هو الشهير يوحنا ارجيروبيل ثم خلفه جماعة افاضل وهم تيودور الغزي ودمتريوس شالكونديل وأنج بولتيان وغيرهم

ولم تكن العلوم والفنون في هذا العصر دون الادبيات المستظرفة في التقدم كيف لا وفي العصر المذكور رفع بواس توسكانلي لاجل تعيين الانقلابين ميله الذي هو في الواقع ونفس الامر اعظم آلة فلكية وجدت في الدنيا وهذا العالم هو الذي حرر الزيجات الالفونسية (وهي تقاويم فلكية جمعها ألفونس العاشر) وحرر ايضا تقاويم العرب وعمل ارصادا عجيبة تتعلق بحركة الشمس والقمر والنجوم واستصوب مقاصد كرستف كلمب حين عرضها هذا الملاح عليه وفي هذا العصر ايضا صنع لورنزودو ولبايا للورانت

دوميديسيس ساعة بل آلة بديعة التركيب محكمة الصناعة يعرف بها زيادة
عن معرفة الساعات حركات الشمس والكواكب السيارة ويعرف بها ايضا
الكسوف والبروج وجميع التقلبات السماوية وسعى فرنسيسكو برلنجييرى
سعيا جيدا حيث قصد تسهيل مطالعة الجغرافية فألف فيها كتابا منظوما
وفي العصر المذكور ظهرت عدة رسائل فيما فوق الطبيعيات اهدى مؤلفوها
منها البعض للورانت دوميديسيس وقد شهد مهرة مدرسى الطب في ذلك
العصر بأن علم الطب انما تقدم واتسعت دائرته في عصرهم بهمة لورانت
المذكور واعتنائه بشأنه وأنه لم يتساهل قط فيما يبلغ به هذا العلم درجة الكمال
في اقرب وقت وانه لم يهمل فيما يكون به تهذيبه وتخليصه من الاوهام الباطلة
التي كان مشحونا بها وفي ذلك العصر ايضا فاق أنتونيواسكرسيالابيس
جميع اسلافه في الموسيقى علما وعملا حتى قيل ان لورانت مدحه
على ذلك بقصيدة

وقد جمع دوناتيلو باجتهاده ومهارته مقدارا اعظيما من الآثار القديمة واعانه
على ذلك كوسم دوميديسيس بجوده وجزيل انعامه ولما مات كوسم
المذكور ورث هذه الآثار عنه ابنه بطرس وزاد فيها زيادة عظيمة
فلما مات بطرس ايضا ورثها عنه ابنه لورانت وهي الآن تعرف باسم
موزوم فلورانتنوم وقد خصص لورانت مبالغ جسيمة من الاموال
اعدها لتوسيع هذه الآثار والزيادة فيها كما صنع ابوه من قبله بما ليعز وجوده
من القطع النفيسة وجعل تلك الآثار واسطة في ترغيب ابناء وطنه وحثهم
على التشبث بالفنون والصنائع وانشأ في بساتينه المتصلة بدير سنت مرق
مدرسة اوأكدمة لاجل مشاهدة الانتيكات اى الآثار القديمة ومعرفتها
ووضع فيها تماثيل وجعلها صورا على هيئة الانصاف العليا من الابدان
واشياء اخرى من الآثار القديمة ورتب لكل من امتاز من الشبان في حرفته
بين الاقران جزاء ومكافأة على اشغاله فكان ذلك هو السبب الاصلي في سرعة
تقدم الفنون والصنائع بفلورنسة على وجه عجيب في اواخر القرن

الخامس

الخامس عشر من الميلاد ثم انتشرت من فلورنسة بالتوالى فى سائر بلاد اوروبا وقد تخرج بمدرسة بساتين لورانت المذكورة اغلب اصحاب البراعة والقرائح الجيدة من رجال ذلك العصر ولو فرضنا أنه لم يتخرج بها الا ميخاييل أنج بوناروتى كان ذلك كافيا فى الوفاء بغرض مؤسسها فان هذا الرجل الماهر الذى كان جامعا بين فنون الرسم والنقارة والعمارة تعلم اصول هذه الفنون فى تلك المدرسة ثم زادها حسنا وبهجة بأعماله الباقية على ممر الازمان

ومما يدل على سلامة ذوق لورانت وصحة تمييزه ما زين به فلورنسة من المبانى العديدة الخصوصية والعمومية وبالجملة فهو الذى احيى فن النقش على الاحجار النفيسة وفن الرسم والتصوير بقطع الاحجار المتناسبة المختلفة اللون بتوفيقها مع بعضها حتى يتركب من مجموعها صورة من الصور وقد كان قبله هذا الفن مهجورا مدة القرون الوسطى وحاول احياءه بعض الرسامين من المتأخرين فلم يخرج من ذلك على طائل

ولما مات لورانت انكسفت بعده شمس الآداب بفلورنسة مدة من الزمان وذلك أن الفلورنسية لما طردوا ابنه بطرس نهبت العامة الذين كان قد تمكن منهم الغضب والحدة سراية المديسيسية وكتبخانتهم ومحقوا وفرقوا فى يوم واحد جميع ما جمعه لورانت واسلافه بأموالهم ومجهوداتهم فى ظرف خمسين سنة ولكن لما عاد المديسيسية الى منصبهم سنة ١٥١٢ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩١٨ من الهجرة) جبروا بعض هذه الخسارات وفى السنة التى بعدها حصل لعائلتهم مظهر جديد ازداد به رونقهم وذلك بارتقاء يوحنا دوميديسيس الى كرسى البابا فانه تولى هذا المنصب وسمى ليون العاشر

وكانت الآداب قد اضمحلت ايضا فى رومة من عهد البابا بيه الثانى ولاسيما فى ايام البابا اسكندر السادس ويولس الثانى فلما قام يوحنا دوميديسيس بوظيفة الكردينالية فى هذه المدينة التى هى كرسى الملة المسيحية اخذ يعيد اليها

الرغبة فى الآداب والفنون فما كان من الرسامين والنقارين والمعمارجية الماهرين الذين كانوا وقتئذ بتلك المدينة الا انهم استحسنوا رأيه ورغبوا فى الفنون مثله وصار يجتمع حوله العلماء والادباء والشعراء ويفتح لهم سرايته وخزانة كتبه فلما تولى بابا اراد أن مكاتيبه وفرماناته لا تكتب باللسان اللاطينى المستعمل فى ديوان القنجليير (ديوان افندى) وانما تكتب باللاطينى الذى كان يستعمله قيقرون وعين لكتابة الانشاء عنده كلا من سادوليت وبمبو لأنهما فاقا اهل عصرهما فى الكتابة بهذا اللسان من حيث البلاغة وتنقيح العبارة

وكان لم يبق بروما من الاحداثات التى تجددت بها لاجل تعليم العلوم الا الجناز اى مدرسة رومة الجامعة التى احدثها البابا اوجين الرابع وكانت قد اضمحلت بالتدريج فى ايام البابات الذين تولوا بعده حتى ظهر ليون العاشر فكانت بالنسبة اليه من اعظم الامور التى اعتنى بشأنها وشمر لاجلها عن ساعد الجد والاجتهاد فلأجل تعميرها اعاد للطلبة ما كان لهم من المزايا وجعل فيها من المعلمين ما يبلغ تقريبا مائة معلم حتى تكون حاوية لجميع انواع المعارف وكانوا كلهم محكمين بجوامك جسيمة واهتم كثيرا بتعليم اللسان الذى كان يستعمله دومستين اليونانى واصحابه وكان ممن اتى الى بلاد اوروبا من اليونان الذين نقلوا اليها كنوز لغتهم ومعارفهم يوحنا السكاريس وكان لم يزل موجودا الى ذلك العصر وكان ممن ادخلهم لورانت دوميديسيس تحت كنفه ورعايته وبعثه الى بلاد المشرق ليجمع منها الكتب القديمة ولما مات لورانت صحب الملك كرلوس الثامن الى فرانسا وكان من تلامذته فيها بوده ثم انتقل منها الى مدينة البندقية فلما تولى ليون العاشر دعاه الى رومة وجعله فيها مديرا على الاكدمة التى انشأها لتعليم الادب اليونانى وملاحظا على المطبعة التى خصصها لطبع ملح هذا الفن وقد زاد ليون العاشر فى كتبخانة وتيكان التى انشأها البابا نيقولاس الخامس واشترى البقايا المشتتة التى بقيت من الكتبخانة التى اسسها آباؤه فى فلورنسة

واعتنوا

واعتنوا بشأنها ونقلها الى رومة ثم اعيدت الى فلورنسة فى ايام البابا كليمان السابع وقد نحى ليون نحو كوسم الاول ولورانت فى الترغيب والحث على البحث عن كتب آسيا فكان تعليم اللسان الكلدانى والعبرانى والسريانى مصاحبا لتعليم اليونانى واللاطينى

ومن كان فى ايطاليا من مشاهير الادباء والشعراء والخطباء وبلغاء علماء الكتاب كانوا جميعا فى ديوان البابا ليون العاشر فكانت تشرق بهذا الديوان شمس آداب كل من الشاعر تيبالدو والشاعر برناردأ كواتى الذى كان يلقب بفريد عصره وقد كافأه البابا على معارفه بدوقية نبى وكذلك اريوست الذى كان لا نظير له وبرنى ومورو وهم الذين اخترعوا الاهاجى الايطاليانية وغيرها وفى ذلك الديوان ايضا شرح كل من توموس وپونپوناس وپيك دولا ميرندوله فلسفة الاقدمين وفيه ايضا كان كل من پونتانوس وسليو كلكنينى وماتيول يطالع العلوم الطبيعية وكذلك ابرز فيه القوتة بلتزار كستجليونى وماتوبوسو رسائل فى الحكم والآداب وفيه ألف فيليش دونرلى وپاكس نردى ومشياويل وغيشاردين وپولس يووه تاريخ بلادهم

ولم تكن الفنون فى الحظوة عند ليون العاشر دون الآداب فانه كان له مزيد تولع بالموسيقى بل كان يمارسها بنفسه الا أنه كان يؤثر فنون الرسم والنقارة والعمارة على غيرها بالترغيب فيها بالعطاء الجزيل الذى ربما صح عده من الاسراف والتبذير فكان مواظبا مع الهمة والمصاريف الجمة على تتميم بناء كنيسة سنت بطرس التى كان شرع فى بنائها سلفه وكان الذى اختطها هو برامنت الا أن الموت منعه عن مباشرة انشائها وكذلك تلقى هذا البابا بالقبول والاكرام ميخاييل أنج وناطه ببناء كنيسة فى فلورنسة سماها كنيسة سنت لورانت واستخدم عنده أندريه ديل سرتو وليونارد دووينسى وفى ايامه نقش رفاييل جدران الوتيكان (اى ديوان رومة) وقد نشر هذه النقوش الظريفة مرق أنتونيوز يموندى باخذ صورتها على النحاس

وهذا الفن (يعني النقش على النحاس) اخترعه توماز وفنيجيرا سنة ١٤٦٠ ميلادية (اى نحو سنة ٨٦٥ هجرية) وكان توماز وهذا صائغا من فلورنسة وقد بلغ هذا الفن درجة الكمال من زمن رفايل المذكور

وفي ايام ادريان السادس حصل للآداب والفنون اضطراب وانزعاج وقتي وذلك أن هذا البابا كان مولودا في فلندرة ونشأ من صغره على ممارسة دقائق علم الالهيات وكان اجنبيا من ايطاليا ولم يكن راها قبل الولاية اصلا فنظره الرومانيون بعد ليون العاشر اللطيف المحبوب فاذا هو بالنسبة اليه متوحش خشن ولكنه لم تطل مدة ولايته فانه لم يمكث الا اشهرا قلائل فلما تولى بعده كليمان السابع وكان من اقارب ليون العاشر ازال الانزعاج عن الآداب والفنون وابدى ما دل على انه لها ظهير ونصير حيث اعاد في اوائل ولايته لاكدمة رومة ما كان لها من البهجة والرونق القديم غير أن النهب الذي حصل في هذه المدينة سنة ١٥٢٧ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٤ من الهجرة) اضر بها كل الاضرار وبدد شمل اهلها وبهذه المصيبة اندثر جميع ما رتبه البابات في رومة من الاشياء النافعة بالنسبة للآداب ومكثت على اندثارها مدة طويلة

وفي مدة ما كانت شموس الآداب والفنون آخذة في الانكساف بمدينة رومة كانت تشرق اضواؤها بفلورنسة في عهد المديسيسة الذين صاروا امراء هذه الجمهورية وكانوا اولاهم وجوه اهلها واعيانهم ففي هذا الزمن صار كل من الدوق كوسم الاول وخليفتيه فرنسيس وفردينند معادلا في البذل والسخاء للورانت لومانيفيك وكوسم الاكبر حتى انهم في ظرف ثمانين سنة تقريبا جعلوا مدينة فلورنسة تعادل مدينة اثينا (مدينة حكماء اليونان)

واما غيرها من دول ايطاليا فلحقت فيها تقلبات الدهر وصروفه الآداب والعلوم مدة القرن السادس عشر من الميلاد وذلك انه بعد اجلاء الدولة

الاراغونية

الاراغونيــة وانقراض العائلة السفورسيــة اضمحلت الآداب في نابلي ودوقية ميــلان وان كان بعض العمــال الاسـبانيولية لقصد حمايتها فيها جبر خلل ما كان من غيره من كراهتها او عـدم الاعتناء بشأنهــا لكن كان جبره لهذا الخلل على وجه ضعيف هين وانمــا بقيت على زهرتها في فرارة على عهد هرقول الثــاني وازداد رونقها على عهد ألفونس الثــاني الذي احسن ملاقاة الشــاعر تاسه واكرم نزله في ديوانه وعظمت بهجتها اكثر من ذلك في مانتو على عهد المركي فردريق وجاها دوقات اوربين وكذلك دوقات سابوة فانهم مع ما حل بهم من النكبات والمصائب كان لهـم نصيب وحـظ فيما ادخله المديسيسية في ايطاليــا واسـتغرق فيهــا مدة القرن السادس عشر من تقديم الآداب والعلوم والاعتناء بشأنها وتوسيع دائرتهــا على وجه عظيم ومنهج قويم

﴿الباب الثــالث﴾

في الكلام على ألمانيا وعلى المذهب اللوثرياني اى مذهب لوتير من سـنة ١٥١٧ الى سـنة ١٥٦٤ من الميــلاد (وذلك من سـنة ٩٢٣ الى سنة ٩٧٢ من الهجرة تقريبا)

﴿الفصل الاول﴾

في الكلام على اصــل المذهب اللوثرياني الى ظهور مذهب الانابابتيست (اى المذهب القائل بأن التعميد لا يصح الا في سـن التمييز) (وذلك من سـنة ١٥١٧ الى سـنة ١٥٢٥ من الميلاد (اى من سـنة ٩٢٣ الى سـنة ٩٣٢ من الهجرة تقريبا)

قال بوسويت كان قد مضى عدة قرون والناس يرغبون في تهذيب القوانين القسيسية فقد قال سنت برنارد اني لأتمنى أن ارى قبل موتي كنيسة الله على الحالة التي كانت عليها في الصدر الاول وقد ازداد الخلل في امر الكنيسة بعد هـذا القديس فان كنيسة رومة مع كونها ام الكنائس واول من حمل القوانين القسيـسية مع التدقيق وعـدم التساهل بحيث كانت اسوة في ذلك

لغيرها ومكثت على هذه الحالة تسعة قرون كاملة وجعلت تلك القوانين معمولا بها ومحافظا عليها فى سائر الاماكن لم تكن خالية عن الاختلال وسقامة الحال حتى انه من زمن مجمع ويانة (بج) تعين من طرف البابا واحد من كبار الاساقفة لتجهيز المواد التى يتذاكر فيها بهذا المجمع فجعل اساس اعمال المجمع المذكور هو تهذيب حال الكنيسة واصلاح شأنها من حيث رئيسها واعضاؤها (وهم البابا والقسوس) ولما ظهر الافتراق الدينى بعد ذلك بقليل كثر اللغط فى هذا الامر عند خواص الاحبار وامثال جرسون وبطرس دبلى وغيرهما من عظماء رجال هذا العصر بل وكثر فيه القال والقيل ايضا فى المجامع القسيسية وانتشر جدا فى مجمع بيزة ومجمع قينسطنس انتهى وقد شدد ايضا فى طلب التهذيب والاصلاح اكثر من ذلك بمجمع باله ولكن لسوء الحظ حصل فيه روغان ومماطلة غير أن هذا الاصلاح الذى كان مرغوبا للامم والاحبار والاساقفة كان مخصوصا بتنظيم امر القوانين القسيسية دون العقيدة الدينية حيث لم يكن الغرض منه الا جبر الخلل لا التعرض لاصول الدين فكانما كان اهله يريدون ترميم مبنى قديم عظيم لا هدمه من اساسه وبالجملة فلو جرى هذا الاصلاح بالتدريج والهدء على يد ولاة الامور ارباب الشوكة الحقيقية لانعقدت به روابط الاخوة بين ابناء النصرانية على وجه متين وثيق ولكن لما أجراه اناس يميلون الى التكدير والتفاقم والكبر والانفة مع الشدة والسرعة وكانوا اعداء لولاة الامور وذلك من علامات الافتراق فى الدين والخروج والحروب انقطعت به روابط الوصلة والالتئام بين ابناء النصرانية وتولدت به بينهم اصول اخرى للبغضاء والعداوة حتى ان الرخصة فى التدين باى دين كان من الاديان مع كونها صارت عند جميع الملل من القوانين المعمول بها لم ينقطع بها عرق تلك الاصول بل ما زال متناشئ الى الآن مع تداول الاعصار والازمان

ولما كان البابا بواس الثانى له مقاصد عظيمة بقدر ما كان فيه من علو الهمة والثبات رأى أن اعظم هيكل فى الدنيا يلزم أن يكون فى قاعدة الملة

النصرانية

النصرانية (يعنى مدينة رومة) فشرع فى بناء كنيسة مارى بطرس الشهيرة ولما مات وخلفه ليون العاشر سنة ١٥١٣ ميلادية (اى نحو سنة ٩١٩ هجرية) استمر على هذه العمارة الفاخرة وكان اذ ذاك السلطان سليم الاول قد استولى على مصر واراد فتح ايطاليا فنشر البابا امرا بقتاله والذب عن اهل الصليب وكانت خزينته وقتئذ قد نفدت اموالها فاستعان على هذا المشروع ببيع الغفران وتكفير السيآت واصل ذلك أن العقيدة القاثوليقية هى أن نوافل الصالحين وتطوعاتهم الزائدة عن الفرائض والواجبات التى بأدائها ينجون من أليم العقاب اذا انضمت الى المكافآت الغير المتناهية التى يستحقها المسيح (عليه السلام) يمكن أن تنال المذنب النادم فيحط بها بعض اوزاره ويرفع عنه بعض ما كان يستحقه من العقوبات فى الدنيا والآخرة ومن عقيدة القاثوليقيين ايضا أن الذى يتولى توزيع هذه الخيرات الزائدة التى هى عبارة عن كنز الغفران وتكفير السيآت هم الاحبار لاسيما البابات ولكن لا يجوز لهم قطعا أن يتخذوا وظيفة تكفير السيآت تجارة لهم ومع هذا المنع الذى حكم به مجمع لطران ومجمع ويانة ومجمع قنسطنس وجدده بعد ذلك مجمع ترنته رأى ليون العاشر أن كلا من اقتدائه بأسلافه فى بيع الغفران واخذ الكفارات وعظم الاسباب التى استند اليها فى ذلك وهى بناء هيكل الله وحماية ايطاليا من الاسلام يرخص له فى البيع المذكور فناط ألبيرت الذى هو منتخب ميانسه (بفتح الخاء) أن يشيع ذلك فى ألمانيا ويرغب اهلها فى دفع الكفارات وجعل له جزأ مما يتحصل منها وامر يوحنا تتزيل أن يعظ اهل سكس ويحثهم على دفعها ايضا وكان يوحنا المذكور من طائفة الرهبان الدومينيكية (وهم رهبان عبد الاحد) فاشرك معه فى هذه الوظيفة جماعة من رهبان طائفته فنجحوا فى مبدأ الامر نجاحا عظيما غير أن بعض هؤلاء الرهبان لقبح سلوكهم اضروا بالحبر الاعظم (يعنى البابا) وبالكفارات بل وبالكنيسة نفسها فانهم انفقوا ما جبوه من الكفارات التى دفعها لهم متدينو النصارى بقصد تكفير سيآتهم فى اللذات والشهوات

الذمية

وكان رهبان اغسطوس قد تولوا قبل ذلك غير مرة تكفير السيآت وجباية الكفارات فتأثروا كل التأثر لما رأوا أن وظيفتهم انتقلت الى رهبان عبد الاحد الذين هم اخصامهم واستندوا فى غيرتهم منهم الى ما حصل من اللغط والتشكى فى حق هؤلاء الاخصام من الافراط ومجاوزة الحدود وقام وكيلهم العمومى فى ألمانيا المسمى يوحنا استوبتز وطعن فى الدومينيكية من حيث سلوكهم فى جبى الكفارات ولم يتعرض للطعن فى الغفران ولا بيعه وكان منتخب سكس (بفتح الخاء) المسمى فردريق لوساج قد ناط يوحنا المذكور بادارة مدرسة العلوم الجامعة المستجدة بمدينة ويتنبرغ فشحنها برهبان طائفته الذين هم رهبان اغسطوس وكان قد امتاز من بين هؤلاء الرهبان واشتهر بين خوجات تلك المدرسة مرتين لوتير فناطه استوبتز ان يؤلف كتابا يشنع فيه على رهبان عبد الاحد ولم يكن ثم من يصلح للبروز فى هذا المجال ومقارعة الاقران فى ميدان الجدال الا لوتير المذكور فقد قال فى حقه بوسويت انه لما رأى من يعضده ويستصوب رأيه حتى صار له هيبة ووقع فى قلوب مستمعيه قويت قريحته واستعمل فى كلامه الحماسة والفصاحة والبلاغة التى اخذت بألباب الامم واستولت على عقول الناس وصار فيه جسارة غريبة وجراءة عجيبة انتهى وقد قرأ يوم عيد القديسين سنة ١٥١٧ من الميلاد) فى صلاة العشى خمسا وتسعين قضية تتعلق بالغفران وتكفير السيآت ثم ألصقها على باب كنيسة ويتنبرغ الكبرى فكان ذلك اول فعلة فعلها بقصد الشر والمعاداة ومع ذلك كان يعرض آراءه على صورة المتشكك الغير الجازم ويعترف بالانقياد الى البابا ويقسم على ذلك فلا ينبغى أن يظن به انه قصد بذلك ابطال الكنيسة الرومانية وانما كان دائما يتبع مقتضيات الاحوال فنزل هذا الميدان من غير أن يكون له غرض معين يخصه بالرمى وافضت به مشاجرة الرهبان الى أن امسك القلم بالبنان وحملته الانفة ومقتضيات الاحوال على تتميم ما بقى من اعمال الجدال

فعند

فعند ذلك وقع الالتحام فى مقام الجدال وذلك انه لم تمض على لوتير الامدة يسيرة حتى برز لنزاله اخصام ذوو غيرة وحمية شديدة فان تتزيل عارضه بمائة وعشر قضايا ردّ بها على قضاياه وألصقها على جدران مدينة فرنكفورت سورلودير واحرق تآليفه فعند ذلك انتقم منه اصحاب لوتير بمثل مافعل فانهم جمعوا من نسخ قضاياه التى ردّ بها على صاحبهم ثمانمائة نسخة واحرقوها فكتب بعض احبار القاثوليقية ماردّ به على لوتير فبادر باجابته واسرع الى معارضته وخلى بين نفسه وحميته الطبيعية فاغلظ فى القول حيث قال فى جوابه ان ما كتبه هؤلاء الاحبار ليس الامن املاء الشيطان وان البابا والكردينالات اذا ايدوا اصولهم وعضدوا قواعدهم لم تكن رومة الامأوى للمسيح الدجال وهكذا كان تعمقه فى الردّ على الخصم كلما احتدّ على الكنيسة وتوغل فى امر المشاجرة والافتراق الدينى وصار الجدال كل يوم يتسع ويشتدّ حتى ان رهبان عبد الاحد رفعوا امرهم الى البابا ليون العاشر وقد كان يمكن هذا البابا أن يقطع عرق النزاع بالزام الفريقين بالسكوت والامساك عن الجدال واحضار تتزيل عنده كما كان يمكنه لوأراد عقاب لوتير أن يبادر بالحكم عليه ويجرى عقوبته فورا ولكنه كان مشغولا بامور اخرى غير مكترث بهذا الراهب الالمانى (يعنى لوتير) فترك فى مبدأ الامر الجدال ولم يتعرض للنهى عنه وماذاك الالكونه كان له فى جميع دول اوروبا اعتبار عظيم فكان جلساؤه من المشاهير الافاضل وكان نوابه فى الممالك بهذه المثابة ايضا وكان ملوك ابناء النصرانية يتسابقون الى تعظيمه بابداء شعائر الانقياد والامتثال واظهار دلائل الاحترام والاعتبار حتى ان لوتير نفسه سلك فى كتابته اليه مسلك الخضوع والاذعان فلا غرو أن هذا البابا الذى كان لهذه الاسباب العديدة على غاية من الأمن والاطمئنان لم يلتفت الى سلوك راهب خامل منزو فى اقصى بلاد ألمانيا امدّ بقلمه الخشنى جدالا نشأ فى المدارس ولم يدرك ماترتب على هذا الجدال من العواقب التى كانت لاتخطر ببال لوتير نفسه

هذا وقد اخذ التأليف فى هذا المعنى يتسع ويتكاثر واخذت التصورات فى السريان والانتشار وتوقدت العقول وصار للوتير اصحاب واحزاب فتيقظ ديوان رومة لما تقدم مذهب لوتير وانتشر رأيه فى ألمانيا لاسيما فى سكس حيث كان بها المنتخب فردريق مستعدا للتمسك به وتيقظ ايضا من الحاح الدومينيكية اى رهبان عبد الاحد وكذلك من الحاح الايمبراطور مكسمليان فصدر عن ليون العاشر امر باحضار لوتير الى ديوان رومة فى ظرف ستين يوما ليجيب فيه عما رمى به من الهرطقة اى الاعتزال والتشيع ولكن بوصية فردريق منتخب سكس واهل مدرسة ويتنبرغ نال لوتير أن تقام دعواه بالمانيا (سنة ١٥١٨ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٢٤ من الهجرة) فذهب الى الكردينال كاجيتال نائب البابا بمدينة اوجسبورغ بعد أن اخذ من الايمبراطور تذكرة طريق لاجل الامن فجادل هذا الكردينال المنوط بفصل دعواه وعارضه وصادم ما ابداه له من الترغيب والترهيب ثم فر خفية الى ويتنبرغ مظهرا الخوف من القبض عليه اولخوفه من ذلك حقيقة بعد أن الصق على الحائط ليلا ورقة مضمونها ان البابا الجاهل بالحقيقة طلب البابا العالم بها وبالجملة فلما كان واثقا بحماية منتخب سكس مع أن نائب البابا كان يشدد على هذا المنتخب أن يتخلى عن حماية هذا المتشيع الذى ستصيبه صواعق الكنيسة (يعنى الطرد والحرمان) صار لا يجيب طلبا ولا يقبل فى ذلك صرفا ولا عدلا بل طلب أن لا يفصل البابا هذه القضية وانما تعقد لاجلها جمعية قسيسية عامة (سنة ١٥١٩ ميلادية) ومع اظهار هذا العصيان والاعلان بالخروج عن طاعة البابا امسك ليون العاشر طائرا لحرمان أن يقع على هذا الراهب العاصى وقد كان يحوم على رأسه واقتصر على ابراز فرمان مضمونه اثبات نفع الغفران وحرمان كل من اعتقد خلاف ذلك بدون أن يسمى احدا ولكن لم يكن لهذا الفرمان تأثير فى عقول كانت اذ ذاك قد اشتغلت عن مثل ذلك بغيره واخذت تتعود بالتدريج على الاستقلال

وعدم

وعدم التبعية

وفى اثناء ذلك مات الايمبراطور مكسمليان واخذ بعده بزمام الحكومة فى الجزء من ألمانيا الذى كانت تجرى عليه القوانين السكسونية المنتخب فردريق بوظيفة نائب عموم الايمبراطورية فلم يكن ثم اوفق من ذلك للهراطقة المتشيعين وكان ليون العاشر يرى أن السعى فى انتخاب ايمبراطور جديد أولى وأهم من الاشتغال بجدال دينى تفاهته وخسته فى زعمه اكثر من خطره فسلك مسلك المداراة مع منتخب سكس حيث اغضى عن لوتير رعاية لخاطره واوقف فصل الدعوى التى كانت قد اقيمت عليه فتقوت آراء هذا الناسخ المتشيع لما حصل الاغضاء عنها فى مدة الفترة اى خلو الايمبراطورية عن ايمبراطور وتجاهر بالسعى فى هدم الكنيسة الموجودة ليقيم على آثارها كنيسة اخرى (وهذا كناية عن نسخه لدين الكنيسة الرومانية بمذهبه الجديد) واذا نظرت الى الاسباب التى قوت رجاء نجاحه فى ذلك رأيت عزيمته على هذا الامر لم تكن صادرة عن الهوس والجنون

فالسبب الاول من هذه الاسباب هو أن بلاد ألمانيا كلها كانت متضررة من ديوان رومة فان المشاجرات القديمة الشديدة التى وقعت بين العصابة القسيسية والايمبراطرة بقى منها فى العقول آثار بغضة وبقايا عداوة كانت نيرانها دائما متهيئة للاضطرام ومشرفة على التأجج والاشتعال واشتدت منذ قليل ببيع الغفران والتجارة فى تكفير السيآت

والسبب الثانى هو أن اكابر الاحبار الالمانية كانوا ايضا امراء دنيويين فكانوا فى الغالب يهملون ويتساهلون فى وظائفهم الاسقفية فلذا اضلت عصابة القسوس فى اودية الجهالة والاختلال حيث انها خلصت من حرج الالزام ومشقة التكليف فسقطت من وقتئذ من أوج الاعتبار الى حضيض الاحتقار واخذ الاهالى فى القيام على اموال الكنيسة حيث تشكوا من تشديد محاكم القسوس فى طلب المرتبات القسيسية وطلبوا علانية أن ترفع عنهم عدة مظالم نسبوها لديوان رومة حقيقة او ادعاء وجعلوها من المطالب المالية

للديوان المذكور وللحكومة الاسقفية ودخل جم غفير من الناس تحت اعلام هذا الناسخ المبتدع ولم يقصدوا بذلك انتهاك حرمة العقيدة القديمة وانما كان مرامهم قبول شكاياتهم فقط

والسبب الثالث هو أن اختراع فن الطباعة الذى انتشرت به الكتب وكثر قرآؤها اكسب الافكار حركة جديدة وجولانا قويا فى التصورات قال لنغارد ان الناس اذذاك اخذوا يعرفون أن آباءهم واسلافهم مكثوا ايام حياتهم وعقولهم كاجسامهم فى الرق والعبودية (يعنى أن أذهانهم كانت ممنوعة من التصرف والحركة وجولان الفكر) فجمعوا مع مزيد الرغبة التآليف التى تنبههم على حقوقهم وتذكر ما للانسان من الواجبات وصار اغلب مسامراتهم ومحادثاتهم انما هو فيما كان حاصلا من المثالب والمفاسد وفى ضرورة تداركها وجبرها فبحثت الطائفة الدنيا من الاشراف بدول آلمانيا عما به تتخلص من حكم امرائها وتخرج عن تبعيتهم بحيث لا يكون لها تعلق الا بالا يمبراطورية وقد انتفع لوتير من هذا الرأى العام مع الحذق والنباهة العجيبة (والرأى المذكور هو ما قام بالعقول من البحث عن الحقوق ودرء المفاسد وكان ذلك الرأى ظهيرا للحرية الاهلية كما كان لوتير نصيرا للحرية الدينية وحيث ان الظهيرين كان غرضهما من جنس واحد كان لا بد لهما من التعاون انتهى فانه لما كتب فى شأن الحرية النصرانية معبرا فى حطه على استعباد النصارى باسر بابل (منزلا مدينة رومة منزلة مدينة بابل) سلك فى ذلك مسلكا وافق فيه اهل عصره على اغراضهم واحتياجاتهم فلذلك استحسن مساعيه جم غفير من اشراف ألمانيا وساعدوه عليها مع أنه فى مبدأ الامر لم يتبعه من الامراء الا القليل

والسبب الرابع انه منذ احياء الآداب تجددت فى ألمانيا جمعية كبيرة من المدرسين الذين يؤدبون الناس بارشادهم الى اصول التأنس وتهذيب الاخلاق فكان لهذه الجمعية تأثير عظيم فى العقول فوقعت العداوة والبغضاء بين هؤلاء العلماء المؤدبين وعلماء اللاهوت وصار كل من الفريقين يشنع على الآخر ويصفه

وصفي التبر والكفر الشنيعين لاسيما الطائفة الدومينيقية فانها بالنظر لكونها كانت منوطة بانتقاد الكتب وامتحانها كانت من بين علماء اللاهوت اعظم غرض اسهام الكراهة من طرف المؤذيين ولما رأى هؤلاء العلماء أن لوتير قد تعرض للحط على هذه الطائفة دخلوا في حزبه بأجمعهم الاماندر وكانوا قد اختصوا في صناعة الكتابة بانسجام العبارة وسلاستها فرغب الناس في كتبهم وقراءة تآليفهم بخلاف كتب اللاهوتية فانها لما كانت مؤلفة بغير اللسان المستعمل في المدارس كان شراؤها نادرا وانذر منه فهمها وادراك معانيها

وقصارى الامر أن سرعة تقدم الآراء الجديدة اوقعت ليون العاشر في القلق والحيرة وأيقظت فيه الحمية والغيرة فكتب عدة اوامر ألزم فيها رؤساء الرهبان الاغسطوسية أن يزجروا صاحبهم العاصي ويقمعوه فعند ذلك انتهز لوتير هذه الفرصة وكتب للبابا كتابا طويلا متعللا في كتابته بانه يريد تبرئة نفسه واظهار حسن استقامته واظهر له فيه طرق احترام ليست الامن باب السخرية والاستهزاء وذكر فيه أنه يرثي لحاله ويتأسف على كون مثل هذا البابا ما كثا بين قبائح بابل (يعني رومة) وكرر عليه في ذلك الكتاب بطريق الوقاحة والايذاء جميع الملامات التي تصدر عن عدو منصب البابات في حق ديوان رومة حقا كانت اوباطلا فترتب على هذا التطاول والتبجح طرده وحرمانه وذلك أن ليون العاشر لما لم يمكنه التمهل والاستيناء بدون أن يكون ذلك منه اعترافا بالضعف والعجز نشر في خامس عشر يولية سنة ١٥٢٠ من الميلاد (المقابلة لخصوسنة ٩٢٧ من الهجرة) فرمانا حكم فيه بابطال احدى واربعين قضية استخرجت من تآليف لوتير ومنع من قراءة كتبه وتآليفه وهدده بالحرمان والطردان لم يتب ويرجع عن ضلالة قبل مضي ستين يوما واحرقت كتبه على رؤس الاشهاد في مدن لووين وكولونية وميانسة ولكن في غير هذه المدن عارض الاهالي مع القوة والتشديد في نشر هذا الفرمان واشاعته حيث اساؤا وسبوا الضباط المنوطين بنشره بل ومزقوا الفرمان ووطئوه باقدامهم واما لوتير فانه رد بالكتابة على ذلك الفرمان الذي سماه

فرمان المسيح الدجال ثم صنع به وبكتاب قانونامة الاحكام القسيسية كما صنع بكتبه حيث احرقها بمدينة ويتنبرغ فانه في عاشر دقبر سنة ١٥٢٠ ميلادية توجه الى الباب الشرقي من هذه المدينة ومعه خوجات المدرسة الجامعة وتلامذتها وخلفه جم غفير من الناس المتفرجين وبعد أن جمع الحطب والاخشاب اوقد فيها النار بنفسه وألقى فيها فرمان الحرمان وقانونامة المذكور المتضمن لاحكام البابا واردفهما بتآليف اخصامه وهو يصيح بأعلى صوته (مخاطبا الفرمان البابا) حيث انك قد نغصت على ولي الله وكدرت خاطره فلاجزاء لك الا النار المؤبدة ثم صعد من الغد على المنبر واظهر في كلامه التأسف على كونه لم يعامل البابا نفسه بما عامل به فرمانه

هذا وكان عدد اتباعه يزداد بازدياد اقدامه وجسارته وكان ينظر الى سرعة تقدم آرائه واتساع دائرة مذهبه بعين الفرح والشمم وبينما هو كذلك اذ ورد اليه امر بناء على طلب أليانذر نائب البابا بالحضور الى الجمعية التي عقدها شرلكان بمدينة ورمس سنة ١٥٢١ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٢٨ من الهجرة) فذهب اليها بعد أن اخذ تذكرة طريق من الايمبراطور وغيره من الامراء وكان اصحابه قد حاولوا أن يلقوا في قلبه الروع والخوف من ذلك حتى يخالف الامر ويعدل عن الذهاب فقال لهم ان طلبي الى الحضور بمدينة ورمس امر شرعي فانا اذهب اليها باسم الله ولو تعصب علي من الشياطين بقدر ما على سطوح البيوت من الآجر ثم انه لما حضر الى الجمعية قدموا اليه تآليفه وسألوه هل يعترف بأنها له وهل هو مصمم على ما تضمنته من العقائد والاحكام فاعترف بأنها له ثم سكت مليا وقال اني لا ازال على العمل بما فيها حتى تثبتوا ابطالها بنص الكتاب المقدس فعند ذلك شدد عليه بعض الامراء والاساقفة من طرف الايمبراطور ان يتوب ويقلع عن هذه العقيدة حتى ان فردريق محاميه اشار عليه فيما بينه وبينه أن لا يعترف الا بما كتبه في شان المفاسد الواقعة من ديوان رومة ويرجع عما كان مخالفا للاحكام والعقائد التي عليها الكنيسة الرومانية فلما صمم على عدم الرجوع امره

الايمبراطور

الامبراطور بالخروج من ورمس واعطى له تذكرة طريق اجلها احد وعشرون يوما ثم في الخامس والعشرين من شهر مايه نشر امره الشهير الذي اعلن فيه بأن لوتير هرطيق اي خارجي متشيع وأنه ساقط عن درجة الاعتبار مجرد عن الحقوق والمزايا وامر بالقبض عليه غير أن لوتير اذ ذاك كان في محل مامون لانه لما خرج من ورمس قاصدا العود فبينما كان يجتاز أجمة بقرب قلعة ألتنستين بولاية تورنجه اذا اختطفته فرقة متلثمة من الخيالة كان قد أكمنها هنالك منتخب سكس وسارت به الى قلعة ورتبورغ فحجز بها اكثر من تسعة اشهر وهو مجهول لا يعرفه احد حتى الخفر المنوط بحراسته وكان اتباعه واصحابه يجهلون ما حل به ومع ذلك كان يعلمهم احكام مذهبه ويثير حميتهم على التمسك به وهو في داخل خلوته التي كان يسميها بالنسبة اليه بطموس اشارة الى الجزيرة المسماة بهذا الاسم التي نفي اليها الحواري يوحنا فهو وان كان في هذا المحل غائبا عن الابصار الا انه كان دائما حاضرا بتآليفه لدى الافكار فقد ألف في تلك الخلوة عدة رسائل ضمنها الهجو والقدح في البابا وفي مدرسة باريس الجامعة لكونها حكمت ببطلان اصول مذهبه وفي ملك انكلترة لكونه انكر على رسالته التي كتبها في شأن استعباد النصارى الذي سماه اسر بابل وعكس فيها ترتيب الدرجات والرتب القسيسية وبالغ في هجو المذكورين وتحقيرهم وشنع عليهم بافحش تشنيع واقبح مسبة فقال ان لم يرجع البابا الى طريق الرشاد * ويسلك سبيل الصواب والسداد * فيا ضيعة الممالك النصرانية * ويا وبال الملة المسيحية * فمن استطاع الهرب الى الجبال فليفعل * او ليسلب الحياة عن هذا القاتل الروماني حتى يفارق الدنيا ويرحل * واما احبار المدرسة الباريسية * فقل أن يعرفوا شيأ في العقائد اللاهوتيه * بل هم اجهل الجاهلين * واغبى الناس اجمعين * واما هنري الثامن (ملك انكلتره) فهو مصاب بالخبال * مستول عليه الجنون والاختلال * يزيد في الفظاظة على الخنازير * ويربو في الخشونة وغلظ الطبع على الحمير * انتهى وقد خجل اصحاب هذا الرجل المتشيع من لغراطه في الخط

ومبالغته فى التشنيع حتى قال اشهر تلامذته المسمى ميلنختون انى لاظن أن هـذا الرجل بالنظر لتأليفه احسن حالا مما يدل عليه ظاهره اى اظن أن باطنه احسن من ظاهره

وقد اشتغل فى خلوته هذه بالمطالعات والاشغال التى كانت بالنسبة لاغراضه انفع من هـذه البوادر الفظيعة والحدة الشنيعة وكان الى ذلك الوقت يجتهد فى امر الدين بدون روية ولا تأمل فان ما كان يبدوله من التصورات فى هـذا المعنى كان خاليا عن الاحكام والتناسق والائتلاف فظهر من حاله وقتئذ انه يريد أن يجعل تلك التصورات على وجه محكم واسلوب متناسق الاأن قريحته لم يكن فيها قابلية للنسخ فى الكتابة على منوال مخصوص فلم يمكنه اولم يخطر بباله أن يضع آراءه فى مجموع مرتب وانما يستفاد اجمالا من رسائله فى الحط على الصلوات الخصوصية (اى التى لايشترط فيها الجمع والاحتفال) وعلى نذر الرهبانية وعلى العزوبة القسيسية وكذلك يستفاد من غير الرسائل المذكورة من التآليف المختلفة التى الفها فى خلوته أنه صار لايقول ببابا ولا اثر منقول ولا مجامع ولا بالاستناد الى اقوال آباء الكنيسة ولا بالمطهر (المحل الذى تكفر فيه السيآت) ولا بالصلوات الخصوصية ولا بالنذور ولا بالديورة ولا بالقسوس الملازمين لشعار القسيسية ولا بالصلاة للقديسين ولا بالشعائر الدينية المستدعية للالطاف الربانية ولا بسلطان على الدين غير من لاتدركه الابصار يستحيل عليه الخطا والزلل فيكون حكما عدلا فى امر الدين ولم يقل بشئ يجب التصديق والعمل به الا بالكتاب المقدس وقد ترجمه الى اللغة الالمانية ومما لايقبله العقل اعتقاد أن التعود على قراءة الكتب المقدسة يجعل فى العامة اقتدارا على معرفة الصواب فى المسائل التى اختلف فيها العلماء الاأن ما تحفهم به لوتير من ترجمته الى لغتهم ازداد به غرورهم وفرحوا لما بلغهم أنهم من الآن فصاعدا صاروا الاسلاطة لاحد عليهم فى امر الدين وان اجهلهم يمكنه بالكتاب المقدس أن يختار لنفسه من العقيدة ما يؤديه اليه اجتهاده بدون احتياج الى توقيف من البابا اوالاساقفة او الاحبار

فترتب على هذه الرخصة الواسعة في الاستنباط والاجتهاد أن اتباع لوتير كثروا كثرة بالغة ولكن كان لا مانع من أن يظهر له اخصام يزعمون انهم ينسخون مانسخه و يحررون ماجدده وابتدعه وعما قليل ظهر ماتحقق به هذا الامر

وذلك أن احد تلامذته المسمى كرلوستاد تجاسر على أن يقول بغير مذهب امامه في شأن القربان المقدس فان لوتير كان يقول في هذا المعنى بالحضور الحقيقي (اى بحضور دم المسيح ولحمه في القربان) نخالفه كرلوستاد المذكور في ذلك فطرده لوتير من مدينة ويتنبرغ فذهب الى مدينة اورلاموند فكثرت بها الفتن واشتدبها الاختلال بسبب ماقام بهذا الرجل من الحمية الجاهلية وما كان عليه من منذ قليل طائفة الاناباتست من الحركة والاضطراب فتعين لوتير للذهاب اليها ليطفئ منها نار الفتنة ويعيد لها الراحة والانتظام فحرض عليه كرلوستاد العامة فصاروا يرجمونه بالحجارة والاوحال ثم ذهب لزيارته في اللوكندة المسماة اورس نوار التي اشتهرت بالحادثة التي وقعت بينهما وكان يقال في حق كرلوستاد انه موقظ للفتن وساع بالفساد فاخذ يبرئ نفسه من هذه التهمة ويبرهن على بطلانها ولكنه اقر بأنه لا يمكنه أن يقول بقول لوتير في مسئلة الحضور الحقيقي فعند ذلك تبسم لوتير مستهزأ به وقال له اكتب تأليفا في بطلان هذا المذهب وهاك منى فلورين (نوع من النقود) ليكون دليل الالتزام بذلك فقبله منه ثم طلب الخصمان الشراب وشرب لوتير على صحة خصمه (على العادة في مجلس الشراب) وكذلك فعل كرلوستاد ثم افترقا وكلاهما يعد صاحبه بالبروز الى ميدان الجدال وجودة الطعن في هذا المجال و يسبه باقطع المسبات واشنعها فقد قال له لوتير انى لاتمنى أن أراك على العجلة (وذلك من العقوبات المهلكة) فقال كرلوستاد انى لاتمنى أن تكسر عنقك قبل أن تخرج من المدينة فكان ذلك وداعهما من بعضهما قال بوسويت هكذا كانت افعال هذين الداعيين الجديدين وكان هذا مبدأ لجدال

الشيعة المخطئة فى شأن القربان) وكان ذلك فى الثانى والعشرين من شهر اغسطوس سنة ١٥٢٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣١ من الهجرة)

و بذلك وقع الاختلاف والتفاقم بين الشيعة المبتدعين ومع ذلك كان يظهر اذ ذاك أن كل شئ يعين على نجاحهم فان الامر الذى صدر عن الايمبراطور بمدينة ورمس وفرمانات البابا ليون العاشر لم يعمل بها وتمسك بمذهب لوتير نورمبرغ وفرنكفورت وهمبورغ وغيرها من امهات المدن وانما تجاسرت على ذلك لما حصل من الاغضاء والتساهل فى امر الدين وتمسك بالمذهب اللوثريانى ايضا عدة من الامراء ورخصوا فى الدعاء اليه بدولهم وصار الناس من سائر الجهات يغيرون على املاك الكنيسة واموالها فكان ذلك من اقوى الدواعى الى اتباع كثير من الامراء هذا المذهب واما الايمبراطور فانه اهمل امور الدين لانه اذ ذاك كان مشتغلا بايقاع الهدء والصلح فى بلاد اسپانيا وباجلاء الفرنساوية عن ايطاليا فلم يتيسر له الحضور فى الجمعية التى انعقدت فى مدينة نورمبرغ سنة ١٥٢٢ ميلادية فظهر فيها اللوثريانية على غيرهم وذلك أن شريغانو وكيل البابا طلب فى تلك الجمعية بطريق النيابة عن البابا ادريان السادس خليفة ليون العاشر أن الخلاصات التى صدرت بمدينة ورمس تنجز ويجرى العمل بها وشدد فى ذلك كل التشديد فتعلل ارباب الجمعية فى عدم تنفيذها بصعوبة اجرائها من عدة وجوه بل وتعللوا ايضا بأن ذلك عرضة للاخطار وزيادة على ذلك لاموا على ديوان رومة وشنعوا عليه ثم ارسلت الجمعية الى البابا تقريرا كبيرا يتضمن مائة شكوى تتعلق بالمظالم والمفاسد التى ادعوها على الكنيسة الرومانية وطلبوا من ديوان رومة جبر هذا الخلل واصلاح تلك المفاسد وقالوا ان اعظم دواء لقطع عرق هذا الداء وازالة المضار التى يشكى منها الفريقان هو عقد مجمع عام فى مدينة من مدن ألمانيا باذن الايمبراطور وكان البابا نفسه قد بعث الى الجمعية المذكورة فرمانا اعترف فيه مع الاخلاص

الدال

الدال على فضل صاحبه دون سياسته بفساد ديوان رومة وبأنه تلزم المبادرة بقدر الامكان الى مداواة هذا الداء بدون أن يحصل فى ذلك اضطراب شديد على حين غفلة فظهر لوتير على اخصامه بهذا الاعتراف الصادر من البابا وبشكاوى الطائفة الجرمانية

ثم ان ادريان السادس اراحه الموت مما كان فيه من الحيرة والارتباك فى هذا المعنى فطلب خليفته كليمان السابع فى الجمعية الثانية التى انعقدت فى مدينة نورمبرغ (سنة ١٥٢٤ من الميلاد) أن ينفذ امر ورمس ويجرى العمل به وشدد فى ذلك لكن كان تشديده بلا طائل وذلك أن وكيله كنبجيج حين طلب ذلك من ارباب الجمعية على لسان البابا اجيب من طرفهم باجوبة مبهمة وألحوا ثانيا فى عقد مجمع عام فحاولهم الوكيل فى ذلك وماطلهم ولكنه قبل أن يخرج من ألمانيا نشر بعض قوانين تتعلق باصلاح حال القسوس الذين هم من الدرجة الدنيا وقصارى الامر أن القاثوليقية عقدوا تحت حمايته بمدينة راتسبونة عصبة دخل فيها كل من الارشدوق فرديننه ودوق باويرة واغلب الاساقفة الالمانية وكان الغرض من عقدها تعضيد أمر ورمس وفى هذا الوقت امر الايمبراطور شرلكان بتنفيذ هذا الامر فبعث فى ذلك مكاتيب محررة من مدينة برغس وذكر فيها مايدل على غضبه وتهديده ان لم ينجز فكان كل ذلك لا طائل تحته وذلك أن المذهب الجديد لملايمته لمقتضى الشهوات كان اكثر قبولا واستحسانا من الشرائع لتشديدها وتضييقها فقد اتبعه القسوس والرهبان لضجرهم من ملازمة الديورة وطلبا للفسحة واسترجاع الحرية واغتر به العامة فأقبلوا عليه ايضا لكون النفوس تألف كل جديد ولما فيه من الفسحة وعدم التبعية والانقياد لاحد من امناء الدين واغتر به ايضا الامراء طمعا فى استرجاع الاملاك العظيمة التى اخذها القسوس من اسلافهم اما على سبيل البر والانعام او لحسن اعتقادهم فيهم واخذ كلامهم قضية مسلمة فلما كان هذا المذهب بتلك المثابة معضدا بهذه الاسباب القوية لم تؤثر فيه شيأ تشديدات الاوامر الايمبراطورية ولم يضطرب لوتير من

صواعق الحرمان الواقع من البابا ولا من الخلاصات الصادرة في شأنه من الايمبراطور بل كان بمدينة ويتنبرغ آمنا مطمئنا حيث رأى مذهبه قد انتشر من هذه المدينة في شمال ألمانيا وعلى امتداد سواحل بحر بلطق وكان ممن تمسك بمذهبه من اصحاب القوة والغيرة من سنة ١٥٢٥ ميلادية منتخب سكس وهو يوحنا قسطنط فانه بعد موت اخيه فردريق المنتخب تمسك علانية بهذا المذهب الجديد الذي كان اخوه قد اقتصر على حمايته والانتصار له ومنهم ايضا فيليش لندغراو هيسه كاسيل (اي حاكم هيسه) ودوق مكلانبورغ ودوق يوميرانيا ودوق زيل وعدة مدن كثيرة وكان اشهر ما حصل اذ ذاك من الانتقال من مذهب الى مذهب آخر هو ما وقع من ألبيرت ملغراو بريندبورغ (اي حاكمها) وهو الرئيس الاكبر للطائفة التوتونية وذلك أن هذا الامير في سنة ١٥٢٥ من الميلاد رفض ما كان قد التزمه بالنذر من الزهد والتقشف وتمسك بالمذهب اللوثرياني واخرج بلاد البروسيا الشرقية من الحكومة القسيسية وجعلها دوقية وراثية من اعمال مملكة له وعقد المخالفة مع منتخب سكس بل تمسك بهذا المذهب جماعات عديدة من دول عائلة اوستريا نفسها الاسبانية بلاد چه وكان ما بين هذه البلاد والكنيسة الرومانية وكذلك ما بينها وبين الايمبراطور به من العلائق والروابط قد ضعف حينئذ وتلاشى أمره قبل ذلك كانت تلك البلاد قد اشرفت على أن ترى تجدد الحروب الدينية التي كانت سابقا ميدانها وكان لم يزل بها شيء من الاسباب المستدعية لتلك الحروب لانها لم تكن استوصلت وانقطع عرقها بالكلية فتولد عنها في القرن الذي اعقب هذا العصر فتن ومصائب جديدة وكان لوتير قبل ذلك بسنة قد خلع شعار الرهبانية ثم تمم الآن الانفصال عن الكنيسة الرومانية بتزوجه بكاترينه بورن وكانت راهبة فاخرجها من الدير وتزوجها

(الفصل الثاني)

في الكلام على ما حصل منذ ظهور مذهب الاناباتيست الى وقعة مولبرغ

وذلك

(وذلك من سنة ١٥٢٥ الى سنة ١٥٤٧ من الميلاد) اى من سنة ٩٣٢ الى سنة ٩٥٤ من الهجرة تقريبا)

قد اخذ التشيع والابتداع فى الازدياد وصار فى كل يوم ينتشر انتشارا جديدا ولكن كان بازدياده يزداد التفاقم والاختلال لما أن قواعده كان لا بد أن يترتب عليها هذه النتائج فقد أراد أناس من ارباب الاذهان الحادة والافكار المتوقدة أن يجعلوا الحكومة الاهلية جارية على طبق اصول الحرية التى هى اساس المذهب اللوثريانى وترأس كل من توماس مونسير ونيقولاس استورى على مذهب تسمى اربابه باسم انابابتيست (اخذا من كلمة باتيزى بامالة الزاى ومعناها التعميد) لانهم كانوا يرون أن التعميد فى سن الطفولية باطل فعمدوا ثانيا كل من تمذهب بمذهبهم وانتظم فى سلكهم فبذلك توسع الرئيسان المذكوران دائرة المذهب الذى اسسه لوتير وكانا يقولان فى وعظهما ان المساواة المطلقة (اى التسوية بين الناس) هى عين الايمان وان كل شوكة تستدعى الامتياز كفر وادعيا النبوة وانهما مبعوثان من عند الله تعالى ليحدثا فى الارض مملكة من الاخيار ويجعلا الناس على الشيوع فى الاموال والنساء وينقذا النوع الانسانى من اسر الشوكة ملكية كانت اودينية وحملتهما الحمية الجاهلية على أن بعثا الى بلاد الارياف من يسعى فيها بالفساد فانتشر هؤلاء المبعوثون بين اهلها ولم يجدوا كبير مشقة فى تحريض طائفة من الناس كانت تتضجر من ظلم الحكومة الالتزامية على القيام على الملتزمين والولاة والقسوس فتسلح الفلاحون من سائر الجهات وكتب رؤساؤهم تقريرا يتضمن شكاياتهم ومطالبهم وجعلوا لوتير حكما بينهم وبين الملتزمين لان شهرته كانت منتشرة فى سائر بلاد ألمانيا فكتب اولا الى الفلاحين ما معناه ان الله ينهى عن القيام والعصيان والى الملتزمين ان الله يكره الظلم والجور ورغب الاول فى الطاعة والانقياد والآخر فى العدل والسداد ثم لما رأى أن الفلاحين لم يعملوا بكلامه ولم يلقوا اسلحتهم رجع الى عادته من الجبر والقساوة ولو اقتصر على غضبه الذى احتد على مونسير حيث وصفه بأنه ممسوس

من الجن ونبي كاذب ورسول الشيطان كما قالوا واقتصر ايضا مونسير على تسميته بالثعبان والافعى والتنين لما تفاقم الامر وعظم الضرر ولكنه تجاوز الحد في الاساءة والمسبة وذلك أن الفلاحين اثرت فيهم حمية الانابابتيست الجاهلية حتى افضت بهم الى أن طافوا بلاد سوابه وتورنجه وفرنكونيا وألزاسه وبعض سواحل نهر الرين وصاروا في طريقهم يذبحون العباد ويحرقون البلاد وكذلك لوتير حرض الامراء على الانتقام منهم وان لا تأخذهم بهم رأفة ولا شفقة وأن يقطعوا دابر العصاة عن آخرهم ولم يكن اهؤلاء الفلاحين المساكين معرفة بالقتال وانما كانت الحمية تفضي بهم الى فعل القانط اليائس من النهب والحرق والقتل فاجتمع اشراف الفريقين وقتلوا منهم مقتلة مهولة في سوابه وألزاسه واقليم الرين ومن فر منهم من القتل انقض على تورنجه فاحاط بهم قريبا من فرنكوزن منتخب سكس والدوق جرجي وحاكم هيسه ودوق دوبرنسويق وافادوهم انهم ان سلموا في رؤسائهم ووعاظهم ابقوا عليهم بدون قتل ولا اسر فلما اوشكوا أن يجيبوا الى ذلك حضر لديهم مونسير وكان قد ارتعدت فرائصه من خوف هذا الخطر واخذ يكلمهم بلسان النبوة (التي ادعاها) ويعدهم بالنصر من عند الله فقال اني لا اطلب منكم القتال فان الله يقاتل عنكم وانما عليكم أن تثبتوا في حصونكم ومتاريسكم وانتم ترون اعداءكم يقعون على اقدامكم وانا وحدي اتلقى جميع ما يرمونه من الكلل بدون أن يصيبني جرح ولا قتل وفي هذا الوقت ظهر قوس قزح فصاح قائلا قد سمع الله قولي فارفعوا ابصاركم تروا هذا القوس السماوي الذي هو العهد بين الله ومن شاء من خلقه وها هي صورته مرسومة على اعلامكم والمولى ينهاكم عن أن تقبلوا من هؤلاء الكفرة صلحا بل دمروا اعداء الله واعقب هذه الكلمة بكونه ذبح بيده الرسول المبعوث من طرف الامراء فوثق الفلاحون بكلامه ومكثوا في حصونهم فضرب الامراء عليهم بالمدافع وهم رافعوا ايديهم وابصارهم الى السماء ولم يتفكروا في الذب عن انفسهم بل صاروا يتغنون بالادعية والتسابيح وقلوبهم آمنة ونفوسهم مطمئنة فلم يغن عنهم ذلك شيأ بل

ضاعت اصواتهم فى الهواء واهلكتهم صواعق المدافع وعوامل السيوف البواتر وقبض على مونسير فى هذه الوقعة ان صح اطلاق لفظ الوقعة على مثل هذه المقتلة واتى به الى مدينة مولهوزن وعوقب فيها بالقتل

وقد انضم الى هذه الفتنة التى هى قيام الفلاحين فتن اخرى فى عدة مدن كبيرة مثل مدينة فرنكفورت سورلومن (اى الواقعة على نهر المن) ومدينة استراسبورغ ومدينة ميانسه وكولونيه حيث طلب الاهالى والاسلحة بأيديهم أن يجرى العمل عندهم بالمذهب الجديد وأن يكون عليهم قسوس لوثريانية فلزم لتسكين هذه الفتن ايضا سفك دماء كثيرة وكان لوتير يلاحظ سوء صنيعه هذا ويذكر مع البرود عبارة من الانجيل وهى انى لم آت بالصلح وانما أتيت بالحرب فان ارباب الحمية الجاهلية فى هذا العصر المشؤم كثيرا ما كانوا يبحثون فى الكتب المقدسة ويقلبونها من اولها الى آخرها عسى أن يجدوا فيها مستندا يستندون اليه فى افراطاتهم وتعدياتهم

ومع مبادرة الامراء اللوثريانية الى حمل السلاح على العصاة الخارجين عن طاعتهم وغضب لوتير على مونسير كان القاثوليقية ينسبون هذه الاختلالات والتعكرات الى المذهب الجديد ولقد اصابوا فى نسبتها اليه وكانوا يرون أنه لا واسطة فى قطع عرق هذه المصائب الا ابطال المذهب اللوثريانى والرجوع الى العقيدة الاولى (يعنى القاثوليقية) هذا ما كان من امر هؤلاء واما الامراء والاعيان الذين تمسكوا بالمذهب الجديد فكانوا يسعون مع الحمية وبذل الجهد فى تقوية حزبهم فتعاهدوا فى مدينة تورغو حتى يكون لهم حزب يعادل حزب رانسبونة القاثوليقى فتفرقت جمعية اوغسبورغ التى انعقدت سنة ١٥٢٥ من الميلاد بدون أن تبت فى شانهم امرا بل رخصت لهم جمعية سبيرة التى انعقدت سنة ١٥٢٦ فى التدين بدينهم حتى ينعقد بعد مدة مجمع عمومى اوملى كان قد ترجى من الايمبراطور أن يعقده قبل مضى سنة لكنه لم يهتم بعقده ولم يعتن بشأنه

وقد ترتب على هذا الترخيص الدال على الضعف والحيرة ازدياد العداوة

والبغضاء بين الفريقين وذلك أن القاثوليقية اغتاظوا من كون هذه الجمعية راعت خاطرهم بالترخيص المذكور ورأوا ذلك امرا مشؤما وذنبا عظيما فبثوا الشكوى للايمبراطور وعرضوا عليه هذا الامر متظلمين واما اخصامهم فاستعدوا بكل ما يلزم للمدافعة عن انفسهم فجند حاكم هيسه جنودا متعللا بانه يريد الاستعداد للمدافعة ولكنه عما قليل انكشف غرضه الحقيقي من تجنيدها باغارته على التزامات اساقفة وورتزبورغ وبنبرغ فاظهر الامراء القاثوليقية الميل الى الصلح اما لخوفهم من الحرب الداخلي او لعدم استعدادهم لمدافعة هذه الغارة الفجائية فسرح حاكم هيسة عساكره بعد أن ألزم هؤلاء الامراء بدفع مائتي الف فلورين في مقابلة مصاريف التجريدة (وكان ذلك سنة ١٥٢٨ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٣٥ من الهجرة) ثم ان القاثوليقية الذين لحقهم الذل والهوان في هذه القضية بذلوا مجهودات اخرى في جمعية سبيرة التي انعقدت سنة ١٥٢٩ ميلادية (اي نحو سنة ٩٣٦ هجرية) ومع ذلك كان من الخطر أن يحكم على المبتدعين بحكم يخالف بالكلية ما حكم به في شأنهم سنة ١٥٢٦ فان كثرة التشديد ربما تولد عنها اختلال عام واضطراب شديد في جميع بلاد ألمانيا فلذا اقتصرت الجمعية تشديدها على اتباع كرلوستاد ومونسير لان اللوثريانية كانوا يشددون في طلب عقابهم فاما اتباع كرلوستاد الذين يقولون بالحضور الحقيقي وهم الشيعة المخطئة في شأن القربان فحكم عليهم بالتجرد عن الحقوق والسقوط عن درجة الاعتبار واما الانابانست الذين هم اتباع مونسير فحكم عليهم بالموت ورخص في التمسك بالمذهب اللوثرياني في سائر المحال التي ظهر فيها واما غيرها من الاماكن التي لم يظهر بها فمنع التمسك به فيها وطلب من الامراء الذين كانوا الى ذلك الوقت محافظين على العمل بامر ورمس في بلادهم أن يداوموا على العمل به ويواظبوا على اتباعه وهذا الحكم وان كان في درجة الاعتدال بالنسبة للوثريانية الا انهم انكروه وجعلوه من باب الظلم والالحاد فان منتخب سكس وحاكم هيسة وارنست

وفرنسيس دوق لونيبورغ واميرأنهلت ومبعوثى الاربع عشرة مدينة الامبراطورية ناقضوا فى ذلك وحاجوا المحاجة الشهيرة التى لاجلها سموا باسم بروتستان (يعنى المحاجين اوالمناقضين) وهذا الاسم فى مبدأ الامر كان لايطلق الاعلى خصوص اللوثريانية ثم صار يطلق على كل من تشيع وخرج عن دين الكنيسة القاثوليقية ثم ان الامراء اللوثريانية بعثوا بالمحاجة التى عارضوا بها الحكم المتقدم الى الامبراطور فى ايطاليا فطرد رسلهم من عنده وبعد أن عقد الصلح مع البابا وملك فرانسا امر بعقد جمعية اخرى فى اغسبورغ وسافرالى ألمانيا ليحضرها بنفسه

ومع كونه قابل رسل البروتستان بالطرد لم يظهر من حاله التحامل بل اعلن بانه انما حضر لاجل النظر فى آراء كل من الفريقين فى امر الدين ومقابلة تلك الآراء ببعضها وكان البروتستان يريدون تمكين اصول عقيدتهم وتقرير قواعد مذهبهم حتى يبرئوا انفسهم من بدع كثيرة كانت تنسب اليهم وهم ينكرونها فقدموا للجمعية كتابا يتضمن مايعترفون به من العقائد وطلبوا أن يقرأ على رؤس الاشهاد وكان هذا الكتاب الذى يعرف باسم اعتراف اوغسبورغ ويميز الآن المذهب اللوثريانى من غيره من المذاهب البروتستانية منقسما الى ثلاثة اقسام * احدها يتضمن بنودا مختلفة فى موادا جماعية لانزاع فيها * ثانيها يشتمل على امور جزئية يعتقدون بعضها وينكرون البعض الاخر * ثالثها يحتوى على الشعائر والعوائد التى يخالفون فيها بالكلية الكنيسة الرومانية كتناول القربان والعزوبة القسيسية والاعتراف على يد القسيس والقداس والصوم ونذر الرهبانية وقضاء القسوس فامتنع شرلكان من قبول هذا الكتاب وابرز فى سادس عشر نومبر سنة ١٥٣٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٧ من الهجرة) خلاصة امر فيها باعادة عقائد الكنيسة الرومانية ومناسكها كلها وألزم فيها البروتستان أن يتركوا الانفصال عنها ويعودوا الى دينها فى ظرف ستة اشهر والا عوقبوا بالتجرد عن الحقوق والسقوط عن درجة الاعتبار

وكان يتعسر حينئذ اجراء هذا الامر والعمل به وجبه فان الايمبراطور كانت اقامته فى ألمانيا نادرة وكان القاثوليقية فى غيبته محتاجين الى ملك على الرومان يكون مرتبطا بالكنيسة الرومانية ومعتنيا بشأنها فعرض عليهم شرلكان اخاه الارشدوق فردينند وكان فردينند يومئذ قد ضم الى دول عائلة اوستريا الوراثية مملكتى جه والمجار واستند شرلكان فى ايثار اخيه بذلك الى أنه بتوليته يكون فى الايمبراطورية رئيس ماهر ذو اقتدار على بقاء الصلح والامن فيها واجلاء العثمانية عنها فحصل انتخاب هذا الارشدوق فى جمعية كولونيه فى خامس ينويه سنة ١٥٣١ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٨ هجرية) وكان الامراء اللوثريانية قد اغتاظوا من عدم قبول كتاب اعترافهم المتضمن لعقائدهم فاجتمعوا فى مدينة سمالكالد وعقدوا لاجل حماية طائفتهم المعاهدة الشهيرة التى انتظموا بها فى سلك الطوائف السياسية وعارضوا فى انتخاب فردينند وصاحوا قائلين قد انتهكت حرمة فرمان الذهب ومزايا الطائفة الجرمانية (وفرمان الذهب اسم لقانون وضعه كرلوس الرابع) ولما كانوا مصممين على الحرب دعوا ملكى فرانسا وانكلترة الى الدخول فى حزبهم والانتظام فى سلك معاهدتهم وتحزب الايمبراطور ايضا مع الامراء القاثوليقية لاجل تأييد دينهم وقد اشرف الحزبان على القتال الا أن السلطان سليمان كان سببا فى الصلح بينهما رغما عنه وعنهما وذلك انه دخل بلاد المجار واوستريا بجيش جرار قدره ثلثمائة الف مقاتل فرأى شرلكان أن الضرورة تقتضى أن يسلم لصروف الزمان وأن ينقص عدد اعدائه فتفاوض مع البروتستان حيث كان لابد له من اعانتهم ولم يلتفت الى معارضة وكلاء البابا فى ذلك وبعد المفاوضات الطويلة فى هذا المعنى انعقد صلح نورمبرغ (فى ٢٣ يوليه سنة ١٥٣٢ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٣٩ من الهجرة) وبه تعلق امر ورمس وامر اوغسبورغ عن الاجراء ورخص للوثريانية فى استعمال ديانتهم بدون معارض حتى ينعقد المجمع المتفق عليه والتزموا فى نظير

ذلك

ذلك باعانة الايمبراطور على العثمانية ولكنهم صمموا على عدم مبايعة اخيه فرديننند على كونه ملكا على الرومانيين
ثم ان الايمبراطور جمع جيوش ألمانيا بتمامها قاصدا قتال السلطان سليمان فالجأه الى الرجعة وجبره على الانصراف واعقب ذلك انحلال عرى الاتحاد بين الملة الجرمانية وعادت الاضطرابات فى سائر الجهات فقصد اغار البروتستان على املاك الكنيسة واراضيها وقصد الديوان الايمبراطورى أن يحكم على هؤلاء المتغلبين بما يستحقونه فجدد اللوثريانية عند ذلك عصبة سمالكالد وجددوا ايضا المعاهدة مع الدول الاجنبية بل دخل حاكم هيسة بجيش كبير فى دوقية ورتمبرغ وكانت قد انعقدت بها عصبة تعرف بعصبة سوابه طردت منها سنة ١٥١٩ من الميلاد دوقها اوليرق وهزمت النمساويه فى لوتفن قريبا من هلبرون فاعاد حاكم هيسة هذا الدوق الى دوقيته لكونه تشيع وتمسك بالمذهب اللوثريانى وفى اثناء هذه الاحوال طلب جبناء الحزب القاثوليقى وعقلاؤهم الصلح فانعقدت المصالحة بين الفريقين بمدينة كدان من بلاد جه فى التاسع والعشرين من شهر يوليه سنة ١٥٣٤ ميلادية (اى نحو سنة ٩٤١ هجرية) وتجددت مشارطة نورمبرغ ووضع عليها القرار من الطرفين وبايع اللوثريانية فرديننند على كونه ملك الرومانيين فبايعه على ذلك منتخب سكس وهو يوحنا فردريق خليفة يوحنا لوقنسطنط الذى مات سنة ١٥٣٢ من الميلاد وبايعه ايضا الامراء الذين هم حلفاء منتخب سكس المذكور ولاجل حفظ مقام الايمبراطور انحط الرأى على أن دوق دوورتمبرغ وحاكم هيسه يطلبان منه العفو والصفح وهما جاثيان على ركبهما وبقى اوليرق على دوقيته لكن بوصف كونها من اعمال التزام عائلة اوستريا وبشرط انها تعود الى تلك العائلة عند انقراض الاولاد الذكور من عائلة ورتمبرغ واتفق الفريقان على أن ثمرة هذه المشارطة لاحظ فيها للشيعة المخطئة فى شأن القربان ولا لاهل المذاهب الاخرى المخالفة فى العقيدة للكنيسة القاثوليقية ولا اعتراف

اوغسبورغ وعلى أن يجمعا قواهما التدمير الاناباتست لان مذهبهم كان قد تقوى وانهمك اهله على ارتكاب الامور الشنيعة

فطرد الاناباتست من ألمانيا العليا وبعد أن هاموا على وجوههم مدة طويلة في السويسة دخلوا البلاد الواطية ثم ارتحلوا منها الى وستفالية فاقام منهم بمدينة مونستير اثنان ادعيا النبوة احدهما يوحنا مسياس وكان خبازا من مدينة هرلم والثانى يوحنا بوكولد وكان خياطا من مدينة ليده وكانت مدينة مونستير هذه مدينة ايمپراطورية منقادة لحكم اسقفها الا أن ادارتها كانت لقناصلها وارباب مشورة السنت بها فاخذ هذان الرجلان اللذان هما من اهل الحمية الجاهلية ينشران مذهبهما في هذه المدينة سرا ثم بعد مدة يسيرة حرضا اتباعهما على القيام فحملوا اسلحتهم وطافوا المدينة وهم يقولون للناس باعلى اصواتهم اما أن تتعمدوا ثانيا اوتهلكوا فعند ذلك هرب اهل مشورة السنت والرهبان القاثوليقية واشراف المدينة ووجوه اهلها وتركوا مدينتهم لهؤلاء المحتدين الذين اخرجتهم الحمية عن طور العقل فاملى حينئذ يوحنا مسياس اوامره على اصحابه مع التصرف المطلق سالكا في ذلك مسلك الانبياء في الامر والنهى فامرهم بنهب الكنائس واتلاف زخارفها واحراق جميع الكتب ماعدا الكتاب المقدس فاجابوه بالسمع والطاعة وضبط على اموال الهاربين ثم باعها لاهل الكور المجاورة للمدينة وامر كل انسان من الاهالى أن يأتى بما عنده من الذهب والفضة والامتعة النفيسة ونصب شمامسة جعل لهم النظر في تلك الاموال التى جعلها شائعة لعموم الناس ورتب ولائم عامة ولما تم ترتيبه على هذا المنوال في التسوية بين الناس اخذ في تدبير ما يلزم لحماية المدينة من الاعداء فاحدث المخازن ورمم التحصينات وعود اتباعه الساعين بالفساد على التعليمات العسكرية وادخلهم على ما فيهم من الحمية الجاهلية تحت قانون الضبط والربط وبعث رسلا الى الاناباتست الذين بالبلاد الواطية يدعونهم الى الحضور الى مدينة مونستير التى سماها جبل صهيون (تشبيها لها بمدينة القدس

لان

لان هذا الجبل هو اعظم الجبال التى اسس عليها بيت المقدس) ثم يخرجون منها الدعاء الناس الى دينهم وادخال الخلق تحت شرائعهم وكان لا ينفك عن العمل والوعظ والاخبار بالمغيبات وكان الاهالى ينظرونه بعين التعجب والاستحسان ويصغون لاقواله مع الشغف والتواجد ويتبعونه مع الحمية والحماسة حتى اشتدت بهم جميعا الحمية الجاهلية وتمكنت منهم الحدة الدينية ومع ذلك جمع فرنسيس دوولديق اسقف مونستير فرقة عظيمة من العساكر واتى بها لمحاصرة تلك المدينة فانقض مسياس على معسكر ولديق وقهره وسفك به دماء كثيرة وظهر من الغد امام الاهالى وبيده رمح وقال انى لاذهب تأسيا بكذعون (بن يوآش وهو احد حكام بنى اسرائيل قتل اعداءهم واقام منار دينهم واستمر فيهم اربعين سنة) وأستصحب معى جماعة من الاخيار لندمر جيش الكفار واختار من اصحابه ثلاثين وساروا معه بدون توقف وانقضوا جميعا على العدو وقد بلغ بهم الغضب والسفه منتهاهما فلم يبرحوا حتى هلكوا عن آخرهم ومسياس معهم وبموته ادرك اصحابه الحيرة والفتور ولكن قوى قلوبهم بوكولد وورث ما كان لصاحبه من الاعتبار ونفوذ الكلمة بل ازيد طمعه لم تكفه شوكة الحكم وذلك انه لما كان فى الواقع ونفس الامر يتصرف تصرف الملوك اراد أن يتلقب بعنوان ملك فجمع الامة واحضر اليهم صائغا من بلدة يقال لها ورمدورب وكان قد علمه بوكولد أن يتكلم بلسان الوحى فلما حضر قال بوكولد ايتكلم هذا الرجل فانه نبى فعند ذلك صاح الصائغ قائلا ان يوحنا بوكولد قد اختاره الله ليكون ملكا على صهيون ويجلس على سرير ملك داود (يعنى بذلك مدينة مونستير كما سبقت الاشارة اليه قريبا) فصدقت العامة هذا الخبر وصفقوا تصفيق المسرة والاستحسان واجاب بوكولد الى ذلك مع الخشوع والتواضع واستعمل الشوكة الملوكية مع الابهة والرونق حيث اظهر شعار المنصب الملوكى وصار يكتنفه من عساكر الخفر جم غفير ولا يعارض امره معارض وعما قليل خلى بين نفسه وشهواتها واباح تعدد الزوجات ونظم ذلك فى سلك الاحكام

بالشرعية وجعل نفسه اسوة فى هذا الامر فتاسى به الناس فصارت مدينة مونستير محلا لهذه المفسدة الدخيلة فى الدين وماوى جامعا بين ضلالات ومفاسد عكفوا عليها وتشديدات عقائد اعتقدوها وجنحوا اليها وحدة غيرة دينية *وحرارة حمية جاهلية

فلم يمكن لالمانيا أن تتحمل مثل هذا الرجل الكذاب الحقير يدنس تاج الملوك ولا اتباعه الهمج السفهاء الذين بخسوا بالدين والمروءة والانسانية يدنسون اسم النصارى وذلك انه كان قد مضى على حصار المدينة خمسة عشر شهرا ولم يمكن للاسقف ولديق اخذها عنوة فلم يسعه الا الاقتصار على الاحاطة بها فأراد اللوثريانية والقاثوليقية فى اثناء هذه الشدة أن يساعدوه على تدمير هؤلاء الخوارج فبعثوا اليه بامدادات عظيمة فقاومهم اهل المدينة فى غاراتهم الاولية فاستطالت الحرب بذلك الا أن المجاعة أضرت بالمحصورين وكانت احدى زوجات هذا الباغى (يعنى بوكولد) قد سئمت مما كانت تعاينه وتتحمله من القبائح الشنيعة فداخلها الشك فى صحة نبوته وتجاسرت على افشاء ذلك بجميع الامة فورا وذبح أمامهم هذه المرأة التى كفرت بنبوته وصار هذا الجبار ونساؤه والعامة ارباب القسوة يرقصون رقصا قبيحا حول الذبيحة وهى تخفق وتضطرب وبعد ذلك بقليل اخذت مدينة مونستير بالقهر والغلبة وقبض على يوحنا بوكولد بمكيدة بعض الهاربين من جماعته وكان ذلك فى سنة ١٥٣٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٦ من الهجرة) فشدوا وثاقه وساروا به من مدينة الى اخرى والناس ينظرونه ويتفرجون عليه ويوجعونه بالسب والشتم ثم عادوا به الى مونستير التى هى دار عظمته وقبائحه فمات بها وهو فى اشد العذاب وله من العمر ست وعشرون سنة تقريبا

واما باقى بلاد ألمانيا فلم يجر فيها العمل بمصالحة كنكدان الاعلى وجه مشتبه فكثيرا ما تعكرت بمشاجرات وقعت بين اللوثريانية والقاثوليقية فى شأن اعمال الديوان الايمبراطورى الذى كان يريد منع البروتستان من

التغلب

التغلب على املاك الطائفة القسيسية فكانوا لا يقبلون له حكما ولا يرتضون له قضاء متعللين بأن اربابه اعداؤهم ولم يترتب على المفاوضات والمكالمات التى حصلت فى مدينة هغنو وفرنكفورت وورمس الا ايقاظ الفتنة وازدياد العداوة والبغضاء وظهر أن رجاء انقضاء النزاع بعقد مجمع عام من الآن فصاعدا من الامانى الباطلة وكان البابا كليمان السابع قد رضى سنة ١٥٣٣ ميلادية بالحاح الايمبراطور عليه أن يعقد المجمع الذى طلب منه عقده غير مرة ولكنه اختار لعقده من المدن واحدة من ثلاث وهى مانتوه وبولونيه وپلزنسة فامتنع البروتستان من قبول احكام مجمع يعقد فى مدينة من مدن ايطاليا وكذلك البابا بولس الثالث طلب أن يعقد مجمعا فى مدينة لانتوة فعورض ايضا من طرف البروتستان وقصارى الامر أن البروتستان طلبوا أن يعقد بدلا عن هذا المجمع الذى كان فيما يظهر غير ملايم لهم مجلس مناظرة بين العلماء اللاهوتية من الفريقين ابيدى كل ما عنده من البحث والمناقشة فى المواد المتنازع فيها فاجيبوا الى ذلك وانعقد هذا المجلس بمدينة راتسبونة (سنة ١٥٤١ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٤٨ هجرية) واتفق الفريقان فيه على بعض مواد غير مهمة واختلفا كعادتهما فى المواد المهمة ولما كان الصلح التام بين الطائفتين اذ ذاك من قبيل المستحيل ابرز الايمبراطور شرلكان باتفاقه مع مجلس وكلاء الملة خلاصة مضمونها أن المواد التى اتفق عليها العلماء يجرى العمل عليها حتى ينعقد مجمع عام من خصوص الملة او تنعقد جمعية من وكلاء الدولة وانه فى ظرف هذه المدة لا يبتدع فى امر الدين شىء وقد تجدد هذان الحكمان فى جمعية سبيرة التى انعقدت سنة ١٥٤٢ من الميلاد (المواقفة لنحو سنة ٩٤٩ من الهجرة) واشتهرت هذه الجمعية بانه لما طلب فيها البابا بولس الثالث أن يكون عقد المجمع بمدينة ترنتة اجيب الى ذلك وقد حصل الاعلان بأن افتتاح عقد هذا المجمع يكون فى غرة شهر نومبر من هذه السنة ولكن تأخر عقده عن هذا الوقت مدة ثلاث سنوات لاسباب مختلفة اقتضت ذلك وذلك أن

الايمبراطور اذ ذاك كان متفرغا بالكلية للحرب مع فرانسا وكان ملك الرومان مشتغلا بمعاناة مدافعة السلطان سليمان وكانت نيران الحرب الداخلى قد اضطرمت فى شمال ألمانيا وكانت من اوائلها اقوى واوسع من الحرب مع الاجانب وذلك أن مدينة برنسويق تشيعت وامتنعت من الانقياد لحاكمها هنرى لوجون (اى الشاب) وفى هذا الوقت حكم الديوان الايمبراطورى على مدينة غوسلار بالتجرد عن المزايا والحقوق وبالسقوط عن درجة الاعتبار ونيط بتنفيذ هذا الحكم الدوق هنرى فشدد فى اجرائه لكن بدون أن يتفرغ لذلك ويترك ماله من الحقوق فى قاعدة دوقيته فتعرضت عصبة سمالكالد للذب عن هذه المدينة وصارت من حزبها فهزم منتخب سكس وحاكم هيسة هذا الدوق واسراه مع انه كان معضدا خفية من طرف الايمبراطور ثم لما انتهى الحرب مع فرانسا بمشارطة كريسبى (سنة ١٥٤٤ ميلادية) وعقد ملك الرومان مهادنة مع السلطان سليمان اجلها خمس سنوات (سنة ١٥٤٥ ميلادية) تيسر للايمبراطور أن يتفرغ لامر الدين بدون أن يشغل باله مع الدول الاجنبية

وكان قد حصل منذ قليل عدة حوادث اكسبت الحزب اللوثريانى قوة عظيمة واعتبارا كبيرا وذلك أن منتخب برندبورغ المسمى يواشيم الاول كان على الدين القاثوليقى ثم مات وخلفه سنة ١٥٣٥ من الميلاد ابنه يواشيم الثانى فادخل بين رعاياه التشيع والاعتزال وحصل نظير ذلك سنة ١٥٣٩ ميلادية فى ايالتى مسنية وتورنجه على عهد الدوق هنرى وهو اخو الدوق جورجى دوسكس ووارثه وكذلك فى اقليم البلاطينا على عهد المنتخب البلاطينى فردريق الثانى وكان ذلك بعد موت اخيه لويز الخامس (سنة ١٥٤٤ من الميلاد) واعظم من هذا كله هوزيغ هرمان دو ويد منتخب كولونية ومطرانها حيث تشيع وحث رعيته على التأسى به سنة ١٥٤٣ ميلادية فترتب على هذا التشيع الواقع من هؤلاء المذكورين أن كثرت الآراء المرجحة للبروتستان فى الجمعية الانتخابية

وترای

وترأى من التشيع المذكور أنه يحمل الامراء من القسوس على تغيير حكوماتهم الانتخابية بحكومات وراثية كما صنع الرئيس الاكبر المسمى ألبرت دوبرندبورغ وكما حاول ذلك المطران هرمان

وفى اثناء هذه الاحوال افتتح المجمع العام بمدينة ترنتة فى ثالث عشر دقبر سنة ١٥٤٥ ميلادية وكانت الدول القاثوليقية قد قصرت جميع آمالها على هذا المجمع فكانوا من اول الفتنة الحاصلة فى امر الدين يرون أن المجمع المذكور هو اعظم دواء لهذا الداء الأن ذلك الداء كان قد عظم امره واشتد خطره فان البروتستان قالوا ثانيا على رؤس الاشهاد لانرضى بمجمع ترنتة ولا بغيره من المجامع متى كان للبابا فيها كلمة نافذة وامتنعوا من ارسال علمائهم واحبارهم الى هذا المجمع وتقوت عزيمتهم بما صدر عن المجمع من الاعمال والاحكام فان الخلاصات الاول التى صدرت عن اربابه هدمت اساس المذهب البروتستانى حيث نصت على صحة الكتب المقدسة التى حكم اللوثريانية ببطلانها وعلى أن ما ينسب لدين الكنيسة من الآثار المروية منظوم فى سلك الوحى وأن كتاب الولغات (الذى هو ترجمة الكتاب المقدس باللاطينية المتمسك به القاثوليقية) هو الكتاب المعتبر الذى يجب العمل به لصحة ترجمته دون غيره وبانضمام ما حصل فى حق البروتستان من الحرمان واللعن الى هذه الاحكام التى تضمنتها تلك الخلاصات تشاءم البروتستان المذكورون وتطيروا بأن عقائدهم سيحكم فى شأنها بحكم شديد وقد بلغ بهم الغضب منتهاه بالفرمان الذى صدر عن البابا وكان سببه أن مطران كولونيه دعى الى الحضور الى رومة فابى فحكم عليه بالعزل من حيث كونه ثبتت هرطقته وتشيعه وصارت رعاياه فى حل من ايمان البيعة التى اخذت عليهم عند ولايته

وكان شرلكان قد عزم على تدمير اللوثريانية وابادتهم ولكن كان يلزم التمهيد لذلك مع التبصر وحسن التدبير فلاجل أن يكتسب فسحة الزمن فى هذا الغرض اظهر انه يرغب فى الصلح وصار فى السر يستعد للحرب فامر بتجنيد

الجنود فى ألمانيا وايطاليا والبلاد الواطية وكان يوقع الفتنة او يوقظها بين امراء البروتستان حتى حمل جماعة منهم على العزلة والانفصال عن الفريقين بل فصل من عصبتهم كرلوس وألبيرت حاكمى برندبورغ وادخلهما فى خدمته وكذلك موريس دوق سكس وكان شابا طماعا فخدع حزبه فى هذا الوقت كما خدع شرلكان فيما بعد ثم عقد الامبراطور مع البابا پولس الثالث مشارطة التزم فيها أن يمدّ شرلكان بمدد قدره من الرجال ثلاثة عشر الف مقاتل ومن الاموال مبلغ جسيم

وبذلك حان وقت اشتداد الخطب واشرفت على الهبوب عواصف الشر التى تولدت وتجمعت مما كان حاصلا منذ ثلاثين سنة من الشقاق والتفاقم والعداوة والبغضاء وبعد أن شاهد لوتير نتيجة مذهبه المشؤمة فى الحرب بين اللذين وقعا من الاناباتست مات فى هذا الوقت المناسب لئلا يعاين المصائب التى كان يتوقع حصولها فى ألمانيا ففارق الدنيا فى سنة ١٥٤٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٥٣ من الهجرة) وكان موته كأنه علامة على الحرب الداخلى فان امراء البروتستان داخلهم الرعب والفزع من تجهيزات شرلكان فبادروا الى حمل السلاح وجهزوا فيما دون ستة اسابيع ثمانين الف مقاتل مع كون موريس وحاكمى برندبورغ تخلوا عنهم

وكان شرلكان لم يدبر امره كما ينبغى فان عساكره التى كانت بايطاليا والبلاد الواطية كانت الى ذلك الوقت لم تصل اليه وكان اذ ذاك مقيما فى مدينة راتسبونة ومعه من الجنود ثمانية عشر او تسعة عشر الفا فكان يسهل على العصبة البروتستانية أن تحمل عليه حملة يظهرون عليه فيها الا انهم بدلا عن الشروع فى القتال اضاعوا الزمن فى تزكية انفسهم ونفى الريبة عنهم فى هذا المشروع بالاعلانات والمناشير فما كان جواب شرلكان عن ذلك الا أن ابرز خلاصة مضمونها الحكم على منتخب سكس وحاكم هيسه بالتجرد عن الحقوق والمزايا والسقوط عن درجة الاعتبار لكونهما نكثا العهد وخرجا

عن الطاعة وابقظا الفتن وعكر الهدء والامن العام فاغتاظ منه الامراء اللوثريانية وبعثوا اليه كتابا يموهونه يدعى لقب الايمبراطور ودعوه الى الحرب والقتال على حسب الرسوم الجارية فى الدعاء الى ذلك ولكن تعطلت حركاتهم واعمالهم العسكرية بما وقع بينهم من المشاجرات والمنافسات وغيرة بعضهم من بعض وهذا فى العادة من آفات المعاهدات ففى اثناء محاصرتهم لمدينة راتسبونة التى كان قد خرج منها الايمبراطور الى مدينة لندسهوت الحصينة اتى له فى هذه المدينة امدادات قوية من ألمانيا وفلندرة وايطاليا فعند ذلك اخذ فى الاغارة والهجوم على اعدائه فتغلب من بلادهم على مدينة نوبورغ ودوناورث وديلمبورغ والجاء ارباب المعاهدة الى طلب الصلح وشرط عليهم شروطا شدد فيها كل التشديد فابوا قبولها وبينما هم كذلك اذ بلغهم أن الدوق موريس الذى كانوا الى ذلك الوقت يجهلون ما وقع منه من الخيانة والغدر انقض مع ملك الرومان على بلاد منتخب سكس وتغلب عليها بتمامها الامدائن غوثا وايزاناخ وويتمبرغ

فعند ذلك سار منتخب سكس لاسعاف بلاده واخذ معه فرقة عظيمة من العساكر فاشتدت حينئذ وطأة الايمبراطور على بقية ارباب المعاهدة فجبر دوق ويرتمبرغ على الانقياد اليه والدخول تحت طاعته فانقادت اليه مدينة أولم واوغسبورغ واستراسبورغ وفرنكفورت وسائر مدن ألمانيا العليا ودفعت اليه مغارم جسيمة وسلمت اليه مدافعها وذخائرها الحربية ودخل فيها محافظون من طرفه وخلع نفسه منتخب كولونيه فبعد أن كانت هذه العصبة المهولة قبل ذلك باشهر قلائل قد ارهبت الايمبراطور وخيف منها على نسخ الدين القاثوليقى بالكلية لم يبق من اربابها على حمل السلاح الا منتخب سكس وحاكم هيسة

ومع ذلك فكان الايمبراطور الى ذلك الوقت لم يتمكن من الظفر كل التمكن فان منتخب سكس لم يقتصر على استرجاع بلاده بل تغلب مع ذلك على بلاد

موريس ماعدامدينتى درسدة وليبسيق وهزم آلبرت حاكم برندبورغ واسره وكان الامبراطور قد ارسله الى اعانة موريس وقد شهرت ايضا بلاد جه وموراوية اسلحتها لقتال الملك فرديننـد لكونهما اتهمته بأنه تعدّى على مزاياها فاضطر هذا الملك الى ترك ما فتحه فى حكومة سكس الانتخابية حتى يخمد نار هذه الفتنة وزيادة على ذلك كان البابا بولس الثالث قد تنازع مع الامبراطور فى شأن پارمه وپليزنسة فامر عساكره بالرجوع واستعدّ فرنسيس الاول لحرب جديد مع الامبراطور وتشارط مع السلطان سليمان والبابا والبنادقة ودولة انكلترة والدانيمرقة وقوّى قلوب البروتستان وواعدهم بمدد من الاموال وكان شرلكان حينئذ قد اشرف على الفتك بهم ولكنه تربص منتظرا هـذا الخطب الذى سيدهمه الآن سعده ظهر على ذلك حيث تخلص مما كان فيه من الحيرة والخطر بموت الملك فرنسيس الاول (سـنة ١٥٤٧ من الميلاد) وجمع خمسـة وثلاثين الف مقاتل وتوجه بهم مصاحبا لاخيه فرديننـد والدوق موريس واسرع بهم السير قاصدا جهة سكس وكان يوحنا فردريق (منتخب سكس) نازلا خلف نهر الالبه فى اكناف مدينة ميسن فلما دنا منه الجيش الامبراطورى انحدر فى النهر الى مدينة موليبرغ فتبعه شرلكان من الشاطئ الاخر واجتاز نهر الالبه المذكور والنيران ترمى عليه من العدو واقتفى اثر المنتخب وكان قد ذهب الى جهة ويتمبرغ فادركه شرلكان قريبا من غابة لوشو وجبره على الملاحمة مع أن الطرفين كانا غير متساويين فابدى فردريق فى هذه الوقعة شجاعة الابطال وشهامة فحول الرجال لكن لما احاط به العـدو من سائر الجهات واعياه التعب وجرح فى وجهه قبض عليه العساكر الامبراطورية

(الفصل الثالث)

فى ذكر ما حصل منـذ وقعة موليبرغ الى موت فرديننـد الاول (وذلك من سـنة ١٥٤٧ الى سـنة ١٥٦٤ من الميلاد) (اى من سنة

٩٥٤ الى سنة ٩٧٢ من الهجرة تقريبا)

وبعد نصرة الايمبراطور على عدوه توجه الى وتمبرغ وكان القائم بالمدافعة عنها مع الشهامة والشجاعة المنتخبة سبيله دى كليوه (زوجة منتخب سكس) فلاجل أن ينهى الايمبراطور هذه المقاومة انتهك حرمة قوانين الايمبراطورية واحضر المنتخب فى مشورة حربية مؤلفة من ضباط اسبانيولية وايطاليانية ورئيسها دوق ألبه فحكمت عليه هذه المحكمة الغريبة بالموت مستندة فى ذلك الى انه ناقض للصلح العام ومرتكب ذنب الغدر ومسيء فى حق الايمبراطور فلما بلغ سبيله هذا الحكم ارتعدت فرائصها خوفا على زوجها ولم تفكر الا فى انقاذ مهجته من التلف فذهبت اليه فى المعسكر الايمبراطورى ومازالت تتضرع اليه ودمعها يتحدر وتسأله أن يقبل ما يعرض عليه من شروط الصلح حتى رق قلبه اليها واجابها الى ذلك فرضى بشروط يأباها شممه وتستنكف من قبولها نفسه لانه لم ينل الحياة الا على شروط هى والموت على حد سواء تقريبا وهى أن ينزل عن منصبه الانتخابى ويسلم فورا مدينتى وتمبرغ وغوتا ويفك ألبرت حاكم براندبورغ من الاسر بدون فداء وأن يمكث فى السجن مدة حياته وحصل الالحاح عليه فى تغيير دينه فلم يجب الى ذلك اصلا بل امتنع من قبول كل ما كان يراه مخالفا للحق مع الثبات الذى كان حقه أن يكون فى امر آخر احسن من ذلك ثم ان الايمبراطور كافأ موريس على اعانته له وتخليه عن حزب البروتستان بتوليته على حكومة سكس الانتخابية ماعدا غوتا فانها بقيت للمنتخب المعزول ورتب له معها معاش قدره خمسون الف فلورين (نوع من النقود) ووعد موريس بأن التقليد بالمنصب الانتخابى على الحكومة المذكورة يكون عند انعقاد جمعية الدييتة الآتية (اى مجلس وكلاء الملة)

ولما بلغ فيليبش حاكم هيسة ماحل بحليفه منتخب سكس داخله الرعب والفزع وخاف أن ينتقم منه الايمبراطور وكان لم يبق غيره حاملا للسلاح من عصبة سمالكالد فرأى انه مجبور على الاذعان والانقياد للايمبراطور بالكلية

وأن الواسطة له فى ذلك صهره موريس ومنتخب برندبورغ فالتزم له هذان الاميران بناء على ماوعدهما به الايمبراطور ووزراؤه من المواعيد الصحيحة انه لايؤسر ولايسجن فعوّل على ذلك وقبل ما املاه الايمبراطور من الشروط فكان منها أن يفوض الامر للايمبراطور فى بلاده ونفسه ويطلب منه الصفح وهو جاث على ركبتيه ويدفع مائة وخمسين الف قطعة من النقود المسماة كرونة فى نظير مصاريف الحرب ويهدم اسوار مدنه الحصينة ويسلم ماعنده من المدافع والذخائر الحربية ومنها غير ذلك ولما اتى به الى مدينة هال ببلاد سكس فى معسكر الايمبراطور لزمه أن يمثل بين يديه جاثيا على ركبتيه بحضور جمعية كبيرة من اعيان الايمبراطورية مؤملا انه بعد هذا الخضوع والمذلة يحظى منه ولو بحريته وتخلية سبيله ولكن خاب امله فانه قبض عليه بامر الايمبراطور ولم تمكن الاناة جانبه حتى يعدل عن هذا الامر لا بما صدر عن هذا الاسير من بوادر الغضب او التظلم الواقع فى محله ولا بمراجعة موريس ومنتخب برندبورغ وترجيهما فى اطلاقه حيث تضرعا لشرلكان فى العدول عن هذا الامر الجبرى لما انه يعود عليهما بالخزى والفضيحة بل مازال مصمما عليه وبقى فيليبش فى السلاسل والاغلال وزيادة على ذلك اظهر الايمبراطور به وبمنتخب سكس الشماتة على شقائهما وسوء حظهما فصار يسحبهما خلفه من مدينة الى اخرى مظهرا الانفة والافتخار وجعلهما زينة لظفره وموكب نصرته

وعما قليل افضت بهذا الفاتح نشوة فرح النصرة الى أن صار لا يوقر احبابه ولا اعداءه معتقدا انه قمع الملة الجرمانية فاجرى حقوق النصرة مع التشديد والقسوة وذلك انه شحن المدن بمحافظين من الاجانب واثقل الرعايا بالمغارم والمظالم ولظنه انه استولى باسلحته الهائلة على عقول الالمان التى من دأبها النفور وعدم الانقياد امر بعقد جمعية من وكلاء الملة فى مدينة اوغسبورغ ليبت فيها الامر فيما يتعلق بالمجادلات الدينية التى نغصت عيش الايمبراطورية منذ مدة طويلة وكان البابا بولس الثالث قريب عهد بنقل المجمع من

ترنتة الى بولونية والاولى أن يقال بفسخه وابطاله لابنقله وكان السبب الحامل له على ذلك هو عين السبب الذى بعثه على طلب عساكره من عند شرلكان ولما لم يجب الايمپراطور الى اعادة هذا المجمع الى مدينة ترنتة رآى شرلكان انه غنى عن اذنه ورضاه وانه بمفرده يقطع عرق سائر المشكلات الدينية التى نشأ عنها اضطراب العقول وتشعب العقائد بدون احتياج الى البابا المذكور (وكان ذلك سنة ١٥٤٨ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٥٥ من الهجرة) فامر بوضع قانون محتو على ست وعشرين مادة يكون العمل عليه فى الامور الدينية حتى ينعقد مجمع صحيح فلذا اسمى هذا القانون باسم انتريم (يعنى المعمول به فيما بين وقت وضعه وزمن عقد المجمع) وكان هذا القانون مشتملا على اصول تامة من اصول الدين مطابقة لما عليه الكنيسة الرومانية الاماندر غير أن عباراته كان عليها طلاوة وفيها ابهام بحيث يمكن بها التوفيق بين المذاهب المتنوعة فلم يعجب كلا الفريقين * اما اللوترياتية فلكونهم رأوه من باب التعدى عليهم والاجحاف بهم واما القاثوليقية فلانهم رأوه من مواقع العثرات ومزال الاقدام فكان الاول يتظلمون منه حيث وجدوا فيه الحكم بانكار اصولهم وبطلان عقائدهم وكان الاخر يودون لو كان هذا الحكم اتم من ذلك واكمل وقد اسخط البابا ماصنعه الايمپراطور حيث افتات عليه بجعل ماهو حق للبابا والكنيسة الرومانية من الشوكة والقوة حقا له ومع ذلك عرض الايمپراطور هذا القانون على جمعية اوغسبورغ وكانت هذه المدينة مشحونة بالعساكر الاسپانيولية فلم يتجاسر احد على أن يتفوه بشئ فى حق ذلك القانون لاعتضاده بهذا الجيش فظهر بذلك انه حل منهم محل القبول

وفى هذه الجمعية قلد شرلكان دوقسكس (يعنى موريس) بالمنصب الانتخابى وكان احتفال تقليده برأى من المنتخب المعزول فقد ابصر ذلك من المحل الذى كان مسجونا فيه ولم يظهر عليه حال المعاينة تأثر ولا اضطراب بل ولا ادنى اشارة تدل على تحسره وتأسفه وتقضى ببطلان ما كان يحافظ عليه حتى فى زمن نكبته من شرف النفس وعلو الهمة

ثم ان الايمبراطور بعد انحلال الجمعية اشتغل بنشر الانتريم واجراء العمل عليه فتلقاه بالقبول اغلب امراء البروتستان وردته المدن الايمبراطورية فى مبدأ الامر ثم قبلته بعد ذلك بقليل امالخوفها وفزعها اولقهرها وغلبتها ماعدا مدن مغدبورغ وبريمة وهمبورغ ولوبيق

وفى اثناء ذلك مات البابا پولس الثالث (سنة ١٥٤٩ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٥٦ هجرية) فسمح خليفته يولس الثالث لشرلكان بفرمان لاجل اعادة مجمع ترنتة فعند ذلك عقد شرلكان مجلس وكلاء الملة بمدينة اوغسبورغ وظهر فيه بمظهر الفاتح المنصور وحوله فرقة هائلة من العساكر وطلب من ارباب المجلس أن يذعنوا للمجمع الذى سيجمع فى ترنتة ويلتزموا باتباع احكامه (وكان ذلك سنة ١٥٥٠ من الميلاد) (الموافقة لنحو سنة ٩٥٧ من الهجرة) وطلب ايضا من وكلاء الملة الاعانة والمساعدة على اجراء العمل بقانون الانتريم وحملهم على أن يجعلوا له حق الحكم والقضاء فيما يتعلق باراضى الكنيسة واملاكها التى تغلب عليها البروتستان وأن يفوضوا له الامر فى اعادة المحاكم القسيسية الى الاماكن التى بطلت منها وقد اقرت هذه الجمعية حكمه فى السنة الماضية على مدينة مكدبورغ بالتجرد عن المزايا والحقوق ثم قلد موريس قيادة العساكر التى اعدها لقمع هذه المدينة نظرا الى كون هذا الدوق مدير دائرة بلاد سكس السفلى وبالجملة فلم يجد شرلكان من يعارضه فى غرض من اغراضه الا فى مادة واحدة وهى جعل ولده فيليبش ولى عهده على الايمبراطورية لان هذا الابتأتى الا بحرمان عمه فرديننذ الذى كان اذ ذاك ملكا على الرومان ونزوله عن وراثة التاج الايمبراطورى لابن اخيه وهو لم ينزل له عن هذا المنصب الرفيع الذى كان يؤمل حيازته لنفسه ولم يرض أن يتركه له يتوارثه اولاده من بعده وعضده على امتناعه المنتخبون فاضطر الايمبراطور الى ترك هذا المطمع الناشئ عن رأفة الابوة اوالى تأخيره الى وقت آخر

وما ادركه من ذلك من الغم والحزن خفف عليه امره بانقياد مدينة مغدبورغ

فانها بعد أن حاصرها موريس عشرة اشهر سلمت وانقادت اليه وقصارى الامر أن ألمانيا بتمامها اذعنت لاحكام الايمپراطور حتى صار على غاية من النصرة والظفر لا ينقص من ذلك شيأ وبينما كان قد بلغ فى الانفة والكبر الغاية كما وصل فى الشوكة والقوة الى النهاية اذ ضاعت ثمرة نصراته بتخلى هذا الامير (يعنى موريس) الذى اعانه على خفض البروتستان ورفع شوكته على آثار حقوق الايمپراطورية الجرمانية ومزاياها التى اندرست

وذلك أن موريس لم ينل منصب الانتخاب الا بالمخادعة حيث اخفى مع الحذق والنباهة مقاصده الحقيقية واظهر الهمة والاجتهاد فى خدمة شرلكان * وبضم التزاماته الى التزامات الفرع البكرى من عائلة سكس صار اقوى امراء ألمانيا فلما جنى من مخالفة عائلة اوستريا جميع ما كان يؤمله من الثمرات وحصل منها ما كان ينتظره من الفوائد صار كلما علت منزلته وارتفعت درجته اشتدت غيرته وقويت رغبته فى جعل المزايا والخصايص فى حرز ووقاية من اهواء هذا الفاتح المطلق التصرف الذى خامرته اقداح الافراح فسكر من خمر النصرة والنجاح وقد داخله الفزع والرعب من شوكة الايمپراطور وما تصدى اليه من المشروعات فى شأن الدين البروتستانى ومزايا العصابة الجرمانية وتأثر غاية التأثر من ازدرائه له هو ووزراؤه حيث لم يف له بما التزم به فى شأن حاكم هيسة بل اسره وسجنه فحمله الحقد مما مضى والخوف من المستقبل ورعاية مصلحته الشخصية ومصلحة مذهبه الدينية على أن يضمر الغدر والخيانة للايمپراطور بل ربما كان الحامل الاقوى على ذلك هو غروره وطمعه فى التصرف فى مصالح ألمانيا بما يحب ويختار وبينما كان على هذه الحالة نيط بحصار مدينة مغدبورغ وكان لم يزل محرصا على اضمار مقاصده وكتمانها كل الكتمان فلذا استحسن الايمپراطور انتخاب الجمعية له واقر ذلك مع الوثوق الخالى عن التبصر فسلك موريس فى المحاصرة مسلكا رديأ بقدر الامكان بدون أن يظهر منه ما يفضى بالايمپراطور الى الريبة والوسوسة حيث بالغ فى صعوبة هذا الحصار وكثرة مشاقه واطال امد

المحاصرة عشرة اشهر وفى ظرف هذه المدة اشتغل بالمراسلة والمداولة مع اعداء شرلكان وبتجهيز مايؤدى الى اضراره وانحطاطه وبالجملة فلما صار لا يمكنه تأخيراخذ مغدبورغ الا ويجر ذلك الى ارتياب الايمبراطور منه فتخيب مساعيه سمح لاهلها بشروط خفيفة جدا بالنسبة لما كانوا يخشونه منه حتى اختاروه حاكما عليهم وقد دارى تساهله لهم واختيارهم له باسباب مقبولة بحيث لم يرتب منه شرلكان فى ذلك بل صدق على المشارطة بدون توقف (سنة ١٥٥١ ميلادية)

ومع ذلك كانت دسائسه ومفاوضاته تتزايد وتتسع ولما تحقق من اعانة ملك الدانيمرقة ودوق مكلنبورغ والحاكم ألبيرت دو برندبورغ كولمباخ واولاد حاكم هيسة عقد مع هنرى الثانى (ملك فرانسا) المشارطة المعروفة بمشارطة فريبدولد التى التزم فيها هذا الملك بضم عساكره الى عساكر امراء البروتستان لاجل فك حاكم هيسة وتخليصه من الاسر وتدارك بطلان القوانين واصول الايمبراطورية وبالجملة فلما تم جميع تجهيزاته طلب من الايمبراطور ثانيا اطلاق حاكم هيسة من الاسر فماطله فى ذلك فجمع موريس جميع عساكره فى تورنجه وضمها الى عساكر برندبورغ وهيسة واسرع بهم الى بلاد ألمانيا العليا واعاد ولاة اللوثريانية وامناء دينهم الى اماكنهم فى سائر الجهات ووصل الى اوغسبورغ بقدم خمسة وعشرين الف مقاتل فاستولى عليها وانتشر الفزع من غاراته الفجأية حتى وصل الرعب الى مدينة ترنتة فان احبار المجمع الذى كان منعقدا بها خرجوا منها وانفسخ المجمع ثانيا

فلما بلغ الايمبراطور خبر هذا القيام دهش وتحير لان خزائنه اذ ذاك كانت قد نفدت اموالها وكانت عساكره متفرقة فى بلاد المجار وايطاليا والبلاد الواطية ولم يكن معه فى مدينة أنسبروق التى كان مريضا فيها بداء النقرس الا شرذمة قليلة من العساكر قل ان كفت لخفره وحراسته فلم يجد سبيلا الا المفاوضة والمكالمة فى هذا المعنى وفوض هذا الامر لاخيه فردیننـد تفويضا كليا

ففتحت مجالس المذاكرة فى هذا الغرض بمدينة لنتز ولم تمكث الامدة يسيرة ثم فسخت وبعد ذلك جد موريس فى المسير الى انسبروق قاصدا مفاجأة الايمبراطور فيها حتى لم يبق بينه وبينها الا مرحلتان فعند ذلك خاب امله وتعطل سيره بقيام اورطة من العساكر المستأجرة عليه فضاع منه فى تسكين فتنة هؤلاء العصاة زمن نفيس حيث تخلص فيه الايمبراطور من الخطر فانه لما بلغه خبر هذا الخطر لم يجد للنجاة سبيلا الا الاسراع بالهروب فخرج من المدينة فورا فى ليلة شديدة الظلام غزيرة المطر محمولا على تختروان كان لا يطيق حركته الا مع المشقة لما كان قائما به من الاسقام والآلام ولم يزل سائرا وهو بهذا المظهر الحقير الذى لم يعرف فيه انه صاحب ألمانيا حتى وصل الى مدينة ويلاخ من بلاد قرنتيا واما موريس فذهب الى مدينة پاسو حيث كانت موعد التجديد المذاكرات التى افتتحت مجالسها فى مدينة لنتز ولم يشغل نفسه بما لا طائل فيه من تتبع الايمبراطور فى الاماكن التى كان يفر اليها لما أن العساكر كان لا يمكنها الدخول فيها لمناعتها وحصانتها فرغب الايمبراطور فى اصلاح ذات البين بألمانيا لنجاح العثمانية فى بلاد المجار وقلة الاموال ورغبته فى الانتقام من ملك فرانسا وكان موريس ايضا يخشى بأس المنتخب القديم وهو حنا فردريق لان شرلكان كان قد اطلقه حين هروبه من مدينة أنسبروق فلهذه الاسباب المختلفة انعقدت المشارطة الشهيرة المعروفة بمصالحة پاسو فى ثانى شهر اوغسطوس سنة ١٥٥٢ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٦٠ من الهجرة) وكان مضمونها أن حاكم هيسة يطلق من الاسر حالا وأن قانون الانتريم يبطل وأن الايمبراطور قبل مضى سنة يعقد مجلس وكلاء الملة لاجل انهاء المشاجرات الدينية وأنه فى ظرف هذه المدة (اى قبل عقد هذا المجلس) يكون كل انسان مرخصا فى ديانته وان الديوان الايمبراطورى بمدينة سپيرة يؤخذ اربابه من البروتستان والقاتوليقية بدون ايثار ولا تمييز وأنه اذا لم يبت المجلس الآتى امر المشاجرة فى الدين فهذه المشارطة يجب العمل بها على الدوام

كالقوانين الشرعية

وكان البروتستان قد التزموا فى مشارطة فريدولد انهم لايعقدون صلحا ولاهدنة بدون رضاء ملك فرانسا وكان هذا الملك قد وفى بكل ما التزم لهم به اتم التوفية فقد شاغل عنهم عدوهم بعساكره فى بلاد الاسقفيات الثلاث وفى اقليم الزاسة مشاغلة عادت عليهم بالمنفعة ومع ذلك فلما رأوا انهم صاروا غير محتاجين لاعانته نسوا ما يجب له عليهم ولم يتفكروا الا فى مصالحهم الخصوصية وتخلوا عنه وتركوه يكابد وحده مشاق الحرب (راجع تاريخ هنرى الثانى)

وقد عرضت عدة عوارض كان من جملتها موت موريس فتأخر بها عقد مجلس وكلاء الملة الذى اتفق عليه فى مشارطة باسو لاجل انهاء المشاجرات الدينية ثم انعقد هذا المجلس فى مدينة اوغسبورغ تحت نظارة ملك الرومان لغيبة الايمبراطور اذذاك فانه كان لم يزل مشتغلا بالحرب مع دولة فرانسا وفى هذا المجلس سلم كل من الفريقين لصاحبه فى بعض مطالبه فوضعوا القرار سنة ١٥٥٥ ميلادية (اى نحو سنة ٩٦٣ هجرية) على مشارطة تتضمن دوام الصلح بين الفريقين والرخصة فى الديانة فانهم منعوا فيها كل تعدوا قتيات فى امر الدين بحيث لايعارض احد من تمسك منهم بالدين القاثوليقى ولا من عمل بمقتضى اعتراف اوغسبورغ وماعدا ذلك خارج عن حد الرخصة وكان غرضهم بهذا المنع التحرز والانكار على الكلونية (وهم طائفة متشيعة لاتقول بالنذر ولا بعبادة الصور ولا بالتوسل بالقديسين وتنكر ايضا امورا اخرى دينية) فان هذه الطائفة لم ينالوا الرخصة فى ديانتهم والعمل بها علانية الا فى مشارطة وستفالية وانحط الرأى بين الفريقين ايضا فى هذه المشارطة على أن كبار الطائفتين لايسلكون مع الرعايا مسلك الترهيب ولا الترغيب بقصد حملهم على التمسك بدينهم وأن من كان من الرعايا على خلاف دين سيده يرخص له فى المهاجرة وأن المحاكم القسيسية لاتجرى احكامها على المتمسكين باعتراف اوغسبورغ وأنه لامانع من استخدام

البروتستان

البروتستان فى الديوان الايمپراطورى وفى المشارطة امور اخرى غير ذلك ولكن بقى مادتان لم يتفق الفريقان فيهما على شئ احداهما ماتضمنه البند السابع من المشارطة من انه من الآن فصاعدا كل اسقف اوقسيس تشيع وانفصل عن الديانة الرومانية فانه بذلك يكون معزولا عن منصبه ويولى غيره محله وهذا ماسمى فيما بعد باسم الرزروة القسيسية فان هذا البند وان جعل من شروط المشارطة برضاء الفريقين وعدته القاثوليقية من اصول الايمپراطورية الأن البروتستان نازعوا فيه بعد ذلك وانكروه والمادة الثانية هى ان ملك الرومان اعطى للبروتستان بعد رضاء امراء القسوس فرمانا مضمونه الرخصة فى الديانة لمن كان فى دول هؤلاء الامراء من الملتزمين والمدن والجهات فان هذا الفرمان انكره القاثوليقية فيما بعد كما انكر اللوثريانية البند السابع فبذلك كانت مشارطة اوغسبورغ غير مستوفية لجميع المواد بل بقى منها البعض غير متفق عليه والبعض ناقصا ولكن بها سكنت آلام ألمانيا وخمدت منها نيران الفتن الداخلية وحاشا انها اطفأتها بالكلية كيف وهى مشتملة على اصول يتفرع عنها فتن جديدة

وفى السنة التى انعقد فيها هذا الصلح نزل شرلكان لابنه (فيليبش) عن البلاد الواطية وفوتنية برغونيا وبعد أن تخلى عن جميع دوله فى السنة التى بعدها ذهب الى دير سنت جوست ومات فيه سنة ١٥٥٨ من الميلاد وخلفه على الايمپراطورية اخوه فردننند فسعى هذا الايمپراطور الجديد فى ايقاع التعادل والتساوى بين القاثوليقية والبروتستان لما انه كان لابد له من اعانتهم على قتال العثمانية ولم يأل جهدا فى قطع المشاجرات الدينية وحمل ديوان رومة غير مرة على أن يتساهل فى امور كان يظن أن فيها صلاحية للتوفيق بين العقول والتأليف بين القلوب وامر بالنظر فى المسائل الدينية الواقع فيها النزاع فى مجالس جديدة فلما لم يترتب على هذه المجالس ثمرة طلب من البابا پيه الرابع أن يجدد مجمع ترنتة الذى تعطل منذ سنة ١٥٥٢ من الميلاد فاجابه الى ذلك وانعقد هذا المجمع ثالث مرة فى ثامن عشر

بنويه سنة ١٥٦٢ ميلادية (اى نحو سنة ٩٧٠ هجرية) ولكن كان البروتستان قدعزموا قبل ذلك على أن لايقروا احكامه وابى ارباب المجمع ايضا أن يتساهلوا لهم فى اى شئ كان وانما نشروا قوانين لاجل اصلاح حال الكنيسة الرومانية وقرروا زيادة على ذلك جميع اصول الدين القاثوليقى وسائر رسومه وعوايده ودعوا بالحرمان على المتشيعين فكان ذلك مانعا من رجاء الائتلاف وقاطعا الامل الاجتماع وكان انفصال ارباب هذا المجمع سنة ١٥٦٣ ميلادية المقابلة لنحو سنة ٩٧١ هجرية وفى السنة التى بعدها مات فرديننند وقد كان هذا الامبراطور متمسكا كل التمسك بدين آبائه واجداده الا انه كان يميل الى الترخيص فى امر الديانة وكان فى اموره على سنن الاقتصاد والاعتدال فلو كان امر الاختلاف فى الدين يكفى فى انهائه مجرد الغيرة والحذق والحزم وكذلك لو لم تكن الاغراض وحظوظ النفس موانع قوية لتنجيز اغراضه فى هذا المعنى لانهى امر هذا الاختلاف وحصل بين الناس الوفاق والائتلاف

(الفصل الرابع)

فى الكلام على بلاد السويسة من سنة ١٥١٦ الى سنة ١٥٦٤ من الميلاد (اى من سنة ٩٢٢ الى سنة ٩٧٢ من الهجرة تقريبا)

كانت ولادة اولريخ زنجل الذى تشيع وغير فى الديانة القاثوليقية ببلاد السويسة سنة ١٤٨٤ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٨٨٩ من الهجرة) بمدينة ولدشوزن من وادى توكنبورغ (اوتوغنبورغ) وتعلم فى مدينة برنه وويانة (بچ) ومدرسة باله الجامعة التى لم يكن اذ ذاك ببلاد السويسة مدرسة سواها ثم حظى برتبة الخورى بكورة غلاريس (سنة ١٥١٦ ميلادية) وشرع من وقتئذ يعظ الناس بأن الكتاب المقدس يجب أن يعتقد انه قاعدة الايمان واصل العقيدة حتى من قبل أن يقول بذلك لوتير فى بلاد ألمانيا ولما تقلد بعد ذلك بقليل برتبة خورية البلدة المسماة

انسيدلن التى هى من كورة شوونز ثم بخورية زوريخ منع الراهب برنارد سمسون وهو من طائفة الرهبان الزنارية أن يدخل هاتين الكورتين وكان البابا ليون العاشر قد بعثه الى بلاد السويسة ليدعو اهلها الى الغفران وتكفير السيئات (ببذل الكفارات) وذم بيع الغفران واستشنع هذه التجارة بل وانكر تأثيرها كما وقع من لوتير فى مدينة ويتنبرغ ثم ازدادت جسارة هذا المتشيع فى هذا المعنى بالتدريج حتى تصدى لهدم اساس ديانة الكنيسة الرومانية متعللا بعلة التهذيب والاصلاح فاغتر اهل كورة زوريخ بوعظه وانذاره وكانوا اول من تمسك بمذهبه الذى سماه بالدين الانجيلى ثم تأسى بالزوريخية فى ذلك كور باله وشافوزه وبرنه وكذلك المدن المتعاهدة من كورتى سنت غال وملهوزن فغيروا وابطل الزنجلية (اى اصحاب زنجل) اغلب قواعد الدين القديم ومناسكه فكان هذا الابتداع سببا فى اثارة الحمية فى الكور التى بقيت على الدين القاثوليقى وبذلك استولت على بلاد السويسة الفتن الدينية التى هى مقدمة الحروب الداخلية ولم يهدأ اضطراب العقول ولم تسكن الفتنة بمجلس المناظرة الذى انعقد بمدينة بادن سنة ١٥٢٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٣ من الهجرة) وكان رئيس المتشيعة فى هذا المجلس اوكلمباده وكان اشهر اصحاب زنجل وكان رئيس القاثوليقية فيه الشهير اقيوس دنفولستاد ومكثت المناظرة والجدال بين الفريقين ثمانية عشر يوما وكان السب والشتم فى هذا المجلس قائما فى الغالب مقام الادلة والبراهين وبعد هذا النزاع العديم الجدوى الذى تولد فيه عن اضطراب الآراء ومصادمة الانظار حمية وحدة اكثر مما نشأ فيه عن ذلك من الاهتداء الى الحجة الواضحة نسب كل فريق النصرة الى نفسه وقد كان يمكن للقاثوليقية أن يظهروا على اعدائهم لما وقع بينهم من التفاقم والشقاق حيث دخل الافتراق الدينى الكنيسة الجديدة (يعنى فى مذهب المبتدعة)

وذلك ان رجلين من ألمانيا كان من اهل الحمية الجاهلية والغيرة الدينية وهما استورك ومونسير زعما أنهما اطلعا فى الكتاب المقدس على أنهما مأموران

بتأسيس مملكة المسيح فى الارض وأنه يلزم أن تكون هذه المملكة خلية عن الذنوب والخطايا وأن تكون مركزا للحرية والتسوية بين الناس وأن تكون مجردة عن الولاة والامراء والمغارم والاعشار والسخر وأن تكون قائمة بنفسها ومستقلة كل الاستقلال فى الامور الدينية والاهلية وهذا هو اصل مذهب الانابانست وانما سمى اصحاب مونسير بهذا الاسم (يعنى انابانست) لانهم كانوا يعمدون البالغين ثانيا (اخذا من كلمة باتيزى التى معناها التعميد كما سبق) وسرى هذا المذهب الى بلاد السويسة فادعى النبوة فيها رجلان من كورة زوريخ يقولان بهذا المذهب وهما منز وغريبل ودخل تحت لوائهما اناس مختلفون ما بين اصحاب غيرة دينية ومتضررين من الحكومة وهمل مجهولى الاحوال وخرجوا من وقتئذ عن طاعة ولاتهم ورفضوا الدين الجارى به العمل ولم يمكن العدول بهم عن ذلك لا بالترغيب والاستمالة ولا بالترهيب بالعقوبات الخفيفة بل ولا بالاكراه بالعقوبات الشديدة فتعين قتالهم ومحقهم بالسيف عن آخرهم وكان القاثوليقية يلومون لوتير وزنجل واضرابهما من المبتدعة على هذه المصائب التى حلت بالعباد وحق لهم أن يلوموهم لانهم هم السبب فى هذه المضار المفرطة واما غضبهم على الرافضة فلم يبرءهم من نسبة هذا الضرر اليهم بحسب الاصل

وكان هنالك مضرة اخرى داخلية نغصت ايضا على اهل الديانة البروتستانية وهى اختلاف مؤسسى التشيع البروتستانى اعنى لوتير وزنجل فى عدة مواد ومباحث دينية لاسيما مادة القربان المقدس فقد قال فيها لوتير بالحضور الحقيقى وخالفه تلميذه كرلوستاد والف فى ذلك تأليفا فلما طرد من ألمانيا لما كان عليه لوتير من الاعتبار ونفوذ الكلمة التجأ الى السويسة فاكرموا نزله واحسنوا اقراه وظهر فيهم محامون لمذهبه ومعضدون لرأيه وتبعه منهم خلق كثير ومن وقتئذ دخل زنجل وغيره من احبار السويسة اللاهوتية فى عداد الاشرار الذين حق عليهم الوبال والبوار وانتظموا فى سلك خدام الشيطان واوليائه واشهر لوتير الحرب معهم فهكذا ظهر الافتراق الدينى

من

من مبدأ الامر فی الطوائف البروتستانیة ولم یزل هذا الافتراق یوقع بینهم الاختلاف والشقاق

فکانت الکور الاربع وهی زوریخ وباله وشافوزه وبرنه کلها بروتستانیة وانتشر هذا المذهب ایضا بعض انتشار فی کورتی غلاریس وابنزیل وکذلک فی القضاآت ای ولایات القضاء التابعة لحکومة السویسة کبلاد تورغویة وتوکیبورغ وریئتال وبقی سبع کور من کور السویسة علی الدین القاثولیقی وهی لوسرنه واوری وشیوتیز واوندروالدن وزوغ وفریبورغ وسلورة وفی سنة ١٥٢٨ من المیلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٥ من الهجرة) تعاهدت هذه الکور السبعة مع کورة والیس وعقدوا عصبة دخل فیها فی السنة التی بعد السنة المذکورة فردیننددوستریا ملک المجار وکان الغرض منها الذب عن دینهم وفی سنة ١٥٢٩ میلادیة (ای نحو سنة ٩٣٦ هجریة) عقد البروتستان ایضا عصبة فی برنه فکانت هذه الاحتراسات دلیلا علی ما کان عند الحزبین من الریبة والاستخوان والعداوة والبغضاء وبالجملة فلما صار التشیع یزداد کل یوم فی ولایات القضاء العمومیة رآی القاثولیقیة أنه لا یمنع ذلک الا معارضة اهالی تلک الولایات فیما کان لهم من رخصة الدیانة فعند ذلک تسلح اهل زوریخ وحلفاؤهم بقصد حمایة متشیعی الولایات المذکورة وخرجت عساکر الفریقین للقتال فاجتمع قریبا من مدینة کابیل نحو ثلاثین الفا تجاه بعضها فبینما هم قد اشرفوا علی افناء بعضهم بعضا بالقتل اذ حمل یوحنا اوبلی والی غلاریس الذی انقذ کورته قبل ذلک فی وقعة اخری من اهوال الحروب الداخلیة رؤساء الجیشین علی الرضاء بالمتارکة عدة ایام واتفقوا فی هذه المدة علی عقد مجلس فی مدینة آرو وانحط الرأی فی هذا المجلس بعد مجادلات شتی علی الصلح الذی انقطع به عرق النزاع اوخمدت به نیران الفتنة قبل اعمال السلاح وبموجب مشارطة هذا الصلح صار لکل ولایة من ولایات السویسة حق فی ترتیب ما یخصها من امور الدین فبذلک امتنع التنغیص

من احد الطرفين على الآخر فى اجراء هذا الحق واستقر رأيهم فى هذه المشارطة على أن ولايات القضاء العمومية يعقد فيها مجلس يكون اربابه مرخصين فى ابداء آرائهم وما ينحط عليه رأى جمهورهم فى شأن شعائر دين الكنيسة الرومانية ابقاء او ابطالا يجرى عليه العمل والتزمت الكور القاثوليقية أن تنقض مخالفتها مع الملك فرديناند فهذه هى الشروط الاصلية من مشارطة الصلح الدينية التى انتهى بها ما سموه من وقتئذ بحرب كابيل الاول (وكان انعقاد هذا الصلح فى سنة ١٥٢٩ من الميلاد)

ولكن لم يعمل الفريقان بهذه المشارطة على ما ينبغى فانهم بعد أن سعوا ظاهرا فيما يوجب الوفاق والائتلاف جردوا ثانيا السلاح على بعضهم سنة ١٥٣١ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٨ هجرية) وهزم القاثوليقية فرقة من عساكر زوريخ كانت نازلة فى كابيل وكان ذلك قبل أن يجمع البروتستان جموعهم وكان زنجل من جملة المقاتلين فقتل فى هذه الوقعة التى قتل فيها ايضا اوجوه مدينة زوريخ وخيار اهلها ففترت همة الزوريخية فى مبدأ الامر لهذه الخسارة وانكسرت بها قلوبهم ولكنهم بعد ذلك بقليل دبت فيهم الحمية وتراجعت اليهم القوة بما قدم اليهم من الامدادات من كور باله وبرنه وشافوزه وغلاريس وولايات القضاء العمومية ولما كان جيش المتشيعين يبلغ عدده عشرين الف مقاتل اخذ فى الهجوم وشن الغارة ولم يزل كذلك حتى وصل الى سفح زوغ جيبرغ يعنى جبل زوغ وكان جيش القاثوليقية نازلا هناك وكان عددهم عشرة آلاف فقط فبادر البروتستان الى القتال غير أنه كان قد استولى عليهم الشقاق والتفاقم فلم تكن تدبيراتهم متناسبة ولم يجروا تنجيزها على وجه مستحسن فحقت عليهم الهزيمة ثانيا وبها تم افتراقهم وزال التئامهم واتحادهم فعقدت كورة غلاريس وقوتنبة توكنبورغ وحدهما الصلح مع القاثوليقية وطلب اهل زوريخ ثم حلفاؤهم المفاوضة فى شأن الصلح فانعقدت بين الفريقين مشارطة صلح حصل الالتزام فيها من الجانبين بان كلا الفريقين مرخص فى ديانته لا يعارضه فيها احد والتزم

البروتستان

البروتستان بدفع مصاريف الحرب وجبروا على الرضاء باعادة الديانة الرومانية فى اغلب ولايات القضاء العمومية مع عدم المعارضة

وكان ظفر القاثوليقية انماه وباتحادهم واتفاق كلمتهم فاوثقوا بعد نصرتهم عرى هذا الاتحاد واكدوا روابطه وكذلك البروتستان جددوا عصبتهم التى كانت قد بطلت بمشارطة الصلح المذكور فصارت بذلك بلاد السويسة منقسمة الى معاهدتين خصوصيتين ترتب على تنافسهما وغيرتهما من بعضهما ضعف قوى معاهدتها العمومية وضياع بعض ما كان لها عند الدول الاجنبية من الاعتبار وعلو المقدار فاما المعاهدة القاثوليقية فكانت مؤلفة من كور زوغ واورى وشويتيز واندرولدن ولوسرنه وسلوره وفريبورغ وبعض كورتى غلاريس وابنزيل وكورة واليس كلها واما المعاهدة البروتستانية فلم تكن مؤلفة الا من كور باله وبرنه وزوريخ وشافوزه وبعض رساتيق من كورتى غلاريس وابنزيل ولكن كانت هذه الولايات اعظم ولايات السويسة يسارا واكثرها اهلا وعمرانا

وقد حصل اذ ذاك فى مدينة جنيورة التى هى الآن من مدن السويسة فتنة عادت بالنفع على البروتستان وذلك أن هذه المدينة وان كان يحكمها مباشرة اساقفة يولون عليها من طرف دوقات ساوة الا أنها كانت حينئذ معدودة من المدن الامبراطورية وكان ترتيب حكومتها الداخلية جمهوريا محضا فكان منوطا بادارتها اربعة نقباء ومشورة اربابها منتخبون من الاهالى وكان الاهالى يستشارون فيما يطرأ من المغارم والمحالفات والمصالح العامة وكان اذا تقلد الاسقف منصب الاسقفية عليها يحلف بحضور احد النقباء أنه يحافظ على ما لها من المزايا والخصايص فترتب على انقسام الشوكة فيها وتوزع الادارة واختلاف الاحكام التى كانت فى الغالب متناقضة أن صار اهلها حزبين وتفرقوا فرقتين ومكثوا على ذلك مدة طويلة وكان احدهما مؤلفا ممن تصدوا لحماية مزايا الجمهورية وفى سنة ١٥١٩ من الميلاد تحالف هذا الحزب مع اهل مدينة فريبورغ (من مدن السويسة) وتسموا وقتئذ باسم

ادچانوسن ومعناه المتعاهدون بالايمان وكان السويسة قد اختاروا هذا الاسم لانفسهم من مبدأ معاهدتهم المعروفة بالمعاهدة الهلويسية ثم حرّف فيما بعد الى هوجينوت وبخسوا الحزب الآخر الذى تصدّى لحماية مزايا الاساقفة ودوقات ساوة فسموه مماليك اوارقاء فحمل ذلك دوق ساوه المسمى كرلوس الثالث على أن قدم الى جنيورة فى فرقة من عساكره فجرّد حزب الهوجينوت الذى هو حزب الجمهورية عن اسلحتهم وجبرهم على فسخ محالفتهم مع فريبورغ واقام مع دائرته فى تلك المدينة عدة سنين قاصدا تتميم قمع اهلها وادخالهم تحت الطاعة ولكنه فى سنة ١٥٢٥ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٢ من الهجرة) بعد وقعة باويا قطع الاقامة بها وعاد الى ولاية پيمونت مؤملا أن ما عرض للفرنساوية من الضعف والانحطاط بايطاليا يعود عليه بالنفع فترتب على خروجه من جنيورة أن الهوجينوت عادوا الى ما كانوا عليه من الاغراض والمقاصد فبحثوا ثانيا عن حماية السويسة لهم وعقدوا سنة ١٥٢٦ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٣ هجرية) محالفة مع كورتى فريبورغ وبرنه ومن وقتئذ امتنع اهل جنيورة من الرضاء بالوالى الذى كان يحكم بطريق النيابة عن دوق ساوه واقاموا مقامه ضابطا يقوم بوظيفته نيابة عن اهل المدينة فلحقت الاهانة حزب المماليك وعوملوا بالجور والاجحاف فلم يسع الرؤساء منهم الا المهاجرة ولما دعوا الى العود وامتنعوا من الرجوع حصل الاعلان فى حقهم بانهم مرتكبون ذنب الخيانة

وفى هذا الوقت تقريبا اعنى سنة ١٥٢٨ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٣٥ من الهجرة) دخل المذهب البروتستانى فى مدينة جنيورة وعما قليل انتشر فيها مع السرعة وكل من تمسك من اهلها بهذا المذهب انضم الى حزب الهوجينوت فازدادت العداوة الناشئة عن السياسة بالحمية الدينية فافضى ذلك بالحزبين الى المقاتلة فى اغلب الاوقات بداخل المدينة وكانت عاقبة القتال فى الاغلب تعود بالنفع على البروتستان وقصارى الامر أن الاسقف

بطرس دولابوم لم يستطع تحمل وقاحتهم وسفههم فخرج من المدينة سنة ١٥٣٣ ميلادية (اى نحو سنة ٩٤٠ هجرية) وانضم الى دوق ساووه ليكونا معا على اعدائهما فسعى هذا الدوق حتى فصل كورة فريبورغ من محالفة اهل جنيورة وقدم الى هذه المدينة قاصدا محاصرة رعيته الخارجين عن طاعته فارادوا اولا الاستيلاء على تلك المدينة بالهجوم عليها بغتة ثم باشهار القتال (وكان ذلك سنة ١٥٣٤ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٤١ من الهجرة) فلم ينجح فى واحدة منهما وتمت نكبته بعد ذلك بقليل بالغارة الفرنساوية على بلاده وفى مدة ما كان الجيش الفرنساوى يدخل تحت طاعة الدولة الفرنساوية ولايات بوجى وبريسه وساوة وپيمونت (التى هى من ولايات هذا الدوق) استولى اهل جنيورة على جميع الحصون التى بناها دوقات ساووه بجوار مدينتهم واستولى اهل برنه على بلاد وود وكانوا يدعونها لانفسهم من قديم الزمان وقد ثبتت لهم ملكيتها بمشارطة لوزانة المنعقدة سنة ١٥٦٤ ميلادية (اى نحو سنة ٩٧٢ هجرية) فهذه الحوادث كلها ساعدت اهل جنيورة على تمكين استقلالهم ولم يمكن لدوقات ساووه ابطاله مع ما بذلوه من المجهودات فى اعادة حكومتهم فى هذه المدينة

ثم ان اهل جنيورة تفرغوا فى اوائل استقلالهم لابطال الدين القاثوليقى فانهم فى السابع والعشرين من شهر اغسطوس سنة ١٥٣٥ من الميلاد اعلنت حكومتهم ببطلان الدين الرومانى والزمت الاهالى برفض ديانة البابا والمحافظة على العمل بما فى كتاب العقائد الذى الفه فاريل وهو رجل من پروتستان فرانسا كان قد هاجر الى جنيورة وكان له فيها مدخلية عظيمة فى الفتنة الدينية وفى اثناء هذه الاحوال طرد يوحنا قلوين من فرانسا وقدم الى هذه الجمهورية الجديدة (سنة ١٥٣٧ ميلادية) اى نحو سنة ٩٤٤ هجرية)

وكانت ولادة قلوين المذكور بمدينة نويون فى عاشر شهر يوليه سنة

١٥٠٩ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩١٥ من الهجرة) وكان قد اعده اهله للقسيسية فدخل عدة مدارس من مدارس العلوم الجامعة وكان من جملة المدارس التي دخلها مدرسة بورجس فتعلم فيها اللغة اليونانية على خوجة من نحاة الالمان يقال له ملشيوروولمار وعلمه ايضا اصول الدين اللوثرياني فنزل عن منصب خورية پونتلويك وكان قد تقلده منذ خمس سنوات وكان عمره حين نزوله عنه ثلاثا وعشرين سنة ثم ذهب الى باريس لينشر فيها هذا الدين فجبر على الخروج منها سنة ١٥٣٤ من الميلاد لئلا يقبض عليه ومازال ينتقل من مدينة الى اخرى في داخل المملكة وخارجها ويترك في كل مدينة دخلها آثارا تدل على مروره منها حتى وصل الى جنيورة وفيها دعاه فاريل ليقاسمه في الدعوة الى الدين اللوثرياني فعما قليل حظي كلوين في هذه المدينة بما يحظى به رئيس المذهب من الاعتبار ونفوذ الكلمة ولكنه لما اراد تغيير بعض امور دينية كان اهل جنيورة لم يزالوا متمسكين بها وعزم على ابطالها دفعة واحدة وصار له اعداء كثيرون لبس طبيعته وشدة عناده فنفوه هو وفاريل سنة ١٥٣٨ ميلادية (اي نحو سنة ٩٤٥ هجرية) ولكن كان له في هذه المدينة اتباع عديدون فدعى الى الحضور اليها فحضر سنة ١٥٤١ من الميلاد (المقابلة لنحو سنه ٩٤٨ من الهجرة) وصار له فيها ثانيا شوكة قوية تكاد أن تكون مطلقة واستمر على تلك الشوكة حتى مات وقد جعل بمفرده دين جنيورة على صورة قطعية لا تقبل نقضا ولا نسخا وجعل عقائده واصوله على ترتيب منتظم ولما كان مثل لوتير لا يقول برخصة الديانة كان يقاتل كل من كان على غير دينه وكان يضاهيه ايضا في الجدال والمناظرة من حيث الكبر والخشونة فكان يطعن في اخصامه ويصفهم بانهم مخادعون ومجانين واشرار ومدمنوا الخمر وارباب جبة وحدة وأنهم كلاب وبهائم وثيران وحمير وكلاب وخنازير ور بما عد مخالفة رأيه من اكبر الكبائر التي يقتل مرتكبها ودليل ذلك أنه قتل پيرين الجنيوري حيث امر بضرب عنقه لكونه اغتاظ من كثرة القرنساوية في جنيورة ويدل لذلك ايضا ماوقع لمسرويت

من

من الشقاء وسوء الحظ حيث امر باحراقه لانه كان له عقائد باطلة فى شأن الثالوث ومع ذلك فهذا الرجل الذى تسلطنت عليه الحمية الجاهلية المنفرة التى اضرت بالناس شرح رسالة المؤلف سنيقه المتعلقة بصفة الحلم واهدى للملك فرنسيس الاول كتابه الذى الفه فى التأديب والتربية وحثه فيه على الترخيص فى الديانة والرفق ولين الجانب ثم ان قلوين بواسطة ثباته واطلاق تصرفه اقام منار الهدء والسكون فى مدينة جنيورة مدة حياته كلها اور بما صح أن يقال مدة سلطنته بتمامها ولكنه عاين فى فرانسا اضطرام نيران الفتن الدينية وامتدادها حتى بقيت واستمرت فانه ترتب على دسائسه ومذهبه عصبة امبوازة ومقتلة واسى ووقعة درو كس وقتل دوق دوغيزة واتباعه ومات بمدينة جنيورة فى السابع والعشرين من شهر مايه سنة ١٥٦٤ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٧٢ من الهجرة) وعمره ست وخمسون سنة وكان موته فى اثناء الاهوال التى بقيت بعده فى فرانسا زمنا طويلا واعادها اصحابه المسمون باسم بوريتان فى بلاد انكلترة وايقوسيا

(الباب الرابع)

فى الكلام على بلاد انكلترة وايقوسيا (من سنة ١٥٠٩ الى سنة ١٥٥٨ من الميلاد) (اى من سنة ٩١٥ الى سنة ٩٦٦ من الهجرة تقريبا)

الكلام على الملك هنرى الثامن (من سنة ١٥٠٩ الى سنة ١٥٤٧ ميلادية) (المقابلة لنحو سنة ٩٥٤ هجرية)

(وحيث ان تاريخ هذا الملك مدة عشرين سنة من اول حكمه ممزوج بتاريخ الدول المجاورة لدولته اقتضى الحال أن لانعيد ماذكرناه فى شأنه فى غير هذا الموضع الا على وجه الاجمال والاختصار فنقول)

قد خلف هنرى الثامن على مملكة انكلترة سلفه هنرى السابع سنة ١٥٠٩ من الميلاد فسر الانكليز من تولية هذا الشاب عليهم الذى كان عمره وقتئذ ثمانى عشرة سنة لانه كان سخيا كريما بشوشا محبوبا بخلاف سلفه فكان

جبارا بخيلا وقد تحققت فيه هذه الاوصاف الحميدة بما صدر عنه فى اوائل حكمه فانه عاقب وزيرين كانا يعينان سلفه كل الاعانة على المظالم بما شفى به غليل كراهة الناس لهما وكانت كثرة عطائه ونخاره تظهر فى الخطوط والمواسم وكان يحب الفنون والآداب ويمارسها وينجح فى ممارستها وبالجملة فكانت اطواره كلها فى مبدء حكمه تدل على لطف حكومته وهدء ايامه الا أن الاستقبال كذب الحال

وذلك انه بعد وقعة اغنادل والحطاط البنادقة لم يكتف البابا يولس الثانى بتحزيبه على الدولة الفرنساوية اغلب عصبة كبريه بل سعى فى محالفة هنرى الثامن واجتلاب مودته فدخل هذا الملك سنة ١٥١٢ ميلادية (المقابلة لنحو ٩١٨ هجرية) فى العصبة المقدسة وانضم الى اعداء دولة فرانسا وبعث عشرة آلاف مقاتل امدادا لصهره فرديننة الكاثوليقى وكان فرديننة المذكور قد التزم أن يستعمل هذا المدد فى استرجاع ولاية غيانة فلم يف بما التزم به بل عزم على أن يسير بهؤلاء العساكر الى مملكة نوار ليعينوه على نزع هذه المملكة من يوحنا دالبرت فامتنعوا من اجابته الى ذلك ولم يرضوا بمواققته على تحصيل اطماعه وانصرفوا بدون أن يعملوا شيأ لانهم لم يكونوا مأمورين من طرف ملكهم بقتال يوحنا المذكور

وفى سنة ١٥١٣ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩١٩ من الهجرة) بعد موت البابا يولس الثانى لم يزل هنرى الثامن معلقا آماله بالمقاصد الحربية مع ما حصل له من تكدر الخاطر فى التجريدة السابقة وكان وزيره الشهير المسمى ولسى يوافقه على الميل الى تلك المقاصد ويحسنها له وكان لهذا الوزير تسلطن على عقل سيده ولم يكن من بيت شهير النسب ولا عريق الحسب وانما حسن تربيته وجودة عقله وغزارة معارفه فتحت له طريقا الى المعالى ووصله اليها نجابته واقبال الدهر عليه فانه ارتقى فى اقرب وقت من وظيفة الحجابة لهنرى السابع الى منصب الصدارة لهنرى الثامن وقد اسرع

هذا الوزير بتجهيز ما يلزم لتجريدة اخرى وخرج هنرى بنفسه مع جنوده
ونزل بهم فى بلاد فرانسا وكان الايمپراطور مكسمليان قد وعده بجيش
من عساكره فقدم هذا الايمپراطور وانضم اليه كالعساكر المتطوعة فانظر الى
خليفة القياصرة كيف خدم فى العسكرية تحت قيادة ملك الانكليز فى نظير
مائة ايكو (نوع من النقود) تصرف عليه كل يوم من هذا الملك وكان يوم
ايپيرون (اى يوم المهاميز) واخذ مدينتى تروانة وتورناى من الحوادث
التى كان نفعها دون فخرها بالنسبة لهنرى الثامن فان دنو فصل الشتاء
الجأه الى ابطال مشروعاته والعود الى بلاده بدون أن يجتنى ثمرة حقيقية من
هذه الغزوة التى انزعجت دولة فرانسا وفى مدة غيبته اغار ملك ايقوسيا
المسمى ياكس الرابع على اقليم نورغمبرلند (من اقاليم انكلترة الواقعة
على البحر) وهزمه قونتة دوسورى وهلك هو ووجوه اشراف دولته فى
فلودن (قرية من قرى هذا الاقليم) ونالت ارملته مرغريطة التى تولت
بعده نيابة المملكة الصلح من هنرى الثامن سنة ١٥١٤ ميلادية (اى
نحو سنة ٩٢٠ هجرية) على شروط خفيفة وفى هذه السنة بعينها سئم
هنرى من خبث طوية فرديناند حيث تشارط مع دولة فرانسا بدون
علمه فاجاب لويز الثانى عشر الى ما عرضه عليه فى شأن الصلح وصارت
مارية اخت هنرى اشبه برهينة يستوثق بها على انعقاد هذا الصلح حيث
تزوج بها ملك فرانسا ونزل لختنه عن مدينة تورناى والتزم أن يدفع له
مليونا من الايكو لكن لم تطل حياة لويز الثانى عشر بعد هذه المشارطة
وبعد موته بثلاث سنوات طلب خليفته فرنسيس الاول استرجاع هذه
المدينة فاجيب الى ذلك على أن يدفع ستمائة الف ايكو ولما اتفقت كلمة المنتخبين
على أن شرلكان هو الذى يتولى الايمپراطورية اعتقد فرنسيس كسلفه
أن التودد الى هنرى الثامن له شأن عظيم ونفع جسيم فاغتر بذلك والتمس منه
أن يتلاقيا لاجل المفاوضة والمذاكرة فاجابه الى ذلك وتلاقيا بين غينه واردرة
لكنهما قضيا هذا الزمن الذى كان يلزم صرفه فى المصالح المهمة فى الملاهى

الباطلة فلم يكن لاجتماعهما المعروف باجتماع معسكر جوخ الذهب ثمرة الابقاء اسمه الدال على الابهة والتفاخر الذى لاطائل تحته

وكان شرلكان قبل سفر هنرى الثامن (الى الاجتماع بفرنسيس) قد اجتمع بهنرى المذكور فى مدينة دوره حين نزل بانكلترة فى ذهابه الى ألمانيا ليلبس فيها التاج الايمبراطورى واستمال اليه الوزير ولسى وكان هذا الوزير مقلدا بمطرانية يورق واسقفيتى دورهام وونستير وبمنصب الكردينالية فلم يبق له مطمع الافى منصب البابا وكان يترآى أن تحقق طمعه فى هذا المنصب متعذراو متعسر لان البابا ليون العاشر كان فى سن الشبوبية غير أن الطمع يعمى صاحبه فيغتر بادنى شئ فلذا وثق ولسى بمجرد وعد شرلكان اياه بمنصب البابا بعد ليون العاشر وعظم امله فى ذلك لما فارق هنرى الثامن فرنسيس الاول وذهب لزيارة الايمبراطور شرلكان واقام معه مدة فى مدينة غراولينه وكان هذا الوزير بمكان من الثروة واليسار وازدادت امواله بايرادات اسقفيتى اسپانيا (اللتين اعطاهماله الايمبراطور) فلذا كان رأيه ايثار من كثرت عطاياه ومواعيده على غيره

ولما اضطرمت نيران الحرب بين فرنسيس وشرلكان عرض هنرى الثامن فى مبدأ الامر أن يتوسط فى ايقاع الصلح بينهما فانعقدت لهذا الغرض مكالمات ومفاوضات فى مدينة كالس الاأن ما كان بين الملكين من الدعاوى المتناقضة التى لم يمكن التوفيق بينها لم يكن لقطعه سبيل الاالحرب فعند ذلك ظهر غرض ملك الانكليز والاولى أن يقال غرض وزيره فان ولسى ذهب الى مدينة بورغس وعقد فيها مع البابا والايمبراطور معاهدة تعصبوا فيها على قتال فرنسيس الاول (وكان ذلك سنة ١٥٢١ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٢٨ من الهجرة)

فعما قليل عجلت المنية باخترام البابا ليون العاشر فامر شرلكان بانتخاب مودبه ادريان السادس ليكون بابا بدلا عنه ولم ينتخب لهذا المنصب الوزير ولسى كما كان وعده به قبل ذلك غير أن كبر هذا البابا

فى السن

فى السن لم ينقطع رجاء هذا الوزير بل مازال على طمعه فى المنصب المذكور مع الفرح والمسرة مغترا بما ابداه اليه الايمبراطور ثانيا من المواعيد الكاذبة وجدد المعاهدة مع الايمبراطور واعلن هنرى الثامن بالحرب مع دولة فرانسا (سنة ١٥٢٢ ميلادية) بدون أن يبدى لذلك سببا مقبولا فقدم قوتة سورى الى فرانسا بجيش من عساكر الانكليز وحاصر بهم مدينة هسدين ولم يخرج من حصارها على طائل ثم مات البابا ادريان السادس فى السنة التى اعقبت السنة المذكورة فكان موته فرصة اخرى يتبين فيها للوزير ولسى مافى ضمير الايمبراطور بالنسبة اليه من الغش اوالاستقامة فتبين له فيها غدره وعدم وفائه بالوعد حيث لم ينتخبه لمنصب البابا بل انتخب لذلك كليمان السابع فلم يسع هذا الوزير الطماع الا كظم غيظه حتى تبدوله فرصة فى الانتقام من الايمبراطور واستمر الحرب مع دولة فرانسا (وكان ذلك سنة ١٥٢٣ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٣٠ من الهجرة) فشن الانكليز الغارة على اقليم بيكارديه ودنوا من مدينة باريس حتى لم يبق بينهم وبينها الا احد عشر فرسخا فاوقفهم هنالك دوق دووندوم والجأهم الى الرجعة وبالجملة فلم يزل هنرى الثامن مصرا على معاهدة الايمبراطور حتى اسر فرنسيس الاول فعند ذلك انضم هنرى الى الفريق المغلوب لان الايمبراطور لما انتصر فى باويا واسر خصمه خلى بين نفسه والكبر والتعاظم ففعل ماازرى بعزة نفس هنرى حيث سلك معه مسلك الشمم والانفة حتى افضى ذلك بهنرى الى الانضمام الى الفرنساوية فشفى ولسى حينئذ غليله حيث اثار غضب سيده على الايمبراطور حتى حمله على عقد المشارطة مع لويزة دى ساوه ام الملك فرنسيس حين كان ولدها اسيرا عند الايمبراطور واعترفت له فى نظير هذه المشارطة بأن له على دولة الفرنساوية دينا قدره مليون وثمانمائة من النقود المسماة ايكو وجعلت له فى كل سنة مرتبا قدره مائة الف ايكو واتحفت الكردينال ولسى بهدية عظيمة فترتب على انفصال ملك الانكليز ودول ايطاليا عن الايمبراطور

ونقضهم لمحالفته أن انعقد صلح مدريد (سنة ١٥٢٦ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٣٣ من الهجرة) وانفكاك اسر فرنسيس ولا يخفى أن المشارطة الثقيلة او الغير العادلة يترتب عليها اعادة حرب جديد فان فرنسيس بمجرد خلوصه من الاسر تحزب على الامبراطور مع البابا كليمان السابع والبنادقة وامراء ايطاليا وتحالفوا عليه مع بعضهم وجعل هنرى الثامن نفسه محاميا لهذه العصبة المتعاهدة (سنة ١٥٢٧ ميلادية) ولكن كانت محاماته لها انما هي بمجرد الاسم فقط فانه من الآن فصاعدا اشتغل كما سيأتي بمصالح دولته الداخلية اكثر من اشتغاله بمنازعة جيرانه من الدول الاجنبية

وذلك أنه في مبدأ الحرب مع دولة فرانسا (سنة ١٥٢١ من الميلاد) قتل في انكلترة رجل شهير كان يكرهه الكردينال ولسي وهو الدوق دوبوكنغام كونيتابل المملكة (اى رئيس جيوشها البرية) وكان من امره انه كان من جهة النساء من نسل الدوق دوغلوستر الذى هو اصغر اولاد الملك ايدوارد الثالث وكان يعتقد التنجيم فاغتر بهذا العلم واملى انه يلى الامر ذات يوم فاتهم بانه يريد السوء بالملك وكان غير مقبول عند الوزير فكان ذلك اصلا لعقابه بالموت فحكم عليه بالقتل في نظير كلمات صدرت عنه كان فضوله فيها اعظم من جرمها او بموته بطل منصب الكونيتابل من المملكة مدة ولاية هنرى الثامن وقد حان أن نتكلم على الوقت الذى صار فيه هنرى المذكور لا يبالى بسفك دماء خيار الناس واعزهم حسبا ونسبا فنقول

ان هذا الملك بعد أن مكث مع زوجته كاترينة دى اراغون عشرين سنة داخله سنة ١٥٢٧ من الميلاد الوسواس في شأنها فصار يترددا ويظهر التردد في حرمة زواجه بها وصار يتمنى طلاقها لعدة اسباب وهي كونها اكبر منه بست سنوات وضجره من كونه لم يرزق منها الا بنت (وهي التي سميت بعد ذلك بالملكة مارية) وتولعه بأن يرزق بولد ذكر وخوفه أن يموت بدون عقب من الذكور ولا سيما مع دخوله في لعن من تزوج بارملة اخيه حسبما هو

في

فى التوراة وكان لذلك ايضا اسباب اخرى منزلية وسياسية اظهرها بمظهر علة دينية وكان رأى احبار انكلترة موافقا لاغراضه وعما قليل ظهر امر مشؤم قوى وسواسه واشتغال ذمته فى هذا المعنى وهو عشقه لامرأة من كواخى الملكة يقال لها آنه دى بولين فعزم على أن يجعلها ملكة بكونه يتزوجها ويطلق عمة شرلكان وطلب من البابا كليمان السابع الاذن بطلاقها متعللا بأن الفتوى التى صدرت له سابقا من البابا يولس الثانى بجواز نكاح كاترينة متضمنة لامور تقتضى فساد النكاح وكان البابا كليمان السابع اذذاك اسيرا وكان ينتظر خلاصه بسعى العصبة التى كان هنرى الثامن قد جعل نفسه حامية لها فلذا اظهر أنه موافق لاغراض الملك ووعده بفتوى تشتمل على الاذن بالطلاق غير أنه لما فك من الاسر سنة ١٥٢٨ من الميلاد (الموافقة لنحو سنة ٩٣٥ من الهجرة) ظهر منه عدم الميل الى الوفاء بالوعد لانه كان يخشى بأس الايمبراطور شرلكان حيث كان يهدده بالعزل ومع ذلك فلشدة الحاح هنرى عليه اذن للوزير ولسى بوصف كونه نائبا عنه أن ينظر فى نكاح هنرى لا أنه هل هو مقبول شرعا ام لا وامره ان يكون معه فى ذلك جمعية من احبار الانكليز

واما الملكة كاترينة فانها الحت على ابن اخيها أن يتوسط فى قضيتها وأن ترفع دعواها الى رومة ومع ما بذلته فى ذلك من المجهودات نظر فى تلك الدعوى اولا بمدينة لوندرة الا أن ذلك كان مع التراخى ثم ترجح جانب شرلكان لسطوته ونفوذ كلمته فان البابا اما لاستمالته اليه اولخوفه منه امر على حين غفلة بتعليق الدعوى وعدم القضاء فيها ونقلها الى مدينة رومة

وكان هنرى فى هذه المادة المعضلة يؤمل أن وزيره ولسى يراعى جانبه ويدافع عنه مع الحمية وشدة الغيرة الا أن هذا الوزير من حيث كونه كردينالا راعى جانب البابا فلم يسعه الا أن سلك مع الملك والبابا فى هذه المادة مسلك المتباعد عن الطرفين المتجنب عن الجانبين فارتاب منه الملك وظن انه

قد خانه وقوت فيه الريبة عشيقته آنه دى بولين اوانها وافقته على الارتياب وسوء الظن لما كان بينها وبين الوزير من العداوة فصار هذا الوزير الذى كان قبل ذلك بقليل صاحب سطوة وشوكة قوية وكان معدودا من امراء الكنيسة وامل مرتين لبس تاج البابا فريسة لضوارى اللمم والهوس وذلك أن الملك انتزع منه اختام المملكة واعطاها الرجل يقال له توممور وكان بمكان من الفضائل والخصال الحميدة حتى ارتقى بها هذا المرقى الرفيع وان افضت به بعد ذلك الى الهلاك وحصل الاعلان فى شأن ولسى بانه خارج عن كنف الملك وسلب منه معظم امواله ونفى الى مطرانية من مطرانيات يورق ولا يخفى أن انحطاط مثل هذا الرجل صاحب الشوكة القوية ونكبته بهذه المثابة هو فى الغالب لايشفى غليل اعدائه فلذا بحثوا له عن ذنوب اخرى فصدر الامر سنة ١٥٣٠ ميلادية الى قونتة نورثومبرلند أن يقبض عليه لكونه خان خيانة عظمى (وهى ما كانت فى حق الملك او الدولة) وأن يبعثه الى مدينة لوندرة لتقام دعواه فيها فمرض فى هذا السفر المشؤم ومات بدير لبستير وتكلم عند موته بكلام الطماع المتندم الذى كشف عنه حجاب الغرور حيث اعترف بانه مذنب مستحق للعقاب على كونه آثر الدنيا على الدين واعظم ما يمدح به ولسى هو عدول هنرى عما كان عليه قبل نكبة هذا الوزير من الاستقامة وحسن السلوك الى ما سلكه بعد موته من المسالك الذميمة فانه فى مدة وزارته كانت له سطوة تمنع الملك عن مجاوزة الحد فى اهوائه والافراط فى شهواته فبمجرد انقضاء وزارته وانقطاع اللوم عن هنرى لم تقف شهواته على حد تنتهى اليه بل بلغ به الافراط فيها الى الهوس والقسوة

وقد خلف ولسى فى الحظوة عند الملك والوثوق به تومة كرنمير وكان من المدرسين بمدرسة كمبردج فاشار على الملك أن يستفتى جميع مدارس العلوم الجامعة باوروبا فى نكاحه لآنه دى بولين هل يصح ام لا فافتته مدارس فرانسا وايطاليا بفتوى تلايم اغراضه واما مدارس انكلترة فانها توقفت اولا ثم افتته بنظير الفتوى السابقة وقد ذكر من لا يوثق به من

المؤرخين

المؤرخين انهم انما افتوه بذلك لما بذل اليهم من الرشوة فاستند هنرى الى فتواهم واخذ يدعو نفسه وذمته الى التسليم والاذعان الى أن استفتاه عن ذلك ليس من الظلم والاضرار ولم يكترث بما كان يرد اليه من البابا فى هذا المعنى من التهديد والتخويف بل نبذ ذلك خلفه ظهريا مع الجبروت والنفور ولم يكتف بانكار شوكة البابا وعدم الاعتراف برياسته بل تصدى لاضرارها والاجحاف بها فانه عقد سنة ١٥٢١ ميلادية (اى نحو سنة ٩٣٨ هجرية) مجلسا قنن اربابه عدة قوانين حصرت الشوكة القسيسية ورياسة ديوان رومة بالنسبة لانكلترة فى حدود ضيقة فانظر الى هذا الملك الذى كان منذ قليل على غاية من الالتئام والاتحاد مع الكنيسة كيف انتهك حرمتها وتعرض لاساءتها بعد أن كان حامية لها وقد فعل حينئذ القنجليير توممور مايصح أن يكون عبرة عظيمة لمن اعتبر وذلك أنه لما رآى علامات الافتراق الدينى قد ظهرت ومباديه قد تهيأت لم يعمل الا بمقتضى ماسولته اليه نفسه وارتضته سريرته فخلع نفسه عن منصبه (سنة ١٥٣٢ من الميلاد) واما البابا فلم يكن على يقين من مفارقة هنرى له فى الدين لانه اجاب الملكة كاترينة الى ماطلبته منه من اقامة دعواها عنده ودعا زوجها هنرى الى الحضور بنفسه الى رومة او يبعث وكيلا عنه اليها فامتنع هنرى من اجابة دعوته وتكرر منه الامتناع واعقب ذلك بتزوجه لآنة دى بولين سرا (سنة ١٥٣٣ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٤٠ هجرية) ثم لما وضع قانونا مضمونه المنع من رفع اى دعوى كانت الى ديوان رومة فى نكاح اوطلاق وحمل ارباب المجلس على وضع القرار على هذا القانون افشى نكاحه لزوجته الجديدة وافتى كرنمير وكان قد تقلد وظيفة مطرانية كنتوربيرى بطلاق زوجته الاولى بعد أن تعذر نيل هذه الفتوى من ديوان رومة وتتوجت آنة بتاج الملك واجريت فى ذلك رسوم التشريف فولدت له بعد ذلك بقليل ايليزابيطه الشهيرة التى تلقبت باميرة غالة وهو لقب لولى عهد المملكة ثم ان البابا كليمان السابع ابطل فتوى

كرنمير وهدد الملك بالحرمان ان لم يتب فى مدة معلومة عينها له فتوسط بينهما الملك فرنسيس الاول فكان توسطه هذا سببا فى رجاء الصلح بينهما مدة حيث ترتب عليه أن هنرى رضى بما يحكم به ديوان رومة بشرط أن لا يدخل فيه احد من جماعة الايمبراطور شرلكان وظهر من البابا أنه يميل الى موافقته على اغراضه وكان ينتظر ورود جواب قطعى من هنرى فلم يصل منه جواب فى اليوم المعين لذلك فلم يستطع البابا مع ذلك صبرا مع أن صبره فى هذا الوقت كان ضروريا بل رماه بصواعق الحرمان وبعد ذلك بيومين وردت مكاتيب هنرى ولكن كان قد قضى الامر حيث ان سهام الحرمان لا ترد بعد رميها بل انحل بها ما كان بين انكلترة وديوان رومة من الروابط والعلائق (وكان ذلك سنة ١٥٣٤ من الميلاد) فعند ذلك انعقد مجلس البرلمان بانكلترة وانحط فيه الرأى ثانيا على صحة نكاح هنرى لآنة دى بولين وفساد نكاحه لكاترينة وجعلت ولاية العهد لمن ولد او يولد من الزوجة الجديدة غير أن توماس مور وفيشر امتنعا أن يبايعا على جعل ولاية العهد لاولاد آنة فقبض عليهما وحبسا فى البرج وقصارى الامر أن مجلس البرلمان ابطل حكومة البابا من انكلترة ولقب الملك برئيس الكنيسة الانكليزية الاعظم وجعل له جميع ما كان للبابا من المزايا والخصايص الدينية بل جعل له الحق فى قبض الاعشار والانات (وهو عادة مقررة للبابا على الاقطاعات يأخذها فى نظير التقليد بالاسقفية ورياسة الاديار مقدارها ايراد سنة من تلك الاقطاعات) فما اغرب هذا التغير المحزن واشأمه كيف لا وملك واحد اوقع ملته بتمامها فى الاعتزال والافتراق الدينى الذى هو مقدمة للهرطقة والتشيع من اجل امرأة امر بقتلها فيما بعد

والواقع أن هنرى وان فارق الكنيسة الرومانية الا انه لم يكن له ميل الى مفارقة الدين القاثوليقى فانه لما دخل مذهب لوتير فى انكلترة ابدى فى معارضته من قوة البأس وادلة المنع ما يصدر عادة عن ملك متبحر فى العلوم

الدينية

الدينية فقد ألف تأليفا فى الحط على لوتير والتشنيع عليه حتى ان البابا
ليون العاشر لقبه بلقب فاخر وهو حامية الدين فلما فارق الكنيسة ابت نفسه
أن يتشبث بما يوجب عليه الملامة من تلونه وعدم ثباته على حالة واحدة اذ هو
رفض اصوله القديمة ولم يرض أن يخاطر بمزاياه التى هى من خصايص الملوك
المطلق التصرف بالترخيص فى ديانة تكسب من تمسك بها الميل الى الاستقلال
فلذا لم يزل على غيرته الاولى على اصول دين الكنيسة الرومانية وبالجملة فكان
سلوكه بهذه المثابة مؤذيا للقاثوليقية واللوثريانية معا فكان الاول يتضررون
مما وقع منه اذ ذاك من الافتراق الدينى والآخر يتضررون من تمسكه باصول
الديانة القاثوليقية * وبسوء اقتران مقتضيات الاحوال كان هنرى لابد
وأن يجد فى الفريقين المسامذنبين فكان كل من انكر امامته والطعن
فى صحة ديانته يعد ذنبا فى حق حضرته الملوكية وبذلك صارت انكلترة
كأنها طعمة لسيف ذى حدين فكان كل من لم يعرف مداراة ما فى نفسه من
الرأى سواء كان قاثوليقيا اولوثريانيا اوكان من اعداء الكنيسة الرومانية
اوامامته فى الدين يبعث به الى القتل وقد قتل على المخرطة (سنة ١٥٣٥
من الميلاد) رجلان شهيران وهما يوحنا فيشير وتومه مور ولما بلغ
البابا بولس الثالث خبر قتلهما دعا عليه بالحرمان مرة اخرى ومن وقتئذ
انقطع رجاء الاصلاح بين الملك والكنيسة الرومانية

وكان الرهبان الذين كان اعتبارهم ينحط بانحطاط شوكة البابا يكرهون
ما تقلد به هذا الملك من الامامة التى كانت تعد من الكفر والالحاد فكان هو
يعدهم من اكبر اعدائه فلذا اخذ فى تدميرهم وقطع دابرهم حيث امر
كرومويل كاتب سر الدولة وكان فى السر من حزب اللوثريانيين أن يطوف
الديورة ويفتشها واصحبه بجماعة منوطين بذلك ولاشك انه بتداول الازمان
كان قد حدث فى الاديار مثالب واختلالات فكتب هؤلاء المبعوثون لتفتيشها
تقريرا سلكوا فيه مسلك الاطراء والمبالغة وشاع بين الناس واشتهر فعند
ذلك اخذ مجلس البرلمان الذى كان كالآلة لتنفيذ اغراض الملك

فى ابطال طوائف الرهبانية بالكلية بابطال الاديار التى كان ايراد كل منها فى كل سنة لا يبلغ مأتى جنيه فكانت عدة ما ابطل منها ثلثمائة وستة وسبعين ديرا كان ايرادها السنوى ثلاثة وثلاثين ألف فرنك وبلغت قيمة ما كان فيها من الاثاث والامتعة مائة ألف فرنك وكل ذلك استحوذ عليه الملك

وفى هذا الزمن تقريبا اغاظ الملك القاثوليقية اغاظة اخرى وذلك انه مع عداوته لاهل الهرطقة والتشيع كان يريد اضرار الكنيسة الرومانية فكان مما صنعه من الامور المتناقضة التى مبناها الشهوات النفسانية انه نشر ترجمة الكتاب المقدس بلغة العامة وكان هذا مما يعين البروتستان على اغراضهم فانهم لما كانوا يتساهلون فى الكتب المقدسة ويتركونها للناس يفسرها كل منهم برأيه ويؤولها على حسب اجتهاده كانوا بذلك يستميلون الناس ويجتذبون قلوبهم الى حب الاستقلال فى الدين * وما ادركهم من المسرة لهذا الامر تعكر صفوه بحادثة مهولة وهى أن حاميتهم آنه دى بولين سلاها زوجها وقتلت على الخرطة لانها وان لم يكن فى اخلاقها ما يوجب الملامة الا انه كان فيها طيش وخفة وعدم حزم وتبصر وسهولة اطوار فكان ذلك وسيلة لاعدائها فى اعدامها حيث وشوا بها للملك واتهموها بخيانة الفراش فصدقهم ولم يرتب فى قولهم لان نار عشقه اياها كانت قد خمدت بعشيقة اخرى يقال لها حانة سيمور احدى خواتين الملكة فهى التى كانت وقتئذ محط آماله ومنتهى اغراضه فسجن آنه دى بولين فى البرج فاقسمت على براءتها وكتبت اليه كتابا ضمنته ما دل على شرف نفسها واودعته ما تلين له القلوب القاسية التى لم تصل فى القسوة الى درجة قلب زوجها فصدر الحكم عليها بالحرق او ضرب العنق على حسب ما يختاره من ذلك زوجها فعند ذلك أوصته على بنتها ايليزابيطة وانكرت الذنب الذى اتهمت به واصرت على انكاره الى آخر حياتها وانقضى نحبها وهى على غاية من الثبات وعدم الجزع وكان هنرى برأها من التهمة بتزوجه لحانة سيمور فى ثانى يوم من قتلها وحصل الحكم

يبطلان نكاحه الثانى كنكاحه الاول فحصل لايليزابيطة ماحصل لمارية
وثبتت ولاية العهد لذرية حانة سيمور ولكن لما سمح مجلس البرلمان
فيما بعد سنة ١٥٤٤ ميلادية لابن حانة بالتقدم على غيره فى ولاية
العهد اعاد الملك للاميرتين حقوقهما فى ذلك

هذا وقد ترتب على الابتداعات الدينية وابطال الديورة اثارة الغضب ووقوع
الضجر بين الناس فقد حصل (سنة ١٥٣٧) من الميلاد (المقابلة لنحو
سنة ٩٤٤ من الهجرة) القيام والخروج عن الطاعة فى الاقاليم الشمالية
وذلك أن اهل هذه الولايات كانوا على غاية من التمسك باصول الدين القديمة
فشق عليهم هدم الديورة واخذتهم عليها الغيرة الدينية لأنها كانت عندهم
هى محل الاحترام على تداول الازمان لاسيما والرهبان اضطروا بعد
طردهم من اديارهم فى محال عديدة الى التعيش بالسؤال والشحاذة وكذلك
الفقراء والمساكين بعد أن كانوا يتعيشون على ابواب الاديار من الصدقات
صاروا لايجدون من يعينهم على قوتهم وايضا الاشراف واصحاب الاطيان
الذين كانوا من قديم الزمان حماة تلك الطوائف التى اندثرت اخذوا يتظلمون
من كونهم حرموا من رجوع الاراضى الموقوفة على تلك الاديار اليهم
حسبما هو مقرر فى وثائق الوقفية وقت تأسيس الاديار المذكورة من أن هذه
الاراضى ترجع الى ملاكها الاصليين عند انحلال الوقف وزعموا أنه بمقتضى
الاصول والقوانين اذا ابطلت هذه الطوائف الدينية لاتعود اراضيها الى التاج
الملوكى بل الى ورثة الواقفين واجتمع من المتضررين ثلاثون ألفا وقصدوا
مدينة لوندرة غير أنه تفرق جمعهم اولا بالمفاوضات والمواعيد ثم تبدد
شملهم بالكلية بطريق القهر والغلبة وانقطع عرق الفتنة والتعصب بقتل كبار
رؤسائهم وكانت هذه الحركة والقيام سببا فى زيادة كراهة الملك للرهبان فعزم
على أن يرميهم آخر رمية بسهام الايذاء والمضرة بحيث لاتقوم لهم بعدها قائمة
فوضع مجلس البرلمان قانونا به صار للتاج الملوكى جميع ما تملكه الاديار
من العقارات والمنقولات متعللا فى ذلك بعلة مقبولة فى الظاهر وهى المصلحة

العامة حيث قال ان هذا القانون تنقطع به الشحاذة والمغارم ويسهل به على الملك تنصيب قونتسات وبارونات وشوالية واعطاؤهم اراضي والتزامات ويتيسر به القيام بمصاريف الحرب اذا اقتضى الحال ذلك في المستقبل ولا يضطر الى ضرب مغارم جديدة ولكن تبين للاهالى بعد ذلك بقليل عدم صحة هذه الآمال المستحسنة التى اغتروا بها فان الشحاذة زادت واراضى الاديار تقاسمها عالة الدائرة الملوكية ولم تمض الامدة يسيرة حتى طلب الملك ضرب مغرم جديد فى نظير ما صرفه من الاموال فى تهذيب ديانة الدولة واصلاح حالها وتم نهب اموال الرهبان سنة ١٥٤٠ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٤٧ من الهجرة) وكان ايراد ما ابطله من الاديار وطوائف الرهبان التى كان من ضمنها مائة وعشرة من الاسبتاليات وتسعون مدرسة يبلغ مائة وستين ألف جنيه وكان هذا المبلغ تقريبا نصف عشر ايراد المملكة فأبقى منه الملك جزأ لقوت الرهبان والراهبات وصرف الباقى فى المواسم والعطايا التى سلك فيها مسلك التبذير والاسراف حتى ذهب فى اقرب وقت

ومع ما وقع من هنرى الثامن من المضايقة والاجحاف بالكنيسة الرومانية لم تتغير غيرته على العقيدة القاثوليقية وشاهد ذلك ما حل باحد الاحبار المسمى لمبير الذى كان رئيس مكتب بمدينة لوندرة وذلك أن هذا الحبر دعى الى الحضور بمجلس الاساقفة لكونه صدر عنه بعض عبارات توهم القدح فى الديانة القاثوليقية فطلب أن ترفع دعواه الى الملك حيث انه رئيس الكنيسة فسأله الملك عن القربان المقدس فى ديوان ويستمينستير بحضرة كثير من الاحبار وامراء الدولة فآل السؤال الى جدال ونزاع وكان آخر براهين الملك بعد أن اشتدت بينهما المحاورة والمجادلة أن الزمه بالتوبة والانابة او تهيأ للموت فما كان منه الا الاصرار على عقيدته فاحرق بالنار سنة ١٥٣٩ ميلادية

ثم ان هنرى بوصف كونه الرئيس الاعظم لكنيسته الانكليزية اعلن لانكلترة وبين لها ما ينبغى أن تعتقده وتعمل به فى شأن الدين من الآن

فصاعدا

فصاعدا وذلك أن مجلس البرلمان وضع قانون البنود الستة الشهير الذى سماه اهل هذه الديانة من وقتئذ بماءمعناه قانون الدم وكان هذا القانون يقول بالحضور الحقيقى واتخاذ القربان من نوع واحد ووجوب الوفا بنذر الرهبانية والمحافظة عليها والعزوبة القسيسية ونفع القداس فى غير جماعة ولزوم الاعتراف سرا للقسيس وكل من أنكر الامر الاول عوقب بالحرق واما الخمسة الاخرى فعقاب منكرها فى اول مرة سجنه وضبط امواله فان لم يتب عوقب بالموت ثم ان هذا المجلس تمم هذا القانون الجائر بامر ليس دونه فى الغرابة حيث جعل للاعلانات اى الاوامر الملوكية مالقوانين البرلمان من القوة والتأثير وبذلك انتقلت قوة التشريع الى الملك

وكان هنرى الثامن قد رزق بوارث من الذكور وذلك أن زوجته جانة سيمور وضعت سنة ١٥٣٧ من الميلاد ولدا ذكرا تولى على المملكة فيما بعد وسمى ايدوارد وماتت امه حين وضعته ولا مانع أن الموت اراحها من قسوة زوجها وتلونه وعدم ثباته ثم انه فى سنة ١٥٤٠ عقد على آنة دي قليوه بنت الدوق المسمى بهذا الاسم وكان قد اطرى له الوزير كروموبل فى مدحها وبالغ فى ذكر محاسنها على خلاف ما فى الواقع فرغب فى زواجها فلما لم يجدها على طبق ما فى نفسه وقعت كراهتها فى قلبه وظهر اثر بغضتها على كروموبل وكان هذا الوزير مكروها عند جميع الناس فكان يكرهه الاشراف لخسته ودناءة اصله فانه لم يرتق من درجته التى هى ادنى الدرجات الى اعلى مناصب الدولة الا بدهاه ودسائسه وكان يكرهه القسوس والقاثوليقية لكونه هو الذى سعى فى هدم الديورة وكان يكرهه جميع الاهالى لأنه كان سببا فى ضرب مغرم جسيم عليهم منذ مدة يسيرة فى زمن لم يكن فيه الملك مضطرا الى مصاريف جسيمة وفى وقت كان يظن فيه أن الخزينة مملوءة بغنائم الاديار التى بطلت والطوائف التى اندثرت فخلى الملك بينه وبين مبغضيه فاتهموه بالهرطقة والخيانة فحكم عليه المجلسان بالموت فطلب العفو من الملك فأبى لما طبع عليه من الجفا والقسوة واجرى عليه الحكم وقتل

وبعد موته بقليل حمل هنرى القسوس ومجلس البرلمان على الحكم بفسخ نكاحه لانه دى قليوه ثم تزوج كاترينة هوارد بنت اخت دوق نورفولك

ثم ان ما حل بالقاثوليقية والبروتستان من اساءته واضراره ترتب عليه فى ذلك الوقت قيام وخروج عن الطاعة فى قونتية يورق وكان رئيس العصبة يقال له سيرجوان نيرويل فقبض عليه وعوقب بالموت وظن الملك أن مثير الفتنة والخروج هو الكردينال پول ابن قونتيجة سالسبورى وكان آخر من بقى من العائلة الملوكية المسماة بلانتاجينية وكان قد لام هنرى على سوء سلوكه مع البابا فكافأه البابا على ذلك بالحلة الارجوانية الرومانية وكانت اقامة الكردينال المذكور بايطاليا ولم يرض بالحضور الى انكلترة وكان له فيها مراسلات سرية فانتقم الملك من امه فى نظير ما اتهم به ابنها من التعصب واثارة الفتنة فضرب عنقها سنة ١٥٤١ ميلادية (اى نحو سنة ٩٤٨ هجرية)

وكان للملكة الجديدة قبل زواج الملك بها امور عشقية فاحشة فاخفى اهلها عيوبها وتدنس عرضها عن الملك لكى ترتقى بزواجه اياها الى سرير الملك فترتب على هذا الكتمان هلاكها وذلك أن وزيره كرنمير كان يعلم حقيقة امرها فأخبر الملك بما عنده فى شأنها فبعد أن تفحص عن هذا الامر المكتوم واطلع على ذلك السر المشؤوم جمع مجلس البرلمان الذى هو الآلة المعتادة لانتقامه فصدرت خلاصة هذا المجلس بضرب عنقها فقتلت سنة ١٥٤٢ ميلادية وتزوج فى السنة التى بعدها بارملة اللورد لاتيمر المسماة كاترينة پار فكانت سادس زوجاته وقد كادت تقتل على الخرطة لكونها انتصرت لعقائد البروتستان بحضرة زوجها لولم تسلك مسلك الحذق واللباقة وتبادر بالتوبة والانابة (سنة ١٥٤٢ من الميلاد)

ثم ان هنرى الثامن اشتغل فى اواخر ايامه بتوسيع دائرة علم الاحكام الانكليزية فى امارة غالة وباهر الفتنة التى حصلت فى ارلندة وبحركات

العدوان

العدوان والمفاوضات مع ايقوسيا ومحاربة مملكة فرانسا
فاما توسيعه لدائرة علم الاحكام بالامارة المذكورة فسببه أن عائلته كانت من هذه الامارة فكان بالطبع يميل الى الاعتناء بشأنها لانها وطن آبائه واسلافه وكان قد تسلطن فيها جميع انواع الاختلالات التى تنشأ عن عدم انتظام الحكومة الالتزامية فلم يكن فيها للاوامر الملوكية قوة ولا تأثير بل كان كل ملتزم يزعم أن له دون غيره الحق فى اجراء الحكم باراضيه فترتب على ذلك أن الانسان اذا ارتكب اعظم الكبائر يتخلص من العقوبة بالالتجاء الى اراضى من جاوره من اللوردية (اى الملتزمين) ويشترى منه حمايته والدخول تحت كنفه فاراد هنرى الثامن أن يقطع عرق هذه المحظورات المضرة فامر بأن بلاد غالة تضم الى مملكة انكلترة وتجرى عليها قوانينها وأن لا ينصب فيها قاضى الا بفرمان ملوكى وأن كل قونتية لها قصبة ترسل الى مجلس البرلمان رسولا من طرفها وامر ايضا بامور اخرى غير ذلك
واما فتنة ارلندة فسببها أن اهل هذه الجزيرة المتأصلين والنازلين بها من مهاجرى الانكليز استبشعوا ما جدده هنرى الثامن من الابتداعات فى الدين وتعصب الفريقان مع بعضهما بقصد الذب عن دينهما ولكن لما هزم حاكم الجزيرة وهو اللورد غراى اقوى رؤساء عصبتهم المسمى أونيال انقاد غيره من الرؤساء الى الشوكة الملوكية ومن وقتئذ ارتقت ارلندة من درك الحكومة الالتزامية الى درجة المملكة وطلب اللوردية الارلندية (اى اعيان ارلندة) منصب البير (اى الانتظام فى سلك امراء الدولة) وطلب ذلك ايضا أونيال واشتهر من وقتئذ بلقب جديد وهو قونتة تيرونة (وكان طلبهم هذا سنة ١٥٤٣ من الميلاد) (المقابلة لنحو سنة ٩٥٠ من الهجرة) وبالجملة فكان تمام الهدء بارلندة ناشئا عن بعض قوانين وضعت لاجل فصل الخصومات فان هذه الجزيرة منذ استيلاء هنرى الثامن عليها لم تتمكن فيها شوكة الانكليز تمام تمكن الا فى هذا الوقت

واما حركات العدوان والمفاوضات مع ايقوسيا فسببها أن هنرى الثامن
لما رآى أن قوة شوكته واطلاق تصرفه قد تمكنا فى انكلترة وارلندة
اراد أن يوسع دائرة شوكته فى ايقوسيا ويلزم ابن اخته (مرغريطة دى
انكلترة) ياكس الخامس بالتمسك بعقائده الدينية وفسخ محالفته مع دولة
فرانسا فلما امتنع ياكس من ذلك اعلن له هنرى بالحرب والقتال
فمات ياكس المذكور فى مبادى هذه الحركات العدوانية ولم يعقب
من يرث المملكة بعده الا بنتا ولدت قبل موته بايام قلائل وقد حازت هذه
الاميرة وهى ماريه استوارت الشهرة عند العام والخاص بسبب جمالها
وزلاتها ولاسيما ماحل بها من النكبات والمصائب وبعد موت ابيها تولى نيابة
المملكة فى مبدأ الامر الكردينال بيتون رئيس اساقفة ايقوسيا
وحرم منها قونتة آران الذى كان اقرب الناس الى هذه الملكة الصغيرة ثم ان
هذا الكردينال لم يقبل من هنرى الثامن ماعرضه عليه من خطبة مارية
لابنه ايدوارد لكن لما جاءت النوبة لحزب قونتة آران وظهر على حزب
الكردينال وانحط القرار فى مجلس وكلاء الدولة على أن القونتة المذكور
هو نائب المملكة عقد مع هنرى الثامن مشارطة فى شأن هذا الزواج
(سنة ١٥٤٣ ميلادية) واستقر الرأى على أن الملكة تمكث
فى ايقوسيا حتى يبلغ سنها عشر سنين ثم تذهب الى انكلترة لتتربى بها
وعلى أن ايقوسيا وان انضمت الى انكلترة تبقى على ماهى عليه من
القوانين والمزايا ومع ذلك لم يزل يسعى رئيس الاساقفة حتى نجح بدسائسه
فى فسخ المشارطة التى انعقدت مع هنرى الثامن وحيث كان يتوقع أن
هذا الملك ينتقم منه بالحرب والقتال طلب الاعانة من فرنسيس الاول
(ملك فرانسا) فوعده بالمساعدة ثم بعث فى هذا الوقت الى ايقوسيا رجلا
شديد العداوة والخطر لقونتة آران وهو متيو استوارت قونتة
لينكس وكان اذ ذاك فى دائرة ملك فرانسا فاغتاظ من ذلك
هنرى الثامن وتحزب مع الامبراطور شرلكان وحالفه على أن يكون

معه

معه فى الاغارة والمدافعة ثم حصل الاعلان بالحرب لفرنسيس الاول وبعث هنرى لحليفه بعض فرق عسكرية من جنوده ولكن كان جل التفاته ومطمح نظره انما هو مملكة ايقوسيا (وكان ذلك سنة ١٥٤٤ من الميلاد) وكانت هذه المملكة منغصة بما فيها من التفاقم والشقاق فانه وان اصطلح قونتة آران مع رئيس الاساقفة ورفض التشيع ودين المعتزلة ورضى بالمشارطة التى بموجبها بقى له لقب نائب المملكة وان كانت وظائف هذا اللقب ومقتضياته انما يجريها الكردينال بيتون الا أن لينكس كان بالطبع يميل الى المشروعات ويجسر على الاقدام على عزائم الامور فخافه الكردينال وابعده عن التشبث بالمصالح فسعى فى القيام واثارة الفتنة ثم رجع الى المشارطة ووضع السلاح وذهب الى اراضيه والتزاماته واخذ فى تحصين قلاعه وعزم على امور جديدة وفى هذا الوقت اغار جيش من الانكليز مرة ثانية على ايقوسيا الا أن هذه الاغارة لم تطل مدتها بل انقضت بسرعة فحصلت الريبة من لينكس واتهم بأنه كان له فى هذه الاغارة مدخلية ومساعدة فطرد من ايقوسيا والتجأ الى انكلترة فآواه هنرى الثامن بل وزوجه بنت اخته ثم امسك هنرى عن الاغارة على مملكة ايقوسيا وتركها لتستريح ووجه جميع قواه العسكرية الى مملكة فرانسا فخرج على مدينة كالس فى جيش من عساكره وحاصر بعض محال وتغلب على مدينة بولونية وتخلى شرلكان عن محالفته وتحالف مع فرنسيس الاول فبذلك انفرد هنرى بتحمل اثقال الحرب ومشاقها فاطال أمدها الى سنتين زيادة على ما استغرقته قبل ذلك ولم يقع فى هاتين السنتين من الوقائع ما يستحق التنبيه عليه لا فى البر ولا فى البحر وقصارى الامر انه فى سنة ١٥٤٦ من الميلاد (المقابلة لنحو سنة ٩٥٣ من الهجرة) وضع القرار على الصلح مع الفرنساوية وأبقى تحت يده مدينة بولونية حتى يقبض المبالغ التى كان يطلبها من دولة فرانسا وكان قد استقر الرأى على ادائها الى اجل ثمانية اعوام وكانت مملكة ايقوسيا

من جملة ما تضمنته مشارطة الصلح

وكان قد مضى على الملك هنرى مدة طويلة وهو آخذ فى ضعف البنية واضمحلال الصحة وذلك أنه كان فى ساقه قرحة كان يتألم منها تألما شديدا فزاد تألمه هذا فيما كان يميل اليه بالطبع من القسوة وسفك الدماء وداخلته الريبة من دوق نورفولك الذى كان واجب الاحترام لصداقته وطول مدة خدامته فقبض عليه وعلى ابنه قونتة سورى وكان هذا القونتة قد ادركته بغضة الملك لسبق لسانه ببعض فلتات غير لائقة فاتهم هو وابوه بأنهما مظنة المراسلة مع اعداء الدولة فحصل اولا فصل دعوى سورى وقتل ثم حكم على نورفولك بالقتل وعين لقتله صبيحة اليوم التاسع والعشرين من شهر ينوية (سنة ١٥٤٧ ميلادية) (اى نحو سنة ٩٥٤ هجرية) ولكن مات الملك فى ليلة هذا اليوم نخيف أن يكون طالع الحكومة الجديدة منحوسا ومدنسا بهذه الفعلة التى هى من باب الجور والظلم

ولم يتفق أن ملكا من الملوك كان له اطلاق تصرف فى رعيته مثل هنرى الثامن فانه لما كان يجرى فى اموره واحكامه على مقتضى اصل متين فى السياسة والديانة وقاعدة لا تختلف ولا تقبل الخطأ ألزم الرعية بطاعته واستعبد اهل انكلترة حتى كأنهم امة من الرقيق فاستعبد مجالس البرلمان بهوله وخطره واستعبد الملة بهوله وبمجالس البرلمان

ومنذ انقرضت عائلات الاشراف والاعيان التى ابادتها الحروب الاهلية كان ارباب مجالس البير (مجلس امراء الدولة) على العموم اناسا حديثين ثروتهم ومناصبهم من انعامات هنرى اوابيه واما من بقى الى ذلك الوقت من قدماء الاشراف فكانوا يفزعون من هذا الملك الذى كانت سياسته مؤسسة على خفض الاشراف والمعاقبة على الخطأ والتقصير بدون رأفة ولا شفقة وكان يتخذ خواصه ومن يستأمنهم على حكومته من الطوائف الخاملة واما عصابة الامراء الدينية فانها لما فقدت بالافتراق الدينى ما كان لها من القوة بسبب تصدى البابات لحمايتها والذب عنها لم تبق الا عبارة عن

مأمورين من طرف الملك ووزراء لا يسعهم الخروج عن رأيه واما ارباب مجلس الكومون (اى مجلس مبعوثى الملة) فكان تقليدهم من طرف الملك اومن طرف اللوردية (اى الملتزمين) فكان لا ينبغى لهم أن يسلكوا فى امر المصالح مسلك الحرية بحيث تمكنهم المعارضة الاعلى وجه لا يخل بالادب والحشمة حتى انهم كانوا اذا عارضوا فى بعض الاحيان رأى الديوان قطع الملك عليهم معارضتهم بالتوبيخ الشديد اوالتخويف والتهديد فكانت مثل هذه المجالس لا يخشى منها على التاج الملوكى فلذا كان هنرى الثامن يعقدها كثيرا وكانت دائما تقره على اغراضه ومطالبه وان كان فيها مخالفة للاصول اوشدة وقسوة وكانوا بافراطهم فى التملق له عند افتتاح المجالس التى يحضرها بنفسه وعند اختتامها يتراءى من حالهم انهم يدعونه الى الظلم والتعدى وكان القنجليير اورئيس الجمعية وقت افتتاح المجلس واتمامه يوجه له خطابا طويلا كان موضوعه دائما مدحه والثناء عليه وكان الخطباء يتسابقون الى الدناءة ولؤم الطباع فيوافقونه على اعجابه بنفسه باطرائهم فى مدحه ومبالغتهم فى تعديد محاسنه حتى لوسمع منهم ذلك انسان لحكم بأنه لا يمكن لاحد أن يأتى فى وصف خصاله العقلية التى يدعون انها تقصر دونها العبارة وفضائله القلبية الجليلة فى زعمهم بالاوصاف اللائقة التى تفى بحقها حيث كانوا يمدحونه بانه جمع بين حكمة سليمان وعقله وقوة شمشون (المعروف بشمشون الجبار) وشهامته وحسن ابشولم (بن داود) وجماله وان الله تعالى رفعه على جميع اسلافه بل وعلى جميع ملوك الارض وألهمه كما ينبغى معرفة الكتب المقدسة ليظهر على الافعوان الرومانى (البابا) ومعرفة فن الحرب ليظفر باعدائه وارشده الى حسن الادارة لتتمتع الرعايا فى ايامه بلذات السلم وثمرات الصلح ووصفوه بامور اخرى غير ذلك وكان الحاضرون كلما سمعوا فى الخطبة ما معناه الحضرة الملوكية المقدسة انحنوا لذلك انحناء التعظيم والاجلال مع المبالغة فى الركوع بين يديه حتى كأنه نصف اله (كما كان ذلك عند جاهلية اليونان) وكان يقرهم على هذه الفعلة الخشنية

ويظهر أنها لا تأثير لها عنده

فما اعجب هذه العبودية التي جرأت هنري الثامن على أن يفعل ماشاء فلذا لم يكن له زاجر واجب الحرمة يزجره عن شهواته النفسانية واهوائه الظلمية كيف وقد ألان تشديدات الدين وجعلها على مقتضى اغراضه وهوى نفسه وغير غير مرة قانون ولاية العهد وجرد مجالس البرلمان عما كان لها من قوة التشريع بكونه اثبت لاوامره الملوكية قوة الشرائع وزاد في عدد ذنوب الخيانة وجعل القتل عقابا لكل من خالف اوامره المتجاوزة الحد في الظلم والجور مع انها في الغالب كانت من قبيل الهزؤ والسخرية وقتل على الخرطة اناسا من سائر الطوائف على اختلاف درجاتهم بل ومن الملكات (وهي زوجاته) وجمع بين محبة سفك الدماء وشدة الحرص على جمع الاموال وبالجملة فقد تلاعب بعقيدة الرعية وحريتهم وحظوظهم وارواحهم وكيف كانت انكلترة تتشل من اوحال هذا الاستعباد المهين لو أفرط هذا الملك في الظلم اكثر من ذلك وابطل صورة الحكومة الحرة وازال رسومها وابطل مجالس البرلمان ولكنه ابقى هذه المجالس التي وان بلغ بها الضعف الى زوال التأثير والقوة الفعالة هي دائما منشأ الحرية التي لا تحتاج في توسيع دائرتها الا الى مجرد المساعدة والاعانة فقد ترتب على ابقائه لصورة الحكومة الحرة ورسومها التشبث تدريجا بالميل الى مقاومة الحكومة المطلقة التصرف ومعارضتها حتى آل الامر الى أن الانكليز رغبة في تحصيل الحرية قاموا قياما مهولا ظهروا به على موانع حريتهم وانتقموا من عائلة الملوك الاستوارية لسوء حظها في نظير ما لحقهم من الظلم والاستعباد في ايام حكومة العائلة التودورية المطلقة التصرف (التي كان منها هنري الثامن)

(الكلام على الملك ايدوارد السادس)

(من سنة ١٥٤٧ الى سنة ١٥٥٣ من الميلاد)

(اى من سنة ٩٥٤ الى سنة ٩٦١ من الهجرة تقريبا)

كان عمر هذا الملك حين خلف اباه هنري الثامن على المملكة تسع سنوات

وبعض

وبعض شهور وكان ابوه قد اوصى أن يكون اجل قصوره ثمانى عشرة سنة كاملة وعين لتدبير المملكة فى ظرف هذه المدة الطويلة ستة عشر وصيا واصحبهم باثنى عشر مشيرا لاجل اعانتهم ومساعدتهم ولكن لما كانت وصايا الملوك ولو كانوا على غاية من اطلاق التصرف تندر بعد موتهم مراعاة حرمتها والمحافظة عليها نسخ الاوصياء من مبدا الامر وصية هنرى الثامن فأقاموا مقام حكومة الجماعة التى اوصى بها حكومة رجل واحد وهو قونتة هرتفورد خال ايدوارد السادس ولقبوه بلقب الحامى وجعلوه دوق سومرست فعما قليل اضاف هذا الحامى الى اللقب المذكور لقب النائب حيث حمل الملك الصغير على تلقيبه به بموجب فرمان ملوكى وعلى أن يكون مفوضا ومرخصا فى الحكومة

وكان سومرست المذكور ممن يميل الى الهرطقة والتشيع فلما تقلد بالشوكة العظمى صار لايدارى ميله الى ذلك وربى ايدوارد على اصول مذهب البروتستان واتفق مع كرنمير على نسخ الدين القاثوليقى الا انهما لما رأيا أن المبادرة بهذا النسخ خطرة عزما على ان يسلكا فى ذلك مسلك التأنى والتدريج فامر ان لايعمل باحكام الاساقفة مدة من الزمان وان يجرى التفتيش فى جميع اسقفياتهم بالمملكة مستندا فى ذلك الى ماكان للشوكة الملوكية فى عهد هنرى الثامن من قوة التشريع وبعث فى تلك الاسقفيات من طرفه وكلاء من العوام والقسوس وامرهم بنسخ ما ينسب الى الكنيسة الرومانية من الرسوم القديمة او تحريرها واصلاحها وامرهم ايضا ان يبذلوا جهدهم حسب الطاقة فى جعل العبادات والآداب الدينية جارية على مقتضى رسوم كنائس المتشيعة ثم منع الوعاظ عن الوعظ خارج محلاتهم وكان الغرض من هذا القانون الذى كان يدعى انه لايشمل قسوس البروتستان وانهم خارجون عن عهدة العمل به انما هو اضعاف ما كان لوعاظ القاثوليقية من الهيبة وقوة الشوكة فلذا قام لمعارضة هذه الابتداعات غرديتر اسقف ونشستير من قدماء وزراء هنرى الثامن فوضع فى السجن فى السنة

الثالية بتعلل انه قد عارض امامة الملك وخالف رياسته الدينية

وكانت مملكة ايقوسيا في ذلك الوقت على غاية من الاضطراب والاختلاف وذلك انه لما ظهر التشيع في تلك البلاد اكتسب اهلها الذين هم اهل غلظة وخشونة حدة شديدة وحمية جاهلية لم تكن عند غيرهم من ملل اوروبا فادرك الكردينال بياتون الفزع والخوف لما رآى هذا التشيع قد اخذ في الانتشار والاتساع فاراد أن يمنع ذلك بالعقوبات الشديدة فأحرق من المتشيعين واعظا يقال له ويشارت فاخبره وهو في لهيب النار بانه سيعاقب بعد ايام قلائل على قساوته فحقق اتباع هذا المتهجم على الغيب ما اخبر به وهو في النار حيث قتلوا الكردينال المذكور (سنة ١٥٤٦ ميلادية)

فكانت هذه الحادثة سببا في اثارة الحرب الاهلية بهذه المملكة وذلك أن الملكة الارملة وهي ماريه دي لورينه كانت قد تغلبت على شوكة نيابة المملكة وحازتها لنفسها وتركت لقب نائب المملكة لقونتة آران فطلبت من دولة فرانسا الاعانة على مثيرى الفتنة وهم طلبوا الاعانة من دولة انكلترة فخرج سومرست الى ايقوسيا في جيش يبلغ ثمانية عشر الف مقاتل وطلب ضم المملكتين (انكلترة وايقوسيا) الى بعضهما بتزويج ايدوارد السادس للملكة الصغيرة (وهي ماريه استوارت) وأن ذلك يكون ثمنا يبذل في شراء الصلح فلم تجبه الى ذلك امها فكان امتناعها سببا في وقعة پنكى التي كانت على خمسة اميال من مدينة ايدمبورغ (التي هي تخت ايقوسيا) وكانت الهزيمة فيها على الايقوسية حيث بقي منهم في محل المعركة عشرة آلاف ما بين قتيل وجريح واما الانكليز فلم يفقدوا من عساكرهم الامائتى رجل الا أن سومرست لم ينتهز فرصة هذه النصرة لانه كان قلقا على العود الى مدينة لوندرة حيث كان يتحزب فيها عليه احزاب وعصب فسافر اليها وخلف قونتة وروبق لاجل المفاوضة مع قونتة آران لان هذا القونتة كان قد طلب الصلح الا ان ذلك منه كان محض مكر وخديعة لانه كان ينتظر قدوم المدد والاعانة من فرانسا ففعل ذلك

ليكون معه فسحة من الزمن

ولما عاد سومرست الى انكلترة عقد مجلس البرلمان لاجل ابطال قوانين هنرى الثامن وتكميل مذهب التشيع فأبطلوا قانون البنود الستة وكذلك القانون المتعلق بالاعلانات الملوكية ومنعوا القداسات الخاصة ورخصوا للعوام القربان من نوعين وجعلوا الملك مفوضا فى تقليد الاساقفة بدون انتخاب الجمعيات القسيسية وابرزوا امرا يتضمن اقرار امامة الملك وانكار امامة البابا ومن خالف ذلك عوقب اشد العقاب ثم ابطل المحامى (سومرست) من تلقاء نفسه عدة مناسك ورسوم من رسوم الكنيسة الرومانية وامر بازالة الصور والتماثيل من الكنائس

وكان كلما انتشر التشيع فى انكلترة شددت مارية دى لورينة فى منع المصاهرة التى طلبها سومرست وقد قوى هذه الملكة التى هى ام ملكة ايقوسيا على هذا الامتناع الامداد الذى اتى من فرانسا الى ايقوسيا وقدره ستة آلاف رجل فعقدت مجلس البرلمان وانحط القرار فيه على ارسال هذه الملكة الشابة الى ديوان فرانسا لتجىء بها فورا الى هذا الديوان وخطبت للدوفين (اى ولى عهد مملكة فرانسا) فنال قونتة اران مجازاة له على هذه المصاهرة مرتبا سنويا من هنرى الثانى ولقب دوق شاتيلرولت (سنة ١٥٤٨ من الميلاد)

فبذل نائب مملكة انكلترة بعض مجهودات لمقاتلة مملكة ايقوسيا الا ان سومرست (وهو النائب المذكور) لما كان عدوا قليل الخطر والاضرار عزم اخوه لورد سيمور على انحطاطه وسقوطه واخذه منصبه وحيث كان اخوه المذكور متمكنا من احزاب كثيرة يمكنه تسليحهم عند الاحتياج والضرورة شنع على حكومة هذا المحامى (اعنى هذا النائب) وصار لا يخفى ما فى ضميره من المقاصد وكان بذلك الوقت رجل آخر من ارباب الطمع يسمى دودلى قونتة واروبك مشاهدا لما وقع بين هذين الاخوين من الكراهة والبغضاء وكان كل منهما يأمن هذا الخائن على اسراره فشرع فى ايقاع الفتنة بينهما وكون كل منهما

يحط صاحبه عن رتبته ثم يرتقي هو بعد ذلك الى منصبهما فاخذ يلقي في آذان سومرست النصائح المفسدة حتى قواه على الظهور والغلبة على النفور الذي يحصل من قتل الاخ فبلغ مجلس البرلمان بان اخاه لورد سمور مرتكب ذنب الخيانة العظمى (اعني الخيانة في حق الدولة او الملك) فصدر من هذا المجلس الحكم بقتله ووضع هذا المحامي وهو سومرست المذكور القرار على هذا الحكم فقتل سمور سنة ١٥٤٩ من الميلاد

ثم اشتغل مجلس البرلمان بالمصالح القسيسية وكانت جمعية من الاساقفة وعلماء اللاهوت قد نيطت بتنظيم قداس الكنيسة الانكليزية فاظهر ارباب هذه الجمعية صورة جديدة للنسك والعبادة مع مراعاة ما امكن لاصول البروتستان أن تقبله من المناسك القديمة فاقر مجلس البرلمان هذه المناسك وترتيب الديانة الانكليزية على الوجه الذي هو عليه الآن كاد أن يكون قد تم في ذلك الوقت

وقد اثارت الشوكة الملوكية التي كان يجريها سومرست بتمامها وكذا امواله الجسيمة والحكم على اخيه بالقتل حسد الناس اوكراهتهم له فاغتنم ورويك هذه الفرصة وعرف كيف ينتفع منها ويظفر بمرامه فحزب في المجلس على سومرست حزبا قويا فاراد هذا المحامي في مبدأ الامر أن يستعمل القوة لقمع اعدائه ولكنه لما رأى ان جميع احزابه تقريبا تخلوا عنه وتركوه سلم لسوء بخته وتنازل عن نيابة المملكة وكان مبنى التهمة التي اتهم بها على انه تغلب على الحكومة وتعدى على جميع المناصب وحيث انه لم يخف على صورة حسنة بتندمه مالحقه من الرعب والفزع اقر بانه مذنب وترجى العفو وهو جاث على ركبتيه فعند ذلك جرده مجلس البرلمان عن جميع وظائفه وحكم عليه بدفع جريمة وابقاه على قيد الحياة وصار ورويك رئيس مجلس النيابة وكان يحتقر سومرست احتقارا زائدا بحيث لم يبح له الدخول ثانيا في هذا المجلس وقد اعقب هذه التقلبات صلح انكلترة مع فرانسا فردت فرانسا لهنري الثاني مدينة بولونيا في مقابلة اربعين

الف

الف ايكو (وهو نوع من النقود) وكانت ايقوسيا من ضمن مشارطة هذا الصلح الذى انعقد سنة ١٥٥٠ من الميلاد كما كانت من ضمن المشارطة التى انعقدت سنة ١٥٤٦ من الميلاد

وكان ورويك مثل سومرست فى الميل لدين المعتزلة وكان القاثوليقية لم يزالوا كثيرين فامتنع عدة اساقفة منهم من قبول الابتداعات الدينية فانحط الرأى على عزلهم فابتدؤا بعزل غردينيل الذى كان مسجونا من منذ سنتين وذلك انه لما امتنع من وضع قراره على عدة بنود لم تنباها ذمته فصلت دعوته جمعية كان رئيسها الحبر كرنمير فحكمت عليه حكما مخالفا للاصول حيث حرمه من اسقوفيته وزاد فى شدة سجنه وعاملوا احبارا اخر بهذه المعاملة ونغصوا على نفس الاميرة مارية وذلك انها لما نشأت على دين والدتها كانت مبغوضة عند المعتزلة الذين مع غيرتهم الدينية جبروا على الانقياد للسياسة فسمحوا لهذه الاميرة من غير طيب خاطر بالرخصة الدينية حيث ان شرلكان قد طلبها لاجلها تارة بالترجى وتارة بالتهديد

وكان سومرست قد سقط من اوج العلا بطريقة تورث صاحبها كثرة الخجل والمعرة بحيث لا يمكنه النهوض من وقعته فارتكب خطا كونه لم يحسم من قلبه عرق الطمع الذى كان يتجدد على الدوام وارتكب ورويك خطأ مهابشه له فكان سومرست من منذ عزله يتفوه بكلام خارج عن الحزم والسداد وكان يصمم على مقاصد انتقامية تخلى عنها فورا حيث قبض عليه ورويك وحكم عليه بالموت متعللا عليه بالخيانة العظمى وكان قتله سنة ١٥٥٢ ميلاديه

وحيث لم يكتف ورويك بتلف خصمه وبتلقيبه بدوق نورشمبرلند ولم يجد ذلك متمما لاغراضه طمع فى الشوكة العظمى وتقوى طمعه ورجاؤه بضعف صحة الملك فحمل هذا الملك الشاب على تغيير طريقة ولاية العهد وذكر له ان نسب اختيه مارية وايليزابيتة اللتين كان قد حكم عليهما مجالس البرلمان بانهما ليستا من نكاح شرعى يجعلهما غير جديرتين بالجلوس على

سرير المملكة وان كان ذلك مخالفا للعوقهما بالنسب واسترجاعهما حقوقهما ولوصية هنرى الثامن (ابيهما) وان مارية استوارت ملكة ايقوسيا انتزع منها جميع حقوقها اما بوصية الملك المتوفى او لكونها اجنبية فبناء على ذلك تعود بالطبع ولاية العهد لمركيزت دورست بكرية مارية دى انكلترة ثم لحانة جراى حيث انها اقرب وارثيها وبشبوبيتها وجمالها وفضيلتها ومعارفها يزداد رونق التاج الملوكى وبهجته وبينما كان المجلس يامر الملك يتذاكر فى شأن هذه القضية عرض ورويك دوق نورثبرلند على مركيزدورست بعدان سعى له فى تحصيل لقب دوق سوفلك وكان هذا اللقب قد انقرض عن قريب أن يزوج ابنه الرابع وهو جلفورد ددلى بحانة جراى بنت هذا الدوق الجديد فاجابه بالقبول وان كان فى ذلك سوء بخت الزوجين وقصارى الامر نال نورثبرلند من الملك فرمانات منعت ايليزابطة ومارية عن سرير الملك واقامت محلهما اورثة مركيزت دورست وعما قليل مات ابدوارد وهو فى سن الستة عشر سنة (فى ٦ من شهر يونية سنة ١٥٥٣ ميلادية) وقد اوجب الميل لشبان الملوك والتأثر الذى يحصل فى شأن ملك شاب اخترمته المنية حال شبوبيته والصفات الحميدة التى كانت تعشم بحكم ناجح لطيف تأسف الرعية وحزنهم عليه

(الكلام على مارية (من سنة ١٥٥٣ الى سنة ١٥٥٨)

وقد بادر نورثبرلند بتولية حانة جراى ولما كانت هذه الاميرة سهلة الاخلاق متواضعة مولعة بالقراءة والمطالعة قبلت بغير طيب خاطر شرف هذا المنصب الذى عاد عليها بالشؤم وحين بلغ الرعية توليتها اظهرت سكوتا مشعرا بالحزن دالا على انهم انكروا افتياتها على هذا المنصب الملوكى

ولكن جمعت مارية التى كانت منعزلة فى قونتية سوفولك فى اقل زمن جيشا جرارا فتوجه نورثبرلند لقتالها لكن تخلى عنه جميع من كان معه فاظهر وقت الشدة جميع دناءة نفس سومرست وذلك لانه حين قبض

عليه خرجاثيا على ركبتيه وطلب ابقاءه على قيد الحياة الان مارية جعلته قربانا لامنها واطمئنانها اوفدية لانتقامها واخذ ثارها واظهرت الرعية المسرة والفرح حين شاهدت تعذيبه وعقابه لما انها كانت تبغضه وكان جلفورد وحانة غراى اذذاك مسجونين فى البرج فصدر فى شأنهما نظر الحكم الذى حكم به على نورغبرلند الان الملكة مارية امامن قبيل الشفقة عليهما اومن قبيل السياسة ابقت عليهما وابطلت الحكم بقتلهما .

و بمجرد ماتمكنت مارية على سرير الملك اشتغلت برفع منار الكنيسة الرومانية فاخرجت من السجن اولا جردينير واعادت له منصبه وغيره من الاحبار الذين عزلوا فى عهد الملك السابق الا انها لم تقتصر مع ما كانت عليه من الغيرة والحمية على هذه الافعال التى هى من باب العدل والانصاف بل دار الدور فى الظلم على الاساقفة الذين هم من الحزب الاخرفان جرنمير لما كان مبغوضا لمارية من وجهين حيث كان سببا فى طلاق هنرى الثامن لزوجاته وفى اعادة الاعتزال اتهم بانه اعان حزب حانة غراى فحكم عليه بالموت بوصف كونه مرتكبا ذنب الخيانة وجرى عليه مقتضى هذا الحكم بعد ثلاث سنين

وابطل مجلس البرلمان تراتيب ايدوارد الثالث التى كانت مساعدة للاعتزال وعادت المصالح والامور الى الحالة التى كانت عليها عند موت هنرى الثامن وبقى لمارية لقب الرياسة العظمى على الكنيسة لكنها لم تحز الشوكة البابية الاكوديعة بقصد أن تردها الى البابا ولاجل التحقق من تنجيز هذه المقاصد المخالفة لاغراض رعاياها سعت فى اتخاذ ظهير من عائلة امها وتذاكرت سرا فى شأن زواجها بفيليبش الثانى بن شرلكان الا ان هذا السر لم يحفظ كما ينبغى فان مجلس البرلمان وصله خبره فخشى من هذا الزواج على حرية انكلترة فاظهر فى هذا الشان ما يخالف ما كان معتادا عليه من الانقياد والامتثال لاوامرها حيث بين لها بعض ملحوظات

وتهديدات تمنعها من هذا الزواج فامرت بإبطال هذا المجلس وذلك في سنة ١٥٥٣ من الميلاد

وقد انعقد هذا النكاح في السنة التي بعدها على شروط ظاهرها أنها تعود بالنفع على انكلترة وهي ان فيليبش لا يكون له من المنصب الملوكي الا مجرد اللقب ويرخي زمام ادارتها بين يدي الملكة ولا يسوغ لاحد من الاجانب أن يحوز مناصب في الدولة وتكون شرائع الملة ومزاياها حرم لا يمكن انتهاكه والذكور الذين يتناسلون من مارية و فيليبش لم يقتصروا في الوراثة على انكلترة بل يرثون برغونيا وكذا البلاد الواطية وغيرها الا ان هذه الشروط الظاهرية لم يغتر بها الانكليز فانهم ارتابوا من هذه العطايا الصادرة من عدوهم فترتب على تضرر الانكليز من ذلك خروج وقيام لم تخمد ناره الا مع الشدة والقساوة وكان دوق سوفولك له دخل في هذه التعصبات فارتكنت مارية الى هذه العلة لتأمر بقتل حانة غراي فقتلت هذه المسكينة السيئة البخت مع التجلد والثبات الذي هو فوق طاقة جنسها ومن كان في سنها وكان زوجها قد سبقها بمثل ذلك واعقبها في القتل والدها وقد احدث هذا الجبر والقساوة نفور قلوب الرعايا منها ولم يكن مجيء فيليبش ملايما لتسكينهم وزوال النفور من قلوبهم وقصارى الامر أن حضر هذا الملك بعد أن تاخر مدة طويلة وكان ما يكدر خواطر جميع الناس ما عدا الملكة ملاقاته لهم مع الفتور وسلوكه مسلك التحرز والترقي في اموره التي هي من باب الكبر والانفة ورسوم التشريفات الاسبانيولية التي كان محتاطا بها المتعذر الوصول اليه فلمحبة مارية له وغيرتها عليه كانت ترضى بصعوبة اخلاقه و بتلك الرسوم التي كان يتراءى انها تجعله بمعزل عن رعاياه ليتفرغ لها بالكلية

وقد استبان لانكلترة حينئذ الغرض العظيم الذي كانت عازمة عليه هذه الملكة وكان السبب الاول في زواجها وذلك ان مجلسا كان مؤلفا على طبق مرام الديوان رضي باعادة الدين القاثوليقي بالكلية وبعث الكردينال بول

الى رومة للتوفيق بين انكلترة والپاپا وابطل مجلسا انكلترة جميع القوانين التى ترتبت لتوليد المضرة على القاثوليقية وطلبا الرجوع الى الكنيسة الرومانية وازال الكردينال جميع الملامات عنهما وسمح لهما بالغفران نيابة عن الپاپا الذى كان انقيادهما وامتثالهما له سببا فى تسكين غضبه ومما يتأسف عليه وان كان لا بد منه أن نقول انه كان فى هذه الحالة الجديرة بتخليد الذكر مصلحة دنيوية مستولية على هذه المسئلة الدينية حيث ان الملتزمين والاشراف لم يرضوا بعقد أى مصالحة كانت مع ديوان رومة بدون أن يعدهم قبل ذلك بان لا يسلب منهم اصلا الاموال القسيسية التى كانوا تغلبوا عليها ففى القانون الذى ابطل جميع القوانين التى تعدت على الشوكة الپاپية قيد هذا الشرط وهو ان اصحاب املاك الكنيسة لا يخشون شيأ من التعرض لهم

وكان ممن يحظى بوثوق مارية حبران وهما پول وغردينير فكان الاول يوصيها باللين فى شأن اتباع الاعتزال والثانى يشير عليها بالتشديد فى حقهم ففى مدة الوزير غردينير اعاد مجلس البرلمان الدين القاثوليقى ووضع القرار على زواج الملكة ومن المعلوم ان الملة الانكليزية كانت تنفر من هذين الامرين فهذه المحوظات جعلت لشوكة هذا الوزير الظهور فبعد ان كانت الكنيسة الرومانية من منذ مدة يسيرة مظلومة مجحفا بها دوفع عنها بالظلم ايضا والاجحاف فترتب على ما صدر عن ذلك من التعذيب والقتل ان صار للهرطقة قوة جديدة حيث اشتدت الحمية الجاهلية بالمعتزلة ولم تجد شيأ الا كونها صيرت الملكة مبغوضة مكروهة وكان عدم نجاح مجهودات هذه الملكة يوقعها فى الغم والحزن الشديد الذى زاد ايضا بسفر زوجها (سنة ١٥٥٦ من الميلاد) فانه (اى فيليبش الثانى) لما يئس من تحصيل مودة الانكليز واستمالة قلوبهم له خرج من جزيرة الانكليز التى كان دعاه اليها ابوه شرلكان ورجع الى اسبانيا ليسلم له جميع تيجانه وممالكه وكانت نيران الحرب اذ ذاك مضطرمة بين فرانسا واسبانيا ولم يمنع مارية من الدخول فى هذه

المنازعة والمشاحنة عدم التفات زوجها اليها حيث كان لا يشغل باله الا بالطماع نفسه مع مراجعات المشورة لها اعلنت بالحرب على فرانسا لتكون مقبولة عند هذا الملك الجاحد لنعمتها حيث كان يفرّ منها فارسلت عشرة آلاف رجل الى فلندرة تحت قيادة قونتة بمبرولك فكان اهم مدخل فى نصرة سنت كنتين (سنة ١٥٥٧) وكان بطء اعداء فرانسا وشجاعة دوق غيزة سببا فى انقاذها فان جسارة هذا الرئيس العظيم الوافرة الحظ اوقعت فى قلوب الناس المنزعجة الأمن والاطمئنان وفى سنة ١٥٥٨ تغلب مدة ثمانية ايام فى وسط الشتاء على مدينة حصينة مشهورة بانها منيعة فى هذا الفصل وهى مدينة كالس التى كان ايدوارد الثالث قد بذل فى فتحها اشغالا استغرقت اثنى عشر شهرا وقد بلغ حزن مارية منتهاه بزواج ملكة ايقوسيا بولى عهد فرانسا وكان قونتة اران قد سلم لدسانس والدة ملكة ايقوسيا فترك لها زمام الدولة سنة ١٥٥٤ وتلقبت بلقب نائبة المملكة واظهرت الانفصال والمغاطقة لمارية لما اعلنت هذه الملكة بحرب فرانسا وكان اهل ايقوسيا قد شنوا اغارات فى انكلترة وصارى الامر أن تم اتحاد فرانسا مع ايقوسيا باشهار زواج مارية استوارت ملكة ايقوسيا بولى عهد فرانسا

وقد اشتد نكد ملكة انكلترة بسبب لغط الرعايا وانتشار الهرطقة واحتقار فيليبش لها ومصائب الحرب فلم تستطع أن تتحمل تراكم هذه الشدائد عليها فاصابها حمى شديدة افضت بها الى انقضاء اجلها فى الرابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٥٥٨ من الميلاد ولم تعقب ذرية وكان مما تنغصت به انها تركت سرير الملك لاخت معتزلة كانت تبغضها واساءت معاملتها من اجل الديانة

وفى مدة حياة مارية كان رؤساء جميع الفرق الدينية يعتقدون ان من الواجب عليهم اعدام مذهب الاعتزال الذى كان مشهورا بالبطلان فلم تعجز هذه

الملكة الا ما كانوا يدرسونه ويعلمونه ويمكن أن يقال ان مما يعد من مصيبتها الامن خطاها انها لم تكن ازكى عقلاء عصرها وحيث انها اغترت بهذا الوهم الخشنى كانت تستعين على اظهار الحق بالقتل والحرق وبقطع النظر عن عدم اباحتها للاديان وتشديدها فيها قد نظمها المؤلفون بل وبعض مؤلفى المعتزلة فى سلك الملوك الذين يستحقون الاعتبار اكثر من غيرهم ممن ظهر بانكلترة حيث مدحوها على صلاحها وتقواها واكرامها للفقراء والمساكين وحبها للعدل والانصاف وصلابة اخلاقها واعتنائها بشأن المدارس الجامعة والتشريع والتجارة ولم يطعنوا فيها الا بما سموه بضلالها الدينى

(الباب الخامس)

(الفصل الاول)

فى دانيمارقه واسوج ونروج من تولية كريستيان الثانى الى عزله (وذلك من سنة ١٥١٣ الى سنة ١٥٢٣ من الميلاد)

وفى سنة ١٥١٣ خلف كريستيان الثانى اباه يوحنا الثانى على دانيمارقة ونروج وكان يعزم على أن يعيد الحرب مع دولة اسوج متى امكنه فعل ذلك مع النجاح ولهذا الغرض طلب ليتحقق من اعانة اقوى عائلة كانت موجودة اذذاك فى اوروبا أن يتزوج ايليزابيطة دى اوستريا اخت شرلكان فتزوج بهذه الاميرة سنة ١٥١٥ وفى هذه السنة جدد مع هنرى الثامن ملك انكلترة مشارطة التجارة التى كانت عقدت بين يوحنا الثانى وهنرى السابع وعقد مع بازيل دوق روسيا الاكبر المعاهدات القديمة التى كانت التزمت الدولتان بمقتضاها أن يعين بعضهما بعضا على اعدائهما وقصارى الامر نال من هذا الامير فى السنة التى بعدها الاذن بترتيب قبانية دانيمرقية للتجارة فى الروسيا واقامتها بمدينة نووغرود وعلى العموم فقد سعى كريستيان الثانى مدة جميع حكمه فى جعل تجارة دانيمارقة زاهية زاهرة فانه كان يعتبرها انها واسطة مستقيمة فى تنقيص شوكة الاشراف حيث كان يزداد بها ثروة اهالى المدن

وزيادة على ذلك كان يجد فيها فرعا جديدا من الايراد يعينه على تجهيز عساكر منتظمة كان محتاجا لها لاجل حفظ شوكته فى داخل المملكة واتساع دائرتها فى خارجها

وكان غوسطاوة ترول مطران اوبسال الذى هو من عائلة كان لها التئام وارتباط فى عصره بالدانيمارقة له علاقات ومراسلات سرا مع كريستيان الثانى وكان يسعى خفية فى تحزيب عصبة على المدبر استينون استور الثانى لكن حين ادرك المدبر اغراض هذا المطران طلبه للحضور فى جمعية وكلاء المملكة التى كانت منعقدة فى مدينة تليجة (سنة ١٥١٧) ليؤدى ما يجب عليه للملك من ميثاق الصداقة بوصف كونه مطران المملكة فامتنع من الانقياد الى ذلك وذهب ليغلق على نفسه ابواب حصن استيكة الذى كان من تعلقات مطرانية اوبسال وكان مشهورا بانه حصين منيع فحاصره استينون فى هذا الملجأ لما اذنت له جمعية وكلاء المملكة بمعاقبته على امتناعه وكان هذا الحصن منيعا وكان يأتى لهذا المطران اعانات كثيرة فأدى ذلك الى طول مدة الحصار

وكان كريستيان الثانى لم يتوقع سرعة حصول المقاطعة فلما بلغه الخطر الذى كان يخشى منه على محامى اغراضه واقوى معين لحزبه (اى المطران) حمل البابا ليون العاشر على الدعاء بحرمان استينون ولكن لم يدخل فى قلب هذا المدبر بل ولا احزابه الرعب من حرمان البابا ولا من الاعلان المشتمل على التهديد والترهيب الذى نشره كريستيان الثانى فى ناسوج مع الحكم بالحرمان ولما كان المطران ترول مشددا عليه فى الحصار جبر على التسليم وعزله جمعية وكلاء الملة التى كانت منعقدة فى مدينة استخلم بوصف كونه خائنا عاصى الوطن

فكان ذلك حجة تعلل بها كريستيان الثانى للهجوم على المدبر فاظهر نفسه انه آخذ بثار الدين الذى انتهكت حرمته باهانة حرمة غوسطاوة ترول ومنجز لاحكام البابا وحضر امام استخلم قائدا جيشا جرارا ودونمائا

كبيرة (سنة ١٥١٨) ولما كان للاسوج الحظ الوافر فى عهد استينون استور
كانت لا تسمح نفوسهم بالانقياد لهذا الملك الذى صيرته افعاله التى من باب الظلم
والقساوة وانهماكاته المورثة للخجل والمعرة مكروها ومحتقرا لدى نفس رعاياه
فانه كان قد اظهر من صغره انه يميل بالطبع الى الامور الدنيئة الخشنية وتمادى
فى ذلك وهو على سرير الملك وكان يديره امرأة فلمنكية تسمى سجبريتة كانت
كالضرة لاخت شرلكان وبنت هذه الضرة وكان من طبعه الشدة
والجبروت مطلق التصرف فى الحكم بقدرما كانت شهوانه دنيئة حقيرة فكان
يعذب رعاياه بالتعدى والظلم وكان قد اغاظ الاشراف بما كان مخالفا لاصول
العدل والقوانين حيث قتل توربين اوكس حكمدار حصن كوبنهاغ
وجعله فدية لارتيابه وأوهامه فاقسم اهل استخلم والمحافظون على ان
الاولى لهم أن يلقوا بايديهم الى التهلكة عوضا عن كونهم يدخلون تحت تبعية
مثل هذا الملك فقاومتهم اعطت فسحة للمدبر فى كونه يجمع جميع قوى المملكة
ويتوجه لاعانة تختها فلما بلغ الملك قدومه ذهب لمقابلته فانهزم فى مدينة
برين كركه واظهر أنه يريد المذاكرة فى شأن الصلح فعرض على المدبر أنه يريد
ملاقاته فى نفس مدينة استخلم وقال انه يذهب بنفسه اليها بشرط أن يأخذ
رهينة على ذلك الستة الامراء من الاسوج الذين عينهم وكان من جملتهم
غوسطاوة وازا حفيد اخى الملك كنوتسون ابن عم المدبر وكان من نصيبه
انه يجلس ذات يوم على سرير مملكة اسوج فبمجرد أن حاز الخائن
كريستيان الرهائن تحت قبضته رفع هلب سفنه واقلع الى دانمارقة ليجهز
فيها تجريدة ثانية واستأجر عساكر من ألمانيا وروسية ولاهستان
وايقوسيا وحضر له اسعافات من عمه فردريق دوق هولستين
وارسل له فرنسيس الاول بمقتضى المشارطات التى انعقدت بين دانمارقة
وفرانسا فرقة من العساكر يبلغ قدرها اربعة آلاف رجل وقصارى الامر انه
وجه فى ابتداء سنة ١٥٢٠ تجريدة مهولة يثبت بها تخت اسوج
وكانت تحت قيادة اوتون كرومبين وهو من امهر الجنرالات الذين ظهروا

حينئذ فى شمال اوروبا ولما خرج اوتون فى بلاد غوتيا الغربية
حاز النصرة فى واقعة بوجيسوند التى جرح فيها استينون ستور جرحا
بليغا خطرا فعما قليل انقادت لجميع المملكة ماعدا مدينة كلمار واستخلم
وكانت كريستينة جلينستيرنا ارملة المدبر اغلقت على نفسها ابوابها
ودافعت عن نفسها مع الشهامة والشجاعة والى كريستيان الثانى ليتمم
عمل نائبه فسلمت له مدينة كلمار بقبول حاكمها الرشوة وقصارى الامر
ان مدينة استخلم سلمت له بعد المقاومة الشديدة فى ٧ من شهر نومبر
سنة ١٥٢٠ ودخل فيها بموكب واحتفال عظيم
وبعد أن جمع وكلاء الدولة فى هذه المدينة ألزمهم بان يبايعوه على انه ملك
اسوج بالوراثة ثم تتوج مع الرونق والابهة العظيمة الاان الدانيمارقية وحدهم
كان لهم مظهر فى هذا الاحتفال الجسيم فقد سلك كريستيان مع الاسوج
مسلك الاحتقار ومع ذلك فكان خوفه منهم اكثر من احتقاره لهم فانه
مادام تاركا على قيد الحياة ارباب مشورة السنت واعيان كبار المملكة
الذين ادخلهم بمجرد الضرورة تحت حكومته كانت نصرته تظهر له غير تامة
فكان فى اثناء مواسم تتويجه يتفكر فى التمكن منها بتدمير اعدائه لكنه لما
جلس على سرير الملك تعهد أنه يتخلى عن اى حقد واى منافسة كانت فلزمه
أن يبحث عن حجة يستند عليها فى نقض ما تعهد به وعن واسطة فى هذا النقض
مع السهولة بحيث لا يعود ذلك عليه بالضرر وكان قد اتخذ حلاقا قديما
من ويستفاليا يسمى سلاغيك وزيره الاعظم وهو من اشراق سجيرينة
ومن اقاربها فاشار عليه هذا الرجل المخادع بان يتعرض لمن كان لهم مدخلية
فى عزل مطران اوپسال وهذا مع كونه شافيا الغليله واخذ ثاره اراد
أن يظهر به فقط انه محام لحزب الكنيسة ومنجز لاحكام الپاپا الذى كان
الى هذا الوقت لم يبطل الدعاء بالحرمان على من حكموا بعقاب تزول مطران
اوپسال فاختار هذا الغرض وعمل به فانه بعد التتويج بثلاثة ايام انعقدت
مشورة السنت بطريقة خارجة عن العادة وذهب اليها الملك فى نفر عظيم

وابهة فاخرة فعلى حين غفلة تقدم هذا المطران وكان لا يعمل شيأ
الا بالاتفاق مع الملك فطلب منه الملك ان ينتصف له من المدبر القديم ومن ارباب
مشورة السنت وغيرهم من اعيان المملكة فى تطيرا كراههم له على ترك
منصبه فترتبت جمعية قسيسية لم يكن فيها الا رئيس دانيمارقى فقط ورضيت
هذه الجمعية ان تكسو هذا القتل ثياب الاحكام الشرعية فحكمت بالقتل على
هؤلاء المساكين الذين كان اعدهم الملك لذلك من قبل جبرا لاقتضاء سياسته
هذا الامر لاجراء ذلك وعين اليوم الثامن من شهر نومبر فكان اول من
ضرب عنقه اسقف سكارا واسقف استرينتز ثم قتل ارباب مشورة السنت
وكان من جملتهم ابو غوسطاوة وازا ثم قتل ولاة مدينة استخلم وعدة
من الامراء والاعيان وفى هذا اليوم ضرب عنق اربع وتسعين من مشاهير
مملكة اسوج وحضر هذه المقتلة ازدحام عظيم من الاهالى الذين كان
يصدهم عن التقدم كثير من القواسة الجبابرة فجبروا على ان يكتموا تأسفهم
وغيظهم ويأسهم فلم يسعهم الا السكوت ولم يكن القبر حصنا ولا ملجأ من سطوة
هذا الملك فانه نبشه واخرج منه جثة المدبر المذكور وقذفها فى الميدان العام
مع قدماء احزاب هذا المدبر الذين كانوا متعصبين معه واعتقد كريستيان
ان شوكته من الآن قد تمكنت الى ماشاء الله فغير على مقتضى غرضه ورأيه
صورة الحكومة وتصرف فى مملكة اسوج على انها مملكة مفتوحة
فوضع محافظين كثيرين فى المدن الحصينة وكلف الاهالى بمغارم جديدة
وقصارى الامر اراد قبل سفره ان يزيد ما كان اوقعه فى قلوبهم من الرعب
والفزع ليمنعهم من التفكر فى القيام والعصيان وطاف عدة بلدان من المملكة
ولا زال فى طريقه ينصب المشانق والخوازيق حتى ترك فى جميع الاماكن التى
مر بها آثار القتل والذبح فبعد ان ذبح ستمائة ممن لا ذنب لهم اما انتقاما لنفسه
منهم او لارتيابه فيهم عاد الى مملكة دانيمارقة مثقلا كاهله بسخط الاسوج
عليه وملقبا نيرون البلاد الشمالية لظلمه

وكان قد اعد فى غيبته لحكم اسوج مجلس نيابة مؤلفا من مطران اوبسال

وعدة اساقفة اخر وكان يظهر على هذه المملكة الانقياد والطاعة فان جميع اهلها مكثوا فى مبدأ الامر باهتين ساكنين من الرعب والهول الا ان هذا السكون المحزن المهول لم يكن من قبيل الانقياد الباطنى والطاعة الحقيقية بل كانوا يتحملون رق هذا الحكم وفرائصهم ترتعد من شدة الغيظ فكانوا ينتظرون للخروج من ربقة الرق انتهاز فرصة ملايمة ورجلا فيه كفأة لاحداث حركة عظيمة وحسن ادارتها وهذا الرجل هو غسطاوة وازا

وكان بلغ غسطاوة وهو مسجون فى حصن كالو تحت ملاحظة قريبة اريق بنير اوائل نجاح اوتون كرومبين وبلغه ايضا موت المدبر وانه عن قريب يصير واستعباد بلاد اسوج التى هى وطنه فن وقتئذ لم يبق فى وسعه ان يتحمل الاسر والسجن وان كان بنير ناظر السجن يعامله فيه بالرفق ولين الجانب فصار لا يطمع الا فى الخروج من السجن ليذهب لاعانة ابناء وطنه ويمكن ان يقال ان بعض حركات الطمع الممدوح مازجت غيرة طبعه الكريم على الوطن وحبه للذب عنه وكان ينتسب الى عائلة الفولكجينية التى كانت فى قديم الزمان ملوكا على بلاد اسوج وكان من اقرب الناس للمدبر وكان قد مارس صناعة الحرب تحت قيادته واكسبته السطوات الفاخرة التى حازها فخرا فى حدوث سنه وقد استمال قلوب الناس اليه بجميع اوصافه الطبيعية وهى شبوبيته وشهامته وفصاحته وقوته العجيبة العقلية والجسمية وحسن وجهه مع الوقار والحشمة وكان جازما من نفسه بالمعرفة والفوقان فكان يستشعر بأن فيه جسارة وشهامة على الشروع فى انقاذ بلاده من الاسترعاء وكان يحق له ان يؤمل انه اذا انقذ اسوج من يد الاجانب يستحق ان يكون ملكا عليها وانه اهل لذلك وقصارى الامر غافل حرسه مع شدة استيقاظهم ومراقبتهم له وفر متنكرا بزى فلاح واجتاز اراضى دانيمارقة بدون ان يعرفه احد واغتنم سلامة الوصول الى مدينة دوبيك وكان لولا انتهار غبة شديدة واشتياق عظيم لخفض شوكة كريستيان فادوا لغسطاوة وسائط يتوصل بها الى اسوج ووعدوه بأن يرسلوا له اعانات ان بلغ مبلغ

تحزب حزب على الدانيمارقة فنزل فى سفينة من سفن هذه الجمهورية
ووصل قريبا من مدينة كلمار فى شهر مايه سنة ١٥٢٠ ميلاديه
ولم يترتب على مساعيه الاولية فى قيام الاعيان او الفلاحين ثمرة نافعة
بل بينت للدانيمارقة حضوره فى المملكة فجعلوا جعلا لمن يأتى برأسه
فحينئذ احتاطت به الاخطار من كل جانب حتى اضطر الى تبديل وتغيير الحال
التى كان يلتجأ اليها واخذ يخفى سيره ليلا فى الغابات والجبال حتى التجأ
الى فلاح من اقليم شودرمانيه وكان من خدمة منزله قديما ومكث محتميا
فى خصه المجهول عدة اشهر وفى هذا المحل بلغه خبر مقتلة مدينة استخلم
وقتل والده على الحالة المحزنة المشؤمة فلحقه من الغم والغيظ مالا مزيد عليه
الا انه كان يتسلى بفكرة تخطر بباله وهى انه كان يؤمل ان شدة المصائب التى
لحقت الاسوج ينتهى بها الامر ان تردلهم شهامتهم القديمة فعاد الى
مقاصده التى كانت تعطلت وفارق هذا الملجأ معتقدا انه يجد فى اقليم دلقرلية
مأوى اكثر امنا من ذلك او اناسا تكون قلوبهم اشد بغضا للظلم فسار الى
هذا الاقليم وكان يسكنه قوم فقراء متقشفون اصحاب شجاعه وحمية لهم
تولع شديد بالاستقلال وشهرة بالشهامة والشجاعة فى وسط امة ذات شهامة
وميل للحرب فتخلى عنه دليله وسرق امتعته حتى صار مجبورا على أن يستعين
على قوته الضرورى بالكد والشغل وتزيا بزى الدلقرلية وقص شعره على
نسقهم ولبس ثيابا خشنية وحمل البلطة على ظهره وهام فى الغابات واستعد
لخدمة الفلاحة ومع تنكره بهذه المثابة ظهرت عليه سيمة الامارة واتضح امره
حتى رأى نفسه انه اشرف على أن يسلموه لجواسيس كريستيان فعند ذلك
اقتفى اعداؤه اثره وخانه اصحابه غدرا منهم فكان يتوارى تارة فى مطمورة وتارة
فى عربة فتوالت عليه المصائب وتراكمت عليه الحوادث وقصارى الامر
اخذه احد القسس مع الترحيب وتحزب معه مع الحمية والغيرة واعانه على
مقصده بنفوذه وشوكته على اضرام فتنة بقيام الفلاحين بتلك البلاد
وفى عيد الميلاد سنة ١٥٢١ ذهب غسطاوة الى مدينة مرا بضم

الميم وهي بندر اقليم داقرلية فكان هذا الموسم سببا فى ازدحام عجيب من اجتماع جميع اهالى هذا الاقليم فاظهر نفسه لهم وحرضهم على حمل السلاح على ظالم بلادهم وعلى أن يأخذوا بثار اشرف بلاد اسوج الذين سفكت دماؤهم على المخارط وكان مدة خطابته لهم تهب ريح الشمال فتفاءلوا بذلك فاقسم مائتان من الداقرلية على انهم يتبعونه فاشدأمعهم فى مشروعه العظيم فعما قليل استولى على كوبار بيرغ (اى بلاد المعادن) فكان اهل الاسوج متوقفين على مجرد الاشارة لهم بما يلزم فبأدنى اشارة بادروا بالمجيء مع الازدحام حول اعلام غسطاوة فبعد أن استولى على اقليم الشمال الصغير ذهب يتغلب على ثغر ويستراس المهم وحاصر ثغور وادستينا ونيكوبنغ واوريلرو ييرو وسار الى مدينة اوپسال ففتحت له ابوابها وبددشمل فرقة من عساكر الدانيمارقة كانت تحت قيادة مطران ترول وثم حاصر مدينة استخلم فلما لم يكن عنده دونما ولم يمكنه التغلب على المدينة مادام الدانيمارقة شاغلين للبحر ارسل يطلب سفنا من مجلس سنت لوبيك وذكره بمواعيد له فنى اثناء ما كان ينتظر الاعانات الغير المسعفة من هذه الجمهورية التى كانت تخشى اذذاك سطوته وشوكته ترك فرقة من عساكره حول مدينة استخلم لتحيط بها من جهة البر ولما رأى بانتصاره انه صار له الشوكة الملوكية بادر بأن يثبتها لنفسه بمقتضى قوانين المملكة ورسومها فامر بجمع وكلاء الدولة فحضروا بمدينة وادستينا (فى ٤ من شهر اوغسطوس سنة ١٥٢١) فدعاهم غسطاوة الى ترتيب الحكومة وأن ينتخبوا كما يشاؤن مدبرا فقلدوه مكافأة لحسن صنيعه بهذا المنصب لعدم وجود لقب اعلا منه واشرف ولو اعطى له لقب اعلا منه لامتنع سياسة منه فى الاغلب لا تواضعا حيث ان هذا اللقب الملوكى غير ملايم لحالته الراهنة فبادر بتحقيق ظن الملة فيه فسعى فى اكتساب مفاخر جديدة فاستولى على احصن مدن اقليم غوثيا وسملنديه وسودرمانيه الا انه لم يزل بيد الدانيمارقة ثلاث مدن وهى

ابو

ابو وكلمار واستخلم كانت تلك المدن فى ذلك الوقت تعتبر انها مفاتيح
اسوج ولما كان الترميم فيهادا ئما مستمرا كان لايمكن التغلب عليها
الا باعانة جيش بحرى وحيث ان جمهورية لوبيك كانت متضررة من
كريستيان لانه كان يسعى فى اضرار تجارتها مالت فى آخر الامر الى التحزب
مع غسطاوة وارسلت له ثمانية عشر سفينة ففى اثناء ما كانت هذه الدونما
الصغيرة تزاحم الدانيمارقة فى البحر وتمنعهم من أن يخرجوا اعانات الى
استخلم وقت حصار غسطاوة لهامع الشدة حصل قيام على حين غفلة
فى دانيمارقة وذلك ان كريستيان لما كان مبغوضا عند الدانيمارقة
حيث تعدى على جميع مزاياهم اجتمع كبار مملكته فى مدينة ويبورغ باقليم
يوتلاندة وعزلوه (١٥٠٣) حتى ان هذا الملك الجبان لم يسع فى معارضة
الحكم الذى حكم عليه به الرعايا الخارجون عن طاعته فسلم منصبه لعمه
فريدريق دوق هولستين حيث ان وكلاء المملكة اعلنوا بتوليته وركب
البحر مع خزائنه وعائلته واستصحب معه سيجبريت الجبان الذى كان
مشاركاله فى ظلمه وجوره وانحطاطه وفر الى البلاد الواطية عند نسيبه
شرلكان مؤملا منه الاعانة على العود لمنصبه فهذه الحادثة التى حصلت
بغتة حسمت هذه المادة العظيمة وأنقذت الاسوج ورفعت غسطاوة
فعما قليل اخذت مدينة كلمار بالدسائس والمراسلات سرا وطلب محافظوا
استخلم لما قنطوا من الاعانة والاسعاف التسليم الى غسطاوة مصالحة
الا ان غسطاوة لم يجبهم الى مادعوه اليه فانه كان محتاجا الى تطويل مدة
الحصار لتجهيز ما اضمره مما كان كامنا فى سره وكان قد ناهز الوصول الى التاج
الملوكى فاراد أن يتمكن منه او يثبته قبل أن تتخلص اسوج بالكلية من
الرق فربما غفلت عن حسن صنيعه وكان الأمن والاطمئنان يتسبب عنهما
انكار الصنع فامر بجمع وكلاء الدولة فى مدينة استرينتز وعرض عليهم
اولا أن يعينوا اربابا لمشورة السنت عوضا عن الذين هلكوا فى مقتلة
استخلم وسعى فى تقريب من كان من احزابه ذا صداقة وغيرة عليه فادخله

بنفوذه فى المشورة ثم بين خطيب وكلاء الدولة للجمعية ضرورة انتخاب ملك فى اسرع وقت يمكنه بشجاعته ونشاطه وحزمه مقاومة الاعداء الخارجية ومنع الفتن الداخلية فبهذه الصفات ادركوا ان غسطاوة هو المتعين لذلك فقلدوه رسما بعنوان الملوكية مع الابهة والاحتفال حيث كان قد انقذ وطنه مما حل به

(الفصل الثانى)

فى تاريخ اسوج من تولية غسطاوة وازا الى موته (سنة ١٥٢٣ الى سنة ١٥٦٠ من الميلاد)

ثم ان غسطاوة بعد انتخابه عاد لتسخير مدينة استخلم وكان الناس ينتظرون أن يعقب دخوله فى هذه المدينة تتويجه فان الاحتفال لهذا التتويج ضرورى فى مملكة انتخابية لاسيما فى مقتضيات الاحوال التى عليها هذا الملك الجديد لكنه اخر هذا التتويج متعللا بعدة امور وكان قصده الباطنى انه لا يسلك مسلك اسلافه فى كونه لا يبايعهم فيما يخص حفظ مزايا الطائفة القسيسية لما انه كان مصمما على هدم شوكتها

ومما اعانه على تنجيز هذا المقصد اخذ المذاهب الدينية الجديدة فى التقدم والانتشار فى الشمال فكان اول من نقلها الى مدن استخلم وكلمار وسوزيركوبنغ تجار من ألمانيا مع تأليف لوتير وكان غسطاوة قد تمسك بها مدة اقامته فى لوبيك وساعد من ذلك الوقت فى نشرها العساكر الالمانيون الذين استخدمهم وكذا عدة تلامذة من الاسوج كانوا قد اقتبسوا هذه الاصول من مدينة وتمبرغ وكان من جملة هؤلاء الاخيرين الاخوان لورنت واولايوس بيترى وهما ابنا رجل حداد من مدينة اوريبرو فانهما بعد ان تبعا دروس لوتير نفسه وعظا على رؤس الاشهاد فى اقليم غوتيا من سنة ١٥١٩ بما يخالف بيع الغفرانات فاستعان غسطاوة بهذين الاخوين فى نشر المذهب اللوثريانى الذى كانت اصوله ملائمة لسياسته فجعل لورنت مدرس العلم اللاهوت فى مدينة اوپسال وطلب اولايوس

فى مدينة استخلم ليقوم بوظيفة كاتب سر الدولة ووظيفة واعظ معاوحيث انه كان يريد من ذلك الوقت أن يعود بالتدريج عقول الناس على التغيرات العظيمة التى كان عازما عليها فتح اولا الديورة ودعا الرهبان الى نسخ نذورهم فكان من امر الرهبان الدومينيقية الذين عارضوا فى هذا الامر المخل انهم طردوا فى الحال من المملكة ثم تعلل غسطاوة باحتياجات الدولة فامر الاساقفة أنهم يساونه جزأ من فضيات الكنائس وأن يدفعوا الى الخزينة العمومية ثلث العشر القسيسى وعما قليل استعان بطرق اشد جسارة واعظم انفصالا وذلك ان عددا عظيما من الملتزمين كان لهم حقوق متفاوتة الثبوت قلة وكثرة فى املاك كانت من مدة طويلة بين ايدى الطائفة القسيسية الاان الخوف من شوكتها المتسعة منعهم من أن يطلبوها فكان غسطاوة اول من سن سنة فى طلبها فانه استولى على دير غريفسهولم الواقع فى ارض من تعلقات عائلته وابطل عدة رسوم ملايمة للطائفة القسيسية وابطل ايضا قضاها بل انه امر بقانون صريح جميع القسوس بأن يجعلوا فصل دعاويهم على يد قضاة اهليين واشهر اولايوس فى هذا الوقت ترجمة باللسان الاسوجى للعهد الجديد وهو مطابق للترجمة التى اشهرها لوتير باللسان الالمانى وحيث ان غسطاوة لم يعلن الى ذلك الوقت بأنه متمسك بالمذهب اللوثريانى الح عليه الاساقفة فى اقامة الدعوى على اولايوس واتباعه من حيث انهم مرتكبون ذنب التشيع والهرطقة فلم يترتب على الحاحهم وطلبهم ثمرة بل ان اولايوس الذى كان يعظ بمذهب لوتير اراد أن يقلده فى معيشته الخاصة فتزوج مع انه قسيس وحضر غسطاوة فى احتفال زواجه

ومع ذلك سعت طائفة القسوس والرهبان فى الذب عن انفسهم حيث كان يخشى على وجودهم وبقائهم وفى أن تستميل لحزبهم الاهالى الذين كانوا ايضا منقسمين بين المذاهب القديمة والجديدة فكان من الخطر على الملك حمل هذه الطائفة على اليأس والقنوط فقبل أن يستعمل هذا الملك القهر والجبر لتتميم انقراضها بالكلية سلك مسلك الخداع والحيل فسعى فى أن يستميل اليه

الاساقفة ووعدهم انهم اذا نزلوا بطيب خاطر للدولة عن املاك الكنيسة كافأهم على ذلك بمناصب دنيوية وبزيادة اموالهم الخاصة فلم يتيسر له النجاح فى هذا المشروع الامن اساقفة سترنيتز وويستراس واما الآخرون فلم تؤثر فيهم ملاطفته ولاتهديده شيأ

وقصارى الامر لما اخمد نيران بعض حركات من الفتنة كان المتضررون قد حثوا عليها رأى انه حان وقت تتميم مشروعه فامر بجمع اعيان الدولة على وجه غريب فى مدينة ويستراس (سنة ١٥٢٧) فحكمت هذه الجمعية على مقتضى طلب الملك بزيادة ايرادات التاج بايرادات الاسقوفيات والقسوس والديورة وبأن يرجع الى الاشراف جميع الاملاك التى وقفها او باعها اسلافهم الى الديورة والكنائس وبأن تعين ايرادات الاساقفة وبان يسلم هؤلاء الاساقفة للملك الحصون التى يشغلونها وبان يخلوا سبيل عساكرهم وبان لايكون لهم دخل من الآن فصاعدا من مصالح الدولة وبان الذى يقرهم على تقليدهم انما هو الملك لا البابا وقصارى الامر ان المشاجرات والمشاحنات التى تحصل بين القسوس لاترفع الى رومة بل يكون بتها فى المملكة حتى ان الاساقفة وضعوا امضاءهم على هذا الحكم لكونهم كانوا غير متحدين بسبب استمالة بعضهم وخوف الآخرين وعند طلب الملك سلموا قصورهم وحصونهم وكان لم يزل الى الآن فى المملكة اثنان واربعون ديرا فبطل منها فورا احد وثلاثون وطاف غسطاوة مع اولاوس وعدة من الاحبار اللوثريانية الذين كان يجعلهم يعظون امامه فى الكنائس الاصلية الاقاليم فى فرقة من الخيالة لينجز بنفسه امر الجمعية وامر باحضار جميع املاك الكنائس فجمع بعضها الى التاج وتصرف فى البعض الآخر لاشراقانه وقد بلغ عدة الارض والوسايا العظيمة التى استولى عليها ثلاثة عشر الفا وجرد ايضا الكنائس من فضياتها وجعلها اسبائك وشحن بها الخزينة العمومية

وقد ترتب على احكام جمعية ويستراس والتغيرات التى حصلت فى الدين

خروج

خروج وقيام في اقليم دلقرلية وكان رئيس العصاة شاب من الفلاحين يقال له جونس كان يدعي انه ابن المدبر ستينون ستور فجمع غسطاوة جيشا جرارا وسار الى هؤلاء الدلقرلية الذين هم اول من وجد اسعافاته الاولية عندهم ولكن كانوا يتأثرون من الابتداعات الكفرية التي احدثها في ديانة اسلافهم فعند قربه منهم انقادوا له فلما رأى ان شوكته اذ ذاك تمكنت في جميع المملكة امر بتتويجه في شهر يونيه سنة ١٥٢٨

وكان المذهب اللوثرياني متغلبا في اسوج فان الملك وارباب مشورة السنت والاساقفة وجميع الاشراف كانوا متمسكين بهذا المذهب علانية على رؤس الاشهاد لكن لما كان اغلب خوريي الارياف والقسوس الذين هم من الدرجة الثانية لم يتمسكوا به الا كراها اوضعفا كان يشاهد في اغلب كنائس المملكة امتزاج غريب من المناسك القاثوليقية والصلوات اللوثريانية فاراد الملك أن يجعل العبادة متحدة فامر بان يعقد سنة ١٥٢٩ في مدينة اوريبرو مجمعا مليا (اي من جميع الملة) فرتب هذا المجمع نسكا مطابقا تقريبا للنسك الذي تمسك به لوثريانو ألمانيا بمدينة اوسغبورغ في السنة التي بعدها ومع ذلك لم يتجاسر على أن يبطل بالكلية مناسك القاثوليقية التي كان الاهالي يظهرون الميل لها وكان ابقاء الدرجات القسيسية مميزا ايضا الكنيسة الاسوجية من كنائس ألمانيا البرتستانية

وبعد أن جرد غسطاوة وكان دائما مشغولا بالوسائط التي يشحن بها الخزينة العمومية القسوس من املاكهم جلب اليه ادراهم الاشراف وذلك ان اغلب اقاليم اسوج كانت في سابق الزمان مستورة بغابات متسعة وكان عدة امراء أحيوا موات جزء منها في القرن التاسع وأعطوا هذه الاراضي الجديدة التزاما للاشراف بشرط أن يدفعوا خراجا معلوما للتاج فصار المتمتعون بها بالتدريج معافين بسبب الحروب الاهلية من دفع هذه الحقوق القديمة ومن طول المدة بطل عادة دفعها بالكلية فاعادها

غسطاوة فان الاشراف لما ألزمهم بترك هذه الالتزامات او بدفع الخراج الذى عليها طلبوا المصالحة على ان يدفعوا عشرة مركات من الفضة (والمرك نوع من النقود) على كل ارض خراجيـة للتاج (١٥٣٠) ولم تكن الرعايا فى وقاية من تكاليف الملك فانه تعلل باحتياجات الدولة وسلب من المدن الناقوس الثانى من كل كنيسة وعما قليل طلب من القرى هذا الامر بعينه ورخص للفلاحين فى كونهم يستعوضونها بدفع ثمن معين وقصارى الامر انه جمع منهم العشر القسيسى وحيث انهم كانوا متعودين عليـه دفعوه بدون تشكى

وقد نجح غسطاوة فى كل شئ فان الفتن الجديدة التى كانت اضطرمت نيرانها فى اقليمى سمالندة ودلقرلية خمدت بسرعة وكان لم يبق له من جميع اعدائه الا كريستيان الثانى الذى كان يقلقه ويشغل باله فان هـذا الملك قد نال بعض اعانات من شرلكان وكان معتمدا على حرب عظيم فى دانيمارقة لاسيما فى نروج فركب البحر سنة ١٥٣١ من مينا اوپسلو واعترف النروج بانه ملكهم الحقيقى الا انه بعد أن نجح بعض نجاح فى نروج وشن اغارة على اسوج عادت بالشوم عليه جبر على أن يسلم لعمه فريدريق ملك دانيمارقة ويكون تحت قبضته (راجع الفصل الثالث من هذا الباب)

وقد صنع غسطاوة الصنيع الجميل وأدى الخدم العظيمة لكريستيان الثالث خليفة فريدريق فى حرب كانت الدانيمارقة تقاوم فيـه جمهورية لوبيك التى كانت تريد أن تغتنم فرصة ما كان واقعا فى هـذه المملكة من الفتن والتعكرات لتمزقها فان الاسوج اكتسبوا سنة ١٥٣٥ فى هلسبورغ نصرة شهيرة على الجيش اللوبيكى وجعلوا كريستيان الثالث فى حالة بحيث يمكنه استرجاع كرسى مملكته ومعظم اقاليمه اللذين كان العدو مستوليا عليهما

وقصارى الامر لما تم غسطاوة راحة الاستراحة اشتغل بالوسائط التى يكون بها ازدياد ثروة اسوج وشوكتها فان تجارة هـذه المملكة كانت

فى قبضة المدن الانسياتيكة (اى المتعاهدة مع بعضها للتجارة) لاسيما مدينة لوبيك فانقذ بلاده من هذه الموانع التجارية ووضع المغارم على الاجانب ارباب المضاربات التجارية وعلم الاسوج أن ينتفعوا بانفسهم من محصولات اراضيهم واحدث دونمًا فعما قليل صارت الاعلام الاسوجية محترمة فى بحر بلطق وظهرت مع الشرف فى البحور المجاورة فترتب عن حالة اسوج الزاهرة الزاهية ان التفت اليها الدول الاخر وسعت فى محالفتها فعقد غسطاوة سنة ١٥٣٦ مع الجار ايوان الرابع مصالحة مدة ستين سنة وفى سنة ١٥٤١ تقابل غسطاوة مع كريستيان الثالث فى مدينة برومسبرو فرتبا فيها عدة مصالح كانا الى ذلك الوقت لم يتفقا عليها وفى سنة ١٥٤٢ انعقد بين اسوج وفرانسا مشارطة تجارية بها تأسست المحبة التى لم تزل باقية نحو ثلاثة قرون بين هاتين الدولتين اللتين هما بالطبع متحالفتين وفى هذه السنة بعينها رتب غسطاوة جيشا مستمرا وجعل عدده ستة آلاف رجل وبالجملة وصل اهتمامه الى الحرف والزراعة والى كل ما كان له دخل فى الفلاح العام وقد عادت ثمرة اهتمامه فى سعادة رعاياه بالنفع له فانه فى سنة ١٥٤٠ اجتمع الاعيان فى اوربرو وانحط قرارهم على وراثية التاج فى عائلة وازا (وهو غسطاوة) وهذا القرار صدق عليه سنة ١٥٤٤ جمعية اعيان ويستراس وبويع لابن غسطاوة البكرى وهو اريق وكان عمره اذ ذاك احدى عشرة سنة فى هذه الجمعية بانه خليفته وثبت التاج الملوكى الى الابد لذريته من الذكور وهذا القرار المشهور باسم الاتحاد الوراثى تجدد أيضا سنة ١٦٠٤ فى جمعية دييتة نوركيبنغ فى عهد الملك كرلوس التاسع بل ان ولاية العهد هذه سرت أيضا الى النساء

وقد تعكرت سنى غسطاوة الاخيرة بحرب مع دولة روسيا فى شان اقليم ليوونيا (راجع فيما بعد الفصل الرابع) وهذا الحرب الذى لم يكن لحوادثه كبير رغبة انتهى سنة ١٥٥٧ ومات غسطاوة سنة ١٥٦٠

وتولى بعده ابنه اريق الرابع عشر

(الفصل الثالث)

فى تاريخ دانيمارقة من تولية فردريق الاول الى موت كريستيان الثالث (من سنة ١٥٢٣ الى سنة ١٥٥٩ من الميلاد)

لما قلد اعيان دانيمارقة بالتاج الملوكى فردريق الاول وحرموا كريستيان الثانى منه لم ينسوا مصالحهم فانهم قد حفظوا ببند من بنود المشارطة التى عقدت مع هذا الملك الجديد بان يكون لهم الحق فى التصرف فى اعمار فلاحيهم بتركها على قيد الحياة أو سلبها منهم وأن يكون لهم الحق أيضا فى أن يحكموا عليهم بفقد اثاثهم و بجرائم قدرها أربعون مركاوكان من قبل لا يمكنهم أن يحكموا الا بجرائم قدرها ثلاثة مركات أو ستة أو تسعة على حسب عادة الاقاليم بل كانوا لم يكتسبوا هذه الرخصة الا بالتعاقب وقد ترتب عن هذه الخطوة من فردريق ان صار لهم دفعة واحدة شوكة متسعة فمن هذا الوقت صار هؤلاء الارسطقراطيون الدانيمارقيون طائفة مهابة مستقلة تقريبا عن الملك

وقد مكن فردريق شوكته بسهولة فى اغلب الاقاليم الاان محافظى مدينة كوبنهاغ مكثوا على الصداقة لكريستيان الثانى وكان هذا الملك من كثرة الحاحه ومواعيده وصل الى أن استمال لجانبه عدة امراء من ألمانيا اقاربه وهم منتخب براندبورغ ومنتخب سكس ودوقات مكلمبورغ حيث رخصوا له فى أن يجمع عساكر من دولهم واما الامبراطور صهره فلم تكن استمالته اليه كبير شئ فانه اكتفى بارساله من مدينة طليطلة الى فردريق واحزابه مكاتيب تشتمل على الوعظ والتهديد فجمع جيشا قدره ستة وعشرون ألف رجل وسعى فى أن يدخل فى اقليمى هولستين وبوتلند الاان الدوقمنا الهمبورغية اوقفته مدة طويلة فى ممر نهر الب وقبل أن يمكنه الشروع فى حركاته الحربية رأى انه لم يكن فى وسعه أن يصرف ماهيات عساكره الذين تركوه وتخلوا عنه وحيث ان محافظى كوبنهاغ يئسوا من الآن فصاعدا

من الاسعاف سلم فى ٦ من شهر فبرير سنة ١٥٢٤ بعد محاصرة ثمانية اشهر وقد انتهى امر الخروج والقيام بتسليم هذه المدينة وبتسليم مدينة ملوية أيضا

وبمجرد مارأى فردريق نفسه متملكا على دانيمارقة ونروج بدون تعكير بذل مجهودات مع الاسوج ليحملهم على تجديد المعاهدة والاتحاد القديم بين الثلاث ممالك وطلب أن يرد له اقليمى ويجان وبليكنجية اللذين كان سلبهما غسطاوة من كريستيان الثانى وكانا من تعلق تاج دانيمارقة فقعدت المذاكرات فى هذا الغرض ولم ينحط الراى فيها على شئ بل ان كلا من الملكين استمر على دعواه لهذين الاقليمين الحاصل فيهما النزاع لكن منعهما من تنجيز هذه الدعوى خوفهما من عدوهما فعقدا سنة ١٥٢٨ مشارطة معاهدة بقصد المدافعة التزما بموجبها أن يعين بعضهما بعضا فى حالة ما إذا كان احدهما يغير عليه كريستيان الثانى الذى كان لم يزل يتطلب الاعانات من شرلكان ويهدد قدمارعاياه بانتقام صهره وفى هذه السنة عقد فردريق مثل هذه المشارطة مع منتخب سكس ولندغراوة هيسة اى حاكم هيسة اللذين كانت مهابتهما من شوكة دولة النمسا ليست دون مهابة الدانيمارقة لها وفى سنة ١٥٣١ تعاهد هذا الملك مع حزب سمالكندة ولم تكن هذه الاحتراسات بدون نفع فان كريستيان كان لم يزل له احزاب فى دانيمارقه لاسيما فى نروج فان الشوكة المفرطة التى جعلها فردريق للاشراف نفرت قلوب الرعية منه لكن لم يكن شئ له مدخلية فى احداث الاعداء له اكثر من التغيير الذى أوقعه فى الدين فانه كان له ميل للمذهب اللوثريانى الذى كان دخل فى دانيمارقة من زمن سلفه وفى سنة ١٥٢٧ جمع اعيان الدولة فى اودنسية فباتفاقه مع الطوائف العامية حكم رغما عما أبداه الاساقفة من المعارضة بحرية الاديان وأبطل عزوبية القسوس والرهبان ومنع الاساقفة من أن يجلبوا من رومة الطيلسان ورتب ان يكون للقسوس دون غيرهم الحق من الآن فصاعدا

فى انتخابهم الاساقفة والملك له الحق فى اقرارهم ولاجل جعل العقول مستعدة لتغييرات عظيمة وعظ يوحنا توسان وغيره من وعاظ البروتستان بالحث على التمسك بهذا المذهب فى جميع المملكة وبالجملة فكان من امر فردريق انه مدة ماقدم اللوثريانيون كتاب عقائدهم الدينية الى الامبراطور فى جمعية دينية اوغسبورغ استحسن فردريق كتاب العقائد الذى عرضه عليه البروتستان الدانيمارقيون فى جمعية الدينية التى كانت منعقدة فى كوبنهاغ وجدد الامر الذى صدر فى اودنسية فى شأن حرية الاديان

وكان هذا المذهب الجديد غير مستصوب فى نروج فان كريستيان الثانى وان كان قد أظهر الميل العظيم له حين كان جالسا على سرير الملك الا انه غر أهل نروج بما أظهره من وقت عزله من الحمية والغيرة على الدين القاثوليقى فرغبوا فى اعادة هذا الملك حتى انهم ارسلوا له دراهم لاجل تجهيز اغراضه فى شأن الاغارة فبهذه الاسعافات وبما اتى له اخيرا من شرلكان جمع جيشا قدره عشرة آلاف رجل وانزله فى سفن فلمنكية (١٥٣١) فقامت عليه فرطونة مهولة على شواطئ فريزة فلم يصل لمينا اوبسلو التى يقال لها الآن كريستيانا وهى قاعدة نروج الجنوبية الا بمشقة مع مابقى معه من دونمائه ومع ذلك لم تفتر همة النروج فى شروعه فانهم بادروا بالمجئ مع الازدحام تحت اعلامه واعلنوا بانه ملكهم الحقيقى وبايعوه واعطوا له اسعافات من الدراهم فقوى قلبه بهذا الافتتاح السعيد ودخل فى اسوج الا انه دفع وجبر على أن يغلق على نفسه ابواب مدينة اوبسلو وحاصره الدانيمارقيون فيها وعما قليل اشتد به الضيق فلما صار لا يمكنه المدافعة عن نفسه ولا الهرب طلب المذاكرة فى شأن الصلح بدلا عن كونه يسعى فى موت فاخر والسلاح بيده فتعهد له الجنرالات الدانيماريون أن يسعوا له بمدينة كوبنهاغ فى مذاكرة مع الملك فردريق وضمنوا له مهما كانت نتيجة هذه المذاكرة ان يكون معه حرية فى الرجوع الى نروج فذهبوا به الى

كوبنهاغ

كوبنهاغ لكن غدر به وهذا الغدر وان كان لا يبعد من مثل كريستيان لا يبعد ايضا من مثل فردريق فان هذا الملك حجزه ونفاه فى جزيرة السان ومكث فى حصن سوندربورغ اسيرا سبعة وعشرين سنة

وقدمات فردريق الاول فى السنة التى اعقبت حبس كريستيان الثانى سنة ١٥٣٣ ومن المعلوم ان المملكة الانتخابية هى اكثر عيبا من جميع صور الحكومة وقد استبان تجربة ذلك وقتئذ من دانيمارقة فان فردريق اعقب عدة اولاد كان اكبرهم المسمى كريستيان فى سن قابل للتولية وكان اعيان المملكة عشموا اباه بانتخابه بعد موته الا ان القسوس الذين كانوا يخشون على بقائهم الذى صدرت الخلاصات بالتهديد فى شأنه والترهيب فى اوديسية وفى كوبنهاغ ارادوا تولية امير قاثوليقى وكان كريستيان يميل كل الميل للمذهب اللوثريانى ومن جهة اخرى كان الاشراف يرغبون و يؤثرون اميرا لم يكن له فى سرير الملك حق الا بمقتضى ارائهم بحيث يمكنهم اجراء القانون عليه فبعد المذاكرات المضطربة لم يحصل من مجلس الانتخاب رأى يبت به الامر ومكث مجلس السنت مناطا وقتيا بادارة المصالح فى دانيمارقة مدة ما كان كريستيان يحمل اعيان اقليمى سليسويك وهولستين على أن ينتخبوه دوقا عليهما وحيث كان أعظم منصب فى الدولة خاليا عمن يدبره استولى على المملكة الدسائس والتحزبات التى كان يحدثها الطماعون من الاخصام وكانت سياسة الاجانب تمدها وتبقيها وكانت جمهورية لوبيك لها أعظم مدخلية فى هذه التعكرات الحاصلة فى دانيمارقة فان هذه الجمهورية التى هى اقوى المدن الانسياتيكة (اى المتعاهدة فى شأن التجارة) كانت ترى مع الغم والحزن عدة اسباب تضر بفلاح تجارتها وكانت انكلترة قد امتنعت غير مرة من قرار المزايا التى كانت مدن هيسة نالتها فى الاعصر الخالية وكان ايضا عدة ملوك من دانيمارقة سلكوا ايضا هذا المسلك وكان غسطاوة وازا عاملا بمقتضاه فى اسوج واما الفلمنك الذين كانوا مجبورين على ان يكونوا ارباب

حرف وملاحة بسبب طبيعة ارضهم فانهم اخذوا فى أن يتقاسموا مع مدن الشمال تجارة بحر بلطق العظيمة ولما كانت جمهورية لوبيك تخشى من أن يحصل لها خسارات جديدة اذا ترتب فى دانيمارقة حكومة ثابتة مستمرة عزمت على أن تديم فيها اختلال الحكومة بل وصممت على تمزقها بواسطة هذا الشقاق والذى كان قد عزم على هذا الامر المشتمل على الجسارة جورج وولنويبر رئيس هذه الجمهورية وهو رجل من طبعه اشغال البال والشروع فى عظائم الامور وكان حمل اهل وطنه على هذا المقصد ولاجل تجهيزه اشترك مع احد الاوباش الذين يتشبثون بالبحث عن الحوادث يسمى مركميير وكان فى مبدأ امره كالونجيا فى مدينة همبورغ ثم اتخذ صناعة الحرب واشتهر فى محاصرة كوبنهاغ ثم لما تأصل فى لوبيك نال بنفوذ كلمة وولنويبر منصب حكمدارية هذه المدينة المهم فذهب وولنويبر الى كوبنهاغ متعللا بكونه يتذاكر مع مجلس السنت فى شأن اخراج الفلمنك من بحر بلطق فلاحظ من قرب مايميل اليه عقول الناس فعند ماشاهد الاختلالات التى كانت دانيمارقة مضطربة بها ازدادت رغبته فيما كان قد عزم عليه من تمزيقها الى عدة ولايات صغيرة ومن ادخال المدن فى المعاهدة الانسياتيكة وقد التزم باعانته فى هذا الشأن واليان اصلهما من ألمانيا وكانا من الحزب البروتستانى الذى كان حينئذ قد انحطت درجته فى دانيمارقة وهما جرج متشير والى ملويه وامبرواز بوغنبندير والى كوبنهاغ لما أنهما اغترا من الآمال المزخرفة التى اظهرها لطمعهما ولما لم يتيسر له أن ينال من مجلس السنت ما كان يرغب فيه اغتنم فى ذلك فرصة كونه يحرض لوبيك على الحرب فسلكت هذه الجمهورية المسلك الذى حملها عليه أعظم ولاتها فعقدت بواسطة الوزير وولنويبر ومارك ميير مهادنة مدة اربعين سنة مع الفلمنك الذين كانت الجمهورية من منذ مدة يسيرة تدس الدسائس فى شأن اضرارهم وتأهبت للهجوم على دانيمارقة فجمعت قوى عظيمة وجعلت قائدها

الكونت

الكونت كريستوف الذى هو من الفرع الثانى من عائلة اولدمبورغ
وكان لم يرث شيأ سوى اسم جليل فانتخب لذلك بسبب شجاعته وشهامته التى
كان يؤمل منها الظفر والنجاح وبسبب فقره الذى كان يظهر انه رهينة على تبعيته
فقبل ذلك بقصد أن لا يهمل فى مصالحه مع خدمته لمصالح هذه الجمهورية
وبالجملة فلما أعلن وولنويبر بالحرب على دانيمارقة اظهر لاجل
أن يخفى مقاصد طمعه ويجمع حزبا بالجمهورية لوبيك ان هذه الجمهورية
لم تحمل السلاح الا لاجل جلوس كريستيان الثانى على سرير الملك وفى هذا
الوقت بعينه قوم الاهالى على الاشراف واباح لهم ارتكاب الامور المخلة
والسلب والنهب فكأن ذلك اول ثمرة حريتهم فاوقع الفلاحون فى جميع
الاماكن أعظم الخلل وصارت دانيمارقة ميدانا للموت والابادة
ومع ذلك فكان الجيش اللوبيكى يسير من فتوح الى فتوح اخر وفتحت
مدينة كوبنهاغ ابوابها له وانقاد لكريستوف نروج واقليم
سيكانيا والجزائر الدانيمارقية وأعلنت بان كريستيان الثانى ملكها
والتجأ مجلس السنت الى اقليم جوتلند وصار لا يرى طريقا للنجاة
الا كونه ينتخب بسرعة ملكا فاعطى تاج الملك للدوق كريستيان الذى
كان من مبدأ الحرب يحاصر محاصرة شديدة مدينة لوبيك مع ان اسلحة
هذه الجمهورية كانت ناجحة فى البعد اعنى فى دانيمارقة سنة ١٥٣٤
وكان كريستيان الثالث يستحق انتخاب مجلس السنت له بسبب معارفه
وشهامته وقد حقق ذلك بنجاحه ولما كان بعينه غسطاوة وازا الذى كان
يخشى ايضا من اسم كريستيان الثانى ومما كانت عازمة عليه المدن
الانسياتيكة من الحكم حيث سعت فى تقويم استخلص واخراجها عن
الطاعة لتدخلها فى معاهدتها ومن سريان القيام والعصيان عزم على
استرجاع بلاده فقطع الاسوج دابر جزء من جيش كريستوف الذى
كان تحت قيادة مرلميير فى مدينة هلسنبورغ سنة ١٥٣٥
وبعد ذلك بقليل اكتسب كريستيان الثانى نصرة قطعية بقرب مدينة

اسنس بولاية فيلونيا فسهل عليه بواسطة هذه النصرة محاصرة مدينة كوبنهاغ وقد حصل منها مقاومة مستطيلة فان اهل هذه المدينة لما كانوا محترقين من كلام رؤساء العصاة وافعالهم لاسيما من جرجى بوغبندير الذين كانوا ينسبون للملك انه يريد الانتقام واخذ الثار بطريقة شنيعه تحملوا جميع اهوال المحاصرة الشديدة ومع ذلك فلما اتضح لمدينة لوبيك من عاقبة الامور ان مقاصد وولنويور من باب الهوس والجنون عزمت على انهاء هذه الحرب التي بذلت فيها خسارات كثيرة فافتتحت فى المذاكرات فى شأن الصلح مع كريستيان الثالث فانعقد الصلح بشروط تعود بالنفع على ملك دانيمارقة مدة حصار كوبنهاغ سنة ١٥٣٦ وقصارى الامر جبرت هذه المدينة من شدة المجاعة على التسليم والمبايعة لملكها وذهب الكونت كريستوف والدوق ألبير دومكلنبورغ الذى كان منذ واقعة اسنس يقاسمه فى قيادة العساكر الى ألمانيا مطوقين بالخزى والعار ومثقلين بلعن الاهالى وسخطهم ومات اغلب من كان سببا فى هذه الحركة العظيمة التى خشى منها على الشمال من الانقلاب الكلى موتة شنيعة فان مرلدميير قبض عليه قبل انتهاء الحرب وهلك فى مدينة السنور بعقاب العجلة وحكم مجلس لوبيك بالموت على وولنويور وهو غائب وهارب وأجرى هذا الحكم عليه مطران بريمه وسم بوغبندير نفسه خوفا مما كان يتوقعه من الحكم عليه واما سنتير فقد نجا وحده فانه كان قد جعل نفسه من حزب كريستيان الثالث فى اواخر ازمنة الحرب وادى لهذا الملك بعض الخدم فى محاصرة ملويه وكوبنهاغ فسامحه كريستيان من الموت بل ورد له فيما بعد وظيفة الوالى هكذا انتهت الحرب المبددة التى لم يسبق مثلها لدانيمارقة وبمجرد ان تمكن كريستيان الثالث من سرير الملك اتفق مع كبار الاشراف على انحطاط القسس الرومانية وسقوطهم حيث انه كان يخشى سطوتهم وعلى ترتيب الديانة البروتستانتية التى كان ابوه فردريق لم يبح باستعمالها الامع الديانة الكاتوليقية بطريق الظهور فصدر منه امر

بالقبض

بالقبض على جميع الاساقفة وأحضرهم فى كوبنهاغ فى جمعية متألفة من وكلاء الاشراف والطائفة الثالثة فقط (سنة ١٥٣٦) فلم يكن للاساقفة فى هذه الجمعية الاعداء فاتهموا الاساقفة وأثبتوا عليهم بسهولة انهم من منذ موت فردريق كانوا يفعلون مايضاد مصالح المملكة وانهم هم الاصل فيما قاسته من المصائب والنكبات فبناء على ذلك صدرت خلاصة بتجريدهم عن جميع شوكتهم سواء كانت دينية اودنيوية وأعلنت بضم املاكهم الى المالية واقيم مقامهم جماعة مثلهم فى العدد من اللاهوتيين مسمين باسم نظار ونيطوا بملاحظة تعليم الامناء من النصارى وبانتشار الدين الانجيلى وفى هذه الجمعية اقر كريستيان الثالث جميع ماتنازل عنه ابوه للاشراف واما الاشراف فقد عينوا من هذا الوقت ابنه البكرى فردريق وارثا بعده

ولما محقت خلاصة جمعية كوبنهاغ شوكة القسوس الرومانيين لم تجلب للشوكة الملوكية اتساع الدائرة الذى كان يتعشمه كريستيان الثالث ولم تعد فى الواقع بالنفع الاعلى الاشراف الذين صارت شوكتهم التى كانت اذذاك مفرطة لايمكن أن يعادلها اى طائفة تكون فى سعتها ومنعها عن مجاوزة حدودها فان القسوس اللوثريانية لم يحافظوا الاعلى خيال شوكة ورثوها عن طائفة القسوس القاثوليقية التى كانت تمتعت بها ولم يبق لاهل الحضر الاقليل من نفوذ الكلمة والاعتبار فى هذه البلاد التى كادت الى ذلك الوقت أن تخلو عن التجارة ومن منذ مدة طويلة لم يكن لطائفة الفلاحين اعتبار فى دانيمارقة فلما لم يبق للاشراف مانع يصدهم ويحجزهم عن اغراضهم ادعوا اغرب المزايا لانفسهم فاستولوا على جميع المصالح فكان لايمكن توظيف احد بوظيفة لها بعض اهمية الابرضاهم ومن سنة ١٥٣٦ بطل عقد جمعية وكلاء الملة التى كان مجلس السينت المتألف من الاشراف فقط قد تغلب على جميع وظائفها

وفى سنة ١٥٣٧ اشتغل كريستيان الثالث بتجهيز ماعزم عليه

في السنة الماضية في شأن الدين بعد أن افترشوكته في بلاد نروج وكان لم يزل لهذه الشوكة فيها بعض مقاومة فصدر امر ليونخنا بوجنهاغ تلميذ لوتير بان ينتخب من امناء الديانة البروتستانية سبعة نظار لادارة كنيسة دانيمارقة عوضا عن الاساقفة المعزولين ثم رتب بعنوان الترتيب القسيسي قانونا في شأن العقائد والتربية القسيسية اختبره واستحسنه لوتير وغيره من الاحبار الشهيرين بمدرسة ويتبيرغ الجامعة فصار لا يعتبر فيه قسوس في المملكة سوى القسوس الذين نصبهم الاساقفة البروتستانية وبطلت الطوائف الرهبانية ومع ذلك فابقى الملك طائفة القسوس القانونية بسبب ترجي لوتير ليكون له واسطة في مكافأة قسوس ارباب علم وفضل اواناس آخرين من اصحاب الفضل والمعارف وبالجملة حيث لم يكن للاساقفة الجديدين اوالنظار شوكة الا في الامور الدينية ترتب في كل ابرشية ضابط كبير نيط بادارة الامور الدنيوية التي كانت سابقا من تعلقات الاساقفة القاثوليقية كايرادات الكنائس والاسبتاليات والمدارس ووصلت هذه الترتيب الى نروج فان هذه المملكة لكونها تمسكت مرارا بحزب الملك كريستيان الثاني فقدت استقلالها وصارت مدة من الزمن اقليما من اقاليم دانيمارقة وحيث حصل التعرض لنروج في شأن ديانتها الوراثية تخلت عنها مع الحسرة والندامة لتتمسك بالديانة التي ألزمت بها وأظهرت جزيرة اسلندة ايضا اكثر مما اظهرته نروج من النفور والاشمئزاز للتمسك بالمذهب البروتستاني فلزم الامر لاستعمال القهر والغلبة في ترتيب هذا المذهب في هذه الجزيرة فعند ذلك تغير الدين في دانيمارقة كما تغير في اسوج وفي اغلب الدول التي تمسكت بمذهب التشيع اما لشفاء الاهواء النفسانية او المصالح السياسية

وفي سنة ١٥٤١ اكد كريستيان الثالث وغسطاوة وازا محالفتهما حين تقابلا في مدينة برومسبرو على ثغور بلادهما فان هذين الملكين كان عدوهما الايمپراطور شرلكان حيث انه كان يدعى ان له حقوقا في تيجان

دانيمارقه واسوج ونروج بمقتضى ماوقع من الملك كريستيان الثانى من التنازل له فتعصبا مع الملك فرنسيس الاول وبعث كريستيان سنة ١٥٤٢ فرقة من الخيالة لاعانة هذا الملك الذى كان اذ ذاك يحارب الايمبراطور وفى سنة ١٥٤٣ جهز دونمنا كبيرة للهجوم على بلاد الفلنك الان هذه الدونمنا بتدبيرها فرطونة وفى سنة ١٥٤٤ لما ظهر من شرلكان انه يريد تجديد دعاويه التى هى من باب التخيلات والاوهام حصلت المذاكرة فى شأن الصلح فى مدينة سبيرة فتعهد الايمبراطور أن لا يعين احدا على ملك دانيمارقة فى اى مشروع كان سواء كان مباشرة او بواسطة واما هذا الملك فانه تخلى عن محالفته مع فرنسيس الاول واباح للفلنك بواسطة عائدة خفيفة المرور من بوغاز سوند ورخص لهم بالسفر فى بحر بلطق وما بقى من ايام كريستيان الثالث لم يظهر منه شئ معتبر يستحق الذكر الا مابذله هذا الملك فى ترتيب الحكومة الداخلية ببلاده فانه رغب فى العلوم ورفع منار المدرسة الجامعة التى بمدينة كوبنهاغ التى كان أسسها كريستيان الاول وكانت قد سقطت فى عهد خلفائه وزيادة على ذلك رتب قوانين من باب الحكمة والحزم فى شأن أغلب الاشياء التى يمكن ادخالها فى دائرة التشريع فقامت من حيثيات كثيرة مقام شرائع ولدمار الثانى التى كانت الى ذلك الوقت جاريا العمل عليها مع القوة وكانت شدة قدمها تجعلها فى الغالب غير نافعة ومات كريستيان الثالث فى سنة ١٥٥٩ وخلفه ابنه فردريق

(الفصل الرابع)

(فى الكلام على لاهستان وبروسية وليوونية)

(من سنة ١٥٤٣ الى سنة ١٥٧٢ من الميلاد)

وبينما كان سيجسموند الاول جالسا على سرير مملكة لاهستان من سنة ١٥٠٧ اذ امتنع فى سنة ١٥١٩ ألبيرت دى براندبورغ رئيس الطائفة التوتونية الاكبر من ان يبايعه على الانقياد للطاعة كما هو

مشروطتين في مصالحة تورن فترتب عن ذلك حرب لم تطل مدته عاد بالشؤم على الرئيس الاكبر وكان انتهاؤه سنة ١٥٢١ بمهادنة اجلها اربع سنين وفى هذا الزمن دخل المذهب اللوثريانى فى لاهستان وان كان الملك بذل مجهودات ليمنعه من الدخول فى بلاده وكان اول من قبل هذا المذهب الجديد أهل مدينة دانتزيك وعزلوا ولاتهم القاثوليقية وأقاموا مقامهم ولاة من البروتستان ودنسوا الكنائس ونهبوا الديورة وقد أوقعوا هذا الاختلال طامعين فى اعانة ألبيرت اهم الذى كان يحثهم ويقوى قلوبهم فى السر وكان هو نفسه قد تمسك بالمذهب اللوثريانى الان هذا الامير لما كان غير متمكن فى ولاياته وكان يخشى أن تجرده منها لاهستان بالكلية ان خاطر مرة ثانية بالحرب انهى ما كان بينه وبين سيجسموند من المشاحنات والمشاجرات بمشارطة انعقدت فى مدينة كركوويه فى الثامن من شهر ابريل سنة ١٥٢٥ والتزم بأن يعطى مواثيق المبايعة والطاعة لمملكة لاهستان وانعم عليه سيجسموند فى نظير ذلك ببلاد بروسية التوتونية بعنوان دوقية متوارثة تنتقل لذريته أولورثته من الذكور من بعده الا ان لاهستان يكون لها الحق فى استردادها اذا انقرضت ذريته من الذكور أو ذريته امراء براندبورغ الذين هم من فرع فرنكونيا فبذلك فقدت الطائفة التوتونية التى خانها رئيسها الاكبر بلاد بروسية بعد أن مكثت مستولية عليها نحو ثلاثة قرون فلما لم يبق لها حينئذ الا بلادها التى بألمانيا جعلت قاعدتها ميرجينتيم بولاية فرنكونيا وانتخبت فيها رئيسا اكبر جديدا وهو والتير دوكرونبرغ وبعد مشارطة كراكوويه تمسك دوق بروسية الجديد بالمذهب اللوثريانى على رؤس الاشهاد وتزوج بنت من بنات ملك دانيمارقة ثم تزوج ثانيا بأميرة من برونسويك ورزق منها بولد اسمه البيرت فردريق خلفه سنة ١٥٦٨ من الميلاد

ومات سيجسموند الاول سنة ١٥٤٨ وخلفه ابنه سيجسموند

الثانى اوغسطوس وفى ايام هذا الملك حصل فى ولاية ليوونيا تقلبات مشابهة للتقلبات التى كانت حصلت فى بروسية فى زمن سيجسموند الاول وعادت بالنفع على مملكة لاهستان .

وذلك ان بلاد ليوونيا التى كان يحكمها طائفة شوالرية حملة السيف كانت قد مكثت عدة قرون تابعة لطائفة التوتونية التى كان يتقلدها طائفة حملة السيف المذكورة وكانت تقلد أو تقرر رؤساءها الاقليميين وقد انتفع والتيردى بليتنبرغ الذى كان متقلدا بهذا المنصب فى مبدا القرن السادس عشر بما كان حاصلا للطائفة التوتونية من الشدة والضنك وبالاسعافات المتكررة التى ارسلتها له لقتال لاهستان حيث اشترى بها سنة ١٥٢١ تقريبا استقلاله واستقلال طائفته فلما صار حينئذ حاكما مطلق التصرف فى ليوونيا انتظم فى سلك امراء الايمبراطورية ونال له ولخلفائه الجلوس فى جمعية الدييتة الجرمانية وفى ايامه دخل المذهب اللوثريانى فى ليوونيا واستقر فيها

ومكثت حكومة الشوالرية حملة السيف فى هذا القطر الى أن استولى عليه الجار ايوان الرابع سنة ١٥٥٨ فان هذا الجار الذى فتح له بحر الخزر بفتح مملكتى قزان واسترخان كان يعزم ايضا على فتح ليوونيا لاجل أن يكون بينه وبين اوروبا وصلة ببحر بلطق فطلب اولا جوتار دكيتلير الذى كان وقتئذ رئيس هذه الطائفة الاكبر الاعانة على الموسقو من الطائفة الجرمانية الذى كان هو عضوا منها لكن لما لم ينل الا مواعيد مبهمة قصد سيجسموند الثانى اوغسطوس ملك لاهستان وعقد معه بمدينة ويلنا فى الثامن والعشرين من شهر نوامبر سنة ١٥٦١ مشارطة استرعاع بموجبها دخلت ليوونيا تحت حكومة لاهستان ودوقية ليتوانيا الكبيرة بشرط اجراء الديانة فيها على مقتضى عقائد كتاب اوغسبورغ وتحفظ جميع طوائفها السياسية املاكها والتزاماتها وحقوقها ومزاياها وأبقت هذه المشارطة ولايتى كورلندة

وسجباله الى جوتارد كيتلير ليتمتع بها هو وورثته من الذكور بعنوان دوقية تابعة لتاج لاهستان ولما اعطى هذا الدوق الجديد عهود الصداقة والامانة لسيجسموند تنازل عن علامات منصبه الاول وبطلت طائفة ليوونيا وكذا مطرانية ريغا والاسقفيات التى من تعلقاتها وحمت لاهستان من الموسقو هذه البلاد التى اكتسبتها (وهى ليوونيا) ودافعت عنها مع النجاح فبقيت مستولية عليها بمقتضى المشارطة التى عقدتها سنة ١٥٨٢ فى مدينة كيبوروواهوركا مع الجبار ايوان الرابع ومن وقتئذ ادعى الاسوج أن لهم الحقوق فى اجزاء مختلفة من ليوونيا ولم يتمه القتال الذى حصل فى هذا الشان بين هذه المملكة و لاهستان بطريقة قطعية الا بمصالحة اوليوا سنة ١٥٦٠

وفى سنة ١٥٦٩ تمم سيجسموند اوغسطوس اتحاد لاهستان ولثوانية حيث تنازل عن الحقوق التى خلفها له اباؤه واسلافه فى هذه الدوقية ورضى بان لا تعتبر من الآن اقطاعا للعائلته ومات بعد ذلك بثلاث سنوات سنة ١٥٧٢ وبه انقرضت سلالة ذكور الياجولونية وفى ايامه انتشرت فى لاهستان مذاهب المتشيعة التى كان يعينها فى السر انتشارا اعظما

(الفصل الخامس)

(فى الكلام على الروسيا (اى بلاد الموسقو)

(من سنة ١٥٣٤ الى سنة ١٥٨٤)

وبمجرد أن بلغ ايوان الرابع من العمر اربع سنين خلف فى سنة ١٥٣٤ اباه بلزيل تحت كفالة امه هيلينة وكان الروسيون متعودين على ان ارامل ملوكهم يعتزلن فى الديورة ويتنازلن فيها عن ابهة المنصب الذى فقدنه بفقد ازواجهن فاغتاظوا من حكم امرأة وصى فتعكرت ايام نيابة هيلينة بالتعصبات والعصيان فان عمين من اعمام هذا الملك الصغير شرعا بالتعاقب فى تجريده عن سرير الملك الاان مساعيهما كانت مشؤمة ولم تجد

نفعا فانه ما هلكا في السجن وقتل عدة عصاة من البويارديه (اشراف الروسيا) الان هيابينة لم تمتع مدة طويلة بالشوكة التي اكتسبتها باراقة الدم حيث ماتت سنة ١٥٣٨

ولم يكن سن ايوان الى ذاك الوقت الاسبع سنوات فاستولى وزراء طماعون على شوكته وشخصه وخزائنه وتصرفوا مع الوقاحة في املاكه لكن تعذر على هؤلاء المفتاتين أن يوقعوا الهيبة في قلوب الاشراف الذين من دأبهم ايقاع الفتن والتعكرات فانه مدة ما كان الجار ايوان الرابع في سن الطفولية استولى على السلطنة بسبب مشاجرات الاعيان ومشاحنتهم لاختلال الحكومة وسوء الحال لكن لما بلغ سن الاربعة عشر سنة أحس في نفسه باهاته وقوته فأظهر ثباتا يفوق عن طاقة سنه وأعلن بأنه يريد الحكم بنفسه وكان اوائل ماصدر من حكمه قتل ونفي ظلمته فانه لما كان مجبورا في حديث سنه على اجراء الانتقام وجلب الفزع والهول في قلوب رعاياه تعود على يبوسة الاخلاق التي استحالت في الغالب الى الظلم وسفك الدماء ولذلك اشبه رعاياه بالقاسي والمهول

ولما ظهر على اعدائه الاهليين شرع في اتساع ملكه في الخارج وفي تتميم انقراض حكومة التتار ولاجل أن يتحقق من نجاح مقاصده اقام مقام العساكر القديمة الملتزمين الذين كانوا لا يخدمون الامدة من الزمن عساكر الستريلتزى المستمرة الدائمة الذين نسميهم استرلتز حكم العادة وعلمهم التعليمات والضبط والربط العسكرى وسلحهم بالبنادق (وكانت السهام الى ذاك الوقت تكاد أن تكون سلاح الروسيين دون غيرها)

وكان تتار قازان يتحملون مع القلق ربقة الحكم التي ألزمهم بها ايوان الثالث فتخلصوا منها سنة ١٥٥١ وانقادوا الى لدغير ابن سلطان استرخان فتوجه ايوان الرابع لمعاقبتهم سنة ١٥٥٢ في جيش جرار واخذ مدينتهم عنوة واباد سلطنتهم وفي سنة ١٥٥٤ سار لقتال ايمورغى امير استرخان واستولى على بلاده بدون أن يحصل له تقريبا

مقاومة وكان خان القرم ترك الروسيين يبيدون سلطنة تتار قازاق واستراخان بدون تعكير الا انه بعد نصرة الجار هجم عليه ودخل فى الروسيا مع ستين ألف رجل سنة ١٥٥٥ فانهزم بالكلية ولم يرجع الى بلاده الا مع قليل من عساكره

وفى سنة ١٥٥٦ أعلن غسطاوة وازا ملك الاسوج بحرب الجار لما توسل به اهل ليوونيا الذين كان يهددهم الروسيون فأرسل ايوان الى فنلندة جيشا اكتسب بقرب مدينة ويبورغ نصرة فاخرة على الاسوج وحيث ان غسطاوة وازا لم يأت له من اهل ليوونيا الامدادات التى كانوا وعدوه بها طلب الصلح سنة ١٥٥٧ ووقع الامضاء والقرار عليه مدة اربعين سنة

ولم يكن انزعاج اهل ليوونيا فى غير محله فان الجار تعلل بأن قدماء دوقات الروسيا كانوا سابقا متملكين معظم ليوونيا واستولى على هذه البلاد سنة ١٥٥٨ وسنة ١٥٥٩ وأوقع فيها السلب والنهب وتغلب على معظم الاماكن الحصينة وابىر غليوم دى فورستمبرغ الرئيس الاكبر على شوالرية حملة السيف ثم ان غوتارد كيتير خليفة فورستمبرغ لينال الاسعاف والاعانات من سيجسموند اوغسطوس ملك لاهستان نزل له عن جميع حقوقه وحقوق طائفته التى فى بلاد ليوونيا ولم يبق لنفسه الا اقليمى كورلندة وسمغالة اللذين كان هو اول دوق عليهما سنة ١٥٧١ بعنوان التزام تابع لمملكة لاهستان وحيث أن سيجسموند اوغسطوس ورث حقوق الرئيس الاكبر صار عدوا لايوان وفى سنة ١٥٦٣ دخل هذا الجار فى بلاد ليثوانيه واخذ عنوة عدة اماكن حصينة من جملتها مدينة پولوتزك واما فى سنة ١٥٦٤ فلم يكن للروسيين حظ وافر فان نيقولا ردزويل بلطين ويلنا (اى حاكم ويلنا) هزمهم على سواحل نهر دنيبير وكان للاسوج دخل فى هذا الحرب وارسلوا جيشا الى بلاد ليوونيا فسعى الجار بدون طائل فى طردهم

منها

منها فاغتاظ لعدم نجاحه وفعل امورا قاسية شنيعة مع عدة امراء ومدن
من سلطنته كان يتوهم فيهم انهم مساعدون للاجانب فجهز لبلاد ليوونيا
تجريدة عظيمة عند ما اوقع تتار القرم بتحريض لاهستان اغارة
جديدة في بلاد الروسيا وتوغلوا حتى وصلوا مدينة موسقو وحرقوا
ضواحيها سنة ١٥٧١ فدفعهم الجبار من هذه البلاد وعقد الصلح
معهم سنة ١٥٧٢ وعما قليل اتفق على مهادنة اجلها ثلاث سنوات
مع ملك لاهستان الذي لم يمكث بعد هذه المشارطة الامدة قليلة وفي مدة
الفترة التي اعقبت موته ومدة ايام هنري دوق انجو لم تخش بلاد الروسيا
شيأ من مملكة لاهستان ووجهت جميع قواها وعزمها على الاسوج
فانتصر عليهم ايوان نصرة عظيمة وعقد سنة ١٥٧٥ مع ملكهم
يوحنا الثالث مهادنة اجلها سنتان في شأن ولاية فنلندة بدون أن يتعرض
لذكر اقليم ليوونيا فاغتنم فرصة ضعف الاسوج واختلال اللاهيين
ليتغلب على هذا الاقليم الاخير

وكان قد انتخب اصطفان باتوري ملكا على لاهستان سنة ١٥٧٥
بعد سفر هنري دي ولواس والاولى أن يقال بعد هروبه وكان قد استعمل
اوائل سني حكمه اقمع من كان يعترض عليه حزب الايمبراطور مكسيمليان
الا انه بعد أن مكن شوكته في لاهستان وتحقق من محالفة الترك وتتار
القرم شرع في استرجاع ما كان الروسيون قد سلبوه من اقليمي ليتوانيه
وليوونيا سنة ١٥٧٩ وكان هذا الحرب مشؤما على ايوان الرابع
فانه جبر سنة ١٥٨٢ على أن يتنازل عن ليوونيا للاهستان بمقتضى
مصالحة ايوروواهوركا

ومات ايوان سنة ١٥٨٤ وكان هذا الملك صاحب اوهام وقسوة
وحشية فانه حكم رعاياه بالفزع والهول الا انه اشتغل مع الفائدة بامور الدولة
وينبغي أن يكون حكمه مشهورا في تواريخ الروسيا بسبب التحسينات العظيمة
التي حصلت في ايامه فان هذا الجبار لما رأى ان الشرائع القديمة التي بسلطنته

غير كافية حرّر كتاب الشرائع الذى هو وان كان لا يخلو عن العيوب الا انه اوقع تغييرات عظيمة فى التشريع الذى كان يعمل به الى ذالك الوقت وقد سعى وان كان بلا طائل فى ابطال العادة الخشنة وهى المقاتلات الشرعية وجعل التجارة زاهية زاهرة واحضر ارباب حرف وصنائع من انكلترة وطلب ايضا من شرلكان مثلهم واحدث الطباعة فى مدينة موسقو وقد سبق لنا انه رتب جيشا مستمرا

وينسب لايامه استكشاف بلاد سبيرية وهذه البلاد لم تزل مجهولة لاهل اوروبا وذلك أن تاجرا غنيا يسمى انيكاستروغونوف كان مقيما فى حكومة ارقنجل اخبر أولا بوجود هذا القطر وتمم استكشافه رئيس من رؤساء القزق يسمى يرملك فان هذا الرئيس المولع بالحوادث الذى كان يوقع السلب والنهب فى سواحل نهر وولغا وفى اكناف بحر الخزر طردته فرقة من الروسيين فتوجه جهة سبيرية وتجاسر على الشروع فى فتحها مع فرقة قدرها سبعة آلاف من القزق وبعد أن اكتسب عدة نصرات على تتار سبيرية وعلى خانهم كوتشوم تغلب على مدينة سبير التى كانت أعظم حصونهم سنة ١٥٨١ الا ان معظم اصحابه قد هلكوا فلما لم يتيسر له أن يطمع فى الاقامة بها مع العدد القليل من الرجال الباقين معه اشترى من الجار السماح والصفح عن ذنوبه القديمة بالتنازل له عن فتوحه هذا فتملكت العساكر الروسية بلاد سبيرية سنة ١٥٨٣ ومع ذلك لم يتم انقياد هذه البلاد الا فى ايام الجار فيدور ايوانويتش ابن ايوان وخليفته وبنى سنة ١٥٨٧ مدينة توبولسك التى صارت من وقتئذ تخت سبيرية

(الباب السادس)

(الفصل الاول)

(فى الكلام على النمسا وجه والمجار والاردل)

(من سنة ١٥١٦ الى سنة ١٥٦٣ من الميلاد)

ولما خلف لويز الثانى اباه لادسلاس السادس على سرير مملكتى

المجار

المجار وجه سنة ١٥١٦ ولم يكن عمره الاعشر سنين وقد تعكرت ايام هذا الملك بالتعصبات والتحزبات التى هى عادة تصحب ايام سن القصور فان وزراه من ارباب الوقاحة والشره تنازعوا على تاج هذا الملك وعلى ايرادات التزاماته وفى مدة ما كانوا يهينوا سيدهم ويجردونه عن املاكه عرضوه بقلة حزمهم وعدم سدادرأيهم الى غضب جارمهول فانهم تحملوا اساءة الاهالى لاجنبية السلطان سليمان الثانى الذين كانوا مبعوثين بصدد الاعلان بتوليته على سرير السلطنة فغضب السلطان واستولى على بلاد المجار سنة ١٥٢١ من الميلاد وتغلب على مدينة بلغرادة التى هى مفتاح هذه المملكة وكانت قاومت الى ذلك الوقت جميع قوى آل عثمان

وفى السنة التى بعدها وجه عساكره على جزيرة اودس وترك بلاد المجار تتنفس وتشم رائحة الاستراحة الا انه فى سنة ١٥٢٦ دخل فيها ثانيا ومعه ثلثمائة ألف مقاتل وكان مع الملك الصغير ثلاثون ألف رجل فاقتحم هذا العدد الجسيم وهلك فى واقعة مهاكز المشؤمة (فى ٢٩ من شهر اوغسطوس) مع اعظم اشرافه واغلب جيشه وكانت عواقب هذه الواقعة سيئة فان يوحنازابولى قونتة زيبس وحاكم بلاد الاردل الذى كان قادما بجيش من الاردل وكذا ثلاثون ألفا من الكراواتية والچهية والمروية كانوا قد بادروا بالذهاب تحت قيادة رؤساء مختلفة انصرفوا بدون أن يتجاسروا على انتظار العثمانية وفتحت بلاد المجار كلها لهم وبعد أن خربها السلطان سليمان بطريقة مهولة مجردة عن الشفقة والرحمة ذهب ومعه اكثر من مائة الف اسير

وكان لويز الثانى آخر ذريته من ذكور عائلة ملوك الياجيلونية فتقدم يوحنازابولى ليرثه فى المملكة وكانت الاسلحة بيده وكان حربيا وكان من المجار وزيادة على ذلك كان ذا ثروة وابهة فى البذل والمصاريف فتتوج فى مدينة ألبيرويال باتفاق معظم المجار فى اثناء جنازة الملك الصغير فترتب عن هذا الانتخاب تعكرات وفتن جديدة فانه يقتضى مشارطات عظيمة لاسيما بمقتضى

المشارطة التي عقدت سنة ١٥١٥ طلب الى الجلوس على هذه المملكة فرديننذي اوستريا وكان قد تزوج في سنة ١٥٢١ الاميرة أنة اخت لويز الثاني ومما استمال به قلوب المجار وان كانوا يسيئون الظن و ينفرون من الوصف بالاجنبي فضله الذاتي وكونه اخا اعظم ملوك الدول النصرانية وشوكته التي كانت تعشم رعاياه بأنها من الآن فصاعدا تقيهم من اسلحة الدولة العثمانية فبويع له في جمعية بريسبورغ بماله من الحقوق التي كانت معضدة بجيش وانهزم زابولي في سهول توكاي فذهب الى مملكة لاهستان وطلب منها الاسعافات من السلطان سليمان وكان من سوء حظه اجابته له بذلك ففي مدة ما كان يدخل بنفسه بلاد المجار مع جنود لاهية و يهزم النمساوية في مدينة كاسوبا اجتاز محاميه المهول (السلطان سليمان) نهر ساوة في مائتي الف رجل ووصل بدون مانع الى ابواب مدينة بوده وسلمها له محافظوها لجبنهم وجر زابولي خلفه و بعد أن طاف جميع بلاد المجار وخربها استولى على بلاد النمسا وحاصر قاعدتها وهي مدينة ويانة (اي بچ) التي خابت فيها مرتين اسلحة آل عثمان وكان محافظوا هذه المدينة عشرين ألف رجل تحت قيادة قونتة سالم وكانوا قد تعلموا القتال في حروب ايطاليا فتمت شهرتهم وكمل صيتهم بمقاومتهم الشديدة و بانصراف السلطان سليمان بعد أن هجم عليها عشرين مرة بدون ثمرة فرأى هذا السلطان الذي لحقته الاهانة انه يخلص عرضه وشرفه من التلويث والتدنيس بتطاول لا ثمرة فيه حيث اطلق سبيل بعض اساري وامرهم بأن يقولوا لرؤسائهم ان مقصده لم يكن اصلا اخذ مدينة بچ بل اختبار شجاعة العساكر الالمانيين وانه يعرفهم و يعتبرهم و يصفح عنهم ووقف مدة في مدينة بوده ليتوج بيده يوحنا زابولي وتركه غير متمكن على سرير مضطرب لدولة خربة وذهب ليأخذ ميثاق الطاعة على امير البغدان الذي كان عرض عليه أن يدخل تحت قوانينه واحكامه

وكان هذا السلطان صاحب الشمم والانفة له مزيد رغبة في ازالة ما لحقه من

الخزى والمعرة بحت اسوار مدينة بج فانه شهر سنة ١٥٣١ شواطئ
نهر دانوب المتخربة بجنوده التى لا يحصى عددها وكان ذلك رابع مرة
فقاوم هذه الجنود الكثيرة مدة ثمانية وعشرين يوما ثمانمائة رجل فى ثغور
بلاد استيرية بمحل غير حصين وهو مدينة غونتز ففى هذه المدة اطمأنت
دولة النمسا وأمنت على نفسها وجمع فردينند العساكر واما شرلكان
منصور فرانسا وحكم ايطاليا ومصلح ألمانيا وكان يطمع فى لقب
الفخر من ذلك ايضا وهو منقذ الدول النصرانية فانه قدم الى السلطان سليمان
ليكون خصما جديرا بقتاله وقد ظهر أن جمية اهل الصليب تقوت وانتعشت
برهة من الزمن فان الكاتوليقية والاروتستان بألمانيا تسلحوا على
عدوهما بحمية وغيرة متعادلة وطلب شرلكان من ايطاليا ومن البلاد
الواطية عساكره القديمة المتعودة على النصرة وانى ليصطف بالطوع
والاختيار حول هذا الأيمبراطور تحت الاعلام النصرانية شجعان من نهر
ويستول الى نهر الرين ومن المحيط الى جبال الالب فصار جيشان
عظيمان وخصمان كبيران تجاه بعضهما وكانت اوروبا ما بين الخوف
والرجاء تنتظر عاقبة هذا القتال الذى كانت تعتبر أنه ينبت به امرها سعادة
اوشقاء سنة ١٥٣٢ من الميلاد

لكن كانت رغبة شرلكان فى فخر النجاح دون ما يعود منه من الثمرة والمنفعة
فانه كان ذا حزم ورأى سديد بحيث لا يطلب القتال حين ما كان يعلم ان قرب
الشتاء قد اشرف على جبر العدو على الارتحال والتباعد فاقتصر على المدافعة
وترتب عن مشاغلة الدونغا الايمبراطورية التى استولت وهى تحت قيادة
اندريه دريه على حصن من حصون بوغاز الدردانيل وهددت
القسطنطينية ان بادر السلطان سليمان بالرجعة والانصراف وسلك
الايمبراطور ايضا طريق ألمانيا وكل هذه الابهة الحربية التى اظهرها كل
منهما انفض امرها وترك المتطلبان لمملكة المجار على مجرد قواهما وقصارى
الامر لما تعب كل منهما على حد سواء من القتال الطويل المسفك للدماء وتحقق

أن السلطان لايديم الكراهة بينهما الالاجل أن كلا منهما يقطع دابر الآخر ويستولى هو على المملكة بعد قطع دابرهما عقدا سنة ١٥٣٦ بمدينة ويتزين مصالحة وقع القرار فيها على ان زابولى امير الاردل يحفظ مدة حياته لقب الملك وجميع ماله فى بلاد المجار بشرط ان هذه المملكة ترجع كلها بعد موته لفرديننـد وحيث ان زابولى لم يكن متزوجا وكان متقدما فى السن ظهر من هذا الاتفاق انه ملايم لغرض خصمه الا انه بعد ذلك بقليل حمل اشراف المجار يوحنا زابولى على أن يكف عن عزوبيته المستطيلة ليمنعوا بذلك اجنبيا بحكمهم فتزوج ايليزابيطة بنت سيجسموند ملك لاهستان وكانت ثمرة هذا الزواج ان ولد له ولد سمى باسم يوحنا سيجسموند وكان بين ولادة هذا الطفل وموت ابيه خمسة عشر يوما تقريبا سنة ١٥٤٠ ولم تلتفت ايليزابيطة الى الحقوق القديمة التى كانت لفرديننـد بسبب انتخابه ولا الى الحقوق الجديدة التى له بمقتضى مشارطة ويتزين بل انها باعانة مرتنوزى اسقف مدينة اغرند ورادين حملت معظم الملة على مبايعة ابنها بالمملكة فبايعوه بذلك باسم اصطفان تذكارا لمؤسس المملكة وكانت ايليزابيطة تطمع فى الرياسة ولها مزيد رغبة فى الشوكة والمعالى ولم تكن شجاعتها التى هى شجاعة رجال دون طمعها ولما كان مرتنوزى قد ارتقى بسبب فضله ومعارفه من ادنى الرتب الى اوج العلا كان من الرجال الخارقين للعادة الذين اعدتهم القدرة الالهية الى ابهة واخطار أعظم وظيفة فى ازمنة التعكرات والتحزبات فانه كان حبرا متواضعا متقشفا ظاهره فى وظائفه القسيسية وكان وزيرا ماهرا لايكل ولا يمل فى المصالح وكان جنرالا شهما فى قيادة الجيش واجتماع هذه الصفات المتناقضة امر غريب وقصارى الامر كان يظهر منه بمملكته من خلال هذه الاشكال الكثيرة المختلفة التى كان يتزيا بها على التعاقب رغبة شديدة فى حب الرياسة فمثل هذين الخصمين كانا لم يستوليا على تاج فرديننـد بقصد أن يرداه بدون قتال فتغلبت فرقة كبيرة من النمساوية على الجزء من المملكة الذى اظهر أنه

من حزب اصطفان ولما لم يمكن لمرتنوزى أن يشغل الفضاء و يضبطه تمكن من المدن لاسيما مدينة بودة التى حصنها بحيث يمكنها المدافعة ومن وقتئذ اخذ الجبن فى التسلسل وافتضح به كبار الناس الذين شغلوا ساحة الميدان فى هذه المنازعات فان مرتنوزى سلك مسلك يوحنا زابولى فيما صدر منه من الفضيحة والعار حيث طلب لابنه اعانة السلطان سليمان الذى هو فى جميع الاوقات شؤم على بلاد المجار وعرض عليه فردينند انه يلبس تاج هذه المملكة على نفس الشروط المخجلة التى لبسه بموجبها يوحنا وأن يكون خراجيا للدولة العثمانية فحمل السلطان نفسه من حزب اصطفان وأنقذ مرتنوزى الذى كان محصورا فى مدينة بودة وهزم الالمانيين ودفعهم الا انه حانته الفرصة المزخرفة على تملك دولة يحكمها صبى تحت كفالة امرأة وقسيس فتعلل بموسم وجلب فى معسكره هذا الملك الصغير وامه ورؤساء الاشراف واستولى على التخت ونفى ايليزابيطة وابنها (وهو الملك الصغير) فى بلاد الاردل وجعلها اقطاعا لهما وضم بلاد المجار الى سلطنته

وقد بذل فردينند مجهودات بدون طائل فى استرجاعها فلما سئم ثانيا من السلطان سليمان حيث انه رد مع الاحتقار ما عرضه عليه من تبعيته له وتخلى عنه الايمبراطور أخوه حيث ان مقاصده فى شأن توسيع دائرته كانت تشغله فى اماكن اخرى ورأى نفسه انه قد اشرف على أن يؤخذ منه المقدار القليل من الاماكن الحصينة التى لم تزل معه فى بلاد المجار بعد أن فنى جميع وسائط الدول النمساوية طلب المهادنة من السلطان سنة ١٥٤٥ فأجابه بهامدة خمس سنوات بتوسط ملك فرانسا ومع الشرط المهين وهو انه يدفع جزية سنوية قدرها ٣٠٠٠٠ من نقود الدوقات للدولة العثمانية وأن يكون من ضمن ملتزميها

وفى سنة ١٥٤١ لما كان السلطان سليمان قد نفى اصطفان فى ايالة الاردل كان قد ناط بتربيته الملكة ومرتنوزى الذى كان زابولى

قد عينه كفيلا لابنه ونائبا على دولته فى زمن كان فيه هاتان الوظيفتان اعظم اهمية فترتب عن هذه القسمة فى الشوكة بهذه الايالة الصغيرة الفتن والتعكرات التى يمكن احداثها فى مملكة كبيرة وكان لكل من الملكة (ايليزابيطة) ومرتنوزى احزاب من الاشراف فظهر حزب هذا الاسقف على حزب الملكة فطلبت الحماية من الدولة العثمانية وكان السلطان حينئذ مع جيش فى ثغور بلاد العجم فلم يمكن للباشوات المجاور بن انهر دانوب أن يؤدوا لايليزابيطة الااعانات واهية واما مرتنوزى فنال من فرديننند اعانات اقوى من ذلك فان هذا الامير لما استمال قلبه هذا الحبر بمواعيده حيث التزم له أن يقوم له اقوى اشراف بلاد المجار لرسل الى بلاد الاردل بدون التفات الى المهادنة التى عقدها مع السلطان سليمان فرقة من العساكر تحت قيادة كستالدو مرقى دوبيادانا فجبرت الملكة لما أنه قد فاجأها فرديننند على أن تتنازل له عن بلاد الاردل وعن حقوق ابنها فى بلاد المجار وعن الزخارف الملوكية التى كانت عائلة زاپولى بقيت على تملكها واخذت فى نظير ذلك امارتى اوپلين ورتبور ببلاد سليزية ومبلغا قدره ١٠٠٠٠٠ من نقود الدوقات

ولاجل مكافأة مرتنوزى على خدمه وحسن صنيعه قلده فرديننند حاكما على بلاد الاردل وجعل له شوكة تكاد أن تكون مطلقة واعطاه مطرانية غران ونال من الباپا أنه يتحلى بالطيلسان الرومانى وكان مستورا تحت هذه المباهاة بحسن الالتفات وشمول النظر مقاصد من باب الخيانة والغدر فان فرديننند كان يخشى مرتنوزى لمعارفه ومهارته وكان لايثق بصدقه وامانته ونلط كستالدو فى السر بان يراقبه و يلاحظ اموره وقد اراد هذا الاسقف الحرب مع آل عثمان مع الشهامة والنجاح اما لكونه لم يلاحظ هذا الارتياب اولكونه لم يعبأ به واعاد شوكة فرديننند فى ولاية تمسوار وفى عدة بلاد مجاورة ومع ذلك فأتهمه كستالدو فى ديوان ... لغيرته من نخاره بمقاصد من باب الطمع والجرم

فاعتبر

فاغتر فردينند من الوشي والنميمة وناط هذا الايطالياني الخائن بأن يقتله من هذا الشخص الذي يظهر له انه صاحب شوكة عظيمة بحيث يكون خطرا عليه (فقتل مرتنوزي بالغدر والحيلة) وذلك سنة ١٥٥١
وكان هذا العدوان اشارة على الخروج والقيام فان الرعايا في جميع الاماكن اغتاظت وسخطت من ذلك وبادروا بالتخلص من ربقة حكم النمسا فاسرعت ايابزابيطة وابنها بالذهاب الى بلاد الاردل وعادت هذه العائلة (وهي عائلة زابولي) الى الحكم على هذه الامارة تحت حماية آل عثمان
وفي سنة ١٥٥٩ طلب اصطفان من فردينند أن يتلقب بلقب ملك المجار وأن يتنازل له عن عدة بلاد فترتب عن ذلك حرب مكث ثلاث سنوات كان لآل عثمان غالبا مدخلية فيه فعقد فردينند مهادنة معهم سنة ١٥٦٢ اجلها ثمان سنوات ومات سنة ١٥٦٣ وترك بلاد المجار في حالة غير قارة محزنة ولم يمكنه الى ذلك الوقت بعد أن بذل مجهودات استغرقت اربعين سنة أن يجعل هذه المملكة السيئة الحظ على حالة ثابتة

(الفصل الثاني)

(في الكلام على الدولة العثمانية وحكم سليمان الثاني)

(من سنة ١٥٢٠ الى سنة ١٥٦٩ من الميلاد)

والسنة التي مسح فيها شرلكان مسحة الايمبراطور هي عين السنة التي تقلد فيها سليمان الثاني بن سليم الاول بالسيف وهذا الاحتفال ببلاد الترك هو كناية عن تتويج الملوك عند ابناء النصرانية وذلك سنة ١٥٢٠

وكان الصلح منابذا لطبع السلطان سليمان وللتولع بالفتوح المتوارثة في عائلته ولحمية رعاياه وشجاعتهم الحربية وكانت الفرصة مساعدة له في الهجوم على الدول النصرانية فان اسبانيا وفرانسا وألمانيا وايطاليا كانت مضطربة بالفشل والشقاق حيث كان شرلكان وفرنسيس الاول

يتنازعان على دوقية ميلان وكان النزاع الواقع بين هذين الملكين صاحبى الشوكة والصولة وهرطقة لوتير الجديدة شاغلا بال البابا ليون العاشر فاغتنم السلطان فرصة هذه الاحوال ليستولى على بلاد المجار الذى كان حكم الملك الصبى فيها لضعفه واضطرابه سلمها لعساكره بدون مدافعة وبعد هجوم السلطان مرتين وخمسائة ثنين غدرا بجزيرهما استولى سنة ١٥٢١ على مدينة بلغرادة التى هى احد متاريس الدول النصرانية وكان قد خان امامها فاتح القسطنطينية وكانت طريق مدينة بودة مفتوحة سالكة ومع ذلك فامتنع هذا المنصور ولم يتصد للذهاب اليها فانه لما انسر من تملكه لباب (وهى مدينة بلغرادة) يتمكن به من الدخول فى اوروبا شرع فى فتوح اعظم وافخر من ذلك وهى رودس فان هذه الجزيرة التى كان يملكها من منذ مائة وخمسين سنة شوالرية مارى يوحنا الاورشاليمى كانت محل يأس آل عثمان وقنوطهم فان اغربة شوالرية مارى يوحنا كانت تنغص على سفن الدولة العثمانية وتجارتها وكانت ميناتهم ملجأ لجميع الدونغات التى كانت متسلطة على القسطنطينية فكان شرف السلطان وأمن رعاياه يقتضيان اعدام هذا المحل الذى هو مأخذ الحرابيين فهجم عليها مع احد الجيوش الكبيرة التى جمعها فى جميع الازمنة حكام آسيا المطلقوا التصرف لتجريداتهم وغزواتهم وذلك سنة ١٥٢٢ فقدم مصطفى صهر السلطان سليمان وپيرى پاشا وكان تحت قيادتهما مائتا ألف رجل ودونغا تبلغ اربعمائة سفينة امام هذه المدينة التى كان يحميها خمسة آلاف عسكرى وستمائة من الشوالرية لكنهم كانوا تحت قيادة و يلييرس دوليل ادم وكان هذا الفرنساوى الجليل قد خلف منذ مدة يسيرة الرئيس الاكبر فبريس كريتو وكان قد زاحمه فى هذا المنصب اندريه دامرال فنجليير هذه الطائفة ورئيس قسطيلة الاكبر ويقال ان هذا الاسپانيولى صاحب العتو والانفة حنق من كون ليل ادم ظهر عليه فشملت كراهته المجردة عن الرشاد خصمه وجميع الطائفة وكتب للسلطان سليمان بدعوه

الى

الى محاصرة رودس والتزم له بالنجاح وعلى كل حال جهز السلطان لفتوحها اما لكونه بلغه أن الوقت قابل لذلك اوأنه لاحظ ذلك بنفسه فبمجرد ان داخل الوسواس قلب ليل ادم من مقصود تجهيزات السلطان طلب الاعانة من ملوك اوروبا على هذا العدو العام لجمع ابناء النصرانية لكن وان كان جميع هؤلاء الملوك تأثروا مما يخشى على هذه الطائفة من الخطر ودعاهم البابا ادريان السادس مع الحمية والغيرة التى تليق برئيس الكنيسة وابيها الى أن ينسوا مشاجراتهم الشخصية باشهار حرب الصليب على المسلمين الا أن بغض الفريقين كان شديدا بالكلية حتى انهم لم يتأثروا برجاء الرئيس الاكبر ولا بالحاح البابا فتركوا الشوالرية على شهامتهم وعلى الاسعاف الربانى وارسلت لهم جزيرة قنديه فقط اعانة قدرها خمسمائة رجل ومعهم مرتنانغ وهو حربى شهم ومهندس عظيم ادار مع الحذق والمهارة الاشغال الضرورية لحماية هذا المحل

وحيث ان شوارلية مارى يوحنا الكرام ورئيسهم الاكبر تخلى عنهم اخوانهم أظهروا شجاعة وثباتا وتجلدا فوق طاقة البشر وربما كان الدين وحده هو الذى اوصلهم الى هذه الدرجة فلحق الانكشارية فتور همة فبينما كان يظهر عليهم انهم اشرفوا على تجديد ما حصل لهم من الخزى والمعرة فى محاصرة رودس الاولى اذ أتى السلطان سليمان بنفسه لما تزجاه رؤساء عساكره وألحوا عليه بالمجىء فبعد أن هدد الجيش بأن يعاقب منه كل واحد من عشرة بالقرعة أعلن لعساكره انما يمكنهم استحقاق السماح على اسوار العدو فابتدأ الحرب مع الحميه الشديدة والحدة فاشتدت المقاومة ومكثت على ذلك ستة اشهر معادلة لشدة الهجوم وبينما كان المسلمون قد اشرفوا على رفع الحصار مرة ثانية اذ أعاد دامرال رجاءهم بنصائح جديدة فانفضح امر هذا الخائن لاحزابه فقبضوا عليه وأثبتوا خيانته وضربوا عنقه ولم يجد ذلك نفعا فان السلطان سليمان تحقق من النجاح وقويت عزائمه وتضاعفت مجهوداته وقصارى الامر هزمت رودس مع محاميها واى

احوال مخلدة الذكر مثل هذه اشهرت سقوطهم وانحطاطهم الدال على شهامتهم وفرط شجاعتهم وكفاهم بذلك فخرا فان سلاح الشوالرية اهلك من المائتى ألف مقاتل الذين كان يتكون منهم جيش العثمانية ما ينيف على اربعين ألفا وهلك مثل هذا العدد بالتعب والامراض التى تنشا عن مثل هذه المحاصرة الطويلة وكان قد ضرب على رودس اكثر من مائتين وعشرين ألف مدفع فصارت بذلك تلا من الرماد اوكوما من الاطلال والرسوم ولم يبق مع المحصورين شئ من البارود والمؤنة وكان اغلب الشوالرية ما بين ميت اوفى سكرات الموت اوفى حالة بحيث لا يمكنه القتال ومع ذلك فكان ليل ادم لم يزل يريد القتال مصمما على ذلك حتى يدفن تحت ردم آخر متراس مع آخر اصحابه لكن حين ترجاه القسوس والاهالى اذعن لبكاء الاهالى الذين كانوا قد اشرفوا على الموت ورضى بأن يصغى الى الشروط التى كان السلطان هو أول من عرضها عليه فعقد مشارطة مع الشرف بالتسليم (وذلك فى عيد الميلاد سنة ١٥٢٢) فانحط الرأى على أن الكنائس لا تدنس ولا تلوث بشئ وأن يرخص فى استعمال الدين النصرانى مع الحرية وان الاهالى يعافون من المغارم والتكاليف مدة خمس سنين الى غير ذلك فاشتاق السلطان سليمان الى رؤية ليل ادم فبعد ما رآه مدحه على شهامته وسلاه على مصيبته ثم بعد أن دخل هذا السلطان المدينة وملك سرايه هذا الرئيس الاكبر قال لاحد رؤساء عساكره انى لم اخرج هذا النصرانى من بيته فى سنه هذا الامع المشقة والعناء وعدم الخاطر

ثم ان ليل ادم ركب البحر فى سلخ شهر دقمبر وتبعه اربعة آلاف من اهل رودس ليتخلصوا من حكومة المسلمين فنقل الشوالرية فى ايطاليا ما بقى من طائفتهم القديمة المحترمة وحظوا من البابا بمدينة ويتيربة فأقاموا فيها الى أن نقلهم شرلكان سنة ١٥٣٠ لمجرد اغراضه ومصالحه الى جزيرة مالطة ونسبوا اليها من هذا الوقت وتسموا باسمها واعطاها لهم هى والجزيرتين الصغيرتين وهما غورزة وكومنغ بشرط

ان

ان يمنعوا صيال قرصان المغاربة ويحموا من اغاراتهم جزيرة سيسليا وما جاورها من الجزائر وشواطئ مملكة نابلى

وقد لوث السلطان سليمان فخاره وحه بفعلة قاسية فظيعة وذلك ان ولدا من اولاد جم النبى البخت (راجع المدة الاولى من الباب الاول) كان قد وجد له ملاذا وملجأ فى رودس فاستثناه السلطان بسياسته القاسية من مشارطة التسليم فلما جىء به امام هذا السلطان المنصور امر بخنقه هو وولديه

وفى سنة ١٥٢٣ لما رجع السلطان الى القسطنطينية ترك اشغاله الحربية ليشتغل بمصالح الدولة فعاقب عدة قضاة على كونهم لم يوفوا بالواجب عليهم فى فصل الدعاوى او فى قبض الاموال العامة وعين عقوبات للذنوب المختلفة فجعل عقاب الموت للقتل وبعض سرقة ورتب عقوبات اخر ملائمة للذنوب الجسيمة لكنه لم يسلك مسلك الحزم وسداد الرأى فى كونه لم يجعل المذنب اسير الاحكام الشرعية فقط بل جعل للمتهم ايضا يدا ثابتة فى اجراء العقاب عليه فبناء على ذلك لم يكن ثم فى الدولة العثمانية ذنب الا ويمكن التخلص منه اما بالاموال او بغيرها بحيث ان الخصم يرضى بذلك واقر هذا السلطان شهادة الشهاد لكنه وسع فى دائرتها مع قلة الحزم بحيث ان القضاة لما كانوا ملزومين بعدد الشهادات الا بموازنتها ومقارنتها ببعضها وجد كثير من الشهادات الزور حيث ان كثرتها تحقق لهم عدم المعاقبة وهذه القوانين مع ما فيها من العيب لا سيما همة هذا السلطان فى القضاء وفصل الدعاوى صيرته يسمى باسم قانونى

حتى ان العسكرية وصل اليها تهذيباته وترتيباته فانه اكثر الرتب فى الانكشارية والاسباهية لاجل اضعاف شوكة الرؤساء بتقسيمها وتوزيعها وسلب من هاتين الفرقتين القديمتين حرس السراية وناط به فرقة جديدة اشتهرت من يومئذ باسم بستنجية وان كانوا منوطين ايضا بحرس السلطان نفسه اكثر من بساتينه فترتب عن هذا الامر الدال على ارتيابه منهما

واستخفوا انه لهما فتنة جعل الانكشارية عليها خفية فجرهم وسآمتهم من الاستراحة مدة سنتين وتذكرهم من سكون السلطان سليمان امتنع من نهبهم لرودس فأظهروا العصيان ونهبوا بيت الدفتدار اى خازندار السلطنة الاكبر بل وتجاسروا على كسر باب مسجد ليسلبوا الخزينة منه وفى مدة ما كان نفر من الاوضباشية يحامى عن باب المسجد ويرمى على عتبته اكثرهم جسارة وجد السلطان فسحة فى المجىء بسرعة فلما رآه العصاة هرب بعضهم والبعض الآخر خر جاثيا على ركبتيه فلم يصل انتقامه الاعلى الرؤساء الاربعة الكبار واشكره للاوضباشى الشجاع رقاه فى الحال الى رتبة الصدر الاعظم وهو ابراهيم المشهور الذى كان حبيبا لسيده وصاحبه وصهره ثم آل الامر الى أن صار فريسته

وكانت بطالة الانكشارية المستطيلة منابذة لهدء السلطنة والمقاصد العظيمة التى كانت تمد طمع السلطان فاغار على بلاد المجار سنة ١٥٢٦ م واكتسب النصرة فى واقعة مهاكز التى هلك فيها الملك لويز الثانى واكثر من عشرين ألفا من رعاياه وبعد أن نهب مدينة بودة واغلب مدن هذه المملكة انصرف عند قرب الشتاء مع الغنيمة الجسيمة والمقدار العظيم من الاسراء

وحيث ان الملك لويز مات ولم يعقب ذرية وقع الاختلاف بين المجار فى انتخاب ملك عليهم فبعضهم ولى زابولى حاكم الاردل والبعض الآخر بايع لفرديننددى اوستريا الا أن زابولى هزمه خصمه بقرب مدينة توكاى وهرب فى مملكة لاهستان ومنها طلب اعانة العثمانية وفى سنة ١٥٢٩ م عاد السلطان سليمان الى بلاد المجار وتوغل حتى دخل بلاد النمسا وحاصر مدينة ويانة فجبرته مقاومة المحصورين على الانصراف والرجعة وظن أنه يمحى عنه هذا العار بابهة احتفال فذهب الى مدينة بودة ليضع بيده تاج القديس اصطفان على رأس يوحنا زابولى

ولما عاد من تجريدته هذه وجد اعظم معاوضة جبر بها خلل تلوث فخاره وفقده لثمانين ألف رجل وذلك ان بغدان امير البغدان كان ينتظره ليبايعه بالطوع والاختيار على هذا الاقليم وعلى طاعة رعاياه له فان شجعان هذا القطر ذى الثروة والغناء استمالتهم اليه شهرته وسطوته العظيمة فبايعوه على أن يكونوا خراجيين له بشرط أنهم يحافظون على دياناتهم

ولما بلغه فى السنة التى بعدها ان النمساوية هجموا ثانيا على مجريه جهز تجهيزا عظيما ليثبت التاج لزابولى وجمع فردیناند وشرلكان ايضا جنودا عديدة وقصارى الامر حضر فى سنة ١٥٣٢ السلطان والايمبراطور تجاه بعضهما فى سهول المجار الاان كلا من هذين القرينين راقب صاحبه بدون أن يجرّب قوته وترك شهرته بدون تحقق

وفى هذا الزمن حاز السلطان ماهو أعظم من فتوح اقاليم وهو الشهير خير الدين بربروس

وذلك ان هذا الاوباش الذى صار ملكا بالصيال كان ابن بواب من جزيرة متلين وكان قرصانا من صغره فشارك فى هذه الصناعة الحقيرة اخاه البكرى هوروق فى اخطاره وبخته ولم يكن لهما فى مبدأ الامر الاسفينة واهية الا انهما لما غنيا من الصيال ازدادت بسرعة قواهما البحرية حتى صارت فى اقرب وقت دونمانا وبحسن وضع مينات بلاد المغاربة العظيم رغبا فى أن يتخذا لهما موطنا فى هذا الجزء من افريقة وكان من قلة حزم عوتمى ملك الجزائر أنه اعطى لهما فرصة لذلك سنة ١٥١٦ فان هذا الملك بعد أن سعى عدة مرات بلاطائل فى ان يتغلب على حصن كان بناه حكام اران الاسبانيوليه بقرب قاعدة ملكه طلب الاعانة من هوروق الذى كانت شجاعته مشهورة بأنه لايمكن الظفر عليها فلما دخل هذا الصائل الخائن فى الجزائر بوصف معين ونصير استولى على المدينة وقتل الملك الذى دعاه وحكمها بالجبروت والهول وبالجملة فلما كان حربيا عظيما بقدر ما كان ظالما قاسيا خلع ملك ترمسان من ملكه وضم بلاده الى بلاد الجزائر وأوصل

دول اسمه ومهابته الى وسط افريقة وكانت دونمماه تنغص كل سنة على سواحل اسپانيا وايطاليا وقصارى الامر هجم عليه مرتى كوماريس حاكم اوران بقوى تفوق قواه وهزمه فى عدة وقعات وحصره فى ترمسان ولما فوجئ هذا الصائل صاحب العزم والشجاعة فى وقت ما كان يبحث عن الهروب بعد مقاومة شديدة اشهر أخرمدته بمدافعة وشجاعة عظيمة تليق بسطواته وصيته

فاستولى فى الحال خيرالدين المشهور باسم بربروس على مملكة اخيه واخذ بثار موته بنصرات فاخرة ولما صار لايخشى الاسپانيول الذين كانوا مشتغلين بحروب اوروبا رتب مع الحزم وسداد الرأى الضبط والربط الداخلى بمملكته واستمر على تجريداته البحرية مع القوة والشهامة التى لاتكل ولا تمل ووسع دائرة فتوحه فى افريقة لكن لاجل أن تمكن من الاعانة على عصاة المغاربة والعرب الذين كانوا يتحملون حكمه مع الضجر وفرائصهم ترتعد من شدة الغيظ ومن الاعانة ايضا على عساكر النصارى الذين كانوا لابد وأن ينتقموا منه عاجلا او اجلا فى نظير صيالة المستمر جعل بلاده تحت حماية السلطان سليمان فأعطاه هذا السلطان فرقة من العساكر العثمانية وقصارى الامر لما كانت شهرته تزداد كل يوم عرض عليه السلطان قيادة الدونمات العثمانية من حيث انه هو الذى يمكنه دون غيره معادلة دوريه ومقاومته وهو اعظم ملاحى عصره فشرع بربروس بالاعتراف لهذا الشرف العظيم بخدمة عظيمة

وذلك ان محمدا ملك تونس كان قد انتخب خليفته من ذريته الكثيرة مولاى حسن الذى هو أصغر جميع اولاده وكان هذا الابن العاق سم اباه واعقبه بقتل معظم اخوته خوفا من أن يتغير رأيه فى شأن خلافته له وكان الراشد وهو أحد اخوته الكبار تخلص من طعنات هذا الظالم وفر هاربا الى الجزائر وطلب حماية بربروس الذى كان مشرفا اذ ذاك على السفر الى القسطنطينية فحمله بدون مشقة على أن يصحبه الى ديوان السلطان

ووعده باعانته واسعافه لكن عوضا عن كون بربروس يستميل مروءة السلطان سليمان لهذا الامير الهارب المتضرع لما حل به من المصائب والنكبات عرض عليه أن يرتكن هو الى اسم الراشد وينتفع منه ليفتح مملكة تونس ويضمها الى سلطنته فقبل سليمان هذا الرأى الذى هو من باب الغدر والخيانة الذى حقه أن يصدر من مثل هذا الرجل رئيس ارباب الصيال سابقا الا من سلطان عظيم فقبض على الراشد بامر السلطان وسجنه فى السراية ولم يعلم ما حصل له بعد ذلك ومع هذا سافر بربروس وركب البحر جهة افريقة ومعه مائتان وخمسون سفينة فهرب مولاى حسن عند قربه وجبرت تونس بعد بعض مقاومة على أن تبايع السلطان سليمان بأنه سلطانها وبان بربروس عامل عليها من طرفه فداخل الرعب قلوب امراء ايطاليا من شوكة بربروس لكونهم كانوا عرضة لصياله وانضموا الى مولاى حسن ليطلبوا الاعانة من شرلكان ولما كان هذا الايمبراطور له غيرة على انقاذ ممالكه من هذا الجار الخطر وكان ايضا مولعا بحيازة الفخار فى اى مشروع كان على المسلمين جمع قوى عظيمة لهذه التجريدة فركب البحر ثلاثون ألف رجل تحت قيادة مرقى غواست فى مائة سفينة كان يركبها اعظم بحارة اوروبا وكانوا تحت قيادة دوريه واراد شرلكان أن يحثهم ويقوى قلوبهم بحضوره فسافر هذا الجيش النصرانى من مدينة كغلياري فى السادس عشر من شهر يولية سنة ١٥٣٥ وبعد أن سافر سفرة سعيدة رسى تجاه تونس وباستيلائه على حصن غوليتة صار فى قبضة الايمبراطور أولادونما بربروس وترسانته وثلثمائة مدفع وهو مقدار عجيب بالنسبة لهذا الزمن واذا ساغ لنا أن نسمى بربروس بالصائل نقول ان هذا الصائل لم تفتر همته ولم يعتره دهشة من هذه الخسارات فانه عزم على أن يسلم امره للمخاطرة بالقتال وقدم امام العدو قائدا خمسين ألف رجل لكن حسن الضبط والانتظام غلب الكثرة فانهزم بربروس وبعد أن بذل بدون ثمرة مجهوداته فى جمع جيشه فر هاربا الى مدينة

بونة وسلمت تونس للمنصور ومع احتراسات الايمبراطور واوامره خشى عساكره من أن يحرموا من الغنيمة التى كانوا يطمعون فيها فانقضوا على المدينة كانها فريسة ولازالوا يقتلون فيها وينهبونها حتى سئموا فهلك فى هذا اليوم المشؤم اكثر من ثلاثين ألفا من الاهالى واخذ منهم اسراء عشرة آلاف فخنق الايمبراطور من هذه الافراطات المهولة التى لوثت رونق نصرته ومع ذلك فقد حصل له فى اثناء هذا الامر المفزع ما يتسلى به عن غمه حين فك من قيد الاسر ألوفا من المساكين وتواقعوا على رجليه ودعوا له حيث انه منقذهم وجلس مولاى حسن على سرير ملكه الملوث بالدماء واعترف بأنه تابع لمملكة اسبانيا وسلمت جميع مينات المملكة للايمبراطور وجميع النصارى الذين كانوا لم يزالوا الى ذلك الوقت فى الاسر اطلقوا بدون فدية وحاز شرلكان فى اوروبا فخرا لم يحزه الى ذلك الوقت اى امير كان من عهد القديس لويز

وبينما كان السلطان سليمان يكتسب مملكة فى افريقة ويفقدها فى آن واحد تقريبا اذ الصدر الاعظم ابراهيم حمل السلطان على حرب العجم اما لكونه قبل الرشوة من النمسا اواحترامه للدين النصرانى الذى كان متمسكا به سابقا حمله على أن يصرف من الغرب اسلحة العثمانية اولاجل اضعاف شوكة عدوته روكسلانة الشهيرة التى كانت لها بالسراية

وكان اول الصفوية وهو الشاه اسماعيل قد مات فسلك الشاه طهماس ابنه وخليفته مسلك ابيه فى الشجاعة والحزم وسداد الرأى فعادت هذه الاغارة بالخزى والعار على المتعدين وكانت روكسلانة قد لامت على حرب العجم فظفرت بمرامها الشؤم عاقبته ونسبته لخيانة ابراهيم فان هذا الصدر الاعظم كان قد اضر بفخار سيده فانحط الرأى على قتله لكن لما كان السلطان يخشى من حضور هذا الوزير الذى كان قد اجرى كلمته عليه مرارا كثيرة لم يطلع الوزير على هذا الحكم فامر بخنقه وهونا ثم

ثم شرع السلطان فى أن يجبر باوروبا ما لحقه من النكبات فى آسيا

وافريقة وكان فرنسيس الاول طلب منه اعانات على شرلكان فجهز دونتماقوية لتخريب شواطئ ايطاليا واسبانيا الا أن المهادنة التى انعقدت بين هذين الخصمين وجهت قواه البحرية على جمهورية البنادقة فدخلت الدونتما العثمانية التى كانت تحت قيادة بربروس فى الارخبيل واستولت على عدة جزائر للجمهورية من جملتها جزائر سقيروس وبتموس وستمپالة وبروس واضطرت البنادقة الى تركها لتحصيل الصلح

وفى هذا الوقت ارسل السلطان سليمان فرقة من الجيش المعد لقتال شرلكان الى شواطئ بلاد العرب لمنع فتوحات البرتوغال فان السلطان سليمان كان يبغض هذه الامة التى كانت قد أفقرت مصر بتملكها على تجارة المشرق وكانت علمت العجم استعمال الاسلحة النارية وفن سبك المدافع فاستولى العثمانية على ممالك عدن وسبيته وكبايه فى اليمن

وكان السلطان سليمان محتاجا الى أن يأتى له خبر هذه الفتوحات ليزول عن باله مصائبه الماضية وتخف عليه الاحزان الجديدة التى كان ينغص عليه بها مصيبتان جديدتان وذلك انه فى سنة ١٥٣٩ حصلت حريقة فى القسطنطينية احترق بها نصفها تقريبا ووقع فى هذه السنة تخريبات مهولة بالطاعون فى هذه المدينة التى يوجد فيها دائما بعض آثار منه فتعطلت اشغال السلطان الحربية باهتمامه فى جبر هذه النكبات الا انه فى سنة ١٥٤٠ جرد ثانيا الى بلاد المجار موت يوحنا زابولى وترجى الملكة ايليزابيطة حيث كانت تطلب حمايته على فرديننددوستريه (راجع الفصل الاول من هذا الباب) فترتب عن هذه التجريدة ازدياد سطوته وتلويث فخاره فانه جرد ابن زابولى عن مملكته وهو صبى متضرع كان السلطان اتى لاعانته فنفاه فى بلاد الاردل لاجل أن يجعل هذه الامارة تابعة للدولة العثمانية ولم يعبأ باعراضات فرديننند ولا بتهديداته ومجهوداته وعاد الى القسطنطينية بعد ان جعل معظم بلاد المجار من ضمن اقاليم الدولة العثمانية

وفى سنة ١٥٤٢ حضر له ارسالية جديدة من طرف فرنسيس الاول

فسبح لهذا الملك باعانات جديدة على شرلكان فسافر بربروس فى فصل الربيع سنة ١٥٤٣ بدونمانبلغ مائة غراب وعشرة وانضم فى مرسيليا الى دونما فرنسيس الذى كان يقودها دوق انجيان وساعد هذا الامير فى اخذ مدينة نيسة ونهبها قهرا عن الفرنساوية ثم ركب سفنه ورفع اهلابها وعاد الى القسطنطينية

وفى سنة ١٥٤٥ عقد السلطان سليمان هدنة مدتها خمس سنوات مع فرديناند دوستريه بشرط أن هذا الامير يبايعه بالتبعية ويدفع له جزية سنوية قدرها ٣٠٠٠٠ دوقة (وهو نوع من النقود)

وكان جميع اهل الارض ترتعد فرائصهم من اسم سليمان ومع ذلك فكان هذا السلطان فى اسر امرأة فان روكسلانة المخادعة كانت قد استمالت قلبه فعتقها ورقاها الى اقصى منزلة وجهزها حتى انه عقد عليها وتزوجها مع ان الزواج الى ذلك الوقت كانت تأباه نفوس السلاطين العثمانية للمعاطى اللاتى تشرفن بخيرة ساداتهن اهن ولم تكتف روكسلانة بذلك فانها كانت قد رزقت منه بثلاثة اولاد وهم سليم وبايزيد وزياغير فارادت أن تثبت كرسى بيزانطة (اى القسطنطينية) لاحد اولادها الا ان السلطانة يوسفرونة التى قامت مقامها فى المنزلة روكسلانة كانت هى اول من ولدت لسليمان ولدا وهو الامير مصطفى فكان هذا الامير زيادة عن كونه له الحق فى التقدم لكونه البكرى يحبه الاهالى والعساكر فلما كانت حياته مانعة لاغراض روكسلانة عزمت على اهلاكه

وكان الحاذق ميرزا اخو الشاه طهماس قام عليه وخرج عن طاعته فلما اهزم وتجرد عن اقطاعاته اتى الى القسطنطينية ليبحث له عن ملجا فيها فلاجل أن تعود روكسلانة زوجها على التفاقم والشقاق المنزلى حملته على أن يكون من حزب هذا الامير وعلى أن يحارب ملك العجم سنة ١٥٤٨ فاستمر هذا الحرب عدة سنوات بدون أن يحصل فيه حوادث شهيرة الا أنه كان فرصة لاجراء الامور المهولة التى كثيرا ما جعلتها قساوة

السلطان

السلطان منظرا للعالم

وذلك ان روكسلانة والصدر الاعظم روستان كانا متعصبين على الامير مصطفى فلاجل أن يجعلاه مبغوضا عند ابيه اخذا فى المبالغة فى فضله ومعارفه فكان كل من فى السراية لا يتكلم الا فى فضائله وعلو همته فداخلت الكراهة مع الغيرة منه قلب السلطان سليمان وفى سنة ١٥٥٣ سافر روستان يقود جيشا ووقف على ثغور الشام مظهرا الرعب والفزع واخبر سيده أن العساكر قد خودعت وانها تطلب مع الصياح العظيم مجىء الامير مصطفى وان حضور السلطان هو بمفرده الذى يمكنه اخماد نار هذه العصبة التى يخشى منها على كرسيه بل ويمكن أن يخشى منها على حياته فلما وصل السلطان سليمان الى المعسكر امام حلب بعث امرا الى ابنه بقصد أن يحضر ليبرئ نفسه فبادر الامير مصطفى بالامتثال الى الامر وان كانت قلوب اصحابه تحس من قبل باضراره ومع ان زياغير كان ابن روكسلانة الا انه كان يحب اخاه بالكلية فعزم على مصاحبته وحضرا امام صيوان السلطان فادخل الامير مصطفى وحده ففى الحال انقض عليه اربعة من الخرس وقتلوه امام ابيه بخنقه بالحبل المشؤوم واعقب هذا القتل امر ليس دونه فى الحزن وذلك ان السلطان سليمان لم يعبأ بسخط الجيش فالقى امام صيوانه جثة الامير مصطفى التى كانت لم تزل تطرب فلم يمكن لزياغير أن يتحمل هذا المنظر البشع فطعن نفسه بالخنجر مما حل به من اليأس والقنوط وهذا شاهد غريب على بذل مهجة الاخ لاخيه فى تواريخ الدولة العثمانية وكان للامير مصطفى ولد يسمى ابراهيم كان يتربى فى مدينة بروزة فلم تسمح نفس روكسلانة بابقائه حتى يبلغ اشده ويأخذ بثار أبيه فالحقته بابيه فى القبر فلما صارت هذه السلطانة غير محتاجة لحرب العجم حصلت المشارطة فى الصلح مع الصفوى (اى شاه العجم) وعاد السلطان سليمان الى القسطنطينية سنه ١٥٥٤ لكنه رجع اليها مع الحزن الشديد الذى لم يخففه عنه فتوح ولاية تمسوار التى ادخلها فى هذا الوقت تحت الطاعة رؤساء عساكره

الا تخفيفا قليلا

وكان ينتظره ايضا احزان جديدة وذلك انه كان باقيا لروكسلانة ولدان الا ان ميلها لبايزيد وهو الاصغر كان اكثر فلاجل أن ترقيه الى سرير الملك عزمت على هلاك ابنها الامير سليم والسلطان سليمان زوجها فكان لاحد مماليك ابنها مشابهة بالامير مصطفى فعلمه بايزيد على مقتضى ما اشارت عليه امه بأن يتزيا بزى ابن يوسفرونة (اى الامير مصطفى) فجعلته روكسلانة واسطة فى احداث الفتن والتعكرات متعشمة أنها تنتفع من ذلك وتهلك واسطة طمعها (وهو المملوك) عند اقتضاء الحال فجمع هذا الكذاب باعانة اسم مصطفى الذى كان مسمى به وباموال بايزيد بعضا من العساكر وتجاسر على القرب من القسطنطينية الا انه هزمه الوزير احمد وقبض عليه واخذ فى تعذيبه لاجل الاقرار وان كانت روكسلانة ارسلت له اوامر سرية بالاعراض عن ذلك فأقر بذنبه وبشريكه فى الذنب ولو كانت امرأة غير روكسلانة لكانت ترتعد فرائصها على ابنها الجانى الان هذه المرأة كانت متسلطنة على شيخوخة السلطان سليمان باستيلائها على عقله فنال بايزيد العفو عنه وزيادة على ذلك صار الوزير احمد فريسة لانتقام هذه السلطانة لكونه خيب مقاصدها فخنق بالتعلل عليه بالاختلاس

وكان ذلك آخر ذنب روكسلانة فان هذه المرأة الطماعة الجاحدة لحسن الصنيع ماتت بعد ذلك بقليل وحزن زوجها عليها العماء قلبه مع أنها كانت عزمت على هلاكه

فلما حرم بايزيد من هذا الظهير وكان متحققا من أن السلطان سليمان يفضل عليه الامير سليم وانه يترتب عن قتله تولية اخيه قصد محه فلما خاب مسعاه فى هذا الغرض الذى هو من باب الجحود سلك مسلك القهر والقوة الا انه حقت عليه الهزيمة بقرب مدينة انغنيوم وبحث له عن ملجأ فى بلاد العجم عند عدو أبيه وملته (وهو الشاه طهماس) فخشى هذا الشاه من ملاقاته بحسن القبول فطوقه بالسلاسل والاغلال ووضعه فى السجن ولحقه فيه انتقام

السلطان

السلطان لشدة غيظه وغضبه فانه ناط الجبين باوامره السرية فذهبا وخنقا بايزيد فى سجنه وشاركه اولاده الاربعة فى نفيه واسره فان السلطان سليمان لما كان متعودا على أن لا يفرق بين المذنب والبرىء ادخلهم فى حكم ابيهم فامر بخنقهم بعده وكان ذلك سنة ١٥٥٩

وفى مدة ما كان السلطان سليمان يخفى فى السراية الغم والحزن الذى لحقه فى شيخوخته من التعكرات المنزلية اكتسبت الاعلام العثمانية الرونق بنصرة فاخرة

وذلك ان شرلكان كان قد اعطى لشوالرية رودس جزيرة مالطة ومدينة طربلس على شاطئ افريقة وكان العثمانية قد سلبوا منهم هذه المدينة سنة ١٥٥١ وكان دراغوث وارث بربروس فى المهارة والشهرة يحكم فيها سنة ١٥٦١ نيابة عن السلطان سليمان وبينما كان الامر كذلك اذ الرئيس الاكبر يوحنادولاويليتة حمل فيليبش الثانى خليفة شرلكان على أن يضم سفنه وعساكره الى قوى الدين لاسترجاع طرباس فلما بلغ السلطان الاخطار التى كانت متعرضة اليها هذه المدينة المهمة بادر بسفر خمسة وثمانين غرابا يقودها پيالى پاشا ففاجأت هذه الدونما العثمانية النصارى الذين لحقهم الرعب والفزع من هذا الهجوم الغير المنتظر فهلك اكثر من اربعة عشر ألفا بدون قتال تقريبا واخذوا آلوفا اسرا وتزين ظفر پيالى پاشا بثمانية وعشرين غرابا كانوا مجرورين خلف العثمانية بدون ادوات ولا مجاديف

وقد بادرت الدونما المنصورة بالاقلاع وتوجهت على جزيرة مالطة وذلك ان سبعة اغربة من سفن الدين كانت تغلبت بين مدينتى زانتة وسفالونية على سفينة كبيرة تسمى غليون السلطانات كانت ذاهبة الى مدينة البندقية لتستبدل بضائع المشرق الثمينة بمحصولات حرف اوروبا فاخذ جميع اهل السراية وطائفة العلماء يطلبون الانتقام فى نظير هذا التعدى واقسم السلطان سليمان على تخريب مالطة وابادتها وناط أربعين ألفا من

الانكشارية بتجهيز ذلك الان لوالينة وشواليرته استماتوا بالله وسيوفهم وحيث ان هذا الرئيس الاكبر كان معادلا فى الشهامة للبل ادم واوبوسون ومن يشبهه دافع مدة خمسة اشهر جميع مجهودات العدو مع الثبات الذى هو من شأن الابطال وقصارى الامر لما حضر امداد كان قد بعث به من سيسليا اضطر العثمانية الى رفع الحصار الذى بذلت فيه مهج ثلاثين ألف رجل تقريبا وداغوست سنة ١٥٦٥ فانتقم السلطان سليمان من المجار فى نظير ذلك فان مكسمليان الثانى قد خلف فرد يننداالاول على كرسى ايمپراطورية المغرب وضم مثل ابيه تاج المجار الى تيجان القياصرة فاستمان اصطفان زابولى ثانيا بحماية الدولة العثمانية الان باشا بودة الذى كان قد ارسل لاعانته اضطر الى رفع محاصرة مدينة زيغث وفى هذه التجريدة المشؤومة كانت مجهودات رؤساء عساكر السلطان من قبيل الخزى والهزيمة فلاحظ أن الجيوش لا تنتصر الا وهو يقودها فاراد أن يحضر فيها ويظفر وعمره ست وسبعون سنة فهجم على مدينة زيغث مع مائة وخمسين ألف رجل كان يعضدهم مدافع مهولة سنة ١٥٦٦ وكان القائد فى هذه المدينة قونتة سيرين فاقسم مع المحافظين ان الاولى اهم الهلاك عن التسليم وقد وفى بكلامه فجميع المجار قتلوا ما عدا اربعة وفى مدة ما كان هؤلاء الحربيون الكرام يخلدون ذكرهم بالقتل الفاخر مات منصورهم فى صيوانه من شدة الغيظ الذى لحقه من مقاومتهم فى ثلاثين يوما من شهر اوغسطوس سنة ١٥٦٦ فاخفى الوزير محمد هذا الامر على العساكر واخبر الامير سليم الذى كان فى ايقنيوم بذلك فبعد أن بويع له فى القسطنطينية توجه حتى وصل الى بلغرادة وفيها اعلن بموت السلطان

وكان السلطان سليمان معاصرا لملكين عظيمين ولم يكن دونهما فانه كان فى الحرب يعادل فرنسيس الاول فى الشهامة وكان لصفيه اوفرحظ وكان فى السياسة متبحرا كشرلكان فانه كان يعرف مثله الرجال ارباب الفضائل

الذين هم

الذين هم في العادة محفل الملوك الفخام ويستجلبهم او يحدث اناسا ارباب فضل عند عدم وجودهم فكان عنده وزراء ومعاونون يليقون بشأنه حيث ان ايامه تشرفت بابراهيم ويبلي باشا وبربروس ودراغوست وهذا السلطان شهرته في التشريع كشهرته في الشجاعة فان الدولة كانت قبله تعتبر أنها مطلقة التصرف فبين حدود الوظائف المختلفة وعين درجاتها واقترحه وفق آخر رعية من رعاياه وجعل نفس هذا الانتظام والعدالة في ادارة المالية واستعمال ايرادات السلطنة وكان لكل غرام مفتش بالخزندارية فلاجل أن يجبر السلطان سليمان الخلل ويمنع الاختلاس امر ان المبالغ يؤتى بها مباشرة الى خزينة الدفتردار الخارجية ومنها تخرج لدفع جماكي العساكر وارباب وظائف الدولة وترتب ان مابقي ينقل الى الخزينة الداخلية لمصاريف السراية وتكاليف منزل الملك الجهادي والملكي وتكاليف البستان والسراية

وكان كل من السلطان مراد الاول ومراد الثاني ومحمد الثاني وسليم الاول قد حموا العلوم وسعوا في احياء ايام الآداب العربية المظلمة وكانوا قد آسسوا عدة مدارس كان يتعلم فيها الشبان الذين هم من اهل اليسار والغناء النحو والاعراب والمنطق والبيان والتوحيد والفلسفة والفقه والقرآن وشروحه والاحاديث النبوية وكانت المكاتب العمومية مفتوحة لاولاد الفقراء الذين كانوا يتعلمون فيها مجانا القراءة والكتابة ومعرفة دينهم لاسيما كانت تحسن تربية الايج اوغلان وهم صبيان معدون لان يشغلوا ذات يوم مناصب الدولة وهم اولاد نصارى الذين يؤسرون في الحرب او يؤتى بهم في نظير الخراج وكانوا يتربون تربية عامة كما ينبغي في المدارس الثلاثة وهي مدرسة بيره وادرنه والسراية وكان يخرج منها ايضا في سن الاربعين سنة الباشوات وضباط السلطنة العظام فابقى السلطان سليمان هذه المدارس واتقنها

لكن وقع منه خطأ كانت عواقبه مشؤمة على الدولة العثمانية فانه من منذ تأسيسها كان الامراء الذين هم من نخذ السلطنة يقودون الجيوش ويحكمون

الاقاليم التى كانت اقطاعاتهم وكانوا فى الغالب يتجاوزون حدود شوكتهم ليقاتل بعضهم بعضا ويقاوم الشوكة السلطانية وفى بعض الاحيان ليفتاتوا عليها فأمر السلطان سليمان الذى اضطر الى أن يفعل مع عائلته افعالا مهولة تكون عبرة لمن لم يعتبر بانه من الان فصاعدا لا يكون مع اولاد السلاطين ولايات ولا يقودون الجيوش فبهذا القانون الخالى عن السياسة الذى جهز رؤساء جبناء لملة حربية ظن أنه يمنع الى الابد قيام العساكر بابعاد الامراء الذين يحثون على العصيان او يعينون عليه لكن بدون أن يتدارك الضرر الذى كان يخشى منه نتج منه ضرر اعظم من ذلك فان اولاد السلطان حيث انهم نشؤا فى ظلال السراية بعيدين عن المعسكرات وعن قرقعة الاسلحة زالت عنهم عوائد اسلافهم الحربية وبعد أن كانت الدولة العثمانية مؤسسة على الفتوح اخذت فى الانحطاط والسقوط

وقد تم تهذيب الجزء الاول من هذا الكتاب وتنقيحه * ومقابلته بقدر الامكان وتصحيحه * على يد مصطفى افندى سيد احمد احد مترجمى قلم الترجمة * وقد صحح الشيخ محمد قطة العدوى معظمه * وذلك بملاحظة ناظر قلم الترجمه ميرالالاى رفاعة بيك احسن الله لجميع احوالهم * وختم بالصالحات اعمالهم *

وكان تمام طبعه بدار الطباعة الباهره * الكائنة ببولاق مصر القاهره *
فى اواخر جمادى الاولى سنة ست وستين بعد الالف والمائتين *
من هجرة فخر الثقلين وأمام القبلتين * صلى الله وسلم عليه
وعلى آله * وعلى صحابته والتابعين على منواله *

تم